الجمعية الخيرية الإسلامية

الفكر الإسلامي المعاصر

محاضرات الجمعية الخيرية الإسلامية

فى موسميها الثقافيين ٩٤/ ٩٥، ٩٥/ ١٩٩٦

المحاضرون

- المستشار عبد الحليم الجندى
- الدكتور أحمد شلبى
- فضيلة الشيخ محمد الغزالى
- الإمام الأكبر الدكتور سيد طنطاوى
- الدكتور أحمد هيكل
- الدكتور محمد إبراهيم الفيومى
- الدكتور عبد الصبور مرزوق
- الدكتور أحمد كمال أبو المجد
- الدكتور محمد عمارة
- الدكتور منصور حسب النبى
- الدكتور محمد حلمى مراد
- الدكتور مصطفى الشكعة
- الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

إعداد اللجنة الثقافية بالجمعية، إشراف المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

أضواء على مسيرة الجمعية الخيرية الاسلامية

•• قامت الجمعية الخيرية الاسلامية فى اكتوبر سنه ١٨٩٢ ، كرمز للتصدى للاحتلال البريطانى عقب هزيمة القائد الوطنى أحمد عرابى فى معركة التل الكبير سنه ١٨٨٢ ، وذلك من خلال الاصلاح الاجتماعى بالجهود الذاتية ، اذ لولا ضياع وتخلف الشعب ما تمكن منه المستعمر .

•• من بين مؤسسيها الأوائل : ابراهيم باشا رشدى ، وأحمد بك حشمت ، وحسن بك عاصم ، والشيخ محمد عبده ، وسعد افندى زغلول ، وقاسم افندى أمين .

•• الذى قدم مشروع لائحة الجمعية فى ٢٩ اكتوبر سنه ١٨٨٢هو سعد زغلول " افندى " ، محددا الغرض من الجمعية بأنه رعاية فقراء المسلمين من خلال النهوض بهم تعليميا وأجتماعيا ، بسبب اهمال هذين الجانبين الأساسين فى ظل الاحتلال البريطانى ، وفى مقابل عشرات الجمعيات الخيرية التى كانت ترعى أحوال الملل الأخرى ومختلف الجاليات الاجنبية .

•• ونصت لائحة الجمعية ، على أن يكون اشتراك العضوية السنوى مبلغ جنيهين ، وكان يمثل وقتئذ تبرعا حقيقيا للعضو ، اذ كانت قيمة الفدان تترواح ما بين ٢٥جم و ٣٠ جم .

•• تتكون موارد الجمعية من تبرعات الأهالى وما أوقفه الخيرون لصالحها ، قديما فى صورة أطيان زراعية وعقارات مستغله ، وحديثا فى صورة شهادات استثمار وودائع استثمارية .

•• عندما قرر مجلس ادارة الجمعية فى ٢٥ مايو سنه ١٩٢٧ ، اقامة مشروع ضخم لمستشفى متكامل بأرضها بالعجوزة ، يتسع لنحو ٢٠٠ مائتى سرير ، قدرت تكلفته فى ذلك الوقت بمبلغ مائه وخمسة وثلاثون الف جنيه ، فى حين لم يتوافر للجمعية سوى مبلغ ثمانية واربعون ألف جنيه . قبل المقاول محمد حسن العبد ، أقامة المستشفى بالمبلغ الذى دبرته الجمعية ، وتبرع بباقى التكلفة . ضاربا المثل والقدوة بفعل الخير ، وهو ما نرجو ان تتكرر صورته فى مشروعات الجمعية الضخمة . خاصة مشروعها لكفالة اليتيم ودور المسنين بأرض الجمعية بالمعادى .

•• تعاقب على الجمعية من رؤساء مجالس اداراتها خلال مائه عام ، سبعه عشر رئيسا. أبرزهم الإمام الشيخ محمد عبده . والامام الأكبر مصطفى المراغى ، والامام الاكبر الشيخ مص[illegible] عبد الرازق . وأحمد لطفى باشا السيد . والدكتور عبد الحميد باشا بدوى ، وطراف باشا ع[illegible] ومصطفى باشا الصادق . والمهندس أحمد عبده الشرباصى ، والدكتور نور الدين طراف ، و[illegible] المستشار محمد صادق الرشيدى منذ سنه ١٩٨٠ وحتى اليوم .

● الطبعة الأولى ● الناشر : الشرق الأوسط للثقافة والإعلام ت : [illegible]

الجمعية الخيرية الإسلامية

الفكر الإسلامي المعاصر

محاضرات الجمعية الخيرية الإسلامية
في موسميها الثقافيين ٩٤/ ٩٥، ٩٥/ ١٩٩٦

إعداد اللجنة الثقافية بالجمعية، إشراف المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري

● الطبعة الأولى ● الناشر: الشرق الأوسط للثقافة والإعلام ت: ٨٣٨٧٥٢

١٥٤١٧٢ / ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ المستشار محمد صادق الرشيدى

رئيس مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية

يسر الجمعية الخيرية الإسلامية ان تقدم هذا الكتاب مشتملا على مجموعة المحاضرات التى القاها بقاعة محاضرات الجمعية (قاعة محمود محمد محمود)، قمم من علمائنا ومفكرينا فى **موسميها الثقافيين** ١٩٩٤ / ١٩٩٥ و ١٩٩٥ / ١٩٩٦ .

وبالرغم من أنه ترك لكل محاضر ، حرية اختيار موضوعه ، إلا أننا لاحظنا أنها تجمعها رابطة واحدة ، وهى تعبيرها عن الفكر الإسلامى المعاصر ، وهو ما رأينا ان يصدر به عنوان هذه المحاضرات ، باعتبار ان الكتاب يقرأ من عنوانه ، ولا يسعنى فى هذا المقام ، إلا أن أوجه عميق شكرى للساده المحاضرين لمساهمتهم

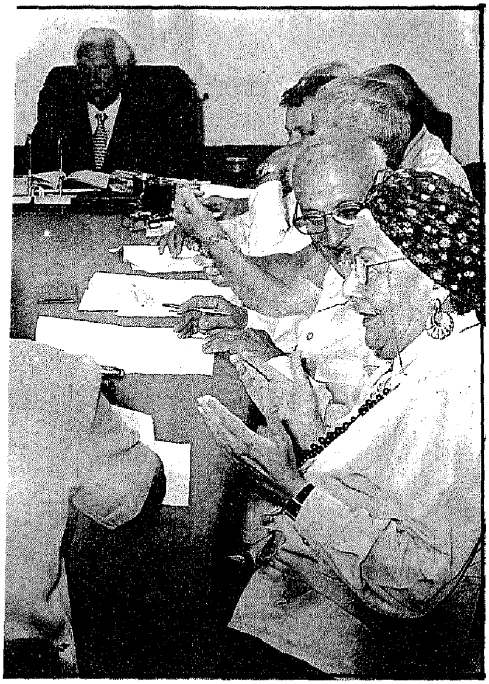

مجلس الإدارة بجلسته المنعقدة ٣٠ يونيو ١٩٩٦ برئاسة السيد المستشار محمد صادق الرشيدى ، وعلى يسار الصورة السيد / المستشار رشاد المراغى ، والدكتور بهاء فائق والسيدة / ليلى بهى الدين بركات ، والدكتور محمد الشحات الجندى ، والمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى والأستاذ سعيد صالح .

على يمين الصورة : السيدة / سامية زكى ، الأستاذ محمود الخولى ، السفير حسن ابراهيم عبد الهادى ، الدكتور ابراهيم سليمان عيسى ، الوزير / احمد على كمال .

الفعالة في احياء الموسم الثقافي للجمعية ، وأن هذا الكتاب هو فضل عليهم ، وهو منهم ، واليهم .

وقد رحل عنا أحد المحاضرين ، وهو **فضيلة الامام الشيخ محمد الغزالى** ، رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه الله خير الجزاء عما قدمه لأمته من عطاء فكرى وكفاح مجيد .

كما أسعدنا تولى أحد المحاضرين ، وهو **فضيلة الأستاذ / محمد سيد طنطاوى** ، مشيخة الازهر الشريف ، سائلين الله تعالى للامام الاكبر السداد والتوفيق فى اداء رسالته وأن ينتم على يديه كل نفع للاسلام والمسلمين .

هذا وأن صدور هذا الكتاب ، هو أحد مظاهر إحتفال الجمعية بعيدها

المنوى ، فقد نشأت فى أخر أكتوبر سنة ١٨٩٢ . وذلك كرد فعل للاستعمار البريطانى الذى قلص ميزانية حكومة مصر فى الانفاق الاجتماعى . كما اختصر التعليم وجعله بمصروفات ولتخريج موظفين للحكومة . فقامت الجمعية الخيرية الإسلامية ، وعلى رأسها **الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وطلعت حرب ، وقاسم أمين ، وحسن عاصم** وغيرهم من كبار رجال مصر ، بجمع فضول الاغنياء لتردها على الفقراء ، ولتقيم المدارس المجانية ذات التوجه الإسلامى والحرفى ، وتحمل لعدة عقود عبء المساعدات الاجتماعية وعبء التعليم المجانى نيابة عن الحكومة المصرية المغلوبة وقتئذ على أمرها بفعل الاستعمار البريطانى .

وهكذا نشأت الجمعية الخيرية الإسلامية منذ أكثر من قرن ، كرمز

لحركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر ، وكنموذج إسلامى حى على

قدرة المخلصين وبجهودهم الذاتية ، وبعيدا عن السياسة والحكم ، فى إنجاز أضخم المشروعات : والتى تمثلت وقتئذ فى مدارس الجمعية المجانية المنتشرة بجميع أنحاء القطر ، ومستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية الضخم بالعجوزة ، ودور المسنين ، ومراكز العلاج الطبيعى ، ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم ، والاعانات المالية للأسر الفقيرة .

وبقدر ما قدمت الجمعية الإسلامية من خدمات ملموسة منذ إنشائها فى أواخر اكتوبر سنة ١٨٩٢ ، وطوال مائه عام وحتى اليوم ، بقدر ما أعطاها المواطنون من ثقة وتقدير ، فانهالت عليها التبرعات الصغيرة والكبيرة كل بقدر ما وسعه . بل تجاوز البعض مرحلة التبرعات العارضة إلى مرحلة الوقفيات الدائمة لاراضيهم الزراعية أو عماراتهم أو الاوراق المالية المملوكة لهم ، وذلك ليضمنوا للجمعية عائدا منتضما مستمرا يطمئنهم على استمرار خدماتها الخيرية .

هذا والجمعية اليوم بصدد اقامتها لمشروع خيرى جديد يقام على سبعة آلاف متر مربع أعطتها لها الدولة بالمعادى ، لاقامة دار للمسنين وأخرى لكفالة اليتيم ، مما يقدر تكلفته بنحو عشرة ملايين جنيه . وندعو بهذه المناسبة مواطنينا الكرام وإخواننا بالعالم العربى وامتنا الإسلامية . التبرع لهذا المشروع على حساب الجمعية رقم ٩ / ٢ بنك مصر - فرع السيدة زينب .

والله الموفق .

محاضرات الموسم الثقافي

١٩٩٤ / ١٩٩٥

إسم المحاضر	إسم المحاضرة
• الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى	دور الجمعية الخيرية الإسلامية فى بناء مصر وإقامة المجتمع الإسلامى
• فضيلة الإمام الشيخ محمد الغزالى	الإسلام والثقافة العربية فى عالمنا الجديد
• الأستاذ الدكتور أحمد هيكل	نحو ثقافة بناءة
• الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق	مفهوم الخيرية والدور المفقود لأمة الإسلام
• الأستاذ الدكتور محمد عمارة	منهج الإمام محمد عبده فى تجديد الدنيا بتجديد الدين
• الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد	عوامل نهوضنا الاقتصادى بين تجارب الماضى وتطلعات المستقبل فى ضوء التوجه الإسلامى
• الأستاذ الدكتور أحمد شلبى	المرأة وماذا قدم الإسلام لها
• فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى	حديث القرآن الكريم عن العلم والعلماء

المحاضرة الأولى

دور الجمعية الخيرية الإسلامية في بناء مصر وإقامة المجتمع الإسلامي

للأستاذ المستشار عبد الحليم الجندي

١٠ أكتوبر ١٩٩٤م

٥ جمادى الأولى ١٤١٥هـ

جانب من الحضور

فضيلة الامام الراحل الشيخ محمد الغزالي والمستشار جمال اللبان رئيس قضايا الدولة .

على المنصة : المستشار محمد صادق الرشيدى والمستشار عبد الحليم الجندى والمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم :

يسعدنى أن أفتتح الموسم الثقافى للجمعية الخيرية الإسلامية بمحاضرة استاذنا المستشار عبد الحليم الجندى ، ذلك الموسم الذى بدأ من شهر أكتوبر ١٩٩٤ ، وينتهى ان شاء الله فى شهر مايو سنة ١٩٩٥ ، بواقع محاضرة فى يوم الاثنين الثانى من كل شهر . وانه طبقا لقرار مجلس إدارة الجمعية تكون المحاضرة فى نحو ساعة ، يعقبها ندوة مناقشة فى نحو ساعة للاستفادة من المحاضرة . وان هذه المحاضرات ، ستصدرها الجمعية فى كتاب مستقل ، يكون مساهمة منها فى مجال التوعية والتنوير ، وهو مجال من أهم التزامات الجمعية الخيرية الإسلامية منذ نشأتها فى أداء رسالتها من حيث الأخذ بيد المواطن وتحقيق تقدمه ماديا ومعنويا .

بالنسبة لمحاضرنا استاذنا المستشار عبد الحليم الجندى ، فهو كما تعلمون رئيس هيئة قضايا الدولة الأسبق ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية ،

أى هيئة كبار العلمـاء . ولكنـى هنـا بصـدد تقديمـه – وهـو غنـى عـن التقديـم والتعريـف – أركـز على صفتيـن أساسيتين لأستاذنا المستشار عبـد الحليـم الجندى **أولاهما** : انه شيخ المحامين و**ثانيهما** : انه عالم فقيه موسوعى .

أما عن كونه شيخ المحامين :

فقد عمل محاميا حرا عشر سنوات فى الفترة من سنة ١٩٢٨ حتى نوفمبر سنة ١٩٣٧ حيث عين وكيلا للنائب العام ، ثم فى سنة ١٩٤٠ انتقل إلى هيئـة قضايا الدولـة ، وظـل يتدرج بهـا حتـى صـار رئيسـا لهذه الهيئـة فـى سـنة ١٩٥٦ ، وظل فى رئاستها حتى بلوغه سن الستين فى سنة ١٩٦٨، فعاد إلـى المحاماه الحرة حتى عهد قريب . فهو بحق شيخ المحامين ، واذكر اننى كنـت فى لقاء مع استاذنا المرحوم فتحى رضوان وكان يفتخـر بانـه شـيخ المحـامين فقلت له وأين عبد الحليم الجندى ، فقال : نعم إنه شيخ المحامين .

ولقد أصدر محاضرنا كتابه (نجوم المحاماه فى مصر وأوربا) أبـرز فيـه نقطة اساسية وهى قوله (**أن القضـاء لايكـون عظيمـاً إلا إذا كـانت المحامـاة عظيمة ، ولاتكون المحاماه عظيمة ، إلا إذا كان القضاء عظيماً**) . وهو فـى كتابه المشار إليه يذكرنا بكلمة عبد العزيز (باشا) فهمى الذى عمل بالمحاماه وشغل رئاسة محكمة النقض من حيث ترجيحه وتقديره لعناء المحامى باعتبار (**أن المحامى مبدع فى حيـن أن القـاضى مرجـح**) ... واسـتاذنا عبـد الحليـم الجندى يضع الأمور فى نصابها بقوله (أنظر كيـف تصـدر الأحكـام فـى أيـه أمـة تعـرف مقـدار حضارتهـا) مؤكـدا بأنـه (إذا كـان التوحيـد هـو أسـاس الإسلام ، فإن العدل هـو جمـاع الإسـلام ، بـه اسـتقر واسـتمر وانتشـر ، وان سيادة القانون تعنى فى جوهرها سيادة القضاء) .

اما عن أنه عالم فقيه موسوعى :

فان لاستاذنا عبد الحليم الجندى تحديدا عدد ٢٠ (عشرون) مؤلفا ، يتضمن كل مؤلف إجتهادات واضافات جديدة ، وتشكل موسوعه اسلامية متكاملة .

وأركز هنا على مؤلفه " **القرآن والمنهج العلمى المعاصر** " ، والذى دلل فيه ان المنهج العلمى المعاصر الذى نسب بعضه الى المفكر الانجليزى فرنسيس بيكون فى القرن السابع عشر ميلادى إنما أخذ عن علماء المسلمين ، حيث انتقل المنهج الاسلامى الى اوربا من خلال الاندلس وصقليه ، ولكن علماء النهضة الاوربية نقلوه مجردا عن صيغته الربانية واهدافه السامية ، فكان هذا الاضطراب والتخبط الذى تعانيه ، وكان هذا القلق والصراع الذى يتجرع عالمنا المعاصر مرارته . وليس لعالم اليوم من نجاة او عزة الا بالعودة الى منهج القرآن بجناحيه التجريبى والايمانى ، او كما عبر عنه استاذنا عبد الحليم الجندى بجناحيه (**التوقيفى والتوفيقى**) ، أو ما عبرت عنه فى كتابى (جدلية الإسلام) بمصطلح (**التسليم بالغيبيات والتجريب فى المحسوسات**) . وان ما نطالب به اليوم هو تصحيح المسار الحضارى كما يقول استاذنا عبد الحليم الجندى من " **حضارة الأشياء** " أو المادة إلى " **حضارة الإنسان** " بجناحيها المادى والروحى ، وهو ماعبرت عنه بكتابى جدلية الإسلام بمصطلح (**العبودية لله والسيادة على الأرض**) .

وبعد هذا التقديم الموجز ، يتفضل استاذنا عبد الحليم الجندى ليحدثنا عن ذكرياته عن الجمعية الخيرية الإسلامية ودورها فى بناء مصر وإقامة المجتمع الإسلامى .

محاضرة الأستاذ المستشار / عبد الحليم الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

لمصر فى طول التاريخ المدوّن أيام عظيمة ، تتجمع فيها قوى التاريخ العريق الذى إزدهرت فيه الحارات وتتابعت مواقفها المشرفة فى إنتشار الرسالات وابداعات العلوم ، وخدمة السلام ، ووثاقة الصلات ، بقارات العالم المعروفة منذ القدم فى آسيا وأوربا وأفريقيا . وفى الألف الأخيرة من عمر العالم ، رفع الأزهر الشريف منارة العلوم الإسلامية ليقدمها كاملة فى العصر الحديث إلى الأمة العربية وشعوب الإسلام .

وفى تقرير لمجلس الشورى سنة ١٩٨٦ عن **(موضوع مصر والعالم العربى)** أجملت لجنة الشئون العربية والخارجية والأمن القومى البيان فى هذا الشأن ، نقتطف بعضا من فقراته :

" حدد دستور جمهورية مصر العربية فى الفقرة الثانية من المادة الأولى أن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة . ومن هنا تصبح الدائرة العربية فى الدائرة الأولى للعمل السياسى المصرى ، ولم يكن هذا التحديد نوعا من الاختيار التحكمى أو الاجتهادى ، بل كان تعبيرا عن حقائق موضوعية وتاريخية وحضارية واستراتيجية صلبة ، وكذلك عن مصالح حيوية ومصيرية مشتركة لكل من مصر والعالم العربى . فإن وطنها العربى الكبير من الخليج إلى المحيط هو أول الثوابت الشوامخ في هوية الانسان المصرى منذ فجر التاريخ " .

" وقد أخذت هوّية الإنسان المصرى فى الوضوح حين عرف عروبته وأصالته فيها . وأن أجداده الذين شيدوا منذ آلاف السنين أول حضارة انسانية متكاملة ... هم عرب وفدوا من الجزيرة العربية منذ آلاف السنين وذلك على

صورة موجات بشرية متواصلة كفلت لمصر ومعها أرض الوطن العربى ، دماء عربية ، طاهرة ، نقية ، زكية ، منذ أقدم السنين ترجع إلى سنة ٥٢٩١ قبل الميلاد .. "

" وغدت مصر منذ فجر الإسلام وثيقة الارتباط بنبع العروبة ليس من ناحية النسب فحسب بل من ناحية العقيدة ، واللغة كذلك ... وظهرت رسالة مصر **بإعتبارها درع العروبة والإسلام** ، فى أجلى صورها حين حملت الجيوش المصرية أمانة الدفاع عن العروبة ضد الصليبيين ، وأنزلت بهم هزيمة فادحة فى حطين . كذلك حين تابعت الجيوش المصرية أمانة الدفاع عن الوطن ضد غارات المغول ، وأنزلت بهم هزيمة فادحة فى عين جالوت " .

" وصارت مصر تحمل منذ القرن التاسع عشر **عبء البعث العربى** الذى أخذ يعيد الحياة إلى سائر أرجاء الأمة العربية ... وقد تكررت دعوة مصر إلى الصحوة العربية بالنجاح ليس لأبنائها فحسب بل لعدد كبير من أبناء البلاد العربية الأخرى . فحصلت مصر على استقلالها فى عام ١٩٢٢ ، ثم تلتها العراق ١٩٣٠ ... على أن علاقة مصر بالعالم العربى ليست كعلاقة أى جزء قطرى بالكل العربى ، بل هى علاقة لها سماتها الخاصة المستمدة من وضع مصر تاريخياً وسياسياً وثقافيا فى العالم العربى " .

وكان اسهام مصر الكبير فى تأكيد شخصية بلاد " العالم الثالث " ، فى مواجهة القوى الكبرى وتكتلاتها وتأكيد ذاتها ، إسهاما مدعما للعالم العربى ومنسوباً إليه وليس إلى مصر وحدها ... وكانت مصر هى التى بادرت بالمواجهة العسكرية ضد إسرائيل والصهيونية وتحملت أكثر من أى بلد عربى أقصى التضحيات ... وفى ربع قرن انتهى سنة ١٩٧٣ حاربت مصر حروباً أربعة فى واحدة منها جيوش ثلاثة دول ، **فدلت على أن لمصر رسالة**

عالمية ماتزال تحملها على مدى التاريخ من أجل العروبة والإسلام . ومن أجلها أيضاً كانت الجمعية الخيرية الاسلامية - وزعماؤها زعماء العالم العربى ، وهو نواة دولة الإسلام - باسهامها الضخم فى بنيان مصر عاملاً أساسياً فى النهضة العلمية والاجتماعية والاقتصادية فى العصر الحديث لكل العرب وكل المسلمين .

رجع **الشيخ محمد عبده** من منفاه تنفيذا لحكم المحكمة العسكرية الإنجليزية التى قضت بنفى الزعماء مع أحمد عرابى باشا إلى جزيرة سرنديب ، ونفى باقى الضباط وبعض العلماء إلى خارج البلاد . وأبى الخديوى توفيق عليه ان يتولى التدريس بالأزهر ، وكان من حقه أن يجلس إلى حلقة فيه ، يتلقى عليه الطلاب العلم ، ولكنه منع كيلا يمتد أثره إلى التلاميذ .

وآثر رجال القضاء أن يكون الشيخ محمد عبده واحدا منهم ، فاختارته وزارة (الحقانية) قاضيا جزئيا ، محكوما بنظام القضاء ، البعيد عن السياسة . وكان **سعد زغلول** محاميا نال تقديرا خاصا من الهيئة القضائية لكفاياته العلمية فى مهنة المحاماة ، فكانت الوزارة تستعين به بين رجالها البارزين فى اصلاح قوانينها ، ثم آثرت ضمه إلى القضاء سنة ١٨٩٢ فى وظيفة المستشار . فاجتمع الشيخ محمد عبده وتلميذه النجيب تحت مظلة القضاء ، حيث النخبة من شباب مصر ، تتولى شئون الإصلاح القضائى عائدين من بعثاتهم فى فرنسا وفى طليعتهم : حسن عاصم ، وعلى فخرى ، وقاسم أمين ، وأحمد حشمت . وكان الأولان **حسن عاصم وعلى فخرى** ، يدرسان أحوال القضاء ويجرون فى أوائل التسعينات أكبر تصفيات لرجال القضاء القدماء ليخرجوا أكبر عدد منهم ، وليقدموا لمصر طرازا جديدا من

القضاه المتخرجين من مدرسة الحقوق ، وقد حلت محلها كلية الحقوق بعد إنشاء جامعة القاهرة ، يحملون المشاعل ويدفعون كيد الإنجليز .

ولما إنتصرت انجلترا فى الحرب العالمية الأولى ذهب ثلاثة من المصريين إلى ممثل بريطانيا يطالبونه بالاستقلال عن انجلترا ، هم الباشوات سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى . ولم يكن مصادفة **أن يكون سعد زغلول** أعظم رجال القانون والقضاء فى تاريخ مصر وتاريخ المحاماه ، ولا أن يكون **عبد العزيز فهمى** نقيب المحامين الثانى (١) ، والرئيس الأول لمحكمة النقض ، فهذان اثنان من ثلاثة مثلوا مصر فى موقع مشهود فى التاريخ .

وليس مصادفة كذلك ، أن يكون الثلاثة بكاملهم ، أعضاء راسخى القدم من الجيل الذى أسس الجمعية الخيرية الإسلامية مع محمد عبده وآخرين ، والسيدة هدى شعراوى ، زعيمة تحرير المرأة زوجة على شعراوى .

وليس مصادفة أيضاً – وإنما هى التربية الصالحة – هى التى أضافت إلى المؤسسين الأولين للجمعية الخيرية الإسلامية ، حسن عاصم ، وعلى فخرى ، وقاسم أمين ، وأحمد حشمت ، والعظائم كفؤها العظماء .

كانت مصر منذ الثورة العرابية فى سنة ١٨٨١ لاتغفر للخديوى (توفيق) انضمامه إلى الإنجليز . ومن الأسماء التى أسلفناها إثنان من رجال الثورة هما محمد عبده وسعد زغلول . والأول نفّذ حكم النفى ، والثانى محام شاب حبسه الانجليز شهورا ستة ، بمجرد دخولهم مصر بتهمة تكوين جمعية لطرد

---

(١) اما النقيب الاول للمحامين فهو ابراهيم بك الهلباوى ، وهو من المؤسسين الاولين للجمعية مع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ، وعلاقاتهم ترجع الى ايام التلمذه على جمال الدين الافغانى .

الانجليز . وأثبت التحقيق الذى أجراه القاضى البلجيكى (دى هلس) براءته ، ولكن الإنجليز رفضوا إطلاق سراحه ، إلا بعد أن أمضى فى السجن ستة أشهر . وسنرى سعدا إذ عين فى القضاء يرأس دائرة فيها (دى هلس) ، والإنجليز يستبدون بالامر فى جميع الوزارات ، ولم يكن لرئيس الوزراء حول ولا طول .

وليس سهلاً على الإنجليز أن تتكون جمعية فيها هذان الرجلان ، وفيها الحسينى بك وهو محام كبير ممن شاركوا فى الثورة .

من أجل ذلك وجدنا الجمعية الخيرية الإسلامية تنشأ بالوراثة لجمعية سابقة قامت سنة ١٨٩٢ برئاسة محافظ القاهرة وأطلق عليها (لجنة أغاثة فقراء المسلمين الوطنيين) . وبدأت من فورها مباشرة نشاطها فأقامت حفلة تحت رعاية الخديو عباس الثانى فى ٦ أكتوبر ١٨٩٠م ، بلغ دخلها ١٠٦٣,٠٥٣ جنيها بخلاف ماورد إلى الجمعية من تبرعات . **وآنس مؤسسو الجمعية هذا التوفيق، فكونوا (الجمعية الخيرية الإسلامية) وجعلوها تحت رعاية الخديو ، وسنوا لها لائحة وضعها سعد زغلول ، وصدقت عليها الجمعية العمومية فى شهر أكتوبر سنة ١٨٩٢ ، وبادر رئيسها إبراهيم رشدى باشا محافظ القاهرة إلى إرسال خطاب فى** ٢١ نوفمبر ١٨٩٢ إلى ناظر الداخلية مع نسخة من اللائحة المؤلفة من ٢٢ مادة ، مع تقديم الشكر له لتشريف الحفلة السابقة ، مع الدعاء للحضرة الفخيمة الخديوية ، وطلب تحويل اللجنة السابقة لتكون هى الجمعية الخيرية الإسلامية .

ورد ناظر الداخلية ، وكان ناظر النظار مصطفى فهمى باشا ، بالإفادة بأن الجمعية نالت موافقة الخديو ، وانها تحت رعايته ، ونشر الخطاب فى الوقائع الرسمية فى ١٨٩٢/١٢/٧ .

وكان مجلس إدارة الجمعية قد إنعقد بتاريخ ٤ ديسمبر ١٨٩٢ واختار الرئيس والوكيلين وكاتم السر حسب اللائحة ، فأعيد انتخاب الرئيس إبراهيم رشدى ، باثنى عشر صوتا ، وأحمد حشمت بك باثنى عشر صوتاً ، وكاتم السر بعشرة أصوات (أما الوكيل الثانى فلم تتوفر له الأغلبية المطلقة أو تساوت الأغلبية النسبية لحضرة الشيخ محمد عبده، وحضرة حسن بك عاصم ، فاقترع بينهما فانتخب حسن بك عاصم ، بعشرة أصوات) .

ويلاحظ على محضر مجلس ادارة الجمعية ، أن حسن عاصم بك ، وأحمد حشمت بك ، صارا وكيلين وتصدرا مع الرئيس ، ترتيب الأعضاء ، وأن الشيخ محمد عبده كان فى جدول المحضر برقم ١٣ ، أعقبه آخرون تتابعوا بأرقام ١٤-١٥-١٦-١٧ وهم على بك فخرى ، ويوسف بك صديق ، وسعد أفندى زغلول ، وقاسم أفندى أمين ، وبعدهم باقى الأعضاء . ويظهر من هذا ، أن سعد وقاسم لم يحظيا برتبة البكوية بعد – وقد تعينا فى وظيفة مستشار بالقضاء فى العام ذاته ، وأن المستشارين حسن بك عاصم وحشمت بك ، كانا أقدم من سعد وقاسم فى درجة المستشار ، لكن الشيخ محمد عبده كان قاضيا .

ولعل أهم الملاحظات أن الشيخ لم ينجح ، وانما نجح حسن عاصم إذ أسعفته القرعة ، وأنه لم يتنازل للشيخ .

كما يلاحظ أن فى الحاضرين ، من لم يعط للشيخ صوته ، وهو النصف من الأعضاء ، أما الخامس والعشرون فحضر فى إبان عملية الانتخاب . ولعل انتخاب وظيفة الوكيل روعى فيه رضا " السلطات " حيث لم يكن على " حسن بك عاصم " خلاف ، فهو واحد من أساطين وزارة الحقانية الذين يعملون فى سياسة القضاء ، أما الشيخ محمد عبده فلم ترض السلطات عنه إلا

بعد نحو عامين ، بدأ فيهما صلاته بالخديو عباس الثانى من أجل إصلاح الأزهر .

لم يكد يتألف مجلس إدارة الجمعية ، حتى رأينا الوكيل حسن عاصم والشيخ محمد عبده ، يحمل كل منهما أعظم الأعباء ، وقد بدآ بالمعونات التى يحتاجها الناس ، وبالتعليم الذى تحتاج إليه الأمة ، وقد أعجلهم المنهج الذى وضعوه .

ففى شهر سبتمبر ذاته ظهرت لنا مساعدة الأسر الفقيرة بقرار ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٢ بتكليف محمود صدقى باشا وسعد أفندى زغلول وقاسم أمين أفندى وحسن عاصم بك ويوسف صدقى بك ببحث أحوال فقراء مدينة القاهرة . وبعد أسابيع ، أصدر مجلس الإدارة قراره ببرنامج التعليم فى ١٣ يناير سنة ١٨٩٣ ، وقامت مدارس أربعة فى بحر عامين فى عواصم البلاد : القاهرة والإسكندرية وطنطا وأسيوط ، وفيها ٣٣٦ تلميذا من أولاد الفقراء يتعلمون بالمجان برنامجا وضعه الشيخ محمد عبده لإصلاح التعليم . وفى البرنامج : أمور أساسية لا يصح بغيرها نظام للتعليم فى بلد من بلدان الإسلام هى :

١- حفظ القرآن الكريم وتجويده وفهم معانى مفرداته ، والدين وقواعده ولغة الآداب الدينية ، وسيرة النبى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين والقصص الوارد فى القرآن الكريم . ووضع الشيخ تفسيرا للجزء الثلاثين من القرآن الكريم ، ليكون من مواد التعليم فى مدارس الجمعية الابتدائية . وقد فسر نحو نصف القرآن فى تفسير المنار .

ومن أبرز تفسيراته ماجاء فى صدد (وحدة الدين ، و أصول خاصة بالإسلام ، والتكافل الاجتماعى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتأويل والتفويض ، واستقلال إرادة الانسان ، وحرية الفكر) .

٢- اللغة العربية وأدبياتها والإنشاء .

٣- الأشياء الكثيرة الاستعمال وحفظ الصحة .

٤- حساب تعريفات أولية فى الهندسة وأخذ المساحات .

٥- الجغرافيا خصوصاً مصر .

٦- التاريخ خصوصا تاريخ مصر ، والعرب ، وتركيا .

٧- الخط الثلث والرقعة والنسخ .

٨- الرسـم .

٩- أعمال يدوية .

١٠- مبادئ النظامات .

١١- مبادئ تدبير المعيشة .

وسنرى الشيخ محمد عبده بعد أعوام يتصدى لإصلاح الأزهر ، بل سنرى المحاولة الكبرى للإصلاح بعد سبعين عاماً بإنشاء جامعة الأزهر سنة ١٩٦١ .

وانتخب المجلس لجنة منه ، لتحرير التوصيات اللازمة ، مكونة من الشيخ محمد عبده ، وإبراهيم بك مصطفى ، ويوسف بك صدقى ، وادريس بك راغب ، وقاسم أمين .

وبعد عامين تألفت لجنة من الأعضاء ، فيهم رئيس الجمعية ، والشيخ محمد عبده وقاسم أمين ، لطلب معونات من الخديو ، فاستجاب ، وقرر المجلس شكر الخديو وتفويض قاسم بك أمين ؛ لإستلام المبلغ . وانتشرت بعد ذلك مدارس الجمعية الإسلامية فى درجات التعليم المختلفة ، وتخرج فيه رجال نابهون ، منهم رجلان ملأ سمع العالم الإسلامى وبصره ، هما الدكتوران محمد أحمد الغمراوى وعبد الرازق أحمد السنهورى .

أما الأول : **محمد احمد الغمراوى** فقد عاد من بعثته الحكومية ليتولى التدريس فى مدارس الجمعية ، ثم مدارس الدولة ، ثم كلية الصيدلة بجامعة القاهرة ، وأنشأ كلية الصيدلة بالمملكة السعودية ، وتولى عمادتها . ذاعت فى العالم أنباء كشوفه القرآنية فى الفلك والصيدلة والعلوم عامة ، وتكونت للإذاعة بهذه الكشوف مؤسسات علمية فى البلاد الإسلامية ، ومؤتمرات تغطى وجه كرة الأرض ، وتفاجئ العالم الغربى والشرقى المعاصريْن بإثبات حقائق علمية تؤيدها كشوف كوبرنيق وكيلر وجاليليو والذين جاؤا بعدهم ، معلنة بعشرات الأدلة ومئات الآيات ، **أن خالق الكون عزوجل ، ومنزل القرآن الكريم واحد . وان الإسلام دين علمى ، ولد فى العلم ، وان العلم من إنعاماته ، ومن أدواته** ، وإظهار الحقائق العلمية فى القرآن ونشر الفقه الإسلامى ، وإعلاء مقامة تبشير علمى بالإسلام ، لن تقصر المجتمعات الإسلامية فى القيام به . والبحوث والمؤتمرات المحلية والدولية وجهود المؤسسات المهنية ، لاتكف عن الدوران حول كرة الأرض ، بنشر الخصائص التى خص بها الله كتابه الكريم .

أما الثانى : **عبد الرازق احمد السنهورى** فهو خريج مدرسة الحقوق ، عمل مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى التى أشار بإنشائها محمد عبده وأقامها سعد زغلول ، ومنها أوفد فى بعثة إلى فرنسا . وقضى حياته فى دراسة الفقه الإسلامى ، ووضع مشروع القانون المدنى المصرى الذى تناقلته الدول العربية ، وفيه أن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر التشريع . كما وضع دساتير للدول العربية ، وكان الرئيس الثانى لمجلس الدولة فى مصر ، وخلف أحكاما تحمى الحريات وتوجب العدالة والنزاهة على السلطات . ومات وهو عند الأمة الإسلامية كملك متوج .

هكذا نجح التعليم فى مدارس الجمعية ، أحد غرضين من إنشائها ، بمنهج وضعه محمد عبده ، وفصلته لجنة منه ومن قاسم أمين ، وأدريس راغب ، وأشرف عليه زملاؤهما على مر السنين ، **بدءاً بحسن عاصم ، وفيه قول سعد زغلول (انه رجل لايتكرر) ، وقول الهلباوى بعد ربع قرن فى كتاب اليوبيل الذهبى للمحاكم الوطنية ، إنه لم يوجد مثله حتى تاريخ ذلك المقال .** ثم أعقبه **عبد الخالق ثروت** وهو أب من آباء الاستقلال ، **ثم لطفى السيد** وهو الفليسوف الذى أجمعت مصر على تقديره .

لكن هذا التعليم – وهو غرض الجمعية الذى أصلح نقص التعليم فى مدارس الحكومة التى نشأت فى ظل الاحتلال ، والذى اشترك فى تقديره والتبرع له المسلمون والأقباط واليهود ، أصيب بعد نحو نصف قرن بقرار من مجلس الادارة بندب الشيخ مصطفى عبد الرازق لتبادل الرأى مع وزير المعارف ، وكان وقتئذ الدكتور محمد حسين هيكل وهو من كبار أنصار الجمعية الخيرية الاسلامية فيما يمكن قبوله من شروط الجمعية اذا ضمت الوزارة مدارس الجمعية إليها ، فضمت المدارس فى ١٢ أغسطس سنه ١٩٣٨ وسرى على المدارس ما سرى على التعليم الابتدائى منذئذ ، وما تزال الصيحات تتعالى بطلب إصلاحه .

وستبقى الصيحات تتعالى لزيادة الاهتمام بتعليم الدين ، والتربية الدينية ، واللغة العربية ، وعليهما وردت نصوص عدة فى الدستور المصرى سنة ١٩٧١ فى أول أبوابه عن مقومات الدولة . والنهوض بتعليم الدين ، واللغة ، هو نهوض يرد المخاطر عن الامة ، ويهيئ الأجيال للصمود ضد الانحراف الفكرى ، والخلقى ، الذى تسلطه مصادر شتى من خارج مصر ضد المسلمين ، وضد مصر بالذات ، كما يبنى عقولا وأنفسا تقدر على اقتحام القرن الحادى والعشرين .

ثم انشغلت الجمعية منذ الثلاثينات باقامة اكبر المستشفيات فى القارة الأفريقية ، وهو غرض عظيم ، لكن مرفق التعليم ، كان أنفع للأمة ، وما تزال أحوج اليه وقد أثبتت ذلك الأيام .

****

قلنا فى كتابنا عن الإمام محمد عبده ما نكرره الآن :

(ان مكانة الجمعية وأغراضها ترتبط ارتباط وثيقا بحياة مؤسسيها وسيرهم ، حتى تكاد سيرة الجمعية منذ أنشائها ، أن ترتبط بحياة المؤسسين) ففيها جماع مبادئهم . وقد أسعفت جهودهم مصر ، ببلوغ مقاصدهم من أجل مصر والمسلمين ، وربما أجزئ فى هذا المقام ، تلخيص الامام محمد عبده أغراض حياته من مطلعها حيث قال فى مذكراته ما يمكن أن يكون مرشدا لادراك ما نريد، قال رضى الله عنه :

(ارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والثانى إصلاح أساليب اللغة العربية . وهناك أمر آخر كنت من دعاته هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العداله على الحكومة . ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة .

أما أمر الحكومة والمحكوم ، فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال . فهذا الغرس هو الذى ينبغى أن نعتنى به الآن).

وإنه لكذلك الآن وعلى الدوام ، فالوثبة المصرية أو الاسلامية التى استفتحها الشيخ محمد عبده ما تزال على الطريق التى وضع بلاده فى بداياتها وسارت فيها الأمة من بعده ، يقودها فى مسيرتها تلاميذه بدعواتهم

الخاصة والعامة . وقد أوصلتنا كل مرحلة من مراحلها إلى ما بعدها من التعليم والتكافل والحفاظ على الوحدة واقتحام العقبات بقوة تدفعها قوى التاريخ فى آفاق التقدم . **وقد تولى رجال الجمعية الخيرية الإسلامية حكم مصر وإصلاح شئونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية طوال النصف الأول للقرن العشرين ووضعوا أسس الاصلاح ونفذوها .**

وما يزال الإمام محمد عبده بمنهجه الفكرى قائدا للأمة الاسلامية فى الاحتكام الى العقل وفهم الدين على طريقة السلف الصالح ، وفى الأخذ بأسباب القوة الفكرية بين أمم العالم المعاصر ، وفى صدارتها الحرص على الدين واللغه العربية ، وسيادة الامة ووحدتها . ويظهر ذلك جليا فى نصوص الدستور المصرى القائم الذى وضع فى سنه ١٩٧١ والذى تحذو حذوه أمم الاسلام لتحديث نظمها السياسية والادارية والتعليمية . **وما زال زعماء الأحزاب الأولون من أعضاء الجمعية على مكانتهم فى سجل المفاخر الوطنية :**

يتصدرهم سعد زغلول قائد النهضة والذى حبسه الانجليز عند احتلالهم سنه ١٨٨٢ ، ثم تربع طوال ربع قرن كامل فى كرسى القضاء والمحاماة عن الامة وعن الأفراد . ثم تصدى للعدوان البريطانى على اللغة العربية وهو وزير للمعارف من سنة ١٩٠٦ حتى سنة ١٩١٠ ، وعلى الحريات الشخصية فى وزارة الحقانية حتى سنة ١٩١٢ ، ثم زعامته للمعارضة السياسية ابتداء من الجمعية التشريعية فى سنة ١٩١٣ إلى ثورة سنة ١٩١٩ ومقاومة الانجليز لاستقلال مصر ، وتهيئة الأحزاب الى ما بعد وفاته سنة ١٩٢٧ حيث تركها فى ائتلاف من صنعه والملك خاضع للدستور يتوثب لنقض ما جاء به .

وفى وصف زعامة سعد للأمة ، قول أكبر خصومه السياسيين اسماعيل صدقى فى مذكراته.(كان شخصية جبارة ، وفى الوقت ذاته جذابة غمزت البلاد بشدة تأثيرها ، وأصبح الاعتقاد فيها يشبه الاعتقاد فى الانبياء) .

وتتابع من اعضاء الجمعية رؤساء الوزارات : رشدى ، ثم عدلى ، وثروت ، ومحمد محمود ، واحمد ماهر ، والنقراشى ليظفروا لمصر بإستقلالها سنه ١٩٢٢ ولتضع مصر دستورها الاول سنه ١٩٢٣، فى هذا القرن على يدلجنه يرأسها واحد من الجمعية الخيرية الإسلامية هو رشدى باشا ، ووكيل اللجنة وأحد من المؤسسين الاولين للجمعية هو حشمت باشا . أما على ماهر فكانت عينه دائما على الملك ، وانتهى الأمر به الى أن شارك زعماء الثورة فى خلعه سنه ١٩٥٢ ، وبالتالى سقوط النظام الملكى لأسرة محمد على ، بعد ان أثخنه محمد عبده بالجراح ، وأخضعه سعد زغلول لإرادة الشعب .

وفى الطريقة ذاتها سار عدلى وثروت ومحمد محمود وسائر الزعماء الذين تولوا حكم مصر حتى سنه ١٩٥٢ ، وكان اختصاص الوزارة ورئيسها حكم " الشعب " وقيادة الدولة ، أما الملك " فيسود ولا يحكم " طبقا لدستور سنة ١٩٢٣ والذى شارك فى وضعه والدفاع عنه مجموعة من رجال الجمعية الخيرية الإسلامية فيهم الهلباوى بك وبدوى باشا .

أما الرأى العام ، فقد جاهد رجال الجمعية لتقويته فتجلى فى ثورة سنة ١٩١٩ وازداد صلابة وادراكا واشتراكا مع الزعماء .

وفى صحوة سنه ١٩١٩ قيض الله **طلعت حرب** ، وهو من الجيل الثانى فى اعضاء الجمعية ، ليضع أسسا قوية لاقتصاد مصر بإنشاء بنك مصر . ولم يكن لها بنك بين البنوك العاملة فيها ، ثم أنشاء ثلاثين شركة كانت باكورة النشاط الاقتصادى فى كل وجه .

اما النقيب الاول للمحامين فهو ابراهيم بك الهلباوى ، وهو من المؤسسين الأولين للجمعية مع محمد عبده وسعد زغلول ، وعلاقاتهم ترجع الى أيام التلمذه على يد جمال الدين الافغانى ، وكان اول نقيب للمحامين وقد أنشأها سعد زغلول وهو وزير للحقانية ، كما كان سعد والهلباوى محررين صحفيين بدأ معهما محمد عبده بالاصلاح العام لمصر وللصحافة منذ العدد الاول للوقائع المصرية .

وبرز كذلك **احمد لطفى السيد** فى سياسة الصحيفة الوطنية (الجريدة) تحمل اعلام (مصر للمصريين) ، وكان أعظم الكتاب السياسين فى النصف الاول من القرن وتبعته ثلة من الادباء الذين تباهى بهم مصر وفى طليعتهم الدكتور محمد حسين هيكل – وقد رأيناه وزيرا للتعليم ورئيسا لمجلس الشيوخ – ومنصور فهمى والشيخ مصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى وطه حسين .

وكمثله كان عضو الجمعية الدكتور **على ابراهيم** الطبيب الجراح زعيما للنهضة الطبيه ورئيسا للجامعة ، ومعلما لجيل الاطباء فى النصف الاول من القرن .

ومحمد فريد رئيس الحزب الوطنى بعد مصطفى كامل ، ومع خلافه مع بعض اعضاء الجمعية على منهج الحزب الوطنى ، ناصروه على رئيس الجمعية الأمير حسين كامل ؛ فاختاروا محمد فريد بين أعضاء مجلس الادارة بتأييد الهلباوى واحمد لطفى السيد وحسن عبد الرازق .

وستبقى الامة الاسلامية ومصر مدينه **لقاسم امين** اذ اشترك فى تأسيس الجمعية ، وهو شاب يدعو الى تحرير المرأة ، وتنخرط الجمعية فى تأييده بتعليم البنات ، ولا تمضى على موت قاسم سنوات حتى يستقبل سعد زغلول وزوجته فى بيته ومعهما زوجه قاسم امين ، مظاهرة عامة للسيدات " سافرات

الوجوه " وجرت فى آثارهم النهضة النسائية شوطها الطويل ، واعضاء الجمعية يرعونها مقدرين نشاط السيدة هدى شعراوى لنشر افكاره .

وليس عجيبا ان نستذكر اسماء الاعضاء الأولين وكثيرين غيرهم ، ولا تجد واحدا منهم تزوج بغير امرأة واحده ، وفى صدارتهم محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد محمود ، وعبد العزيز فهمى ، واحمد لطفى السيد ، وعلى إبراهيم .

وليس عجيبا كذلك أن نجد فى محاضر الجمعية محضر ٢٣ نوفمبر سنه ١٨٩٨ جدلا بين قاسم أمين وسعد زغلول ، وبين رئيس الجمعية المحافظ عثمان ماهر باشا ووكيلها لطيف سليم باشا زعيم ثورة الضباط فى عهد الخديوى اسماعيل ، بصدد " حرية المناقشة " لموضوع وقف أموال الجمعية . ونرى الجدل ينتهى الى استقالة الرئيس ، من رياسة الجمعية واستقالة الوكيل ، وان يقرر المجلس بسلاسة ويسر ، اعتبارهما منفصلين من الجمعية . وكما يقول الهلباوى بك فى كتاب اليوبيل الذهبى للمحاكم ١٩٣٣ " تراجع الجميع وسلموا (لقاسم) برأيه " . ومضت الجمعية من سنه ١٩٠٨ ، ولم يفكر أحد من أعضائها الى اليوم فى الخروج على رأيه فى موضوع الوقف ؟ .

وقاسم بهذا ، يضيف الى تحرير المرأة وحرية المناقشة ، حرية حركة المال ، ويسبق قانون الغاء الوقف الاهلى بنصف قرن ، كما سبقت مصر برأيه فى تحرير المرأه . العالم الاسلامي والعربى بل كثيرا من بلدان من اوروبا .

ولقد بدأ الشيخ محمد عبده بعد عامين من انشاء الجمعية الاسلامية صلاته بالخديو عباس حلمى لإصلاح الأزهر ، واستصدار أمر بانشاء مجلس ادارة هو عضوه المنتدب ، فأجرى من الاصلاح ما استطاع وسار الشيخان

المراغي وعبد المجيد سليم على نهجه في الالحـاح علـى الاصـلاح ، لتستمر الأمة في طلبه ، حتى نشأت جامعة الأزهر سنه ١٩٦١ بالقانون رقم ١٥٣ لسنه ١٩٦١ .

وكما تدين الامـة الأسـلامية لقاسم بتحرير المـرأة ، تديـن للشيخ الامـام محمد عبده بقوانين الأسرة التـى وضـع أسسـها فـى تقرير اصلاح المحـاكم الشرعية وأعد مشروع قانون ، كما تدين له باصلاح الأزهر ، وهـى أمـور صارت مهام وطنية ، وتشريعية ، نهض بها من تلاميذه الشيخان المراغى ومصطفى عبد الرازق شيخا الأزهر ورئيسا الجمعية الخيرية الاسلامية ، ثم الشيخ عبد المجيد سليم .

والشيوخ الثلاثة كانوا لسان صدق ، يعلنون خلاف الأمة مع الملـك وسـوء تقديرها له ، واثنان منهم استقالا اعتراضا عليه مطالبين بالاصلاح .

ولقد رأس **الشيخ محمد عبده** ، الجمعية من عـام ١٩٠٠ حتـى توفـى سـنه ١٩٠٥ ، وأعقبه **الأمير حسين كـامل** حتـى سـنه ١٩١٤ حيـن أصبـح سـلطانا على مصر ، وأعقبه **الأمير يوسف كمال** حتـى سـنه ١٩١٧ ، **ثـم عدلـى يكـن** حتى سنه ١٩٢٣ ثم **محمـد محمـود** حتـى سـنه ١٩٤٠ ، ثـم **الشـيخ المراغـى** حتى سنه ١٩٤٥، ثم **الشيخ مصطفى عبد الرازق** شيخ الأزهـر وهـو أصغـر تلاميذ محمد عبده . وفـى سـنه ١٩٤٧ رأسـها **أحمـد لطفـى السـيد** حتـى سـنه ١٩٦٣ ، كمـا رأس الجامعـة ومجمـع اللغـة العربيـة مـع رياسـة الجمعيـة . ورأسها بعده رجـل مـن مسـتواه ، وهـو **عبد الحميد بدوى باشـا** حتـى عـام ١٩٦٥، وجاء بعده **طراف على باشا** سنه ١٩٦٦ ؛ ثم **مصطفى الصادق** ، ثـم المهندس **احمد عبده الشرباصى**، ثـم **الدكتور نـور الدين طـراف** حتـى سـنة ١٩٧٧ ، ويرأسها الآن الاستاذ **المستشار محمد صادق الرشيدى** .

ولئن كان طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى ، أمينا عاما للجمعية وطالت مدته فى خدمتها ومنها انشاؤه اكبر المستشفيات فى القاره الافريقية ، فإن عمل الأمين العام السابق المرحوم محمود محمد محمود بها ، ليس أقل أثرا فى تاريخ مصر ، وهو يمتاز بفضح أعمال الملك عندما كان رئيسا للجهاز الرقابى (ديوان المحاسبة) .

وعليه اعتمد مصطفى مرعى ، فى المهاجمة العنيفة لسلوك الملك فاروق فى مجلس الشيوخ المصرى ، وكانت هذه الفضائح سببا اساسيا ، فى قيام ثورة سنه ١٩٥٢ ، وخلع الملك . كما يمتاز **محمود محمد محمود** فى التاريخ الدستورى لمصر والعالم الاسلامى ، بأنه الذى قدم مشروعا فى الأربعينات الى مجلس النواب بإنشاء مجلس الدولة ، فبادرت الحكومة الى تقديم مشروعها الذى اعدته هيئة قضايا الدولة فى عهد رئاسة عبد الحميد بدوى لهيئة قضايا الدوله . وصدر القانون بإنشاء مجلس الدولة سنه ١٩٤٦ ، وهو يخص القضاء الإدارى بسلطة الرقابة القضائية الكاملة على أعمال الحكومة ، وبه احتمت الحريات فى مصر . ولما قامت ثورة سنه ١٩٥٢ ، حياه زعيمها جمال عبد الناصر تحية خاصة . ومحمود محمد محمود هو ابن رئيس الوزارة فى العشرينات والثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ، وهو حفيد محمود سليمان باشا رئيس حزب الامة ورئيس لجنه الوفد المركزية حينما قامت ثورة سنه ١٩١٩. وهو أيضا حفيد لواحد من مؤسسى الجمعية واعضاء مجلس ادارتها الأول سنه ١٨٩٢ ، وهو ادريس راغب باشا الذى يرد اسمه بين الأعضاء بجوار اسم الشيخ محمد عبده وقبل أسماء على فخرى وزملائه المستشارين ، وفيهم سعد زغلول .

خلف محمد عبده للأمة الاسلامية كافة بدايات الاصلاح فى الأزهر الشريف وانهاض الرأى العام المصرى ، ومدرسته التى ستلى الحكم ، فى

كفاءة لا تقل عن نظائرها فى اعظم دول العالم المعاصر ، الى جوار تفسيره العصرى للقرآن الكريم – وما أعظمه وأهمه للأمة . كما خلف فتاواه التى ما تزال مراجع للتطوير ، ومشروعات قوانين الأسرة واصلاح القضاء الشرعى . وتولى سعد زعامة الأمة في وزارة المعارف سنة ١٩٠٦ ووزارة الحقانية سنة ١٩١٠ مدافعا عن اللغة العربية ومدافعا عن الحريات ، ومعارضا للتشريع الانجليزى ، الذى حاول الانجليز فرضه، كما تولى زعامة المعارضة فى سنة ١٩١٣ ليعد الأمة للجهاد الجديد بعد الحرب العالمية الأولى . وفى هذا الجهاد شارك زعماء الأمة فى الوفد الذى ألفته مصر سنة ١٩١٩ لمفاوضة الانجليز ، وبرز التعاون بين الحكومة برياسة رشدى وعضوية عدلى وثروت مع ممثلى الأمة فى انضاج الرأى العام الذى يقوده سعد زغلول ، وشاركوه فى الائتلاف الوطنى سنة ١٩٢٥ لسنة ٩٢٦ باعتباره زعيم الأمة .

وتولى عدلى حكومة فاوضت الانجليز وفشلت ، ونجح ثروت فى تنفيذ خطة عدلى ورشدى ، وهى اعلان الاستقلال مع قبول تحفظات تستمر عليها المفاوضات ، واعلن الاستقلال فى فبراير سنه ١٩٢٢ وصار السلطان فؤاد ملكا . وكاد الملك لثروت ليستقيل ، فاستقال بعد ان أعدت لجنة الدستور مشروعا إستحسنه سعد زغلول ، وتولى الوزارة بالاغلبية الشعبية سنه ١٩٢٤ . وفشل فى مفاوضته مع الانجليز ، ثم ألف الائتلاف الأول فى تاريخ مصر ، وأقام عدلى رئيسا للوزارة ثم عين ثروت رئيسا للوزاره ، ولها أغلبية وفدية ، وسعد رئيسا لمجلس النواب المسيطر على سائر المؤسسات . وتولى **محمد محمود** الوزارة مرات ابتداء من سنه ١٩٢٨ ، كما ولى **على ماهر** رئاسة الوزارة مرات ، وهو عضو فى الجمعية الخيرية الاسلامية وكان آخر وزاراته سنه ١٩٥٢ . كما وليها **الشهيدان احمد ماهر ومحمود فهمى**

النقراشى حتى عام ١٩٤٨ وبذلا وسعيهما فى ميادين الجهاد واستشهدا ، وكلاهما كان عضوا فى الجمعية الخيرية الاسلامية .

والذى يراجع دستور سنه ١٩٧١ يرى فى الباب الأول آثار مدرسة محمد عبده فيه والإصلاحات التى أجرتها مصر بعد صدور الدستور سنه ١٩٢٣. والمؤسسات الحكومية والأهلية التى تتابعت بعده لتحمل النصف الثانى من القرن العشرين فى شموخ ، وقد حذت حدوها الأمم الاسلامية والدول العربية فى آسيا وافريقية ، وما زالت مصر تباهى باستقرارها ، وتطوير قوانينها للدخول فى القرن الحادى والعشرين ، ومنها قانون تطوير جامعة الازهر سنه ١٩٦١ وفيها ما يحقق برنامج محمد عبده لتطوير الازهر .

وما تزال أعمال الشيخ محمد عبده العلميه باعثا على الاجتهاد الفكرى ، وحرية النظر ، والحث على التكافل الاجتماعى ، واستعمال العقل وهى شعارات للحضارة المعاصرة فى الغرب والشرق كقوله (إن الإسلام قد قاضاك إلى العقل ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن لسلطته واذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الايمان) . وإن الاسلام (يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ، فصاحب هذا الدين لم يقل بع ما تملك واتبعنى ، ولكنه قال لمن استشاره فى الصدقة " الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة على الناس " والمسلمون محفوزون حفزا لطلب العلم فاذا لاقاهم العالم شدوا به أواصرهم ولا يبالون ما تكون عقيدته ..)

****

لم يكد سعد زغلول يلقى ربه سنه ١٩٢٧، حتى انفض الائتلاف الذى أحكمه بين أحزاب الأمة ، وتعاقبت وزارات الملك فؤاد فوضع **دستور ١٩٣١** وعطل الدستور القديم بما فيه من حريات ، واشتهر منذئذ تزييف

الانتخابات ، وان اجبر الانجليز الملك ، على اعادة الدستور (**دستور ١٩٢٣**) . واستمرت الأحزاب تسعى مؤتلفة او منفرده لمفاوضة الإنجليز ، ثم عقدت هيئه من الزعماء معاهده سنه ١٩٣٦ مع الأنجليز ، برياسة مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد ورئيس الوزارة . ثم جاء الملك بوزارات أقليات ، هى التي حكمت اكثر ايام تطبيق دستور سنه ١٩٢٣ . ثم عرض النقراشى قضيه مصر على مجلس الأمن ، فى شجاعة وبراغة وفى صحبته اثنان من عظماء رجال القانون فى الامة هما عبد الحميد بدوى باشا رئيس هيئة قضايا الدولة ، والذى رأس الجمعية الخيرية من سنه ١٩٦٢ الى سنه ١٩٦٥، والدكتور السنهورى وكان وزيرا للمعارف ، وهو تلميذ الجمعية الخيرية فى مدرستها الابتدائية بالاسكندرية تعلم فيها مبادئ الدين الحنيف ، ليصير واحدا من جنود الفقه الاسلامى فى القرون الحديثة .

ولم ينصف مجلس الأمن مصر ، بل ردها والإنجليز إلى مزيد من المفاوضات ، ثم الزم الانجليز الملك باجراء انتخابات حره جاءت بحزب الوفد إلى الحكم بما يقارب الاجماع ، وتنكأ الانجليز فى المفاوضات وألغى النحاس باشا معاهدة سنه ١٩٣٦ ، وتدفق المجاهدون يحاربون الجيش البريطانى على شواطئ القنال وأعدت الميادين لتعليم الرماية ، وكان استشهاد الطيار احمد عصمت مناسبة لإظهار اتفاق الحكومة والشعب على مجاهدة الانجليز ، اذ أناب النحاس باشا أحد وزرائه للاشتراك فى جنازة الشهيد ، فكانت دعوة رسمية للجهاد .

وبعد ايام حرقت القاهرة ، وأعلن النحاس الأحكام العرفية ، وأقاله الملك فاروق ليحكم شهورا سبعة بوزارات ست ! كان بكل يوم منها نذيرا للثورة ! فقام بها الجيش فى يوليو ١٩٥٢ . وفاوض عبد الناصر الإنجليز ، وانسحبوا شهورا ليعودوا بجيوش ثلاثة : انجليزية وفرنسية ومعهما جيش إسرائيل !

حاربتها مصر سنه ١٩٥٦ ، ثم حاربت إسرائيل سله ١٩٦٧ ، وبانتصار سنه ١٩٧٣ تم استرداد ما تمكنت إسرائيل من احتلاله .

وتعالى النداء الخالد للإسلام على لسان الأبطال يعبرون القنال : الله أكبر . الله أكبر . لتفتح مصر المنتصرة عصرا جديدا للعرب وللمسلمين . والله بالغ أمره .

والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته

المحاضرة الثانيـة

الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد

فضيلة الإمام الشيخ محمد الغزالي

١٤ نوفمبر ١٩٩٤م

١٠ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ

جانب الحضور

من اليمين : فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود ، رئيس جامعة الأزهر الأسبق ، فالأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى وكيل كلية حقوق طنطا فمعالى الأستاذ سيد الهاشمي مستشار دولة الامارات لشئون القضاء فالدكتور عارف الدسوقى

على المنصة : المستشار محمد صادق الرشيدى فالامام الراحل الشيخ محمد الغزالى فالمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم

محاضرنا رحمه الله رحمة واسعة - فضيلة الامام الشيخ محمد الغزالى (١) ، هو حجة الاسلام فى عصرنا . وهو الرجل الذى تفتحت عقولنا وقلوبنا على مؤلفاته العديدة ، والتى تجاوزت الخمسين كتابا ، بخلاف أحاديثه ومحاضراته ومقالاته التى لا تحصى .

ومن جانبى أذكر على وجه الخصوص كتابه (الاسلام والأوضاع الاقتصادية) الصادر سنه ١٩٤٧ ، والذى صدرت منه بعد ذلك حسب علمى سبع طبعات آخرها سنه ١٩٨٧ . وكيف ان هذا الكتاب وانا طالب بكليه الحقوق ، هزنى بشدة وعمق ، وأثارنى ووجهنى الى جانب كان وقتئذ مغمورا ومجهلا به وهو الجانب الاقتصادى فى الاسلام ، أحاول منذ اواخر الستينات

---

(١) توفى فضيلته فى ٣ مارس ١٩٩٦ الموافق ١٣ شوال ١٤١٦ ، رحمه الله رحمة واسعه .

الاحاطة به والتعمق فيه ، فالى استاذنا الشيخ الغزالى الفضل فيما أصدرته من مؤلفات فى الاقتصاد الاسلامى .

واستاذنا الامام الشيخ محمد الغزالى ، بالرغم من انه لا يكاد يختلف اثنان منصفان على انه واحد من القمم الاسلامية الشامخة التى تعد على أصابع اليد الواحده في عالمنا الاسلامى المعاصر ، وبالرغم من جهوده الجبارة كداعية وفقيه اسلامى لأكثر من نصف قرن . بل بالرغم من تأثيره الملموس وثقله ووزنه الكبير على امتداد عالمنا الاسلامى الفسيح ، تراه متواضعا للغاية ويلخص رسالته وجهوده المضنية بقوله (ان كل ما أبغيه هو إنصاف الاسلام من سوء الفهم وسوء الاستغلال) .

ولذلك تراه ينعى على الكثرة التى لم تفهم من الاسلام سوى القشور ، فاقتصروا على المطالب التعبدية وانشغلوا بالفروع وتصارعوا حول شكليات ومسميات ، غافلين عن أهداف الاسلام الكبرى فى إقامة الشورى ، وضمان حد الكفاية ، لامجرد حد الكفاف لأقل فرد ، وإشاعة المحبه والتعاون بين المسلمين ، ليخلصوا لعبادة الله وحده ويسودوا على الارض ليكونوا بحق كما اراد الله لهم خلفاء فى الارض .

واستاذنا دائما يؤكد (انه من العبث خدمة الاسلام بالنصائح المجردة او العواطف المفتعلة ، بل لابد قبل ذلك ان نعمل على تخليص أمتنا الاسلامية من ثالوث الفقر والجهل والمرض ، فقد أضاعت هذه الامراض او الرذائل معنى الايمان الحى فى نفوسنا) ويضيف فضيلته (ان الشعوب العاجزة الكسول ، تحط من مكانة الأديان التى تعتنقها ، وتهبط بمستوى العقائد التى تنتمى إليها ، وان الاتباع الحمقى كثيراً مايفرضون سفههم على اسمى الحقائق ، فبدلا من ان يرتفعوا معها الى القمة يهبطون بها الى السفوح) .

ومن هنا يؤكد استاذنا الجليل بنص عبارته (ان الامة الاسلامية . كي تكون على مستوى دينها وكي تنجح في المحافظة عليه ، وكي تستطيع إفهامه للآخرين ، لابد ان تكون راسخة القدمين في شئون الحياه كلها ، بل يجب ان تكون سباقة في شتى الميادين مسموعة الكلمة في آفاق العلم برا وبحرا وجوا) .

وينبهنا فضيلته بأن (من حق الامم الكبرى ، وهى أمم تحتقر الامية العلمية والصناعية ، ان تنظر الى دعاوى المسلمين وافكارهم وقيمهم ، بريبة أو سخرية ، مادام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الانسانى)

ويذكرنا فضيلته دائما بأن (**قوام الدين الاسلامى هو الديمقراطية السياسية ، والعداله الاجتماعية ، وليس فى ملازمة المسجد ، او اطلاق اللحى ، او فرض النقاب . . . وان التدين الصحيح هو عدو الظلم والطغيان ، وهو عدو الجهل والفقر ، وهو رفض لليأس والاستضعاف**) .

وختاما اذكر عن استاذنا شيخ الاسلام فى عصرنا الامام محمد الغزالى قوله (ان النكسه التى اصابتنا فى تاريخنا الطويل ، إنما جاءت من فساد عقول العامة ، ومن فساد ضمائر القلة الحاكمة) . **وقوله (ان المأساه التى طالما نبهت اليها ، هى انشغال العقل الاسلامى بالهامشيات ، والذهول عن مشاكل العالم الكبرى فى سياسة الحكم والمال) وقوله (ان الصراع العالمى ليس بين الاسلام وغيره من أهواء البشر ، وانما هو صراع بين تطبيقات غبيه للاسلام ومسالك بشرية يقظة جريئة)** . وقوله (ما اكثر ما يكاد به الاسلام فى هذا العصر ، ولكن ما يكيد به المسلمون انفسهم أدهى وأمر) . وقوله ((ان مهمتى التنوير لا إلصاق التهم ، وغايتى حشد الأدله لدعوة الحق ، فأنا مرب ، لامدع عام ، وان لدى من شئون الاسلام والمسلمين ، ما هو أولى بالاهتمام) .

استاذى الفاضل الجليل

اننى مهما اقتبست من مؤلفاتك وأحاديثك ، فاننى سأظل عاجزا عن الاغتراف من بحركم الفياض وعلمكم الراسخ وتوجيهاتكم الحقة .

فلا أملك فى هذا المقام ، إلا أن اتجه الى الله تعالى ضمن الملايين المقدرين لكم ، أن يحفظكم ويرعاكم ، لتقدموا للعالم الاسلامى مزيدا من التنوير والتوجيه ، وان تشهدوا غرس أيديكم بانتصار الاسلام الوشيك على هذا الركام من التخلف الفكرى والمادى ، وما ذلك على الله بعزيز .

كلمة فضيله الإمام الشيخ / محمد الغزالى

لعل الفتوح الاسلامية كانت اسرع الفتوح فى تاريخ العالم وأبعدها أثرا ، ففى خلال عشرين سنه بعد وفاة صاحب الرسالة الخاتمة ، كانت أركان الدول الكبرى تنهار . وكان الاستعمار العالمى يتقلص كما تتقلص الظلمات امام مطالع النهار . . . . فقد الرومان أملاكهم فى افريقيا وآسيا ، وتحررت شعوب احتبست قرونا ، داخل مصيدة محكمة من البطش .

نعم ، تحرر فى الشمال الأفريقى ما يسمى الآن مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، وتحرر من آسيا فلسطين وسوريا والأناضول . وحاول الفاتحون تحرير القسطنطينيه فعجزوا ، ولكنهم حرروا جزر البحر المتوسط تقريبا .

وكان جناحهم الشرقى فى آسيا قد محا دولة الأكاسرة ، ووصل شمالا الى جنوب روسيا ، وأوغل فى الشرق حتى أخذ اقطارا من الهند والصين .

إن الدولة الإسلامية الأولى تكونت فى زمن خارق للعادات فى قصره ، وأقامت عقيدة لاتزيدها الأيام إلا قدرة على البقاء ومقاومة الأحداث .

ويرجع ذلك فيما أرى إلى أمرين :

الأول : حاجة العالم إلى تعاليم الإسلام ، واقتناعه بها ، ورضاه عنها عندما بلغته ، حتى أن أبناء البلاد المفتوحة ، سابقوا العرب إلى فقه الإسلام ونشره ، وصاروا أئمة للأمصار الكبرى تثق الجماهير بهم وتصدر عنهم .

الثانى : أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قدموا الرسالة للناس علماً ذكياً وثقافة أصيلة . والإسلام من ينبوعه الأول ، علم ينير العقول ويمحو الأهواء ، لذلك قال الله لنبيه (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالك من الله من ولى ولانصير) .

ويكرر هذا المعنى فيقول فى سورة أخرى (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم ، مالك من الله من ولى ولاواق) .

ان الإسلام علم واسع الدوائر ، وقرآنه الكريم ، كون مسطور يضارع الكون المنظور فى تفتيق العقول ، وتجلية الفطرة ، ولولا مافى آيات القرآن من هدى ونور ماقامت أزهى حضارة فى التاريخ !

اننى أرمق الأفق الذى ينقل القرآن الناس إليه فى كل مجال فاردد قوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين – تاركى خلالهم القديمة – حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) .

ثم أشعر بالأسى " **للأمية الثقافية** " التى لفت جماهيرنا فى أكفانها ، وجعلتهم فى هذا العصر آخر الأمم ، وأنزلها رتبة .

نعم ، هناك أشرطة حية تحفظ القرآن حرفاً حرفاً ، ولاتعى منه ما يرفع رأساً . وهناك عشرات الدول تنتمى إلى الإسلام ، تذكرنا بتَغْلب ، وحِمْير ، وطَسْم وجَديسْ .

ماذا حدث ؟ أن الإسلام الذى سُمىٍّ فى وحى الله علماً ، أمسى أهله سواد الأميين فى العالم .. !!

تذكرت الأيام الأولى من عمرى عندما كنت أحفظ القرآن الكريم – من سبعين سنة مضت – كنا نتعلم (الحساب) فى كتاب تضمن القواعد الأربع ، مترجم عن الانجليزية ألفه مستر " تويدى " ! قواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة نأخذها عن خواجة ؟

أن آباءنا ، وضعوا طائفة من النظريات الهندسية ، وبرعوا فى حساب المثلثات والمربعات ، فما الذى دهانا ؟

أن هذا القرآن يبنىَ الإيمان على التأمل فى الكون ويقول (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) .

عناصر الكون ومظاهره هى مصادر الايمان واليقين ، فما يصنع مكفوف لايرى آية ؟ وما تكون معرفته بالله ؟

وهل المعرفة المزعزعة قادرة على أن تحكم سلوكا ؟ أو تقتحم عقبة ؟ أو تدفع إلى مكرمة ؟ لقد بدأت بذكر المعرفة الكونية ، لأنها من شئون الدنيا التى نستوى فيها مع غيرنا ، والتى قيل لنا فيها أنتم أعلم بشئون دنياكم !

ابتدع ما شئت ! واكتشف ما استطعت ! لاقيد ولاحظر . .

أن غيرنا سبق سبقا بعيداً ، وبرز فى كل ميدان ، وساند عقائده بما استطاع ، فانطلق الباطل فى ساحات الحياة ، مدرعاً بالحديد . والتقينا به ونحن نحمل مواريث الوحى ، وأيدينا عزلاء وأجسادنا عارية ، فلما عدنا كانت هزائمنا مضاعفة ، لفراغ اليد والعقل والفؤاد !!

والألوف المؤلفة من مسلمى العالم يعيشون أتباعاً مغموطين لأنهم يشترون أجهزتهم المدنية والعسكرية من خصوم العقيدة وكارهى الوحىّ !! وينتظرون من الباعة أن يعلموهم ماذا يصنعون بهذه الأجهزة وكيف يستخدمونها ؟

أما ثقافتنا الإسلامية التى استبحرت فى القرون الأولى ، فقد رأيت تأليف كتاب فيها سميته (تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل) . والكتاب على وجازته ، يلقى ضوءاً على موضوعه قد يحتاج إلى زيادة !

أن عندنا مدرسة الفقه والتشريع ، ومدرسة التربية والأخلاق ، ومدرسة العقائد والمتكلمين ، ومدرسة التفسير والحديث ، وفنون الآدب من شعر ونثر ، وقد تعرضت هذه المدارس للمد والجزر ، والغزارة والضحالة ، ووضعها الآن يثير الدهشة . فالأدب مثلا كان فى الجاهلية والإسلام شيئا له وزن وقيمة ، وقد ظل ينحدر حتى فقد وزنه ، ثم قيمته ، ونحن الآن نقرأ شيئا اسمه الشعر المنثور يمثل مرحلة من القول أدنى إلى المجون منها إلى الرشد ، وفى تسميته أدباً تَجوُّز كبير .. !!

مع طول العمر ، وكثرة التجارب ، نستحكم العقل ونهتدى إلى الصواب ، وإذا كان ذلك مأنوسا فى الأفراد ، فيجب أن يكون مألوفاً بين الجماعات والأمم !

ونحن المسلمين نحمل رسالتنا من زمن طويل ، أننا الآن فى القرن الخامس عشر من تاريخ الإسلام ، ذقنا مع ديننا ، الحلو ، والمر ، والهزيمة ، والنصر والامتداد والانكماش . فهل تعلمنا شيئا مما أصابنا ؟ وهل استفدنا من التجارب حكمة تصقل أحكامنا وتضبط خطانا ؟

المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وربما قلّت استفادة المنافق من الأحداث كما قال تعالى : (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) .

ولست اتساءل الآن عن مدى اعتبارنا من سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، أو سقوط الخلافة العثمانية في الأستانة ، أو ضياع الإسلام كله في الأندلس ثم بدء الانسحاب من أقطار أوربا الأخرى !!!

مع أن هذا التساؤل مطلوب وتجاهله جريمة .

انما أتساءل عن المدارس العلمية المختلفة في الفكر الإسلامي ، ماذا حدث لها ؟ وأين حطت عصا الترحال ؟ ولابدأ بمدرسة التربية والأخلاق التي اشتبكت في تاريخنا العلمي بنزعة التصوف وفلسفته .

يجب فض الاشتباك السيّئ في هذا المجال وتنشئة أجيال أزكى نفوساً من المسلمين المعاصرين لاتفصل بين الايمان والخلق ، ولا بين العبادة والخلق .

ان الذي شاق الخوارج قديماً وحديثاً ضعف أخلاقهم وهم يعاملون الناس ، واستباحتهم المجنونة للدماء والأموال من أجل فكرة غلبت عليهم أو وجهة ساروا إليها . انهم لايتواضعون لله ولايهضمون أنفسهم لأمر ذي بال .!

أعجبني الإمام ابن القيم وهو يحاور كبير الصوفية في عصره فيقول متواضعاً :

اذا كنتُ قد عرفتُ شيئاً لم يعرفْه الشيخ الكبير ، فأنا كالهدهد الذي قال لسليمان " أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين " والهدهد هو الهدهد ، وسليمان هو سليمان ! ومضى الرجل في كتابه يعارض حيناً ويؤيد حيناً ، وكأنه الشافعي الذي قال : " **ماجادلت أحداً إلا تمنيت أن يكون الحق إلى جانبه** " !

أين هذا الخلق من أشخاص مسعوزين ، همُهم الأول ، تحقيرُ الخصـوم ، والنيلُ منهم . فاذا جادلوا عن رأى لهم ، تقمصهم حب الانتصـار ، واثبـات الشخصية والزهو بين الناس !.

ان محنة التربية هائلة فى العالم الإسلامى سواء فى الأخلاق الربانيـة أو الأخـلاق الانســانية . الاخــلاص للــه قليـل ، والصـدق مـع النـاس قليـل ، والمفروض ان تكون وراء نبينا ، نتمم مكارم الاخلاق .

لاقيمـة لأشـكال العبـادات إذا لـم يكـن وراءهـا مهـاد مـن تقـوى القلـوب ، والدين قبل كل شئ زكاة فى النفس وصفاء فى الروح ، وميل إلى العطاء لا الأخذ ، وإلى السلام لا الخصام ..

ولأمر ما ، علمنا نبينا أن أول ثلاثة تسعر بهم النـار هـم : المـراؤن بـالعلم والجهاد والصدقة . ان المرائى يرى نفسه ولايرى ربه ، انـه مشـغول بجاهـه ومكانته قبل كل شئ !!

وإذا عجز الدين عن كبت الغرائز السوء ومحوها ، فان تطبيقه فـى الحيـاة لن يكون إلا تنفيسا عن هذه الغرائز ولو أخذ صورة العبادة !

وقد راقبت حركة إسلامية فشلت فى بلوغ غايتها ، كـانت تضـم صـالحين كثيرين ، ولكن بينهم عصابة ، ترى أن تحكم هى بمـا أنـزل اللـه ، وترفـض أن يحكم غيرها !!

ان حب الرياسة خالطها ، وهيمن على خططها وبواعثها ، فنشأت عن ذلك فتن هائلة والله وعد بالتمكين ، منْ هدفهم اقامة الصلاة وايتاء الزكـاة والأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قبل أن يكون هدفهم تولى منصب ما ..

ان الاخلاق بقسميها " **الربـانى** " و " **الانسـانى** " هـى الإسـلام الحـق يقـول على بن أبى طالب : " أيها الناس انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج قوم من أمتى يقرأون من القرآن ، ليست قراءتكم إلـى قراءتهم

بشئ ، ولا صلاتكم إلـى صلاتهم بشئ ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشئ . يقرأون القرآن ، يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، لاتجاوز صلاتهم تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " .

والأجهزة الإدارية فى العالم الإسلامى مصابة بمن يعبدون مناصبهم ويستغلونها لمصالحهم ، ولا يعرفون أنها أمانات يسألون عنها يوم الحساب .

وعلم القلوب ، الذى يسمى الآن علم التصوف ، لايدرى شيئاً عن علل الأمة ، بل هو تائه وسط أفكار وفلسفات سقيمة . ثم هو بين العوام ، رقص تهتز به الأبدان ، وتموت فيه العقول والأفئدة .

واذكر أنى فى صباى ، قرأت كتابا يتتبع الأمانة فى مسالك الناس ، وأظن المؤلف أمريكيا ، فاستغربت أنه قرّب الفضيلة من الأذهان ، وكان عمليا واضحا فى اثبات السلوك الشريف ومحو السلوك الخائن . قلت ما أحوجنا إلى مثل هذا التأليف فى ميدان التربية ، حتى يكثر الأمناء بيننا .!

ان نبينا عليه الصلاة والسلام خلّف لنا ميراثا ضخما يدفع الناس دفعا فى طريق الكمال ، ويصحبهم فى مراحل الطريق بالتوعية والتذكير حتى لاتزل قدم أو تعرض ريبة . ما أحوجنا إلى هذا الميراث ، ونحن نواجه حضارة ، ذكية ، شريرة ، مغرورة .

أظن كتب الفقه الإسلامى تبلغ نصف المكتبة الإسلامية ، فان اشتغال المسلمين بالفقه ، غلب على ثقافتهم ، وتغلغل بين عامتهم وخاصتهم . وان لاحظنا بحزن أن الاهتمام بالفروع الصغيرة غلب على العبادة والمعاملات .

أما الفقه الإدارى والإقتصادى والسياسى ، فان البحوث فيه قليلة ، ولعل بعضها كان مقلقا !! وقد كتب تلميذا أبى حنيفة فى هذه الشئون – أبو يوسف ومحمد بن الحسن – ألف الأول فى الخراج أو الضرائب ، وألف الثانى فى الشئون الدولية .

والميدان فسيح ليقول الفقه الإسلامى كلمته فى نظم الحكم وقضايا المال وأطوار أخرى جدت فى أنواع المعاملات ...

والطريقة التى درسنا بها الفقه فى صبانا الباكر ونحن فى المرحلة الابتدائية بالأزهر جديرة بالتنويه ، فقد كنت حنفىّ المذهب كما أراد أبى ، وكان زملائى بين شافعية ومالكية ، أما الحنابلة فقليلون .

وكنا نتبادل الخلاف الفقهى ونحن نتضاحك ! يقول المالكى الشك ينقض الوضوء ، وأقول لاينقضه . أو يقول المفطر ناسيا يقضى يومه ، وأقول لايقضيه ! ويقول الشافعى لمس المرأة ينقض الوضوء ، وأقول لاينقضه . أو يقول ينبغى رفع اليدين قبل الركوع وبعده ، وأقول لايرفع إلا عند تكبيرة الاحرام !

ومع هذا الاختلاف المتبادل ، كنا زملاء متحابين ، نؤلف المظاهرات ضد الاحتلال الانكليزى ، ونتعاون فى مصالح شتى . وما فكرنا قط أن يكون هذا الاختلاف ، مثار خصام أو عدوان .

ويظهر أن بعض البيئات فى العالم الإسلامى ، درست فقه الفروع على أسلوب آخر ، زرع الجفاء ، والفرقة بين المسلمين ..

واذكر أنى مكثت فى الجزائر بضع سنين ، أصلى وراء أئمتها ، وهم مالكية دون حرج ، وفى يوم ما جاءنا حنبلى زائراً وصلى معنا ، وكان يجاورنى فى الصف فرأيته مضطرباً غضبان يوشك أن يعيد صلاته ، وأن يأمرنا باعادة الصلاة !

قلت له : مابك ؟ قال أرأيت هذا الإمام ، يكبر ثم يقول مباشرة ، الحمد لله رب العالمين ؟ قلت له : الإمام مالك لم يثبت عنده حديث الاستفتاح ، ولم يثبت عنده أن يستعيذ المصلى .. وليست البسملة جزءاً من الفاتحة ، وله رأيه ولك مذهبك . ألم تقرأ كتاب ابن تيمية (رفع الملام عن الأئمة الاعلام) ؟

هذا تنوع وليس اختلاف تضاد ، والمرويات الواردة تنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام هذا وذاك من الأقوال ، فاسكت ولاتحدث بين الناس فتنة ! والواقع أنى أكرهت الرجل على الصمت ، وأحسبه لم يصل معنا بعد هذا اليوم .

لقائل أن يقول : ما هؤلاء الأئمة الذين ذكرت أسماءهم وربطتنا بهم ، اننا نمضى بعيدا عنهم وما نحب أن نعرج عليهم ! واجيب ، لك ذلك إذا شئت ، والمهم أن تكون ماهرا فى القرآن ، خبيرا بالسنن ، ضليعا فى اللغة ، ألمعيا فى الذكاء مستغنيا عن تجارب الآخرين !

ان هؤلاء الأئمة سبقوا فى دراسة الكتاب والسنة ، ولم يجئ احد منهم بشئ من عند نفسه . وقد عرفوا بالعلم والتقوى ، وخدموا الإسلام جهدهم ، ولم يجمعوا الناس حولهم بالعصى أو بالأعطية ، انهم مدارس مجتهدة ، تخطئ وتصيب ، وهم جميعا مع مالك فى قولته المشهورة : كل أمرئ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . واشهد أنهم قمم شوامخ فى فقه الإسلام ، وفى التجزد لله ، وازدراء العاجلة .

وما رأيت أهل علم ، زهدوا فى تراثهم ، أو زعم لأحدهم العصمة . وعلى أى حال ، فقانون الاجتهاد : أن من أصاب له أجران ، ومن أخطأ فله أجر واحد .

ورأيى أن باب الاجتهاد مفتوح ، ولكن يستحيل أن نأذن لكل انسان بولوجه . لابد من رسوخ فى العلم ، ورسوخ فى التقوى (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) . وميدان الفقه تعمل فيه شعبتان : أصحاب الرأى ، وأصحاب الأثر .

وليس معنى الرأى : الهوى ، وليس معنى أصحاب الأثر ، أن من المسلمين من يترك نصا واردا . وان الطبائع العقلية للبشر مختلفة ، فقد يفهم واحد من النص ، مالا يفهمه غيره .

وتدّبر حال الصحابة فى تنفيذ قول الرسول : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر فى بنى قريظة " .

وتدبر حال داود وسليمان حين اختلفا فى عقوبة من ترك قطيعة يفسد الحرث !! (ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلماً) .

ان الخلاف واسع بين أهل الرأى وأهل الأثر فى قضايا كثيرة ، بعضها فى العبادات ، وبعضها فى المعاملات .. لكن ماقيمة هذا الخلاف ؟ انه فى بعض الفروع والتفاصيل ، وما يجوز أبداً ان يفسد ودا أو يوقع خصاما

الأساس الذى نحرص عليه هو العقائد والاخلاق ، إننى أميل إلى مدرسة **الرأى** مع احترامى لأحمد بن حنبل وتقديرى لصلابته وتقواه ... وأشعر أحيانا بأن الخلاف – فى الفروع والتفاصيل – جزء من المجتمع الواحد ففى الولايات المتحدة حزب للديمقراطيين وآخر للجمهوريين ، انهما متفقان فى الولاء لدولتهم والانتصار لها عالمياً ، ومع ذلك فالجدال بينهما مستمر فى شئون شتى .

فلماذا يتطير البعض من الخلاف الفقهى عندنا ، وينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور ؟

أفدت من تجارب كثيرة ، أن درسا فى الطب أو الفلك أجدى على الايمان من حوار فلسفى طويل . وذلك نهج القرآن الكريم . فانه يكشف عن الحق برؤية آيات الله فى الأنفس والآفاق . (سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) ؟

بعد ساعة من تناولى الطعام أقول لنفسى بدأ العمل في إخراج الحى من الميت والميت من الحى ، كيف ؟ إن الطعام – وكان مادة جامدة – أخذ يتحول داخل جسمى إلى دماء فيها الكرات البيضاء والحمراء وإلى شعْر وأظافر ، وإلى عظام ولحوم شتى .

فلحم الكبد ، غير لحم الرئتين ، غير لحم المخ ! وللخلايا خصائص وراثيه وطارئة ، وللغدد وظائف تقوم بها ، ونحن لاندرى . والروح الذى يتخلل هذه المادة ويجعلها خلقا آخر ، ينبعث من الحى القيوم . ليس لدى وحدى بل فى ألوف مؤلفة من الأحياء ... ثم يطرد هذا البدن مالا يستفيد منه ليتحول فى بطن الأرض شيئا آخر . قد يصير سنابل حافلة بالحبوب أو نخيلا مرصعة الصدر بالطلع النضيد أو كروما يتدلى منها العنب عناقيد كثريات الذهب !!

أأنا أو أنت وراءِ هذا التحول ؟ أم رب الأرباب ؟

لو كان لأوامر الله – وراء كل خلق – صوت يسمع ، لصَمّت الآذان من كثرة الأوامر بالانشاء والتكوين . ما أجمل الله ، وأحلى صنعه ! أحياناً أردد هذا الغناء .

ياغائبا لايغيب أنت البعيد القريب !
مهما تغب عن عيونى فأنت أنت الحبيب !

ان الإسلام فطرة سليمة ، وعقل سوى ، وصراط مستقيم ، وهو طبيعة العلاقة بين مادة الكون وبارئها الأعلى . ولذلك اتجه الوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية (قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ ....) وقوله : (أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) .

ليس فى العالم إله آخر ! أين هو ؟ وماذا يصنع ؟ ان الشرك وهْم لمغفل كبيرٍ ، أو حلما لنائم منفوخ البطن مسهد المضجع !

ومع ذلك فالجاهلون بالله كثيرون . ويخيل إلى أن جريرتهم ، بقدر ما تعود إلى غبائهم ، تعود إلى تفريط المسلمين فى خدمة الحق وفتنة الناس عنه والعجز المستغرب عن اقتياد التائهين إليه ...

ليس بين المسلمين خلاف فى العقائد ، فهم مجمعون على أن الله واحد ، حقيق بكل كمال وان لقاءه حق (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) . وقد تسللت إلى العقائد المقررة أفهام وأوهام من وضع الناس ، لا يعرفها القرآن الكريم ولايقرها ..وحسبنا كلام الله ...

خذ مثلا : مبحث الصفات الالهية : أهى عين الذات أم غير الذات ، أم لاعين ولا غير ؟ وهذا تساؤل سمج يجب دفنه ومنع اللغط فيه .

خذ مثلا : أعمال الناس أهى من خلقهم أم من كسبهم وهل هم مخيرون أم مجبرون ؟ وهذه اسئلة بالغة السخف ، والمشتغلون بها هاربون من مستشفيات المجانين ، ومن قال لا عقل لى ، ولا إرادة ، فعلاجه العصا !

وفى مباحث العقائد هل البعث للاجساد الأولى أم لاجساد مماثلة ؟ وهذا كلام ولدته البطالة ولا قيمة له !

لعل أفضل ما يغرس الايمان الحق ، هو منهج القرآن نفسه ، وقد قرأت من مؤلفات العصر الحاضر كتاب (العلم يدعو إلى الايمان) ، وكتاب (الله يتجلي فى عصر العلم) ، ولو طُعِّم هذان الكتابان ببعض الآيات القرآنية لكانا أفضل من كتب كثيرة عندنا ألفت فى العقائد .

وقد سألنى أحد الناس هل فى القرآن مجاز ؟

فقلت له كيف تفسر قوله تعالى : (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) . هل السدود هنا سد أسوان وسد الفرات ؟!

ان المجاز موجود فى لغة العرب وفى لغات الناس الأخرى ، ومع ذلك فما دخل هذا فى العقائد ؟

قال : هناك من ينكر بعض آيات الصفات ويتكلف تأويلها . قلت هناك مرويات تتصل بذات الله تعالى لا يليق بالعقل البشرى ان يحاول معرفة كنهها ، **ان البحث وراء المادة ليس من وظيفة العقل البشرى .**

وهناك مرويات يستحيل تركها على ظاهرها ولابد من تأويلها مثل (... مرضت فلم تعدنى) و (... كنت سمعه الذى يسمع به ورجله التى يمشى بها) . ومع ذلك فما معنى اشتغال الدهماء بهذه المرويات وعكوفهم على ترديدها ؟

هذه بطالة مقنعة وتسكع فى طريق الحياه لا مساغ له .

ان سلفنا الأول كان سليم الفطرة ، خالص النية لزم الجد فى الأمور ، فحكم الدنيا بدينه ، ولو اهتم بهوامش العقيدة التى افتريناها ما أحرز نصرا ولافتح بلدا .

عندما شرف الله العرب بحمل الرسالة الخاتمة . حذرهم الفرقة وأوصاهم بالجماعة وقال لهم كما قال لمن قبلهم : " أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبرُ على المشركين ماتدعوهم إليه " .

وقد ظلت الثقافة الإسلامية طوال ألف عام أو يزيد ، توفر للأمة عناصر الوحدة وتجعلها أمام عدوها ، جبهة واحدة .

- لا الفقه المذهبى ، ولا هوامش العقيدة ، ولا الأخطاء السياسية الفاحشة ، أفلحت فى تقطيع الأمة الإسلامية ، وتمكين أعدائها منها حتى ظهرت بدعة القوميات فى العصور الحديثة وانتقلت جرثومتها ، إلى أرضنا فاذا هى بلاء يهدد الحاضر والمستقبل ، وكان ظهور (القومية الطورانية) فى تركيا أول الغدر بأمتنا الكبيرة وأول زلزال يصدع بناء الخلافة المعتلة !

واليهود نقلوا هذه الجرثومة إلى تركيا ، انتقاما من السلطان عبد الحميد الذى رفض باسم الإسلام ان يستوطنوا فلسطين . ومع أنهم أغروه بالمال - وكان إليه محتاجا - فقد أبى . ومع أن أوروبا كانت تظاهرهم فقد شعر الرجل المؤمن بأن تسلل اليهود إلى فلسطين ، تمهيد لضرب الإسلام نفسه فى أوطانه كلها ... **فماذا يفعل اليهود ؟**

لجأوا إلى الغزو الثقافى ، واستعانوا بقوى خفية وأخرى جلية على إنشاء (جمعية الاتحاد والترقى) ونشروا مبادئها القومية بين ضباط الجيش .

فقامت ثورة أودت بالخليفة ، وكان رد الفعل نشوء القومية العربية التى ظاهرت الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى حتى انتصروا ، وتمخضت هذه الفتن الهائلة عن سقوط الخلافة الإسلامية فى العالم .

وتتابع الانهيار حتى قامت ثورات مشابهة للثورة الكمالية ، استغنت بالقومية عن العقيدة ، وجعلت الايمان - إلى حين - ضيفا ثقيلا ينتظر منه الرحيل !

ان جماهير المسلمين لاتتنازل عن دينها ، ولاتعدل بجامعته شيئاً ، والذى حدث ان الاستعمار العالمى أول ما نزل ببلادنا ألغي الشريعة واستبدل أحكامه الوضعية بأحكامها السماوية ! ثم وضع خططا بعيدة المدى للاجهاز على بقايا الإسلام من أخلاق وعبادات وتقاليد ، واستعان على بلوغ أغراضه بنفر من الطامعين والمنحلين - وهو يتربص بنا الدوائر وينتظر مع مرور الزمن أن يمحو الإسلام كله من على ظهر الأرض !

والحرب بيننا وبينه سجال ، وهى حرب رحبة الميادين ، واسلحتها لاحصر لها .. لقد استطاع أبو بكر أن يهزم أعداء الله فى أول قتال مع المرتدين ، فهل يستطيع رجالات الإسلام فى القرن الخامس عشر للهجرة أن

يستعيدوا شرائع الإسلام التى عطلت ؟ وأن يحموا العبادات المهددة بالزوال ، وان يستبقوا المعروف معروفا ؟ والمنكر منكراً ؟

اذا انهزمنا فى هذه المعركة فلن يبقى على ظهر الأرض مؤمن ..

شبكات التنوير فى تعاليم الإسلام ، ترسل أشعتها على جبهات عريضة ومسافات بعيدة ، لأن الوحى النازل على محمد ، جامع مانع كما قال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ) . وعندما يكون الدواء مركبا من سبعين عنصراً ، فانه لايحصل الشفاء الكامل ، إذا نقصت منه بضعة عناصر ، بل قد يوصف الدواء - والحالة هذه - بأنه مغشوش ، ولعل ذلك ما بينه الرسول الكريم فى قوله : " الايمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان " .

ان هذه الشعب تتناول شئون الحياة جميعاً .

فالإسلام ينظم شئون البيت ، والشارع ، والمدرسة ، والديوان ، وعلاقات المرء مع نفسه ، والآخرين وواجباته فى الحرب والسلم ، وضوابط المعاملات الإقتصادية الرحبة .

وهو يعتبر الانسانية ، رحمة عامة توصل بالتعارف والخلق ، كما توصل الرحم الخاصة بالتزاور والعطاء . وفى الكتاب المبين والسنن الشارحة ما يوضح جوهر هذه الرسالة العالمية الخاتمة .

والمفروض أن يعرف المسلمون رسالتهم ، كما نزلت إليهم ، وأن يبينوا للناس كافة ، وان يكونوا فى حياتهم الداخلية ، صورة حسنة لها ، وإذا وقع قصور فى الفهم ، أو تقصير فى البلاغ ، فهم مسئولون عن ذلك فى الدنيا والآخرة .

ولست هنا أسائل نفسى وقومى عما كان منا وما نزل بنا فى هذه الأيام النحسات فان أيام المد ذهبت ، وأعقبها جزر مزعج . وعلى قدر الجبهة التى

عمل الإسلام فيها ، جاءت ضربات الاستعمار السياسى والثقافى ؛ وعلى قدر السعة فى ثقافتنا الإسلامية ، كان الغزو العلمى والمدنى الذى تعرضنا له ! كان اقتحام اخلاقنا يتم فى وقت واحد ، مع اقتحام حدودنا . وانى لأدرس المسرحيات التى تعرض من خلال وسائل الاعلام المختلفة ، فأشعر أنها تبدل ثيابنا الداخلية والخارجية ، كما تبدل فى الوقت نفسه أحكامنا على الأمور ، وتصورنا للحاضر والمستقبل !

وان سقوط بغداد وقرطبة أقل فى نظرى من سقوط أحكام العبادات والمعاملات ! ورضا العامة والخاصة بتعطيل النصوص ، وتحقير المثل الإسلامية أبشع فى نظرى ، من نهب خيراتنا وتحقير أوضاعنا ...

ومن هنا فأن إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة ، وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها فى الداخل والحديث عنها فى الخارج ، أهم الف مرة من تحقيق الاستقلال السياسى لبلد ما ، فى احدى القارات ...

ما قيمة هذا الاستقلال اذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا ؟

مسالك أهل الكتاب من قبلنا كانت السبب الأول فى المعركة بين العلم والدين .

وقيام عصر الاحياء فى أوروبا بعيدا عن الوحى كله !! ويبدو أن القوم لم يتغيروا فقد وقعت أخيرا معركة فى الكنيست الإسرائيلى بين وزير الخارجية وبعض الحاخامات . سببها أن الوزير قال : " وليس كل مافعله الملك داود جدير بالاعجاب !

يشير إلى مانسب إلى داود فى العهد القديم ، من اقتراف جريمتى الزنا والقتل . قالوا : زنى بزوجة (أوريا) الحثى ثم أوصى بقتله فى الميدان حتى لايعود ، ولايسترد المرأة من عشيقها الملك !!

لقد غضب الحاخامات من هذا التعريض . وقالت اذاعة لندن انهم سيحرجون الحكومة كلها فى أول اجتماع ..

ونترك بنى اسرائيل لنرمق تاريخ الكنيسة القريب والمعاصر .

لقد جاءت من اوروبا إلى افريقية ، لتبشر بالمسيح حامل الألم عن هذا الورى – كما يقول شوقى – فماذا فعلت ؟ تركت فى وسط افريقية عشرة ملايين اصابة بالايدز ، وهى تنشر الدين !

لقد حكمت بالموت على من قال : ان الأرض كرة تدور حول الشمس . أما اقتراف الزنا فحسْبُ من فعله أن يُعترف ، ويحيا أمنا !

ان تزوير الدين على هذا النحو أزرى به ، وزهد فيه ، وأعطى الحكم العلمانى ألف سبب ، ليحل محل الدين ، ويبتعد عن الوحى كله ...

ونحن دعاة المسلمين ، نلقى العنت ، حين نقدم القرآن للناس ، لأن سيرة المسلمين مع دينهم ، لاتشرّف ، ولأن المعجبين بالحضارة الحديثة ، يرونها أقرب إلى الفطرة والرشد ...

ولابأس أن أحكى ما وقع لى أخيرا .. جاءتنى رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى ، تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس ، عقدت مؤتمرها الأول فى (شيكاغو) وتستعد لعقد مؤتمرها الثانى لمناسبة مرور ٥٠ عاما على تأسيس هيئة الأمم المتحدة . وقيل لى بعد اختيارى عضوا : أن مؤسستنا عالمية تضم رجالا من كل دين سماوى أو أرضى ، بل تضم أعضاء لايؤمنون بأى دين : المهم انهم يدعمون الأخلاق الفاضلة ، ويحترمون المثل العليا التى يجب أن تحكم العالم ، وأنا رجل شرقى الأول والأخير ، انى أقول وراء محمد (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له) .

أنا أشعر حين آكل ، بأن الله ، هو الذى وضع اللقمة فى فمى . وحين أفكر ، بأن الله هو الذى أسرج مصباح عقلى ، أنه يستحيل أن أكفر أو أسوى بين مؤمن وكافر أو اشترك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحده فى عمل ما ، لرفع مستوى البشر .. !!

شعرت بأن أهل الأديان ، تلاحقهم تهمة خطيرة ، انهم لايهتمون بتزكية الروح ، وأنهم قد يدفعون المظالم عن أنفسهم ، لكنهم لايدفعونها عن غيرهم ! **وأن طقوس العبادات أرجح لديهم من حقوق الإنسان . فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها دينى ، جاء فيها مايلى :**

شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمى لدعم الأخلاق ، والتسامى بالبشر ، وقلت أن الفطرة الانسانية لاتزال طيبة ، تعشق الكمال ، وتسعى إليه ، وتقاوم السعار المادى الذى يربط المرء بنفسه ومآربه وشهواته . ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره ، واختصرت أبعاده ، ونشأت فيه لأول مرة من تاريخه المديد ، هيئة لأممه كلها ، أى أن أبناء آدم ، أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة ما يثور من مشكلات ، والتعاون على حلها . لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها الا فى ظل الاكتمال الخلقى ، وكبت غرائز الأثرة والكبرياء ، فهل نقصر فى توفير الوسائل المنشودة ، لتحقيق مانصبو إليه ؟

ان نبى الإسلام يقول : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ويقول لعلى بن أبى طالب " ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة ؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك "

ويقول لاصحابه : " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى ! قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين " !!

أننا نحن المسلمين يسعدنا تاليف هيئة أخلاقيــة تسـاند هيئـة الأمـم ، وتسـدد خطاها وتحصنها من المحاباة والهوى ...

لكننى - ولأكن صريحا - شعرت بجرح شديد عندما علمت أن "البرلمـان" الأخلاقى ، فتح الباب للمؤمن والكافر ، للموحد والمشرك ، لمن يعتقد خلـود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت !

قد تقول : هذه هى الدنيا وهؤلاء ابناؤها ، وقد تكونـت الأمـم المتحـدة مـن ملـل متناقضـة ، وتجـاورت فـى مقاعدهـا لتدريـس قضاياهـا المختلفـة ، ومـا تستطيع هيئة أخلاقية إلا ان تفعل ذلك !

ولى على هذه الاجابة تعليق !

أن النظر إلى الايمان بالله علـى أنـه قضيـة ثانويـة أو قضيـة لاصلـة لهـا بالأخلاق ، أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين* ، أو هو أمـر يثـير الاشـمئزاز ، لماذا يخلق الله ويُعبد غيره ؟ ولماذا يعطى ويُشكر سواه ؟ هل العقـوق رذيلـة إلا فى معاملة الله ؟!

اننى لو أجزلت العطاء لأحد ، ثم رأيته يجحدنـى ، لاشـتد سـخطى عليـه ، واحتقارى له ! فكيف أرضى وجـود أفـراد أو جماعـات تطعـم مـن خـير اللـه صباحا ومساء ثم تتجرأ عليه ، وتنكر وجـوده ، وحقوقـه ؟ أعتقـد أن منكـرى الألوهية ، لاينبغى أن تعترف بهم ، وإذا أضطررنـا إلـى مجالسـتهم ، فلنرسـم لذلك سياسة خاصة توفـق بيـن عقائدنـا وحقهـم فـى الحياة ، مـن يـدرى ؟ قـد يهتدون إلى الصـواب إذا حاسبناهم ... من دواعى سرورنا نحـن المسـلمين ان نلتقى بأتباع الديانات السماوية التى سبقتنا فى مؤتمر جامع ، لتحسين الحسـن ، وتقبيح القبيح ، وتقوية الفضائل ، ومحاربة الرذائـل . ان لدينـا الكثـير ، الـذى نود أن نقوله ، والتراث الذى تركه لنا محمد صلى الله عليـه وسـلم لـم يـترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها ، ولا رغبة فى التسامى إلا زكاها وشجع عليها ،.

إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بمكارم الأخلاق ، ولا أعرف رسولا سماويا ولا فيلسوفا أرضياً خلف مثل هذه التركة !!

ومن أراد الاطلاع أو الترجمة دللناه على المراجع التى يحتاج إليها ...

ثم أننا نحن المسلمين نحب ان نتعرف على الناس ، وأن يتعرف علينا الناس .

هكذا علمنا ربنا .

فان الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء ، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) .

ونحن نعتب على اليهود والنصارى أنهم لم يبادلوا المسلمين المعاملة نفسها !

قرأت ان يهوديا فى مدينة الخليل ، استولى على بيت عربى ، ثم قال لرب البيت : هذا البيت ملكى من بضعة آلاف عام ، وقد عاد الىّ ، ولست أطلب منك أجرة سكناه طوال هذه القرون ، لقد تنازلت عنها ، فاذهب إلى أى مكان ، وأقم به أو أسكن فى العراء أن شئت ولاتعد هنا وإلا ...

هل تستقيم علاقة انسانية مع هذا المنطق ؟!

والسياسة الاستعمارية التى سيرت العالم ، فى العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءها . فان الجريمة التى ارتكبها الإسلام - كما يرى البعض - أنه دحر الإمبراطورية الرومانية التى كانت تحتل الاناضول وشرق البحر المتوسط ووداى النيل ، وشمال أفريقية ، وأقطار كثيرة أخرجها الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين ، الذين أعتنقوا الإسلام بداهة .. !!

وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمراتهم القديمة كأنها أملاكهم الضائعة يجب أن يستعيدوها .. وإلى ملايين المسلمين كأنهم عبيدهم الأقدمون .

ولاشك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أسس انسانية مجردة ، فتح صفحة جديدة فى تاريخ العالم ، وكفكف من غلواء الاستعمار السابق . ولكن هل المنتصرون الذين بنوا هذه الهيئة النبيلة برئوا ، من ثورات الحقد القديم ، وحاربوا التعصب والجشع ؟

لعل انشاء جهاز أخلاقى عالمى ، يساند الخصائص الانسانية العليا وينشط الجهود المبذولة لدعمها ، ويصل بالهيئة إلى ماتريد، ويقى العالم شرور الانقسام والخصام .

عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عزوجل قال : (ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) . وفى الحديث أيضا (اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة) .

والواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفاً فى رضاه وفى غضبه ، فلا يستبيح خصما ولايجور على ضعيف ، بل يقف عند الحق ، ويستريح للعدل ، ويعلم أن النزق والجور من صفات السباع لا من خلائق الانسان .

ويؤسفنى أن الانسانية فى تاريخها الطويل ، احتالت على ارتكاب المظالم ، ورأت فى اختلاف البشر قوة وضعفا ، وغنى وفقرا ، وايمانا وكفرا – ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ماتريد .

وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شئ ماديا كان أو أدبيا (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين)

وفى آية أخرى (لايجرمنكم شنآن قوم – كرْهُهُم – على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) . لقد وهم الناس أن إختلاف الدين يبيح التظالم

ويترك المجال رحبا للمشاعر المنحرفة والأهواء الجامحة ، وهذا كذب على رب الدين وباعث المرسلين (ان الله يأمر بالعدل والأحسان ...)

واذكر ثلاثة أحاديث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفرية وتبرئ الإسلام من هذه التهمة .

الحديث الأول : (دعوة المظلوم مستجابة ، وان كان فاجراً ، ففجوره على نفسه) .

الحديث الثاني : (دعوة المظلوم – وان كان كافرا – ليس دونها حجاب).

الحديث الثالث : (عن أبى ذر قلت يارسول الله ماكانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، انى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فانى لا أردها ، وان كانت من كافر ...) !!

ومن دواعى الدهشة ، أن يموت نبى الإسلام ، ودرعه مرهونة عند يهودى فى طعام اشتراه لأهله ! ما أثر اختلاف الدين هنا ؟

ان اليهودى التائة عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال فى عاصمة الإسلام !

هل كانت غربته سببا فى أن يجور عليه أحد ؟ لقد حصن الحكم الإسلامى حقوقه فعاش ومات لايشكو شيئاً .

اننا نحترم الرأى والرأى الآخر وإذا كنا – نحن المسلمين – نشكو شيئاً فمواريث الضغائن التى نعامل بها فى ميادين شتى ، ونرجو أن تزول مع استقرار حقوق الانسان .

وفقكم الله ، وسدد خطاكم

المحاضرة الثالثة

نحو ثقافة بناءة

الأستاذ الدكتور أحمد هيكل

١٢ ديسمبر ١٩٩٤م

٩ رجب ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

من اليمين الاستاذ/ محمود منسى السيد الوزير احمد على كمال فالاستاذ سعيد صالح فالاستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاه والسلام على رسوله الكريم :

محاضرنا الأستاذ الدكتور / أحمد هيكل ، اديب وشاعر واستاذ جامعى . وكان عميدا لأقدم كلية فى مصر بعد كلية الالسن التى انشأها رفاعة الطهطاوى ، وهى كلية دار العلوم التى أنشأها تلميذه على مبارك سنة ١٨٧١ ، وهى كما يقول عنها محاضرنا الدكتور الأستاذ / أحمد هيكل فى الطبعة السادسة من كتابه تطور الأدب الحديث فى مصر : (أنها أنشئت لتمثل اللقاء المتزن بين الثقافتين : القديمة ممثلة فى التعليم الأزهرى ، والحديثة ممثلة فى المدارس ، ولتُخرج من لانزال نرى تعاقب أجيالهم وتتابع آثارهم ، فى ميادين التعليم والتأليف وفى آفاق اللغة العربية وآدابها وفى مختلف الدراسات الإسلامية) .

ومحاضرنا **هو أيضاً وزير الثقافة الأسبق ، وهو عضو مجلس الشعب وعضو مجلس إدارة العديد من الأجهزة والمراكز العلمية** . وهو حاصل على جائزة الدولة التشجيعية فى النقد والدراسات الأدبية سنة ١٩٦٩ ، وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٤ . وله عشرات من المؤلفات الادبية

خاصة فى الادب الاندلسى الذى انفرد بالتعمق فيه ، وقد صدر حتى اليوم من مؤلفه الضخم (الادب الاندلسى) احدى عشرة طبعة . هذا بالاضافة إلى كتاباته بالاسبانية والتى اصدرها فى مجال التعريف بالاسلام ، إلى جانب مئات المقالات المنشورة له فى مختلف الدراسات والمجلات العلمية فى مصر والخارج .

فمحاضرنا وأمره فيما سلف ، هو ثروة قومية ، وهو من القمم المصرية الشامخة ذات التوجيه والرأى السديد . وانه لفضل وشرف كبير ان يحظى الموسم الثقافى للجمعية الخيرية الإسلامية باحدى محاضراته فى موضوع (نحو ثقافة بناءه) .

وتبدو أهمية هذه المحاضرة ، فى ان الفرق بين الانسان والحيوان هو فرق توافر أو انعدام الثقافة . وان الفرق بين انسان وآخر ، هو فرق فى درجات الثقافة . وكذلك ان الفرق بين دول متقدمة وأخرى متخلفة ، هو فرق مرده اساسا إلى فرق الوعى أو التقنية الحديثة أى فرق الثقافة . ولاشك ان الهدف الأكبر من سائر الاديان والايديولوجيات البناءة . هو التوعية بالحقائق أى الثقافة البناءة .

واحفظ عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله (أن الرجل لايصدر عنه فساد العمل إلا لأحد شيئين : اما لهوى واما لجهل .. وان الهدف الاسمى لكل ذى رسالة هو تصحيح المفاهيم الخاطئة) . ويقول عالمنا ابن خلدون (يوزن المرء بقوله ، ويقوم بعلمه ... وانه لا رأى ولا خيار بدون ثقافة أو معلومة صادقة) .

واذكر عن محاضرنا واستاذنا الفاضل الدكتور / أحمد هيكل قوله (ان الثقافة تعنى رقى الفكر وسمو الوجدان ، وان رقى الفكر يكون بالعلوم والمعارف والخبرات والتجارب ، أما سمو الوجدان فليس إلا بالتدين الحقيقى والسلوكيات الراقية .. وان الذين يكتفون من التدين بالجانب الشكلى كمجرد حجاب المرأة أو لحية كثيفة انما يسيئون إلى الدين)

وإذا كان سلوك الانسان هو نتاج فكره وثقافته ، فاننا نطرح قضية هامة أو سؤالا ملحاً وهو : هل الثقافة السائدة اليوم بين شعوب العالم الإسلامى الذى لاينكر أحد تخلفه ، هى ثقافة معبرة عن قيم الإسلام وتعاليمه أم هى بعيدة عنه كل البعد .. ثم ماهو السر أو السبب فى ذلك الانفصام الذى نعانيه بين العقيدة والسلوك ، وبين القول والعمل . تلك بعض اشكاليات الثقافة التى تتطلب تحليلا ووضوحاً فى الرؤية .

واترك الكلمة لأستاذنا الفاضل ، إذ الثقافة البناءة ، موضوع محاضرة اليوم ، هى وحدها التى تضئ لنا طريق السعادة فى الدنيا والخلود فى الآخرة ... ومن هنا كانت أهمية وضرورة هذه المحاضرة .

كلمة الأستاذ الدكتور / أحمد هيكل

" **بسم الله الرحمن الرحيم** "

السيد الأستاذ رئيس الجمعية . الأخوة الأساتذة أعضاء مجلس الجمعية الموقرة ، الأخوة والأخوات حضور هذا اللقاء الكريم .

اسمحوا لى فى بداية محاضرتى أن أتقدم بأجزل الشكر ، إلى الذين شرفونى بالدعوة إلى هذه المحاضرة ، وأجزل الشكر لكل من نظم هذا الملتقى ، وأن أتقدم إليكم أنتم بكل العرفان ، لتجشمكم مشقة الحضور لسماع ما أقول .

أيها الأخوة : موضوعنا عن " الثقافة " وكيف تكون " بناءة " ، والثقافة كلمة تعددت في الاستعمال مدلولاتها ، وكثرت معانيها ، حتى أصبحت من أقل الكلمات حظا من صحة الاستخدام ودقة الدلالة . وبسبب هذا حدثت بلبلة للمستخدمين لهذه الكلمة وللمتلقين عنهم أيضا . بل ضاعت – في أكثر الأحيان – قيمة الكلمة ، ولم تعد تفيد ما يجب أن يطلب منها من معنى ، وبالتالى حدث تضليل – ربما غير مقصود – في التعامل مع الثقافة ، ولم تعد الثقافة قيمة ضرورية وأساسا من أسس حياتنا كما يجب أن تكون .

فأحيانا تستخدم كلمة ثقافة بمعنى " **التعليم** " وهذا خطأ فالثقافة شئ والتعليم شئ آخر . وأحيانا تستعمل كلمة ثقافة بمعنى " **الفن** " وهذا خطأ أيضا ، لأن الثقافة شئ والفن شئ آخر كذلك . وأحيانا تستخدم كلمة ثقافة في الحديث عن " **التاريخ** " أو " **الآثار** " أو " **العادات والتقاليد** " . وهذه كلها استخدامات غير دقيقة ، بل خاطئة ، لأن الثقافة شئ ، والتاريخ والآثار والعادات والتقاليد أشياء أخرى .. وهناك غير كل ذلك ، استخدامات للثقافة ، لاتقل خطأ عن كل ما تقدم من استخدامات ...

والذى أعتقده وأعمل في المجال الثقافي من خلاله ، هو مفهوم محدد للثقافة ، أرى بعد طول تأمل ومراجعة أنه المفهوم الصحيح والدقيق ، والذى يجب أن نتفق عليه ونرتضى الانطلاق من خلاله في عملية التثقيف .

هذا المفهوم الذى أرتضيه بل أومن به ، هو أن الثقافة هى " رقى الفكر وسمو الوجدان " .

كما أرى أن هذا المفهوم تحققه روافد ، وتتحقق به غايات . أما الروافد التى تحقق هذا الرقى في الفكر ، وهذا السمو في الوجدان فهى : العلوم والمعارف والخبرات التى تنهض بالفكر .. والدين الصحيح والخلق الكريم والفن الراقى والموروثات المهذبة التى تنهض بالوجدان .

وهكذا أرى أن الثقافة الحقة ، تنهض على دعامتين لابد من كل منهما : **الدعامة الأولى** " رقى الفكر " ، **والدعامة الثانية** " سمو الوجدان " ، فالفكر وحده مهما ارتقى ليس كافيا لتحقيق الثقافة ، والوجدان وحده مهما سما ، لايحقق ثقافة ، اذ لابد من الأثنين معا .

وهكذا أيضا أرى أن " **رقى الفكر** " يتحقق بالعلوم والمعارف والخبرات ، وأن **سمو الوجدان** يتحقق بالدين الصحيح ، والخلق الكريم ، والفن الرفيع ، والموروثات الراقية ، والقيم العالية ، التى ورثناها عن الآباء والاجداد .

واذن ، فالفكر مهما ارتقى بالعلم دون الروافد الأخرى ، فهو فكر راق فحسب ، وصاحبه مفكر كبير أو عالم عظيم فقط ، ولكنه ليس مثقفا بالمفهوم الدقيق للثقافة . ومن هنا قد يكون الانسان من حملة أرقى الاجازات العلمية ولكنه ليس مثقفا ، لأنه لاحظ له من رقي الوجدان ، بالدين الصحيح ، والخلق الكريم ، والفن الرفيع ، والموروث السامي .

وأذن أيضاً ، فالوجدان مهما ارتقى بالفن مثلا ، حتى أصبح صاحبه من كبار الفنانين ، ولكنه لاحظ له من بقية روافد رقى الفكر ، من دين صحيح ، وخلق كريم ، لايمكن أن يسمى صاحب هذا الوجدان المعتمد فقط على الفن – دون بقية الروافد – لايمكن أن يسمى مثقفا ، وانما يمكن أن يسمى فنانا ، وقد يكون فنانا كبيرا .

فالعالم فقط عالم ، والفنان فقط فنان . وليس أحدهما بمثقف بمعنى الكلمة الصحيح إلا إذا توفرت له كل روافد رقى الفكر ، وكل روافد سمو الوجدان .

وقد اوضحت ان **روافد رقى الفكر** هى العلوم والمعارف والخبرات والتجارب ، **وأن روافد سمو الوجدان** هى الدين الصحيح والخلق الكريم والفن الرفيع والموروثات الرفيعة .

وانما أخترت هذا المفهوم للثقافة لسببين أساسيين :

السبب الأول ، أنه هو المفهوم الذى تؤيده لغتنا وتراثنا ، بل تؤيده المفهومات المستفادة من كلمة (Culture) الأوربية ، التى جاءت كلمة ثقافة عندنا ترجمة لها . أما لغتنا فتفيد أن الثقافة تعنى – فى الأصل – الاستقامة والاعتدال والصقل والتهذيب والاستواء ، فمن أقدم الاستعمالات فى العربية قولهم :

" ان تثقيف العود : هو تهذيبه وصقله وجعله مستويا معتدلا صالحا لكى يكون رمحا " ، ومن أقوالهم ايضا : ان الثقافة هى " الحذق والفطنة " . واذن فالثقافة لها جانبان فى مفهومها الأصلى العريق القديم ، **جانب يتصل بالفكر** ، وهو ما عبروا عنه بالحذق والفطنه ، **وجانب يرتبط بالوجدان** ، وهو ما عبروا عنه بالتهذيب والصقل والاستقامة . وأما ما يستفاد من أصل استخدامات كلمة " Culture " الأوربية فهو التنمية والرعاية والتهذيب ، لأن الأصل فى اللغات الأوربية قد جاء من كلمة لاتينية تعنى الزراعة ورعاية الزرع والسهر على تربيته والعمل على انمائة . . . وهذه المعانى لاتبعد كثيرا عن التهذيب والتربية والتحسين والصقل والتثقيف .

وأما السبب الثانى فى تفضيلى للمعنى الذى اخترته " للثقافة " وهو " رقى الفكر " " وسمو الوجدان " فهو ان هذا المفهوم هو الذى يمكن أن ننهض به شعبنا ونعيد به بناء أمتنا ، فنحن محتاجون الي أن نرقى فكرا ونسمو وجدانا ، وبهذا الرقى والسمو نتجاوز التخلف ونتخطى العقبات ، ونحقق ما نصبوا اليه من تقدم وصدارة .

أما غايات الثقافة بالمفهوم الذى اخترته ، فهى صنع الفرد الصالح ، والمجتمع الصالح :

واقصد الفرد الصالح بالفكر الراقى والوجدان السامى . ومن شأن مواطن كهذا ، ان يكون مواطنا على حظ كاف من المعرفه ، وعلى قدر مرض من التجربه وعلى مستوى معقول من الخبرة ، ثم يكون فى الوقت نفسه صحيح التدين – معتدلا بلا تطرف أو تقصير – كما يكون متمتعا بخلق كريم وسلوك قويم ، وحرص على التشبث بالقيم الموروثة الرفيعة ، والعادات الأصيلة الراقية .

وأما المجتمع الصالح ، فهو المجتمع المكون من أفراد صالحين ، وهؤلاء الصالحون من شأنهم – اذا إتسموا برقى الفكر وسمو الوجدان – أن يكونوا متجانسين متوافقين ، تتقارب نظرتهم الى الاشياء ، وتتشابه أحكامهم على الأمور ، كما يكونون منتمين الى الأرض التي عليها يعيشون ، مترابطين متساندين متكافلين ، يمثلون – مهما اختلفت مذاهبهم ومعتقداتهم – وحدة اجتماعية قوية ، تنعم بالأمن القومى ، وتسعد بالسلام الاجتماعى . .

وانما حرصت على جعل الدين رافدا أساسيا من روافد سمو الوجدان ، بحيث لا يسمو الوجدان إلا به ، وبالتالى لا تتحقق الثقافة الا بسمو الوجدان . أقول حرصت على هذا ، **لان الدين فى رأيى أهم عوامل سمو الوجدان** ، فهو الذى يصقل النفس ، ويهذب المشاعر ، ويرقق الاحساس ، ويوقظ الضمير . بالاضافة الى ما يغرس فى الانسان من نبيل الاخلاق ورفيع القيم ، وما يوجهه اليه من قويم السلوكيات ، وصحيح التوجهات ... ومن غير ذلك كله لا يمكن أن يوصف انسان بسمو وجدان ، ولا يستحق أن يوصف بثقافة ، مهما كان حظه من العلم أو نصيبه من الفن .

وإنما ذكرت الى جانب الدين " الاخلاق " مع ان الدين يشملها ، لان البعض يفهم ان الدين عقيدة فقط ، أو عبادة فقط ، فأردت أن أؤكد على

القيم الاخلاقية إبرازا لها وتوضيحا لأهميتها ، مع تسليمى ابتداء بأن الدين الصحيح والتدين الكامل ، يشملها ولا يتم بدونها .

وقد يقال – وقد قيل فى مناسبات عديدة – هل يُعتبر غير المتدين غير مثقف ، حتى ولو كان عالما كبيرا وفيلسوفا خطيرا وفنانا شهيرا مثل " جان بول سارتر " مثلا ؟ وهل معقول أن يكون " سارتر " ليس مثقفا . وجوابى هو ، أن الثقافة لها طابع خاص دائما ، فهناك ثقافة عربية ، وثقافة غربية ، وثقافة اسلامية ، وثقافة غير اسلامية . وأنا أتحدث عن ثقافتنا الاصلية ، أى عن الثقافة الاسلامية ، التى يجب أن نحققها وأن نثقف أبناءنا بها .

ومن هنا أقول : ان سارتر " ليس مثقفا بمفهومى ، وانما هو فيلسوف وجودى وكاتب مسرح فرنسى .

على أنى حين أقول بخصوصية الثقافة ، لا أجاوز الحقيقة ، فمن الحقائق ان هناك جوانب مشتركة بين الثقافات ، وهناك الى جوارها جوانب خاصة تتميز بها بعض الثقافات . أما الجوانب المشتركة ، فهى الروافد المتصلة برقى الفكر ، من علوم ومعارف وخبرات وتجارب . أما الجوانب الخاصة فهى المتصلة بسمو الوجدان ، من دين وخلق وعادات وقيم .

فلكى تكون ثقافتنا أصيلة ومتميزة ، يجب أن تكون من روافدها ، ديننا وقيمنا وراقى عاداتنا وصحيح سلوكياتنا . . ولا علينا اذا خالفنا فى هذه ، الآخرين أو خالفنا الآخرون ، فهذه خصوصيتنا التى تميز ثقافتنا ، والتى تؤكد أصالتنا وشخصيتنا ، ولا نفنى – اذا ما تشبثنا بها – فى غيرنا ، فنفقد هويتنا ، بل نفقد وجودنا .

وبهذه المناسبة أحب أن أنبه الى ما نتعرض اليه من غزو ثقافى ، وأعنى به ما يوجه الينا من دول أخرى وحضارات أخرى ، مما يتنافى مع ديننا وأخلاقنا وعاداتنا وتقاليدنا . وهذا الذى يوجه الينا – يؤثر فينا بالسلب

بل بالتشويه ، اذا لم نتنبه اليه ونتحصن ونتسلح ضده ؛ أقول هذا ، وأنا أعلم أن البعض ينفى أن يكون هناك غزو ثقافى أصلا . كما يقول هذا البعض ان القول بالغزو الثقافى انما هو دعوة الى الانغلاق والتقوقع ورفض الحضارة الحديثة ، ومن هنا لا نستفيد من منجزات العلم والتقدم " التكنولوجى " والحصاد الفنى الراقى الذى يطرحه العالم المتقدم كل يوم .

وأحب أن أوضح لهؤلاء ، أن مصطلح " الغزو الثقافى " ليس من ابتكارنا وانما هو مصطلح قال به الفرنسيون ، حين رأوا هجمة شرسة من الثقافة الامريكية على المجتمع الفرنسي . وهكذا اعترف الغربيون أنفسهم " بالغزو الثقافى " . كذلك أحب أن اوضح أن الحصاد العلمي والمعرفى "والتكنولوجى" لا يمكن أن يتحقق به الغزو ، لان العلم والمعرفة " والتكنولوجيا " من الروافد التى لا تمس الوجدان ، وانما تمس الفكر . ولذا نحن نرحب بكل ما يطرحه العالم من علم ، وفكر ، وتجربة ، واختراع ، لأن هذا يثرى ولا يشوه ، وينفع ولا يضر .

أما مكمن الخطر فهو الجانب المتصل بالوجدان ، وهو أمور الدين ، والأخلاق والقيم والعادات والسلوكيات ، فهذه الأمور هى التى يمكن أن يتحقق بها الغزو ، وذلك عن طريق بث معتقدات غير صحيحه ، أو اشاعة أخلاق غير قوية ، أو نشر قيم غير كريمة ، أو التركيز على عادات تضر ما نعتز به من عادات ، وتزين سلوكيات ، تسئ الى ما نحرص عليه من سلوكيات .

وهكذا نرى أن الغزو الثقافى خطر حقيقى ، وان التحذير منه لا يعنى الدعوة ألى رفض العلم والفكر الراقى الذى لدى من سبقونا ، وتفوقوا علينا ، وانما هو تحذير من كل ما يتنافى مع ديننا وأخلاقنا وقيمنا وعاداتنا الكريمة وموروثاتنا العظيمة .

ولذا أحب أن أؤكد أننى **أولا** أدعو الى ثقافة محددة المفهوم ، لا تضل بين معان شتى .. وهذا المفهوم يدعو الى ترقية الفكر عن طريق العلم والتجريب ، كما يدعو الى ترقية الوجدان عن طريق الدين والأخلاق والفن الرفيع والموروث الراقى .

وكذلك أحب ان اؤكد **ثانياً** أنى أعتبر الدين من أهم روافد سمو الوجدان ، وسمو الوجدان أحد دعامتى الثقافة الحقة .

ثم أحب أن أؤكد **ثالثاً** ان أخذ هذا المفهوم للثقافة هو الذى يرتبط بجذور الكلمة فى لغتنا وتراثنا ، كما لا يبعد هذا المفهوم عن المعانى الاصلية التى يعطيها أصل الكلمة الاوربية التى ترجمناها الى كلمة ثقافة ، وهى كلشر Culure .

وأخيراً أحب أن اؤكد أن الأخذ بهذا المفهوم الذى اخترته لكلمة ثقافة ، يعصمنا من تضليل المفهومات العديدة التى كثيرا ما تراد من كلمة ثقافة ، كما يحقق هذا المفهوم الصحيح الذى اخترته ، ان تكون لنا ثقافة ايجابية خلاقة ، لها دورها فى صنع المواطن الصالح ، والمجتمع الصالح . وما أحوجنا الى ذلك ، بعد ان أصيبت أمتنا أفرادا وجماعات ، بما تحتاج معه الى اصلاح ما فسد وتعويض ما فات .

واختتم كلمتى بتنبيه أراه ضروريا وأرجو فيه أن تتآزر كل المؤسسات والهيئات التى تقدم الى الناس شيئا يتصل بالفكر أو يمس الوجدان ، على وضع خطه قومية يكون هدفها ، الرقى بفكر المواطنين والسمو بوجدانهم ، ثم تقوم كل مؤسسة أو هيئة بدورها فى تحقيق هذا الهدف . وهذه المؤسسات والهيئات هى وزارة الثقافة ، وزارة الاعلام ، وزارة التعليم ، وزارة الاوقاف ، وهيئة قصور الثقافة ، والمجلس الاعلى للشباب والرياضة . ولا

يصح أبدا ان تعمل كل مؤسسة أو هيئة منفردة ، لأنه كثيرا ما تقدم مؤسسة ، ما يتناقض مع ما تقدم الأخرى ، وقد يقال من خلال هيئة ما يتنافى مع ما يقال من خلال غيرها . **والذى يحول دون هذا التناقض والتضارب ، هو وضع خطة قومية للتثقيف ، تتفق كل الوزارات والهيئات على خطوطها الرئيسية وعلى أهدافها الاساسية** ، ثم تقوم وزارة الثقافة بدورها من خلال أجهزتها ، وتقوم وزارة الاعلام بنصيبها من خلال أدواتها ، وتقوم وزارة التعليم بمهمتها ، وتقوم هيئة قصور الثقافة بواجبها عن طريق قصورها وبيوتها ، ويقوم المجلس الاعلى للشباب بما يخصه عن طريق نواديه الرياضية وتجمعاته الشبابية وهكذا . والمهم فى كل الاحوال ، أن يعمل الجميع على التثقيف " **الرقى بالفكر** " و " **السمو بالوجدان** " لصنع مواطنين صالحين فى وطن صالح ، وارجو أن اكون قد قلت شيئا مفيدا . . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق

المحاضرة الرابعة

مفهوم الخيرية والدور المفقود لأمة الإسلام

١٦ يناير ١٩٩٥م

١٥ شعبان ١٤١٥هـ

جانب الحضور :

من اليمين : فضيلة الامام الأكبر الشيخ سيد طنطاوى فالمستشار سعيد الجمل فالدكتور ...

على المنصة : المستشار محمد صادق الرشيدى ، فالمحاضر الاستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق فالمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم

محاضرنا الاستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق ، هو خريج كليه دار العلوم سنه ١٩٤٨ ، وقد حصل على الدكتوراه منها ، في الأدب الحديث سنة ١٩٦٩ . وقد عمل محاضرنا عقب تخرجه من الجامعة بالتدريس بالثانوى ، وعقب حصوله على الدكتوراه بالتدريس الجامعى . وقد شغل عدة مراكز فقد كان مديرا للمركز الثقافى الإسلامى بالصومال ، ومديرا لادارة التراث بوزارة الثقافة ، ومديرا عاما فمساعدا للأمين العام لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ، وهو اليوم نائب رئيس المجلس الإعلى للشئون الإسلامية .

ولمحاضرنا عدة مؤلفات منها : " السيرة النبوية فى القرآن الكريم " ، وأدب الدعوة فى عصر النبوة ، و" الغزو الفكرى : أهدافه ووسائله " ، و" التعليم فى مصر " ، و" أضواء على الصومال " ، وغيرها . وقد شارك

وأسهم فى العديد من المؤتمرات المحلية ، والعربية ، والإسلامية ، والدولية ، وحصل على عدة أوسمة وأنواط فى مصر والخارج .

ومحاضرنا هو دائما ، الكاتب ، والمفكر ، والداعية الإسلامى الكبير ، الذى يحمل هموم العالم الإسلامى ومشكلاته ، وله رؤية واضحة للواقع الإسلامى المشحون بالعجز والتخلف ، مع الوعى العميق بسبل التحرر والخروج من المأزق التاريخى الذى تعانى منه الأمة الإسلامية .

وأرى أن محاضرنا قد لخص فكره فى ثلاث نقاط ضمنها كتابه " الأبعاد الغائبة فى أزمة الخليج " ألا وهى :

أولا : غيبة الديمقراطيه .

ثانيا : غيبة الدور الفاعل لعلماء الامة .

ثالثا : غيبة العدل الاجتماعى .

لذلك نراه يحدثنا وبنص عباراته : ((إنه فى الوقت الذى تنعم فيه ديار الكفر والفسوق – كما نخدع أنفسنا بما نطلق عليها من نعوت نحن بها أولى – فى الوقت الذى تنعم تلك الديار ، وأهلها بمنتهى الحرية والديمقراطية ، واحترام حقوق الانسان ؛ تشقى أمتنا العربية والمسلمة ببلاء الاستبداد والديكتاتورية . . . فى حين أننا الامة التى قال الحق تبارك وتعالى لرسوله ولكل من يلون أمرها من بعده " وشاورهم فى الأمر " كما اعتبر القرآن صفة الشورى أى الديمقراطية احدى سمات هذه الامة حين قال " وأمرهم شورى بينهم ")) .

ثم نراه يؤكد بنص ألفاظه وعباراته ((إنه من منظور السياسة الشرعية واعتبار المصالح العليا للأمة ، لا يجوز بحال أن يعتبر النفط مجرد سلعة يحتكر منفعتها ويتاجر فيها من ظهرت فى منطقتهم كما يتجرون فى ثمار النخل وقطعان الابل . . . . وإنما هو منحة إلهية للأمة كلها ، وليس لمن

يسمون دول الخليج ، ومن حق الأمه بل من واجبها أن تشارك فى عوائده وفى رسم سياسة التعامل به مع الآخرين)) .

ثم نراه يذكرنا بنص الفاظه وعباراته ((ان الإسلام مع تقريره " خصوصية الملكيه " وصيانتها ، فقد قرر " عمومية الانتفاع " بهذا المال ، بحيث يأخذ المسلم من ماله كل ما يفى حاجته ، وما يزيد عن الحاجة يجب أن يوضع فيما ينفع عباد الله ولا يجوز حبسه أو إحتكاره)) .

ومن ثم نرى محاضرنا ينتهى إلى القول ((إن البعد الخطير الغائب فى حياة الامة الإسلامية ، والمسبب الاكبر بين مسببات عجزنا وتخلفنا ، هو انعدام العدل فى قضية حسن إستخدام المسلمين لما ركز الله فى أرضهم من ثروة ، وحسن توزيعها بما يكفل توفير المصالح العليا للأمة)) .

يا اخى نعم ما تقوله ، وتوعى به المسلمين حكاما ومحكومين ، بكل صراحة وإخلاص ، **بحتمية العودة إلى أصول الإسلام الغائبة ألا وهى :**

أولا : التزام الشورى والديمقراطية فى شئون الحكم .

ثانيا : التزام كفاية الانتاج وعدالة التوزيع فى شئون الاقتصاد .

وإن الالتزام والاستقامة فى شئون الحكم والاقتصاد ، هو سبيل الإسلام للالتزام والاستقامة فى عبادة الله ، لنكون بحق كما أراد الله لنا خلفاءه فى أرضه : نلتزم بالشورى ، ونقيم العدل ، وننشر المحبة والسلام .

فمرحبا بالاخ الفاضل الاستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق فى الموسم الثقافى للجمعية الخيرية الإسلامية ، ليحاضرنا فى موضوع حيوى : ألا وهو مفهوم الخيرية والدور المفقود لأمة الإسلام .

إن من أهم الفرائض الإسلامية المغيبة فى عصرنا هى : التكليف بإنفاق العفو أو الفضل ، أى الزيادة من المال أو الجهد ، فى سبيل الله والمجتمع . فالقرآن الكريم يقول (يسألونك ماذا ينفقون : قل العفو) ويقول (خذ العفو

وأمر بالعرف) . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول (يا ابن آدم انك إن تبذل الفضل خير لك ، وان تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى) ويقول (من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لازاد له) ويضيف الرواة ان الرسول عليه السلام ، ذكر من أصناف المال ما ذكر ،حتى رأينا انه لا حق لأحد منا فى فضل ، والحديث يقول (تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) .

فالقرآن والسنة تكشف لنا عن فكرة أساسيه ، قررها الإسلام ، وانفرد بها منذ أربعة عشر قرنا ، بحيث يلتزم بها الفرد والحاكم ، وهو أن كل ما زاد عن حاجة الفرد ، لا حق له فيه متى احتاج اليه المجتمع ، وهى ما عبر عنه السلف الصالح بقولهم (ان المال مال الله ، والبشر مستخلفون فيه) ، وما عبرت عنه فى كتابى "الإسلام والمشكلة الاقتصادية " بأن " حيازة البعض للمال في الإسلام ، ليس امتلاكا وانما هى أمانة ومسئولية " .

ولقد تصور بعض الصحابة أن إنفاق العفو والفوز بأجره ، هو ميزة إنفرد بها الأغنياء بقولهم " ذهب أهل الدثور بالأجور " . **فصحح لهم الرسول عليه السلام ، هذا الفهم الخاطئ ، مبينا أن العفو موجود لدى كل انسان غنيا كان أم فقيرا ، عظيما كان أم صغيرا ، ذلك أن كل فرد مهما كان ضعيفا يستطيع ان يفعل الخير بل أن يسابق أصحاب المال والجاه فى الخير** .. ذلك أن (الكلمة الطيبة صدقة ، وإماطة الاذى عن الطريق صدقة) بل (إن كف المرء شره عن الناس هو صدقة منه على نفسه) .

ولا أشك لحظة أن من أهم أسباب تخلف العالم الإسلامى ، عدم إبصاره سوى الفروض العينية الفردية ، وإغفالة الفروض الكفائية الجماعية ، أو غياب الحس بأهميتها وابعادها ، فانقطع أثرها فى الحياة العملية .. وأسهم

ذلك فى تخلفه" . ولا شك أن فى بعث فكرة التكليف بانفاق العفو من المال ، وبذل الجهد فى سبيل الله والمجتمع ، من شأنه ان يعيد تشكيل الفرد والمجتمع المسلم ، ليتحول إلى انسان ومجتمع فاعل ، يحس بدوره ومسئوليته ، ويرى هدفه ويسعى اليه .

وختاما لا يفوتنى ان اذكر عن محاضرنا ، **انه بجهده الفردى** اقام فى قريته "بى العرب" مركز الباجور بمحافظة المنوفية ، مسجدا تابع تطويره وتنميته ليصبح **منارة اسلامية ومركزا متكاملا** ، يخدم من خلاله أبناء بلده فى مختلف إحتياجاتهم الدينيه والصحية والاجتماعية . وانه بالرغم من تقدم العمر ووهن الصحة ، منحه الله بسبب قوة ايمانه وصلابته فى الحق وعمله الطيب ، روحا معنوية عالية ، **مكنته من مضاعفة العطاء** فى توعية المسلمين ، وان يقدم لهم ما يقصر عن عمله مئات الاصحاء واصحاب الفكر والرسالات **حفظه الله ورعاه ، واكرمه وأرضاه** .

كلمة الأستاذ الدكتور / عبد الصبور مرزوق

بسم الله الرحمن الرحيم

كما أن الحق دائما نقيض شديد البأس ، للباطل ، فكذلك الخير دائما نقيض للشر . والحق والخير ، كانا وسيستمران فى صراع أبدى متصل أرادته سنة الله فى الكون ، وفى الناس ، ليتم الدفع الحضارى من الحق للباطل ، ومن الخير للشر ، حتى يقضى على المبطلين وعلى المفسدين فى الأرض .

وهذا ما يشير اليه القرآن الكريم فى قوله : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض " ، ثم فى قوله : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز " .

ولأن من سنن الله فى الخلق أن يتم إعمالها بواسطة الخلق أنفسهم فقد هدى الله الانسان إلى إدراك حقيقة المشكلة الاجتماعية التى تحول بين الانسانية وبين تكاملها الاجتماعى – أى تحول دون سيطرة بواعث الخير على الناس – هدت الانسانية إلى أن المشكلة، تكمن فى التناقض الطبيعى القائم بين المصالح والدوافع الذاتية للأفراد، وبين المصالح الاجتماعية ... أى بين ضرورات المجتمع وبين رغبات أفراده، حتى يتاح للمجتمع أن يحقق التوازن المنشود بحيث تتعادل فيه المصالح، وتتكافأ العلاقة بين الحق والواجب، وتختفى الأطماع والأحقاد الطبقية.

وقد تفرق المصلحون فى ذلك مسالك شتى وهم يحاولون حلّ هذه المشكلة، مشكلة التعارض بين : رغبات الأفراد، ومصالح المجتمع.

وكانت النظرية الماركسية التى تقوم على إنهاء الرغبات والدوافع الذاتية للأفراد فى مقابل إعلاء سلطان المجتمع، قد رأت أن بلوغ هذه الغاية يتم من خلال ما يسمونه " المادية التاريخية " التى يرون أنها – من خلال ترك العنان للدافع الذاتى الذى ينعكس أثره على المجتمع بشكل طبقى فيحدث الصراع بين الدوافع الذاتية المتعارضة. وهنا – كما تقول الماركسية تضع قوانين التاريخ، حلها الجذرى بإنشاء مجتمع لاطبقى تنزول منه الدوافع الذاتية " الأنانية " وتحل محلها الدوافع الجماعية، لأن كل المجتمع سيكون مالكا لكل شئ.

وقد أثبت انهيار المعسكر السوفيتى أخيرا فشل هذه الرؤية الماركسية حيث أدى إهدار الدافع الذاتى إلى عجز الإنتاج، وبقيت دول الاتحاد السوفيتى عاجزة عن توفير القمح اللازم لشعبها الذى عانى الإهمال والحرمان والقمع ... فكان الانهيار حتميا لاشك فيه.

إذن كيف يمكن تحقيق التوفيق المتوازن بين الدوافع الذاتية للفرد ، وبين المصالح العامة للمجتمع ؟

الجواب : لا حل إلا من طريق واحد ، هو طريق " الدين " ، فالدين وحده هو الذى يستطيع – بل استطاع بالفعل – عبر القرون – أن يحجم الدافع الذاتى للانسان ، ويخفف كثيرا جدا من إنسياقه وراء شهواته ، وأنانيته المتمثلة فى فطرة غريزة التملك ، والرغبة فى المزيد من التملك ؛ وينقله إلى الحالة النبيلة المتسامية التى تحمله – دون أى ضغط خارجى – إلى التنازل طواعية عن الكثير مما يملك ، بل وربما كل ما يملك ، ليضعه فى خدمة صالح المجتمع ، وتطبيق أهدافه . ورضى الله عن أهل ذلك البيت المطهر الذين قال القرآن فيهم :

" ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا " " الانسان : ٨ – ٩ " .

بل ان للدين قدرته الرائعة على حمل الانسان على التضحية بذاته وحياته ، انتصارا للاهداف العليا للمجتمع ، على نحو ما تسجله تواريخ الاستشهاد دفاعا عن الدين والقيم فى القديم والحديث .

ذلك لان الدين – والدين وحده – هو الذى يعطى للانسان الفرد رؤية جديدة لقضية المكسب والخسارة ، تختلف تماما عن الموازين الرأسمالية . حيث يؤمن الفرد أنه فى كل تعاملاته مع الله ، يكسب أضعاف أضعاف ما يمكن أن يظفر به فى التعامل مع الناس . وحسبنا أن نشير إلى مثل قوله تعالى :

" مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " .
" البقرة : ٢٦١ "

لترى أن مثل هذا التوجيه يجعل الانسان المسلم يؤمن بأن مصلحته الذاتية هى مصلحة المجتمع ، وأنهما مرتبطتان . وهكذا تحل المشكلة فيعلو جانب الخير ويزول التناقض بين دوافع الأفراد ، وإحتياجات المجتمع ، دون صراع طبقى ، ودون حمامات دماء ، وهذا ما لم تستطعه ، لا الرأسمالية ، ولا الاشتراكية الماركسية إلى اليوم .

أصل كلمة " الخير " فى القرآن :

ولان موضوع بحثنا هو عن مفهوم " الخيرية " فى رسالة الأمة المسلمة ، ولأن الخيرية صيغة نسب إلى الخير ، لذا كان لابد أن نستعيد قراءة الاستخدامات القرآنية لجذور ولمفردات هذه الكلمة – كلمة الخير – لنقف على إشاراتها ذات الصلة بموضوع البحث .

لقد وردت الكلمة ١٨٧ سبعا وثمانين ومائة مرة فى القرآن الكريم ، تختلف فى تصاريفها وإعرابها ، كما تختلف كذلك فى المراد منها .

فهى أحيانا تأتى **بمعنى الصدقة والإنفاق** أى العطاء المادى ، الذى نجد الاشارة اليه فى مثل قوله تعالى : " وما تقدموا لأنفسكم من خير ، تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا " " المزمل : ٢٠ " . وقوله تعالى : " قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين " " البقرة : ٢١٥ " ، ومثل هذا كثير .

وأحيانا تأتى **بمعنى النعمة فى عمومها** ، ونجد الاشارة اليه فى مثل قوله تعالى : " ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به " " الحج : ١١ " .

وتأتى كذلك **بمعنى نقيض الشر** من مثل قوله تعالى عن حديث الإفك : " لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا " " النور / ١٢ "

لكن أكثر مجئ الكلمة فى القرآن يكون حاملا لمعنى صيغة التفضيل فتكون **بمعنى الأحسن والأفضل** من مثل قوله تعالى : " فعسى ربى أن يؤتينى

خيرا من جنتك " " الكهف : ٤٠ " ، وقوله تعالى حكاية مقولة فرعون عن موسى : " أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين " " الزخرف : ٥٢ " ، وحكاية قول إبليس فى تعليل رفضه السجود لآدم : " قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين " " ص : ٧٦ " .

ومع اختلافات استخدامات اللفظة واختلاف دلالاتها فى القرآن ، فكلها جميعا واردة فى الاطار العام للمفهوم الذى نتحدث عنه . فحين يخاطب الحق سبحانه أمتنا بقوله " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " " آل عمران : ١١٠ " ؛ فواضح من الخطاب إضفاء صفة من صفات التكريم والتفضيل لهذه الامة . لكنها - وبالشرط القرآنى الذى نعرض له - ليست خيرية عرق أو عنصر ، كتلك التى يدعيها بنو اسرائيل من أنهم شعب الله المختار ، وليست تمييزا بالجنس أو اللون ، ولكنها خيرية مشروطة بأداء الواجب المفروض عليها ، وهذا الشرط بنص الآية هو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واعلان الايمان بالله .

وهذا المعنى هو ما جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول عند قراءته لهذه الآية : " من سره أن يكون من هذه الامة - أى الموصوفة بالخيرية - فليؤد شرط الله فيها " . وبعض السلف الصالح من المفسرين قالوا انها تعنى أنها خير الناس للناس ، أى هى التى تأتى بالناس حتى يدخلوا الإسلام ، أو حتى ينتفعوا بهدى هذا الدين .

ويلفت النظر فى التعبير القرآنى استخدام صيغة الماضى " كنتم " وهى تشير إلى ديمومة هذه الصفة ، صفة الخيرية ؛ وأن اتصاف الامة بها وبالشروط الملحقة أو المبررة (المعللة) لها لهذا الوصف ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كأنها قدَرٌ من قدر الله ، يحدد للامة مهمتها

ودورها بين الأمم ، وهو دور القيادة والريادة والهداية إلى دين الله فى الأرض .

ذلك لأن الخطاب لم يكن للأمة القائمة أثناء نزول القرآن فقط ، ولكنه للأمة المرتبطة بهذه الرسالة عربا كان أبناؤها أم عجما عبر الزمان والمكان . وقد لحظ هذا المعنى الامام ابن كثير فى تفسيره ، حينما نقل عن بعض المفسرين قولهم : " ان المراد بهذه الامة الخيرة هم الصحابة الذين هاجروا مع الرسول صلوات الله عليه " ، لكنه عقب على هذا بقوله : " والصحيح انها عامة فى كل قرن بحسبه " ، ثم أضاف : " وهذا بفضل نبيها محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى لم يعط مثله قبله نبى من الانبياء ولا رسول من الرسل " .

ومن هذه اللفتة للامام ابن كثير ، نعبر إلى صلب الموضوع الذى نلتقى حوله الآن ، فاذا كان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، شرط استحقاق الأمة لصفة الخيرية ، **فمن الضرورى ، التحديد الدقيق لمفهوم المعروف والمنكر على المستوى اللائق بجلال المهمة المنوطة برسالة أمة رسولها خاتم الانبياء .**

ومن ثم فلست أقبل ذلك التفسير السطحى ، الذى يحصر المعروف والمنكر فى فروع الفروع ، كدعوة انسان إلى تقصير ثوبه أو نهى انسان عن التدخين ، إلى غير ذلك مما هو معروف مشهور ، يجرى الاهتمام به وتثار بشأنه الخلافات إلى حد الاقتتال ، بينما يتم التغافل عن تحديد رؤية الإسلام للقضايا الكبار الجادة كقضية الحرية والعدل الاجتماعى والعلاقة بين الراعى وبين الرعية ، ومعارك التخلف والصراع الحضارى مع القوى ، والثقافات الغازية وغيرها .

أقول : لو كان المعروف والمنكر المنوط بالأمة الامر به والنهى عنه ،هو من ذلك المستوى السطحى المشار اليه ، لكفى فى النهوض به بعض الوعاظ البسطاء ، ولما كان محتاجا إلى أمة تحمل تبليغ الرسالة الكاملة ، والخاتمة إلى الناس كافة . ولكن للمعروف والمنكر فهما آخر ودورا أكبر ، هو إبلاغ جوهر الإسلام والتعريف بخصوصيات عطائه الحضارى للناس .

واقترابا من المعنى المراد ، علينا ملاحظة المناخ التاريخى من جوانبه المختلفة الدينية ، والسياسية ، يوم بعثة محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وسنرى فيه من الجانب الدينى كيف انحط المستوى العقلى للانسان ، فتصور الآلهه أوثانا ينحتها بيديه ثم يقوم بعبادتها . أو يرى فيه نارا يشعلها ثم يدور من حولها بالتقديس والدعوات ، أو يتصوره عددا من الآلهة اثنين أو ثلاثه أو اكثر ، وهو فى كل الأحوال يخلع على الآلهة تصوراته البشرية التى تنزل بالخالق إلى مستوى المثلية لخلقه سبحانه .

وسنرى فيه من الجانب السياسى مجتمعا تتلاشى فيه شخصية الانسان الفرد لتحل محلها شخصية الحاكم ، أو شيخ القبيلة ، الذى يملك وحده التوجيه واتخاذ القرار ، وما على الجميع الا السمع والطاعة . كما نرى فيه الامتهان الحاد للأنثى ، إلى الحد الذى كانت تؤد معه ، كما تحدث القرآن . ونرى فيه الانقسام الحاد للمجتمع إلى سادة هى الشريحة الأقلية المتحكمة بعصبيتها فى المال ، والجاه ، والسلطان ؛ وبين يديها عبيد لا يملكون لأنفسهم نفعا ، ولا ضرا ، ولا حتى أن يخلصوا بالهرب مما هم فيه .

وكان المجتمع الكبير خارج جزيرة العرب تتحكم فيه انذاك ، قوتان عظيمتان هما الفرس والروم ، قريب حالهما من أميركا والاتحاد السوفيتى قبل انهيار الأخير . ولم يكن للمستضعفين من الأفراد أو الكيانات المتناثرة ، ما تحمى به كبرياءها إلا أن تعاهد أو تحالف أو تدخل فى جوار إحدي هاتين

القوتين يعبدون ما نعبد ، ويعادون من تعادى ، ويسالمون من تسالم ، مقابل أن يظفروا آخر الامر بالحماية والرعاية .

ولست أرى كبير فارق ، بين ما كان عليه حال العالم فى ظل دولة الفرس والروم ، وبين ما كان وما سيكون عليه الحال اليوم فى ظل القوتين الاعظم ، ثم فى ظل أحادية القطب ، الذى تجلس على قمته اليوم الولايات المتحدة . حيث باتت الهيمنة الغربية والرؤية الغربية عقيدة وفكرا واقتصادا وأنماط حياة ، هى النمط الذى يراد اليوم فرضه على العالم ، إنْ طوعا أو كرها ، وخاصة عالمنا الثالث الذى أغلبه المسلمون والعرب .

ولو تم فرض هذا النموذج الاستعمارى للحضارة الغربية ، فسيتعرض عالمنا العربى والإسلامى ، بل والعالم كله ، لمنكر أعظم ينتهى به حتما إلى الدمار والضياع حيث تدمر الهوية الثقافية لأنماط ولقيم الحضارة العربية المسلمة ، وتمسخ الاخلاقيات والتقاليد والأعراف . كما يتحقق فى ظل هذه الحقبة ، الطموحات والآمال الصهيونية ، بكل ما تحمل لنا من شر ، ومن عداء للأمة ، ودينها ورسولها الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وقد بزغت فى الآفاق ، بواكير هذا الفكر الخطير ، حيث امتدت يد الخبرة الأمريكية ، إلى مناهج بناء الانسان وصياغة عقله ، وتحديد قبلته ، غربا إلى واشنطون ونيويورك ولندن وباريس ، وغيرها بدل ، مكة ، والمدينة ، وبغداد ، وقرطبة ، والقاهرة . وتحركت أجهزة الاعلام ، من صحافة ، واذاعة ، وتليفزيون ، وفى طلائعها حملة الاقلام من العلمانيين ، والماديين ، والشيوعين وغيرهم من العملاء ، ليقوم الجميع بعمليات غسيل للعقل العربى . والمسلم تنتزعه من جذوره وتشككه في الثوابت من القيم ، وأيضا فى الشوامخ من الأحداث والرّجال حتى يصلوا به إلى حالة من فقدان المناعة

ويصبح كالريشة فى مهب الريح تدفعه العاصفة الغازية بيسر كبير إلى أى اتجاه .

وما يجرى فى باب السياسة والإعلام ، يتم أبشع منه فى أبواب الاقتصاد ، حيث يتم قسرا وغصبا تتبيع اقتصاديات العالم العربى والإسلامى ، للنمط الربوى الغربى البشع الذى يمتص به ما بقى من طاقاتنا ، بحيث ننتهى إلى مجرد سوق للاستهلاك ، والاستغلال ، نعجز حتى عن القيام بتكاليفه ، فنسقط آخر الأمر فى مصيدة الدين التى قد يصل الأمر بصانع هذه المصيدة ، إلى أن يبيعنا فى سوق النخاسة الدولية . بل لعل هذا البيع يجرى الاعلان عنه الآن ، بنشاط ، وهمة .

وهنا تتجسد أمام عقلى ، وقلبى ، وأمام عينى ، كذلك صورة النبوءة النبوية ، التى جاءت فى قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الحديث المشهور : " يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أمن قلة نحن ، يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل " .

وأمام هذه الصورة المخيفة ، للغد لنا وللعالم الثالث ، بل والعالم كله ، يتعين البحث عن طريق الخلاص ، ولا خلاص لنا وللعالم ، الا بابتعاث واستعادة الدور المفقود لخيرية هذه الأمة ، التى قدر لها أن تكون خير الناس ، بالشرط الذى تحدث عنه عمر بن الخطاب ، وبالوصف الذى حدده القرآن الكريم * تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله *

طوق نجاة الانسانية :

ومن هنا يكون القول بالتفصيل ، أوجب فى طبيعة المعروف ، الذى تجب علينا الدعوة اليه ، وطبيعة المنكر الذى يجب علينا النهى عنه . وهو كما سبقت الاشارة ليس أمرا بتقصير الثوب ، ولانهيا عن التدخين ، لكنه القا

طوق النجاة إلى الانسانية التى توشك فى ظل سيطرة الفراعنة ، والفوادين ، والهامانات ، أن تهوى إلى أعماق الدمار والضياع.

ولا طوق للنجاة الا برسالة الإسلام بكل عطائه الحضارى الكبير ، الذى هو فى جوهره أمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وايمان صادق بالله .

ولننظر معا وبايجاز ، فى طبيعة أطواق النجاة التى تحملها الرسالة الخاتمة ، وبما تحمل من امكانيات لانقاذ العالم مما ينتظره من شر :

فى قضية المال :

لكى يضع الإسلام المال – هذا الرزق ، الذى أراده الله نعمة للناس ، فحوله الانسان ، إلى مورد أخذ يتحكم فى رقاب البلاد ، والعباد . فجاء الإسلام ليضعه فى حجمه ، خادما للانسان ، لاسيدا له على النحو التالى :

أولا : أعلن الإسلام بقوة ، رفضه أن يكون المال حكرا فى أيدى طبقة الاغنياء ، لما لذلك من مخاطر أدركها العالم مؤخرا فيما يعرف بسيطرة رأس المال على صناعة القرار أو على الحكم .

وذلك فى النص الصريح فى آية سورة الحشر " كى لا يكون دُولة بين الاغنياء منكم " – " الحشر : ٧١ " . والمناخ الذى جاءت فيه الآية يؤكد هذا المعنى .

ثانيا : وضع الإسلام سبيلا قويما لتثمير المال وتنميته بحيث يبقى دائما مصدر إعمار لاإضرار ، وذلك عندما قرر أن يكون تثمير المال وتنميته ، من خلال تحريك الحياة وليس من خلال الربا ، لان الربا يزيد المال عند المرابى ، من غير أن يكون للمرابى أى دور أو جهد فى تحريك الحياة .

أما ما شرعه الإسلام من صنوف تنمية المال ، كالمشاركة ، والمضاربة والمزارعة ، والمتاجرة ، والقرض الحسن ، وغيرها ؛ جميعها تحرك الحياة ، وتخلق فرص الكسب أمام الناس ، وبذا ينتفع جميع عباد الله بمال الله .

ثالثا : مع احترام الإسلام الكامل للملكية الخاصة إلى حد اعتبار من قتل دون ماله شهيدا ، فانه قدر فى المال الخاص المنفعة العامة . وهنا نستحضر النص القرآنى فى قوله تعالى :

" ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو " - " البقرة : ٢١٩ " ، والعفو - كما قال الامام ابن عباس رضى الله عنه : هو ما زاد عن الحاجة .

رابعا : شدد الإسلام النكير على " الربا " و" الاحتكار " و " الغش " و " السرقة " و " الغصب " و " أكل مال اليتيم " ، وغيرها مما يؤخذ به المال دون حق .

خامسا وأخيرا : وضع الإسلام لكل تحركات المال - جمعا وإنفاقا - إطارا أخلاقيا قوامه : أن يأتى المال من الحلال وأن ينفق فى الحلال .

فلو استطاعت الأمة التى نتحدث عنها ، أن تمارس خيريتها فى الالتزام برؤية الإسلام فى التعامل مع المال ، ابلاغ هذا " المعروف " إلى العالم ، بالقدر المطلوب والمؤثر ، لصنعت للانسانية أكبر معروف ، وأنقذتها من أكبر المنكرات فى جانب المال وهو وباء الربا ، الذى يدمر الانسان ، ويسرق منه حقوقه ، ويفسد كثيرا فى الارض .

فى قضية الحرية :

هذه القضية عطاء الإسلام فيها شامخ ، وعظيم - فلم يقيد حق الحرية - الوضع المالى للانسان ، ولا جنسه ، ولا لونه ، ولا طبقته الاجتماعية ، ولا عقيدته الدينية ، ولا غناه أو فقره ، ولا جنسه من ذكر أو انثى . . . الخ .

وانما جعل حرية الانسان مرادفا لحياته ومن هذا المنظور نستطيع - وبقوة - أن نقول : أنت حى ، يساوى فى الإسلام ، أنت حر .

هكذا دون الحاجة إلى قانون ، أو قرار من رئيس أو ملك أو منظمة دولية أو غيرها ، وهذا المعنى هو ما لحظه بفطرته الصافية الفاروق عمر " رضى

الله عنه " فى مقولته الشــهيرة : " متـى استعبدتم النـاس وقـد ولدتهـم أمهـاتهم أحرارا " ؟ وتفصيل القول فى هذا لا يتسع المقام له ، ومجمل القول فيــه ، أن أى حديث عن " الحرية " فى الشرق أو فى الغرب ، وفى القديم والحديث ، لا يمكـن أن يرقـى إلـى بعـض مـا قرره الإسـلام للانسـان فـى هـذه القضيـة : قضية الحرية .

قضية المساواة واحترام حقوق الانسان :

حسب الإسلام من التميز ، فى تكريمه للانســان ، أن يعتبره الحـق تبـارك وتعالى ، خليفة عنه فى الأرض ، كما صرح به القرآن فى قولـه : " واذ قـال ربـك للملائكـة ، إنـى جـاعل فـى الأرض خليفـة " - " البقـرة : ٣٠ " ، فلمـا عبرت الملائكة عن خشيتها من أن لا يحسن الانســان هذه الخلافـة وقـالت : " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقـدس لـك " . كان الجواب الالهى : " انى أعلم ما لا تعلمون " - " البقرة : ٣٠ و ٣١ " .

وزيادة فى تكريم الله ، لعبده الانسان ، أن ميزه على الملائكة بـالعلم ، ثـم أمرهم بالسجود له ، فسجدوا كما هو وارد فى صريـح أيـات القـرآن ، وليـس وراء ذلك تكريم للانسان .

ومـرد هـذا التكريـم كمـا أشـرنـا ، إلـى طبيعـة الـدور الكبـير المنـوط بهـذا الانسان فى إعمار الأرض وحمايتها مـن الفسـاد ، والافسـاد ، والتمكيـن فيهـا لدين الله وكلماته .

أما قضية المساواة بين بنى آدم ، فيردها الإسـلام إلـى الأصـول الواحـدة الثابتة المتساوية بين الناس فى أصل الخلقة ، من التراب ؛ وفى طريقة التكاثر وخصـائص التكويـن التـى لا يختلـف فيهـا أبيـض عـن أسـود ، ولا غنـى عـن فقير ، ولا قوى عن ضعيف . . . الخ ، وهو ما أشار اليه القرآن فـى قولـه :

" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم " - " الحجرات : ١٣ "

ويؤكد هذا قول الرسول صلوات الله عليه : " الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى " ، وقوله : " كلكمْ لآدم وآدم من تراب " .

وفى مجال التطبيق ، كانت فريضة الصلاة ، نموذجا يوميا متكررا تتساوى فيه بين يدىْ الله ، كل الرءوس وتلتقى فيه كل الجباه ، ساجدة لله ، لا يمتاز فيها أحد عن أحد .

أما فى مجال العلاقات الدنيوية : سياسية كانت ، أو اجتماعية ، فطبيعة العلاقة بين الراعى والرعية ، فى العهد النبوى وفى عصور الراشدين ، كانت وستبقى نموذجا للضبط الدقيق ، للعلاقة الوثقى بين الحق والواجب ، فى إطار عقد اجتماعى بين الحاكم والمحكومين ، لم تعرف البشرية مثيلاً له من قبل ، ولم تعرف نموذجا تطبيقيا لمثله من بعد .

وحسبنا فى ذلك ، نماذج الشامخين فى هذا الباب من الخلفاء الراشدين ، وخامسهم عمربن عبد العزيز ، الذين ضربوا أعظم المثل فى ذلك ، حيث يقول أحدهم معبرا عن الجميع فى قوله غداة ولايته : " أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى " ، ثم يحدد لنفسه وللرعية المرجع الذى يكون الاحتكام اليه عند الاختلاف فيقول :

" أطيعونى ما أطعت الله ورسولهُ فيكم ، فان عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لى عليكم " . وما أكثر ما اعترض بعض أفراد الرعية ، على الحاكم علنا ، وفى وجهه ، وعلى مسمع من جمهور المسلمين ، يطلبون منه إيضاح بعض ما رأوه من أمره ، فاذا هو يستجيب ، ويبرئ ساحته بالبرهان

والدليل ، ثم يمضي الى أمره وما ورم أنفه ، ولا ذهب بمخالفيه إلى ماوراء الشمس كما يقولون .. وهكذا تكون المساواة ويكون احترام حقوق كل الانسان ، لكل إنسان مؤيدا كان ، أم من المعارضين .

ترى والعالم كله يشهد الامتهان المخيف لحقوق الانسان في كل مكان ، في الشرق كما في الغرب ما الذى كان على الأمة الخيرة أن تفعل ؟

وهل قامت تأمر بمعروف الحرية والمساواة واحترام الانسان ، فتنهى عن المنكر الجشع من المظالم والتمييز العنصرى وغيرها من مصادر الشقاء ؟ أم بقيت الأمة صامتة وزادت علي صمتها ، أن تورط أبناؤها في المنكر ، الذى كان عليهم أن ينكروه ؟ فدفعت نفسها بالتقصير في أداء واجبها القدرى ، وقصرت في ابلاغ جوهر العطاء الحضارى للناس ؟

ولو مضينا نتبع عظمة " المعروف " الذى كان على أمتنا أن تنهض به في المجال الاجتماعى ، والثقافى ، وكل مجالات الحق ، والعدل ، والجمال ، والخير . . لما وسعنا الزمن .

وفى كل هذه النواحى عجزت أمتنا عن أداء دورها مرتين : مرة في عدم التزامها بما أمرها الإسلام أن تلتزم به ، وتطبيق ما كان يجب أن تأخذ به نفسها كنموذج واقعى للمعطيات الحضارية للاسلام . وقصرت مرة أخرى ، حيث لم تعرض للعالم مزايا دينها العظيم ، أو حسب التعبير القرآنى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " " آل عمران : ١٠٤ "

وبهذا التقصير في أداء الواجب الكبير ذاقت أمتنا ، عذاب الخزى في الحياة الدنيا ، وتمكن الباطل من تمزيقها والعبث بحقوقها ، والاستهانة بدينها . وفوق هذا – وهو الأقسى – أننا نحن أبناء هذه الامة ، سنلقى الله وسيسألنا لماذا لم تقدموا إلى البشرية الرسالة الخاتمة والدين الذى أكملته لكم ؟ لماذا لم

تقدموه فى صورته النقية إلى الناس حتى يفيئوا اليه ؟ ولأنكم لم تفعلوا ، فستحملون من أوزار هؤلاء الذين لم تدعوهم إلى ما أمرتكم ، أن تدعوهم اليه . وبهذا نكون مع الاسف العميق ، قد خسرنا الدنيا وخسرنا الآخرة .

ربما يقول قائل وهذا حق : أن الجمعيات الخيرية الإسلامية ، تملأ أرض مصر وأقطار العرب والمسلمين ، فكيف لا تكون دعاة خير ؟ وكيف لا نكون أهلا للخيرية التى وصفنا بها القرآن ؟ وألا يدخل ما نقوم به فى نطاق " المعروف " الذى وصفنا به ؟

وأقول : ان كل ما تقوم به الجمعيات الخيرية فى كل مكان من عالم الإسلام هو خير . . لكن حصر الخير فى مساعدة ضعيف أو رعاية يتيم أو التمكين لطالب علم ، هذا كله شئ طيب لكنه ليس الا الجزء " المحلى " مما هو منوط بنا أن نفعله ... فيتبقى المهمة العالمية ، التى علينا أن نخرج فيها إلى الناس ، كل الناس ، نعرض عليهم جوهر العطاء الحضارى لديننا العظيم ، ولو عرفه الآخرون لتغيرت مواقفهم ، وأساليب تعاملهم معنا ، ومع الإسلام .

وهذا الدور الغائب ،هو إيضا دور مفقود مازال ينتظر أمتنا أن تنهض به . فاذا أضافت الجمعية الخيرية الإسلامية ونظيراتها فى كل مكان ، هذا الدور الهام ، إلى دورها القائم ، فإننا نلتقى ، على كلمة سواء ، ونخرج مما نحن فيه ، إلى ما ينبغى أن نكون عليه .

انى لأرجو ، بل وألح فى الرجاء ، فليس من سبيل إلى تغيير أوضاع المسلمين اليوم بل وأوضاع العالم ، إلا أن نتمكن من تغيير موقف العالم منا ومن ديننا ، بأن ننجح فى اقناعهم " **بالمعروف** " الذى لا حدود له ، والذى جاء به الإسلام للخلاص من " المنكر " الذى يرزحون تحته ويرزح معهم تحته ، بقية أجزاء العالم .

فعلى كل الجمعيات ، والهيئات ، والافراد ، العاملين فى مجالات " الخير " فى عالمنا ، أن يكملوا مهمتهم النبيلة ، ويتطوروا بها لتصبح دعوة إلى خير الأمة ، وخير العالم كله .

ولأن الهدف جليل ونبيل ، فالتصدى للنهوض به يحتاج إلى جهد نبيل وجليل ، ولينصرن الله من ينصُره ، وصدق الحق فى قوله :

" والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين "

– " العنكبوت : ٦٩ " .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

المحاضرة الخامسة

منهج الإمام محمد عبده في تجديد الدنيا بتجديد الدين

الأستاذ الدكتور محمد عمارة

١٣ فبراير ١٩٩٥م

١٣ رمضان ١٤١٥هـ

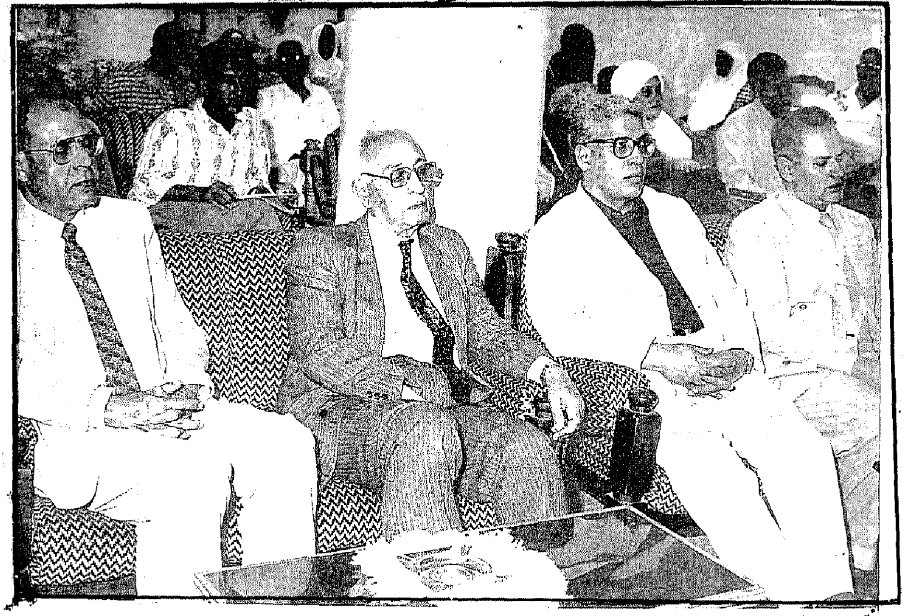

جانب من الحضور :

من اليمين الأستاذ الدكتور عبدالهادي شرياش الأستاذ الدكتور عارف الدسوقي ثم أحمد ابراهيم زيدان

على المنصة : المحاضر الدكتور محمد عمارة وعلى يمينه المستشار محمد صادق الرشيدى وعلى يسارة المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم
المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم

محاضرنا الأستاذ الدكتور محمد عمارة هو من مواليد ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ - بلدة "صروة" بمركز قلين / محافظة كفر الشيخ . وهو خريج كلية دار العلوم ، وحصل منها على الماجستير فالدكتوراه فى العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية . وقد عمل باحثا بوزارة الثقافة هيئة التأليف والنشر سنة ١٩٦٩ ، ثم مستشارا بالهيئة المصرية العامة للكتاب حتى اليوم .

وقد شارك الاستاذ الدكتور عمارة فى العديد من الندوات العلمية والمؤتمرات العالمية فى مصر والخارج . وحصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٧٧ ، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ، وجائزة جمعية أصدقاء الكتاب سنه ١٩٧٢ . وجائزة على وعثمان حافظ لمفكر العام سنه ١٩٩٤م .

وإذا أردت أن ألخص شخصية الأستاذ الدكتور عمارة ، لقلت أنه شخصية علمية محضة ، قضى كل حياته فى القراءة والكتابة ، حتى أخرج لنا أكثر من ستين مؤلفاً ، صحح وعمق بها الفكر الإسلامى . هذا بخلاف عشرة دراسات وتحقيقات كل منها فى عدة مجلدات أثرى بها المكتبة العربية .

والمحاضرة التى نحن بصددها ، هى عن شيخ الإسلام / محمد عبده ودوره فى تجديد الدنيا بتجديد الدين . وتفخر الجمعية الخيرية الإسلامية بأن الاستاذ الإمام محمد عبده ، كان من الرواد المؤسسين لهذه الجمعية سنة ١٨٩٢ ، ثم كان رئيس مجلس إدارتها منذ سنة ١٩٠٠ حتى وفاته سنة ١٩٠٥ . **وتتطلع اللجنة الثقافية بالجمعية الخيرية الإسلامية ، أن تتضمن محاضراتها المستقبلية ، دراسة حياة وفكر روادها ، ورؤساء مجالس إدارتها السابقين ، كالإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق** ، والدكتور عبد الحميد باشا بدوى ، ولطفى باشا السيد ، وسعد زغلول ، وطلعت حرب ... ممن حملوا مسئولية مسيرة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وتحققت على أيديهم انجازات ، ضخمة طيبة ، ومحمودة .

ولاشك أن خير من يحدثنا عن شيخ الإسلام الإمام محمد عبده ، هو الأستاذ الدكتور محمد عمارة . فان له ستة مجلدات عن الاعمال الكاملة للاستاذ الإمام محمد عبده . هذا بخلاف ثلاثة مؤلفات ، عن سيرة وفكر الإمام محمد عبده ودوره فى تجديد الدنيا والدين .

وإذا كان لى أن أبدى رأياً فى هذا المقام ، فهو أن روح الإسلام وعماده ، هو " الاجتهاد " ، أو ماعبر عنه محاضرنا بمصطلح " التجديد " . وانه منذ قفل باب الاجتهاد أو التجديد منذ عدة قرون ، لظروف نعلمها ،

إنتهى الأمر إلى التقليد والجمود ، وغابت الملاءمة بين تعاليم الإسلام وبين مشكلات وواقع المسلمين . وفى ظل هذا المناخ ، مناخ التقليد والجمود ، كلما إمتد الزمن بالمسلمين ، كلما بعدوا عن الإسلام فى قوة ووضوح مبادئه ، والتزموا بعادات وتقاليد وتفسيرات بعيدة عن الإسلام ، فتأخر بذلك المسلمون وتمكن منهم المستعمر .

ان الاجتهاد هو المصدر الثانى للإسلام بعد القرآن والسنة ، وان أكبر ضربة وجهت إلى الإسلام ، كانت بقفل باب الاجتهاد ، أو بعبارة أدق ، العزوف عنه تلقائيا لظروف نعلمها ، الأمر الذى أدى إلى الجمود والضياع ، وصارت العلوم الإسلامية كما عبر عنها البعض ، **(علوم رواية لا علوم دراية)** . بل وهان أمر العلماء فى مثل هذا المجتمع الإسلامى المتخلف ، مما عبر عنه أحد سلاطين المماليك بقوله **(لقد كنا نحتكم إلى العلماء ، واليوم يحتكم العلماء إلينا)** .

ولقد إستمر هذا الجمود ، لعنة عالقة بحياة الأمة الإسلامية وحضارتها ، حتى تبلورت مدرسة الاجتهاد ، أو التجديد الدينى ، والتى إنتظمت من حول الأستاذ الامام جمال الدين الأفغانى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وإذا كان الثائر المجتهد الافغانى ، قد أضاء مشعل الاجتهاد ، أو التجديد الدينى بمصطلح محاضرنا ، ثم استغرقه العمل السياسى ضد الاستعمار والاستبداد ، فان الامام الشيخ محمد عبده وهو من أبرز أئمة مدرسة الأفغانى ، قد استطاع التركيز على قضايا تحرير العقل المسلم ، والاصلاح التعليمى والتربوى واللغوى ، فكان له إسهاماته العملاقة فى تجديد الدنيا بتجديد الدين .. مما سيحدثنا عنه الأستاذ الدكتور محمد عمارة . فليتفضل مشكورا .

كلمة الاستاذ الدكتور / محمد عماره

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع هذه المحاضرة هو منهج الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فى تجديد الدنيا بتجديد الدين . وكى نضع الإمام محمد عبده ، وانجازاته الفكرية الكبيرة ، والمتعددة ، فى سياق تطور الأمة ، والحياة الفكرية والعلمية للأمة ، يحسن أن نشير إلى لحظة الاحتكاك العنيف ، التى تمت بين أمتنا ، وبين الحضارة الغربية ، عندما جاءت الحملة الفرنسية " حملة بونابرت " سنة ١٧٩٨ . والجبرتى - وهو مؤرخ العصر - يعبر عن الموقع الفكرى للعقل العربى والمسلم ازاء ما رأى لدى الفرنسيين ، بأنهم جاءوا ومعهم الصحيفة ، والكتاب ، والمطبعة ، والبعثة العلمية ، وليس فقط المدفع والبارود .

والجبرتى (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م) هو ابن الأزهر الذى كانت تدرس فيه العلوم الطبيعية بكافة أنواعها بل وحتى الموسيقى ، يعبر عن التراجع الذى أصاب العقل المسلم فى ذلك التاريخ ... جاء علينا حين من الدهر تراجعت فيه الأمة حضاريا ، وبلغ التراجع إلى حد أننا تبادلنا المواقع مع الغرب الأوربى ، حيث كان الغرب فى عصوره الوسطى والمظلمة ، فعندما أرسل هارون الرشيد " الساعة " إلى شارلمان إستدعى القساوسة ، فلما رأوا الساعة ، قالوا أن فيها شيطاناً .. !! ، لقد كان هذا هو المستوى العقلى للحضارة الغربية فى ذلك الوقت .

والجبرتى عندما يعبر عما رأه فى البعثة العلمية للحملة الفرنسية ، فكأنه يقول لنا ، لقد تبادلنا المواقع مع الغرب ، فأصبحنا نحن الذين فى موقع التخلف حتى اننا ندهش ونبهر ببسائط الأمور ، فلقد ذهب إلى " بيت البعثة العلمية " فرأى أنبوبة " سحاحة " توضع فيها بعض المواد تتفاعل ، فتحدث

دخاناً ، فقال : " **هذه أمور لا تطيقها عقول أمثالنـا** .. ؟! وعندما رأى عربة اليد تحمل رمالا أكثر مما يحمله الإنسان ، لأنها " رافعة " تحدث عن هذه العربة بقوله : " **انها معجزة الناس الفرنساوية** " ؟! هذا المستوى من حديث الجبرتى يعبر عن الواقع الذى كنا قد وصلنا إليه ، عندما حدث ذلك الاحتكاك العنيف مع أوربا / الحملة الفرنسية .

ويومئذ قال الشيخ حسن العطار (١١٨٠ - ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ - ١٨٣٥م) - الذى كان يُدرّس اللغة العربية للفرنسيين - عبارة أنا اعتبرها بداية عصر جديد ، عبر بها عن ضرورة التغيير حيث قال :

" **ان بلادنا لابد أن تتغير ، ويتجدد فيها من العلوم والمعارف ، ماليس فيها** ".

وهذا هو الذى جعل حسن العطار يرشح تلميذه رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) كى يكون واعظا للجيش عندما طلب منه محمد على (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) ذلك ، ثم يرشح رفاعة الطهطاوى كى يكون إمام البعثة العلمية ، التى ذهبت إلى باريس سنة ١٨٢٦، ويوصيه أن يدون ملاحظاته عن كل مايرى فى بلاد الفرنجه ، لأنه أراد ان يكون الطهطاوى ، مثل ابن بطوطة وغيره ، من الرحالة الذين جمعوا مشاهداتهم ، كى يستفيد منها المسلمون ، وتتجدد بها الحياة الفكرية ، ويتغير الواقع الفكرى الذى كان سائداً فى ذلك التاريخ .

لم يقنع الطهطاوى ، بأن يكون إمام الصلاة ، وشاء الله له أن يكون إمام الفكر والثقافة فى النصف الأول من القرن وحتى وفاته ١٨٧٣ ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الأمة حركة التغيير ، وحركة التجديد .

ولابد أن نشير إلى طارئ جديد :

أمتنا على مر تاريخها - كانت كأى أمة من الأمم - تمارس التقدم وتصاب بالتخلف والتراجع ، لكن قبل القرن ١٩ كانت المرجعية لأى تغيير هى دائماً وأبدا ، المرجعية الإسلامية ، فعندما كان يحدث تراجع حضارى ، أو تخلف ، من الطوارئ التى تطرأ على العقل العربى والمسلم ، لم تكن هناك مرجعية للتقدم والتغيير إلا الإسلام . ولذلك تلاحظون أن الأئمة قديماً ، عندما إختلفوا وعندما تنوعت المذاهب ، لم يقل واحد منهم ان مذهبه مذهب " إسلامى " ، أما نحن الآن فنسمى الحركات بـ " الحركات الإسلامية " وذلك لأن المرجعية هنا أصبحت غير إسلامية ، فمطلوب من أصحاب المرجعية الإسلامية أن يميزوا حركاتهم وأحزابهم وان يميزوا البرامج والتوجهات ، ومشروعات التغيير التى يقدمونها .

أما عندما لم تكن هناك إلا مرجعية واحدة هى مرجعية الإسلام ، فكان التنوع جميعه فى إطار الإسلام ، وبالتالى لم تكن هناك حاجة لان يسمى مشروع ما للتغيير ، بأنه مشروع إسلامى .

منذ حملة بونابرت ، بدأ هناك تداخل وتنافس ، وبدأ هناك نموذج جديد " لمرجعية غير إسلامية " هى " مرجعية الحضارة الغربية " . وهذا هو الجديد الذى طرأ فى القرن ١٩ ، **ومن ثم فحركة التجديد فى مصر لم تبدأ بمحمد عبده ولابجمال الدين الافغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) ، انما إزدهرت بمحمد عبده ، فهو المهندس الأكبر لحركة التجديد ، بمرجعية إسلامية ناقدة للمرجعية الغربية .**

عندما ذهب الطهطاوى إلى باريس ، رأى علوماً للواقع المدنى فدعا إلى التلمذة فيها على الغرب ، ورأى فلسفات ، ومناهج فكرية مخالفة للدين ، وبعبقرية - لأنه ذهب وهو عالم متخرج من الأزهر - ميز بين علوم التمدن

المدنى ، والعلوم الطبيعية ، التى لها مدخل فى تقدم البشرية ، ميز بين هذه العلوم وبين الفلسفات ، ولذلك عندما تكلم عن باريس قال : **ان فيها " علوما عظيمة جدا ، لكن الكفر فيها ليس له حدود** " ! حتى لقد صاغ ذلك شعرا :

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لاتغيب

وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجيب

لقد ميز فى الحضارة الغربية بين العلوم التى نحتاجها ، وبين الفكر والثقافة والعقائد ، والفلسفات ، التى قال عنها الطهطاوى " **إنها مليئة بالحشوات الضلالية المخالفة لكل الكتب السماوية** " وقال " إنهم يحسنون ويقبحون بالعقل والنواميس الطبيعية " أى من خلال العقل والتجربة وحدهما ، وانه " لاعبرة بالتحسين والتقبيح بالعقل المجرد وانما لابد من الشرع مع العقل " .

هنا نجد الطهطاوى يعبر عن عبقرية المنهج الإسلامى ، وأنه لابد ، مع علوم الكون من علوم السماء ، ولابد مع آيات عالم الشهادة من آيات الوحى ، التى تأتينا بنبأ الغيب ، وبنبأ السماء .

فمنذ اللحظة الأولى كانت حركة التجديد واعية بأن هناك مرجعية مزاحمة لها هى المرجعية الغربية ، التى بدأت تزاحم المرجعية الإسلامية فى ديار الإسلام ، منذ حملة بونابرت . وقد حمل هذه المرجعية إلى بلادنا نفر من الخبراء ، الذين جاء بهم محمد على ، وهم " السان سيمونيين " أنصار سان سيمون (١٦٧٥ – ١٧٥٥م) ، ومنهم سليمان الفرنساوى وديلسبس ، وكانت قناة السويس أحد مشروعات السانسيمونيين ، للعالمية التى تسيطر من خلالها أوربا على العالم .

وبعد حدوث الاستعمار الانجليزى سنة ١٨٨٢ ، جاءت مجموعة المثقفين الموارنة ، الذين كان بينهم وبين الدولة العثمانية ثأرا مع الإسلام ، ولم يكونوا

يستطيعون أن يقولوا أن لديهم نصرانية يقدمونها بديلا للإسلام ، ومن ثم كان النموذج الغربى ، هو الذى قدموه بديلا للإسلام ، فكانت المؤسسات الثقافية التى قامت فى القرن ١٩ في بلادنا مثل دار الهلال والأهرام ودار المعارف والمقطم والمقتطف . كل هذه المؤسسات نقلت الفكر الغربى ، ليس العلمى والمحايد والدقيق الذى نحتاجه ، وانما قدموا نظريات مثل " التطور والداروينية ... إلخ " . وبدأ لأول مرة فى بلادنا تيار فكرى ، يبشر بالعلمانية ، وكانت مجموعة المقطم والمقتطف ، اركان الحرب الفكرية لدار المعتمد البريطانى وللورد كرومر .

هكذا ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ يوجد مزاحم للمرجعية الإسلامية فى حركات التغيير ، وحركات التجديد ، وهنا تأتى أهمية مدرسة الأفغانى ، ومدرسة محمد عبده .

والأفغانى هو واضع منهاج التجديد ، الذى سار عليه محمد عبده ، لكن الأفغانى استغرقته واجتذبته ، العمليات والحركات السياسية ، والعمل السياسى المباشر . **أما الإمام محمد عبده فكان له منهج متميز حتى قبل الثورة العرابية ، كان يرى أن الاصلاح ، يأتى عن طريق اصلاح مناهج الفكر لدى المسلمين ، وعن طريق التربية ، والتعليم ، والتهذيب ، وعن طريق تكوين نخب مفكرة ومثقفة تستطيع أن تقود الأمة** ، وكان يرى أن هذا الطريق أطول وأصعب ، لكنه الأكثر أمناً من الطريق السياسى والانقلابى السريع ، فهو أكثر أمنا فى تحقيق التطور والتقدم .

ومحمد عبده كان المهندس الأول لهذه المدرسة فى التجديد . لكن يحسن ان نحدد معنى مصطلح " التجديد " :

انتم تعلمون ان الإسلام هو " **دين الوسطية** " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الوسطاء العدل) والوسطية

الإسلامية هى وسط بين : غلو الافراط ، وغلو التفريط ، والتجديد هو الموقف الإسلامى الوسطى بين الجمود والتقليد وبين الحداثة التى جاءنا بها الغرب ، وهى التى تعنى قطيعة معرفية مع الموروث ، بينما " **التجديد** " تطور من خلال النسق الفكرى ، تطور يصحب الثوابت ويجدد فى المتغيرات ، يصحب المبادئ ويجدد فى التفاصيل والجزئيات .

ولذلك فالتجديد ، فى تاريخ الفكر الإسلامى ، هو سنة من سنن الله التى لاتبديل لها ، ولا تحويل ، حيث " يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها " ، **ولهذا كان التجذيد فريضة من الفرائض الإسلامية .**

والتجديد ، ليس مجرد حق ، بل هو فريضة ، وهو سنة ، بمعنى أنه قانون دائم العمل فى الفكر الإسلامى . الشريعة الإسلامية هى الشريعة الخاتمة وهى الشريعة العالمية ، ولو كانت كالشرائع السابقة لما كانت هناك حاجة للتغير ، لانه عندما تأتى البدع والخرافات ، فتغطى على جوهر الشريعة ، يأتى نبى جديد بشريعة جديدة ، فلاحاجة لتجديد الشريعة الأولى .

أما وهذه الشريعة قد ختم الله بها وحى السماء إلى الأرض ، وأما والطوارئ والبدع والخرافات تتراكم على الأفكار والعقائد والشرائع ، فلابد من تجديد يجلى عن وجه الإسلام ما يطرأ عليه من البدع والخرافات . أى ان الشريعة الخاتمة تحتاج دائما إلى التجديد ، لتظل فاعلة وعاملة ، ولانها الشريعة العالمية فهى ليست خاصة بواقع ما ، حيث سيحملها الجهاد إلى بلاد جديدة ، فلابد من تجديد ، يجعلها تلائم الواقع الجديد فى البلاد التى تدخل فى الإسلام .

فالتجديد سنة وفريضة وواجب فى الإسلام ، ويتميز به عن الشرائع التى سبقت الإسلام ، وهو منهج يخالف الجمود والتقليد ، ويخالف الحداثة التى هى

جديد يقيم قطيعة معرفية مع الفكر الديني كما حدث في الحضارة الغربية ، إذ وصل حديث الغرب بتراثهم اليوناني ، وأسقط الدين المسيحي ، كجملة معترضة لتطور الحضارة الغربية .

أما التجديد فلا يقيم قطيعة معرفية مع الموروث ، وإنما هو يصحب الثوابت والمبادئ ، والمناهج ، ويجدد فيما يحتاج إلى تجديد .

وكالسيف ، إذا علاه الصدأ ، ثم نفصنا عنه الصدأ ، فهذا يسمى تجديدا ، لأنه يعيد للسيف مضاءه من جديد ، فالتجديد ليس التغيير ، بمعنى ان نستبدل شيئا بشئ ، تلك هي الحداثة وليس التجديد .

فالإسلام عندما تظهر فوق عقائده ، وشرائعه ، ومنهاجه ، البدع ، والخرافات التي تغطي جوهره وحقيقته وتحجب فعاليته ، **هنا يكون التجديد ليس تغيير ثوابت الإسلام ، بل الكشف عن حقائق الإسلام .**

ولذلك يدهش البعض ، إذا علم ان كل حركات التجديد ودعوات الجديد في تاريخ هذه الأمة كانت تقوم على علماء سلفيين ، فالبعض يتصور ان التجديد ضد السلفية ، وهذا ليس صحيحا ، فالسلفية هي الماضي ، وكل انسان لابد أن يكون سلفيا ، **والسلفيون هم الذين يعودون إلى المنابع الجوهرية والنقية للفكر الإسلامي** ، من كتاب وسنه ولعصر النبوة ولمنهج الخلافة الراشدة .

فهناك سلفيون يهاجرون من الحاضر إلى السلف ، يعيشون في الماضي . وهناك سلفيون يستلهمون الماضي ليأخذوا منه ماهو صالح للحاضر والمستقبل ومايعين على الاجابة على علامات استفهام الحاضر والمستقبل .

فهناك سلفية تدخل بالانسان إلى الجمود ، لأن سلفها عصر الجمود والتقليد ، وهناك سلفية عقلانية لاتجافي العلم والتمدن ، تعود إلى الأصول وتنظر فيها بعقل معاصر ، لا لتهاجر إلى الماضي ، وإنما لتستلهم الأصول

فى تطوير وتمدن هذا الحاضر واستشراف المستقبل ، تلك هى السلفية العقلانية التى كان عليها جمال الدين الافغانى والإمام محمد عبده .

تجديد الديــن :

الإمام محمد عبده عبر عن منهجه بانه المنهج الوسطى ، حيث ظهر والأمة منقسمة إلى قسمين : طلاب العلوم الدينية ومن هم على شاكلتهم ، وهم اصحاب المنهج التقليدى . وطلاب علوم الدنيا ، وهم اصحاب المنهج التغريبى .

ولقد اختط المنهج الوسطى للتجديد ، بين هذين الغلوين وعبر عن هذا التجديد الذى يريده ، عندما قال " **اننى أدعو إلى تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة** " . هنا السلفية بمعنى العودة إلى المنابع من الكتاب والسنه .

وكان يطلب من الذى يقرأ القرآن ، أن يقرأه وكأنه ينزل عليه ، وكأنه يتلى له ، وان يستحضر الأدوات والآليات والعلوم المساعدة ، لكن ينظر فيه دون تقيد بالتفاسير السابقة ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى منابعها ، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشرى ، **ولم يغفل نقد السلفية " الظاهرية " التى تقف عند ظواهر النصوص ، وتهمل نعمة العقل ولاتستخدم العلوم التى للعقل فيها مجال .**

العقـلانيــة الإسلاميــة :

لقد انتقد الإمام محمد عبده ، موقف السلفيين المقلدين من العقل والعلم والمدنية ، وقال عنهم " هذه الفئة أضيق عطنا واحرج صدرا من المقلدين ، وهى وان انكرت كثيراً من البدع ونحّتْ عن الديْن كثيرا مما اضيف إليه وليس منه ، فانها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به

بدون التفات لما تقضيه الأصول التى قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء " .

فالسلفيون المقلدون لايؤمنون بالعقلانية الإسلامية المؤمنة التى تنطلق من القرآن لتدافع عن الإسلام ، ولايفرقون بينها وبين العقلانية الغربية واليونانية التى تؤله العقل وتضع العقل والعلم والفلسفة ، آلهة ، بدلاً من الدين واللاهوت والكنيسة .

الإمام محمد عبده ، فى منهجه التجديدى ، تحدث كثيراً عن مقام العقل فى الإسلام ، لانه كان يواجه منهجاً تقليدياً يتجافى عن العقل ويسيئ الظن بالعقل ، وكان يواجه منهجاً تغريبياً ، وهو منهج إلتنوير الغربى الذى انتقده الطهطاوى وهو الذى يرى ان العقل والتجربة وحدهما سبل المعرفة .

فالغرب يرى أن الواقع المادى هو المصدر الوحيد للمعرفة ، وانكروا ان يكون الوحى مصدرا للمعرفة ، بل اعتبروا أن الدين ، يمثل مرحلة طفولة العقل البشرى ، وتلتها المرحلة الميتافيزيقية ، ثم جاءت المرحلة الوضعية التى لاترى أن هناك علما ، ولاحقيقة ، ولا معرفة حقيقية ، إلا إذا كانت من الواقع المادى .

ويرى الغرب أن أسلوب تحصيل المعرفة انما يكون من العقل ومن التجارب الحسية .

وفى مواجهة هذا المنهج التنويرى الغربى ، نادى الإمام محمد عبده ، بنظرية " الهدايات الأربع " وهى : العقل والنقل والتجربة والوجدان ، وقال انها أربع سبل للمعرفة تتكامل معاً فتكون المعرفة الإسلامية وتحصلها :
وكتب كلاما نفيسا ، يمثل منهاجا لكيفية تعامل الإنسان المسلم مع العقل ، والعقلانية فمثلا يقول :

" ان العقل هو جوهر انسانية الإنسان ، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة " ويتحدث عن ان الإسلام هو الدين الوحيذ الذى يجعل الطريق إلى معرفة الله تعالى ، العقل وليس النقل .

فحجية النقل تتوقف على صدق من جاء بهذا النقل ، فلو لم يكن نبيا صادقا لما كان النقل حجة . وصدق الرسول ، يتوقف على وجود من أرسل هذا الرسول ، فهذا التسلسل يدعو إلى البحث عن دليل لمعرفة الذات الالهية ، قبل التصديق بالنبوة وقبل التصديق بحجية النقل .

وهنا يضع الإسلام منهجاً لتدبر المصنوع ، لتدرك وجود الصانع ، وقدرة الصانع ، وصفات القادر الذى صنع هذه المصنوعات ، فنحن نصل بالعقل أولا إلى أن هناك الها خالقا لهذا الكون ، ارسل الرسل واقام المعجزات على ايديهم لنصدق بأن هذا النقل الذى جاءوا به حجة .

فالعقل ، هو بداية الإيمان ، وبداية الطريق إلى جوهر التدين ، الذى هو إدراك خالص للواحد الخالق لهذا الكون ، وهذا ماتحدث عنه الإمام محمد عبده كبديهة فى الإسلام .

لكن فى عصور التخلف ، كان الجميع يتوجس خيفة من العقل والعقلانية .

وتحدث الإمام محمد عبده عن منهج النظر فى الكون كسبيل لتحصيل المعرفة فقال :

" ولايقين مع التحرج من النظر ، وإنما يكون اليقين باطلاق النظر فى الأكوان ، طولها وعرضها حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها دون تقييد ، فالله يخاطب فى كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد . والوقوف عند حد فهم العبارة ، مضر بنا ، ومناف لما كتبه علماؤنا من جواهر المعقولات التى تركنا كتبها فراشا للأتربة واكلة للسوس ، فانتفعت به أمم أخرى ، أصبحت الآن تنعت باسم النور ! . والمرء **لايكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه ، وعرفه**

بنفسه حتى اقتنع به ، فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن . لانه ليس القصد من الإيمان ان يذلل الانسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه ان يرتقى عقله وتتزكى نفسه ، بالعلم بالله ، والعرفان فى دينه ، فيعمل الخير لانه يعلم أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه ، ويكون فوق هذا ، ذا بصيرة وعقل فى اعتقاده ، فالعاقل ، لايقلد عاقلا مثله ، فأجدر به ألا يقلد من هو دونه " .

ويقول الإمام محمد عبده فى نظرية السببية وهو يتحدث عن مقارنة الاديان :

" إن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد فى كتابهم : ان الإيمان وحده كاف بأن يقول المؤمن للجبل تحول عن مكانك ، فيتحول الجبل ، وجدير بأهل دين تعد الصلاة وحدها كافية فى اقداره على تغيير سير الكواكب ، وقلب نظام العالم العنصرى . وليس هذا الدين هو دين الإسلام ، دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه " وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " " وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... " **وليس من الممكن لمسلم ان يذهب إلى ارتفاع مابين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية ، إلا إذا كفر بدينه قبل ان يكفر بعقله . ان لله فى الأمم والاكوان سنناً لاتتبدل ، وهى التى تسمى شرائع أو نواميس أو قوانين** ، ومايحدث فى المجتمعات البشرية ، هو نظام واحد لايتغير ولايتبدل وعلى من يطلب السعادة فى مجتمع ما ، أن ينظر فى أصول هذا النظام ، حتى يرد إليه أعماله ويبنى عليها سيرته ، وما يأخذ به نفسه ، فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء ، وان ارتفع فى الصالحين نسبه ، واتصل بالمقربين سببه ، فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرر ، أتى

لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لاتتجافى عنه ولاتنفر منه " .

ان كل معجزات الرسل الذين سبقوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزات مادية ، إحياء الموتى ، إبراء الأكمه والأبرص والأعمى ، حية موسى وشق البحر .. إلخ والمعجزة المادية تتميز بخصيصتين : انها مؤقتة ، لأنها معجزة لمن رآها، وأنها تدهش العقل وتبهره ، أى تشله عن القيام بالتفكير .

أما معجزة الإسلام ، فهى معجزة عقلية لاتدهش العقل ، بل تستنفر العقل وتستحثه للنظر والتفكير ، وتحتكم إلى العقل لأنه مناط التكليف ، وهو الذى يميز بين المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم .

ولقد شاعت فى القرآن مصطلحات التدبر والعقل والتعقل والفقه والتفكر ، وهى بمعنى العقل الذى هو جوهر إنسانية الإنسان ، ولان الإسلام هو الرسالة الخاتمة والخالدة ، لم يأت بمعجزة مادية مؤقتة ، بل جاء بمعجزة عقلية خالدة ، وكانت المعجزات المادية أيضا – فى الرسالات السابقة – تقيم البرهان على صدق الرسول ، لكن لاعلاقة لها بطبيعة الرسالة .

أما القرآن ، فهو المعجزة الخالدة ، المتضمنة لمفاهيم ومضامين ومعانى الرسالة ، معجزة تقيم البرهان على صدق الرسول وصدق الرسالة أيضا ، لأن التحدى بهذا القرآن قائم ودائم ، فهذه المعجزة ، تعجز الناس صباح مساء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذه الخصيصة من أهم خصائص المعجزة القرآنية ، وظل التحدى فقط بالمعجزة العقلية ، وهى القرآن ، رغم وجود بعض المعجزات المادية التى ظهرت على يد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقول الإمام محمد عبده عن القرآن :

" القران ، وهو المعجز الخارق ، دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، فهو معجزة عرضت على العقل ، وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى انحائها ، ونشر ما انطوى فى أثناءها . فالإسلام لايعتمد على شيئ ، سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى ، فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولايغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولايخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولايقطع حركة فكرك بصيحة الهية " وانما هو وحى يحتكم للعقل الإنسانى لانه جعل العقل مناط التكليف .

وله عبارة يقول فيها " **لو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ، ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشف الأخرون باليد الأخرى ، وصاروا يزاحمون الأوربيين فيزحموهم** " . أى أنه لاتناقض بين القرآن وعلوم الأوائل والأواخر ، لاننا عندما نتأمل نجد أن القرآن الكريم يعلمنا أن الله أنزل الكتاب والحكمة ... والحكمة هى الاصابة فى غير النبوة ، أى الصواب البشرى ، الذى يأتى به العقل من غير النبوة .

فكأن هناك صوابان ، صواب يأتى به الوحى الالهى ، والله منح الانسان ، عقلا هو سبيل لصواب بشرى . فإذا كان الصواب من الوحى ، والصواب من العقل كلاهما من الله تعالى ، فكيف يتأتى ان يكون هناك تناقض بين الشريعة والعقل أو بين الكتاب والعقل ؟ فما دام الواهب واحد ، وهو قد سخر الكتاب والعقل لهداية الإنسان ، فليس من المعقول أن يعطى هدايتين ، تناقض أحداهما الأخرى .

فليس هناك تناقض بين العقلانية المؤمنة ، وبين الوحى الالهى – وليست عقلانية اليونان والتنوير الغربى التى تؤله العقل وتضعه محل

الدين – فهؤلاء يرون ، أن العقل نقيض النقل ، أى أن المؤمنين بالنقل مجانين ، هذه عقلانية التنوير الغربى ، أما العقلانية الإسلامية ، فتضع العقل ، والنقل ، والتجربة ، والوجدان (الهدايات الأربع) فى نسق معرفى واحد .

وللإمام محمد عبده كتيب صغير من أنفس ما كتب فى العقيدة فى العصر الحديث ، وهو " **رسالة التوحيد** " وأتمنى من كل دور العلم والتعليم ان تفهم العقيدة الإسلامية من هذه الرسالة الصغيرة ... لان الإمام محمد عبده نظر فى كتب علم الكلام ، وهى مليئة بالصراعات المذهبية ، فنحّى كل هذه الصراعات والمشاغبات ، وقدم العقيدة الإسلامية مُصفاة ، **ولذلك اكتشف ان كثيراً من الخلافات بين القدماء ، كان سببها الصراع المذهبى ، والخلافات حول مضامين المصطلحات** .

فمثلا هناك من **أنكر رؤية الناس لله سبحانه وتعالى يوم القيامة** ، وهؤلاء قالوا : ان الرؤية بالبصر ، ستؤدى إلى أن يكون المرئى متحيزا فى جهة ومكان ، وهكذا . ومن قال بالرؤية ، قال : انها رؤية ليست كرؤيتنا وبأبصار ليست كأبصارنا ، ونفى الجهة والمكانية والجسمية والتميز ، وهى التى خاف منها الذين نفوا الرؤية . أى أنهم فى النهاية متفقون على المحاذير التى يرفضونها ، واتفقوا على ان الله " **ليس كمثله شيئ** " ففيم الاختلاف ؟!

وقضية خلق القرآن ، لم يختلف مسلم على أن الكلام ، كصفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، والمعانى النفسية ، قديم وغير مخلوق . ولم يختلف مسلم على ان الاصوات ، عندما تقرأ القرآن فهى أصوات مخلوقة ، ففيم إذن الخلاف ؟!

الإمام محمد عبده صفى علم العقيدة من هذا الشغب ، فى "رسالة التوحيد" ولذلك وضع أسسا عظيمة فى هذا الكتاب الصغير .

وتجديد الدنيا بالدين :

هذا عن تجديد الدين ، فماذا عن تجديد الدنيا بهذا الدين ؟

عندما تكلم علماؤنا عن الخلافة - التى يسخر منها تلامذة التنوير وعبيد الفكر الغربى - نفهم من كلامهم ان الخلافة هى الدولة الإسلامية ، وسميت الخلافة لأن جماع فلسفة الإسلام هى نظرية الاستخلاف ، فالله استخلف الإنسان لعمران هذه الأرض ، فالحرية هى حرية الخليفة ، والدولة هى دولة الخلافة ، وكما جاء فى الحديث الشريف " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الانبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وانه لا نبى بعدى وانما سيكون خلفاء " .

فدولتنا هى دولة الخلافة ، وهذا لابد ان يكون واضحا وفاصلا بيننا وبين الذين ينظرون شذرا وبسخرية إلى الخلافة ، دولتنا هى دولة خلافة ، والحكومة والسلطة ، لابد ان تكون مستخلفة من الأمة ، فالله استخلف الأمة ، والأمة تستخلف حاكمها ، وكما ان الله جعل الناس خلفاء ، مضبوط تدبيرهم ببنود عقد الاستخلاف ، فلابد ان تكون الدولة المستخلفة عن الأمة ، مضبوطة قوانينها بالشريعة الإسلامية ، التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف الالهى للانسان .

الدولة فى الغرب قد عرفت لونين :

١- الدولة الكهنوتية ، حكم الكنيسة ، وحكم الحق الالهى وفيها الدولة الكهنوتية ، ولاذكر للأمة فيها .. فيها : الله ----> والدولة .

٢- وعندما جاء الحكم العلمانى - كرد فعل للكهنوتية - وجدت أمة ودولة ولاذكر لله فيها ...

أما الدولة فى الإسلام فهى متميزة عن هذا وعن ذاك ، حيث بها (الله فالأمة فالدولة) أى أنها تجمع بين الحاكمية الالهية وسيادة شريعتها ، وبين سلطة الأمة كمصدر للسلطات ، ففيها استخلاف الدولة عن

الأمة . فنظرية الخلافة ليست عبثا ، ولهذا الأمر كان اختيار الخلفاء الراشدين لهذا المصطلح – مصطلح " الخلافة " – بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعلماؤنا مثل ابن خلدون والماوردى قالوا ان " الخلافة " هى لحراسة الدين ولسياسة الدنيا بهذا الدين ، ولابد لهذا الدين ممن يحرسه ويقيم امره لان الله حفظ هذا الدين ، لكن اقامة الدين مسئولية البشر المؤمنين به .

الإمام محمد عبده تحدث عن تجديد الدنيا بالمنهاج الدينى ، حيث كانت هناك مرجعية غربية ، بدأت تزاحم المرجعية الإسلامية ، وظهر اناس ارادوا النهضة بالعلمانية ، بالعقل والتجريب والمصلحة فقط . **والإسلام ليس ضد المصلحة أو العقل ولايبخس الغرب ماجاء به ، وإنما هو يضيف إليه** ، حيث قال الإسلام : **لابد مع وجود العقل والتجريب ، من النقل والوجدان** ، **فالإسلام يقيم ثقافتنا على ساقين : كتاب الوحى المسطور ، وكتاب الكون المنظور** آيات الله فى نبأ السماء وآياته فى الأنفس والآفاق . وهنا تقوم الثقافة والفكر على ساقين ، على كتاب الوحى وكتاب الكون . لكن الفكر الغربى يقيم المعرفة على أساس الواقع المادى ، ولذا كانت العلْمانية ، نسبة للعالم ، لانهم يرون العالم مكتفيا بذاته ، وكان مفروضا أن تُسمَى " العالمانية " . ولا علاقة لها بالعلْم ، وليس العالم عند العلمانيين فى حاجة إلى ماوراء الطبيعة ، **ولذلك فان نقطة البداية فى العلمانية هى عزل السماء عن الأرض ، ويصبح تدبير الدنيا شأنا انسانيا دنيويا ، وليس شأنا الهياً** .

هذه الرؤية العلمانية مرتبطة بنظره فلسفية غربية ، لتصور معين للذات الالهية ، تصور لنطاق عمل الذات الالهية ، حيث العالم مكتف بذاته ، ويدبر بالأسباب المودعة فى هذا العالم ، وليس فى حاجة إلى تدبير الهى ، أو شريعة الهية ، أو قانون سماوى ... لماذا ؟

أرسطو فى تصوره للذات الالهية تصورها كصانع الساعة ، يصنع الساعة ثم يتركها تعمل بنفسها ، فالساعاتى ليس المدبر لهذه الساعة ، لكنه أودع فيها الأسباب التى تدبرها ، وتديرها ذاتيا .. ولذا تصور أرسطو ، الله مجرد خالق للكون ، وليس مدبرا لهذا الكون ... ونفس التصوّر الارسطى هو التصور الوثنى الجاهلى ، فالوثنيون فى الجاهلية لم ينكروا وجود الله كخالق لهذا الكون ، ولكنهم كانوا يلجأون إلى الأصنام لتدبر لهم أمورهم ، أى أنهم جعلوا التدبير للأصنام وليس لله ، مثل الذين يقولون أن الدين لله والوطن للجميع أى أن الدين شئ والوطن شئ آخر .

والعلمانية ترفض أى مدخل للشريعة فى تدبير الكون ، فهى عزل للدين عن الواقع ، وعزل للسماء عن الأرض ، فالعالم مكتف بذاته ، والإنسان سيد الكون .

أما فى الإسلام ، فالإنسان ليس سيد الكون ؛ وإنما خليفة لسيد الكون . ويقول الإمام محمد عبده " **الانسان عبد لله وحده وسيد لكل شيئ بعده** " سخرت له كل ظواهر الكون ، فهو سيد ، لكنه عبد لله وحده .

وفى الإسلام العبودية لله هى قمة الحرية ، لانك كلما أخلصت العبودية لله ، وتحررت من العبودية للطواغيت وللقوى الأخرى ، كانت حريتك ، وكان تحررك ... ، فالإسلام يجمع بين قمة العبودية لله تعالى ، وبين قمة التحرر ، لأنه يرى الله سبحانه وتعالى فى كل شئ .

وهذا هو المنهج الإسلامى ، الذى لا يتصور الله مجرد خالق للكون ، بل هو راعى ومدبر كل شئ فى هذا الكون ولذلك يقول القران " **ألا له الخلق والأمر** " فالله ، لطفا منه ، أرسل الرسل ، وجاء بالشريعه ، كمنهاج ومعالم طريق للانسان .

والامام محمد عبده انتقد المذهب الوضعى والمادى للحضارة الغربية ، وقال " الإسلام هو طريق الاصلاح " وليس الطريق الاصلاحى لاى مرجعية أخرى ، ويقول عن المدنية الغربية " ان هذه المدنية ، مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضه ، مدنية الفخفخه والبهرج ، مدنيه الختل والنفاق ، وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم ، والليرة ، عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل فى شيئ من ذلك " .

فالرجل الغربى يعبد البنك ستة أيام فى الاسبوع ، وفى اليوم السابع ، يذهب للكنيسه وعينه على البنك ! . . وهذا ليس نموذجنا للتقدم ، فالإسلام يقيم التقدم على الوسطية الجامعة ، والعلمانيون يخوفوننا من الإسلام وحكومة الكهانه ، والحكومة الدينية ، وحكومة المشايخ . والتاريخ الإسلامى لم يعرف حكومة الفقهاء ، بل ان الامام مالك ، بعد ان كتب الموطأ ، قال له أبو جعفر المنصور : نجعله قانون الدولة ، فقال له الامام مالك " **أن الموطأ ، هو اجتهاد مالك ، وهناك مجتهدون آخرون** " . هذه هى التعدديه ، وهى سنة من سنن الله تعالى فى الكون ، حيث أن " اجتهاد المجتهد غير ملزم للمجتهد الأخر " وهذا تأسيس للتعدديه ، والله جعل التعدديه فى الشعوب ، والقبائل ، والألسنه من آياته فى الخلق والاجتماع .

والامام محمد عبده يتحدث عن أن التفويض فى السلطه الدينيه ، ليس له أصل فى الإسلام ، فنحن ليس عندنا " كهنوت " أو " رجال دين " بل عندنا " علماء دين " وأى انسان يستطيع أن يكون عالم دين ، والامام محمد عبده يقول " ان الإسلام لم يعرف تلك السلطه الدينيه التى عرفتها اوربا ، فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، وهى سلطة خولها الله لكل المسلمين ، أدناهم وأعلاهم . **والأمة هى التى تولى الحاكم ، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى تخلعه متى رأت**

ذلك من مصلحتها ، ومع ذلك فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه ، ولا يجوز لصحيح النظر ، أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج " ثيوكراتيك " أى سلطان الهى . فليس للخليفة أو القاضى أو المفتى ، أو شيخ الإسلام ، أدنى سلطة على العقائد وتحرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء ، فهى سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامى . فليس فى الإسلام سلطة دينية ، بل ان قلب السلطه الدينيه والاتيان عليها من الاساس ، هو أصل من أصول الإسلام . فالدوله الإسلامية دولة وسطية ، دولة مدنية واسلامية فى ذات الوقت ، والنظام السياسى يضعه البشر ، ومطلوب من النظام السياسى الذى يضعه المسلمون ، أن يحقق المبادئ الإسلامية ، والمقاصد الإسلامية ، **ولذلك فان النظام والآليات والتجارب والمؤسسات هى من وضع البشر ، ولذا فانه من الحكمة ان نستفيد من الغرب الكثير من التجارب مثل النظام النيابى ، والانتخابى ، والحزبى ، لكن هذا " الوعاء " لابد ان نضع فيه " المضمون الإسلامى " الذى يحقق المقاصد الإسلاميه والمبادئ والاحكام الإسلامية .**

واذا كان الإسلام يرفض السلطه الدينيه فهو ليس علمانيا ، بل هو يجمع بين وحى السماء ، والواقع الارضى ، ويقول الإمام محمد عبده " ظهر الإسلام لا روحيا مجردا ولا جسدانيا جامدا ، **بل انسانيا وسطا بين ذلك** " . . فهو ليس نظاما ماديا ، وليس نظاما باطنيا صوفيا ، أى رياضة روحية للخلاص الفردى ، بل هو يجمع بين الاثنين .

" فالإسلام ظهر لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا بل انسانيا وسطا ، بين ذلك ، آخذا من كلا القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطره ، وعرف له ذلك خصومه اليوم ، وعدوه المدرسه الاولى التى يرقى فيها البرابره على سلم المدنية .

ان الإسلام دين وشرع ، فهو قد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام ، إلا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود ، وتمكين حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة . فالإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر ، بل كان من شأنه ان يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده فى عمله ، فكان الإسلام ، كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك "

هكذا عرض الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده لقضية التجديد :

* تجديد الفكر . . وتحرير العقل . . ليتجدد الدين . . .

* وتجديد الواقع والدولة بهذا الدين المتجدد ابدا . . والمستجيب لمستجدات الدنيا ، عبر الزمان والمكان .

انها اشارات ، ورؤس اقلام لهذا الملمح الهام من ملامح مشروع الاحياء الدينى كما تجسد فى فكر الاستاذ الامام .

وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

****

اجابات على أسئلة الحضور :

سؤال عن موقف المسلم من قضايا الأمة المتفجرة :

الجواب : ان التزامنا بالإسلام ، يمثل نقطه البداية ، ولابد من التوعيه وإثارة القضايا الإسلامية مثل البوسنه والهرسك ، والشيشان ، مع أولادنا . هذه المجازر التى تجرى للمسلمين ، تعيد الوعى للامه ، حيث إن كثيرا من الناس لم يكونوا يعرفون شيئا عن البوسنه ، وقد كتب الامام محمد عبده ترجمة لسامى البارودى باشا وقال ان الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ذهب ليحارب فى البوسنه والهرسك وذكر ذلك محمد فريد فى كتابه " الدولة العلية " . . اى ان هناك اعضاء فى جسد الامه فقدنا الاحساس بها ، الآن

يعود لنا الوعى والحس بهذه الاعضاء ، فلابد ان نحول هذا التاريخ **إلى وعى** ، وليس مجرد قراءه وتلقين ، ولابد ان نربى اولادنا على هذه القيم .

****

سؤال عن الاجتهاد والتجديد فى عصرنا :

الجواب : هناك فارق بين الاجتهاد والتجديد ، وبالتالى فليس أحدهما يغنى عن الآخر . **الاجتهاد** هو استنباط حكم فرعى أو جزئى من أصل . و**التجديد** هو العوده **إلى** الاصول بنفى البدع والخرافات وليس فيه معنى الاجتهاد ، ويمكن ان يرى المجدد المتغيرات ، ويحيلها **إلى** مجتهد ، وهناك علاقه بين التجديد والاجتهاد وهما ليسا متقابلين .

أما حول صعوبة الاجتهاد الآن ، فاننى أرى عكس ذلك ، حيث أن الاجتهاد حاليا أسهل من الاجتهاد فى الماضى ، حيث كانوا فى الماضى يشترطون حفظ بضعه آلاف حديث ، الآن هناك كتب وقواميس ، تغنى عن الحفظ ومن السهل استخراج الاحاديث والآيات فى قضية ما . وفى الماضى كانت بساطة الحياة تجعل إمكانية وجود العالم الموسوعى الذى يحيط بفقه الاحكام وفقه الواقع ثم ينزل الاحكام على الواقع .

الآن اصبحت الحياه معقدة ، واحتاج الأمر إلى بنوك معلومات ومؤسسات .

والآن ، فان الاجتهاد المؤسسى أصبح هو اجتهاد العصر ، وهو الصوره المعاصرة للاجتهاد . والاجتهاد الجماعى ليس مساله مستحدثه ، بل وجدت فى عصر الخلافه الراشده ، وهو سمه من سمات الحضارة الإسلامية ، فالإسلام هو دين الجماعه وليس دين الفرد وليس دين الطبقة . وفى الغرب الذى يحمل رساله التقدم طبقة هى البرجوازيه فى النظم الليبراليه ، والبروليتاريا فى النظم الشموليه ، اما فى الإسلام فان الامه هى التى تحمل

رساله التقدم ، لان الإسلام هو دين الجماعة ، والتجديد فى الدين الآن هو تجديد حركات ودعوات وليس تجديدا فرديا .

****

سؤال عن الأموال والثروات :

الجواب : تحدث الامام محمد عبده عن المال والثروات فقال :

ان كلمه المال ، اضيفت فى القرآن إلى ضمير الفرد فى سبع آيات ، والى ضمير المجموع فى ٤٧ آيه . وهذا يشير إلى ان الإسلام يجمع بين الملكية الفرديه والتكافل ، لان الناس جميعا مستخلفون فى هذه الاموال ، ويقول " ان الله يريد ان يوجهنا بذلك إلى ان الاموال التى فى ايديكم ليست هى اموالكم على الحقيقة ، وانما هى اموال امتكم وانتم مستخلفون فيها " وهذا هو الموقف الإسلامى من الأموال ، حيث إن ملكيه الرقبه والملكية الحقيقيه فى الأموال لله ، والناس مستخلفون فى هذه الأموال ولهم فيها ملكيه ، مجازيه ملكيه المنفعه .

والنظام الوحيد الذى حقق الملكيه الجماعية وملكية الامه ، هو نظام الوقف الإسلامى ، وليس الاشتراكيه التى قامت على رأسمالية الدوله . اما الوقف فان المال ملك للامه ، ويموّل صناعة الحضارة والعدل الاجتماعى ، وللأسف بدأ الوقف يتقلص الآن .

****

سؤال عن الوحدة الوطنية :

الجواب : نظر الامام محمد عبده فى قضيه الوحدة الوطنيه فقال : " لو وجد خطأ من فرد فى الاقليه لا يجب أن ينسب هذا الخطأ إلى كل الأقلية الا اذا كانت هذه الاقليه مستعمره " . وتحدث عن العلاقه بين المسلمين والاقباط ، وقال انها كانت دائما علاقه ترابط ، وعلاقة محبة ، وقال ان الاقباط ليس لهم

مشكله سياسيه فى مصر ، ولم يكونوا موضع تدخل من الدول الاجنبيه فى مصر ، **لان الاقباط والمسلمين فى مصر ، أمة واحدة ، وشعب واحد ، وثقافه واحدة ، وحضارة واحدة** . فالاختلاف فى العقيده فقط ، والعقيده النصرانيه ليس لها نظام للدوله ، ومن ثم فالشريعه الإسلامية ليست بديلا لشريعة النصرانيه ، **انما هى بديل للعلمانيه الغربيه** ، ومكرم عبيد يقول " **نحن مسلمون وطنا مسيحيون دينا** " .

والإسلام لا يميز فى الوظائف بين المسلم والمسيحى ، لكن هناك وظائف لها شروط ، مثل رئيس الدوله حيث له وظائف اسلاميه بحكم الوظيفه ، فالشروط تفرضها الوظيفة ، وليس العقيدة ، فالعقيدة ليست تمييزا بين مسلم ومسيحى ، بل القضيه اجتماع الشروط التى تتطلبها هذه الوظيفه .

الامام محمد عبده اكد ذلك عندما قال :

" الاقباط أخوه للمسلمين فى الوطنيه ، قامت الأدله على التحامهم بالألفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عند الشدة ، ورسخ ذلك فى نفوسهم بالتوارث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك وقوفهم مواقف القتال مع إخوانهم المسلمين ، فى مواطن الحروب ، فى فتنة كريت ، وحروب الحَبَشْ ، والمواقع السودانيه ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم ويؤازرونهم ، فكانوا حربا لمن حاربهم ، وسِلْما لمن سالَمهم . وان الخلاف المذهبى لم يُحدث فى بلادنا شقاقا وطنيا فى زمن من الازمان ، ولذلك لا نرى للقبط فى مصر مسألة سياسية تعنى بها دول أوربا ، كما نرى لغيرهم فى غير مصر من المسائل " .

وأنا أرى القلاقل بين المسلمين والمسيحين ، لا تقوم الا فى زمان التدخل الاجنبى ، والغزو العسكرى لمصر . فنحن نريد للأقليات ان يكونوا لبنات فى

جدار الأمن القومى ، وليسوا ثغرات فى هذا الجدار ، وليس لنا لدى الأقليات إلا هذا المطلب أى ان يكونوا معنا فى مواجهة التحديات الخارجيه .

أما من يوالى الخارج فانه يضع نفسه فى مواجهة أمته ، وهذا وبال عليه قبل ان يكون وبالا على الأغلبية ، وهذا هو جوهر القضية .

فأمن الامة هو الأهم ، وبمنطق الديمقراطية ، فإن الشريعه هى قانون الأمه ، لان الديمقراطية هى حكم الاغلبية ، وفى مصر ٩٤٪ مسلمون ، اى ان الشريعه يمكن ان تأتى بالانتخاب وبحقوق الإنسان وليس بالدين .

وعلى الاقليات ان تلتمس أمنها وأمانها وحقوقها فى مشروع الاغلبيه ، لانه مشروعها وهى جزء من هذه الحضاره ومن هذه القوميه والثقافه واللغه والوطن ، فنحن أمه واحده .

ولم يرد فى تراث الإسلام حديث عن الاقليات ، فنحن أمه فيها ملل وأقوام ، أى هناك أمة واحدة ، وتعددية داخلها حافظ عليها الإسلام .

واختتم حديثى هذا بالقول : ان الامام محمد عبده توفى سنه ١٩٠٥، لكنه ترك مدرسة فكرية حملها صاحب المنار – الشيخ رشيد رضا – على امتداد اربعين عاما ، وكانت مدرسه الاجتهاد والتجديد فى العالم العربى والإسلامى ، وإن كثيرين من أعلام علمائنا هم تلامذة مباشرون للامام محمد عبده ، مثل المراغى ومصطفى عبد الرازق ، وشلتوت . . وأبرز عقول علمائنا كان بينهم وبين مدرسة ، محمد عبده رابطة ، لذلك فعطاؤه مازلنا نعيش فى إطاره ، ونتمنى من الله أن يحمى هذا الفكر المستنير " فالله نور ، والرسول نور ، والقرآن نور ، والحكمه نور . . " فالمستنير بها هو الذى تحصل له الاستنارة الحقيقية .

فمدرسة محمد عبده هى مدرسة الاستنارة الإسلامية الحقيقية ، ومدرسة الاجتهاد والتجديد ، وعلينا ان نكون الامتداد المتطور لهذه المدرسة ، لأن أمامنا مهام لم تكن فى عصر محمد عبده ، وعلينا ان نكون الامتداد المتطور لمحمد عبده ، وعلينا أن نكون خير خلف لخير سلف .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

والسلام عليكم ورحمه الله وبزكاته .

المحاضرة السادسة

عوامل نهوضنا الاقتصادى
بين تجارب الماضى وتطلعات المستقبل
فى ضوء التوجه الإسلامى

الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد

١٣ مارس ١٩٩٥م

١٢ شوال ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

من اليمين : المستشار عبد الخالق شهيب فالوزير احمد على كمال فالمهندس إبراهيم شكرى

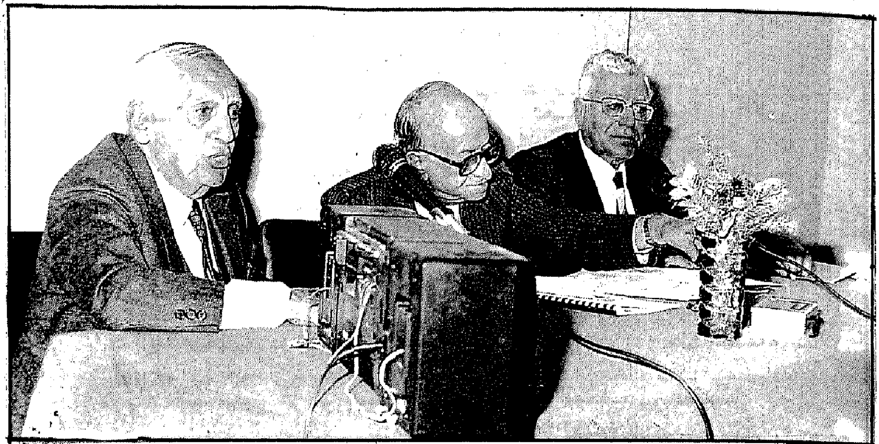

على المنصة : المحاضر الاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد وعلى يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره د المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد :

هو أولا رجل القضاء السابق ، حيث عمل عقب تخرجه وكيلا للنيابة العامة سنة ١٩٤٢ .

ثم هو ثانيا الاستاذ الجامعى ، حيث عمل عقب حصوله على الدكتوراه من فرنسا ، مدرسا بكلية حقوق الاسكندرية سنة ١٩٤٩ ، ثم استاذ الاقتصاد بكلية حقوق عين شمس منذ سنة ١٩٥٠ .

ثم هو ثالثا رجل الادارة والوزارة ، حيث عمل وكيلا لجامعة القاهرة سنة ١٩٦٤ ومديرا لجامعة عين شمس عام ١٩٦٨ فوزيرا للتربية والتعليم ، ثم انتخب رئيسا لاتحاد الاقتصاديين العرب سنة ١٩٦٩ .

ثم هو أخيرا رجل العلم العالمى ، حيث اختير مديرا لمركز الامم المتحدة للمالية العامة والادارة ببيروت سنة ١٩٧٢ ، ودعى استاذا زائرا لعديد من

الجامعات العربية والاسلامية ، ومشاركا فعالا فى مختلف المؤتمرات الاقتصادية العربية والدولية ومؤتمرات البترول .

ولقد كرمته مصر بمنحه أعلى تقديراتها العلمية وهى جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية سنه ١٩٧٣ .

هذا هو محاضرنا الاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد رجل القضاء العادل ، والأستاذ الجامعي غزير التأليف ، والوزير المخلص المنجز ، والرجل العالمى المعطاء ... **وهو مع كل ذلك انسان يتسم بتواضع شد** ... وهو شخصية فرضت احترامها وتقديرها على الجميع ... وهو فى الخلاصة قدوة طيبة وثروة قومية يعتز ويفخر بها كل مصرى .

واذ شاء أخيرا أستاذنا الدكتور / محمد حلمى مراد التفرغ للعمل السياسى ، وأن يقوم بدور المعارضة ، فهو أمر ضرورى ولا غنى عنه فى دولة الشورى والديمقراطية ، وهو فى ذات الوقت عبء كبير ، لا تقدر عليه سوى النفوس الكبيرة .

فلا أملك فى هذا المقام الا أن أتوجه الىالله تعالى داعيا له بالصحة والعافية ، مذكرا بقانون الحياة بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأن جزاءه الحقيقى عند الله ((ولسوف يعطيك ربك فترضى)) .

هذا ولا يفوتنى فى هذا المقام ، أن أذكر انه حين أسْند إلىّ مجلس ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية مسئولية تنظيم وادارة موسمها الثقافى هذا العام ، رحب بالمشاركة كل من اتصلت بهم من السادة العلماء . والوحيد الذى اعتذر هو استاذنا الدكتور محمد حلمى مراد ، مبديا انه اليوم يمثل المعارضة ولا يريد أى احراج للجمعية . ولم يقبل الاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد ، دعوتى لهذه المحاضرة الا بعد أن أوضحت له ان مطالبتى له بالمشاركة فى هذا الموسم الثقافى ، هو بصفته العلمية وأنه كبير الاقتصاديين المصريين

والعرب على السواء ، وانه بالرغم من همومه الوطنية ومشاغله القومية ، مازال يباشر وظيفته استاذا غير متفرغ بجامعة عين شمس ، بحيث لا يضن علينا بمحاضرة علمية بالرغم من تمثيله للمعارضة ... ومذكرا اياه ، انه فى مجالس ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية السابقة ، كان يجلس سعد باشا زغلول مع عدلى باشا يكن ، والامام محمد عبده والامام مصطفى المراغى مع طلعت حرب باشا ولطفى باشا السيد ، **وانه بالرغم من اختلاف توجهاتهم السياسية كانت تجمعهم جميعا الرغبة فى الخير ، والمسارعة فى الخدمة العامة .**

هذا ولا يفوتنى أيضا فى هذا المقام ، أن أذكر أن للاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد ، فضلاً على الجمعية الخيرية الاسلامية ، لا يذكره ، ذلك انه كان وزير التربية والتعليم الوحيد ، الذى استجاب لرجاء الجمعية فى الاعتراف رسميا بشهادة مدرستها الصناعية الثانوية للبنات بحلوان .

ما تقدم هو قليل من كثير كنت أريد أن أقدم به محاضرنا ، لولا أن أبعاده وأفضاله كثيرة لا تحصى ، كما ان وقت المحاضرة محدود . فأعود الى موضوع المحاضرة وهو ((عوامل نهوضنا الاقتصادى بين تجارب الماضى وتطلعات المستقبل فى ضوء التوجه الاسلامى)) .

واذ استشعر صعوبة وعمق وأهمية هذه المحاضرة ، الا أننى اشعر بطمأنينة ، باعتبار استاذنا الدكتور محمد حلمى مراد هو فارسها ، وأنه سيكشف لنا عن الكثير من الحقائق والتحليل العلمى ووضوح الرؤية ، فهو صاحب كتاب " أصول الاقتصاد " ، وهو فى ثلاثة أجزاء . بالاضافة الى مؤلفاته الاخرى العديدة ككتابه " المذاهب والنظم الاقتصادية " وكتابه " التعاون من الناحيتين المذهبية والتشريعية " وكتابه " قانون العمل والتأمينات الاجتماعية " وكتبه العديدة فى المالية العامة والضرائب وغيرها . مما أثرى

به الفكر الاقتصادي والمالى ، ورشّد وعمق بها مفاهيمنا الاقتصادية والمالية .

فمرحبا بأستاذنا الدكتور محمد حلمى مراد ، محاضرا فى الموسم الثقافى للجمعية الخيرية للاسلامية . . وشكرا جزيلا لسيادته ، وجزاه الله تعالى عن جيله والأجيال المستقبلة خير الجزاء .

وليتفضل سيادته ليمتعنا ويسعدنا بمحاضرته .

كلمة الاستاذ الدكتور / محمد حلمى مراد

بسم الله الرحمن الرحيم

الأساتذة الأجلاء :

أخوتي وأبنائى الأعزاء :

قبل أن أبدأ حديثى ، أجد لزاما على التقدم بخالص الشكر الى الجمعية الخيرية الاسلامية على هذه الدعوة التى تفضلت بتوجيهها الى شاكرا للأخ الاستاذ رشاد المراغى ممثل مجلس ادارة الجمعية على كلمته التى حيانى بها ، داعيا المولى عز وجل أن يمتعه بالصحة ، وأن يديم مابيننا من مودة .

ولا أستطيع أن أوفى الاخ العزيز الاستاذ الدكتور محمد شوقى الفنجرى حقه من التحية ، والعرفان لتفضله بعرض تاريخ حياتى بدقة أعجز شخصيا عن القيام بها راجيا أن أكون عند حسن ظنه وأمثاله على الدوام .

كما أقدم له وافر الشكر على تفضله بإختيار موضوع هذه المحاضرة التى دعانى لتناوله بالحديث وهو موضوع رحب الآفاق ، متعدد الجوانب ، خاصة اذا رجعنا به الى الماضى البعيد وامتد الى تطلعات المستقبل وتمت معالجته فى ضوء أحكام الشريعة الاسلامية .

ومن هنا فإننى ارجو المعذرة اذا بدا حديثى فى بعض الجوانب مركزا أو موجزا خاصة مع الحرص على مراعاة الالتزام بالفترة الزمنية المحددة للمحاضرة .

ولما كان موضوع المحاضرة يتناول دراسة نهوضنا الاقتصادى بين تجارب الماضى وطموحات المستقبل ، فإنه يتعين علينا أن نحدد بادئ ذى بدء ما نقصده بالنهوض الاقتصادى حيث أن الرؤية الاقتصادية تتناول العديد من الجوانب التى تشمل النشاط الاقتصادى من حيث نوعياته المتعددة ، والعوامل الطبيعية والمكتسبة التى تؤثر فى هذا النشاط ، والادارة الاقتصادية من حيث اسلوبها فى العمل وشرائط نجاحها ، والمذاهب الاقتصادية المختلفة التى تحكم سير الحياة الاقتصادية ، والسياسات الاقتصادية التى تنتهجها الدول فى هذا المجال الى غير ذلك من الجوانب الاقتصادية المتعددة .

وسوف نقصر حديثنا على تقييم أوضاعنا الاقتصادية فى الحقبة الحديثة من تاريخنا لنتعرف الى أى مدى استطعنا ان نحقق ما يمكن أن نصفه بالنهوض الاقتصادى خلالها ، ولنستخلص العبر التى تعيننا على تحقيق التقدم الاقتصادى المنشود فى مقبل الايام ، وهو ما يقتضينا أن نبين أولا وفى ايجاز شديد مقومات النهوض الاقتصادى المستخلصة من واقع تجارب الحياة العملية .

مقومات النهوض الاقتصادى :

يقوم النهوض الاقتصادى على عدة مقومات مستفادة من الممارسة العملية لسياسات اقتصادية تتخيرها القيادة المسئولة ، وتقوم على تنفيذها ادارة اقتصادية ، مستعينة فى ذلك بعمل فنى على مستوى عال من الكفاءة يضم التخصصات المطلوبة . وهذه المقومات ذات التأثير فى نجاح السياسات المختارة أو اخفاقها يمكن تقسيمها إلى أربعة مقومات أساسية :

أولا – المقوم الانسانى :

يعتبر الانسان هو صاحب الفكر الخلاق المحقق للتطور الاقتصادى المنشود ، كما أنه صاحب اليد العاملة المنفذة لما يخلص اليه ذلك الفكر ، وهو فى النهاية " الغاية " المقصودة من إحداث هذا التطور ، تمكينا من وصوله الى حياة أفضل .. ومن هنا فإنه لا يمكن لأى مشروع اقتصادى أن يحقق نجاحا ، ما لم يؤمن الشعب بنفعه ، ويقبل بحماس على إخراجه الى حيز الوجود ، ويحرص بالتالى على الحفاظ عليه ، وتطويره ، والارتقاء به .

ويقتضى تحقيق هذا المقوم الانسانى ، توفير حياة اجتماعية آمنة قوامها التكافل الاجتماعى ، وتحقيق الخدمات التعليمية والصحية الكفيلة بتقدم الانسان ، وتيسير سبل الاستمتاع بحياة هانئة رغدة ، وحماية البيئة من التلوث المهدر لسعادة البشر . فلا نهوض اقتصادى بدون فكر علمى متخصص ، وجهد صادق لوضعه موضع التطبيق العملى ، وبدون الاستمتاع بثماره مما يعتبر حافزا على استمراره وتقدمه .

ثانيا – المقوم الاجتماعى :

كما يتوقف نجاح أية استراتجية اقتصادية وتمسك المجتمع بها والدفاع عنها وتطويرها ، **على مدى ما تحققه لأعضاء هذا المجتمع من الاستمتاع بالأمان والاستمرار بحيث ينعم أفراد المجتمع بحياة خالية من النقائض والمتاعب ، والفساد والانحراف ، والفقر والجوع ، وإلا نفروا منها ، وعملوا على هدمها ، وبحثوا عن بديل لها .**

ثالثا – المقوم الوطنى :

ويقصد بهذا المقوم أن تتصف الاستراتيجية الاقتصادية بإستهداف إقامة صرح قوى للاقتصاد القومى بحيث يستطيع ان يقاوم عواصف الزمن ، ويصمد أمام الاحداث ، **وأن يكون قادرا على التصدى لعدوان الطامعين**

والمعتدين ، وأن يحقق الاستقلال الاقتصادى للبلاد القائم على " الاعتماد على الذات " .

رابعا – المقوم الإيمانى :

ويتجلى هذا المقوم فى تحلى القائمين بالعمل الاقتصادى **بالايمان بأن المال الذى يقومون بتشغيله – وهو عصب العمل الاقتصادى – هو مال الله سبحانه وتعالى ، وأن الانسان مستخلف فيه أى أنه يديره بالنيابة أو الوكالة عن المولى جل وعلا أو مستخلف فيه من الخالق الذى يعطى الملك لمن يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .** . وعلى ذلك فإنه مطالب فى القيام بعمله أن يرعى الله ويتبع التعاليم التى جاء بها الشرع حتى يكون جديرا بالاستخلاف عن الله سبحانه وتعالى فى ادارة هذا المال .

وقد اعتبر الاسلام " التقوى " عنصرا هاما من عناصر الانتاج . . ويقصد بذلك ابتغاء وجه الله تعالى ومراعاته وخشيته فى كل ما يزاوله من نشاط اقتصادى . ومكافأة هذا العنصر ، تتجلى فى النماء ، وسعة الرزق فى الحياة الدنيا ، وفى ذلك يقول المولى فى محكم تنزيله " لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون " . (سورة الاعراف – ٩٦) .

ان استكمال توفر هذه المقومات فى الاستراتيجية الاقتصادية التى تتبناها أى دولة من الدول هى الضمان لنجاحها فى تحقيق أهدافها ، والتطور بها على الدوام بما يحقق الأمال المعقودة عليها فى توفير الخير والنماء لصالح الأمة والبشرية جمعاء .

فى ضوء هذه المقومات ننتقل الى استعراض أهم معالم تطورنا الاقتصادى فى العصر الحديث بدءا من تجربة محمد على باشا ثم تجربة

الزعيم الاقتصادى طلعت حرب فى أعقاب الحرب العالمية الاولى حتى تجربة " الخصخصة " الجارية حاليا – مارين مرورا سريعاً بتجربة الاشتراكية فى عهد جمال عبد الناصر ثم التحول إلى الانفتاح الاقتصادى فى عهد أنور السادات ، موضحين أهم خصائص كل منها ، وما حققته هذه التجارب من نتائج وما تعرضت له من عوائق ومتاعب ، لكى نستخلص الدروس والعبر التى ننتفع بها فى تطوير أوضاعنا الاقتصادية مستقبلا .

أولا : تجربة محمد على باشا

النهوض الزراعى لمصر انتفاعا بخيرات النيل

تولى محمد على باشا الكبير حكم مصر فى العصر الحديث بصفته واليا ممثلا للخلافة الاسلامية القائمة فى تركيا ، ثم استقل بحكمها وأصبح رأس الأسرة المالكة فى مصر قبل أن تصبح جمهورية عقب قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .

وقد نهض بمصر نهضة اقتصادية مرموقة لازلنا نفيد بخططها ومعالمها حتى وقتنا الحاضر ... وان كان ذلك لا يعنى أنه لم يكن له قدرات أخرى تجلت فى المواقع الحربية التى أدارها خلال الحملات العسكرية التى قادها فى المنطقة . . كما أن ما سنتحدث بشأنه من ناحية خططه الاقتصادية الفعالة لا يعنى أن عهده قد خلا من كل المثالب والمآخذ من حيث أسلوبه فى الحكم أو مطامعه التوسعية فى المنطقة ، اذ أن حديثنا يقتصر على المجال الاقتصادى لاستخلاص الدروس والعبر التى يمكن الانتفاع بها فى النهوض ببلادنا اقتصاديا .

أدرك محمد على باشا ، أن مصر تمتلك ثروة طبيعية وهبها لها المولى سبحانه وتعالى ، واستخلف أهلها فيها لاستثمارها أفضل استثمار مع

خصوبة أرضها . وجريان مياه نهر النيل فيها من جنوبها الى شمالها للانتفاع بهذه النعمة الربانية .

فعني محمد على بمد الرياحات ، وشق الترع ، التى تتخلل دلتا النيل ، ولازلنا نعتمد عليها فى رى أراضينا ، ولم نضف اليها منذ ذلك الحين الا القليل .

وقد أقام أول قناطر على مجرى النيل وهى " القناطر الخيرية " التى تقع على ملتقى فرعى النيل : فرع رشيد وفرع دمياط .

وعنى بإستزراع بعض المحاصيل التى جلبها من الخارج ونجح فى استزراعها ... وكان فى مقدمتها " القطن " الذى نجحنا فى انتاجه ، وأصبح المحصول الرئيسى للبلاد ، وعاد على الفلاح المصرى بالخير الوفير ، بحيث استحق أن يطلق عليه اسم " الذهب الأبيض " وأصبح الفلاح المصرى يعتمد عليه وينتظر موسم جنيه ، لكى يحقق من الربح الذى يحصل عليه مايتطلع إليه من بناء دار لأسرته ، وتزويج أولاده ، وحج بيت الله .

وان كان الاعتماد على محصول رئيسى وحيد ، من شأنه تعريض الاقتصاد القومى للخطر اذا أصيب بسبب من أسباب الكساد .

ويعتبر النهوض الاقتصادى الذى حققه محمد على هو حسن اختيار المجال الذى تستثمر فيه الأموال بحيث تأتى بالثروة المرجوة ويمكن التعويل عليها دون أن تخضع لسيطرة الغير أو تفشل لسبب خارج عن ارادته وليس نتيجة الاهمال أو التقصير .

واذا قارنا ما قام به محمد على باشا من المشروعات ، بما أقامه خلفه ، نجد أن الخديو اسماعيل أقام الكثير من المشروعات الحضارية ، ذات الصبغة الغربية والمتسمة بالروح العصرية ، أضاع فيها ثروة مصر واستدان بسببها من الخارج ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى التدخل الأجنبى فى شئون البلاد

واحتلالها عسكريا . فقد أنشا دار الاوبرا التى احترقت ، وقمنا بإقامة بديل لها ... وافتتح قناة السويس بحفلة عالمية دعا اليها ملوك وملكات العالم ، وأقام شارعا يؤدى الى موقع أهرام الجيزة ، باعتباره مشروعا سياحيا ، وأنشا حديقة الحيوان .

وهكذا أضاع الخديو اسماعيل أموال البلد ومستقبلها ، نتيجة سوء إختيار المشروعات التى تنفق عليها أموال البلاد ، بلا ثمرة مجدية تحقق المستقبل المأمول ، وتحل مشاكل الناس حلا جذريا ، مما أدى إلى إحتلال مصر عسكريا ، وتمكين الأجانب من التدخل فى شؤوننا الداخلية . . وظل هذا الوضع ردحا طويلا من الزمن ، حتى شاء المولى أن توفق الأمة وحكومتها فى إزالة هذه الغمة ، وتسترد البلاد استقلالها الذى اعتدت عليه قوى البطش والعدوان الأجنبية .

ثانيا : تجربة طلعت حرب

تحقيق الاستقلال الاقتصادى لمصر اعتمادا على مواردها وجهودها الذاتية

أما التجربة الثانية التى سنتناولها بالحديث فهى تجربة أحد رجالات الجمعية الخيرية الإسلامية – التى نتحدث فى رحابها – **وهو المغفور له الزعيم الاقتصادى الوطنى محمد طلعت حرب ، أحد المشاركين فى تأسيسها والمساهمين فى نشاطها حال حياته .**

فقد أدرك طلعت حرب بحسه الوطنى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أن مصر فى حاجة الى تحرك وطنى ، وتجلى صدق حسه باندلاع ثورة الشعب ضد الاحتلال البريطانى فى عام ١٩١٩ ، وبدء تطلع المصريين الى بناء مصر المستقلة الحديثة التى تعتمد على نفسها فى تيسير أمورها ، وتتخلص من السيطرة الاجنبية على ادارة شئونها .

ولما كان القطن يمثل وقتئذ المحصول الرئيسى للبلاد الذى يرتكز عليه صرح اقتصادها الوطنى ، وتكاد تحتكر بريطانيا شراءه لتشغيل مصانع الغزل والنسيج فى انجلترا لانتاج المنسوجات القطنية التى كانت تسيطر على تجارتها فى سائر أنحاء العالم ... وكانت البنوك الاجنبية تحتكر تمويل زراعته ، وتجارته فى مصر ، وتصديره للخارج مستغلة الفلاح المصرى ، ومسيطرة على ثروة البلاد العقارية الزراعية ، . . فقد رأى طلعت حرب أن يتخذ من القطن – باعتباره المحصول الرئيسى الذى يقوم عليه الاقتصاد الوطنى – محورا لتحقيق استقلال البلاد الاقتصادى .

وبدأ طلعت حرب تحركه بإنشاء بنك وطنى يقوم على أموال المصريين وحدهم ، فتم تأسيس " بنك مصر " فى السابع من مايو عام ١٩٢٠ برأس مال مصرى مائة فى المائة ، ممثلا فى أسهم إسمية لا يملكها الا المصريون ، وتتم معاملاته المصرفية باللغة العربية ... ولكنه لم يجعل منه مصرفا للمعاملات التجارية فحسب ، بل قاد به ثورة اقتصادية ، مستخدما مالديه من أموال فى العديد من المجالات المتعلقة بزراعة القطن ، وتجارته ، وتصنيعه . فوضع نظاما لتمويل مستلزمات الانتاج الزراعى ، وتوفير السيولة النقدية لتجار القطن فى الريف ، ثم عمد الى اقامة مجموعة مشروعات تحقق التكامل بين مشروعات الصناعات القطنية : فأنشأ شركات لحلج الأقطان ، ونقلها ، وغزلها ، ونسجها .. ولا زالت شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى خير شاهد على دوره المجيد فى هذا الميدان . . واتجه فى ذات الوقت الى ميدان التجارة الخارجية للغزل والنسيج ، حيث استطاعت المنسوجات القطنية الرفيعة التى اشتهرت بها المنسوجات المصرية كالبوبلين والتريكولين أن تغزو الأسواق الأوربية والامريكية ، وأن تحمل

المستهلك على الافتخار بارتدائه قميصا مصنوعا من القطن المصرى الرفيع المستوى .

ثم اتجه طلعت حرب الى انشاء المشروعات المتعددة التى تغطى احتياجات الشركات التى قامت أساسا على خدمة القطن فى كافة المراحل من زراعته وحلجه ، وغزله ، ونسجه ، وإلى نقله ، وتمويله ، والاتجار فيه – وذلك بالقيام على انتاج مايلزم لها من إحتياجات ، كالمطبوعات ، والتأمين ضد المخاطر التى قد تتعرض لها ، والملاحة بحرية لنقل مستلزماتها من الخارج أو نقل منتجاتها اليه ، وفنون عرض واعلان للدعاية لمنتجاتها لتشجيع الاقبال عليها من كل ما ينتج عنها أو يتخلف منها .

كما أنشأ شركة مصر لتجارة الزيوت المستخلصة من بذرة القطن ، وشركة مصر للمستحضرات الطبية التى بدأت بانتاج القطن الطبى والأقمشة اللازمة للملابس الطبية ولوازم المستشفيات من المنسوجات كالأغطية وغيرها ... ، **إلى غير ذلك من توسعات انشائية بعدت عن مجال الارتباط بالقطن الى التوسع الانشائى فى كل ما تبدو حاجة البلاد اليه أو تبدو منفعة منه ولو لم يتصل بالقطن اتصالا مباشرا ، مثل إنشاء شركة مصر للتمثيل والسينما ، ومصايد الأسماك ، بحيث بلغ عدد الشركات التى أسسها ، اثنين وعشرين شركة تحمل جميعها اسم " مصر " . وفيما يلى بيان بأسماء هذه المشروعات وتاريخ تأسيسها :**

اسم الشركة	تاريخ التأسيس
مطبعة مصر	١٩٢٢
شركة مصر لحلج القطن	١٩٢٤
شركة مصر للنقل والملاحة	١٩٢٥
شركة مصر للتمثيل والسينما	١٩٢٥

شركة مصر للغزل والنسيج	١٩٢٧
شركة مصر لمصايد الاسماك	١٩٢٧
شركة مصر لنسيج الحرير	١٩٢٧
بنك مصر – لبنان	١٩٢٩
شركة مصر لتصدير الأقطان	١٩٣٠
شركة مصر للطيران	١٩٣٢
شركة بيع المصنوعات المصرية	١٩٣٢
شركة مصر للتأمين	١٩٣٤
شركة مصر للملاحة البحرية	١٩٣٤
شركة مصر للسياحة	١٩٣٤
شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع	١٩٣٨
شركة مصر لأعمال الاسمنت المسلح	١٩٣٨
شركة مصر لصباغى البيضا	١٩٣٨
شركة مصر للمناجم والمحاجر	١٩٣٨
شركة مصر للصناعة وتجارة الزيوت	١٩٣٨
شركة مصر للمستحضرات الطبية	١٩٤٠
شركة مصر للحرير الصناعى .	١٩٤٦

كما وجد طلعت حرب أن التجار الأجانب – خاصة اليهود منهم – يتحكمون فى السوق التجارى ، ويملكون أكبر المتاجر الكبرى لبيع الأقمشة والملابس الاجنبية ، فكان قراره بانشاء " شركة بيع المصنوعات المصرية " لتؤدى دورا وطنيا فى الترويج للمصنوعات المصرية التى لم يكن لها مكان بين تلك المحلات الاجنبية واليهودية من أمثال محلات شيكوريل و هانو

وأوركو وجاتينيو وبنزايون وصيدناوى وداود عدس وشالون ... فتكاتفوا ضده وعملوا على محاربته .

غير أن من دواعى الأسف أن بدأت بوادر الصدام العالمى الذى سبق نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وأحدث ذلك ذعرا لدى أصحاب رؤوس الاموال ، أدى الى اقدامهم على سحب رؤوس أموالهم من البنوك ، ومن بينها بنك مصر ، الذى لم يكن يحتفظ لديه بإحتياطى نقدى كاف لمواجهة طلبات السحب المتزايدة ، واضطر بنك مصر للتقدم بالاقتراض من البنك الاهلى الذى كان يقوم بوظيفة البنك المركزى أى بنك البنوك المنوط به مراقبتها ومساندتها عند تعرضها للمتاعب بضمان ما يملكه من أوراق مالية ، إلا أن المحافظ الإنجليزى للبنك الاهلى رفض الاستجابة لمطلبه ، كما رفض وزير المالية المصرى ايقاف سحب ودائع صندوق التوفير الحكومى من بنك مصر !! **وفطن طلعت حرب الى أنه هو المقصود من وراء هذا الموقف ، وأن تخليه عن موقعه قد يجنب بنك مصر الوقوع فى المكروه ، فقدم استقالته الى مجلس ادارة البنك فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ .**

وعندئذ تدخلت الحكومة المصرية لإنقاذ بنك مصر . . . وظل البنك وأغلب شركاته التى نشأت فى ظله ، قائمة ترمز الى مرحلة من مراحل النضال الوطنى من أجل اقامة صرح اقتصادى وطنى يحمى البلاد من استنزاف خيراتها لصالح قوى أجنبية مهيمنة فى ظل الاحتلال البريطانى الذى كان جاثما على أرضها .

وقد ترك طلعت حرب لنا من بعده تجربة اقتصادية نعتز بها ، ونستفيد مما حققته من مشروعات ناجحة لازالت تحقق الخير الكثير لمصر وبنيها طالما كانت تحرص على رعايتها بالدعم والتحديث .

وعلينا فى نفس الوقت أن نأخذ العبرة مما حل بهذه التجربة من أسباب عرضتها للمخاطر وفى مقدمتها التوسع والتنوع غير المحسوب فى المشروعات الملحقة بها ، دون تحوط من المخاطر التى يمكن أن تتعرض لها ، الامر الذى يقتضى اتخاذ الاجراءات اللازمة لمواجهتها فى أقرب وقت ممكن خاصة بالنسبة للمشروعات المالية التى تتطلب الاحتفاظ بالسيولة اللازمة لمواجهة متطلبات السحب الفورى لأموال المودعين كالبنوك التجارية على خلاف الوضع بالنسبة لأنواع أخرى من البنوك كالبنوك الصناعية والعقارية .

كما يستفاد من هذه التجربة أن التركيز الشديد فى ادارة المشروعات المتعددة مع تنوعها فى التخصص ووجودها فى قبضة يد واحدة سواء كانت يد صاحب عمل مسيطر أو مؤسسة قابضة ، من شأنه أن يؤدى للوقوع فى أخطاء سوء التقدير أو عدم الإلمام بكافة صنوف المشاكل المتوقعة ، **الامر الذى يتطلب عدم تجاوز الحجم الأمثل للمشروعات المدارة مع محاولة الاستفادة من تنوع الافكار والحلول ، وتباين وجهات النظر فى التوقعات والاحتمالات المستقبلية تفاديا للتعرض للكوارث والمفاجآت الاقتصادية .**

ثالثاً – تجربة جمال عبد الناصر

التجربة الاشتراكية للنهوض الاقتصادى بمصر

عندما تحرك الجيش المصرى فى ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢ ضد النظام الملكى القائم وقتئذ والذى كان يتربع على رأسه الملك فاروق الاول (سليل أسرة محمد على باشا الكبير) بقيادة اللواء محمد نجيب ، معلنا على الشعب المصرى الأهداف الست للحركة ، التى تتلخص فى : القضاء على الاستعمار وأعوانه ، والقضاء على الاقطاع ، والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس

المال على الحكم ، واقامة جيش وطنى قوى ، واقامة عدالة اجتماعية ، واقامة حياة ديمقراطية سليمة – رحب شعب مصر بقيامها ، وسرعان ما وجهت الثورة انذارا إلى فاروق بالتنازل عن العرش ، فقام بتوقيع وثيقة التنازل لإبنه الامير أحمد فؤاد ، وغادر البلاد فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ثم لم يلبث أن صدر عن مجلس قيادة الثورة إعلان دستورى بتاريخ ١٨ يناير ١٩٥٣ بإلغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية .

وقد كان اقتصاد مصر عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو يقوم أساسا على الزراعة ، ولم يكن للصناعة إلا أهمية ثانوية غير مؤثرة فى الهيكل الاقتصادى العام للبلاد ، وكانت العلاقات الاجتماعية فى قطاع الزراعة متردية اذ كان أكثر من نصف المساحة الكلية للأراضى الزراعية مملوكا لأفراد لا يتجاوز عددهم سبعين ألفا ، وكان الجزء الباقى موزعا بين ملاك لا يزيد عددهم على مليون ونصف من الأنفس ، بجانب الملايين العديدة الذين لا يملكون من تراب وطنهم شيئا . . . **وسرعان ما تحركت الثورة لمعالجة هذا الوضع ، فصدر قانون الاصلاح الزراعى لسنة ١٩٥٢** بعدم جواز تملك أى شخص من الأراضى الزراعية لما يزيد على مائتى فدان ، وعدم جواز زيادة جملة ما يملكه الشخص وزوجته وأولاده القصر على ثلثمائة فدان ، بحيث يجرى توزيع الاراضى الزائدة المستولى عليها ، على صغار الفلاحين حتى يكون لكل منهم ملكية صغيرة لا تقل عن فدانين ولا تزيد على خمسة أفدنة وفقا لجودة الأراضى . . . وقد تلا ذلك بعض التعديلات الجزئية فى هذا القانون .

هذا وقد اشتد الخلاف بين اللواء محمد نجيب وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة بزعامة البكباشى جمال عبد الناصر ، وإنتهى بتنحية الأول وإختيار جمال عبد الناصر قائدا للثورة ، فرئيسا للجمهورية ... **ووجه الرئيس عبد**

الناصر اهتمامه للصناعة ، واعتمد برنامج خمس سنوات لتصنيع البلاد عام ١٩٥٧ يتضمن اقامة ١٢٥ مشروعا صناعيا فى عدد من مجالات الانتاج ... ثم بدأ صدور سلسلة من التشريعات لتأميم نوعيات معينة من المشروعات الاقتصادية اعتبارا من ٩ يوليو ١٩٦١ حتى طرح فى ٢١ من مايو ١٩٦٢ على المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ميثاقا للعمل الوطنى الذى وافق عليه بالاجماع فى ٣٠ يونيو ١٩٦٢ وبمقتضاه أصبحت مصر تطبق نظاما اشتراكيا وفق ما نص عليه هذا الميثاق بحيث تتولى الدولة قيادة التنمية الاقتصادية عن طريق القطاع العام وفق خطط خمسية مرسومة .

وبالرغم من اعادة توزيع الملكية الزراعية ، وتقديم المساعدات للفلاحين المعدمين الذين وزعت عليهم الأراضى المصادرة من ملاكها عن طريق الجمعيات التعاونية الزراعية ... وبالرغم من انشاء السد العالى والاستفادة مما يحجزه من مياه ، وما أنفق على مشروعات استصلاح الاراضى ، فإن الرقعة الزراعية لم تزد فدانا واحدا ، ولعل ذلك يرجع بصفة خاصة الى زحف المبانى عليها .. **كما تزداد المشكلة خطورة اذا لاحظنا أن انتاجية الأراضى بدورها تتناقص نتيجة تدهور خصوبة الأرض الذى يمكن أن نرجعه إلى ثلاث ظواهر :**

(١) ظاهرة تجريف وتقشيط الأرض لتحويل الطمى الى طوب للبناء دون تطبيق الحظر المفروض على ذلك بطريقة حازمة ، وعدم التوصل الى صنع طوب للبناء من مواد محلية أخرى على نطاق واسع .

(٢) ظاهرة تطبيل الأرض نتيجة ارتفاع المياه الجوفية فى الحقول بسبب الاهمال فى تنفيذ مشروعات الصرف .

(٣) ظاهرة خلو مياه النيل من الطمى المجدد لخصوبة الأرض بسبب احتجاز المياه خلف السد العالى وهو ما كان يمكن تعويضه بوسائل تخصيبية أخرى .

ولم يوجه الاهتمام لتوفير اكتفائنا الذاتى من القمح حيث أصبح من السلع الاستراتيجية التى لا تصدرها إلا دول قليلة تتحكم فى بيعها وتستخدمها كوسيلة للضغط على من يحتاج اليها ، فضلا عن أن القرية لم تعد وحدة انتاجية بل تحولت الى وحدة استهلاكية تعتمد على المدينة فى تدبير غذائها .

كما ظهرت الحاجة الى اعادة النظر فى أسلوب تسعير المحاصيل الزراعية وإلى مراجعة وضع التسويق التعاونى الذى أصبح تسويقا اداريا نتيجة سيطرة " الهيئة العامة للاصلاح الزراعى " على القطاع الزراعى التعاونى **بحيث لم تعد الوحدات الزراعية تعاونيات بالمعنى العلمى والعملى لهذه الكلمة ، بل أصبحت ادارة حكومية تقوم بشراء المحاصيل بأبخس الاسعار وتقوم ببيعها بالسعر العالى** وبذا يعتبر الفارق بينهما بمثابة ضريبة مفروضة على ثمرة عمل الفلاح لحساب الحكومة ... ومن هنا فإنه بمجرد أن اصبح مسموحا بالسفر إلى الخارج فى مرحلة تالية ،هجر عدد كبير من الفلاحين ، الأرض وزراعتها ، لكى يعملوا فى الدول العربية الأخرى خارج مصر ، مما أثر على العمالة الزراعية فى الريف وأدى الى ارتفاع أجورها .

فإذا انتقلنا الى مجال الانتاج الصناعى ، نجد أنه كان مرفوعا شعار " من الابرة الى الصاروخ " وهو شعار خاطئ ، اذ لا توجد دولة فى العالم – مهما كانت ضخامة مواردها وتنوعها ، وتعدد قدرات العناصر الفنية لديها – تستطيع أن تكتفى ذاتيا عن كافة دول العالم بأسره . . وربما كان يفضل ذلك تخير المشروعات التى نملك عناصرها ، ويتوافر لدينا الفنيون المؤهلون

لتشغيلها ... كما اكتفينا بنقل المصانع من الخارج وتركيبها علـى أرضنـا دون أن نعنى بنقل تكنولوجياتها ، والعمل على تطويرها ، مما جعلنا في حاجة مستمرة الى قطع الغيار اللازمة لها من الخارج ، دون ان نستطيع الاعتماد على أنفسنا كما فعلت اليابان والنمور الاسيوية .

ولما كانت ادارة القطاع العام تعتبر فى ظل التطبيق الاشتراكى بمثابة العصب للاقتصاد الصناعى حيث كان انتاجه يمثل وقتئذ نحو ٧٠ ٪ من حجم الانتاج الصناعى فى البلاد ، فإنه كان ينبغى التدخل من جانب الدولة لتطوير أوضاعه بصفه مستمرة من النواحى الآتية :

١ – من حيث اعادة النظر فى مجالات عمله حيث أن الهدف من إنشائه هو أن تتولى الدولة السيطرة على القطاعات الحاكمة بغية توجيه الاقتصاد القومى لتحقيق الأهداف المرسومة لخدمة مصالح الجماهير العريضة من أفراد الشعب .. وبالتالى فإن هذا الغرض لا يتحقق فى حالة تدخل الدولة لإدارة الوحدات الصغيرة ، أو المبعثرة ، أو أنواع من الصناعات أو الخدمات التى كان تعتمد أساسا على المهارات الشخصية ، أو الروابط الانسانية التى تنشأ مع المنتفعين بها .

٢ – **من حيث رفع ضغوط الدولة المعوقة** لحركة القطاع العام التى كان ينبغى التخلص منها كتعدد المستويات الاشرافية .

٣ – **من حيث عدم فرض عمالة زائدة** على مشروعات القطاع العام بإلزامها بتشغيل أعداد من العاملين لا حاجة بها اليهم ولا تتوفر فيهم المؤهلات أو الخبرات المطلوبة ، مما يرهقها بأعباء ثقيلة بلا مقتض .

٤ – **من حيث الاستيلاء على أرباح المشروعات العامة** دون مراعاة ما تقتضيه القواعد الاقتصادية من الحرص على الاهلاك ، والتجديد لأصول المشروع ، وضرورة الاحتفاظ بجزء من أرباحها لأغراض التوسع ، بدلا من

الاقتراض بفائدة مرتفعة حتى تغطى تكلفة الانتاج ، وتحقق ربحا مناسبا بأسعار تتناسب مع دخول الطبقات الفقيرة . وكان الواجب تمكين شركات القطاع العام من بيع منتجاتها بالاسعار الاقتصادية ، على أن تتحمل الحكومة فروق الاسعار اذا ما رأت أن تباع بالاسعار الاجتماعية المخفضة .

على أنه ماكان يصح الاكتفاء بتلك القواعد العامة لإصلاح أوضاع شركات القطاع العام بل ان الامر كان يستوجب إلى جانب هذا ، تشكيل لجان تضم عناصر اقتصادية وفنية ومحاسبية وادارية لدراسة المشاكل على الطبيعة ، واقتراح الحلول العلمية وفق الظروف الواقعية ، مع مراعاة مساءلة القائمين على المشروعات فى حالة ثبوت أخطاء فى حقهم ، تجنبا للشعار المرفوع من تفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة حتى لا يتعرض القطاع العام للصورة المعيبة التى أصيب بها .

رابعاً – تجربة أنور السادات

سياسة الانفتاح الاقتصادى

أطلقت " سياسة الانفتاح الاقتصادى " على السياسة التى انتهجها الرئيس السابق أنور السادات بعد النصر الذى حققته مصر على اسرائيل فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، بقصد تحرير الاقتصاد القومى من القيود المفروضة عليه والتى أدت إلى عرقلة تقدمه وازدهاره .

على أننا اذا تحدثنا عن حرب اكتوبر بإعتبارها نقطة التحول نحو الانفتاح الاقتصادى فلا نقصد بذلك مجرد المعركة العسكرية التى إقتحمت فيها قواتنا المسلحة تحصينات العدو على قناة السويس المتمثلة فيما سمى بخط بارليف وردت اسرائيل الى حجمها الطبيعى ، وقضت على عقدة الهزيمة والشعور

بالنقص فى نفوس العرب وأعادت الثقة الى قلوبهم ... وانما نقصد بحرب اكتوبر ايضا معركة حظر بيع النفط العربى للدول المساندة لاسرائيل ، مما كان له أثره فى إشعار الدول المتقدمة صناعيا من الولايات المتحدة الاميركية الى الدول الاوربية واليابان بمدى قدرة الدول العربية المنتجة للنفط على هز كياناتها .

وبمجرد التوصل الى وقف اطلاق النار واتمام فض الاشتباك بين القوات المتحاربة على الجهتين المصرية والسورية إنتظارا لاستكمال التسوية الكاملة فى مؤتمر جنيف ، اعتبرت مصر نفسها قد انتقلت من الجهاد الأصغر الى الجهاد الاكبر بالعمل على اعادة بناء ما خربته الحرب فى بئياننا الاقتصادى ، والمسارعة الى تعويض الشعب عما تحمله من حرمان وشظف العيش من أجل استرداد الكرامة العربية فى الوقت الذى نحافظ فيه على قواتنا العسكرية فى حالة الاستعداد تحسبا لأى طارئ ، وتحوطا لما قد يصيب مباحثات السلام من فشل نتيجة تعنت العدو الاسرائيلى . **فأعلن الرئيس أنور السادات عن انتهاج سياسة اقتصادية جديدة أطلق عليها اسم " سياسة الانفتاح الاقتصادى** " وهو ما لم يكن من المتصور أن يتم إلا بعد أن يسبقه انفتاح سياسى على الولايات المتحدة الامريكية ، وقد تجلت مظاهره بوضوح فى اعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين وقيام الرئيس الامريكى رينشارد نيكسون بزيارة مصر . تلك الزيارة التى انتهت بإعلان بيان المبادئ التى تقوم عليها العلاقات المصرية الامريكية .

على أن هذا الانفتاح الاقتصادى لم يكن من المتصور أن يحقق النجاح المنشود من ورائه إلا اذا فهم فهما صحيحا ، وعرفت أبعاده . إذ لايقصد بسياسة الانفتاح الاقتصادى فتح أبواب البلاد لكافة أنواع السلع والاستثمارات

بلا قيد أو شرط ، لأن مثل هذا الانفتاح المطلق بلا ضوابط لم يسبق أن أخذت به أى دولة من دول العالم ؛ رأسمالية كانت أم اشتراكية ... وإن كان ينبغى فى الوقت نفسه ألا نوضع له من الضوابط ما يوحى بعدم جديته ، **وهو ما يتطلب الدقة فى رسم الحدود الفاصلة بين الانفتاح الجائز ، وبين الضوابط الواجب مراعاتها تحقيقا للصالح القومى الاقتصادى والسياسى معا** ، حتى لايدخل عليه التعديلات من وقت الى آخر مما يؤدى الى فقدان العالم الخارجى الثقة فى هذا الانفتاح الذى نأخذ به . كما أن الانفتاح فى التعامل الاقتصادى مع الدول التى كنا نغلق الابواب دونها لا يعنى الاتجاه الى غلق أبواب التعامل مع الدول الأخرى ، إذ أن صيانة مالدينا من آلات وتجديدها واستمرارها يحتاج الى معدات وقطع غيار ومستلزمات أخرى من الدول المنتجة لها ... هذا الى أن ثمار التقدم العلمى والتكنولوجى تختلف من دولة الى أخرى ، وليس من صالحنا أن نقتصر على الافادة من المستحدثات التكنولوجية والعلمية من بعض الدول دون البعض الآخر ، فضلا عن أن بعض المشروعات الخاصة قد لا تقبل بعض الدول لأى سبب من الاسباب أن تبيع لنا أسرارها الصناعية أو أن تشاركنا فى اقامتها أو أن تقيمها لحسابها لدينا ، بينما قد تقبل دول أخرى أن تزودنا بهذه المطلوبات لاختلاف ظروفها أو تقديرها لمصالحها . **هذا الى أن الانفتاح لا يعنى ان ندعو المستثمرين وأصحاب رؤوس الاموال الأجانب للقدوم الى بلادنا لاستثمار أموالهم ، بحيث يكون دورنا دور المتفرج المنتظر لثمرات هذا الانفتاح دون جهد إيجابى من جانبنا للافادة من هذه التكنولوجيا الحديثة للتوصل الى تطويرها والتقدم بها .**

كما ينبغى ألا يركن الانفتاح الاقتصادى الى الحصول على التكنولوجيا الحديثة عن طريق الشراء ، بحيث تستورد المصانع وتنقل لتركيبها على

أرض الدولة ويجرى تشغيلها حتى اذا ما استهلكت ماديا أو فقدت صلاحيتها فنيا نتيجة التطور التكنولوجي يصبح لا سبيل سوى الالتجاء الى الدولة التى زودتنا بها لشراء البدائل اللازمة للحلول محلها **وانما يجب العمل على استيعاب التكنولوجيا المستوردة وتنشيط البحث العلمى لاستحداث الجديد الذى يضاف الى المستورد والمنقول عن طريق دعم البحوث العلمية وتوجيهها الوجهة التطبيقية للنهوض الاقتصادى ومعالجة مشاكله .**

وتعتبر اليابان بما حققته من نتائج باهرة فى عالم التقدم التكنولوجى والنمو الاقتصادى ، مثلا رائعا ومعبرا عن صواب هذه الاستراتيجية . فقد سارعت بالإفادة بما لدى أمريكا ثم اضافت اليه وأدخلت عليه الجديد ، فضلا عن استفادتها من ظروفها المحلية فى تقليل التكلفة وزيادة الانتاج .

ولما كان الانغلاق الاقتصادى لم يكن هو السبب الوحيد لتردى أوضاعنا الاقتصادية ، فلا نتصور بالتالى ان مجرد انتهاج سياسة الانفتاح الاقتصادى سوف يحل جميع مشكلاتنا ويصلح أمورنا الاقتصادية من كافة جوانبها ، وانما يتعين علينا ان نعالج الأسباب الاخرى بنفس الاهمية وفى ذات الوقت ، وإلا فشل الانفتاح الاقتصادى فى تحقيق الآمال المعقودة عليه فى هذا الشأن .

وتأتى فى مقدمة هذه المقومات الاضافية اللازمة لنجاح سياسة الانفتاح الاقتصادى ما يلى :

(١) خلق جو من الثقة والاستقرار فى المعاملات الاقتصادية مما يطمئن المستثمرين وأصحاب الأعمال على رؤوس اموالهم ومشروعاتهم .

ولا يكفى فى هذا الصدد أن يتضمن قانون استثمار المال العربى والاجنبى النص على حظر التأميم أو المصادرة ، والوضع تحت الحراسة لخلق الجو الذى يبعث على الاطمئنان المنشود اذ ما اسهل من أن يلغى هذا القانون الذى ينص على هذه الضمانة بقانون مماثل !!

وعندما أبرمت اتفاقية صندوق ضمان استثمار رؤوس الاموال العربية في الدول العربية المنضمة اليها ضد المخاطر غير الاقتصادية ، رأى البعض أن رأس مال هذا الصندوق غير كاف للتعويض عن رؤوس الاموال التي يمكن استثمارها في البلاد العربية الاخرى في حالة تعرضها للمصادرة أو الحراسة أو التأميم ، وما يحتاجه هذا الاجراء من جهد لاستعادة الثقة المفقودة .

وأيا كانت مبررات الدفاع عن السياسة السابقة ، والقول بأن المقصود منها كان العمل على التخلص من السيطرة الاجنبية على مراكز التحكم في الاقتصاد الوطني ، فإنه لا يمكن أن يكون مقبولا أن نفس الشخصيات التي تولت تلك الاجراءات التي يفزع منها رأس المال العربي والاجنبي هي التي تتولى الاشراف على سياسة الانفتاح الاقتصادي ... وكان الواجب يقتضي ان تنسحب هذه الشخصيات الى أعمال أخرى إذ لا يوجد - كما يقولون - رجال صالحون لكل العصور ، ومن المعروف أن الدول تقوم بتغيير أشخاص سفرائها لدى الدول الاخرى عندما تغير سياستها حيالها .

كما أن توفير جو الثقة كان يتطلب معاملة القطاع الخاص في مصر بنفس المعاملة التي يعامل بها القطاع الخاص الاجنبي الذي ينوي استثمار رؤوس أمواله في مصر . وهو ما كان موضع استفسار مستمر من الوفود الاجنبية عند زيارتها لمصر عقب الاعلان عن سياسة الانفتاح الاقتصادي .

كما ينبغي الغاء كافة القوانين الاستثنائية التي وضعت في ظروف ما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وفي مقدمتها قانون تنظيم فرض الحراسة رقم ٣٤ لسنة ١٩٧١ الذي يمكن بمقتضاه فرض الحراسة على أموال الاشخاص الطبيعيين والاعتباريين بحكم نهائي غير قابل للطعن فيه يصدر من محكمة خاصة ليست قضائية أو عادية ، وفي أحوال مصاغة بعبارات مطاطة قابلة للتفسيرات المتناقضة ، ذلك أن في النصوص الواردة بقانون العقوبات

والمتعلقة بحماية أمن الدولة وسلامتها ، والمعاقبة على استغلال النفوذ ، والاتجار فى الممنوعات ، الحماية الكافية .

ولا يقل أهمية عن اشاعة جو الثقة والاطمئنان ؛ مراعاة استقرار القرارات الاقتصادية وعدم التغيير والتبديل فيها من وقت لآخر نظرا لما يحدثه ذلك من بلبلة فى المعاملات الاقتصادية ، وتخوف من الارتباط بتعاقدات طويلة الأمد ثم لا تلبث أن تتغير الأسس التى بنيت عليها هذه التعاقدات .

(٢) توفير المرافق والخدمات اللازمة لقطاع الاعمال على مستوى فعال يمكن المستثمرين وأصحاب الاعمال من تسيير أمورهم بالكفاءة والسرعة اللازمتين ... فوجود شبكة تليفونية صالحة ، واتصال لاسلكى خارجى ميسر ، ووسائل مواصلات سريعة ومنتظمة ، وخدمة مصرفية فعالة ، وادارة كفؤة عاجلة فى المطارات والموانى ، وإقامة مريحة بالفنادق الى غير ذلك مما يحتاجه رجل الاعمال لتيسير عمله واقامته بالبلاد يعتبر أمرا ضروريا لنجاح سياسة الانفتاح الاقتصادى ... وكل إهمال أو تراخ أوسوء معاملة من شأنها أن تشكل عوامل طرد وتنفير للقادمين الراغبين فى التعامل معنا من رجال الأعمال .

(٣) وضع حد للفساد والرشوة وإستغلال النفوذ بالصرامة اللازمة حتى لا يشعر المتعاملون معنا أنهم فى حاجة إلى إتباع الأساليب الملتوية لإنجاز معاملاتهم ، وحتى لا تتعطل مصالحهم تحقيقا لإهواء خاصة أو خدمة لمصالح منافسيهم .

(٤) الارتفاع بكفاءة الادارة العامة سواء على مستوى الادارة الحكومية أو القطاع العام أيا كان الاسم المعطى له . فإن المتعاملين معنا من الخارج لابد وأن توجد لهم صلات ومعاملات مع الادارات الحكومية ومع بعض أجهزة القطاع العام ، فإن لم تكن الادارة فى هذه الجهات على المستوى اللائق من

الكفاءة والسرعة والمسئولية فإن هؤلاء المتعاملين يفقدون الكثير من مقومات نجاح مشروعاتهم . ولا يخفى أننا تحدثنا كثيرا عن ترشيد القطاع العام ، ورفع كفاية الأداء ، والثورة الادارية ، وهز الادارة الحكومية ، وغير ذلك من الشعارات دون ان نلمس لها أثرا عمليا حتى الآن .

وهذا الاصلاح الادارى يمكن أن يتحقق بمراعاة أمرين :

الأمر الاول : إعادة النظر فى الأوضاع التى نجمت عن تميز أهل الثقة على أهل الخبرة ، أو تقديم الولاء على الكفاءة .

فالولاء يجب ان يكون للوطن ، بينما الكفاءة والخبرة ينبغى ان يكونا المقياس الوحيد لتولى المناصب وشغل المراكز القيادية ... وأن كل شخص وصل الى مركز أو منصب لانتمائه الى شلة أو لتزكية شخصية أو لصلة قرابة أو مصاهرة أو لمكافأة عن خدمات معينة ، يجب أن ينقل إلى جهة أخرى تتناسب مع قدراته الحقيقية دون أى اعتبار من الاعتبارات المذكورة .

الأمر الثانى : المساءلة عن الاخطاء . فليس هناك ما هو أكثر إهدارا للمال من عدم المحاسبة عن الأخطاء التى ترتكب بالرغم من فداحتها فى بعض الحالات ... أو أن يكون أقصى ما يتخذ هو النقل من منصب إلى آخر فى نفس المستوى والجهة أو النقل من جهة الى أخرى فى ذات المستوى !!

إن هذا الانفتاح الاقتصادى القائم على فتح أبواب البلاد على مصاريعها بدون ضوابط ، فضلا عن أنه لم يكن فى الاتجاهين من حيث الصادر والوارد اذ لم يكن لدى مصر فائض من الانتاج الوطنى صالح للتصدير إلى الخارج قد أدى **إلى أن يكون الانفتاح فى اتجاه واحد من الخارج إلى الداخل فى صورة سلع استهلاكية مصحوبة بدعاية خلابة الأمر الذى إلى عرّض صناعتنا الوطنية للخطر ... بحيث اصبحنا نعتمد على موارد مالية غير**

مضمونة ومن غير المستطاع السيطرة عليها من جانبنا ، واستمر هذا الوضع حتى وقتنا الحاضر .

وتتضمن هذه الموارد ما يلى :

(١) رسوم المرور بقناة السويس - وحصيلتها تتوقف على عناصر ليست لدينا القدرة على التحكم فيها ، والسيطرة عليها ، إذ ان إيراداتها تتوقف على عدد وحجم ناقلات البترول المستخدمة فى نقله وإمكانية عبورها للقناة أو إتجاهها إلى استخدام طريق رأس الرجاء الصالح المنافس لطريق قناة السويس من حيث رسوم المرور المقررة ، فضلا عن احتمالات إغلاق القناة لاعتبارات عسكرية ، وهو ما حدث مرتين ، وحرمنا بذلك من حصيلة رسوم المرور فيها خلال فترة الاغلاق .

(٢) حصيلة صادرات البترول - وهو بدوره مصدر غير مضمون حيث أن سعر البترول يتحدد وفق تفاعلات دولية تتمثل فى مخططات شركات النفط العالمية المنتجة للبترول ، وسياسات الدول المتاجرة فى البترول المهيمنة على أسواقه بحيث تؤثر تفاعلاته فى اقتصادنا القومى . . وها نحن أولاء نرى المملكة العربية السعودية - ولا مجال لمقارنة ثرواتها البترولية بالاحتياطى البترولى فى مصر - تعانى فى الوقت الراهن من أزمة مالية نتيجة ما أنفقته فى حرب الخليج وما تعهدت بدفعه ثمنا لصفقات الأسلحة المستوردة وما إلتزمت بدفعه للولايات المتحدة مقابل مشاركتها فى الدفاع عنها خلال الحرب .. هذا الى أن رصيدنا الاستراتيجى المؤكد فى باطن الارض لا يكفينا إلا لمدة محدودة تتروا ح ما بين عشر واثنتى عشرة سنة بحيث لا يعتبر من الحكمة ان نستنزفه قبل الأوان ، بالاعتماد عليه لموازنة ميزاننا التجارى ، فى حين أنه بعد نحو عشر سنوات ، سوف ينفد رصيدنا منه فى باطن أرضنا ونضطر لاستيراد ما نحتاج اليه منه بالعملة الاجنبية من الخارج .

(٣) تحويلات المصريين العاملين فى الخارج - اذ فتحت فى عهد السادات أبواب السفر للعمل فى الخارج مسايرة لسياسة الانفتاح الاقتصادى ، وأصبحت تحويلاتهم النقدية الى أسرهم الموجودة داخل البلاد موردا من العملات الاجنبية تواجه به مصر العجز فى ميزان المدفوعات ... ولكنه بدوره غير مضمون من عدة نواح : فقد تحظر بعض الدول تشغيل العمالة المصرية لديها نتيجة خلافات سياسية أو تحظر تحويل أجورهم نقدا إلا فى حدود نسبة معينة وهو ما حدث فى كل من العراق وليبيا . كما أن ما يفرض على أجور العاملين فى الخارج من ضرائب تحمّل هؤلاء العاملين على إيداع مدخراتهم فى بنوك بالخارج بدلا من تحويلها الى بنوك مصرية فتحرم منها كعنصر مستقر لهذه الموارد .

(٤) موارد السياحة - وأخيرا فإن السياحة تعتبر مصدرا هاما للموارد العامة للدولة لكنه مصدرا غير مأمون الجانب ، إذ أن وقوع حوادث ارهابية فى منطقة مجاورة من شأنها أن تتسبب فى بث الخوف لدى السياح الذين يعتزمون زيارة البلاد مما يؤثر فى ايرادتها . ومن هنا فإنها لا تعتبر عنصرا مستقرا يعتمد عليه فى النهوض الاقتصادى كالانتاج الصناعى أو الزراعى ، بحيث ينبغى عدم التوسع فيه بإنشاءات واسعة ومكلفة كالإسراف فى اقامة القرى السياحية والتوسع فيها تحسبا لما قد تتعرض له من ركود نتيجة مثل هذه الاحداث التى تقع فى المنطقة .

خامسا - التجربة الجارية للرئيس مبارك
بين برنامج الخصخصة ومشروع السوق الشرق أوسطية .

وأخيرا تتمثل التجربة المعاصرة التى يأمل الرئيس حسنى مبارك بأن تنهض بمصر اقتصاديا - فى مشروعين :

أولهما : تخلى الحكومة عن تملك المشروعات الاقتصادية وادارتها وذلك ببيعها للقطاع الخاص ، بعد أن فشلت فى تحقيق النتائج المأمولة منها فى ظل الاتجاه نحو تحويلها من قطاع عام يدار بأسلوب حكومى ، الى قطاع للاعمال العام يدار وفقا للقانون رقم ٢٠٣ لسنه ١٩٩١ بأسلوب المشروعات الخاصة ، تحت اشراف أحد الوزراء ، بعد أن كانت موزعة على تسع وزارات وفقا لتخصص المشروعات ، وهى العملية التى يطلق عليها اسم "الخصخصة" على سبيل الاشتقاق من عملية التحول الى القطاع الخاص .

وثانيهما : قبول التعاون الاقتصادى مع اسرائيل وبقية الدول العربية الكائنة في منطقة الشرق الاوسط كنتيجة من نتائج تحقيق السلام فى المنطقة – وإن كان لايزال غير متحقق بعد ، كسلام شامل وعادل للمنطقة بأسرها – وذلك تحت ضغط كل من الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها من ناحية ، وضغط المؤسستين الماليتين الدوليتين : صندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى للانشاء والتعمير ، اللتين تتعامل معهما حكومة مصر ، ويتوليان نيابة عن الدول الدائنة ادارة قروضها الممنوحة لمصر من ناحية أخرى .

وفيما يلى بيان ذلك :

أولا خصخصة قطاع الأعمال العام :

ونود أن نقرر بادئ ذى بدء أننا لا نعترض من حيث المبدأ على التخلى بالبيع عن وحدات قطاع الاعمال العام التى عجزت الحكومة عن ادارتها ادارة ناجحة تحقق الكسب الذى تحققه الوحدات المماثلة فى اطار القطاع الخاص . . . ولكننا نطالب مع بعض المعنيين بهذا الأمر بألا يتم ذلك الا بناء على دراسة مستكملة وأمينة لبرنامج مدروس يحقق أكبر نفع لمصر ، ويتصف بالشفافية الكاشفة لأى انحراف ، مستفيدين فى هذا الشأن من التجارب التى سبقتنا فى هذا المجال ، وفى مقدمتها تجربة الخصخصة التى

أجرتها الحكومة البريطانية فى عهد رئاسة مسز مارجريت تاتشر ... **وتشمل الاجابة على ما يثور من تساؤلات حول** : لماذا نبيع هذه الوحدات بالذات ؟ وما هو الوقت الأصلح لبيعها ؟ وما شروط هذا البيع ؟ وما هو السعر الذى يتخذ أساسا لاجراء المزايدة عليه أو المساومة فيه ؟ والضمانات المقررة لكفالة السرية ومنع التلاعب ، ولمن يجوز البيع وما القدر الذى يجوز بيعه من رأس المال للاجانب ، وذلك كله وفق برنامج متكامل وجدول زمنى محدد على فترة معقولة يراعى فيها توفر السيولة النقدية وتجددها . وقبل كل ذلك وبعده ، تحديد كيفية التصرف فى حصيلة البيع ، حتى لا تبدد بإنفاقها ضمن المصروفات الجارية الواردة بالميزانية العامة للدولة ، فتفقد مقومات نشاطها ، وحل المشاكل الحياتية لأهلها . **على أنّ يطرح هذا البرنامج على الرأى العام ، ويصدر فى صورة قانون من السلطة التشريعية بعد مناقشة متأنية ، حتى يصبح ملزما للكافة ، ومعلوما للجميع .**

ولو رجعنا إلى برنامج الخصخصة الذى وضع فى بريطانيا نجد أنه وضع موضع التنفيذ على مدار عشر سنوات ، وليس خلال سنة أو سنتين كما يتصور البعض فى مصر ، أو يحاول أن يضغط صندوق النقد الدولى للاسراع بإنجازه فى مثل هذه المدة ، مهددا بعدم تنازل الدول الدائنة لمصر عن القسط الأخير من أقساط القروض المتنازل عنها حتى تتم عملية الخصخصة !! . حيث أن تقصير المدة المقررة للبيع من شأنها أن تؤدى إلى هبوط أسعار ما يباع ، وإتاحة فرصة أكبر للمشترين الأجانب .

ومن دواعى الغرابة فى اختيار الوحدات المطروحة للبيع أنه أعلن البدء ببعض المشروعات الناجحة التى تحقق أرباحا وفيرة كفنادق الدرجة الاولى (الخمس نجوم) بالرغم من أنها تدار حاليا ادارة متميزة بمعرفة شركات أجنبية كبرى متخصصة ، وتشارك مصر فى الحصول على نسبة من

أرباحها ، ومع الاخذ فى الحسبان أن قيمة الارض المقامة عليها ترتفع بمرور الزمن !!

هذا **وقد حددت الحكومة البريطانية حصة الأجانب فى رأس مال المشروعات المطروحة فى الخصخصة بألاتزيد على ٢٥ ٪** ... وقد حدث أن إشترى أمير الكويت بعض أسهم شركة البزيتيش بتروليم ، تزيد قيمتها على ٢٥٪ من رأسمالها ، فأجبر على التنازل بإعادة بيع القدر الزائد عن النسبة المسموح بها للأجانب .

وحرصا على قيام الشركات المباعة فى عملية الخصخصة بواجبها فى أداء رسالتها اذا كانت من المشروعات ذات الطبيعة الاجتماعية أو الاستراتيجية ، اشترطت قواعد الخصخصة أن تتملك الحكومة البريطانية " سهما ذهبيا " فى رأس مالها ليس له متابل نقدى ولكنه سهم رمزى يتيح للحكومة أن يكون لها ممثل فى مجلس الادارة يتمتع بحق الاعتراض (الفيتو) على أى قرار يصدر عنه ويكون متعارضا مع الصالح الاجتماعى للمواطنين أو الاهداف الاستراتيجية للدولة ... ويا حبذا لو أخذ لدينا بهذه القاعدة رعاية للصالح العام .

ثانيا – الضغط على مصر للانضمام الى سوق شرق أوسطية :

هذا وقد اكتنفت المفاوضات الجارية بين اسرائيل وبين الدول العربية لتحقيق انسحابها من الاراضى العربية المحتلة ، بالضغط من جانب الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها على هذه الدول لقبول الانضمام الى سوق مشتركة للشرق الاوسط يقوم بتمويله بنك دولى تسهم فى رأسماله امريكا وحلفاؤها ، وينتظر أن يكون مقره فى القاهرة ، إرضاء لمشاعر مصر ، وغيرها من الدول العربية .

وبدأت تتواتر الأنباء عن قرب الاتفاق على تأسيس شركة تكرير للبترول فى غربى الاسكندرية تشترك فى رأسمالها كل من مصر وأمريكا واسرائيل ، وأن مشروعا يدرس على أساس قيام مصر بإمداد اسرائيل بالغاز الطبيعى عبر خط أنابيب يمتد من منابعه فى أرضنا الى أرضها مما يجعل لها حقوق ارتفاق عليها بموجب التعاقدات التى تبرم معها ... علما بأن ما لدينا من احتياطى الزيت الخام لن يكفى لسد حاجاتنا منه إلا لفترة تتراوح بين عشر واثنى عشر عاما كما سبق أن ذكرنا ، وهو ما يقتضى التحول لاستخدام الغاز الطبيعى كبديل بالنسبة لمحطات توليد الكهرباء وشركة كيما للاسمدة بأسوان ، وتوليد القوة المحركة فى غيرها من المصانع ، وتحويل السيارات لتسييرها بالغاز .

بعد ذلك كله وليس قبله ، يمكن القول بأن لدينا فائضا من الغاز الطبيعى أو ليس لدينا فائض للتصدير ... ولكن يبقى أن نتساءل : ولمن نصدره ؟ .. هل نصدره لدولة تواصل تهديدنا بما تملكه من قنابل ذرية وترفض التوقيع على الاتفاقية الدولية بحظر انتشار الاسلحة النووية والتعهد بإخلاء المنطقة من أسلحة الدمار الشامل ؟ ولا زالت تضم من ينادى بأن اسرائيل الكبرى تمتد من النيل الى الفرات مما ينطوى على ما تهديد حياتنا واستقلالنا ... ولديها من مشروعات ما تريد به منافسة قناة السويس ؟!

فضلا عن أنه لا محل للبحث ابتداء فى أى مشروعات تعاون اقتصادى من أى نوع كان ، قبل أن يتحقق السلام العادل والشامل بين إسرائيل وبين كافة الدول العربية ... فالحذر من حسن الفطن .

وختاما أقدم اعتذارى عن تجاوز الوقت المحدد للمحاضرة ، فمجالها متسع وموضوعها له أهمية ، وينبغى ان يكون محل اهتمام الكافة ، لتعلقه بمستقبل أمتنا فى ضوء تجارب ماضيها ، وفقنا الله لما يحقق الخير لها وللبشرية جمعاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المحاضرة السابعة

المرأة وماذا قدم الإسلام لها

الأستاذ الدكتور أحمد شلبى

١٠ إبريل ١٩٩٥م

١٠ ذى القعدة ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

الاستاذ الدكتور محمد عبد الجواد استاذ الشريعة والقانون بجامعة القاهرة يعقب على المحاضرة .

على المنصة : المحاضر الاستاذ الدكتور احمد شلبى على يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / أحمد شلبى من مواليد قرية عليم بمحافظة الشرقيه ، ومن خلال كُتّاب القرية حفظ القرآن الكريم وعرف تجويده .... ثم من خلال معهد الزقازيق الازهرى أحاط باللغة العربيه ومختلف العلوم الاسلامية . وقد كان الأول دائما فى المعاهد الازهريه مما مكنه من الالتحاق بكليه دار العلوم سنه ١٩٣٩ ليكون بها ايضا من أول خريجها ، فبعثته ١٩٤٧ الى انجلترا للحصول على الدكتوراه ... فتراه لاول مرة يتعلم اللغه الانجليزية الى حد الاتقان ، ويكتب رسالته بامتياز فى تاريخ التربيه الاسلامية ، ليعود من الخارج سنه ١٩٥١ ليشغل وظيفه مدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة .

الا انه لكلمه حق ألقاها بقاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة ، صدر قرار مجلس قيادة الثورة بفصله من الجامعة سنه ١٩٥٤ . فاشتغل بالصحافة

الحرة لمدة عام ، حتى دعته اندونيسيا سنه ١٩٥٥ للعمل استاذا بها ، فتراه يتقنُ لغتها ويحاضِر في جامعاتها وبين جماهيرها ، ويؤلفُ لها ويكتبُ في صحفها ويخدمُ الإسلامَ بها .... ولشهرته باندونيسيا تضطر حكومة عبد الناصر بعد ست سنوات من الغربة ، الى إعادته للعمل ، بتعيينه سنه ١٩٦٠ مديرا للمركز الثقافى المصرى بجاكرتا .... ثم تنقله سنه ١٩٦١ الى مصر نائبا لمدير ادارة الوافدين والمبعوثين بوزارة التربية والتعليم .

ولانه كما يقول بحق فى كتابه رحلة حياة ((العلم عندى هو الحياة وهو الهواء ، والجامعة هي وجودى ونعيمى)) ، فنراه يقْبلُ العودة الى كليه دار العلوم سنه ١٩٦٤ بوظيفة مدرس لا كأستاذ التى كان سيصلها تلقائيا لو لم يصدر قرار مجلس قيادة الثورة سنه ١٩٥٤ بفصله من الجامعة لكلمة حق ألقاها .

هكذا نرى حياة الاستاذ الدكتور / أحمد شلبى ، لم تكن حياة رتيبة شأن أغلب قرنائه ، ولكنها كانت حياة حافلة بالمزالق ، واجه فيها بشجاعة واعتزاز مختلف التحديات ، فأحال بايمانه الصادق وجهده الخالص ، الصعوبات الى انتصارات والعوائق إلى مزايا .... فكان وحده امة ، او مؤسسة شامخة ، قدم أجل الخدمات إلى الإسلام والمسلمين .

لقد حدد أستاذنا المحاضِر هدفَه ورسالتَه فى الحياه ، وادركَ ووعى بعمق شأن علماء التاريخ ، قيمة الوقت فاستطاع ان يُصدِرَ للأمة الإسلامية اكثر من مائةٍ وخمسين كتابا ، بعضها باللغتين الانجليزية والاندونيسيه اللتين يتقنهما فنراه : -

أولا : قد عز عليه أن يعرف جيلنا تاريخ اوربا ، ويجهل التاريخ الاسلامى فاصدر " **موسوعة التاريخَ الإسلامى** " فى عشرة مجلدات ، كانت فى آن واحد ثروة وثورة فى المكتبة العربية .

ثانيا : عـز علـى الدكتـور / أحمد شلبى ان يُصـور البعض الاسـلام فـى صيغة مساجد وعبادات فاصدر " **موسوعةَ الحضارة الاسلامية** " فـى عشـرة مجلدات كشف فيها بجلاء وعمق حقيقة الاسلام ، وانهأساسا سياسةً واجتمـاعً واقتصادً ، وان المشروعَ الحضارىَ الإسلامى هو هديةُ الله تعالى الى البشر والانسانيه جمعاء .

ثالثا : كما عز عليه ان ينحصر الاسلامُ فى الدول الاسلامية او ان يقتصر أغلبُ علماء الإسلام على دراساتهم الاسـلامية ، فاصدر " **موسوعةً مقارنةِ الاديان** " فى " اربعة مجلدات . تُقدم الإسلام كحلقة ختامية فى سلسة الاديان وليس كدينٍ مستقل ، وتوضح مفاهيمه الصحيحة وتجذب اليه الكثير .

رابعا : كما عز عليه ما يلاقية النشء وغيرُ العرب من صعوباتٍ فى تعلم اللغة العربية والتزام قواعد النحو ، فاصدر كتابين هامين اولهما " **تعليم اللغة العربية لغير العرب** " وثانيهما " **قواعدُ اللغة العربية والتطبيق عليها** " .

خامسا : كما عز عليه ان يجهل النشء والعامةُ سير علماء الإسـلام ، فاصدر " **موسوعة المكتبة الإسلامية لكل الاعمار** " ، فى مائة جزء ، مرددا كلمة الامام الغزالىَ (العلمُ بدون عمل جنون ، والعملُ بدون علم لا يكون) .

سادسا : ثم تراه دائما ، يأبى أن يكون مجرد استاذ جامعى فحسب ، وانما له دورٌ كبير بين الجماهير ، يخاطبُهم ويبعث فيهم الوعى من خلال ندواته ومن خلال الصحف والاذاعة والتليفزيون .

ثم اخيرا : نراه وهو يبنى داره فى المعادى ، يخصصُ شقة مستقلة ، هدية منه الى طلاب الجامعة من قريته وريفه ، ليكونوا تحت رعايته وعلى اتصال به ، لا فرق فى ذلك بين قريب أو بعيد ، ولا بين غني وفقير .

كما قدم للدولة قطعة أرض بقريته ، مساحتها نصف فدان فى أراضى البناء ، قدر ثمنها بربع مليون جنيه ، وذلك هدية منه للدولة التى بنت عليها مدرسة إعدادية سميت بإسمه .

وختاما اراني امام إنسانٍ مكافح ، وعالم موسوعى معطاء .... يحاول طوالَ حياته إثراءَ وتعميق فكرنا ووعينا بالاسلام ، وان يأخذَ بيد الاجيالِ لمواجهة مختلفِ تحدياتِ الحياة ومتغيراتها بايمان وصلابه واعتزاز .

هذا وتحضرنى فى هذا المقام بعض أبياته كقوله :

كبديلٍ من الهوى سوف أمضى | اطلبُ المجد فى إباء وبأس
وتأنفُ نفسى أن تُذل وانه | لأهونُ أن أفنى من الذل والقيد
هدفٌ يرتجى فسيروا إليه | واملأوا يا شبابُ سمع الوجود

ثم نراه يشدو بقوله :

طاعةُ الله سرورٌ | ورضا اللّه جميلٌ
فاتقوا الله تصيروا . | فى هناء لا يزولُ

فباسم الجموْع التى تستفيدُ من علم وخبرة الاستاذ الدكتور أحمد شلبى ، سواء فى جيلنا المعاصر أو الأجيال القادمة ، أقدم محاضرنا داعيا له بالصحة والتوفيق ، شاكرا له باسم الجمعية الخيرية الاسلامية تفضله بالمحاضرة بها فى موضوع (ماذا قدم الاسلامُ للمرأة) . . فليتفضل مشكورا مأجورا من الله تعالى .

كلمة الاستاذ الدكتور / أحمد شلبى

بســم الله الرحمن الرحيم

الإسلام خاتم الديانات السماوية ، ومن هنا شمل أسمى ما منحه الله سبحانه وتعالى للبشرية فى الديانات السابقة ، وأضاف إلى ذلك ما تحتاجه البشرية إلى يوم الدين .

وكانت النظم السياسية والاجتماعية ... بعض ما جاء به الإسلام للمجتمع البشرى ، ولكن يمكن القول إن حقوق المرأة كانت فى قمة المآثر التى قدّمها الإسلام لهذا المجتمع ، فالمرأة موجودة فى كل بيت ، وسعادتها تنعكس على أهل البيت جميعا ، ثم إنها الأم ، والأخت ، والبنت ، والزوجة ، وهى مصدر الحب والحنان وملهمة البسمة وعميقة الصلة بنبض القلوب ، وتحرّك المشاعر . وكان الأقدمون يضعونها خلف الجيوش لتظهر البطولات ، وكان الشعراء يفتتحون بالحديث عنها قصائدهم ليجذبوا لهم عقول السامعين وأنظارهم ، وكثير من الكتاب والمؤلفين والفنانين استلهموا منها أروع ما قدّموا من أعمال . .

وهذه المرأة أو هذه الزهرة عانت ألوانا من قسوة الرجل ، وظلم المجتمعات حتى أنصفها الإسلام .

نساء نلن مكانة رفيعة :

صحيح أن الظلم الذى وقع على المرأة لم يكن فى كل المجتمعات وكل الأزمنة ، فقد سجّل التاريخ أن سيدات هنا وهناك نلن أحيانا مكانة مرموقة ، كبلقيس مثلا التى صور القرآن الكريم أمجادها فى سورة النمل ، فيروى القرآن الكريم قول الهدهد عنها : " إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شئ ، ولها عرش عظيم " (النمل ٢٣) ، وكانت مسموعة الكلمة فى قومها

حتى قالوا لها فيما يرويه الذكر الحكيم " نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظري ماذا تأمرين " (النمل ٣٣) .

وإذا كانت بلقيس قد قنعت بأن تكون ملكة فإن " سجاح " كانت أطماعها أوسع إذ أدعت النبوة ، وانقاد لها قومها بنو تميم .

وبلغت المرأة أحيانا فى الجزيرة العربية غاية مرموقة حتى كان من الملوك من يُنْسب لأمه كعمرو بن المنذر الذى كان يلقب أحيانا بعمرو بن هند ، وكأبيه المنذر الذى غلبت عليه نسبته لأمه فعرف بالمنذر بن " ماء السماء " ، وكالقائد الذى لمع فى ظل الاسلام وهو شرْجيل بن حسنة .

وفى مطلع الإسلام كانت هند بنت عتبة زوجة ابى سفيان صاحبة رأى ومكان بين قومها .

وإذا كانت بعض النساء العربيات قد نعمن بهذه المكانة السامية فان أغلب النساء فى الجزيرة العربية كُن مغلوبات على أمرهن ، وكن عموما مسلوبات الحقوق .

الحضارة المصرية تنصف المرأة :

وهناك حضارة وحيدة بين الحضارات القديمة أعطت المرأة حقوقها ، تلك هى الحضارة المصرية ، وقد ذكر بريستيد أن الحضارة المصرية أنصفت المرأة فقد قررت تقديس الأم ، واحترام الزوجة ، وحسن تربية البنت وتعليمها خلق الحياء .

وعندما زار هيرودوت مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد كتب يبدى دهشته من حرية المرأة فى مصر ، وبخاصة أنه جاء من أوربا وترك المرأة هناك لا تعرف الحرية ، ولكن الزحف الرومانى على مصر قضى على هذه الحقوق ، وأحلّ محلها الفكر الرومانى الذى سنتكلم عنه فيما بعد .

وعلى العموم فإن أكثر المجتمعات القديمة ألّهت القوة ولم تكن المرأة قوية العضلات فاستعبدها الرجال ، ومن هنا فإننا نتجه فى بدء هذه الدراسات للتعرف على حال المرأة فى البيئات غير الإسلامية ، وذلك حتى نعرف الفرق الكبير بين حال المرأة فى الحضارات غير الاسلامية ، وحالها فى ظل الاسلام .

وينبغى أن يكون واضحا أننا عندما نذكر ما عانته المرأة قبل الإسلام وإنصاف الإسلام لها ، نقصد بذلك أن نبين بعض أفضال الله على نصف المجتمع البشرى ، الذى أصبح فى ظل الإسلام يطلق عليه " الجنس اللطيف " ولم يكن يحظى قبل الإسلام بمثل هذا التعبير .

ولا يزال بعض الرجال يضيقون بما قرره الله للمرأة فيظلمونها من جانب ، أو لا يعطونها حقها الكامل من جانب أخر ، وهذا وذاك عودة للجاهلية نعيذ المسلمين منه .

والآن نتجه للتعرف على حال المرأة فى الحضارات غير الإسلامية ، لنعرف الفضل العظيم الذى منحه الإسلام للمرأة .

أولا : المرأة فى البيئات غير الاسلامية

نستعرض فيما يلى المجتمعات البشرية غير الإسلامية عبْر الزمان والمكان لنصوّر حالة المرأة في مختلف الأمكنه وعلى مر العصور .

المرأة فى المجتمع البدائى :

كانت المرأة فى المجتمعات البدائية نوعا من المتاع ، يسيطر عليها الرجل وينتفع بها كما يشاء ، وقد يدافع عنها ، ولكنه كان فى الحقيقة يدافع عنها على أنها شئ من ماله وممتلكاته ، ويحافظ عليها لأنها تحمل كثيرا من الأعباء فى تلك المجتمعات ، فقد كان عليها الكنس والغسيل والطبخ ، وحمل ما تستطيع

من المتاع فى الانتقالات من مكان إلى آخر . فالدفاع عنها ورعايتها كانت للاستفادة منها من جانب ، وربما بدافع الشفقة من جانب آخر ويرى بعض المفكرين أن ما يمكن أن يكون هناك من عطف ورعاية متبادلة بين الأم وأبنائها لم يكن إلا على نمط ما يوجد بين الحيوان وأولاده ، فهو شفقة تتقارب فيها جماعات الأحياء من بنى أدم او من الحيوان ..

وكان الزواج بالمرأة صفقة بيّع ، فإذا ملّ رجل زوجته كان يمكنه أن يبيعها ، وقد ظل ذلك الحق حتى أتبع أيضا فى الامبراطورية الرومانية .

المرأة فى الحضارة الهندية :

جاء فى شرائع " منودهرما ساسترا " عن المرأة ما يلى : تعيش المرأة وليس لها خيار سواء كانت بنتا صغيرة أو شابة أو عجوزا ، فالبنت فى خيار أبيها أو أخيها ، والمتزوجة فى خيار بعلها ، ولا تملك المرأة شيئا ، وكل ما تحوزه يذهب فورا للرجل الذى تقع فى حمايته ، فتبعيتها لأبيها أو زوجها أساس حياتها ، ويجب أن تكون فى كل حياتها تابعة للرجل .

على أن أخطر ما واجهته المرأة الهندية المتزوجة أنها كانت تفقد حقها فى الحياة إذا مات زوجها ، فكان عليها حينئذ أن تتقدم للنار التى يحرق فيها جسد زوجها لتحرق معه ، وكانت هذه العملية تسمى " ساتي " أى إحراق المرأة نفسها مع إحراق جثمان زوجها الميّت وقد عاشت هذه العادة من أقدم عصور الحضارة الهندية إلى القرن السابع عشر . وقد ارتبط إبطال هذه العادة أو جعلها غير مطّردة بنشاط الحكام المسلمين الذين كانت لهم السيطرة على الهند ، ويقول الرحالة الشهير الدكتور برلير الطبيب الفرنسى الذى زار الهند فى عهد شاهجهان :

لقد هبط عدد حوادث " ساتي " نسبيا ، لأن المسلمين الذين يحكمون هذه البلاد يبذلون أقصى جهدهم للقضاء على هذا التقليد الوحشى ، ولو أنهم لم

يسنوا أى قانون لمنع هذه الحادثة من الوقوع ، لأنهم لا يهدفون في نظام حكمهم إلى التدخل فى شئون الهنود الدينية ، بل إنهم يسمحون لهم بالقيام بأداء واجباتهم الدينية وطقوسهم ، ويوفرون لهم كل الحرية ، لكنهم يحاولون إيقاف تقليد " ساتى " بطريق غير مباشر ، فلا تستطيع أى امرأة أن تقدم نفسها " ساتى " إلا بإذن من حاكم الولاية . أما الحاكم فإنه كان يحاول إقناع المرأة وحملها على العدول عن إرادتها ، وينفرها ويوعدها ويمنيها كذلك ، وعندما تخفق هذه المحاولات ولا تثمر عملية الإقناع والوعد والوعيد ، يرسلها إلى حرمه ، لكى تضمَّ إلى عقيلات الحرم ، لعلها تقلع عن ارادتها بإقناعهن ، ولكن رغم جميع التدابير لا تزال حوادث " ساتى " تحدث بكثرة وبخاصة فى مناطق الرجوات أى الأمراء الهنود والأماكن الخاضعة لنفوذهم ، حيث لا يحكم المسلمون .

وإذا نجت الزوجة من الحرق لسبب أو لآخر فإنها تواجه حياة كلها بؤس ، فلا يجوز لها أن تتزوج بعد زوجها أبدا ، ولو كانت فى أنضر شبابها ، وعليها أن تهجر ما تشتهيه من الأكل واللبس والزينة حتى تموت ، وهذا بالضبط موت بطئ .

عند الأشوريين :

عثر على لوحات من الطين ترجع للقرن الثانى عشر قبل الميلاد دُوِّن عليها أن المرأة الحرة عند الأشوريين كانت قعيدة البيت ، لا يباح لها الخروج ، أما الإماء والغانيات فكان لهن الظهور والتجمل للرجال للإغراء ، ومن هنا اتجه ميل الرجال للغانيات ، أما الحرائر فكن مهملات تؤدين فى البيت أعمال الخدمة .

فى الحضارة الصينية :

عانت المرأة كل الذل من الرجل فى الحضارة الصينية ، وكانت تباع بأرخص الأسعار ، ولم يكن للأرملة حق الزواج بعد وفاة زوجها .

المرأه فى الحضارة الرومانية :

قضت الحضارة الرومانية أن تكون المرأة رقيقا تابعا للرجل ، لها حقوق القاصر أو لا حقوق لها على الإطلاق ، وكانت تعيش على هامش الحياة ، وكان من حق الزوج أن يبيع زوجته .

وقد اجتمع فى روما مجمع كبير ، وبحث فى شئون المرأة فقرر أنها كائن لا نفس ، وأنها لهذا لن ترث الحياة الأخروية . وأنها رجس ، يجب ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، وعليها أن تمضى وقتها فى الصلاة والعبادة ، وليس لها الحق فى أن تتكلم ، ولمنعها من الكلام وضعوا على فمها قفلا من الحديد ، فكانت المرأة من أعلى الأسر تروح وتغدو فى الطريق أو فى دارها وعلى فمها قفل ، ولايفتح القفل إلا عندما يقدم لها الطعام أو يراد منها أن تجيب على سؤال . هذا غير العقوبات البدنية التى كانت توقع عليها باعتبار أنها أداة الإغواء ، يستخدمها الشيطان لإفساد الناس .

ويرى بعض الباحثين أن الخلخال الذى يزين رجلى المرأة أحيانا فى العهد الحاضر ليس الا بقايا القيد الذى كانت المرأة توثق به ، وأن السلسلة الذهبية فى عنقها الآن تحوير وتجميل للسلسلة التى كانت المرأة قديما تربط بها ، ومثل هذا يقال عن القرط والسوار .

عند اليهود فى العهد القديم :

أما رأى العهد القديم فى المرأة فقد وضحه سفر الجامعة (الاصحاح السابع ٢٥ - ٢٦) فى الكلمات الآتية : درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ، ولأعرف الشر أنه جهالة ، والحماقة أنها جنون ،

فوجدت أمرّ من الموت المرأة التى هى شباك ، وقلبها أشراك ، ويداها قيود . الصالح قدام الله ينجو منها ، أما الخاطئ فيؤخذ بها .

ولم يكن للمرأة اليهودية ميراث إذا كان لها أخوة ، فان لم يكن لها أخوة ورثت بشرط أن تتزوج رجلا من سبطها ، فكانت المرأة وسيلة لنقل الثروة داخل السبط .

وكانت المرأة تعد مسئولة عما يرتكبه الرجل من أخطاء ، باعتبارها أداة الغواية ، ويقول سفر الجامعة أيضا : رجلا واحدا صالحا بين ألف وجدته ، أما المرأة الصالحة فلم أجدها بين الآلاف .

فى الجزيرة العربية :

فى الجزيرة العربية كانت الحياة كفاحا للحصول على العيش ، وقد اضطرت المرأة أن تدخل هذا الخضم عاملة كادحة ، ولكن كدحها لم يكن ينتج ما يعادل كدح الرجل ، كما أن نصيبها فى الحروب كان ضئيلا ، ولذلك غلب أن يتجه لها سخط المجتمع العربى ، ذلك السخط الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله : " وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسّه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون " (سورة النحل ٥٧ – ٥٩) . بل دسه بعضهم فى التراب فعلا ، حتى هتف بهم القرآن الكريم : " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا " (سورة الاسراء ٢١)، فإذا نجت الوليدة العربية من الوأد وجدت غالبا فى انتظارها حياة ظالمه ، ليس لها فيها نصيب من الميراث ، وقد تكره فيها على البغاء ، او تعضل عن الزواج .

وكان للرجل العربى سلطة مطلقة على كل ما فى البيت ، بما فى ذلك النساء دون تفريق بين النساء والمتاع ، وكان تعدد الزوجات شائعا وبخاصة

بين الأغنياء حيث تصل الزوجات إلى العشرات ، وذلك للحرص على كثرة النسل الذى يجلب الجاه والسلطان .

وكان للزوجة الأولى نوع من السيادة على باقى الزوجات .

وقد لخص المرحوم الأستاذ قاسم أمين حالة المرأة فى العصور القديمة بقوله : كان رئيس العائلة عند الرومان واليونان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا للمرأة يملكها كما يملك الرقيق بطريق البيع والشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وكان الرجل يشترى زوجته من أبيها ، فتنتقل إليه جميع حقوق الأب ويجوز للزوج أن يتصرف فيها بالبيع لشخص أخر .

رأى الكنيسة الكاثوليكية :

وقد شرح الدانمركى Wieth Kondsren اتجاه الكنيسة الكاثوليكية نحو المرأة بقوله : خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوربية محدودة جدا تبعا لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يعد المرأة مخلوقا من المرتبة الثانية .

فرنسا تتساءل : هل المرأة إنسان ؟

وفى فرنسا عقد اجتماع سنة ٥٨٦م يبحث شأن المرأة وما إذا كانت تُعدُ إنسانا ؟ وبعد النقاش قرر المجتمعون أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقه لخدمة الرجل .

وهكذا أثبت الفرنسيون فى هذا التاريخ فقط إنسانية المرأة ، تلك الإنسانية التى كانت مشكوكا فيها عندهم من قبل ، وحتى عندما أثبتوها لم يثبتوها كاملة ، وانما جعلوا المرأة تابعا وخادما للرجل ، ومن أجل هذا مرّ الزمن حتى عصرنا الحديث والمرأة الفرنسية محرومة من أبسط الحقوق التى مُنحتْها المرأة المسلمة منذ مئات السنين . وقد صدر قانون فى فبراير سنة ١٩٣٨م

يلغى القوانين التى كانت تمنع المرأة الفرنسية من بعض التصرفات المالية ، ويجيز لها لأول مرة في تاريخها أن تفتح حسابا جاريا باسمها فى البنك وأن توقع بالتالى على شيكات الصرف ، وأن تمضى العقود المالية ، وتستولى على الإرث .

وكانت المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون الفرنسى تنص على الآتى : " المرأة المتزوجة ، حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ؛ ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض ، بدون اشتراك زوجها فى العقد أى موافقته عليه موافقة كتابية .

انجلترا فى القرن التاسع عشر :

وفى انجلترا حرم هنرى الثامن على المرأة الانجليزية قراءة الكتاب المقدس ، وظلت النساء حتى سنة ١٨٥٠م ليس لهن حقوق شخصية ، فلا حق لهن فى التملك الخالص ، وانما كانت المرأة ذائبة فى أبيها أو زوجها ، ولم تكن النساء معدودات من المواطنين .

انجلترا فى القرن العشرين :

وعندما كنت طالبا فى جامعة كمبردج بانجلترا فى منتصف القرن العشرين لم يكن للطالبات الحق فى الاشتراك فى أندية الطلاب ولا اتحاد الطلبة بالجامعة العريقة ، ولم تسو جامعة كمبردج واكسفورد بين الطالبات والطلاب إلا بقرار صدر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٤ .

ثانياً : الإسلام والمرأة

أكرم الإسلام المرأة أعظم إكرام ، واهتم بها أعظم اهتمام ، وأنقذها مما كانت تقاسيه من عناء القرون فى مختلف الأمكنة . والذى يطالع القرآن

الكريم يجد عناية واضحة جاء بها الإسلام لحماية المرأة ، ونعطى فيما يلى صورا من إنصاف الإسلام للمرأة :

حق المرأة فى الميراث .

عن حق المرأة فى الميراث يقول تعالى : " للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا " (سورة النساء ٧) .

والذى يتأمل هذه الآية الكريمة يجد بها إجمالا لحقوق المرأة فى الميراث فصّلته آيات أخرى ، والمهم هنا أن هذه الآية تثبت هذا الحق بنفس الكلمات التي تثبت حقوق الرجل وهى " للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ". فهذه الكلمات تكررت بنفسها مع النساء ، ثم تستمر الآية فتقرر أن هذا النصيب لازم فى الميراث القليل أو الكثير حتى لا يقول الرجال إن الميراث القليل يبقى للرجال لأى سبب من الأسباب ، وتستمر الآية لتقرر أن هذا النصيب لا مندوحة عنه فهى نصيب مفروض .

حق المرأة فى العمل والكسب :

وإذا كان الحصول على المال فى الإسلام يجئ أساسا عن طريق الميراث وعن طريق العمل ، وإذا كانت الآية السابقة قد قررت حقوق المرأة فى الميراث فإن معنا آية أخرى تقرر حقوق المرأة فى العمل والكسب ، قال تعالى : " للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن " (النساء ٣٢) .

وقد تقررت حقوق المرأة بنفس الكلمات التي تقررت بها حقوق الرجل كما أوضحنا من قبل .

الأم فى القرآن والحديث :

وكانت توصية القرآن بالأم أقوى من توصيته بالأب ، قال تعالى : " ووصينا الانسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها " (سورة الاحقاف ١٥) ، وقال تعالى : " ووصينا الإنسان بوالدية حملته أمه وهنا على وهن " (سورة لقمان ١٤) . ففى هاتين الآيتين نجد أن القرآن الكريم يوصى بالأب والأم جميعا ، ثم يسجل ما عانته الأم من أجل ولدها ، ليهز بذلك إحساس الإنسان .

أما توصية الرسول بالأم فكانت قوية عندما أجاب الرجل الذى يسأله : من أحق الناس بحسن صحبتى ؟ إذ قال له الرسول : أمك ، فعاد الرجل يسأل : ثم من ؟ فقال الرسول ثم أمك . فسأله الرجل لثالث مرة : ثم من ؟ فأجاب الرسول : ثم أمك . قال الرجل : ثم من ؟ فقال الرسول فى الرابعة : ثم ابوك .

عند الخلاف مع زوجها :

وعند الخلاف بين الزوجين جعل الإسلام من درجات التوفيق أن يعين ممثل للزوجة وممثل للزوج قال تعالى : " فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها " (سورة النساء ٣٥) .

القيمة الإنسانية والمساواة :

قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة ، كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون وفى الحقوق العامة ، وجعل المرأة مساوية للرجل فى هذه الشئون ، قال تعالى : " ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف " (سورة البقرة ٢٢٨) ، وقال " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " (سورة التوبة : ٨١) .

وهكذا نجد الآيات تجمع الذكر والانثى تحت حكم واحد ، وتقضى قضاء مبرما على التفرقة بين الرجل والمرأة ، بل إن الفكر الاسلامى يجعل لنمراة نصيبا يعادل نصيب زوجها فى جهاده عن الوطن وسعيه للمعاش ، اذا احسنت الزوجة العشرة ورعت غيبة الزوج ، فقد ورد فى ترجمة أسماء بنت يزيد الانصارية فى " الاستبصار " أن رفيقات لها بعثن بها للرسول لتقول له : ان الرجال يخرجون للجهاد ، ويشهدون الجنائز ، ونحن فى البيوت نحفظ لهم أموالهم ، ونربى الاولاد ، فهل نشاركهم فى الأجر ؟

فقال الرسول : يا أسماء ، أعلمى من وراءك من النساء أن حُسْن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها مرضاته ، تعدل كل ما ذكرت .

فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشارا .

الشيخ محمد عبده وتفسير بعض آيات خاصة بالمراة :

نعود لآية كريمة اقتبسناها من قبل ، وهى قوله تعالى : "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف " ويقول الامام محمد عبده فى تفسيره هذه الآية : ان هذه قاعدة كلية قاطعة بان المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق ، فالرجل والمرأة متماثلان فى الذات والاحساس والشعور والعقل " .

ويجىء بعد هذه الجملة قوله تعالى : " وللرجال عليهن درجة " ومعنى هذا انه عند اختلاف وجهات النظر يكون الرأى للرجل ، فكل التجمعات لابد ان يكون بها رئيس يفكر ويستشير ويُرْجع الى رأيه عند الخلاف ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ ، وهو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها .

ويختم الامام كلامه بقوله : " اعلموا ان الرجال الذين يظلمون نساءهم ويحاولون ان يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيدا ."

وننتقل الى آية أخرى هى قوله تعالى : " وأخذن منكم ميثاقا غليظا " ويعلق الامام عليها تعليق رائعا ، وهاك كلماته : " إن هذا الميثاق الذى أخذته النساء من الرجال يوضحه قوله تعالي : " ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة " ، فهذه الآية توضح أن المرأة لا تقدم على الزواج وترضى بان تترك أهلها لأجل زوجها إلا وهى واثقة بأن تكون صلتها به أقوى من كل صلة .

حسن العلاقة بين الزوجين :

ويرسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، الطريق لمعاملة طيبة بين الزوج والزوجة ، ويلزم كلا منهما برعاية الآخر . وفيما يلى بعض أحاديثة فى هذا الشأن :

- كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها .

ويهتف عليه السلام بالرجال قائلا :

- إستوصوا بالنساء خيرا .

- خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .

كما يهتف بالزوجات قائلا :

أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة .

- لو كنت آمرا احدا ان يسجد لاحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

البنت يؤخذ رأيها فى الزواج :

يقول صلى الله عليه وسلم : لاتزوج الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن . وقال الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن وإذنها صمتها .

ويعلق الامام محمد عبده على قوله تعالى : " فلا تعضلوهن أن ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف " (البقرة ٢٣٢) بقوله : اذا تراضى

من يود التزوج من الرجال والنساء ، بأن رضى كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجا ، فانه يحرم حينئذ عضلها أى امتناع الوالى ان يزوجها مادام لم يقم مانع شرعى لمنع هذا الزواج .

ومعنى هذا الكلام ان رضاء المرأة أساس كمال الزواج .

المرأة وطلب العلم :

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ويقرر الامام محمد عبده ان المقصود بالعلم ليس فقط العلوم الدينية ، بل ان المقصود الاعظم هو نظام بيتها وتربية اولادها وغيرها ذلك من العلوم التى تحتاجها فى بينها والتى تختلف باختلاف الزمان والمكان ، اما القدر اللازم للمرأة من العلوم الدينية فمحدود بمعرفة العبادات والآداب الإسلامية .

وبهذا كله قرر الإسلام للمرأة قمة التقدير والاحترام .

ثالثاً : المفكرون الغربيون والمرأة المسلمة

وقد اعترف كبار المفكرين الغربيين بفضل ما قرره الإسلام للمرأة من حقوق ، وفيما يلى نماذج قصيرة من أقوال هؤلاء :

يقول غوستاف لوبون : أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المراة ، وإذنْ فليست المسيحية كما يظن بعض الناس فى الغرب، هى التى انصفت المرأة بل الاسلام .

وتقول الدكتور لورافيشا فاليرى استاذة الحضارة الانسانية بجامعة نابولى : أعطى الاسلام المرأة حقوقا عظيمة وكرمها أجل تكريم ، واذا كانت المرأة فى اوربا قد بلغت شأنا عظيما فى السنوات الأخيرة ، فان مركزها قانونا كان الى الى وقت أقل بكثير من مزكز المرأة المسلمة ، فالمرأة المسلمة

تشارك أخوتها فى الميراث ولا تتزوج بغير رضاهـا ولا تكـره علـى معاشـرة زوج يسيء معاملتها ، والـزوج مسئول عـن الانفـاق عليهـا حتـى لـو كـانت موسرة ، وتتمتع بكامل استقلالها وحريتها فى إدارة ممتلكاتها .

وتقول أنى بيزانت : كثيرا مايرد على فكـرى ان المـرأة فـى ظـل الاسـلام أكثر حرية من المرأة فى ظل كل الأديان ، فالاسلام يحمى حقوق المرأة اكـثر من المسيحية ، وتعاليم القرآن بالنسبة للمرأة أكـثر عدالـة وأضمـن لحريتهـا ، فبينما لم تنل المرأة حق الملكية فى انجلترا إلا منذ حوالى عشـرين سـنة فاننـا نجد الاسلام قد أثبت لها هذا الحـق منـذ خطواتـه الأولـى ، اى منـذ اكـثر مـن اربعة عشر قرنا .

رابعـاً : اقتراحات جديدة لوثيقة الزواج

والآن نتجه لمناقشة الاقتراحات الجديدة لوثيقة الزواج ، فقد خرجـت علينـا الصحافة فى مطالع عام ١٩٩٥ باقتراحات جديدة لتضاف الـى وثيقـة الـزواج بمصر ، وتعرض هذه الاقتراحات على المُقدِم على الزواج ، فاذا قبلهـا الـتزم بها ، وهذه الاقتراحات هى :

١- أن تكمل العروس تعليمها اذا كانت لم تكمل هذا التعليم .

٢- الموافقة علـى ان تكـون الشـقة لهـا ، اذا طلقهـا بـدون رغبتهـا وكذلـك الأثاث .

٣- أن يكون هناك تعويض لها ، فى حالة الطـلاق بـدون اذنهـا ، وسـؤال عن طريقة دفع هذا التعويض .

٤- ألا يمنعها من العمل .

٥- أن يكون من حقها أن تنتقل من عمل الى آخر بدون إذنه .

٦- ان تسافر للداخل والخارج وحدها او مع أولادها منه بدون إذنه .

٧- الا يتزوج عليها ، فان فعل كان لها الحق فى أن تطلب الطلاق وتناله ، وتنال كل الحقوق باعتبارها معتدى عليها فى هذا الزواج .

٨- ان تكون العصمة فى يدها .

٩- أن يذهبا للطبيب لإثبات صلاحيتهما للزواج والانجاب قبل ان يعقدا قرانهما .

وقبل ان نناقش هذه المقترحات فى ضوء الفكر الاسلامى والاجتماعى نثبت الحقائق التالية :-

أولا : - نثبت دهشتنا ان تكون هذه المقترحات وافدة علينا من الخارج ، وقد كتب الاستاذ صلاح قبضايا فى الاخبار الصادرة فى ١٩٩٥/٣/١ يتساءل عن الدوافع الخفية وراء هذا المشروع التى احتشدت من أجله قوى عديدة وكثيرة كان يظنها متنافرة ، حتى جمعت بينها هذه الاقتراحات ؟

ويقول كذلك " وقد بلغنا ان مؤسسات عالمية عديدة تساهم فى تمويل الجهات التى خرجت علينا بهذا المشروع ، ونأمل ان تذيع وزارة الشؤن الاجتماعية قائمة بأسماء الجهات التى تشارك فى اقتراحات هذه الوثيقة والمبالغ التى تتلقاها من الخارج ، وتحت أيدينا قائمة غير مكتملة لبعض هذه الجهات التى ارسلت أموالا لهذا الغرض ، والانسان الغيور على بلاده تأخذه الحسرة أن تستطيع جهات خارجية ان تقتحم علينا حياتنا الاجتماعية لتقدم هذا العمل المشبوه ، وتجد من يستمع لها ويستجيب " .

والاستاذ صلاح قبضايا يُذكر هؤلاء الذين يدعون الحرص على مصالح المرأة بما حدث للنساء فى البوسنه والهرسك والشيشان من جوع واغتصاب وهتك اعراض .

ثانيا : وبشىء من الصبر والموضوعية أحب ان اقول بادئ ذى بدء اننا نعانى من مشكله إعراض الشباب عن الزواج بسبب الضائقة الاقتصادية

وندرة المساكن ، وهذه الاقتراحات ستزيد القضية تعقيدا ، وسيكون من نتائجها مزيد من إعراض الشباب عن الزواج ، فاذا قبلها الشاب فانها ستكون مصدر قلق فى حياته ولن يحدث معها استقرار للحياة الزوجية .

ثالثاً : وينبه الأستاذ صلاح قبضايا فى مقاله السابق أصحاب الاقتراحات إلى مشكلة العنوسة فى مصر ، ومشكلة الزواج السرى ، بل تجنيد الفتية والفتيات وضمهم إلى منظمات إرهابية منحرفة من خلال تسهيل الزواج .

ويمكن أن أنظر لهذه الشروط نظره دينية اجتماعية وأبدى فيها رأيى وأرجو من الله التوفيق .

من جهة أن **تكمل العروس تعليمها** بعد الزواج أرى أنه لابأس من هذا بشرط أن يكون عندها استعداد لذلك ، فإذا توقف ذهنها عن الاستيعاب والنجاح فى الامتحانات وتكرر ذلك منها فلا معنى لمداومة المحاولة ، ويستوى في ذلك في تقديرى تعليمها للحصول على الدرجة الجامعية الأولى إذا كانت لم تحصل بعد هذه الدرجة ، أو الحصول على الماجستير والدكتوراه إذا كانت مؤهلة وسائرة فى هذه الدراسة .

وموضوع الشقة مرفوض فعودة المرأة إلى بيت أبيها أو أخيها أيسر من تشريد الرجل المرتبط بعمل معين ، أما الأثاث فيتبع مالكه فان كانت المرأة قد أحضرته فيمكن أن تأخذه ، وعلى كل فالاتفاق عليه ممكن .

وأوافق كذلك على **دفع تعويض لها** بنسبة مكثها مع الرجل ومساهمتها معه فى تحقيق الثراء ، ويكون التعويض عند حاجتها من جانب وشهريا من جانب آخر ، وبشرط أن يكون الطلاق ليس بسبب منها ولا بموافقتها .

أما السفر بدون إذن زوجها وحدها أو مع أولادها فمطلب عجيب ، فكيف تسافر الزوجة بدون إذن زوجها أى أن يصبح الزوج أو أن يعود من عمله

فيجد أن زوجته غادرت البلاد إلى حيث شاءت ، إنها مأساة تدمر الحياة الزوجية وإذا أخذت أولاده معها فالطامة أشد كأنه لا أولاد له .

أما عن العمل فكيف يجوز لها أن تنتقل من عمل إلى آخر بدون إذنه ، فماذا لو كان موافقاً على أن تعمل بالتدريس مثلا فذلك أقرب للحصانة والراحة الزوجية ، ولكنها أرادت أن تنتقل إلى العمل بسكرتارية أو فى المصانع مما يخلق معه بعض الشبهات والمتاعب ، وكيف لو كان فى العمل الجديد غريم له كان ينافسه فى حبها .

وكيف تشترط عليه أن تعمل وألا يوقفها عن العمل إذا تيسرت الأمور الإقتصادية ، ولم تعد هناك حاجة لعمل المرأة واحتاج الأولاد لرعايتها ، ومن المسلم به ان رعاية الأولاد والزوج عمل من أقدس الأعمال .

أما الكلام عن تعدد الزوجات واشتراط الوثيقة على الرجل ألا يتزوج عليها فموضوع مهم ، والمرأة عادة تصرخ ضد تعدد الزوجات ، وأضع أمامها الحقائق التالية :

١- تعدد الزوجات ليس من وضع الإسلام ، فكل الأديان السماوية الوضعية كانت تبيحه ولا يزال بعضها يبيحه حتى الآن .

٢- تعدد الزوجات بشكل غير مشروع شائع فى الغرب ، ويوجد أطفال غير شرعيين من هذا الاتصال ، وتقول الإحصائيات إن عددهم كل عام حوالى عشرة ملايين لا يعرفون لهم آباء ، فهل ترضى المرأة المسلمة أن يشيع هذا فى أرض الإسلام .

٣- الرجل عندما يتزوج امرأة ثانية هو يحمى امرأة من أن تصبح عانسا أو مهملة ، فتمسك الزوجة الأولى برجل وحدها أنانية ، وهو ليس حربا ضد الرجل بمقدار ما هو حرب ضد بنات جنسها .

٤- المرأة المريضة أو العاقر هل من مصلحتها أن تبقى ويتزوج زوجها أخرى ، أو أن من مصلحتها أن تطلق قبل زواجه بأخرى كما تقضى بذلك بعض الأديان .

٥- ما العمل فى زيادة عدد النساء على الرجال فى الاحصاء العام وبخاصة عقب الحروب .

٦- إذا أجمعت السيدات على محاربة تعدد الزوجات فما عليهن إلا أن يتفقن على ألا يتزوجن من متزوج ، وإذا إستطعن تنفيذ ذلك فإن تعدد الزوجات سينتهى .

أما الكلام عن العصمة فقد أجلته قصداً ، وتحضرنى قصة واقعية ، فقد كنت القى محاضرة على مجموعة كبيرة من السيدات في نادى هدى شعراوى سألتنى سيدة : لماذا لاتكون العصمة في يد المرأة.كما هى فى يد الرجل ؟ وأجبت في هدوء : لو كانت العصمة فى أيدى النساء لطلقن الرجال فى أقصر وقت ، فالمرأة شديدة الحساسية وعاطفتها ملتهبة ، وذلك شئ من دواعى الطبيعة ، فإذا اغضبها زوجها أو حدث خلاف بينهما فيخشى ان تسرع بطلاقه .

أما الرجل فيغضب ويتمالك نفسه ، أو يخرج من البيت حتى تهدأ الأمور .

ومن القصص التاريخية أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذهب مرة لزيارة ابنته السيدة فاطمة ولم يجد عليا بالبيت فسألها عنه ، فقالت : تغاضبنا وخرج ، ويلاحظ العدالة والدقة فى تعبيرها فهى لم تقل : أغضبنى ، وإنما قالت تغاضبنا أى أن كلاً منا أغضب الآخر ، وخرج الرسول ليبحث عنه فوجده في المسجد وعرف أنه صلى وأجاب عن بعض أسئلة فقهية ثم نام فأيقظه الرسول وقال له : قم يا أبا تراب لأن تراب المسجد كان قد أثر فيه .

هنا نمط طيب يحتذى من الزوجة والزوج ووالد الزوجة .

وبعد .... نحن نريد ان يتذكر الزوجان قوله تعالى : " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن (البقرة ١٨٧) ، وقوله تعالى : " ومن اياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة " (الروم ٢١) .

والحياة تعاون وود والتزام بتربية الأولاد الذين يمثلون ثمرة الأسرة ، والخلاف بين الزوجين ضياع لهذه الثمرة وهى من أهم أهداف الزواج .

ومن الاقتراحات الجديدة أن يعرض العريس والعروس نفسيهما على الطبيب قبل عقد القران ليقرر صلاحيتهما للزواج والإنجاب ، والإنسان تصيبه الدهشة أن يذهب اثنان جمع الحب بين قلبيهما إلى طبيب ليوافق على الزواج أو ليفرق بينهما ، وملايين الزيجات مرت بدون طبيب ، والغالبية العظمى منها حققت النجاح والأولاد .

وأخيرا فنحن نهمس فى أذن المرأة ألا تقيم صراعا بينها وبين زوجها ، فالإسلام يحث على قيام المودة والمحبة بين الطرفين ، ولتتذكر المرأة أن القوانين الجديدة إن عدت انتصارا لها على زوجها ، ستكون انتصارا لزوجة ابنها على ابنها ، ولزوجة أخيها على أخيها . فلتقنع المرأة بمكانها ومكانتها التى حددها الإسلام ، ولتعش مع زوجها فى تعاون ووئام دون محاولة الانتصار .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المحاضرة الثامنة

حديث القرآن الكريم عن العلم والعلماء

فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوى

٨ مايو ١٩٩٥م

٨ ذى الحجة ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

الأستاذ الدكتور عارف الدسوقى يعقب على المحاضرة .

على المنصة : المحاضر الامام الاكبر شيخ الأزهر والى يمينه الاستاذ رشاد المراغي وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري .

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوى (١) ، من مواليد سنة ١٩٢٨ بطما بمحافظة سوهاج . وقد حصل فضيلته على الثانوية الأزهرية سنة ١٩٥٤ ، وتخرج من كلية أصول الدين سنة ١٩٥٨ ، وحصل منها على الدكتوراه فى التفسير والحديث سنة ١٩٦٦ ، وعمل مدرسا بها ، وتدرج بهيئة التدريس الجامعى حتى صار عميدا لكلية أصول الدين سنة ١٩٧٦ .

ولقد أعير فضيلته للتدريس فى عدة جامعات : بالعراق ، وليبيا ، والمملكة

---

(١) ألقى فضيلته هذه المحاضرة وهو مفتى جمهورية مصر ، وتقلد فضيلته مشيخة الأزهر الشريف فى ٢٧ مارس سنة ١٩٩٦م الموافق ٨ ذو القعدة سنة ١٤١٦هـ .

العربيـة السـعودية ، وسـاهم بمصـر والخـارج فـى مختلـف المؤتمـرات الإسلامية ، كما أسهم فى العديد من البرامج الدينية بأجهزة الإعلام المختلفة .

ومن أهم مؤلفات فضيلته (التفسير الوسيط للقرآن الكريم) عدد ١٥ (خمسة عشر مجلدا ضخما) ، مما لايقدر عليه سوى كبار أئمة وشيوخ الإسلام . هذا بخلاف بحوثه المتعمقة لمختلف المعاملات المالية المستحدثة ، وبيان أحكامها الشرعية ... وكذا دراساته العديدة المتميزة لكل ما يستجد على الساحة الإسلامية ، من مشكلات وتحديات .

ولقد أختير فضيلته ، مفتياً لجمهورية مصر العربية فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٨٦ ، ليكون الخامس عشر فى سلسلة من تولوا شرف الافتاء من كبار العلماء ، منذ إنشاء دار الافتاء المصرية فى نوفمبر سنة ١٨٨٥ الموافق جمادى الثانية سنة ١٣٠٥هـ .

لقد كان أول من حمل لقب مفتى الديار المصرية ، وقتئذ فضيلة الشيخ حسونة النواوى ، ثم أعقبه سنة ١٨٩٩ فضيلة الإمام الشيخ / محمد عبده ، رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية الأسبق ، والذى قاد حركة الاصلاح الدينى فى مصر ، وكان شخصية تاريخية بارزة على المستوى الوطنى والعربى والإسلامى ، وارتفع بوظيفة ورسالة الافتاء .

ولقد جاء على نهج الإمام الشيخ محمد عبده ، فضيلة محاضرنا الأستاذ الدكتور الشيخ محمد سيد طنطاوى .. فهو عالم متمكن متواضع ، ومناضل قوى واسع الأفق ... نذر نفسه للدفاع عن الإسلام فى مصر والخارج ، وعرض رؤياه وحلوله الإسلامية لمختلف مشكلات وتحديات العصر ، بحيث أصبح اليوم يمثل لدى جماهير المسلمين رمزاً لليقظة الإسلامية ... وأملاً فى الأصلاح والتغيير نحو الأفضل .

ولاشك أن اختيار فضيلته المحاضرة فى موضوع (حديث القرآن عن العلم والعلماء) ، هو اختيار دقيق ومناسب ، ذلك أننا مقدمون على عالم جديد ومتغيرات جذرية فى الحياة ، على ضوء ثورة اليوم فى التكنولوجيا والمعلومات .

وكما هو معروف فإن العلم الإسلامى لا يقتصر على العلم النظرى أو الدينى ممثلا فى **القرآن وهو كتاب الله المقروء** ، وإنما يمتد أساسا إلى العلم العملى أو التجريبى ممثلا فى **الكون وهو كتاب الله المنظور** ... كما أن التقدم العلمى المادى ، كما نراه اليوم فى الغرب ، أصبح ينذر بخطر شديد ، طالما لم يتوافر صمام أمانه وهو ابتغاء وجه الله .

إنه لن يعود الإسلام رسالة **فى الحياة ، ومنهجاً للبشر كافة ، وقاطرة للتاريخ ، إلا من خلال العلم ، كما أظهره الإسلام** أى **بجناحيه المادى والروحى ... وصدق الله العظيم** (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون – الزمر / ٩) وقوله تعالى : " ومن كان فى هذه أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا – الاسراء / ٧٢) ... **وصدق الرسول الكريم** ، إن (قليل العمل مع العلم كثير ، وإن كثيره مع الجهل قليل) ، وإن (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) ، وإن (مداد العلماء احب إلى الله من دماء الشهداء) ... ذلك أنه كلما ازداد الإنسان علما نافعا ، ازداد خشية وابتغاء لوجه الله ، وازداد عطاء ، ونفعا لمجتمعه .

وبعد فان الجمعية الخيوية الإسلامية ، ليشرفها أن يختتم موسمها الثقافى لعام ١٩٩٤ / ١٩٩٥ ، فضيلة الاستاذ الدكتور الشيخ محمد سيد طنطاوى ، الرجل الذى دخل التاريخ بتقديمه للإمة الإسلامية ، تفسيره الوسيط للقرآن الكريم فى خمسة عشر مجلدا ضخماً .... وهو الرجل الذى لم يتردد لحظة واحدة ، فى خوض معارك شرسة دفاعاً عن اجتهاده ، وما ارتآه صوابا ،

واستطاع بذلك أن يوطد أدب الخلاف وممارسته عملياً ، وأن يكسر الجمود الفكرى فى مسائل دقيقة حسلسة كفتاويه فى شأن شهادات الاستثمار والعمليات المصرفية المستحدثة ، وبيانه لحكم الحج الحكومى المجانى فى دولة تشكو من الفقر والديون ، وقضايا الإرهاب وختان البنات ... إلى آخر ذلك من قضايا اليوم الساخنة والشائكة .

وهو الرجل الذى لم يكتف فى دعوته بمصر والعالم الإسلامى ، وإنما امتد إلى الخارج وإلى أمريكا ... فقدم لبلده ولدينه أجلّ الخدمات ، وما زلنا نرجو ونطمع منه الكثير والكثير فى خدمة الإسلام والمسلمين ... بحيث لا أملك فى هذا المقام ، إلا أن اتجه إلى الله تعالى أن يطيل عمره ، ويشد أزره ، ويسدد خطاه .

كلمة فضلية الإمام الأكبر الدكتور / محمد سيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

وبعد : فمن الحقائق المقررة ، والمسائل المؤكدة ، أن شريعة الإسلام قد سمت بفضيلة العلم سموا عظيما ، وكرمت العلماء الذين سخروا علمهم لخدمة الحق والفضائل والمنافع المشروعة ، تكريما لا مزيد عليه .

ويكفى للدلالة على صدق هذه الحقيقة ، أنك اذا قرأت القرآن الكريم بتدبر وتفهم ، ترى أن مادة " علم " المكونة من العين واللام والميم ، وما اشتق منها ، قد تكررت فى القرآن الكريم ، مئات المرات .

فمثلا لفظ " عليم " تكرر فى القرآن الكريم ، مائة وأربعين مرة . ولفظ " العلم " تكرر ثمانين مرة . ولفظ " يعلم " تكرر ثلاثا وتسعين مرة . ولفظ

" يعلمون " تكرر خمسا وثمانين مرة . . وهكذا نجد أن هذه المادة وما اشتق منها ، وهى مادة " علم " ، قد تميز حديث القرآن عنها بالتفصيل الواسع ، وبالتنوع الحكيم .

وهناك بعض النماذج لحديث القرآن الكريم عن العلم النافع للناس فى كل زمان ومكان ، وعن دعوة أتباعه لأن يأخذوا بسلاح العلم ، وبالرقى به إلى أسمى ألوانه ، وبمسايرته لظروف الناس وحاجاتهم ، وبالانتفاع بعلم غيرهم مادام هذا العلم لا يتعارض مع عقيدتهم ، وشعائر دينهم ، إذ العلم لا وطن له، وعلينا أن نطلبه من مصادره ومن أماكنه ، مهما بعدت هذه الأماكن عنا .

وكما فصل القرآن الكريم ، الحديث عن العلم النافع ، وعن وجوب طلبه ، فصل أيضا الحديث عن أهله الذين عشقوه ، وسهروا لتحصيله ، وأثنى عليهم ثناء عاطرا .

ففى سورة البقرة ، نجد آيات كريمة قصت علينا جانبا من قصة آدم – عليه السلام – : وهذه الآيات هى قوله – تعالى – : " واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " (الآيات ٣٠ – ٣٣) .

فهذه الآيات الكريمة من الحكم التى نأخذها منها : أن سياسة الأمم على الطريقة المثلى إنما تقوم على أساس راسخ من العلم ، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة ، وأن ادم – عليه السلام – قد فضله الله تعالى على

الملائكة ، ليس لقوة بدنه ، أو لجمال هيئته ، أو لغير ذلك من الصفات ، وإنما فضّله – سبحانه – عليهم ، بسبب مامنحه من علم نافع ، لم يمنحه لهم .

وفى سورة " آل عمران " نرى آيات كريمة ، تمدح الراسخين فى العلم ، الذين تمكن العلم النافع من قلوبهم ، فجعلهم يهتدون إلى الحق ، ويتضرعون إلى خالقهم يسألونه الثبات عليه ، والرحمة منه وهذه الآيات هى قوله – سبحانه – : " هو الذى أنزل إليك الكتاب منه آيات محكمات ، هُنّ أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ان الله لايخلف الميعاد " (الآيات ٧ : ٩)

وفى السورة ذاتها ، نجد آية كريمة ، تصرح بأن على رأس الخلائق الذين شهدوا لله بالوحدانية ، وبأنه لا معبود بحق سواه ، هم العلماء الأخيار الذين صفت عقولهم ، وطهرت قلوبهم ....

استمع إلى قوله – تعالى – : " شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولوا العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم " (الآية : ١٨)

أى : أخبر الله – تعالى – عباده ، وأعلمهم عن طريق الآيات القرآنية التى أنزلها على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن طريق الآيات الكونية التى لا يقدر على خلقها أحد سواه ، وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التى تشهد بوحدانيته ، أنه لا معبود بحق سواه ، وأنه هو المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق ، وشهد بذلك – أيضا – الملائكة المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وشهد لله – تعالى – بالوحدانية – أيضا –

أصحاب العلم النافع ، بأن اعترفوا له – سبحانه – بأنه هو المستحق للعبادة والطاعة .

قال الامام القرطبى : " **وفى هذه الآية دليل على شرف العلم وفضل العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله – تعالى – باسمه وباسم ملائكته كما قرن العلماء ... وهذا شرف للعلماء عظيم ، ومحل لهم فى الدين خطير** " (١)

والمراد بأولى العلم هنا : جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم – سبحانه – من علم ومعرفة ، فى خدمة دينهم ، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم ، وصدقوا فى أقوالهم وأفعالهم ، **سواء أكان علمهم يتعلق بالجوانب الدينية ، أم الطبية ، أم الزراعية ، أم الصناعية ، أم التجارية ، أم غير ذلك من شتى ألوان العلوم النافعة** ، والتى تتجدد وترتقى من عصر الى عصر ، ومن موطن إلى آخر .

وفى سورة " التوبة " آية حكيمة ، أشارت إلى أن الذين يخدمون أمتهم عن طريق علمهم السديد ، لا يقلون فى المنزلة عن أولئك الذين يخدمون أمتهم عن طريق الجهاد فى سبيل الله تعالى .

استمع إلى قوله – عز وجل – : " وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون " (سورة التوبة : الآية ١٢٢)

والمعنى : ما صح وما استقام أن يخرج جميع المؤمنين لقتال أعدائهم إذا كان بعضهم يغنى فى دحر أولئك الأعداء ، وإنما الذى يصح والذى يستقيم أن يقسم المؤمنون أنفسهم إلى قسمين : قسم يتفرغ لقتال الاعداء ، والقسم الآخر

---

(١) تفسير القرطبى جـ٤ صـ ٤١ .

يتفرغ للتفقه فى الدين ، ولتعلم العلم النافع ولتعليمه لغيرهم ، وبذلك يجمعون بين المصلحتين : مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان ، ومصلحة الدفاع عنه بالسيف والسنان .

ومن الأحكام التى أخذها الفقهاء من هذه الآية : وجوب طلب العلم ، والتفقه فى دين الله – تعالى – وتعليم الناس إياه .

وفى سورة **" الرعد "** آية كريمة ، أشارت إلى أن الله – تعالى – قد أمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يخبر أعداءه بأنه تكفى شهادة الله تعالى بشأنه ، وشهادة أولى العلم الصادقين المطلعين على الكتب السماوية السابقة .

قال تعالى : " ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب " (الآية : ٤٣) .

أى : ويقول الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، إنك يا محمد لست مرسلا من عند الله – تعالى – ، قل لهم على سبيل التعليم والتوبيخ : تكفى شهادة الله – تعالى – بينى وبينكم ، فهو يعلم صدق دعوتى ، ويعلم كذبكم ، ويعلم ذلك – أيضا – كل من كان على علم بالكتب السماوية السابقة ، فإنها قد بشرت برسالتى ، وجاءت أو صافى فيها . .

وممن شهد لى بالنبوة ممن عندهم علم بالكتب السماوية : ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن سلام ، وغيرهما من أولى العلم النافع ، والعقل السليم ، والسلوك القويم .

وفى سورة **" الإسراء "** ايات كريمة ، بينت ووضحت بأن العلم المصحوب بالنوايا الطيبة او النافع من النفوس الطاهرة ، يجعل صاحبه يسارع إلى اتباع الحق بخشية ، وبشدة تأثر ، وبتقديس وتنزيه لله – تعالى – عما لا يليق .

وهذه الآيات هى قوله تعالى : " قل آمنوا به أولا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ". (الآيات ١٠٧ - ١٠٩) .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للجاهلين من المشركين الذين طلبوا منك ما هو خارج عن وظيفتك ، قل لهم : آمنوا بهذا القرآن أولا تؤمنوا به ، لأن إيمانكم به لا يزيده كمالا ، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئا ، فإن علماء أهل الكتاب الذى آتاهم الله - تعالى - العلم النافع قبل نزول هذا القرآن ، وميزوا بين الحق والباطل ، كانوا إذا يتلى عليهم هذا القرآن ، يسقطون على وجوههم ساجدين لخالقهم ، شاكرين له تفضله بإرسالك رحمة للعالمين ، ويقولون فى سجودهم : ننزه ربنا عن كل ما يقوله الجاهلون ، ونثنى عليه أجزل الثناء ، لإنزاله هذا القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم .

فالآيات الكريم فيها ما فيها من التسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكأنه - عز وجل - يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم - يا محمد : لا تطمع فى إيمان هؤلاء الجهلاء ، واكتف بإيمان العلماء ، الذين سخروا علمهم لخدمة الحق ، وتأثروا به تأثرا فاضت معه دموعهم من خشية الله تعالى .

وفى سورة " طه " آية حكيمة ، أمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل خالقه - عز وجل - أن يسأله المزيد من العلم النافع ، فقال تعالى : " فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علما " (الآية : ١١٤)

أى : أكثر - أيها الرسول الكريم - من تعظيم خالقك وتقديسه وتسبيحه وتحميده وتكبيره ، ولا تتعجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من

إبلاغـه إليـك ، وقـل – أيهـا الرسـول الكريـم – مخاطبـا ربـك ومتوسـلا إليـه بقولك : يا رب زدنى من العلم النافع .

قال الألوسى : " واستدلوا بالآية على فضل العلم ، حيث أمر – سبحانه – رسوله – صلى اللـه عليه وسلم – بطلب الزيادة منه . **وذكر بعضهم أنه – صلى الله عليه وسلم – ما أمر بطلب الزيادة فى شئ سوى العلم** ، وكان – صلى الله عليه وسلم – يقول : " اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما " . وكان يقول : " اللـه زدنى إيمانـا وفقهـا ويقينـا وعلما " (١)

وفى سورة " النمل " نجد آيات كريمة ، تشير إلى أن أصحاب العلم النافع دائما يسبقون غيرهم فى كل مجال من مجالات الحياة ، بدليل أن سليمان – عليه السلام – عندما طلب من جنوده أن يحضروا له عرش ملكة سبأ من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، كان السباق إلى احضار هذا العرش فى أقل من طرفة عين ، رجل آتاه الله تعالى علما من الكتاب

واستمع إلى القرآن وهو يحكى هـذه الحقـائق فيقـول : " قـال – أى : سليمان – يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . . " (الآيات : ٣٨ – ٤٠)

أى : قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله تعالى : يا سليمان أنا آيتك بعرش بلقيس من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ..

وفى ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله ، وشرف حامليه

---

(١) تفسير الالوسى جـ ١٦ صـ ٢٦٩ .

وفضلهم ، وأن هذه الكرامة التى وهبها الله تعالى لهذا الرجل ، كانت بسبب ما أتاه سبحانه من علم نافع .

وفي سورة " القصص " نجد آيات كريمة تعقد لنا مقارنة حكيمة بين الذين تبهرهم زينة الحياة الدنيا من الجهلاء ، وبين الذين يسمون بعلمهم وفضلهم عن هذه الزخارف الفانية ، ويضنون بعلمهم عن أن يهبطوا به إلى مستوى الذين يحترمون الطغاة من أجل ما لهم أو جاههم أو مظهرهم .

لقد بينت لنا السورة الكريمة قصة قارون ، وكيف أن الله - تعالى - آتاه المال الوفير ، ولكنه لم يشكر الله على نعمه ، بل طغى وبغى وتطاول واغتر وقال لمن نصحوه : إنما أوتيت هذا المال بجدى واجتهادى ، ثم خرج على قومه فى زينته ، فانقسم الناس فى شأنه إلى فريقين : فريق قال : " ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم "

أى : قال الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه ، ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من مال وزينة ورياش ، إنه لذو حظ عظيم ، ونصيب ضخم ، من متاع الدنيا وزينتها . أما فريق العلماء الحكماء الأخيار ، فقد قابلوا هذا القول بالزجر والتعنيف لأصحابه ، وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال : " **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون** " (الآية : ٨٠)

أى : وقال الذين أعطاهم الله - تعالى - العلم النافع ، والعفاف الأسمى ، من قوم قارون ، لمن يريدون الحياة الدنيا : كفوا عن قولكم هذا ، واتركوا الرغبة فى أن تكونوا مثله ، فإن ثواب الله فى الآخرة خير مما تمنيتموه ، وهذا الثواب إنما هو لمن آمن وعمل صالحا ، فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل ، وهذه المثوبة العظمى لا يظفر بها إلا الصابرون على طاعة الله تعالى .

وهكذا نرى أن أصحاب العلم النافع ، فى مجال تعمير الحياة بالخير الذى أحله الله – تعالى – يسبقون غيرهم ، وكذلك فى مجال العفاف والسمو النفسى والترفع عن الشهوات نراهم يسبقون غيرهم – أيضا – وينظرون إلى كل من طغا وبغى نظرة الاحتقار والاستخفاف مهما بلغ غناه وجاهه .

وفى سورة " العنكبوت " نجد أن الله – عز وجل – بعد أن يضرب الأمثال لمن يتخذ آلهة من دونه ، ويصور هؤلاء الجاهلين تصويرا تجعل كل عاقل ينفر منهم ، بعد كل ذلك يبين لنا – سبحانه – أن معرفة مقاصد أمثاله لا يفقهها إلا العلماء الفطناء .

استمع الى قوله – تعالى – : " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " (الآية : ٤٣) .

أى : وتلك الأمثال التى سقناها فى كتابنا العزيز ، نضربها للناس على سبيل الإرشاد والتنبيه والتوضيح ، وما يعقل هذه الأمثال ، ويفهم صحتها وحسنها ، إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى خلق الله تعالى ، الفاقهون لما يتلى عليهم .

وهذه شهادة عظيمة من الله – تعالى – لعباده العلماء الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، والذين منحهم من العقل السليم ، والنظر السديد ، ما جعلهم يفهمون الأمور على وجهها الصحيح .

وفى سورة " فاطر " نجد القرآن الكريم ، يصرح بأن أكثر الناس خشية لخالقهم – عز وجل – ، ومعرفة لجلاله وقدرته – سبحانه – هم العلماء الأصفياء العقلاء .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر هذه الحقائق بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول : " ألم تر أن الله أنزَلَ من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جُددٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيبُ سود . ومن

الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور " (الآيتان : ٢٧ ، ٢٨)

والمعنى : لقد علمت – أيها العاقل – علما لا يخالطه شك، أن الله – تعالى – أنزل من السماء كثيرا ، فأخرج بسببه من الأرض ، ثمرات مختلفا ألوانها ، فبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر ، وبعضها حلو المذاق ، وبعضها ليس كذلك ، مع أنها جميعا تسقى بماء واحد .

وجعلنا كذلك بقدرتنا من الجبال قطعا ذات ألوان مختلفة ، فمنها : الأبيض ، ومنها : الأحمر ومنها : ما هو شديد السواد ، ومنها ما ليس كذلك ، مما يدل على عظيم قدرتنا ، وعلى بديع صنعنا .

ثم بين – سبحانه – أن هذا الاختلاف ليس مقصورا على الجبال فقال : " ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك " أى : ومن الناس والدواب والأنعام ، أصناف وأنواع مختلف ألوانها اختلافا كذلك الاختلاف الكائن فى قطع الجبال ، وفى أنواع الثمار ثم ختم – سبحانه – هذه النعم – ببيان أن أكثر الناس خشية للخالق – سبحانه – إنما هم العلماء الراسخون فى علمهم فقال : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " .

أى : إنما يخاف الله – تعالى – ويخشاه ، العالمون بما يليق بذاته وصفاته ، من تقديس وطاعة وإخلاص فى العبادة ، أما الجاهلون بذاته وصفاته – تعالى – فلا يخشونه ولا يخافون عقابه ، لا نطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ، وكفى بهذه الجملة الكريمة مدحا للعلماء ، حيث قصر – سبحانه – خشيته عليهم .

ولقد نفى – سبحانه – فى آيات متعددة المساواة بين العلماء الذين اهتدوا إلى الحق وعملوا به وسخروا علمهم فى تعمير الحياة بما أحله الله

- تعالى - من خيرات ، وبين أولئك الجهلاء الذين إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . .

ومن الآيات القرآنية التى أكدت ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد : " أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب "

وقوله - سبحانه - : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب " (الزمر : ٩)

أى : لا يستوى فى عدل الله - تعالى - أولئك الذين علموا الحق وعملوا به ، وأولئك الذين جهلوه وأعرضوا عنه .

ومن الآيات القرآنية التى رفعت من قدر العلماء ، وأعلت من منازلهم ، قوله - سبحانه - : " يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيل انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير " (سورة المجادلة : الآية ١١) .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، إذا قيل لكم توسعوا فى مجالسكم لتسع أكبر قدر من إخوانكم فامتثلوا واستجيبوا ؛ لأن فعلكم هذا يؤدى إلى أن يفسح الله - تعالى - لكم فى رحمته ، وفى منازلكم فى الجنة ، وفى كل شئ تحبونه .

وإذا قيل لكم - أيها المؤمنون - انهضوا من أماكنكم للتوسعة على المقبلين عليكم فانهضوا ولا تتكاسلوا ، فإنكم متى فعلتم ذلك رفع - سبحانه - المؤمنين الصادقين درجات عظيمة ، ورفع أهل العلم والفقه منكم درجات أعظم وأكبر .

وقد أخذ الفقهاء من هذه الآية الكريمة : فضل العلماء وسمو منزلتهم .

قال صاحب الكشاف : عن عبد الله بن مسعود أنه كان اذا قرأ هذه الآية قال : يأيها الناس افهموا هذه الآية ، ولترغبكم فى طلب العلم .

وعن بعض الحكماء أنه قال : ليت شعرى أى شئ أدرك من فاته العلم ، وأى شئ فات من أدرك العلم .

وعن الأحنف بن قيس أنه قال : كل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل يصير " (١)

والذى أريد أن أؤكده هنا : أننا عندما نتحدث عن العلم كما ورد فى القرآن الكريم ، إنما نقصد كل علم مشروع ونافع للدين وللدنيا ، سواء أكان هذا العلم يتعلق بعلوم القرآن الكريم أم بعلوم السنة النبوية الشريفة ، أم بالعلوم الفقهية أو الطبية أو الهندسية أو الزراعية أو الاجتماعية أو غير ذلك من شتى ألوان العلوم التى تنوعت تنوعا كبيرا ، وصار العلم الواحد منها ينقسم إلى عدة أقسام .

ونقصد بالعلماء : كل من سخر علمه ، وإدراكه ، ومعرفته ، لفن معين أو لعلم معين ، لخدمة الحق ، ولنشر الفضائل ، ولخدمة مصالح ومنافع الناس فى حدود ما أمرك الله تعالى .

وإذا ما اتجهنا إلى السنة النبوية المطهرة ، رأينا عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو إلى طلب العلم وإلى تحصيله من وجوهه ، وإلى نشره وعدم كتمانه :

أ - ومن الأحاديث التى وردت فى فضل العلم والعلماء ، ما جاء فى الصحيحين عن معاوية عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " من يرد الله به - خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله " .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ صـ ٧٦ .

وروى أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " من سلك طريقا يبتغى فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنه .... وإن العلماء ورثة الأنبياء - أى : ورثتهم فى هداية الناس ... وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر " .

ب - ومن الأحاديث النبوية التى وردت فى وجوب تبليغ العلم ، وعدم كتمانه ، ما جاء فى الصحيحين عن أبى بكر - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله وسلم - قال : " لِيُبلّغِ الشاهدُ الغائبَ ، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه "

وروى الإمام البخارى عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " بلّغوا عنى ولو آية ، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "

وروى أبو داود والترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة "

ج - ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى بيان أن العلم أمانة ، وأنه يجب أن يبلغ بكل صدق وإخلاص ، ما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من قلوب الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يَبْقَ عالم ، اتخذ الناس رءوسا جهالا ، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا "

د - ومن الأحاديث التى وردت فى بيان أن العلم النافع يبقى أثُره لصاحبه بعد موته ، ما جاء فى صحح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " .

ولقد حرص السلف الصالح على طلب العلم ، وكان الحصول عليه أعز مطالبهم ، وأغلى أمانيهم يقول كُمَيل بن زياد أحد تلاميذ أمير المؤمنين على بن أبى طالب : أخذ بيدى على بن أبى طالب ثم قال لى : " يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها ، فاحفظ عنى ما أقول لك . يا كميل : الناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ... **يا كميل العلم خير من المال : العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالنفقة والمال ينقص بالإنفاق . العلم حاكم والمال محكوم عليه ... يا كميل : هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة . . . "**

والذى يراجع التاريخ منذ ظهور الاسلام وحتى اليوم ، يرى أن الله – عز وجل – قد قيض للأمه الاسلامية على اختلاف أدوار حياتها علماء عقلاء فطناء ، أصحاب همم عالية ، وعقول راجحة ، وعزائم صادقة ، خدموا العلم ، وأخذوا بأكبر قدر ممكن منه ، وسايروا تطوارته مسايرة حكيمة ، وتعلم اللاحقون من السابقين ، وأضافوا إلى ما تعلموه علما جديدا ، وفهما جديدا ، وفقها جديدا ، وفكرا جديدا ، قد لا يختلف عن سابقه فى أصوله وأركانه ، ولكنه يختلف عنه فى فروعه وتنظيمه وآفاقه .

وانظر إلى علم التفسير ترى ثروة هائلة ، منها الذى كتب فى القرن الأول ، ومنها الذى كتب فى القرن الثانى ، ومنها الذى كتب فى القرن الثالث أو الرابع أو الخامس أو السادس .... **ومازال العلماء والمفسرون لكتاب الله – تعالى – يبذلون جهودهم فى خدمته إلى وقتنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وما قلناه عن علم التفسير للقرآن الكريم ، نقوله عن**

علوم الحديث النبوى الشريف ، وعلوم اللغة العربية على اختلاف فروعها ، وعلوم التوحيد ، والمنطق ، والفلسفة ، والتصوف ، والفقه ... وغير ذلك من العلوم التى لا تكاد تحصى .

ولم تكن جهود العلماء المسلمين مقصورة على الجوانب الدينية أو الفقهية أو اللغوية أو الفلسفية ، فحسب ، بل شملت جهودهم كل مجالات الحياة ، وسايرت تطورها مسايرة حكيمة . .

لقد بدأوا علومهم بالترجمة والنقل عن غيرهم ، وتم ذلك فى صور مختلفة ، فوجدت مدارس للترجمة فى صدر الدولة العباسية ، وأرسلت البعوث إلى الشرق وإلى الغرب لتستحضر نفائس المخطوطات للتعريب . .

ثم انتهى دور النقل والاتباع ، وجاء دور الإنتاج والإبداع ، فألف المؤلفون الأسفار الجليلة فى شتى ألوان العلوم الطبية ، والفلكية والطبيعية ، والرياضية ، والجغرافية . . . .

ومع انتشار العلماء فى الدولة الاسلامية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، إلا أنهم كانت تجمعهم ثقافاتهم ، وكان كثير منهم يتراسلون فيما بينهم ، ويتطارحون المسائل العلمية ، ويتبادلون المؤلفات والمحفوظات ، فكانت هناك وحدة إسلامية علمية ، على الرغم من تفكك الدولة ذاتها ، وانقسامها إلى دويلات شتى . .

ونبغ من العلماء فى شتى مجالات العلم من لا يحصى عددهم هنا ، ولكن خذ على سبيل المثال :

أ - ابن يونس المصرى المتوفى بالقاهرة سنه ١٠٠٩م ، والذى يعد من المؤسسين لعلم الفلك . .

ب - وابن الهيثم المتوفى بالقاهرة سنه ١٠٣٩م ، والذى يعد بلا منازع من أكبر علماء الطبيعة فى الاسلام .

ج – والبيروني المتوفى بخوارزم سنه ١٠٤٨م.، والذى يعد من أكبر المشتغلين بالرياضيات والفلك .

د – وابن سينا المتوفى سنه ١٠٣٧م ، صاحب كتاب الشفاء الذى يقع فى ثمانى عشرة مجلدا ، ثم صاحب كتاب " القانون " الذى يعد موسوعة طبية جمع فيها الكثير من المعارف .

ونحن فى عصرنا الحديث نستطيع أن نقول : إن أمتنا لا تستطيع أن تقف فى مصاف الأمم القوية والراقية إلا إذا أخذت بأكبر قدر ممكن من المعرفة والثقافة والعلم النافع ، وإلا إذا سايرت إنجازات العلم الحديث فى عصرنا الحاضر . . لأننا قد أصبحنا فى عصر لاتتنافس فيه الأمم بأجسادها ، أو بسعة أرضها ، أو بكثرة عدد أفرادها ، وانما نحن فى عصر تتنافس فيه الأمم بالعقول والأفكار ، بالاختراع والابتكار . . .

نحن فى عصر العلم والفكر ، والكتاب والمعمل ، والإعلام المسموع والمرئى ، والمدفع والطائرة ، والذرة وتحطيم الذرة ، والصعود الى الفضاء ، وغير ذلك من العلوم التى أنتجها البحث والدرس والاختراع . .

وما من أمة تستطيع اليوم أن تساير ركب الحياة ، إلا إذا كان لها نصيب موفور من العلم والرقى الفكرى والعقلى . .

وما قامت عظمة الدولة الاسلامية في ما ضيها ، إلا على أركان وطيدة من العلم والفكر والمعرفة .

إن شريعة الاسلام تدعو إلى التسلح بكل علم نافع ، وتدعو أتباعها إلى أن يطلبوا العلم ولو كان فى أبعد مكان.، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها . . وكل ما تريده شريعة الإسلام من أتباعها ، أن يسخروا علمهم لخدمة دينهم ولخدمة أمتهم ، وأن يتخيروا العلوم التى تعمر ولا تخرب ،

وتبنى ولا تهدم ، وتحتضن الفضائل وتنفر من الرذائل ، وتقف على جانب الحق حتى ينتصر ، وتقف فى وجه الباطل حتى ينكسر ...

تريد شريعة الإسلام من أتباعها أن يسايروا إنجازات العلم الحديث فى كل مجالاته ، ولكن مع احتفاظهم بعقيدتهم السليمة ، وبأخلاقهم القويمة ، وبسلوكهم الحميد ، تريد منهم أن يأخذوا من إنجازات غيرهم ، على أن يكون ذلك مدعَّما ومطعّما ، بما لديهم من روحانيات وأخلاقيات يكون بها الانسان إنساناً .

مرحبا بالتجديد والتطوير الذى يبنى ولا يهدم ، ويصلح ولا يفسد ، ويعتنق الفضائل ويتنزه عن الرذائل .

ومرحبا بكل إنجاز للعلم فى عصرنا الحديث ، مادام هذا الإنجاز تؤيده العقيدة السليمة ، وتحرسه الأخلاق الكريمة ، ومقصده وغايته خدمة الحق والعدل .

وبالله التوفيق ،

محاضـــرات الموسم الثقافـــى

١٩٩٥ / ١٩٩٦ **

إســـــم المحاضر	إســـــم المحاضـــرة
• الأسـتاذ الدكتـور محمـد إبراهيـم الفيومى	الاستشـــراق والإسلام
• الأسـتاذ الدكتـور أحمـد كمـال أبـو المجد	حاضر العالم الإسلامى ومستقبله
• الأسـتاذ الدكتــور منصـور محمـد حسب النبى	نماذج من الاعجاز العلمـى للقـرآن الكريم
• الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة	هويتنا من ثقافتنا الإسلامية
• الأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد	مفاهيم خاطئة يجب تصحيحها

** إكتفى فى هذا الموسم بخمس محاضرات ، حيث عقدت اللجنة الثقافية بالجمعية - من قبيل التنويع - اجتماعين مع نزلاء دور المسنين بالجمعية للوقوف ميدانيا على أحوالهم وطلباتهم ، واجتماع اخر مع طالبات مدرسة الجمعية الثانوية الصناعية للبنات . وقد أسفرت اللقاءات الثلاثة عن انجازات أقرها مجلس إدارة الجمعية لصالح المسنين بدور الجمعية ، ولصالح طالبات مدرسة الجمعية بحلوان .

المحاضرة التاسعة

الاستشراق والإسلام

الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومي

١٤ نوفمبر ١٩٩٤م

١٠ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

المستشار الدكتور البيومى محمد البيومى والمستشار محمد شوقى الفنجرى .

على المنصة : المحاضر الدكتور ابراهيم الفيومى وعلى يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / محمد ابراهيم الفيومى ، ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٩٣٨ بقرية أوليله بميت غمر . وقد حصل من جامعة الازهر على ليسانس كلية أصول الدين سنة ١٩٦٥ ، ثم على الماجستير فى الفلسفة الاسلامية سنة ١٩٦٨ . ثم حصل على دبلوم عال فى الفلسفه الاسلامية من جامعه السوربون بفرنسا سنة ١٩٧٢ ، ثم على الدكتوراه فى الفلسفه الاسلامية من جامعه الأزهر سنة ١٩٧٤ .

وقد تدرج فضيلته بوظائف التدريس بجامعه الازهر ، حتى شغل لمدة أربع سنوات وظيفه عميد كليه الدراسات الاسلامية والعربية وذلك فى الفترة من سنة ١٩٨١ الى سنه ١٩٨٥ . ثم أعير فضيلته للمشاركه فى تأسيس كليه التربية والعلوم الاسلامية وكليه الآداب بجامعة السلطان قابوس سنه ١٩٨٥ ، وشغل وظيفه رئيس قسم الفلسفة والاجتماع بتلك الجامعة فى الفترة من سنة

١٩٨٧ الى سنة ١٩٩٠ . ثم اختير امينا عاما للمجلس الأعلى للشئون الاسلامية منذ سنة ١٩٩٣ ، الى جانب رئاسته لقسم أصول الدين بكليه الدراسات الاسلامية والعربيه بجامعة الأزهر ، وقد شارك منذ سنة ١٩٧٤ وحتى اليوم فى مختلف المؤتمرات والندوات الاسلامية بمصر والخارج .

ولفضيلة الأستاذ الدكتور الفيومى عدد ٢٨ ثمانية وعشرون دراسة ، سعدت بقراءة ثلاث منها قراءة دقيقة مستمتعا ومستفيدا للغاية ، وهى :

أولا : كتاب القلق الانسانى : مصادره وتياراته وعلاج الدين له ، وهو يقع فى عدد ٤١٦ صفحه ، وكان موضوع رسالته للدكتوراه .

وأهميه هذا الكتاب فى نظرى ، أنه يكشف لنا بجلاء عن القلق والاضطراب الذى يعانيه الغرب ، بسبب استبعاده للدين ، وتركيزه على الوجود المادى .

أيضا يكشف لنا بجلاء ما يعانيه العالم الاسلامى من تخلف بسبب اهماله الجانب المادى والعلم التجريبى ، وما انتهى به الى " مظهرية " أو " هامشية " التدين .

وهو بذلك يؤكد ما جاء به الاسلام منذ خمسة عشر قرنا ، بانه لا يتصور للانسان وجودا الا بهذين الأساسين : أى الجمع بين الجانب المادى الذى يقويه العلم التجريبى ، والجانب الروحى الذى يقويه القيم الفاضلة والصلة الوثيقه بالله ، وأنه من الصعب الاكتفاء بالعلم وحده ، أو بالدين وحده ، بحيث سيظل القلق منبها طبيعيا الى أهمية الجانب المغفل عنه ، وسوف تخف حدة القلق الانسانى إن حرصنا على التوازن الدقيق بينهما .

ثانيا : كتاب تأملات فى أزمة العقل الغربى ، وهو يقع فى عدد ٢٠٧ صفحه .

وأهميه هذا الكتاب فى نظرى ، أنه يعالج مشكلة الفجوة بيننا وبين غيبة الحل الاسلامى ، وبعبارة أخرى مشكلة الانفصام فى العقيدة والسلوك ، أى مشكلة الهوة بين القول والعمل .

فيرى فضيلته أن مشكلتنا الحقيقيه ، ليست خارجيه وانما هى داخلية كامنة فى أنفسنا ، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وهى تكمن أساسا فى عدم إدراكنا لنظام الاسلام المتكامل ، فهو ليس عقيدة فحسب ، وانما هو ايضا شريعة له ذاتيته الخاصة ، متمثلة فى قيمه المتميزة ، ونظمه المنفردة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وينتهى فضيلته ، الى أن غياب التصور الصحيح عن الاسلام ، أدى الى انقسامات الأمه الاسلامية فى الفكر والتطبيق ... ثم أخيرا محاولة البعض قصر الاسلام على الدعوة للايمان فقط شأن المسيحية ، أو محاولة البعض الآخر توظيف الاسلام ، حسب هواه أو أغراضه السياسية .

ومن هنا كانت مناداتنا جميعا ، بضرورة عرض الاسلام ، بأسلوب عصرى مبسط ، وفى صورته المتكاملة ليس عقيديا فحسب ، وإنما تربويا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا . . وهذه هى مسئولية علماء المسلمين ، بقدر ما هى مسئولية كافة مؤسساتنا ابتداء من التربوية كالأسرة أو التعليمية كالمدارس أو الإعلاميه كالتلفزيون وغيره .

ثالثا : كتاب الاستشراق ، وهو يقع فى نحو ٥٠٠ خمسمائة صفحه .

وأهميه هذا الكتاب فى نظرى ، انه يكشف عن قضيه وتطور الصراع الغربى مع الاسلام ، مؤكدا أن الصراع كان دائما وبخاصة فى زماننا ، هو من أجل احتواء العالم الاسلامى من خلال ترويج فكرة (فوقية الغرب) و (دونيه الشرق) ، يساعده على ذلك واقع تخلفنا التقنى والاقتصادى ،

وبالتالى إقرار هيمنة أو سيطرة الغرب على مقدراتنا ، ليصل بذلك الى استغلال العالم الاسلامى واستنزاف ثرواته .

هذا ، وموضوع المحاضرة (الاستشراق والاسلام) ، هو مما يتصل بكتابه الاخير . وكما تعلمون ان الاستشراق بمعنى الدراسات الاجنبيه للاسلام ، ظهرت بشكل واضح منذ الحروب الصليبيه ، وذلك **أولا** بروح استعماريه عدوانيه ، ثم **تحول** الى نغمة تبشيرية محرفه ، ثم **عاد اخيرا** ليظهربنغمة موضوعية تارة ومغرضة أخرى . وكما تعلمون ان الاستشراق بدأ **أولا** بجهود فردية محدودة ، ثم تحول أخيرا الى معاهد ومؤسسات تعم جميع أنحاء العالم خاصة باوروبا وامريكا وتصرف عليها حكوماتها الأجنبيه بسخاء .

وفى تصورى أن المحاضرة ، تبدو أهميتها فيما يثيره الغرب بعد انتهاء الحرب البارده ، وتلاشى الصراع مع العدو الشيوعى ، بأن عدوهم الذى يتعين مواجهته اليوم هو الاسلام وهى . **مواجهة نرحب بها ، بل واقول نسعى اليها ، حتى تظهر لهم حقيقة الاسلام وعظمته ، مؤمنين بأن الحق مهما طال عليه الأمد ، لابد وأن يعرف ، وانه متى عُرف على حقيقته ، فانه لابد وان يسودَ** ، وهو ما عبر عنه الفيلسوف الألمانى جيته عقب دراسته للاسلام فى مصادره الصحيحه بقوله " **اذا كان هذا هو الاسلام ، أفلا نكون كلنا مسلمين** " .

وكما عبر عنه الفيلسوف الانجليزى برنارد شو ، فى الثلاثينات بقوله **((انى أرى فى الاسلام دينَ أوروبا فى أواخر القرن العشرين))** ، ويستوقفنا دقة هذا التعبير **أولا** فى قوله (دين أوروبا) لانها كانت وقتئذ القوة القائدة للعالم ، حيث لم تكن قد ظهرت قوة الاتحاد السوفيتى ، أو قوة الولايات المتحده الامريكيه . ثم **ثانيا** فى قوله (**فى أواخر القرن العشرين**) وذلك

حتى تستبين حقيقة الإسلام ممثلة في قيمة الفاضلة ، ونظمه الدقيقه في الشورى وضمان حد الكفايه ، لا مجرد حد الكفاف لكل فرد ، والدعوة الى العمل الصالح ووفرة الانتاج وعدالة التوزيع .

وهنا أقول ، ولعل فضيله الدكتور الفيومى يوافقنى على ذلك ، أن عداء الغرب للاسلام ، مستشرقين كانوا أم غير مستشرقين ، ليس مرده فحسب ، الهوى والغرض أو الرغبة فى السيطرة والهيمنة من جانب الغرب ، وانما مرده أساسا تفرقنا الذى أدى الى ضعفنا وأطمع فينا الغير ، بالاضافة الى التصرفات والسلوك السئ لبعض المنتسبين الي الاسلام ثم هو . فى الخلاصة ، القصور القائم منا جميعا : افراد او شعوبا ودولا اسلامية ، عن تمثل قيم الاسلام ، ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بل أعرضنا عنها وهرولة البعض فى الأخذ بأسوأ ما فى الغرب من تقاليد وأعراف .

وبعد فهذه المحاضرة للدكتور الفيومي ، ستجعلنا نستفيد من نظراته وتوجيهاته ، كما استفدنا من كتاباته ومؤلفاته ، سائلين الله تعالى أن يرشدنا جميعا سواء السبيل .

كلمة الاستاذ الدكتور / محمد ابراهيم الفيومى

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - الفكر الغربى وازدواجية الحكم :

تعمد الفكر الغربى أن يقدم لنا ، ألوانا من البغضاء الدفينة ، ونوعا من سوء الفهم المتعمد . وإلا كيف استطاع أن يزيف مارواه التاريخ عن تعاليم الإسلام ورسوله ، حين قدم تفسيراته للقرآن وتاريخ الإسلام ، وحين قدم الإسلام على أنه مزيج من الفلسفات القديمة ، وبقايا ملل مرفوضة من اليهودية والمسيحية ، وحين قدم من تحت عباءته ، صورة الرسول مشوهة

مكذوبة على التاريخ ، وعلى الرأى العام الغربى ، حتى أصبحت تلك الرسالة التى تشكل حياة المسلم ، تنتهى وفق التفكير الغربى ، إلى التهافت والاندثار .

إن الفكر الغربى ليس له عذر يعتذر به عما قدمه من تشويه للإسلام وللرسول صلى الله عليه وسلم . وكيف يعتذر عما قدمه وهو الذى أحكم دراسة التاريخ وأحداثه ، علماً ومنهجا ، فبنى له علما ، له نظامه ، وفلسفته ، وهو ما عرف بـ " علم التاريخ وفلسفته " وكانت الغاية التى رمى إليها الغرب من وراء بنائه هذا العلم ، أن يشيع روح السكينة فى نفس الدراس المتفحص للتاريخ واحداثه ، حتى لايعجل الحكم على مايستقرئه من التاريخ ، تعصبا لرأى فرضته عليه مزاعمه ، أو ألاّ يدخل على التاريخ وجهة نظر تعبر عن موقف مسبق على الحدث التاريخى ، ثم يتكلف له فهم الأحداث التاريخية ويتأولها على مقتضى ذلك الموقف السابق على الحدث ، وليس على مقتضى سير الأحداث التاريخية ...

فهناك مبادئ أحكمها الغرب فى هذا العلم – علم التاريخ – لتعينه على تحرى الموضوعية الفكرية ، وتوخى النزاهة العلمية التى يطلبها الغرب دائماً من وراء مناهجه ، التى عرفت لديه منذ أوائل عصر النهضة " **بمناهج البحث العلمى** " التى تساعده على تحرى : " **الحقيقة التاريخية** " أو " **الحقيقة العلمية** " . هذا ماعرفناه عن الغرب ، لذلك نالنا العجب حين رأينا الغرب يتنكب سبل البحث العلمى فى فهم قضايا الشعوب التى أطلق عليها هو نفسه " دول العالم الثالث " أو النامى ، وجعلها موضوع تجاربه ، ليقيم قواعدها وفق مناهج أخرى غير علمية تدخل فى نطاق " **الرؤية الاستعمارية** " . وتلك مبادئ أخرى غير مبادئه العلمية التى إرتضاها لنفسه ، وكنا لانرى لذلك مبرراً يجعله يعرض عن مناهجه العلمية فيما يخص مسائل الشعوب ، ويعود إلى نظرة التعالى تلك التى وضع نفسه فى اطارها وفق " **نظرية العرق** " التى

وضعها ميزاناً علمياً لدراسة قضايا الشعوب ؛ ليزيف بها عن قصد حضارات الشعوب غير الأوربية . وتلك هى الثنائية الغربية المزدوجة التى تنطوى على التناقض المر الأليم : وجه علمي دقيق هو وجه الغرب للغرب ، ووجه قبيح شرهْ ، هو ذلك الوجه الكالح ، أو القناع المزيف الذى يخيف به العالم .

٢- الشرق والغرب :

لقد تعرف الغرب إلى الشرق ، والشرق إلى الغرب ، منذ القرن السادس قبل الميلاد ، حين قامت الدولة الفارسية واتسعت رقعتها ، وامتدت من حوض نهر السند ، إلى آسيا الصغرى ، وأراد " دارا الأول " الامبراطور الفارسى (٥١٥ ق.م) ان يتعرف على السواحل الممتدة من مصب نهر السند إلى منطقة العاصمة فى عيلام (سوسة) ؛ فانتدب لذلك سكايلاكس اليونانى ليقوم بالمهمة ، وقد سار سكايلاكس فى النهر إلى مصبه ، ثم حاذى سواحل ايران الجنوبية وعبر خليج عمان والخليج العربى .

ويرى الباحثون أن تقرير سكايلاكس ، كان أول وثيقة غربية عن رقعة شرقية نائية ، فيه حقائق علمية وعملية عن الهند والهنود . لكن التقرير محشو بقصص سمعها الرجل من رفاقه وفى الأسواق ، وعلى المركب ، فدونها على أنها أمور حقيقية .

كذلك أوجدت فتوحات الاسكندر ، اتصالات جديدة بين هذه الاجزاء المتباعدة من الشرق . وقوّت الروابط التى كانت قبلا ، وفتحت المجال أمام الخيال الخصب ، ليضيف دوما ما ينتجه هذا الخيال ، حول شخصية الاسكندر وبطولاته وشجاعته ، وحكمته ، إلى الحقائق المتعارف عليها .

من هنا ظلت المعرفة الغربية عن الاقاليم الشرقية النائية ، ناقصة ، كذلك معرفة الناس العاديين بالشرق النائى ، معرفة ضبابية ، إن لم يكن ضبابها قد أصبح أكثف من ذى قبل .

٣- الإسلام وسرعة انتشاره :

فلم تكد تمضى مائة سنة على وفاة الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، حتى كانت الامبراطورية العربية ، تمتد من شبه جزيرة ايبريه فى الغرب ، على طول السواحل الجنوبية للبحر الابيض المتوسط ، إلى ضفتى نهر السند وبحر آرال فى الشرق ، لايفصل بين بلادها فاصل . وخلال القرون التالية كان يضاف إلى هذه الامبراطورية ، أو يقتطع منها ، بلاد أخرى فى كلا طرفيها ، ولكنها حفظت نفسها فى نطاق هذه الحدود المترامية ، زمناً طويلاً كان كافياً ليطبعها بطابع عربى . ولقد سجل الحكم العربى ، فصلا رائعاً فى تاريخ الإنسانية ، حين منح تلك البلاد حضارة جديدة .

كذلك نجد أن العالم الإسلامى يضم منطقتين اقتصاديتين كبيرتين : المحيط الهندى ، والبحر الأبيض المتوسط ، فان هاتين المنطقتين ، اللتين اجتمعتا فى العصر الهلّينى ، ثم افترقتا لتشكلا عالمين متنافسيْن : الرومانى البيزنطى ، والبرثى - الساسانى ، التحمتا وشكلتا وحدة اقتصادية من جديد بفضل الفتوحات الإسلامية .

وقد كان من نتائج التوسع الإسلامى فى العالم القديم إنتشار اللغة العربية - لغة القرآن - وهى اللغة المكتوبة ولغة الحديث ولغة العلوم ولغة الدواوين.

وأمام اللغة العربية اختفت الآرامية والسريانية ، واصبحتا لغتين مقدستين لاتستعملان إلا فى الكنائس ، كذلك اللغة العبرية لم تعد بدورها تدرس إلا بوصفها ، لغة ميتة ومقدسة ، فى محافل أحبار اليهود .

٤- نتائج الفتح الإسلامى :-

من الناحية السياسية : قيام دولة إسلامية فى رقعة فسيحة من الأرض ، كان الخليفة هو الحاكم الأعلى فيها .

من الناحية الدينية : انتشار الإسلام ، ذلك الدين الذى يقوم على القرآن الذى أُوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن الناحية اللغوية : أدى الفتح الإسلامى إلى اتساع إنتشار اللغة العربية . ومن الناحية الإقتصادية : نجم عن الفتح الإسلامى إتحاد أراض مختلفة فى تكتل اقتصادى كبير .

من خلال هذا المنطق نحب أن نؤكد على حقيقة هى : أن الحضارة الإسلامية من أهم ماعرفه التاريخ من اشكال الدولة الالهية ؛ لذلك كان الإسلام هو الصيغة المناسبة ، والمثلى ، فى تحرير التاريخ الإنسانى من وطأة امبراطوريتين هما : امبراطورية الفرس ، وامبراطورية الرومان . فقد استطاع العرب بفضل الإسلام ان يعصفا بهما معا ، وبقى الإسلام بعدهما ، حقيقة تاريخية مفردة على الساحة العالمية دون منازع يغير مجرى التاريخ .

من الواضح الجلى – كما يقول مارسيل بوازار فى كتابه : تحليل بعض الصور عن الإسلام فى ضوء مكونات الرأى العام الغربى : " **ان المسلمين لايحملون فى أعماقهم افكاراً مطبوعة ومشوهة عن الغرب ، بقدر ما يحمل الغربيون منها عن الإسلام ، وذلك لأسباب ثقافية وتاريخية** " .

أما عن الإنسان الغربى ، فان هناك أسبابا رئيسية من قبل الغرب ، جعلته يحمل أفكارا مشوهة عن الإسلام والمسلمين ، وهى متنوعة : دينية ، ونفسية ، وتاريخية وثقافية وسياسية ، والآن أيضا اجتماعية واقتصادية ، وهى أكثر قدما من سوء التفاهم الناشئ من تفسير الأحداث المعاصرة .

* **أما عن الإسلام بالنسبة للشرق** : فهو أيقظ الشرق السامى من سباته الطويل فملك نفسه بعد إذعانه للغرب الأوربى مدة الف سنة .

* **وأما الإسلام بالنسبة للغرب** : فهناك مواقف بين الإسلام وبينه نجملها فيمايلى :

أ) مواقف الإسلام أمام الرومان منذ الغزوات " تبوك واليرموك " .

ب) فتوح العرب فى صقلية والأندلس وجنوب فرنسا ، هذه الحروب كانت قبل ان تستيقظ أوربا من غفوتها إلى وعيها الثقافى الجديد .

ج) الاصطدام العنيف بين أوربا المتحدة وبين الإسلام تحت شعار الحروب الصليبية ، وترجع أهمية هذه الحروب الصليبية مع الإسلام ، إلى أنها عنيت فى المقام الأول ، والمقام الأهم ، بموقف أوربا من الإسلام لبضعة قرون حتى عصرنا الحالى ؛ لانها حدثت فى اثناء طفولة أوربا فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تفرض نفسها ، وكانت أوربا لاتزال في طور تشكيلها .

د) سقوط القسطنطينية فى يد الاتراك ، وبسقوطها فتح باب أوربا على مصراعيه للسيل الإسلامى .

من هنا : لم تبق عداوة أوربا للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب ، بل ذات أهمية سياسية أيضاً ، وهذا مانراه فى أشتداد تلك العدواة .

والشعوب كالأفراد إذا أعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التى تحدث فى أوائل الطفولة ، تظل مستمرة ظاهرة مدى الحياة ، وتظل تلك المؤثرات محفورة عميقة ، حتى انه لايمكن للتجارب العقلية فى الدور المتأخر من الحياة – المتسمة بالتفكير أكثر من اتسامها بالعاطفة – أن تمحوها إلا بصعوبة ويندر أن تزول آثارها تماماً .

هكذا كان شأن الحروب الصليبية ، فانها أحدثت أثراً من أعمق الآثار ، وابقاها فى نفسية الشعب الأوربى .

من هذه التجارب التاريخية : اعتبر الغرب المسيحى الإسلام منافسا له منافسة عدائية اصطبغت بصيغة " ايديولوجية " وخاصة فى العصر الوسيط ؛ لذلك نظم الغرب ، غزوه المسلح تحت راية الحروب المقدسة ، وغاب عن

الغرب الذى راح يبشر بالمسيحية تحت وطأة الحرب الصليبية فى الشرق أن المسيحية هى دين شرقى أولا ، وأن الإسلام يرى فى المسيحية أنها دين سماوى ثانيا ، بيد أنها ليست خاتم الأديان إنما الإسلام يكملها .

يقول مونتجمومرى وات فى كتابه " فضل الإسلام على الحضارة " : **لقد كان لشعور أوربا الغربية بالنقص عند مواجهتها للحضارة الإسلامية جوانب متعددة ، فالتكنولوجيا الإسلامية ، كانت متقدمة عن التكنولوجيا الأوربية فى كثير من الميادين . ويمكن القول بوجه عام ، ان مشاعر الأوربيين الغربيين المعادية للإسلام ، لم تكن تختلف عن مشاعر طبقة محرومة فى دولة عظيمة .**

٥- القوة الاستراتيجية للعالم الإسلامى :

وكانت دولة الإسلام ، تملك اثناء القرون الأولى لها ، قوة كافية تتيح لها ان تلعب دور وضعيتها المتوسطة ، وتحتفظ بالمبادءة فى السياسة العالمية . اما الغرب والهند والصين ، فكانت محتفظة بمواقف دفاعية ، أو مطبقة مبدأ العزلة . وقد تغيرت الوضعية منذ القرن الثامن عشر ، وأصبح الإسلام منذ ذلك الوقت – وهو منتصف العالم القديم – مسرحا للمنازعات الاجنبية ، لان قارة متوسطة ، لاتستطيع الانسحاب والبقاء فى حالة العزلة ، كما استطاعت الصين والهند الاحتفاظ بنفسيهما خلال أدوار طويلة من تاريخها .

وقد أدركت الدول الكبرى إبان عصر السياسة العالمية الكبرى ، ان مفاتيح العالم موجودة فى القارة الإسلامية وخصوصا فى الأصقاع الوسطى التى اعتاد الاوربيون أن يدعوها " الشرق الادنى والأوسط " . والدول الكبرى التى تستطيع أن تنشر نفوذها حتى الخليج الفارسى ، والنيل ، والأندلس ، تصبح قادرة على اخضاع كل الكتلة القارية فى العالم القديم لارادتها ، ويقابل ذلك سيادة بحرية ، تستطيع حفظ التوازن اللازم لسلامتها حين تستولى على

المفتاح الوحيد المشترك بين آسيا وافريقيا وأوربا وهذا المفتاح العالمى - كما يقول فرنو فى كتابه يقظة العالم الإسلامى - يحتفظ به الإسلام .

٦- التوجه الغربى إلى الشرق :

قال بونابرت بعد انتصاراته الشهيرة فى ايطاليا للمسيو بوريان صديقه وكاتم أسراره : " **ان أوربا وكر فأر وليس ثمة امبراطورية عظيمة إلا فى الشرق** " .

ومن هنا بدأ الغرب يدرس الشرق بما اتيح له من وسائل ، لفرض سياسته ووصايته عليه .

٧- تاريخ مصطلح مستشرق :

يرى أربرى فى كتابه الدراسات العربية الإسلامية فى الجامعات الألمانية ، أن أول استعمال لكلمة (مستشرق) رأيناه فى سنة ١٦٣٠ حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية . وفى سنة ١٦٩١ وجدنا " انتونى وود " يصف " صموئيل كلارك " بإنه " استشراقى نابه " يعنى بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية . وفى خلال المجادلة التعليمية بالهند التى جسمها تقرير " ماكولى " الشهير سنة ١٨٣٤ كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين ، بينما سمى معارضوهم الذين رغبوا فى ان تكون الانجليزية أساس التعليم بالهند بالمستنجلزين .

ومما يؤسف له ، كما يقول اربرى ، ان ماأنتجه هذا النزاع المشهور من الحزازات قد ألصق باسم المستشرق قدرا كبيرا من القدح والنقد . ولا شك ان تشارلز دونى فى كتابه : " المستشرقون البريطانيون " كان يشير الى ذلك حيث يقول : (ان الشمس جعلتنى عربيا ولكنها ماشوهتنى قط بالاستشراق).

علم الاستشراق :

يقول بارت : الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة ، وأقرب شيء اليه اذن أن نفكر في الاسم الذى أطلق عليه : كلمة **استشراق** مشتقة من كلمة **شرق** .

وكلمة شرق تعنى مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو : علم الشرق أو علم الشرقى . والامر الى هذا الحد واضح كله ولكن مامعنى كلمة شرق فى هذا المقام بالذات ؟

يرى جويدى فى كتابه " علم الشرق وتاريخ العمران " : سمو الوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب ، وانما هو " علم الشرق " بل نستطيع ان نقول ، ان غرض هذا العلم الاساسى ، ليس مقصورا على مجرد درس اللغات أو اللهجات او تقلبات تاريخ بعض الشعوب كلا .. بل من الممكن ايضا ان نقول : انه بناء على الارتباط المتين بين التمدن الغربى والتمدن الشرقى . وليس علم الشرق الا بابا من ابواب تاريخ الروح الانسانى ، وليس صاحب علم الشرق ، الجدير بهذا اللقب ، بالذى يقتصر على معرفة بعض اللهجات المجهولة او يستطيع ان يصف عادات بعض الشعوب ؛ بل انما هو من جمع بين الانقطاع الى درس بعض انحاء الشرق ، وبين الوقوف على القوى الروحية الادبية الكبيرة التى أثرت على تكوين الثقافة الانسانية ، وهو من تعاطى درس الحضارات القديمة ، ومن أمكنه ان يقدر شأن العوامل المختلفة فى تكوين التمدن فى القرون الوسطى مثلا او فى النهضة الحديثة .

وعلم الشرق هذا علم من علوم الروح ، يتعمق فى درس أحوال الشعوب الشرقية ، ولغاتها وتاريخها وحضارتها ، ثم يستفيد من البحوث الجغرافية والطبيعية ، وجدير أن يسمى كما سميناه درس تاريخ الروح الانسانى من

جهة نظر الشرق ، لان اظهار قوى الروح واستعدادها يختلف باختلاف الزمان والمكان .

لكن جويدى يرى : ان علم حوار الحضارات - علم الروح الانسانى - او علم تطور المناسبات الثقافية .. بذلك التعريف إنما يمثله المستشرقون الاكاديميون والمنصفون من مؤرخى الحضارات .

٧- تصنيف الاستشراق :

يذهب بعض النقاد للاستشراق الى محاولة التخفيف من النقد الهجومى عليهم بما يحاوله من ايجاد تصنيفات عقلية ، **الى ان هناك ثلاثة مستويات للاستشراق :**

* معتدل فى رؤيتة وهو الجامعى الاكاديمى .

* مستوى يتوسط بينهما .

* متطرف وهم الذين نبتوا فى حضن الاستعمار .

وذلك من حيث هى قسمة عقلية مقبولة ، غير انها خالية تماما من الصدق لان الخارج ، وهو الواقع لايخضع لها ولا تلقى قبولا بين اوساط النقاد للدراسات الاستشراقية .

فنرى ، ادوار سعيد فى كتابه الاستشراق ، يقسمه الى :

* الاستشراق الجامعى .

* الاستشراق المسيحى الغربى او الدينى .

*الاستشراق المعلن المبطن .

* الاستشراق السياسى .

ويذهب مكسيم روديستون الى تقسيمه الى ثلاثة تيارات :

* تيار عرقى : يقوم على الشعور بتفوق الغرب واحتقار جميع الحضارات الاخرى .

* تيار رومانسى تغريبى : يستنشق بمتعة عبق الشرق ، ويزيد هذه المتعة فقر الشرق المتزايد .

* وتيار علمى تخصص اهتمامه الاساسى على ماضى الشرق .

وهناك تقسيمات أخرى مثل :

* تيار تقليدى وهو الذى ساير الاستعمار وجعله أداته .

* تيار تجديدى يعطيه الباحث ، ادوارد سعيد ، سمة واحدة تحت مسمى واحد وهو : **(مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق)**

٨- الاستشراق الصليبى والصراع مع الاسلام :

حينما اقتحم الغرب الاستعمارى ، الشرق باسلوب غير حضارى - بجحافله الصليبية - وجده معينا لا ينضب للأثراء المادى الاوربى ، ومشاريعه الاستعمارية . كما وجده ايضا ذا حضارات قد شكلت ملاذا من الازمات الروحية والثقافية التى تهب على اوربا بين فترة واخرى من باب الاندلس الذى انفتح واسعا على اوربا فظهرت ملامح الفكر الفلسفى منذ ١١٠٠ متمثلة في اغاني (التروبادور) والشعر الوجدانى ..... وفلسفة ابن سينا الالهية وخاصة كتابه " رسالة فى العشق " وفلسفة الرازى .....

كما ان ، ما جنته فرنسا من غنائم " فى الحرب الصليبية - التى تعتبر فى علم التاريخ ، بداية للسياسة الاستعمارية فى فرنسا فى الشرق - من مخطوطات ومكتبات وآثار وتحف فنية غيرت الى حد كبير طابع تصورات الاوربيين عن الشرق ، وقرب الصورة الشرقية من الواقع ، وحلت المعلومات الصحيحة فى ميدان الجغرافيا محل التصورات المفعمة بالخيال .

وكان الاحتكاك المباشر بالشرق ، طيلة فترة الحكم الصليبى للشاطىء الشرقى للمتوسط ، مساهما فى معرفة الشرق على حقيقته وعلى كنوزه وثقافته وانه ليس بالمتعة والجنس وعالم المتناقضات .

ومما زاده عجبا الى حد الالم ، فشل الحروب الصليبية فى السيطرة على الشرق ، سياسيا وعسكريا .

وماكان ليتأتى للغرب بعد الوقوف على حقيقة الشرق ، وفشل الحروب الصليبية ان يكون أمينا على نقل صورة الشرق،، وكيف يكون امينا وقد تعلم منه درسا فى الهزيمة ، جعله لايستطيع نقل صورة غير التى نقلها ، صورة سلبية ساهمت فى تشويه الشرق المسلم ، ويرى عجز الغرب واضحا امام الشرق وثقافته فولّد لديه الشعور بالنقص والعجز عن انتاج ثقافات روحية امام ميول الغرب المادية .

وفى اعقاب الحروب الصليبية ، اتسمت علاقة الغرب الاستعمارى بالتناقض والازدواجية ، فمن جانب ، ظهر الموقف الايجابى من الفكر الفلسفى والعلمى والجمالى الاسلامى ، ومن جانب آخر ، ظهر الموقف العدائى من الاسلام كدين ونظام اجتماعى واخلاقى ، فدخلت الثقافة الاسلامية عصر النهضة ، بوصفها ركنا أساسيا من أركان النهضة الثقافية ، سواء فى تأثير انجازاتها العملية والفنية المباشرة ، بوصفها الجسر الذى عن طريقه تعرفت اوربا على منجزات الحضارات القديمة وخاصة اليونانية ، والرومانية ، والاسلامية . وقد كرس تلك العلاقة العدائية بالاسلام دانتى اليجيرى ، وهو من أشد المستشرقين سواء فى عمله الشهير (الكوميديا الالهية) الذى جسد الروح الصليبية فيها ، وهى الملحمة الشعرية الدينية المعبرة عن التصور المسيحى للعالم الارضى وعالم الآخرة والتى مثلت الفكر المسيحى الفلسفى والجمالى لقرون طويلة ، وألهمت أعلام النهضة فى شتى مجالات الفن والإدب والفكر ، فقد أظهرت آخر الدراسات العملية الاوربية مؤخرا أثر الاسلام ، ورؤيته للعالم الأخر ، وأثر العديد من المفكرين المسلمين (ابن عربى ، وابن سينا ، ابو العلاء المعرى ، ابن رشد ، ابن

مسرة ، الغزالى ، الفرغانى ، وغيرهم) على فكر دانتى ، من خلال اطلاعه على الترجمات التى ظهرت فى عصره فى اسبانيا وخاصة كتاباته المتضمنة للرواية الشعبية العربية – الاسبانية لمفهوم الاخرة ، فقد عكس دانتى فى (الكوميديا الالهية) موقفا تقيمياً ايجابيا للفلسفة الاسلامية واعلامها ، وموقفا عدائيا من الاسلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، مكرسا صورة الدين المسيحى (الحق) معتبرا الاسلام (كفرا) و (هرطقة) . وهو أول من قارن صورة القديس فرانسو الاسيزى المؤمن " الحقيقى " وصورة السلطان المسلم " المتعجرف " والكافر ، مثنيا فقط على السلطان صلاح الدين الايوبى ، حيث برزت صورته إيجابيةً فى مجمل نظام الدولة الاسلامية . وهذا الموقف هو نتيجة مباشرة لفشل آخر الحملات الصليبية على الشرق الاسلامى ، التى تمت فى زمن شباب دانتى .

ان تأثير دانتى على نشوء الثقافة القومية الايطالية ، وعلى منظومة الفكر الاوربى للنهضة ، شمل ايضا تأثيره على مجمل فنانى عصره فى علاقته بالاسلام دينا وفلسفة ، وتأثير دانتى ، والكوميديا الالهية ، لم يفقد وزنه حتى القرن التاسع عشر اذ تعتبر الكوميديا الالهية ، احد المصادر الاساسية التى لجأ اليها الرومانسيون ، كمعين فنى وابداعى ، ولا سيما ان ترجمتها الى اللغة الفرنسية قد ظهرت فى فرنسا عام ١٨١٣ إبان فترة الحماس لدراسة تاريخ القرن الوسطى المسيحى والاوربى مع تطور علم التاريخ فى فرنسا آنذاك .

لعل عقدة النقص والكبت والعدوانية والمعاناة التى سادت اوربا بعد ملاقاتها الاسلام فى دياره هى التى زجت بفرويد لبحثها .

كذلك حافظ الغرب ، على امتداد تاريخه ، وفى وعيه الجماعى – على صورة أثمة للاسلام ، صورته هو الخاصة ، صورة الأسى للأم المشوهة ،

تذكر تذكيرا عربيا بالمظاهر الخادعة (مغادرة افلاطون) . الغربيون المحافظون يقولون بأن الغربين استنبطوا بطبيعة الحال القيم اليهودية – المسيحية التى غدت بذلك وفى الوعى الجماعى – تبريرات ضمنية تفسر كثيرا من الوان السلوك العصية عن التفسير ، واللاعقانية فى الظاهرة ، هكذا ففكرة الشعور بالذنب راسخة عند الغربيين وتشكل رؤيتهم للعالم والانسان ، بحيث باتت احد المبررات الضمنية الاشد قوة التى تبرر المسبقات والتصرفات حيال " الآخر المذنب " وهو بطبيعة الحال " الآخر " هو الاسلام والمسلمون والدول الاسلامية .

بامكاننا فى هذا الصدد الاستشهاد المفيد بأرنست رينان الذى القى خطابه الافتتاحى فى الكوليج دوفرانس ، حول " نصيب الشعوب " السامية فى تاريخ الحضارة فى ٢٣ فبراير ١٨٦٢ . يلاحظ فانسان مونتاى بأننا نعيد قراءة هذه السطور اليوم بذهول : " فى هذا الوقت المناسب ، الشرط الاساسى لتمكين الحضارة الاوربية من الانتشار ، هو تدمير كل ماله علاقة بالسامية الحقة ، تدمير سلطة الاسلام الثيوقراطية ، لان الاسلام لايستطيع البقاء إلا كدين رسمى ، وعندما يختزل الى وضع دين حر وفردى ، فانه سينقرض ، هذه الحرب الدائمة ، الحرب التى لن تتوقف ، الا عندما يموت آخر أولاد اسماعيل بؤسا أو يرغمه الارهاب على ان ينتبذ فى الصحراء مكانا قصيا . الاسلام هو النفى الكامل لأوربا . الاسلام هو : التعصب ، الاسلام هو احتقار العلم ، هو القضاء على المجتمع المدني ، انه سذاجة الفكر السامى المرعبة وضيق الفكر الإنسانى ، يغلقه دون كل فكرة دقيقة ، دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحْث عقلانى ؛ ليضعه أمام حشو سرمدى . الله هو الله . المستقبل إذن لاوربا ولأروبا وحدها ، ستفتح أوربا العالم وتنشر فيه الدين الذى هو

الحق ، الحرية ، احترام البشر ، هذا الاعتقاد القائل بان ثمة شيئا ما إلهيا فى صلب الإنسانية " .

يضيف مونتاى بان " لكل تعقيب من شأنه إضعاف هذا النص ، الذى كان مؤلفه يحيا فى ظل الامبراطورية الثانية وسينتشر فى السنة التالية كتابه الرنان : حياة المسيح " .

يقول الحبيب الشطى :

" لاشك ، ان هذا النص يلخص تلخيصا باهرا كل الشعور بالذنب الغربى المسقط على الإسلام ، كبش الفداء ، الذى تقدم عنه صورة مشوهة تشويها عميقاً . وفوق ذلك يمكننا أن نقول دون إعتراض بأن الغرب عندما حاكم الإسلام توقف غالبا عند أشكال ديننا الخارجية ، عند بعض المظاهر . وهكذا فأن الغربى العادى لايمشى أبدا أبعد من تعدد الزوجات ، من الحجاب ، من عقوبة السرقة وعقوبة الزنا ، وهذا مايمنعه من فهم جوهر ومبرر المؤسسات الإسلامية " .

٩- الاستشراق الاكاديمى وضعف صوته :

يقول بارت : لم يتبع تطور الاستشراق من مرحلة التحول النهائى إلى علم قائم على النقد التاريخى ، طريقا مباشرة مستقيمة ، ولم يتم للاشتغال بالشرق وبمحمد وبالدين الذى نشره – التحرر من طريقة البحث اللاهوتية المبنية على الدفع والمشاحنة – إلا فى العصر الحديث وتدريجياً .

ولكن الجهود التى بذلت لانصاف عالم الشرق ورسم صورة له مستمدة من المصادر ، تعرضت من حين لآخر لاتجاهات اعترضت سبيلها ، أو غطت عليها وأدت إلى تشويه صورته .

ويرى بارت ، أن تطور الاستشراق وتشكله كعلم لم يكن سهلا إنما كانت تكتنفه صعوبات كثيرة منها : مدى استعداد الناس (الغرب) للانصراف عن

الآراء السبقية وعن كل لون من ألوان الأنكار الذاتى ، ومدى إعترافهم لعالم الشرق بكيانه الخاص الذى تحكمه نظمه الخاصة ... فعندما اجتهد بعض المستشرقين فى نقل صورة موضوعية قائمة على النقد التاريخى ، ماستطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وذلك بسبب تلك العوائق ، ولكن الجهود متجهة إلى فهم الموضوعات فهما موضوعيا .

وانه ظهرت دراسات تحمل هذا المعنى العلمى الموضوعى ذات تأثير متنوع ترى فى النبى العربى : أنه أداة الله ، ومشرعاً وحكيماً ورسولا للفضيلة وناطقاً بحكمة الدين الفطرى مبشراً به . غير أنه وضعت أمامه عدة عوائق تحول بين دراساته المنصفة وأنتشارها منها :

أولاً : أن أعمال الاستشراق الاكاديمى الذى تبنى موضوعية الحقيقة التاريخية للإسلام ، كانت تقدم فى أكثر الاحيان برطانة علمية معينة يصعب على غير المتخصصين استيعابها .

ثانياً : أن الغالبية العظمى للاستشراق تنتمى إلى مراكز العلوم الاستعمارية فى المانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا . وكانت الغاية التى يهدف إليها الاستعمار من إنشائه " هو تفهم العقلية الإسلامية على أحسن وجه ، لتسهيل إدارة الشعوب الإسلامية فى النطاق الاستعمارى " .

ثالثاً : يقول أنور عبد الملك فى بحثه " الاستشراق فى أزمة " : أن المستشرقين ابتداء من " رينان " إلى " جولد تسيهر " إلى " ماكدونالد " إلى " جب " و " برنارد لويس " ، كانوا يعتبرون الإسلام " مركبا ثقافيا " يمكن دراسته بعيدا عن اقتصاديات الشعوب الإسلامية وخبراتها الإجتماعية ونظمها السياسية ، إلى أن جاء علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الذين إهتموا بالإسلام واتبعوا فى دراسته مناهج جديدة ، تعالج الإسلام كظاهرة دينية واجتماعية شديدة التعقيد ووجدوا كم أخطأ المستشرقون .

رابعاً : يشهد التاريخ الاستشراقى على أنه أسهم فى انتاج العداء للعرب ، وبالتالى أسهم فى استباحة عنصرية للوجود العربى كما ساعد حين استطاع على إستلاب المعالم الحضارية والإسلامية سواء بخفضها أم بازدرائها .

وهو هنا ليس انتقاداً ، وإنما بنية تاريخية ، وحقيقة لم تعمل القوى الاستعمارية على إخفائها فى ذلك العصر .

وكذلك يمكن اتهام الاستشراق بافراز الانطباعات العرقية والامبريالية والمذهبية ، والمحافظة عليها . وفى نفس الوقت مؤاخذته أيضاً على رفض تحليل الأمور السياسية الحقيقية ، والمتعلقة بمشاكل الدول الإسلامية فى عصرنا هذا .

وفى الواقع ينبع الضعف الأساسى للاستشراق حالياً ، من تقوقعه فى أغلاله القديمة ، ومن هيكلياته المثقلة بالتقاليد الاكاديمية ، والتخصص المهنى إلى أبعد حد ممكن .

١٠- مراجعــات :

التخلف واستراتيجيات التنمية والإسلام :

وفى الوقت الذى تحتل مفاهيم " التخلف واستراتيجيات التنمية " فى هذه الدراسات بورة الاهتمام ، فقلما تتعرض للاسباب التى أدت إلى طور التنمية الحالى . ومازال الجزء الغالب من الابحاث متأثراً " بنظريات التحديث " التى ترى أن تغير القيم والمعايير والبنى الموروثة ، لايتم إلا تحت ضغط وتأثير النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والغربية الأكثر تفوقاً . وتغفل دراسات التحديث هذه غالبا ، الابعاد التاريخية لموضوع البحث ، وإن تضمنت خلفيتها النظرية مقولة ان البنى الدينية هى المسئولة فى المقام الأول عن نسق القيم والمعايير " المتخلفة " فى العالم الثالث . وتنتظم فى هذا الاتجاه تلك الافكار التى تعتمد أساساً على أعمال " ماكس فيبر " والتى تحمل

الإسلام ، مسئولية إعادة تطور وتنمية القيم والسلوكيات والبنى ، التى تبث الفاعلية فى الحياة الاقتصادية والتى ترشد الحياة الاقتصادية فى النظم الرأسمالية .

ويجد هذا التراث العلمى الذى يرى فى الإسلام سبب الأسباب ، ترديداً مشوهاً له فى الكتابات السياسية اليوم . ويغفل هؤلاء أن السيطرة الامبريالية والتفوق الاستعمارى ، قد لعبا دوراً جوهرياً فى التطور المتدنى لتلك المنطقة .

يعلق بيتر بافلكا بقوله : لن يجد دارس العلوم السياسية الذى يهتم بالبعد التاريخى ضالته فى هذه الدراسات . وتكفى بعض القراءات السريعة فى تاريخ الشرق ، لطرح عدد من القضايا التى تعالج حتى الآن ، كيف يتفق على سبيل المثال الادعاء بان الإسلام يعرقل التطور الإقتصادى والإجتماعى مع سيطرة النظم العربية فى القرون الوسطى على التجارة الدولية ؟!

كيف حدث أن مصر العربية فى القرن التاسع عشر ، كانت إلى جانب اليابان ، البلد النامى الوحيد ، الذى حاول تشييد قاعدة صناعية مستقلة ؟ هل من الصحيح القول : ان الرأسمالية والامبريالية والاستعمار ، هى وحدها المسئولة عن المستوى المتدنى الحالى لتطور الشرقين : الأدنى والاوسط ؟ هل هناك أسباب أقليمية مميزة لتخلف المنطقة أكثر أهمية من التفسيرات الدينية ؟

تختلف التفسيرات إختلافاً كيفياً ، حول العوامل التى أدت إلى إنهيار النظام العربى الإسلامى :

يرى التفسير السياسى فى تفتت السلطة ولامركزيتها ، وفساد الصفوة السياسية ونضوب الموارد الاقتصادية ، الاسباب الرئيسية للازمة التى انتهت بالعجز عن مواجهة الخصم العثمانى . بعد عقود من الازمات الإقتصادية

والاجتماعية والسياسية ، تمكن الاتراك عام ١٥١٧ من غزو الدولة المملوكية ، وعانت الدولة العربية تحت الحكم العثمانى ، فى القرون التالية ، فترة من الانحطاط الاقتصادى والاجتماعي والحضارى ليس لها مثيل . وانتهت الفترة بنهاية القرن الثامن عشر ؛ لتصبب بعد ذلك فى عملية من " التشويه المنظم " على أيدى القوى الأوربية .

ومما يضاف إلى ضعفه ، ان معارفه العلمية الصحيحة عن الإسلام والعرب يتراكم بعضها فوق بعض دون ان يعمل على نشرها . لذلك كان تأثير الاستشراق العلمى على الرأى العام الاوربى أقل .

ويرى فكتور سخاب : ان المستشرقين المنصفين للحضارة العربية يمثلون ظاهرة فى الفكر الاوربى ، ولايمكن بأى حال من الاحوال ان تمثل موقفاً سياسياً عاماً ولاجزئياً ولاتمثل موقفاً اجتماعياً أوربياً تجاه العرب .

١١ - خصائص ثقافة الاستشراق الاستعمارى :

فأينما ذهب الغرب ، نشر حيث ذهب ، ثقافة استعمارية تعمل على اضعاف الروح المعنوية فى الشعوب التى نزلت بها ، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس فى تلك الشعوب . كما نشر بينها روحاً مادية ، قتلا للايمان والمبادئ الإسلامية ، وتوطيد اللاستعمار وآثاره .

ونحن نرى ان كل حضارة يرجى تجديدها لايمكن ان تجدد بمجرد النقل من حضارة إلى أخرى . كما أنه لايستطاع بعثها بالوقوف على الاسباب القديمة التى بليت واصبحت لاتحتمل مطالب الجماعة الجديدة .

كذلك لايجدى النقل الحضارى حجة فى تحضير الشرق وبعثه عن الأخذ من الحضارة الغربية بما يصلح للشرق وترك مالايصلح له ... لان القول بما يصلح ومالا يصلح تعبير مطاط يمكن لكل فرد ان يختلف مع الفرد الآخر

فيه ، وماذا عن جماعة ضعيف بنيانها فهى تضطرب كل يوم إلى ناحية مايقول به فرد من الأفراد هذا يصلح وهذا لايصلح .

قد يخالج بعضهم ، ان ذلك فعلاً مبدأ الحرية ، لاشك أن مبدأ الحرية مطلب أساسى لكل مجتمع حضارى ، وان مبدأ الحرية هو أساس لكل مافى الغرب من تقدم .

فلو نقلنا مبدأ الحرية الذى يستند إليه الغرب فى حضارته ؛ لرأيناه متهما فى الشرق ، بمنافاته لقواعد الاخلاق ولمقتضيات الفضيلة . فنحن نحرص على مبدأ الحرية ، ولكنه ينبغى أن يكون بمفهوم شرقى إسلامى .

إذن فيجب ان تتفق الحضارة المراد بعثها مع هذه الطبائع ، وفق تاريخها وقيمها ، وإذن فكل حضارة يراد توطيدها ، يجب ان تتصل بالماضى اتصالاً وثيقاً ، وقابلا لان يظهر ويثمر فيها .

الظاهرة الأولى : هذه الحرب المنظمة التى يقوم بها الاستعمار الاوربى انتصاراً لحرية العقل ، حرية مستندة إلى النظام الجامعى ، الذى يقرر البحث الحر الطليق من كل القيود ، والمستند إلى القواعد العلمية الصحيحة ، نراه لاينشرها فى مستعمراته ، فهذا ممثل انجلترا حين كان فى مصر – على سبيل المثال – ألم يكتب فى تقاريره ان مصر بغير حاجة إلى علماء بالمعنى الغربى وإنما هى بحاجة إلى موظفين مطواعين .

الظاهرة الثانية : يحاربون الدين فى بلادهم ، ثم ينشرون المبشرين الغربيين في كل مكان فى المدن الكبيرة والصغيرة بل فى القرى ، ويدعون إلى المسيحية ولايأبون التعريض بالإسلام .

الظاهرة الثالثة : يصدر الغرب الى الشرق من آثار حضارته أسواء ثمرات الغرب من الربح المادى مما يمده بأسباب الرخاء والترف . فتجارة الرقيق الابيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحى ،

كانت هي أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب فى الشرق : ولم يقدّم الغرب الى جانب هذا من صالح ثمرات حضاراته ما يستر سوءاته هذه .

الظاهرة الرابعة : أما عن خطته التى إنتهى اليها فهى عادة تشكيل العالم الاسلامى : سيا سيا وثقافيا واقتصاديا .

تصفية المظهر الانتقالى للعالم الاسلامى ، وعرفت هذه التصفية فى المحافل الدولية " بالمسألة الشرقية " توزيع تركة الرجل المريض ، واستلبت منه " فلسطين " ووقع الوطن العربى والاسلامى بين فكى الاستعمار : الغربى والشرقى .

ومازال الرجل مريضا .

– فتت الدولة الاسلامية الى دويلات وأمارات . . . واحكم بينها الحدود الجغرافية . وامعانا فى التفتيت اغراها بمبدأ الاستقلال القومى وحق كل شعب فى تقرير مصيره .

– وضع أشكالا متباينة من النظم السيا سية القائمة : فترى الجمهورى والملكى والسلطانى والاميرى والشيخى ؛ مما أضعف من شأن الدولة العربية وقلل من فاعليتها وأوقعها فى حرج مع المشكلات المعاصرة : السياسية والاقتصادية .

ثم ماذا بعد ذلك ؟ يقول حيدر بامات :

من النادر أن لاقى دين ما لاقى الاسلام من جمود وتشويه ، ومن النادر أن وجدت المبسرات البالغة الغلظة والمفتريات البالغة الوقاحة ، من الاعتبار لدى الجمهور الاوربى ما وجدت تلك التى نشرت حول محمد وتعاليمه .

وقد لوثت ذكرى المنازعات المخزية التى قام بها الغرب النصرانى ضد الشرق الاسلامى ، ولا تزال تلوث الاحكام حول الاسلام ، وما أكثر

الاقاصيص الشخصية التي تدور حول النبى ، وما أكثر الاساطير المستحيلة التي تدور حول تسلط الاسلام وتعصبه .

وللاسف ظلت هذه الخزايا التي بثها الغرب وفق خطه السياسى الاستعمارى في نفوس بعض المثقفين ، تمثل المنطلقات الاولى في فكرهم نحو الاسلام وفكره . ومن هذه المنطلقات (المزاعم) : أن الحضارة غربية ، والغرب هو التقدم والحضارة . **وهذه النتيجة الزائفة كانت قد نتجت من عدة مقدمات :**

- نظرية العرق التي تعنى التفوق الغربى على العربى الاسلامى .
- أن ثقافة العرب ثقافة صحراوية مما يعنى " الدونية " من أجل الانخراط في سلك التبعية الاوربية .
- الاسلام هو النموذج الحقيقى لعقلية العربى وثقافته الصحراوية .

فأفسد الاستشراق في مراحله الاولى مجرى تاريخ العلاقات بين أوربا والشرق ، فحفر مستنقعا بين النصرانية والعالم الاسلامى يصعب تطهيره من الشوائب والطحالب ، وما نجم عنه من انفصام بين الاسلام والعالم الغربى . ويجب ان نعترف بأن النصرانية والاسلام غير مسئولين عن هذه الخزايا ، فهو من عمل الرجال والاحوال ولم يكن من تعاليم عيسى ومحمد .

١٢ - الموقف الحالى للاستشراق :

هل يجدد الاستشراق من وظيفته بعد أن نالت هذه الدول الشرقية استقلالها وانحسر الاستعمار الاوربى ؟ لقد ظهرت قوى استعمارية حديثة تتمثل في القوى العظمى تحت وطأة هذا التغير الدولى وانهارت حدة الصراع الدولى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ... أصبح الاستشراق يبحث له عن دور يمكن أن يلعبه في دول العالم الثالث المستقلة ، والتي تقف من الغرب عموما موقف التحدى .

ولم يعد أمام المستشرقين إلا أن يسلكوا أحد طريقين أثنين :

– أما أن يستمروا فى بحوثهم ودراساتهم مثلما كانوا يفعلون من قبل – على حد قول ادوارد سعيد – فى موضوعات : التاريخ واللاهوت ، والجغرافيا ، والعلوم والفنون فى الشرق فى صورها الحقيقية والمتخلية . . . هل يظلون كذلك كما لو لم يكن شئ قد حدث .

– أو أن يعدلوا اساليبهم القديمة بحيث تتلاءم مع الاوضاع الجديدة .

وكلا الموقفين صعب ، وبالاخص أن الكثيرين من المستشرقين لا يكادون يعترفون بأن الشرق قد تغير أو يمكن أن يتغير .

ويبقى بعد ذلك كله طريق ثالث : وهو أن يسقط العلماء الغربيون ، الشرق من إعتبارهم ويطوى سجل الاستشراق للابد . ولعل ذلك هو الحل الوحيد أن لم يجدد من نفسه ورسالته ومنهجه وينفض روح الاستعمار من داخله .

ينبغى أن تتجه مركزية الاستشراق الى الدراسة المتعمقة للمشكلات الراهنة :

– التعاون المشترك بين أكاديميات البحث العلمى والجامعات ، بين الشرق والغرب من أجل إيجاد حلول مشتركة لمشكلات التخلف والتنمية ، ومعالجة ما خلفه الاستشراق الاستعمارى ، والنظر من جديد إلى الشرق على أنه مساهم فى الحضارة المعاصرة ومبدع فى الحضارات القديمة .

– خروج الاستشراق من تقاليده القديمة وصيغة المحوريه وقوالبه التى يستعملها مقدما مع دراساته للشرق الاسلامى والاسلام وتراثه .

خاتمة

يتضح مما سبق : أنه من الصعب بل من المستحيل أن يتم التعرف الصحيح على حقيقة الاسلام ، مادامت جميع وسائل الاعلام الغربية

والاكاديمية التى قدمنا طرفا منها بين ايديكم ، تنشر المفاهيم الخاطئة والانطباعات السيئة عن الاسلام والعرب .

لهذا يجب قبل الانطلاق فى أى حوار ثقافى متبادل أن نحاول تصحيح تلك المفاهيم ، وفق مصادرها العلمية ، وأن نحاول إيجاد قبول مشترك للمفاهيم التى يستعملها كل طرف من الاطراف .

أما اذا لم ننطلق من مفاهيم لها قدرها العلمى المشترك وإعتمدنا على منطلقات غير معتدلة ، فإن الحواز يصبح بكل تأكيد مغلوطا .

إن التفاهم الحقيقى والحوار المتكامل بين طرفين ، يتطلب إيجاد مساحة مشتركة من المفاهيم الفكرية المتفق عليها بين المتحاورين فى مجالات الاسلام الواسعة : المذهبية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية . . .

لذلك يجب التركيز على تلك المبادئ اذا أراد الغرب أن يقيم حوارا مع الاسلام وفق الركائز الاساسية التالية :

أولا : النظر من جديد الى حقيقة الاسلام من منابعه الاصيلة .

ثانيا : الحد من النظرة العرقية المشوهة للاسلام والعرب ، فقد حان الوقت لكى تنتهى عنصرية الأقوياء ولكى يأخذ الحوار مكانه .

ثالثا : أن تتوقف مكونات الرأى العام الغربى عن نشر الصور المشوهة والمريضة عن الاسلام والمسلمين والعرب .

وفى النهاية نقول أن خير وسيلة للحوار هى التفاهم المتبادل ، فهو دائما الأداة الثقافية الضرورية لتقدير الشعوب حق قدرها .

المحاضرة العاشرة

حاضر العالم الإسلامى ومستقبله

الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد

١٦ يناير ١٩٩٦م

٢٥ شعبان ١٤١٦هـ

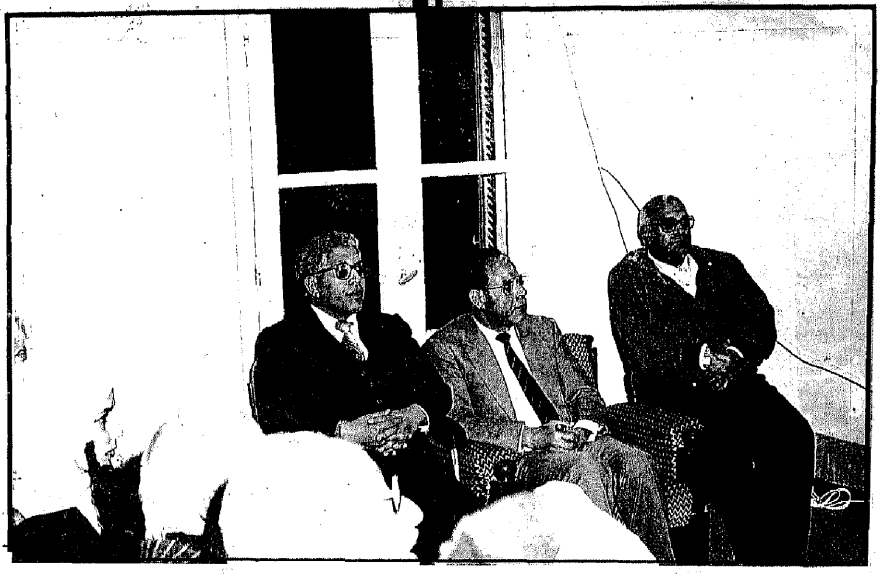

جانب من الحضور :

الدكتور عبد الهادى شرباش يتوسط الدكتور عارف الدسوقى والأستاذ سعيد صالح .

على المنصة : المحاضر الدكتور أحمد كمال ابو المجد وعلى يمينه الأستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم
المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / أحمد كمال أبو المجد ، من مواليد ٢٨ يونيو ١٩٣٠ ، بقرية بنى عدى القريبة من منفلوط محافظة أسيوط . وقد نشأ سيادته فى جو علمى ودينى ، فقد كان والده قاضيا ونائبا لرئيس المحكمة العليا الشرعية ، والتى كانت حينذاك تمثل فى قضاء الاحوال الشخصية ، ما تمثله محكمة النقض فى القضاء المدنى ، والمحكمة الادارية العليا فى القضاء الادارى .

ولقد تخرج محاضرنا من كلية الحقوق جامعة القاهره سنة ١٩٥٠ ، وحصل على الماجستير فى القانون المقارن من جامعة ميتشجان بامريكا ، ثم على الدكتوراه من جامعة القاهرة سنه ١٩٥٨ . وعمل مدرسا بكلية حقوق القاهرة سنة ١٩٥٨ ، ثم مستشارا ثقافيا ومدير المكتب الثقافى المصرى فى واشنطن سنة ١٩٦٥ ، ثم رئيسا للمجلس الاعلى للشباب سنة ١٩٧١ ،

فوزيرا للدولة لشئون الشباب سنه ١٩٧٢ ، فوزيرا للاعلام فى الفترة من ١٩٧٣ الى ١٩٧٥ .

وسيادته أستاذ القانون العام بجامعة القاهرة ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية أى هيئة كبار العلماء بالازهر الشريف . **وله مؤلفاته المتميزة فى القانون الدستورى ، والرقابة القضائية على أعمال الادارة . كما أن له دراساته المتعمقة عن المجتمع العربى ، وبحوثه العديدة فى المجالات الإسلامية : والتى نذكر منها على وجه الخصوص كتابه " حوار لا مواجهة " ، وكتيبه " رؤية إسلامية معاصرة / اعلان مبادئ " .**

ومحاضرنا الاستاذ الدكتور / أحمد كمال أبو المجد ، غنى عن التعريف ، فهو من أبرز ، وأصدق الشخصيات المعاصرة التى حملت هموم الوطن المصرى والمجتمع العربى ، والعالم الإسلامى . ولقد أفاده تدرجه فى العمل العام من القاعدة الى القمة ، مع إعتداله وتوازنه النفسى ، وتمتعه بقدرة القول الحق وإعطاء القدوة الطيبة ... فى أن يكون رائدا موفقا فى رؤياه الشاملة لمختلف مشكلاتنا المعاصرة ، وفى التأثير على الرأى العام ، بأفكاره الجديدة وحلوله العملية .

وأسجل بهذه المناسبة معبرا عن الكثير ، أننى حين اقرأ أو استمع للاخ الفاضل الاستاذ الدكتور كمال أبو المجد ، أرانى معجبا بتحليله وتأصيله ، وأتوقف ثم أسلم ، حتى فيما قد أخالفه فيه . وكل منا ، كلما أطال النظر والتأمل فيما كتبه أو يعرضه ، يجد فيه متعة روحية ، وروعة فكرية ، وبلاغة أدبية ، ولا نملك إلا أن نتفق مع تحليلاته ونتائجه .

هذا بعض ما يحضرنى عن شخص محاضرنا الفاضل ، أما بخصوص محاضرته عن (حاضر العالم الإسلامى ومستقبله) ، فاننى أتذكر دائما قوله تعالى (أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، وقول الرسول

عليه الصلاة والسلام (فئتان إذا صلحا ، صلح حال هذه الامة ، واذا فسدا فسد حال هذه الأمة : الامراء أى الحكام ، والعلماء أى أهل الشورى) . **وإنه فى كتابيه الإسلاميين النفيسين ، يضع أستاذنا الفاضل الدكتور كمال أبو المجد ، أيدينا على مواطن الضعف الحقيقى فى عالمنا الإسلامى ، ثم يرشدنا الى سبل النجاة والتقدم .**

فنراه فى كتابه (حوار لا مواجهة) يؤكد لنا بجلاء (أن أول سيف سل فى الإسلام ، قد سل على أعتاب نظام الحكم ، وكما قال بحق الامام الغزالى : الدين أساس ، والسلطان حارس ، وما لا أساس له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع) **ونراه فى هذا الكتاب يكشف لنا عن حقائق هامة غائبه :**

منها قوله : (ان عالمية الدعوة الإسلامية لا تقتضى بالضرورة وحدة الدولة الإسلامية) . **ومنها قوله :** (ان الدعوة الى التميز والخصوصية تحتاج الى أن توازنها دعوة أخرى الى توكيد العناصر المشتركة التى تعين على التواصل ، وتفتح أمام الحضارة الجديدة عقول الناس وقلوبهم ، خصوصا اذا كانت دعوتها انسانية وعالمية كما هو الشأن فى دعوة الإسلام) .

ومنها قوله : (انه ليس للإسلام باطن يستأثر به أقوام دون أقوام ، إلا أن تكون تجربة روحية ذاتية من حق أصحابها أن يخوضوها وأن يذوقوا ثمارها فى صمت وتواضع ، دون إن يشغبوا على جماهير المسلمين بحديث عنها ، كله رموز واشارات ، تضر ولا تنفع ، وتضل ولا تهدى ، وتهتز بها فى عقول المسلمين وضمائرهم الموازين) . **ومنها قوله** (إن الاجتهاد الذى نحتاج أليه اليوم ويحتاج اليه المسلمون ، ليس اجتهادا فى الفروع وحدها ، وإنما هو اجتهاد فى الاصول كذلك ... وليس ما تردده الكثرة الغالبة من المعاصرين من امتناع الاجتهاد فى الاصول ، إلا التزاما بما لا يلزم ، وتقصيرا فى بذل الجهد فيما ينفع الناس)

ومنها قوله (أن الجماعات الإسلامية طرحت في ساحة الفكر والسلوك قضايا جانبية وهامشية ، اختلت معها رؤية الأولويات في اطار التصور الإسلامى) . **ثم قوله** (ان الصحوة الإسلامية يجب ان تنصب على إبراز القيم والمبادئ التى تشكل العمود المحورى للتصور الإسلامى وللتنظيم الإسلامى على السواء) . ومنها قوله (ان التعجيل بالنهضة الداخلية للمسلمين ، هو تعجيل فى الوقت ذاته بأداء المسلمين لدورهم المنتظر، فى رد البشرية الى التوزان الذى ضاع بين مطالب المادة فى الانسان ومطالب الروح فيه) .

ونراه فى كتيبه (رؤية إسلامية معاصرة - اعلان مبادئ) يكشف لنا بأن (الحاجة الى رؤية إسلامية معتدلة ومستنيرة ، ليست فحسب أمرا مرتبطا بظروف العالم العربى والعالم الإسلامى وحدها ، وانما هى حاجة يفسرها تطور المجتمعات البشرية فى العالم كله ، والظروف الموضوعية التى تحيط بحياة الانسان المعاصر ... لقد أعطت الثورات الصناعية والعلمية ، للانسان المعاصر رخاء ويسرا ماديا ، ولكنها انتزعت منه الأمن والسكينة والانس بنفسه وحياته وبالآخرين) . **ولذلك كما ينتهى سيادته بحق** (ان الحاجة الى احياء قيم الإسلام ونشرها ، لم تعد حاجة موضعية قاصرة على المسلمين ، وإنما صارت حاجة عالمية لا فكاك للمسلمين من النهوض لأداء مطالبها فى غير إبطاء ولا تقاعس) .

إننى من أعماق قلبى ، أشكر الاخ العالم الفاضل الاستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، تفضله بتشريف الجمعية الخيرية الإسلامية بمحاضرته ، ويقدر له الجميع حرصه على إثراء الفكر الإسلامى وترشيد السلوك .

ولنذكر دائما بأنه ليست العبرة بالانتساب الى الإسلام أو التغنى به ، وانما العبرة بالسلوك وان يكون واقعنا تجسيدا لما نؤمن به ونقوله ، وهذا

وحده مقياس إسلامنا ومعيار ايماننا . فالإسلام هو العزة والتقدم وهو الطمأنينة والسلام ، والايمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

وليتفضل أستاذنا الفاضل ليحدثنا عن حاضر العالم الإسلامى ومستقبله ، جزاه الله عنا جميعا خير الجزاء .

كلمة الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون . . والعصر . .

شهد العالم خلال السنوات الثلاث الأخيرة سلسلة متصلة الحلقات من التغيرات الكبرى فى ميادين العلم والصناعة ، وفى موازين القوى السياسيه والاقتصاديه بين شعوب العالم . . وكان من ثمرات ذلك أن تساءل الأفراد كما تساءلت الشعوب عن مكانها المنتظر وعن مكانتها المرجوة على خريطه عالم يبدو جديدا فى الكثير من معالمه ، كما يبدو جديدا فى الأنساق والقواعد التى تحكم حركة الناس فيه . ولم يكن المسلمون استثناءاً من هذا الذى يجرى ، فتعالت الصيحات وانتشرت التساؤلات عن طبيعة العلاقات الجديدة التى ينتظر أن تربط المسلمين بسائر الناس فى هذا العصر الجديد . كما عكف الباحثون من العلماء وأولى الأمر من الحكام على دراسة الشروط اللازمة لدخول المسلمين إلى ساحة هذا العصر الجديد ، ولإحداث تغيير نوعى فى أوضاعهم يضمن لهم مكانه لائقة بين شعوب الدنيا ويحفظ علهم هويتهم الثقافية والحضارية ، كما يوفر الحماية لمصالحهم الاقتصادية والسياسة . ولما كان الأمر فى هذا ، أمر مستقبل ومصير ، فان إحكام منهج البحث فيه يغدو ضرورة لا يتصور التفريط فيها أو الترخص فى شأنها . . .

لأن مثل هذا الترخص موقع - لا محالة - فى أخطاء فادحة تدفع الأجيال المقبلة ثمنها الباهظ وتحتمل نتائجها وعواقبها الوخيمة .

لم يعد أمر هذا البحث يحتمل منهج المكابرة فى وجه الحقائق ، أو الاسراف فى الاعتذار عن الثغرات والنقائص ، أو التقصير فى رصد عناصر الواقع القائم عندنا وعند غيرنا . . أو الاكتفاء بالحديث عن أمجاد قديمة غابرة والاشتغال بذلك الحديث عن معالجة حاضر يوشك أن يفضى بنا إلى مستقبل قادم لا محالة ..

المنهج الصحيح الوحيد فى معالجة هذا الامرهو منهج رصد عناصر الواقع فى دقة واستقصاء ، وفى موضوعية وشجاعة . . . واستخدام هذا الرصد بعد ذلك - فى تغيير " واقع الأمة " التغيير اللازم لتحقيق نهضتها وزيادة قدرتها على مشاركة سائر الأمم والشعوب مسيرتها نحو هذا العصر الجديد الذى تتغير كل يوم معالمه ، وهى مسيرة تتسابق فيها الأمم بالقدرة وسرعة الحركة وقوة الفعل . ولا يجدى فيها - مطلقا - أى حديث عن ماضى مجيد ، أو وعد إلهى بالنصر نعلم جميعا أنه وعد مشروط باتباع السنن والأخذ بالاسباب . . وربط الكلمة الطيبة بالفعل الموثر ، وصدق الله العظيم " لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون "

وتناولنا لقضيه المسلمين والعصر ، تقتضينا - لذلك - أن نضع أيدينا فى وضوح تام على جوهر التغيرات الحادة التى أشرنا إليها والتى تجعل من المستقبل القريب عالما جديدا يحتاج الناس جميعا ، ونحن منهم ، إلى أن يتوافقوا معه ومع عناصره الجديدة . كما تقتضينا - بعد ذلك - أن نرصد واقع المسلمين ، بخيره وشره ، ما نحب منه وما نكره ، لنصل من ذلك كله إلى توجيه مسيرتنا نحو تغيير واقعنا ، استيفاءً لشروط النهضة ، واستشرافا لمستقبل أكثر إشراقا ، تستطيع فيه الأمة أن تؤدى دورها الحضارى الذى

بعثها الله لأدائه ، وهو دور ترشيد حركة الناس والشعوب ، بقيم الحق والخير والعدل التى أوحى بها الله سبحانه إلى رسله ، والتى توجتها الرسالة الخاتمة التى جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فاما العصر الذى نتحدث عنه ، فإنه يحمل سمات لا يخطئها أحد من الباحثين . . أولها أن الثورات العلميه والصناعية قد تعاقبت وتسارعت خطاها ، وصار التغير المترتب عليها يتم بمتوالية هندسية ، لأن كل اكتشاف علمي يحمل فى ثناياه جنين اكتشافات جديدة تتولد منه .

وقد وقعت هذه الثورات العلمية فى ميادين عديدة لعل اخطرها ما وقع فى مجالات المواصلات ومجالات الاتصالات . . . وقد كان من شأن هذه الثورات سقوط حواجز المكان وحواجز الزمان ، فتهاوت الاسوار الفاصلة بين الناس والشعوب ، وتحرك الناس بأجسامهم وحواسهم وعقولهم ومعارفهم من أدنى الأرض الى أقصاها ، وصاروا يستقبلون كل يوم آلاف الاشارات القادمة من كل فج عميق . . وصارت الدنيا – كما يقال بحق – أشبه بقرية واحدة وإن ظن أهلها غير ذلك .

كذلك شهد هذا العصر خلال السنوات العشر الأخيرة ظواهر سياسية واقتصادية جديدة . . على رأسها انهيار النظام الدولى الذى ظل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية قائما على الثنائيه القطبية ، وعلى التوازن الذى حققته هذه الثنائية بين ما كان يسمى المعسكر الحر من ناحيه وما كان يسمى المعسكر الشيوعى أو الاشتراكى من ناحية أخرى . . وفوجئت الدنيا ذات صباح باختفاء أحد القطبين كما لو كانت قدماه قد ساختا فجأة فى رمال ناعمة ابتلعته فى لحظات ، وتهاوت باختفائه نظريات ومقررات وفلسفات . . دون أن يكون ذلك – وحده – دليلا على صلاح القطب الباقى وما يمثله من قيم ورؤى وفلسفات . . ولا تزال الدنيا حائرة تنتظر قيام نظام دولى جديد . . لا

يستطيع أحد أن يزعم أن معالمه قد تحددت أو أن القواعد الضابطه للعلاقات فى ظله قد تم إقرارها والاتفاق عليها .

وشهد العالم – فوق ذلك – تراجع الدولة القطريه فى الميدانين السياسى والاقتصادى ، حيث تجمعت دول عديدة لتشكّل اتحادات وتجمعات اقتصادية ضخمة تجمعها مصالح واحدة وتنظم علاقاتها أنساق قانوية واحدة . . فتجمعت أوروبا . . وتجمعت أمريكا وكندا والمكسيك . . وصارت اليابان ومعها النمور الاسيوية الأخرى تشكل جبهة ثالثة أخرى . واختفت أو كادت التفرقة السياسية التى كانت مستقرة بين ما هو شأن داخلى للدول ، وما هو شأن دولى تملك المنظمات الدولية أن تتدخل باسمه فى شئون الأقطار المختلفة .

وأخيرا شهد هذا العصر احساسا متزايدا بظهور اخطار عالمية تشترك فى التعرض لها جميع الشعوب على اختلاف جذورها الثقافية وأصولها الحضارية . . فى مقدمتها أخطار تلوث البيئة ، ونفاذ الموارد الطبيعية ، وظهور أمراض وأوبئة تخطت حدود الدول وانساحت فى الأرض وأوشكت أن تهلك الشعوب . . كما تفاقمت وازدادت أخطار العنف الفردى والجماعى وأهوال الارهاب الحكومى والشعبى . .

وازداد الاحساس بالحاجة الملحة إلى جهود مشتركة تتخطى حدود الثقافات والمصالح القطرية . . لمواجهة هذه الأخطار الجديدة الطارئة . .

هذا – فى ايجاز – هو العصر الذى تواجهه الدنيا ، وهذا هو المستقبل الذى نتهيأ جميعا لا ستقباله . .

فكيف يستقبله المسلمون ؟

المسلمون اليوم يواجهون أزمات ثلاث :

١ - فهم فى مجال التقدم العلمى والاقتصادى أمه مسبوقه لم تسهم خلال المائه سنة الأخيرة إسهاما مذكورا فى النهضة العلمية التى تسارعت خطاها فى الغرب والتى أثمرت ما أثمرت من ثورات علمية وصناعية . . ظللنا نقنع بالتحدث عنها والتفرج عليها . . دون أن يكون لنا فيها عطاء مذكور .

والبلاد التى أخرج الله لها من باطن الأرض ثروات هائلة ، لم توفق فى توظيف هذه الثروات توظيفا يضعها فى مصاف الدول صانعة الحضارات . . إذا لا تزال أمتنا - على الجملة - أمة مستوردة ، وأمة مستهلكة . . لا هى منتجة ولا هى مصدرة . . . ولازلنا نعتمد فى غذائنا وكسائنا ودوائنا وسلاحنا على ما تنتجه وتنبيعه لنا أمم أخرى . . تتحكم - بذلك كله - فى مستقبلنا ومصيرنا .

٢ - والمسلمون - فوق ذلك - أمة منقسمة على نفسها لا تكاد تجمع أمرها على شئ . . . ولا يزال حكامها مختلفين بينهم . . ولا يزال التنسيق غائبا بين حركه أقطارهم . . ولا تزال " الوحدة " مطلبا يتحدث عنه الكتاب والساسة ، ويكذبه الواقع المعاش ويزداد - كل يوم - تنكرا له وابتعادا عنه.

٣ - والمسلمون - فوق ذلك كله - يعانون حيرة ثقافية هائلة ، تتوزعهم تيارات الجمود والرتابة والوقوف عند ظواهر النصوص وتقليد الأقدمين . . وتيارات التجديد ومحاولة التواصل مع العصر عن طريق تجديد الفكر ، ومتابعة الاجتهاد فى الفقه واتساع العقول والصدور للافادة من تجارب الآخرين . . . **ولا تزال الساحة الثقافية مشغولة بما يشبه الحرب الأهلية بين دعاة الجمود والتقليد . . ودعاة الاجتهاد والتجديد . . وهى**

حرب تستهلك طاقة الأمة ، وتكاد تقعد بها عن الحركة . . وتحول بينها وبين التوجه للمستقبل ومواجهة تحدياته القادمة والتى توشك أن تدق على جميع الأبواب .

والمسلمون – لذلك كله – يواجهون غربة عن العالم . . الذى أخذ يسئ الظن بهم ، ولا يريد أن يفسح لهم مكانا بين شعوبه . . والذى توجه تيار عريض من مفكريه وساسته إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين ، فى حملة مشبوهة البواعث تحتاج مواجهتها إلى جهد جهيد .

ولابد أن يصل بنا ذلك كله إلى السؤال الكبير . .

ماذا نحن فاعلون . . وما هو طريقنا إلى المستقبل ؟

والجواب الذى لا جواب غيره . . أن لله فى خلقه سننا لا تتبدل ، وقوانين لا يعفى منها أحد . . وأن النهضة ليست أمنية يتمناها الناس فيجابون إليها . . وإنما النهضة لها شروطها التى لا تتخلف . . من أخذ بها وصل . . ومن تخلى عنها لم يصل أبدا . .

وشروط نهضة المسلمين اليوم أربعة :

١ – أولها : إعلاء شان العقل من جديد فى ثقافه المسلمين وفى حياتهم كلها .. فلقد غيب العقل عن ثقافتنا وعن حياتنا اليومية .. وانتشر بيننا نوع من الغيبية التى لا أصل لها فى ديننا ، وتصور كثير من الناس أن النقل يغنى عن العقل .. وأن النصوص وحدها قادرة على تحقيق النهضة وإنجاز التغيير .. وذلك وهم عريق .. لابد من محاربته حتى تعاود الأمة انطلاقها على طريق النهضة ... **لقد أدركت شعوب الدنيا من حولنا أن " العلم " قد صار معيار التقدم وأساس تصنيف الشعوب إلى قوية وضعيفة ، وإلى متقدمة ومتخلفة** .. وأنه صار أكثر قيمة وفاعلية من الموارد الأولية والمواد الخام ومن الاسلحة المدمرة التى تكسب بها الحروب .

ومن هنا فإن تطوير أنظمتنا التعليمية والاعلامية والثقافية على النحو الذى يعيد للعقل سلطانه ، هو الشرط الأول من شروط تحقيق النهضة .. وستظل تلك النهضه مطلبا بعيد المنال .. إذا ظلت العقول معطلة .. والعلم غائبا .. والغيبية منهجا .. والقدرة على ممارسة النقد سنة متروكة وملكة ضائعة .

٢ – الشرط الثانى : أن تتخلى الأمة عن الكلام الكثير وعن اللفظية التى أغرقتها فى طوفان لا رجاء فيه ، وأن تتوجه إلى " العمل " الذى كان شعارا لحضارتنا التى يقول كتابها المنزل " وقل اعملوا " والتى يقول واقعها – مع ذلك – أن العمل قد تراجع تراجعا هائلا فى **كمه** ، وفى **نوعه** ، وفى اتقان **أدائه** ..

إن النهضة مسار وليست مجرد قرار . . والمسار يحتاج إلى عمل متواصل كثير لا مكان فيه لمتكاسل واحد ، ولا موضع فيه للقاعدين . .

والعمل الذى تتحقق به النهضة ، هو العمل " المنتج " الذى يضيف إلى الأمه قيمه جديدة . . وليس مجرد السعى الذى ننفق فيه الأيام والساعات .

ومن شروط هذا العمل حسن الأداء ، والاحسان والاتقان . . إذ لا يثبت فى ساحات المنافسه عمل غير مجوّد ، ولا أداء غير متقن . . والله تعالى قد كتب الاحسان على كل شئ .

ومن شروطه أخيرا الابداع الذى به يكون السبق عند المنافسة . .افسة . . والانتقال من حال إلى حال أفضل . . وبغيره يتعذر على الأمة أن تعوض سنوات التكاسل والتراجع والتخلف عن مسيرة الآخرين . .

٣ – الشرط الثالث : إطلاق النفوس من اسارها ، وتحرير الملكات من قيودها ، وتوفير الحرية للانسان المسلم .. فى حياته الشخصية والسياسية والاجتماعية ...

فالحرية شرط النهضة ، ومناط التكليف ، ومحرك الابداع . . وهى - فى حياتنا - وإن زعمنا غير ذلك ، سنة متروكة وفريضة غائبة .

فعلا قاتنا الاجتماعية تقوم على القهر . .

وأنظمتنا السياسية تقوم على الاستبداد . .

وحياتنا اليومية مهددة فى سائر حقوق الفرد وحرياته . . بدءا من حياته ومعتقداته إلى حقه فى التفكير والتعبير . . والذين لا يزالون - بعد كل تجارب الدنيا مع القهر والاستبداد - يتحدثون عن المستبد العادل ، عليهم أن يراجعوا أنفسهم بلا إبطاء . . وأن يتعلموا أن الحرية هى أول طريق الانعتاق من الذل ومن الجمود ومن الانتكاس . . فالعبيد لا يبنون الحضارات والمقهورن لا يقدرون على حمل تبعات النهضة وقيادة سائر الناس .

٤ - أما الشرط الرابع : فهو " تحرك الهمة " وعقد النيه . . ورب همة أحيت أمة . . وهذه الهمة هى التى تنقل الأمة من السكون إلى الحركة ، ومن الإنكفاء على الماضى إلى التوجه للمستقبل . . ومن الترهل إلى الانضباط وإحكام خطى السير واستبصار طريق المستقبل . . وهى التى تنقل الجيل كله من الحيرة والاحباط إلى الأمل واتساع الرجاء .

بقى أن ندرك جميعا أن رحى السباق دائرة وأن الزمن يتحرك فى سرعة هائلة ، وأننا لا نملك ابطاء الخطى أو التردد فيها ، كما لا نملك - أبدا - أن ننعزل عن الدنيا أو أن نعتزل القافله .

وإذا كان المؤمن القوى خيراً وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. فإن سبيل القوة - اليوم - هو الايجابية والاقدام ، لا السلبية والانسحاب ..

ولا موضع بعد هذا لتردد ، ولا مكان لعجز . . ولا عذر لمتخلف . .

" والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .

وفقنا الله واياكم سبل الرشاد .

المحاضرة الحادية عشرة

نماذج من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

الأستاذ الدكتور منصور محمد حسب النبى

٥ مارس ١٩٩٦م

١٥ شوال ١٤١٦هـ

جانب من الحضور :

من اليمين السيدة ليلى بهى الدين بركات والوزير المهندس حسب الله الكفراوى والأستاذ المستشار عبد الفتاح حسن مدير عام الجمعية

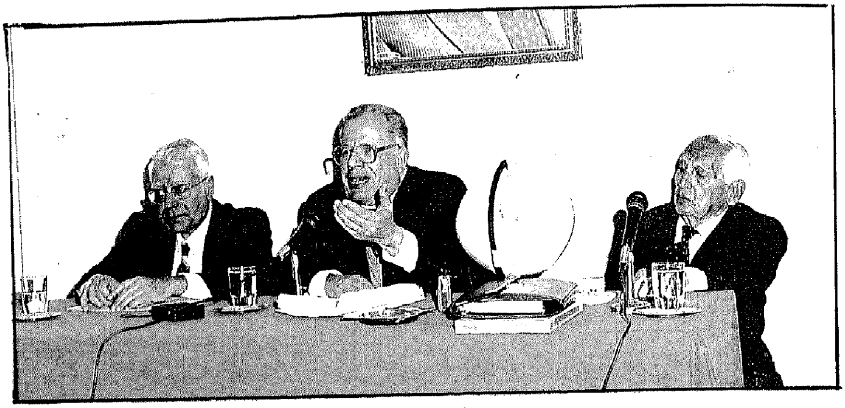

على المنصة : المحاضر الدكتور منصور حسب النبى وعلى يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / منصور محمد حَسبْ النبى ، من مواليد منوف فى ١٨ يناير سنه ١٩٣١، وقد نشأ فى أسرة مُتدينة كرمته فى صغره بتحفيظه القران الكريم . وعقب تخرجه عام ١٩٥٢ متفوقا فى الجامعة ، تدرج فى وظائفها الجامعية ، حتى شغل أعلاها كاستاذ ورئيس قسم الفيزياء بجامعة عين شمس والمشرف على الدراسات العليا .

ولقد مكنه الجمع بين الثقافة الاسلامية المتعمقة ، وبين التخصص العلمى الدقيق ، أن يودى الى الاسلام والمسلمين أجل الخدمات ، وذلك من خلال إبرازه الاعجاز العلمى للقرأن الكريم . فكان له فى هذا المجال عشرات المحاضرات والمقالات ، فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى والخارج ، وأسفر كدحه المتواصل فى هذا المجال ، عن تسعه كتب منشورة أو تحت النشر ، لعل أبرزها كتابه " القرأن الكريم والعلم الحديث " والذى أصدرته له الهيئة

المصرية العامة للكتاب باللغتين العربية والانجليزية ، وكذا كتابه " الكون والاعجاز العلمى للقرآن " والذى نشرته له فى طبعته الثانية سنه ١٩٩١ دار الفكر العربى وتحت الاصدار طبعته الثالثه ١٩٩٦.

ولقد عشت مع هذا الكتاب الأخير " الكون والاعجاز العلمى للقرآن " ، بضعة أيام خلال شهر رمضان الماضى سنه ١٤١٦هـ فبراير سنه ١٩٩٦م ، وكان الانطباع والتساؤل الفورى عقب قراءته والاستفاده منه علميا : لماذا لا تعم الاستفاده من هذا الكتاب بتدريسه لكافة طلبه الثانوية العامة ؟ . **ويقينى أنه لو حدث ذلك لكنا أمام جيل جديد " عالم مؤمن " يقود سفينة العالم بالعلم والايمان . ذلك انه اذا كان الايمانُ بغير علم ، عين الاستضعاف ، وبالتالى الضياع ، فان العلم بلا ايمان ، هو عينُ الطغيان وبالتالى ايضا الضياع ... ولعل ذلك هو جوهرُ المشكلة التى يعانيها عالمنا المعاصر ، فالغرب المتقدم يعوزه الايمان والقيم ، والعالم النامى ومنه عالمنا الاسلامى يعوزه العلم التجريبى والتقنية الحديثة .**

ومحاضرنا الاستاذ الدكتور / منصور محمد حسبُ النبى ، هو أحد المؤسسين البارزين للجمعية المصرية للاعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة ، والمسجلة منذ عام ١٩٨٨ . وقد انتخب عضوا لمجلس ادارتها ، ثم سكرتيرا عاما ، ثم رئيسا لمجلس ادارتها ، منذ أربع سنوات وحتى اليوم .

وإننا جميعا نحمد ونقدر لجامعة عين شمس ، ترشيحها لمحاضرنا الاستاذ الدكتور منصور محمد حسبْ النبى لجائزة الملك فيصل العالمية ، فى خدمة الاسلام للعام الحالى ١٦١٤هـ / ١٩٩٦م . وكلنا يعلم أن الجائزة المخصصة لمن خدموا الاسلام لها اعتباراتها ودلالاتها الخاصة ، ولا شك أن فى ترشيح محاضرنا ، هو توجيه للعالم أجمع بأهمية الاعجاز العلمى للقرآن ، وهو أيضا اعلان لدور محاضرنا المؤثر ، والفعال فى هذا المجال .

هذا قليل من بعض ما يجب قوله بشأن محاضرنا الاستاذ الدكتور منصور محمد حَسَبْ النبى ، اما بشأن المحاضرة وهى فى رحاب الاعجاز العلمى للقرآن الكريم . فاننا اليوم أمام توجه جديد يستلزمه تطورْ عالمنا المعاصر ، وهو حاجتنا الى " التفسير العلمى للقرآن الكريم " ، لنفهم حقيقة الكون المنظور من خلال كتاب الله المقروء .

ان القرآن الكريم ، هو معجزة كل زمان ومكان ، وهو معجزة خالده متجددة . ولقد قدم ائمةُ الاسلام وشيوخُه ، على مدار التاريخ الاسلامى ، تفسيراتهم فى الكشف عن **الاعجاز اللغوى** ، **والاعجاز البيانى** ، **والاعجاز الفقهى** ، **والاعجاز النفسى** للقرآن الكريم ... ونحمدُ اليومْ لعلمائنا الذين يجمعون بين الثقافة الاسلامية المتعمقة ، وبين التخصص العلمى الدقيق ، محاولاتهم فى الكشفِ عن **الاعجاز العلمى** للقرآن الكريم ، لنزدادَ ايمانا ويقينا بأنه كتابُ الله المنزل بالحق منذُ أربعة عشر قرنا :

ولا شك ان الجهود فى هذا المجال تُكْسِبُ الاسلامَ أنصارا جددا ، هم قمة العلم والعلماء . وما زلت اذكر بمناسبة المؤتمر العالمى الذى عقدته المملكة العربية السعودية ، منذُ عشرة أعوام حول الاعجاز الطبى للقرآن الكريم ، ان اعلن اسلامه ، استاذ أجنبى متخصص فى علم الأجنَه ، وذلك فورَ ادراكه لثلاث آيات قرآنية ، وردت فى أربعة سطور لا غير هى قوله تعالى : ((لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نُطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحماً ، ثم انشأناه خلقاً آخرَ ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين – المؤمنون / ١٢)) . وبرزَ اسلامه بأن هذه الآيات الثلاث قد لخصت ، كلَّ علمِه ، وكلَّ حياته ، التى قضاها مكابدا ، للتوصل الى ما أوردته هذه السطور الأربعة من القرآن الكريم .

ان محاولات التفسير العلمى للقرآن الكريم ، حديثةُ للغاية ، بعد ان كشف لنا العلم الحديث عن الكثير من الحقائق التى وردت بالقرآن الكريم . ولعل من أول رواد هذا المجال هو **المرحوم الاستاذ الدكتور محمد احمد الغمراوى** الذى صدر له فى اوائل السبعينات كتابه المشهور " الاسلام فى عصر العلم "، مستعرضا بعض جوانب الاعجاز العلمى للقرآن الكريم . كما قام أيضا **الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين الفندى** حفظه الله فى منتصف السبعينات بجهود مماثلة فى كتابه " الله والكون " .

ان القرآن الكريم هو كتاب هداية ، جاء باشارات علميةٍ كثيرةٍ ودقيقة ، تعبرُ عن الاعجاز العلمى للقران الكريم . بل لقد تواترات الآيات القرآنية فى الدعوة الصريحة لاكتشاف الكون ، والنظر والتأمل فى مخلوقات الله ، والبحث التجريبى بقوله تعالى ((قل انظروا ماذا فى السموات والارض – يونس/١٠١)) ، وقوله تعالى ((سنريهم آياتنا فى الآفاقِ وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انهُ الحقْ – فصلت / ٥٣)) . **وعندما استجاب أئمةُ الاسلامِ وشيوخه القدامى ، لهذه الدعوة الالهيةِ للبحث التجريبى ، صار منهم علماءٌ فى الفلك وفى الطب والكيمياء وفى الطبيعة وغيرها ، وكان لنا حينئذ حضارة فائقة اقتبسها الغرب وقامت عليها الحضارات الحديثة .**

وانقل عن محاضرنا صـ ٢٧ من كتابه " الكون والاعجاز العلمى للقرآن " قوله (إن فى القرآن نحو ٨٠٠ ثمانمائة آية تشير الى حقائق كونية عديدة ، بعضها لم يكشف عنه العلم إلا فى السنوات الأخيرة ، كغزو الفضاء ، ووصول الانسان الى القمر ، والذرة ، والنسبية ، والجاذبية ، ونشأة الكون ، وتمدده ، ونهايته ، وانشقاق القمر ، وتكور الشمس ، وكروية الارض ، وتعدد الشموس ، والأقمار ، وتباعد النجوم وجريانها ، وغيرها من حقائق

كونية يلهث العلم وراء الكشف عنها) . وقد حرص محاضرنا على عرضها ، في أسلوب مبسط في مختلف مؤلفاته ، ومقالاته ، ومحاضراته .

ويذكر سيادته بحق (ان الاعجاز العلمى للقرآن الكريم هو طريقُ مباشر الى الله ، لا يجرؤ أى مكابر أو ملحد أن يجد موضعا للتشكيك فيه . ولهذا فان العلم الحديث سوف يكون عونا لنشر الاسلام ، وقد وضحت فى هذا العصر معانى الآيات الكونية التى نزلت منذ اربعة عشر قرنا مشيرة الى أحداث علمية لم يصل الانسان الى اكتشافها الا أخيرا) .

فمرحبا بمحاضرنا الاستاذ الدكتور منصور محمد حَسَبْ النبى ، الذى كرس جهده ووهب حياته ، لأجَلَ رسالة ، واصعبها مهمة ، وهى الدعوة الى الاسلام من خلال الكشف عن الاعجاز العلمى للقرآن . خاصة واننا نعيشُ اليوم فى عصر مادى ، لا يؤمن بغير لغة العلم وسيلة للتخاطب والاقتناع ، وان هذه اللغة العلمية هى اللغة الدولية التى لا لغة غيرها لمخاطبة غير المسلمين .

نسأل الله تعالى لمحاضرنا أن يزيده توفيقا وسدادا ، وأن يطيل الله عمره ، لمضاعفة عطائه العلمى وخدماته الجليلة . وأن يجزيه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، انه نعم المولى ونعم المجيب .

كلمة الاستاذ الدكتور منصور محمد حَسَبْ النبى

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنى ان التقى بكم فى رحاب الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة شاكرا دعوة سيادة المستشار محمد صادق الرشيدى والمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى لالقاء هذه المحاضرة . وأود فى البداية أن أوضح الفرق بين التفسير العلمى ، والاعجاز العلمى للقرآن الكريم : **فالتفسير** هو انتفاع المفسر بما

ظهر فى عصره من علوم كونيه لتفسير الآية تفسيرا يحتمل الصواب أو الخطأ ، أما **الاعجاز العلمى** فهو الحقيقة الكونية التى يؤول اليها معنى الآية نهائيا ، ويشاهد الناس مصداقها ، فيستقر عندها التفسير ويصبح إعجازا ، وهذا هو موضوعنا وصدق الحق تبارك وتعالى : " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " (فصلت ٥٣) .

وسوف يشهد العلماء بأن القرآن هو الحق كما فى قوله تعالى :

" وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك " (الحج ٤٧) .

والاعجاز العلمى للقرآن إثبات أكيد لصدق النبوة ، فلقد انتهت المعجزات الحسية للأنبياء السابقين : مثل عصا موسى ، وناقة صالح ، ومعجزات عيسى ، عليهم جميعا السلام . وبقيت معجزة واحدة لخاتم النبيين ، ألا وهى القرآن الكريم الذى تعهد الله بحفظه من أى تحوير كما فى قوله تعالى : -

" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (الحجز : ٩) .

والقرآن رغم أنه كتاب هداية ورحمة ، إلا أن آياته كلها مفصلة على علم الهى يقينى ، كما فى قوله تعالى : -

" ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون " (الاعراف ٥٢) .

ولكى يكون القرآن معجزة خالدة متجددة لكل البشرية أى للعالمين جميعا على اختلاف عصورهم ومكانهم وزمانهم ، فقد أنزل الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن اكثر من ٧٠٠ آية كونية بها إعجاز علمى يناسب عالمية الرسالة وخلودها . بحيث يتبين منها على مر الدهور وجه لم يكن تبين ، وناحية لم يكن أحد يعرفها ، **فيكون هذا التجدد ، إثباتا لصدق النبوة من جهة ، وعالمية الرسالة من جهة أخرى ، وتدعيما للدعوة لدين الاسلام حتى قيام الساعة ، والتى سيظهر عندها الكثير فى الاعجاز العلمى للقرآن فى الآيات**

الكونية للقيامة ، كتكور الشمس (اذا الشمس كُوِّرَت) واشتعال البحار (واذا البحار سُجِّرَت) وغير ذلك من آيات بها أنباء كونية لا تتجلى الا بعد حين من نزول القرآن كما فى قوله تعالى : -

" إن هو الا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين " (ص ٨٧ - ٨٨) .

ونحن الآن والحمد لله نعيش فى عصر التقدم العلمى والتكنولوجى حيث تكشف الكثير من آيات الله والتى كان من العسير علينا فهمها ربما حتى مطلع القرن العشرين ، وصدق تعالى بقوله : -

" وقل الحمد لله سيريكم اياته فتعرفونها " (النمل : ٩٤) .

وأنى لا تعجب من المهاجمين للاعجاز العلمى للقرآن بدعوى ان العلم يتغير ! وهذه غيرة مشكورة ، ولكنها تتجاوز حدها حين تتمسك بتفسيرات قديمة غير صحيحة ، مستمدة من خرافات الماضى ، والكثير من الاسرائيليات ؛ بينما ترفض العلم اليقينى بحقائقه الثابته ، واذكر هؤلاء المعارضين بقوله سبحانه :

" أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (محمد : ٢٤)

فهيا معا نتدبر بعض آيات القرآن فى ظل الحقائق العلمية التى ظهرت لنا حديثا ، كنماذج من الاعجاز العلمى للقرآن الذى يحتاج لاستخدام العقل قبل النقل ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

" الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له "

أولا : اعجاز القرآن فى بيان شكل الأرض

اعتقد الناس قديما أن الأرض مستوية مسطحه منبسطة واطلقوا عليها البسيطة كما فى قول الشاعر حافظ ابراهيم فى قصيدة الجبل يتحدث عن نفسه :

أنا الجبل المنيع علوت عما ... على ظهر البسيطة من رواسى

وسادت خرافات ، الأرض المسطحه المرتكزة على ثلاثة حيتان ، أو على قرن ثور ، أو قرص الأرض العائم على سطح البحر . وكان خط الأفق فى نظر الناس هو نهاية الأرض ، وعنده تقع دار الخلود وأرض النعيم ، وأعمدة السماء التى توهمها الناس وكأنها تحمل الكرة السماوية ، والباب المزعوم الذى تخرج منه الشمس فى الصباح لتعود اليه فى السماء . وتخيلوا صوت طشطشة الشمس الساخنه ، وهى فى نظرهم تغطس فى المحيط عند الأفق البعيد ! وماهذه الأفكار إلا خداع الأبصار .

ولم يكن التوصل الى حقيقة كروية الأرض أمرا ميسورا ، لأن الاعتماد على الحواس وحدها دون التدقيق التجريبى ، كان يؤدى ومازال الى الانطباع الخاطئ بأن الأرض مستوية ، وليست كروية ، فنحن نمشى على سطحها دون أن ندرك تكور هذا السطح تحت أقدامنا كلما طالت المسافات .

ولقد توقع الاغريق وعلماء المسلمين كروية الأرض بسبب بعض الظواهر الطبيعية ، الغير مباشرة ، مثل رؤية قمم الجبال الشاهقة من بعيد قبل رؤية سفوحها ، وغياب السفينة المسافرة عن راصدها قبل غياب شراعها ، وملاحظة الشكل الدائرى لظل الارض على سطح القمر أثناء خسوفه .

ورغم هذه الظواهر الدالة على كروية الأرض ، فان الانسان ظل في شك من هذه الحقيقة ، فالأرض منبسطة أمام عينيه ، لا يرى لها إنحناء وتكورا . حتى جاء عصر الفضاء ، فى منتصف القرن العشرين ، وصعد أول رائد فضاء وهو الطيار الروسى يورى جاجارين ؛ ورأى الأرض لأول مرة بكاملها كرة تسبح فى الفضاء وقام بتصويرها من بعيد ، وهو فى سفينة الفضاء فوستوك ١ عام ١٩٦١ ، فاطمأنت القلوب لكروية الأرض ، برؤيا العين تثبيتا لرؤيا العقل . والعلامة نيوتن عام ١٦٨٧م ، توقع بذكائه أن الارض كرويه دون أن يراها ، بل وأكد انها تتبعج قليلا عند خط الاستواء

نتيجه تأثير القوة المركزية الطاردة الناتجة عن دوران الارض حول نفسها ، والتى أدت الى زيادة طول القطر ، عند خط الاستواء عن القطر عند القطبين . وجاء عصر الفضاء ، وتم المسح الشامل بالاقمار الصناعية لكوكب الأرض ، وأدركنا انها كرة ، قطرها ١٢٧٥٧كم عند خط الاستواء بزياده ٤٣كم عن القطر عند القطبين ، مما يجعل كرة الأرض لها تقريبا شكل بيضاوى فتأمل قوله تعالى : -

" والأرض بعد ذلك دحاها " (النازعات : ٣٠)

ولقد اجمع المفسرين على تفسير لفظ (دحا) بمعنى مدها وبسطها ، وأهملوا المعانى الأخرى لهذا اللفظ مثل :

أ - **دحا** : بمعنى جعلها كالدحيه ، أى كالبيضة وهذا ينطبق على صورة الارض بالاقمار الصناعية . وسبب هذا التفرطح عند القطبين ، أن الأرض عند نشأتها كانت لينة كالعجين لارتفاع حرارتها ، وكانت تدور بسرعه حول نفسها بمقدار سته أضعاف سرعتها الحالية ، لان زمن اليوم الواحد كان عند نشأتها أربع ساعات ، مما أدى الى انبعاجها عند خط الإستواء .. وهذه الحقيقة أعلنها نيوتن عام ١٦٨٧ ، وسجلتها الأقمار الصناعية عام ١٩٥٨ ، ولكن القرآن الكريم أعلنها منذ أربعة عشر قرنا بوصف كوكب الأرض بالدحيه أى البيضة .

ب - **دحا** : بمعنى رمى من المقر ، مما يدل على قذف الارض من سديم الشمس عند نشأتها منذ ٤,٦ مليار سنه مصداقا لقوله تعالى :

" وأولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما " (الانبياء : ٣٠) .

جـ - **دحا** : بمعنى أزاح كما ورد باللغة " دحا المطر الحصى عن الارض " والازاحة معناها حركة بسرعة معينة ، مشيرا الى حركة الارض وليس

سكونها كما اعتقد البعض ، ومشيرا أيضا إلى ما اكتشفه العلم حديثا بظاهرة إزاحة القارات ، علاوة على حركات الأرض فى الفضاء .

وبهذا اتفقت جميع المعانى اللغوية للفعل دحا ، بمعنى مد وبسط وجعلها كالبيضة ، ورمى وأزاح مع شكل وحركة الأرض كما عرفنا حديثا .

واقتصار المفسرين على تفسير لفظ " دحا " بمعنى المد والبسط ، يتناسب مع إحساسهم بأن الأرض أينماذهبت تجدها ممدودة أمامك ، وأنها بساط كما فى تخيلهم وتفسيرهم لمعنى قوله تعالى : -

" والارض مددناها " (ق : ٧)

ولو تدبرنا عمق المعنى فى لفظ " مددناها " لادركنا بالهندسة الفراغية أن استمرار المد دليل هندسى قوى على كروية الأرض ، لانها لو كانت منبسطة مسطحة لانتهى المد عند أطرافها ... وبهذا فكلمة مددناها ، تعطى المعنى المزدوج للانبساط والتكوير ، وهذا من عجائب إعجاز القرآن .

والتكوير واضح فى قوله تعالى : -

" يكور الليل على النهار ويكون النهار على الليل " (الزمر : ٥)

والفعل يكور ، معناه يلف فى استدارة وتكوير ، فيقال لغويا كار العمامة على رأسه أى لفها.. وتكوير الليل على النهار هنا بمعنى احلال نصف الكرة الارضية المظلم محل نصفها المضئ ، والعكس فى تكوير النهار على الليل ، أى لف الارض الكروية حول محورها ، فيتبادل الليل والنهار ، وهذه حقيقة علمية لم تكتشف الا حديثا ولهذا ادركنا عجائب الأية الكريمة .

وتوضيحا للشكل الكروى للارض يقول سبحانه : -

" وفى الارض قطع متجاورات " (الرعد : ٤)

ويفهم القارئ العادى من هذه الآية تجاور حقول المزارعين بما فيها من جنات وأعناب ونخيل ، ولكن علماء الجيولوجيا اكتشفوا حديثا بالاستعانة

بالتصوير بالاقمار الصناعية أن سطح القشرة الارضيـة متصدع ومقسم إلى ألـواح قاريـة تحـت البحـار والمحيطـات واليابسـة مصداقـا لقولـه تعـالى " والارض ذات الصـدع " ... وهـذه الالـواح واللـه اعلـم هـى " القطـع المتجـاورات " والتى لا يتوفر تجاورها جميعا إلا اذا كـان سـطح الكوكـب كرويـا ، لانـه لـو كـان مستويا مسطحا لتجاورت كل القطع مـاعدا القطـع الموجودة فى أطراف المسطح ، وبهذا فلابد من انحناء السطح لتتجاور جميـع القطـع دون استثناء كما هو واضح فـى الآيـة الكريمـة وهذا يؤكد كرويـة الأرض بتجاوز جميع الواحها .

ولو تدبرنا ايضا قوله تعالى : -

" وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يـأتين مـن كل فـج عميق " (الحج : ٢٧)

إن كلمة عميق هنا تدل على إعجـاز علمـى وهندسـة فراغيـة ، فلـو كـانت الأرض مسطحة مستوية ، لوصـف القرآن الفـج بـالبعيد ، وليـس بـالعميق ، ولكن عمق الفج هنا دليل على إنحناء كل الطرق المؤدية الى مكـة التـى وجد أنها تقع فى مركز اليابسة . لهذا يقول الحق تبارك وتعالى لنبيه الكريم " لتنذر ام القرى ومن حولها " أى ومن حولها على سطح الكرة .

وعـلاوة علـى كرويـة الارض ، فـان القـرآن الكريـم ، يشـير الـى إنقـاص مستمر يحدث فى سطحها كما فى قوله تعالى : -

" أولم يروا انا نأتى الارض ننقصها من أطرافها " (الرعد : ٤١)

والتعبير بالفعل المضارع هنا ، يفيد أن إنقاص الارض من اطرافها عمليـة مستمرة فى كل عصر . ولقد اعتقد المفسرون أن هـذه الآيـة تشـير الـى زوال الأمم الكافرة ونصر المؤمنين ، ولكنى أعتقد ، والله أعلم ، أنها تحتوى علاوة

على هذا معنى المجازى ، على معنى علمى فيزيانى وجيولوجى يفسر ما يلي من حقائق :

١ - استمرار انكماش سطح الارض إمتدادا لأثر التبريد الذى حدث لقشرة الكوكب ، منذ انفصاله من الشمس منذ ٤,٦ مليار سنه وحتى الآن . ويقدر العلماء هذا الانكماش القطرى بحوالى ٣٠٠ كم ، ومازال التبريد مستمرا مما يؤدى إلى نقص أقطار الأرض من أطرافها . ويمكن الكشف عن هذا بأجهزة الاستشعار عن بعد ، بالاقمار الصناعية التى تستخدم حاليا لقياس الطيات الحادثة فى قشرة الارض كمحاولة للتنبؤ بالزلازل .

٢ - الطغيان المستمر لمياه البحار والمحيطات على شواطئ اليابسة التى يعتبرها علماء الجيولوجيا حدودا مرنه غير ثابته وقابلة للتغيير ، وهناك دلائل على ذلك يتمثل فى مدن كثيرة ؟ مغمورة تحت مياه البحار لأقوام سابقين . ويرتفع مستوى مياه البحر نظرا لتراكم الرواسب والطفح البركانى فى قيعان البحار والمحيطات المشتعلة ، كما فى قوله تعالى بالقسَم الالهى " والبحر المسجور " . وهذا يؤدى إلى ارتفاع القشرة الارضية لهذه القيعان ، فيطغى البحر على اليابسة علاوة على احتمال انصهار بعض المناطق الجليدية نتيجة الارتفاع التدريجى الحادث لدرجة حرارة الكوكب بسبب التلوث الجارى فى عصرنا فى البر والبحر والجو ، مما سيؤدى إلى طوفان جديد فى المستقبل .

٣ - تأثير عوامل التعرية بانقاص الارض من أطرافها (أعلاها) ، فالجبال الشامخة ليست دائمة او خالده لان الصخور تتحطم وتتآكل بمرور الزمن بمساعدة المياه الجارية على سفوح هذه الجبال وتأثير الرياح الشديدة والزلازل القوية .

٤ - الاشارة الى الفرق بين طول قطرى الكرة الأرضية الاستوائى والقطبى كما ذكرنا فى دحو الارض ، مما يعطى الكرة شكلا بيضاويا تقريبا ، وبهذا تنقص الارض من أطرافها .

ثانيا : اعجاز القرآن فى بيان دوران الارض حول نفسها وحول الشمس

ذكرنا فى البند السابق أن الارض تبدو مسطحة ظاهريا بينما هى فى الواقع كروية ، وشتان بين الظن واليقين ، فلقد أثبت العلم الحديث أيضا أن الارض رغم سكونها الظاهرى تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة بسرعة ١٠٤٤ ميل / ساعة فى حركة مغزلية وفى نفس الوقت تنطلق بنا لتدور فى فلكها حول الشمس مرة كل عام بسرعة ٦٧٠٠٠ ميل / ساعة فى حركة مدارية ، وبهذا تأكد علميا وجود حركتين رئيسيتين للارض ، ولقد اشار القرآن الكريم إليهما بالاشارة وليس بصريح العبارة لان الايمان بدوران الارض ، أعصى من الايمان بكرويتها ، فالدوران حركة وقد تعود الناس بالشعور بالحركة . وعندما قيل لهم فى القرن السادس عشر ان الارض تتحرك ، سارعوا الى التكذيب وقبضت الكنيسة على العلماء امثال كوبرنيكس وجاليليو وحكمت عليهم بالاعدام . **وتساءل الناس فى دهشة ، كيف تتحرك الارض وهم يرونها ساكنة ؟**

وظل هذا السؤال ساريا عند العامة حتى وقتنا الحاضر ! . لهذا كان التعبير القرآنى عن حركة الارض بأسلوب معجز علميا وبيانيا يخاطب الجميع على قدر عقولهم وزمانهم ، حتى اذا تقدم العلم وجدوا فى معانى القرآن ما يكشف هذه الحقيقة الكونية . وهذا اعجاز فى الاسلوب ، فضلا عن

المعنى ، لا يقدر عليه الا الله الذى خلق الكون كله ، بدستور موحد قائم على الحركة كما فى قوله تعالى : -

" كل يجرى لأجل مسمى " (الرعد : ٢)

" كل فى فلك يسبحون " (الانبياء : ٣٣)

وبهذا يؤكد القرآن شمولية الجرى والسباحة فى الكون الذى لايعرف السكون . ونظرا لهذا التعميم فإن الأرض جرم سماوى متحرك كما عرفنا حديثا !

ورغم الدوران المغزلى للارض بسرعة اقصاها عند خط الاستواء ١٠٤٤ ميل / ساعة ، وجريانها بسرعة ٦٧٠٠٠ ميل / ساعة فى فلكها حول الشمس ، بل وانطلاقها مع الشمس فى فلكها حول مركز مجرة سكة التبانه بسرعة ٤٩٧٠٠٠ ميل / ساعة ، وجريانها مع الشمس فى فضاء المجرة بسرعة ٤٣٠٠٠ ميل / ساعه ، بل وانطلاقها مع مجرتنا فى اطار تمدد الكون ... فاننا رغم هذه الحركات الخمس ، مستقرون فوق الارض لاتتناثر أشلاؤنا ، ولا نشعر بالدوار أو الاغماء ، رغم أن الارض تتحرك ، بل ترمح بنا فى الفضاء دون أن تقذف بنا من على سطحها ، ودون أن تتعثر خطاها ، ودون أن نشعر بحركتها ، فهى كالدابه الذلول كما فى قوله تعالى :

" هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقة واليه النشور " (الملك : ١٥)

وفيما يلى بيان الاعجاز العلمى للقرآن الكريم فى حركات الارض المتزامنة فى الفضاء والتى تم اكتشافها وقياسها فى القرن العشرين !

١ - الحركة المغزلية بدورانها حول نفسها :

يقول تعالى :

" يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل " (الزمر : ٥)

والتكوير كما ذكرنا لف شئ على آخر فى اتجاه مستدير ، كما فى اللغة : كار العمامة على رأسه . وحيث ان لفظى الليل والنهار يأتيان بعدة معانى منها : زمن الليل وزمن النهار ، او مكان الليل ومكان النهار ، او الظلام والنور ، فاننا يمكننا تفسير هذه الأية كما يلى : "يكور الله تعالى ظلام الليل على مكان النهار على سطح الارض فيصير ليلا "،أو " يكور الله تعالى نور النهار على مكان الليل على سطح الارض فيصير نهارا "

وهذا معناه بلغة العلم فى الفيزياء والفلك : لف الارض الكروية حول محورها فى حركة مغزلية دائبة مستمرة أمام الشمس ، حتى يحدث تتابع لليل والنهار في الغلاف الجوى للارض . ويؤيد ذلك تكرار الفعل **يكور** فى الأية السابقة ، وتكرار الفعل **يولج** فى الأيه التالية :

" يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل " (لقمان : ٥)

والايلاج لغويا :ادخال شئ فى آخر يحيط به ويساويه تماما . وحيث أن محور دوران الارض حول نفسها يقسمها نصفين متماثلين احدهما يكون ليلا فى ظلام الفضاء والأخر نهارا مواجها الشمس ، فاننى اقترح أن يكون معنى الأيه كما يلى :

يولج الله مكان الليل فى مكان النهار فيصير نهارا .

ويولج الله مكان النهار فى مكان الليل فيصير ليلا .

وبهذا يتبادل الليل والنهار باستمرار بهذه الحركة المغزليه للارض ، ويؤيد ذلك قوله تعالى :

" يقلب الله الليل والنهار أن فى ذلك لعبرة لأولى الابصار " (النور : ٤٤)

فالتقليب حركة تدل على إحلال أحدهما محل الآخر بالسريان والادبار والعسعسة ، كما فى القسم الالهى بهذه الحركة فى قوله تعالى : -

" والليل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر "(الفجر : ٤ ، ٥)

" والليل اذا أدبر " (المدثر : ٣٣)

" والليل اذا عسعس " (التكوير : ١٧)

ويعبر الله تعالى عن هذه الحركة المغزلية بأسلوب آخر فى قوله تعالى :

" وآيه لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون " (يس : ٣٧)

والسلخ أصل معناه فصل الجلد عن اللحم ، والمقصود هنا : نسلخ من مكان الليل ، نور النهار ، لأن الليل هو الاصل والنهار طارئ موجود فقط فى قشرة الغلاف الجوى ، بل فى الطبقة السفلى فقط الملامسة لسطح الارض ، حيث تتوفر ذرات الهواء التى تحدث التشتت لضوء الشمس ، فيتجلى النهار فيها كما فى قوله تعالى :

" والصبح اذا أسفر " ، وقوله سبحانه " والنهار اذا تجلى " .

ودوران الارض مغزليا حول محورها ، يؤدى إلى إغشاء أى إلى تغطية الظلام لمكان النهار ، وتغطية النور لمكان الليل ، كما فى قوله تعالى :

" يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا " (الاعراف : ٥٤)

وهذه الآية جاءت لتصف تعاقب الليل والنهار بالدوران المغزلى للارض منذ تكوينها في البداية منذ ٤,٥ مليار سنه ، حيث كان التعاقب سريعا حثيثا لدرجة أن زمن اليوم الارضى آنذاك كان أربع ساعات فقط ، وهنا نفهم وصف الاغشاء ، أى التغطية بلفظ " حثيثا " في هذه الآيه ، بينما حذف هذا اللفظ فى آيه اخرى للدلالة على ابطاء تعاقب الليل والنهار حتى وصل اليوم إلى ٢٤ ساعة حاليا بعد تمام خلق الارض أى بعد مد الارض والقاء الرواسى ونشأة الانهار ونمو الثمار كما فى قوله تعالى :

" وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (الرعد : ٣)

ومعنى يغشى الليل النهار (باعتبار أن بها حذفا بليغا تقديره : يغشى الليل النهار ويغشى النهار الليل) ، دليل على التكوير والايلاج بالدوران المغزلى الذى ثبت أنه يتباطأ مع مرور الزمن بدليل حذف كلمة " حثيثا " . وهذا التباطؤ لم نكتشفة الا باستخدام تكنولوجيا الاشعاع الذرى والساعات الذرية فى القرن العشرين ، لدرجة أن بعض العلماء يتوقعون حاليا ، احتمال توقف الارض عن الدوران المغزلى فى المستقبل . وقد يشير القرآن الكريم الى هذه الظاهرة : باحتمال سكون الظل بصريح العبارة فى آية كريمة واحتمال توقف تبادل الليل والنهار فى آيات كريمة أخرى فى قوله تعالى :

" الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا " (الفرقان : ٤٥)

وقوله سبحانه :

" قل أرايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون " (القصص : ٧١)

وقوله عز من قائل مؤكدا ان دوام الليل مصحوب بدوام النهار فى آخر الزمان :

" قل أرايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون " (القصص : ٧٢)

واستدراكا لهذا الوضع الشاذ يقول سبحانه :

" ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " (القصص : ٧٣)

فهل يا ترى ستسكن الارض عن دورانها المغزلى يوما ما ، فيحدث الليل الدائم فى نصفها والنهار الدائم فى نصفها الآخر كما فى آيتى القصص ٧١ و ٧٢ ، ويسكن الظل كما فى آية الفرقان ٤٥ . وهل سيدركنا الله برحمته عندئذ ، ويبدأ فى دوران الارض مغزليا فى الاتجاه المضاد ، فيتبادل الليل

والنهار كما فى الآية الاخيرة تعليقا على الآيتين السابقتين . واعتقد أن الدوران العكسى بعد التوقف المذكور قرآنيا والمتوقع علميا سيؤدى الى طلوع الشمس من مغربها ، مصداقا لحديث رسول الله " لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها "، وشرحا متوقعا والله اعلم لقوله تعالى :

" رب المشرقين ورب المغربين " (الرحمن : ١٧)

لان انقلاب اتجاه الدوران يؤدى الى هذه الازدواجية ، ليصبح للشمس مشرقان ومغربان ولو أن هذه الآية لها معانى أخرى لا يتسع المقام لذكرها .

٢ – دوران الارض فى فلكها حول الشمس :

يشير القرآن الكريم الى هذه الحركة الثانية للارض ، ضمن القانون الكونى العام بسباحة جميع الاجرام كل فى فلكه الخاص كما فى قوله تعالى :

" وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون " (الانبياء : ٣٣)

والليل والنهار لغويا ، ظرفا زمان ، ولابد لهما من مكان لانه لا زمان بدون مكان ، ولولا دوران الارض مغزليا لما تعاقب الليل والنهار ، واطلاق الظرف وارادة المحل معروف لغويا فى بلاغة القرآن ، فالمقصود هنا بالليل والنهار لفظ " الارض " كمكان يتواجد عليه الليل والنهار . وبهذا فان للارض فلك تسبح فيه ، ويؤكد ذلك المعنى لفظ " يسبحون " بالجمع وليس بالمثنى ، ولو كان الفعل للشمس والقمر فقط ، لجاء التعبير بالمثنى ولكن الله اراد التعبير هنا عن الارض والشمس والقمر كاجرام سماوية مخلوقة لتسبح فى افلاكها منذ نشأتها . والفعل " يسبحون " هنا بمعنى يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة كما قال ابن عباس الذى أدرك معنى الحركة هنا دون أن يدرك (بالمجاز المرسل) أن الارض أحد السابحين .

والتعبير بلفظ يسبح هنا دليل على اقتران الدوران فى الفلك بحركة ذاتية مغزلية من الجسم الدائر ، لان السباحة تقتضى تحرك اعضاء السابح اثناء انتقاله.. وسبحان الله فكل الافلاك مقرونه بالمغزل ، فالارض تدور مغزليا حول نفسها وحول الشمس ، والقمر يدور مغزليا حول نفسه وحول الارض ، والشمس تدور مغزليا حول نفسها وحول مركز المجرة ، وهكذا "كل فى فلك يسبحون

ويشير القرآن الكريم الى الحركة الانتقالية للارض فى مدارها فى آيه أخرى فى سياق الاشارة الى حركة الجبال ومرورها مر السحاب كما فى قوله تعالى :

" وترى الجبال تحسبها جامده وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون " (النمل ٨٨)

ولقد اعتقد المفسرون جميعا ان هذه الآية تشير الى زوال الجبال وتحركها يوم القيامه ، ولكننى اعترض على هذا التفسير الأخروى ، بل وأوكد أن الآية تشير الى حركة كوكب الارض والجبال فى الدنيا وليس الآخرة للأسباب التالية :

أ – لفظ " تحسبها " أى تظنها ، وهذا دليل على أن رؤية الجبال هنا فى الدنيا كدار للظن والحسبان والنسبية وليس الاخرة التى نسميها دار اليقين ، بدليل قوله تعالى " كلا لو تعلمون علم اليقين .... ثم لترونها عين اليقين "

ب – عبارة " صنع الله الذى اتقن كل شىء " ، وعبارة " خبير بما تفعلون " ، عبارتان دنيويتان ، فالدنيا بناء إلهى والقيامة هدم وخراب وزوال للكون ، كما ان الدنيا دار فعل وعمل بينما الآخرة دار جزاء . وبهذا فان الله سبحانه وتعالى يشير هنا الى حركة الجبال في الدنيا ، فهى رغم انها تبدو

ساكنه جامدة ظاهريا ، فهى تمر فى الحقيقة مر السحاب ، ويمكن فهم هذه الظاهرة كما يلى :

أ - الاشارة إلى عوامل التعرية التى تؤدى إلى تآكل الجبال وانتقالها إلى مكان آخر عبر ملايين السنين ، كالسحاب الذى يختفى ثم يتكون من جديد !

ب - حركة الجبال محمولة على ألواح القارات ، وقيعان المحيطات ، فى الازاحة المستمرة البطيئة للقشرة الأرضية ، فيما يعرف بازاحة القارات أو بالازاحة السريعة المفاجئة فى عمليات الخسف والزلازل .

ج - حركة الجبال محمولة على الكرة الأرضية ، التى تجرى بما عليها فى الفضاء الكونى تماماً كالسحاب الذى يمر أمامنا محمولا على الرياح . وبهذا ندرك مغزى التشبيه البليغ فى قوله تعالى : " وهى تمر مر السحاب " أى تتحرك محمولة على الارض .

ثالثاً : إعجاز القرآن فى بيان جريان الأرض مصاحبة للشمس وهى تجرى وتسبح فى الفضاء الكونى

لقد اثبت العلم فى القرن العشرين حركتين للشمس ، أحدهما بالجرى فى الفضاء الكونى بسرعة ٤٣٠٠٠ ميل / ساعة ، ومعها طبعا كواكبها ، بما فيهم الأرض . ويشير القرآن إلى هذا الجريان بقوله تعالى : " والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم " (يس : ٣٨) .

وقوله سبحانه : " وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى " (الرعد : ٢) .

ولقد إعتقد المفسرون أن الحركة اليومية للشمس من الشرق إلى الغرب تعبر عن هذا الجريان ، ولكن العلم الحديث اثبت خطأ هذا الاعتقاد ، لان هذه الحركة اليومية ظاهرية خادعة لاوجود لها وتنتج ظنا وحسبانا أمام عين

الراصد الذى تدور به الأرض حول نفسها فتبدو له الشمس ظاهريا كما لو كانت تدور فى الاتجاه المضاد . ولكن العلم أثبت باستخدام قياسات الطيف الذرى وجود حركة حقيقية للشمس فى الفضاء بسرعة ٤٣٠٠٠ميل / ساعة، وبهذا فالشمس تجرى حقيقة لاخيالا ونحن نجرى معها . كما اثبت العلم أننا نجرى أيضاً مع الشمس فى سباحتها فى فلكها حول المجرة بسرعة اخرى قدرها ٤٩٧٠٠٠ ميل / ساعة كما فى قوله تعالى : " لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون " (يس : ٤٠) ، وقوله سبحانه : " وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون " (الانبياء : ٣٣)

ومن الجدير بالذكر ان إكتشاف جريان الشمس فى الفضاء وسباحتها فى فلكها حول المجرة ، تم فى القرن العشرين باستخدام ازاحة الطيف الذرى وظاهرة دوبلر ، بينما تنبأ القرآن الكريم بهاتين الحركتين للشمس منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان كاعجاز علمى يظهر لنا بمرور الزمن .

وصدق الحق تبارك وتعالى : " لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون " (الانعام : ٦٧) .

رابعا : إعجاز القرآن في بيان تطور سفن الفضاء والوصول للقمر

إدعى الزنديق الهندى سلمان رشدى ضمن أكاذيبه فى روايته التى سماها " آيات شيطانية " أن الوحى القرآنى ينكر إمكانية السفر للفضاء وأن الملك جبريل يؤيد رأى " ماهو ند "(١) الذى يقرر دون أدنى شك أنه من المستحيل

(١) ماهوند : هو الإسم الذى رمز به هذا المرتد للنبى محمد صلى الله عليه وسلم .

أن يسير انسان علَى سطح القمر .

وأقدم رداً قرآنيا قاطعاً على هذا الأدعاء الكاذب بشرح الاعجاز العلمى فى نص قرآنى ، يؤكد بأسلوب مباشر وبصراحة تامة بل وقسم الهى ، وصول الإنسان للقمر فى قوله تعالى :

" والقمر إذا إتسق ، لتركبن طبقاً عن طبق " (الإنشقاق ١٨ - ١٩)

أن أهم إنتصار للعلم والتكنولوجيا فى القرن العشرين هو وصول الإنسان للقمر فى ست رحلات متعاقبة " طبقاً عن طبق " كما حدث فى رحلات أبوللو ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ فى الفترة بين عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٢ . ونحن جميعا نذكر أول إنسان وضع قدمه على سطح القمر ، هو الرائد الامريكى نيل أرمسترنج الذى قال : أن هذه اللحظة الحاسمة (يوليو ٦٩) ليست خطوة صغيرة لانسان ، ولكنها قفزة كبيرة للبشرية كلها.

وقبل شرح النص القرآنى (الانشقاق ١٨ - ١٩) الخاص بمعجزة هذا العصر بالوصول للقمر ، نستعرض فيمايلى الاشارات القرآنية الخاصة عموماً بغزو الفضاء .

تطور سفن الفضاء

لقد أشار القرآن الكريم إلى وصف سفن الفضاء وتطورها فى قوله تعالى :

" ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً وإن كل ذلك لمَّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين " (الزخرف : ٣٣ - ٣٥)

هذه الآيات الكريمة تشير - والله أعلم - إلى عصر ارتياد الفضاء ، وأن الله سبحانه لم يجعل التكنولوجيا اللازمة لذلك مقصورة على الكفار الملحدين

مثل الروس الشيوعيين ، ولكن غيرهم من أهل الكتاب سبقوا الروس فى ذلك وارتادوا الفضاء ، ووصلوا للقمر ، بل إن أحد المسلمين ركب مكوك الفضاء ليساهم فى إطلاق القمر العربى أربسات . ولو جعل الله هذه التكنولوجيا مقصورة على الكفار ، لأصبح الناس جميعاً مذهباً واحداً مجتمعين على الكفر (أمة واحدة) وتعظم بذلك الفتنة ، ولكن الله بحكمته جعل هذا التقدم العلمى شاملا ، تحاشياً لانزلاق الناس فى الكفر ، إذا وجدوا الكافر وحده فى قمة العلم والتقدم ، متمتعاً بزينة الحياة وزخرفها ، ومالكاً لوسائل العروج فى السماء . وينبهنا الله عزوجل أنه عندما يحدث ذلك يجب علينا أن نتمسك بإيماننا ؛ لأن الدنيا متاع الغرور والآخرة للمتقين .

وفيما يلى أقدم شرحا وتصورا علميا لهذه الآيات ، فقوله تعالى : " لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون " ، أى لجعلنا للكفار بيوتا من نوع جديد وذلك بأن جعلنا لها :

١- **سقفاً من فضة** : ألواحا من معدن لأن لفظ سقفا جمع سقيفة بمعنى لوح السفينة ، وأما لفظ الفضة فيعنى بالمجاز المرسل المعادن كالألومنيوم والنحاس والصلب ، وسبيكة الفضة والنحاس التى تستخدم فى لحام ألواح السفن ، وهذه السفن المعدنية هى بيوتهم الجديدة التى ستسبح فى ظلام الفضاء . ومما يدل على جواز تفسير البيوت هنا بالسفن قول سيدنا نوح عليه السلام حين دعا ربه مسميا سفينته " بيتا " كما فى قوله تعالى : " رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا "

كما أن البيت هو مستقر الإنسان ليلا ، من الفعل بات ويبيت ، والليل أى الظلام الدامس الدائم فى الفضاء تسبح فيه هذه البيوت كما ذكرنا .

٢- **ومعارج عليها يظهرون** : وهذه إضافة قرآنية تؤكد أن هذه البيوت المعدنية هى سفن الفضاء ، لأنها غير مستقره على الأرض بل تحتاج

للمعارج لإطلاقها ، أى وسائل تعرج بهذه البيوت المعدنية إلى الفضاء ، وهذه الوسائل هى الصواريخ التى تصعد فى أنحاء السماء ، أى تعرج بحقيقة هذا اللفظ الذى يستخدم فى القرآن دائماً للتعبير عن أسفار الفضاء فى مسارات منحنية (لأن يعرج ، أى يحاكى مشية الأعرج ، وانعرج الشئ ، وتعرّج ، بمعنى إنعطف ومال) كما فى قوله تعالى :

" ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون " (الحجر : ١٤)

" يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون " (السجدة : ٥)

" من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " (المعارج : ٤)

" يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم " (الحديد : ٤)

وبهذا فإن المعارج كوسائل صعود فى السماء ، وطرق سماوية منحنية تسلكها الصواريخ تحمل البيوت المصنوعة من الألواح المعدنية السابق شرحها .

وقوله تعالى : " عليها يظهرون " ، أى يعلون ويرتفعون ويصعدون بظهور هذه المعارج ، والفعل يظهر كذلك يستخدم ضمن معانيه المتعددة لغوياً للسفر طائراً فى السماء كما فى اللغة العربية " ظهرت الطير " والإنسان هنا سوف يظهر ، أى يسافر طائراً فى السماء بواسطة هذه المعارج التى فتح الله لها الأبواب فى السماء فى عصرنا الحالى بعد أن زال المانع فى حرف الامتناع " لو " فى قوله تعالى :

" ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون " (الحجر : ١٤)

ولقد كانت سفن الفضاء تكفى فقط لسفرة واحدة فى أوائل عصر الفضاء ، أما الآن فقد تعددت الأبواب كما فى مكوك الفضاء الذى تتعدد رحلاته ذهابا وإيابا عدة مرات دون استبداله ، وربما يكون هذا تفسيراً لقوله تعالى فى آيات الزخرف : " ولبيوتهم أبوابا " أي – والله أعلم – أن البيوت الفضائية المتطورة سوف تتعدد أبوابها ورحلاتها كما فى مكوك الفضاء كولومبيا وتشالنجر (الذى احترق) وديسكفارى وأطلانطيس ، وأيضا كما فى المحطات الفضائية مير الروسية وسكاى لاب الأمريكية ، والمستعمرات الفضائية التى يطمح العلماء فى إنشائها مستقبلا لتكون مستقرا للإنسان لمدة طويلة ، بحيث يتمكن بواسطة المكوك من الصعود والنزول من هذه المحطات ، فتتعدد بذلك أبوابها ورحلاتها بعد أن تنجح الأبحاث الجارية حالياً للتغلب على مشكلة انعدام الوزن ، والتى تمنع الإنسان حاليا من التمتع بالنوم فى استرخاء واتكاء على السرير ، وتجعل الإنسان يسبح فى المركبة فاقداً الإحساس بالوزن ، وينام واقفا أو معلقا فى أكياس مربوطة بجدار السفينة ، علاوة على مشاعر الخفقان والمعاناة الناتجة من فقد الإحساس بالتثاقل . لهذا يفكر العلماء فى توليد جاذبية صناعية بجعل سفينة الفضاء أو جزء منها يدور مغزليا بسرعة كفيلة بإعطاء الإحساس بجاذبية مساوية للجاذبية الأرضية ، ولو تم هذا مستقبلا فسوف يمكن الجلوس على الكراسي والنوم على السرر ، بل والمشى وممارسة الحياة العادية فى السفينة دون مشاكل ، وربما يكون هذا تفسيراً لقوله تعالى : " وسررا عليها يتكئون وزخرفاً " أى وسررا يستقر عليها الإنسان دون أن يسبح فى فضاء المركبة ودون أن يربط فى جدارها ، وهذه مرحلة لم يصل إليها العلم حتى الآن . وأما الزخرف هنا فهو إشارة لكمال حسن الشئ ، ومن الجدير بالذكر أن لفظ الزخرف يستخدم أيضاً بمعنى

ما زين من السفن وبمعنى الذهب ، علما بأن المركبة القمرية فى رحلة أبوللو كانت مطلية بالذهب .

وأما قوله تعالى : " وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا " ، أى وكل ذلك من تقدم تكنولوجى لن يتحقق وقت نزول القرآن ، ولكن سوف يجعله الله فى المستقبل كمتاع للحياة الدنيا . والدليل على ذلك حرف (لمّا) الذى يأتى لغويا بعدة معان ، منها لمّا النافية الجازمة التى وردت هنا ، وقد حذف فعلها وتقديره نجعل ، والفعل الدال عليه هو قوله تعالى فى الآية السابقة : " لجعلنا لمن يكفر بالرحمن " . (الزخرف : ٣٣)

وبهذا يصبح المعنى كما يلى :

وإن كل ذلك (التقدم) لمّا نجعله (أى لم نجعله بعد وسنجعله يقينا فى المستقبل) ، إنما هو فقط متاع الغرور ، أى متاع الحياة الدنيا ، ويجب على المؤمنين الذين لم ينالوا قسطا وافرا من هذه التكنولوجيا ألا يهتز إيمانهم ويحيدوا عن طريق الحق ، فالآخرة بمتاعها الحقيقى غير المزيف ستكون لهم دون الكفار ، كما فى قوله تعالى : " والآخرة عند ربك للمتقين " . وذلك تذكرة لهم بفضل الآخرة ، حتى يزداد تمسكهم بدينهم ، ولا يفتتنوا بهذه المدنية الحديثة عندما يحين الوقت وتأخذ الأرض زخرفها وتتزين ويظن الكفار أنهم قادرون عليها ، كما حدث حاليا فى عصر الفضاء ، والغرور العلمى .

ولقد فهم جميع المفسرين هذه الآيات ، على أنها وسائل ترف لبيوت مستقرة على الأرض ، سقوفها ، ومدراجها ، وسررها ، وأبوابها ، من ذهب وفضة . ولكننا هنا شرحناها ، طبقا للتفسير المقدم حديثا للجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن من الدكتور كريم حسنين عبد المعبود ، جزاه الله خيرا .

وهناك مبشرات قرآنيه أخرى بعصر الفضاء نذكر فيها ما يلى :

١- تقدمت وسائل السفر للفضاء بتطوير صناعة الصواريخ وسفن ومكوك الفضاء التى تسبح جميعها فى رحلات علمية رائعة بين السماء والأرض .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التطور فى وسائل الانتقال لحمل ذرية آدم فى مركبات جديدة تشبه الفلك لسباحتها فى الهواء ، أو الفضاء ، بدلا من الماء كما يتضح فى معنى قوله تعالى :

" وآية لهم انا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون " (يس ٤١ - ٤٢)

أى وعلامة أخرى على كمال قدرتنا ، أننا فى العصور المتقدمة حملنا البشر فى السفن البحرية العملاقة ، وعلاوة على ذلك جعلناهم يخترعون سفنا مشابهة جديدة (من مثل الفلك) كالمناطيد ، والبلونات ، والطائرات ، وكابسولات ، وسفن الفضاء ، لكى يركبوها سابحين بها فى السماء . وبذلك أشار القرآن لحمل الإنسان فى الجو ، والفضاء ، تكريماً له ، وامتداداً لحمله فى البر والبحر كما فى قوله تعالى :

" ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (الاسراء : ٧٠)

٢- تقدمت وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية ، لدرجة اننا الان أصبحنا بفضل الاقمار الصناعية ، نعيش على كوكب الأرض ، وقد تقارب الزمان وطويت المسافات طيا ، وأصبحنا نستطيع بتكنولوجيا الأقمار والاستشعار عن بعد ، رؤية كل أحداث الكوكب لحظة وقوعها بالصوت والصورة على شاشات التليفزيون . وما كان غيبا مكانيا فى الماضى ، أصبح الآن مشهودا ومسموعا فى لازمن . ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذا التقدم فى قوله تعالى :

" ويقذفون بالغيب من مكان بعيد " (سبأ : ٥٣)

وهذه حقا أشارة إلى تكنولوجيا الاتصالات التى وردت أيضا فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن مظاهر آخر الزمان :

" لاتقوم الساعة حتى يتقارب الزمان وتزوى الأرض زيا " (رواه الطبرانى)

" ينادى مناد من السماء ليس بانس ولا بجان .... وفى حديث آخر :

" نداء من السماء يعم أهل الأرض ويسمع كل لغة لغته " (أخرجه أبو نعيم عن بن عمر) .

وبهذا ندرك بالاحاديث النبوية معنى الاشارة القرآنية فى (سبأ ٥٣) ، بقذف الغيب من مكان بعيد ، للدلالة على ما نعيشه هذه الأيام من وسائل الاتصال في الاذاعة المسموعة والمرئية والأقمار الصناعية ، والصواريخ عابرة القارات ، وسفن الفضاء ، وأقمار التجسس ، ووسائل الانتقال السريع بالطائرات ، ومكوك الفضاء وغير ذلك من مخترعات جديدة ؛ تعمل كلها بسرعه الضوء وقدرها ٣٠٠ ألف كم / ساعة في الفراغ أو الهواء ، وهى السرعة الكونيه العظمى والتى تنطلق بها الاشارات اللاسلكية .

٣- أشار القرآن الكريم إلى احتمال تواجدنا فى السماء فى قوله تعالى :

" وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولافى السماء ومالكم من دون الله من ولى ولانصير " (العنكبوت : ٢٢)

وبهذا يجب ألايغتر الإنسان بما أوتى من علم يغوص به فى أعماق البحار أو يصعد به فى أغوار الفضاء ، فكل ذلك من فضل الله سبحانه الذى وعدنا برؤية آياته فى الآفاق كما فى قوله تعالى :

" سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد " (فصلت : ٥٣)

أى سنظهر آياتنا فى الآفاق أى فى اقطار السماوات والأرض ، لتثبت للكفار في المستقبل ، أن القرآن حق منزل من عند الله خالق الكون . وهذا وعد الهى بدأ يتحقق في عصرنا ، ومازال عطاء المستقبل بلا حدود ، والله سبحانه وتعالى على كل شئ شهيد لانه عزوجل معنا أينما كنا .

٤- يشير القرآن الكريم ، إلى غزو الإنسان للفضاء ، مشجعا ومبشرا بنجاح أكيد إذا توفرت الوسائل والسلامة ، بسلطان من الله كما فى قوله تعالى :

" يامعشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ، لاتنفذون إلا بسلطان ، فبأى الاء ربكما تكذبان " (الرحمن ٣٣-٣٤)

ونلاحظ هنا مايلى :

أ – جمع الله بين الجن والأنس فى آية واحدة كغطاء قرآنى معجز حتى يتقبل الناس ، نبأ غزو الفضاء قبل حدوثه ، بحيث لايحدث تكذيب للقرآن وقت نزول الوحى . أما الآن فقد انكشف الغطاء فى عصر الفضاء .

ب – الآية تشتمل ايجازا بالحذف ، واختصارا بلاغيا فى لف ونشر مرتب ، يعطى المعنى الآتى على الترتيب :

يامعشر الجن أن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات ، ويامعشر الأنس أن استطعتم أن تنفذوا من أقطار الأرض ، فأنفذوا . وبهذا جعل الله لكل مخلوق ، الأقطار التى يتناسب مداها مع مقدار السلطان الممنوح له ، لأن كل مخلوق مُيسر لما خلق له ، وبذلك يتحدد مدى النفاذ طبقا لسرعة كل منهما . وشتان بين سرعة الجن ، وسرعة الأنس ، ونحن معشر البشر مازلنا فى أقطار الأرض حتى بعد الوصول للقمر ، لان القمر تابع للأرض التى لم ننفذ بعد من أقطارها ، فما بالنا بأقطار السماوات التى يقدر مداها ببلايين السنين

الضوئية ، والله سبحانه لايطالبنا بالمستحيل ولكنه يشجعنا هنا بارتياد الفضاء في حدود استطاعتنا العلمية والتكنولوجية .

ج – نفاذنا من أقطار الأرض ، تكريم ونعمة لنا ، لايتم إلا بفضل الله ، وعنايته ورعايته ، وتوفيقه ، وعلينا أن نحمده سبحانه على رحمته لنا بالعودة سالمين من رحلات الفضاء الخطيرة ، بدليل قوله تعالى : " فبأى آلاء ربكما تكذبان " تعقيبا على إمكانية النفاذ .

٥– ليس غزو الفضاء أمرا سهلاً ولكنه محفوف بالمخاطر القاتلة التى لاينكرها أحد ، ويشير القرآن إليها للتحذير ، وليس للتهديد ، والوعيد كما فى قوله تعالى مباشرة عقب الآيات السابقة :

" يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان " (الرحمن : ٣٥-٣٦)

إنها حقا نعمة لانقمة ، أن يحذرنا الله من شواظ النار والنحاس ، الذى قد يهاجم الرواد ، على هيئة جرعات شديدة من الاشعاع الذرى ، أو الشهب الحارقة ، وغير ذلك من حوادث الفضاء القاتلة الموصوفة هنا بأسلوب لغوى يمثل عنصر المفاجأة ، والمجهول الذى لاينجو منه أحد إلا رحمة من الله ، ومتاعا إلى حين ، وعندئذ يجب على الرواد العائدين بسلامة الله من رحلاتهم ، أن يسجدوا لله شكراً على نعمته بدليل قوله تعالى : " فبأى آلاء ربكما تكذبان " تعقيبا على احتمال القذف بالشواظ واحتمال النجاة منه .

٦– تعرف العلماء عام ١٨٠٤م لأول مرة عند أطلاق البالون فى السماء على الأصابة بالهيبوكسيا فى طبقات الجو العليا لصعوبة التنفس وضيق الصدر عند الوصول إلى المرحلة الحرجة بالاختناق عند استمرار الصعود فى السماء نظراً لانعدام الاكسجين ولنقص الضغط . ولهذا فلابد لرائد الفضاء

من ارتداءُ بدلة خاصة مع حمل الاكسجين معه . ويشير القرآن الكريم محذراً من هذه الظاهرة فى قوله تعالى :

" يجعل صدره ضيِّقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء " (الانعام : ١٢٥)

٧- يشير القرآن الكريم أيضاً إلى ظاهرة ، ظلام الفضاء الكونى التى تواجه الرواد عند استمرار العروج فى السماء.، لدرجة أنهم يقولون أن أبصارهم تبدو عندئذ كما لو كانت عمياء مسحورة ، فالشمس ساطعة ، بينما الظلام حالك فى منظر يدعو للدهشة والانبهار ، كما فى قوله تعالى :

" ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون " (الحجر ١٤ - ١٥)

وقد شهد جميع الرواد بأن السماء حالكه السواد فى الفضاء ، وعلى سطح القمر .

هذا بعض مانجده فى القرآن الكريم عن ارتياد الفضاء ، وانى أتساءل أى كتاب آخر مقدس علم الناس مافى الكون ومافى السماء كما علمهم القرآن الذى تنبأ بعصر الفضاء ، ووسائل النفاذ فى السماء والمصاعب والمظاهر التى تواجه الرواد ؟ وأى نبى غير محمد صلى الله عليه وسلم ، حدّث الناس عن غزو الفضاء ، بل وعما شاهده هو بنفسه فى السماوات كما حدثنا صلى الله عليه وسلم فى رحلته فى المعجزة الخاصة به فى الاسراء والمعراج كما وردت فى القرآن والسنة ..... وصدق الحق تبارك وتعالى بقوله :

" إئتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين " (الأحقاف : ٤)

ان قدوم عصر الفضاء ، برهان قاطع ، على صدق القرآن ، واعجازه العلمى الذى يظهر جلياً واضحا بمضى الزمن ،. ليكون تجديداً للرسالة

الإسلامية ، واثباتاً لصدق النبوة ، ونحمد الله ، اننا عشنا هذا العصر ، لنتمتع بنور القرآن وصدق سبحانه :

" وقل الحمد لله سيريكم أياته لتعرفونها " (النمل : ٩٢)

وقوله عزوجل :

" إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين " (ص٨٧-٨٨)

ورغم أن القرآن الكريم رسالة الهية لكل العالمين أى للبشر أجمعين فى كل زمان ومكان ، يطلع علينا الدجال الهندى فى روايته الشيطانية ، بأكاذيب فاجرة أحدها ، أنكار القرآن لغزو الفضاء وللوصول للقمر .

أكذوبة سلمان رشدى

رغم ماتقدم من اشارات قرآنية باسلوب الهى يتميز بقمة البلاغة والاعجاز فى موضوع ارتياد الفضاء ، يطالعنا هذا الزنديق باحدى أكاذيبه صفحة ٣٦٤ فى روايته " مقاطع شيطانية " التى نشرتها دار فاكينج برس بلندن عام ١٩٨٩ ، يدعى فيها انكار الإسلام لارتياد الفضاء ولوصول الإنسان للقمر ، كمايلى كترجمة حرفية لما ورد عنه فى هذا الموضوع :

" عندما كان المؤمنون يناقشون وجهة نظر " ماهوند " حول أى موضوع بدءا من امكانية السفر فى الفضاء إلى دوام العذاب فى جهنم ، فان الملك جبريل يعود دائما بالاجابة التى تدعم رأى " ماهوند " ، فقد قرر دون أدنى شك أنه من المستحيل أن يسير إنسان على سطح القمر " .

* When the faithful were disputing mahound's views on any subject, form the possibility of space travel to the permanence of Hell, the angel would turn up with an answer, and he always

supported mahound, stating beyond any shadow of doubt that it was impossible that a man should ever walk upon the moon "

فأى كذب وافتراء على الحق ينشره هذا الجاهل المرتد ، فلقد ورد لفظ القمر فى القرآن ٢٧ مرة ، وانى ادعو القارىء غير المسلم ان يراجع آيات القرآن التى تتحدث عن القمر ، سواء فى لغتها العربية او فى التراجم المعتمدة باللغات الاخرى ، ليتبين حقيقة هذه الاكذوبة ، ويوقن أن سلمان رشدى ماهو إلا دجال مضل يقول على الله غير الحق وان :

" لعنة الله على الكاذبين " (آل عمران : ٦١)

ومن المدهش والعجيب ان يرد الله سبحانه وتعالى على هذه الاكذوبة بقسم الهى بالقمر فى إحدى الآيات المذكورة (الانشقاق ١٨ - ١٩) ، مؤكدا ركوب الانسان طبقا عن طبق ، ومبشرا المكذبين للقرآن بعذاب اليم .

الرد الحاسم بالاعجاز العلمى للقران :-

يقسم الله تعالى إلى اهم احداث القرن العشرين ، بركوب الانسان طبقا عن طبق عندما تتجه الابحاث للقمر فى قوله تعالى :

" فلا اقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر اذا اتسق ، لتركبن طبقا عن طبق ، فما لهم لا يؤمنون ، واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعون ، فبشرهم بعذاب اليم " .

(الانشقاق ١٦ - ٢٤)

ولقد اعتقد المفسرون أن هذه آيات ستحدث فى الآخرة ، تاركين حقيقة اللفظ إلى المجاز ، فقالوا ان معنى لتركبُن طبقاً عن طبق لتواجهن أو تلاقن حالا بعد حال وطبقا وأهوالا متفاوتة فى الشدة : من موت وبعث وقيامة وعذاب !! وان قوله تعالى " فمالهم لا يؤمنون واذا قرىء عليهم القرآن لا

يسجدون " ، في نظرهم استفهام استنكارى موجه يوم القيامة للكفار بقصد العتاب والتوبيخ .

وأجمع المفسرون ، على استخدام المجاز ، دليلا على عدم ادراكهم لحقيقة اللفظ القرآنى فى عصرهم ، بينما نحن الآن ندرك حقيقة ركوب سفن الفضاء طبقا عن طبق في عصر غزو الفضاء ، كما ان عبارة " فمالهم لا يؤمنون " واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون " توبيخ وعتاب لمن علم هذه الحقيقة فى عصرنا ورغم هذا لا يؤمن بالإسلام ولا يسجد عند سماع القرآن .

وبهذا فالعتاب هنا لرفض السجود فى الدنيا ، وليس الآخرة للاسباب التالية:

أ- لا عتاب فى الآخرة كما فى قوله تعالى :

" فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون " (الروم : ٥٧)

ب- إستحالة قراءة القرآن على الكفار فى الآخرة لانهم سيحشرون عميا وبكما وصما ، كما فى قوله تعالى :

" ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم " (الاسراء : ٩٧)

ج- كيف يلومهم الله يوم القيامة على عدم السجود ، بينما هم لا يستطيعون كما فى قوله تعالى : " يوم يدعون للسجود فلا يستطيعون " .

ولهذا فانني اعتقد ان التفسير الأخروى لآيات الانشقاق (١٦ - ٢٤) ، مجازى وغير منطقي ، كما أن لجوء بعض المفسرين الى ظاهرة الاسراء والمعراج لتفسير قوله تعالى :

" لتركبن طبقا عن طبق " حيودا عن القراءة الشائعة (بضم الباء فى لتركبن بصيغة الجمع) الى قراءة شاذة (بفتح الباء فى لتركبن بصيغة المفرد) قاصدين النبى محمد ، اى لتركبن يا محمد ، سماء بعد سماء فى الدنيا وليس الآخرة ، يدل على إختلاف واضح فى مفهوم الآية ، ولا أوافق

على هذا الرأى أيضا لان الخطاب القرآنى فى آيات الانشقاق بالجمع ، وليس بالمفرد .

لهذا أقدم ، والله اعلم ، تفسيرا جديدا أعلنته فى الصحف والمجلات ووسائل الاعلام الموسوعة والمرئية ونشرته فى كتابى " الكون والاعجاز العلمى القرآن " ، كما أقدمه اليوم بعد أن قرأت أكذوبة سلمان رشدى ، للرد على هذا المرتد ولبيان إعجاز القرآن فى أعظم حدث فى القرن العشرين ، وهو وصول الانسان للقمر .

وتبدأ الآيات هنا بقسم الهى مؤكد (لأن نفى القسم تأكيد بلاغى له) يمتد بنا تدريجيا ، مارا بثلاثة ظواهر طبيعية هى على الترتيب :

أ – **الشفق** : أى أقسم بحمرة الأفق بعد غروب الشمس كمنظر دنيوى رائع يجذب الأبصار ، عندما تتحول القبة السماوية الزرقاء ، الى لون أحمر فى الافق نتيجة ميل أشعة الشمس وتشتتها ، على ذرات الغلاف الجوى ، فى ظاهرة ضوئية طبيعية ، نفتقدها اذا سافرنا خلال هذا الغلاف ، ليتحول لون القبة السماوية تدريجيا كلما إرتفعنا من اللون الأزرق الفاتح الى الفيروزى ، فالأزرق الغامق ، فالبنفسجى ، ثم أخيرا الاسود ليصبح الظلام حالكا فى الفضاء لانعدام التشتت الضوئى .

ب – **الليل وماوسق** : أى أقسم بالظلام وما احتوى ، إشارة الى سواد الفضاء الكونى ، وما يحتويه من أشعاعات ، وشهب ، وأمواج ، وجسيمات ذرية ، قد تواجهنا بالأخطار التى يجب الوقاية منها ، لأننا عند الصعود ، سنفتقد المظلة الواقية الممثلة فى الغلاف الجوى ، لهذا يجب أن نستعيذ بالله من هذا الظلام كما فى قوله تعالى :

" قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب "

(الفلق ١– ٣)

والغاسق اذا وقب : أى الظلام الحالك اذا اشتد فقد يكون وراءه الويل والهلاك ، وهذا أمر طبيعى عاشه جميع رواد الفضاء الذين يشعرون بالرهبة فى ظلام الفضاء الكونى .

ج – **القمر إذا اتسق** : أى أقسم بهذا القمر المعهود لكم ، والذى يسطع وسط هذا الظلام الحالك . . وأقسم به ، بشرط اتساقه اى بشرط أن تتجمع وتتسق معارفكم عنه ، ويتكامل نور العلم حول هذا الجرم السماوى المقصود بالقسم القرآنى هنا ، وعندئذ يأتى جواب القسم بمعجزة القرن العشرين فى قوله تعالى :

" **لَتَركَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقْ** " (الانشقاق ١٩)

أى لتركبن يا معشر البشر طبقا عن طبق ، من أجل الوصول لهذا القمر .

ونستطيع الآن بعد تمام رحلات القمر ، أن نفسر عبارة طبقا عن طبق كمايلى :

١ – يتدرب رائد الفضاء أولا قبل القيام بالرحلة ، على حالة انعدام الوزن بالطيران المتتابع المنقض فى طائرات أو مصاعد هابطة بسرعات تتزايد تدريجيا حتى يتم التعود على هذه الحالة التى سيعانيها الرائد فى رحلته ويشعر خلالها بالخفقان ، أثناء سباحته فى الفضاء ، كما نشعر بها نحن لو كنا فى طائرة منقضه أو مصعد ساقط . كما يتم تدريب رائد الفضاء على التثاقل (أى زيادة الوزن الذى يحدث أثناء تسارع مركبة الفضاء وعودتها) بالدوران اليومى فى أطباق الطرد المركزى التى تدرب الرائد ، على مضاعفة وزنه تدريجيا مع المراقبة الطبية قبل بدء الرحلة ، ويستمر التدريب لبضعة شهور يركب الرائد خلالها طبقا عن طبق .

٢ – يركب الرائد فى كابسولة (سفينة الفضاء) أعلى صاروخ متعدد الطبقات ، ثم يتم اشعال مراحله طبقا عن طبق على التوالى حتى يتم دفع

الكابسولة بعيدا عن جاذبية الارض فى إتجاهها للدوران حول الارض أو للدوران حول القمر حسب مهمتها ، كما حدث ذلك فعلا فى جميع الرحلات الاستكشافيه التى ركبها البشر طبقا عن طبق قبل الوصول للقمر كما يلى على الترتيب :

أ – سفن أو أطباق برائد واحد للدوران حول الارض ومنها رحلات جاجارين ، شبرد ، جريسوم ، تيتوف ، جلن ، كاربنتر ، نيكولاييف ، بوبوفيتش ، شيرا ، كوبر ، بايكوفسكى ، فالنتينا بين عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٣ .

ب – سفن أو أطباق برائدين للدوران أيضا حول الأرض كما فى رحلات أطباق فوسخود ٢ (بليابييف ، ليونوف) ، جيمنى ٣ (جريسوم ، يونج) ، جيمنى ٤ (هوايت ، ماكديفيت) ، جيمنى ٥ (كوبر وكونراد) ، جيمنى ٦ (شيرا وستافورد) ، جيمنى ٧ (بورمان ولوفيل) ، جيمنى ٨ (آرمسترنج وسكوت) ، جيمنى ٩ (ستافورد وسيرنان) ، جيمنى ١٠ (يونج وكولينز) وجيمني ١١ (كونراد وجوردون) ، جيمنى ١٢ (لوفيل والدرين) وتمت هذه الرحلات بين عامى ٦٥ ، ٦٦ .

ج – سفن أو أطباق بثلاثة رواد فى رحلات أبو للو ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ورحلات سيوز ٦ ، ٧ ، ٨ التى تمت جميعها بين عامى ٦٨ ، مايو ٦٩ قبل الهبوط على القمر ولقد دارت بعض هذه السفن حول القمر بهدف تصوير المواقع التى سيتم الهبوط عليها ، واشترك فيها ٢١ رائدا طبقا عن طبق فى محاولة لاستكمال المعلومات عن القمر كما فى القسم الالهى " والقمر اذا اتسق " .

٣ – فى اليوم المشهود ١٦ يوليو ٦٩ تحقق أعظم انتصار علمى للبشرية فى القرن العشرين باستخدام صاروخ ساتورن العملاق ذى الخمسة مراحل فى اطلاق سفينة الفضاء الامريكية أبوللو ١١ وهى تحمل رواد الفضاء الثلاثة

آرمسترنج والدرين ، وكولينز في اتجاه القمر . وهبط الرائدان آرمسترنج والدرين على القمر بمركبتهما (النسر) التى انفصلت عن المركبة الام (كولومبيا) التى كان يقودها كولينز (فى مدار حول القمر) انتظارا لانتهاء مهمة زميليه فى جمع الصخور القمرية ووضع الاجهزة على سطح القمر لقياس الزلازل القمرية ، والعواصف الشمسية ، والاشعة الكونية ، وعاكس أشعة الليزر ، ثم تركت المركبة النسر ، سطح القمر ، لتلتحم بكولومبيا ، وتجمع الرواد الثلاثة فى سفينة واحدة (ابوللو ١١) للعودة مرة أخرى للارض وقد ركبوا حقا طبقا عن طبق ووصلوا سالمين برعاية الله وتوفيقه .

٤ – تكررت بعد ذلك الرحلات الامريكية للقمر التى تحمل كل منها ايضا ثلاثة رواد فى رحلات ناجحة فى سفن (أطباق) أبوللو ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ التى انتهت عام ١٩٧٣ بعد أن ركب الرواد فيها طبقا عن طبق ، وعادوا جميعا سالمين .

٥ – فى جميع الرحلات السابق ذكرها اخترق جميع الرواد طبقات الغلاف الجوى . وهى على الترتيب : التروبوسفير ، والستراتوسفير ، والايونوسفير ، والاكسوسفير ،أيضا طبقا عن طبق من أجل الوصول للقمر .

ورغم هذا العرض المتوالى للاطباق الطائرة أى لسفن الفضاء المتعاقبة بهدف الوصول الى القمر ، مازال هناك مكذبون للقرآن ، ونقول لهم فى عصر الفضاء صدق الله العظيم فى قوله تعالى :

" والقمر اذا اتسقْ ، لتركبن طبقا عن طبق " (الانشقاق ١٨ – ١٩) .

ألا يسمع رواد الفضاء (الذين ركبوا طبقا عن طبق من أجل القمر) هذا القسم الالهى فى القرآن الكريم ؟ ألم يصل إلى إسماعهم هذا الاعجاز العلمى للقرآن حتى يخروا ساجدين ؟

هل بعد هذا الحق يأتى الضلال على يد سلمان رشدى وأمثاله ومشجعيه لتكذيب القرآن ؟ الذين يوجه الله لهم تعقيبا على هذه الآية المعجزة استفهاما

استتكاريا ، ولوما إلهيا ، على المكابرة والعناد والكفر والالحاد فى قوله تعالى : "فمالهم لا يؤمنون ، وإذا قُرئ عليهم القرآن لا يسجدون " (الانشقاق ٢٠ - ٢١)

ويااليت الامر انتهى عند هؤلاء الكفار بعدم السجود عند سماع القرآن بل أحد البعض على تكذيب القرآن ، والنبى محمد عليه السلام ، فى وقاحة تامة وجهل واضح ، أمثال سلمان رشدى ، ومشجعيه المدافعين عنه للأسف ، باسم حقوق الانسان والذين يبشرهم الله جميعا بعذاب أليم ، كما فى قوله تعالى معقبا على الآيات السابقة :

" بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعون فبشرهم بعذاب أليم " (الانشقاق ٢٢ - ٢٤) .

أى بشرهم يا محمد بعذاب أليم ، وبهذا يضع الله البشارة فى موضع الانذار تهكما بهؤلاء الكفار ، واحتقارا لهم ، وليعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . هذا هو الرد العلمى المفحم ، لهذا المارق المتطاول على الاسلام والله أعلم بسلمان رشدى وأعوانه ، وهو سبحانه غالب على امره ، وها هو القرآن الكريم يرد على أكذوبة واضحة فى عصر ، الفضاء ، بل ويرد على جميع المكذبين فى كل عصر ، بالقسم الكونى الالهى بقوله تعالى :

" فلا أقسم بالخنسْ الجوار الكُنسْ ، والليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مُطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون إن هو الا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون ، إلا أن يشاء الله رب العالمين " (التكوير ١٥ - ٢٩)

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المحاضرة الثانية عشرة

ويّتنا من ثقافتنا الإسلامية

الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة

٩ إبريل ١٩٩٦م

٢١ ذى القعدة ١٤١٦هـ

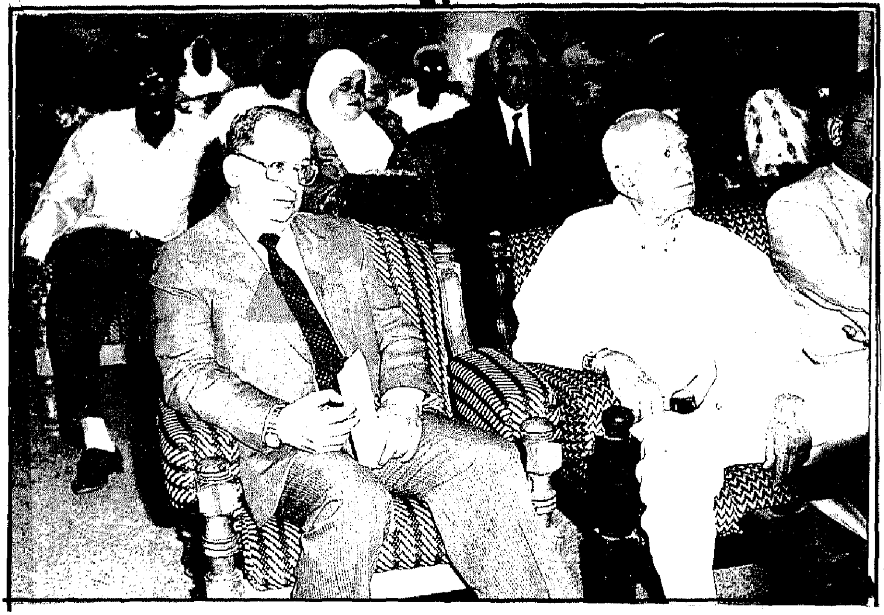

جانب من الحضور :

من اليمين الوزير احمد على كمال والمستشار يحيى كامل مرسى

على المنصة : المحاضر الدكتور مصطفى الشكعة وعلى يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / مصطفى الشكعة من مواليد محلة رحوم / مركز طنطا / محافظة الغربية . وقد حصل على ليسانس كلية الاداب جامعة القاهرة / تخصص لغة عربية سنه ١٩٤٤ ، وعلى الماجستير سنه ١٩٥١ وعلى الدكتوراه سنه ١٩٥٤ .

* وقد عمل سيادته مستشارا ثقافيا بواشنطن فى الفترة من سنه ١٩٦٠ الى سنه ١٩٦٥ ، وتدرج فى سلك الوظائف الجامعية بكلية آداب جامعة عين شمس حتى درجة استاذ سنه ١٩٧١ فرئيس قسم اللغة العربية سنه ١٩٧٤ فعميد الكلية سنه ١٩٧٦ .

وقد اعير سيادته للخارج استاذا للدراسات العربية والاسلامية بجامعة بيروت والجامعة اللبنانية فى الفترة من سنه ١٩٧٠ الى سنه ١٩٧٤ ، ثم بجامعة ام درمان الاسلامية بالخرطوم فى الفترة من سنه ١٩٧٩ الى سنه

١٩٨١ ، وكان عميدا للدراسات العليا بجامعة الامارات العربية المتحدة فى الفترة من سنه ١٩٨٢ الى سنه ١٩٨٥ .

* ومحاضرنا الاستاذ الدكتور مصطفى الشكعة هو الموجّه لإنشاء مركز جامعة اكسفورد للدراسات الاسلامية ، وهو المخطط وواضع مناهج الدراسة بكلية الدراسات الاسلامية بمقديشيو بالصومال .

وهو عضو مجمع البحوث الاسلامية أى هيئة كبار العلماء بالازهر الشريف ، وعضو اللجنه العلمية الدائمة لترقية الاساتذه بالجامعات المصرية ، وعضو المجالس القومية المتخصصة ، وشارك ببحوث اكاديمية عديده فى مختلف المؤتمرات ، والندوات العلمية العالمية ، والعربية ، والمحلية .

ومحاضرنا الاستاذ الدكتور مصطفى الشكعة عالم موسوعى من أعلام الأدب العربى والثقافة الاسلامية ، وهو صاحب مدرسة علمية ، تشهد له بوفرة العطاء وعمق النظرة ، وعدالة الرأى .

ومؤلفات سيادته تربو على الثلاثين كتابا ، قرأت منها كتاب (الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية) ، وكتابه عن (المغرب والاندلس) ، وكتابه عن (الأسس الاسلامية فى فكر ابن خلدون ونظرياته) ، وكتابه عن (المسيرة العلمية للامام المصرى جلال الدين السيوطى) ،وكتابه (إسلام بلا مذاهب) . ولقد شعرت بحق من خلال قراءتى له اننى امام عالم عملاق ، وبحر مغدق ، خاصة وقد سمعت مؤخرا بصدور دراسته الجديدة فى نوعها فى مجلد بعنوان (البيان المحمدى) ، ثم أمامه فى مجال الدراسات العربية استكمال موسوعته عن (الادب فى موكب الحضارة الاسلامية) ، وفى مجال الدراسات الاسلامية استكمال موسوعته فى (الدراسات السيوطية) . . فلا أملك إلا ان أتجه إلى الله تعالى ان يحفظه ويرعاه ، وأن يوفقه فى استكمال موسوعاته العلمية ويسدد خطاه .

هذا وأقف قليلا عند كتابه المشهور (إسلام بلا مذاهب) ، فقد صدرت منه احدى عشرة طبعة ، كانت الطبعة الاولى سنه ١٩٦٠ بتقديم من فضيلة الامام الاكبر محمود شلتوت شيخ الازهر وقتئذ ، وكانت الطبعة الحادية عشرة سنه ١٩٩٦ .

لقد أوضح محاضرنا الاستاذ الدكتور / مصطفى الشكعة بجلاء أن ازمة العالم الاسلامى هى (أزمة فكرية) وان علاج امراض العالم الاسلامى تبدأ من (المنطلق الفكرى) ، فأعطى لقضية الفكر الاسلامى والقيم الاسلامية (الأولوية الحتمية) لأى اصلاح . واستهدف من كتابه (اسلام بلا مذاهب) الدعوة الى وحدة المسلمين ، ولم الشمل ، ورأب الصدع بين مختلف المذاهب الاسلامية سواء كانت سنية أم شيعية ام خوارج ، وذلك من خلال الكشف عن أصل الخلاف . فاظهر بجلاء ، أنه سياسى عصبى ، وليس دينيا اسلاميا ،.وبالتالى أسهم بجهد طيب فى تذليل أسباب الغلو ، وإطفاء نار الفتنه ، ابتغاء العودة الى رحاب سماحة الاسلام ، ويسر عقيدته ونقائها ، ومن ثم ترشيد الصحوة الاسلامية ، وتجميع الصف الاسلامى وتوحيده ، بعد أن صنع بنا الخلاف ما صنع وبعد أن جنى علينا التفرق ماجنى .

وكما أكد بحق شيخ الازهر الأسبق فضيلة الامام شلتوت رحمه الله ، فى تقديمه لكتاب محاضرنا اسلام بلا مذاهب (**ان الانحراف عن جاده الطريق المستقيم ، لا يجد استجابة الا فى بيئة جاهلة بأحكام دينها فحينئذ نجد المستجيبين لصيحة كل ناعق . وكلما انتشر العلم وكلما دق النظر ، قلت فرص النجاح امام دعاوى العصبية الحمقاء والانحراف الشديد**) . ثم قوله (ليست الدعوة الى تقريب المذاهب الاسلامية ، دعوة الى لقاء مذهب على حساب مذهب ، ولكنها دعوة الى تنقية المذاهب من الشوائب التى أثارتها العصبيات والنعرات الطائفية وأذكتها العقلية الشعوبية) .

ويتأمل أستاذنا الدكتور / مصطفى الشكعة ، الاسلام بين (ماض مشرق مضئ قوى عزيز ، وبين حاضر خاب ضعيف مستذل معتدى عليه) ، فيكشف بوضوح (ان ضعف المسلمين إنما جاء من تفرق كلمتهم وشتات شملهم ، نتيجة لتفرق المذهب والعقيدة). فمذاهب المسلمين المختلفة كما يؤكد محاضرنا (كانت الباب الذى دخل منه الخلاف ، واستغل الاستعمار هذه الثغرة وباركها كما يبارك الشيطان فعل الكبائر) . فأصبحنا كما يذكر محاضرنا (نرى السنى يخاصم الشيعى ، والشيعى يلعن السنى ، بل ان الشيعة انفسهم متفرقون : هذا امامى ، وذاك زيدى ، ومنهم من غلا فى مذهبه غلوا كبيرا : فهذا إسماعيلى ، وذاك درزى ، والآخر علوى . ثم نلتفت مرة أخرى فنجد بعض رجال السنة يختلفون : فهذا حنفى او شافعى أو سلفى ، ونجيل الطرف بعد ذلك فنجد هذا أباضيا والآخر يميل الى الاعتزال) . وكما ينعى بحق محاضرنا (مذاهب مختلفة وعقائد متعدده فى ظل دين واحد ، ورسول واحد ، يستغلها ذوو النيات السيئة وأصحاب المقاصد الدنيئة فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض) .

ويركز محاضرنا الاستاذ الدكتور / مصطفى الشكعة على حقيقة هذه الفرق وذلك الاختلاف فيقول : (ان الفرق الإسلامية عند نشأتها ، كانت أحزابا سياسية ، وليست فرقا دينية ، والاختلاف بينها لم يكن اختلافا فى صلب العقيدة الإسلامية ، وانما كان خلافا فى الرأى ، حول طريقة الحكم ، واختيار الحاكم ، ثم انقسمت كل فرقة إلى عدة فرق) .

لقد فهم المسلمون الأولون روح هذا الدين الحنيف ، واختلفوا فى فهم نصوص من كتاب الله او سنة رسوله ، ولكنهم مع هذا الاختلاف ، كانوا متحدين فى المبادئ والغايات ، ولم يكفر بعضهم بعضا ، بل كانوا يدا واحدة على من عداهم . ثم خلف من بعدهم خلف جعلوا دينهم لأهوائهم ، فتفرقت

الامة الى شيع ومذاهب وعصبيات ، وكان بأسهم بينهم شديدا ، فطمع فيهم العدو وذهبت ريحهم .

فمرحبا باستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة ، يوعينا بالقول الحسن ، والرأى السديد ، داعين الله تعالى له الصحة والعافية .

كلمة الاستاذ الدكتور مصطفى الشكعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الثقافة لفظ عربى ، ألفه العرب القدامى ، واستعملوه فى معانى شتى ، فمن ذلك قولهم ثقف الرجل الرمح يعنى قوّمه ، ومنها ثقف الرجل يعنى صار حاذقا ، ومنها ثقفه بالرمح يعنى طعنه . والثقاف من النساء – بفتح الثاء وتشديدها – الفطنة من النساء ، وثقف الولد فتثقف أى هذبه وعلمه فتهذب وتعلم فهو متقف وهى متقفة ، وهذا المعنى مستعار من ثقف الرمح .

تلك هى مفاهيم مادة ثقف عند أسلافنا القدماء ، وقد عمد المحدثون إلى الكلمة الانجليزية والفرنسية Culture فترجموها إلى العربية بكلمة " ثقافة " والكلمة فى معناها الأوربى تعنى : الكل الذى يتضمن المعرفة ، والعقيدة ، والفن ، والأخلاق ، والقانون ، والعادات الاجتماعية ، وجملة المقومات التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا فى المجتمع . وربما ضم مفهوم الثقافة أمورا أخرى متصلة بالمجتمع فى نطاق القبول حينا ، والرفض حينا آخر ، مثل حجب النساء فى البيوت ، ومثل الاحتفال بالعزاء فى اليوم الاربعين ، ومثل حتمية زواج الشاب من ابنة عمه ، ومثل عادة الزار ، إلى غير ذلك من أنماط سلوكية بعينها ، خاصة ببعض المجتمعات بغض النظر عن تصنيفها فى نطاق المحاسن ، أو توصيفها فى عداد القبائح والمساوئ .

أما " ثقافتنا " كمجتمع إسلامى. لا يقبل إلا المحاسن والفضائل ويرفض الانحراف والمعائب ، فهى ذلك المصطلح الذى نعنيه فى مستهل عنوان هذا الموضوع . والذى عبّر عنه بعض اللغويين بـ " الهوية " . وفسر الهوية بأنها حقيقة الشخص المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية . وهذا المصطلح هو الذى نرتضيه معنى ومنهجا ، طالما أن **المعنى العربى القديم لا يفى بالغرض ، والمعنى الغربى – بالغين** – الحديث فيه انبعاج وتزّيد ، ويجمع بين ما هو مقبول من الصفات وأنماط السلوك ، وما هو مرذول منها ومرفوض .

وقبل أن ندلف إلى صميم موضوع هذا الحديث ، فإن طبيعة السياق ، تقتضى أن نشير إلى مصطلح " المثقفون " فى زماننا هذا الذى نعيشه فى الثمانينيات والتسعينيات من هذا القرن. ذلك أن مصطلح " المثقفون " قبل ثلاثة عقود من الزمان ، كان يعنى أصحاب المعرفة الحائزين على قدر وافر منها ، ومن ألوان الأدب والتاريخ والفن ، وأما " المثقفون " حاليا فهى صفة نحلها الشيوعيون والماركسيون ، وأطلقوها على أنفسهم ، بعد أن سقطت الماركسية فى روسيا وفى البلدان التى كانت تدور فى فلكها ، فأما الماركسيون فى البلدان العربية فقد رفضوا الاعتراف بسقوطها ، وفى الوقت نفسه شعروا بكثير من الحرج فى إطلاق صفة الماركسيين على أنفسهم ، فاغتصبوا مصطلح " المثقفون " وأطلقوه على أنفسهم . وضموا إليهم تحت مظلة المصطلح ، العلمانيين الذين يناصبون الاسلام الخصومة والعداوة والبغضاء .

إذا إرتضينا أن نجعل مصطلح " هويتنا " بديلا لمصطلح " ثقافتنا " ، وهو ما نرجو ارتضاءه ، كان المقصد التالى هو : على أى شئ يعود ضمير " نا " فى مصطلح هويتنا ، إنه يعنى بداهة جماعة المسلمين ، فنحن أمة مسلمة

تلتزم – إذا أرادت الفلاح – بالعقيدة الاسلامية فى مجملها وتفصيلاتها .

١ – عقيدة الاسلام

تقتضينا عقيدة الاسلام – فضلا عن الإيمان بالله ربا واحدا – أن نؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما يستتبعه من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار ، وأن الله رحمن رحيم ، وأن رحمته وسعت كل شئ . إلا من أشرك به فهو سبحانه القائل : " ورحمتى وسعت كل شئ " الأعراف ١٥٦ . وهو القائل : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " النساء ٤٨ ، ١١٦ .

وتقتضينا عقيدة الاسلام أيضا الإيمان بأن القرآن كلام الله صدقا ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه لم يتغير ولم يتبدل منذ أن نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه غير قابل للتغيير أو التبديل أو الاجتهاد فيما هو محكم من آياته .

كذلك تقتضينا عقيدة الاسلام أن نؤمن إيمانا جازما كاملا غير مجزوء بقول النبى صلى الله عليه وسلم : " بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجُ البيت لمن استطاع إليه سبيلا " . وذلك كله يستدعى تقرير أن من يقصر فى الاساس الأول – الشهادتين – فليس بمسلم ، ومن يقصر فى أداء أى من الاركان الأربعة فهو مذنب آثم ، وأن من أنكر واحدة منها أو جزئية من جزئياتها فقد أنكر ما هو معروف من الدين بالضرورة ، ومن يفعل ذلك فقد أخرج نفسه عن حظيرة الاسلام .

٢ – تكريم الإنسان كل الإنسان :

إن هويتنا الاسلامية تكرم الانسان – كل الإنسان – بغض النظر عن لونه أو عرقه أو جنسه أو عقيدته ، وإن هذا المبدأ مستمد من القرآن الكريم

- كتاب الله ودستور الاسلام – فى قول الله عز وجل : " ولقد كرّمنا بنى ادم وحملناهم فى البروالبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " الإسراء ٧٠ .

هكذا كان تكريم اللـه للناس شاملا جامعا لأنه شمل كل أبناء آدم بغير استثناء للون أو جنس أو دين ، إنهم مكرمون بالرزق من الطيبات ومكرمون بتفضيل الله سبحانه إياهم على كثير من خلقه .

أما آدم نفسه – أبو هؤلاء جميعا – فقد كرمه الله سبحانه وتعالى بأن جعله خليفة فى الأرض ، وزاد الله فضله عليه بإهماله أقوال الملائكة فيه وفى بنيه على ما هو واضح كل الوضوح فى قوله سبحانه : " وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون " البقرة ٣٠ .

ويخلع الله سبحانه على آدم – بعد أن كرمه وفضّله على كل خلقه باستخلافه فى الأرض – نعمة اللغة والعلم ، حتى ترجح كفته كفة الملائكة طبقا لما جاء فى قول رب العالمين : "وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " البقرة ٣١ – ٣٣ .

وفى تثبيت إستخلاف الله سبحانه الانسان فى الأرض قوله تعالى : "وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم " الأنعام ١٦٥ .

إن تكريم الانسان فى الاسلام من الوضوح والكمال ، بحيث إن سلوك بعض الشعوب الموسومة بالحضارة والتقدم ، أسهمت بسلوكها غير

الانسانى ، فى تثبيت ربط هذه القيمة الإنسانية بالاسلام ، وذلك بما اقترفته فى حق الانسانية من تدمير لكافة القيم المادية والروحية ضاربة بها عرض الحائط .

إن الاستاذ مارمادوك بكتهول ، يجرى مقارنة طريفة بين مفهوم التكريم الإنسانى عند المسلمين ومفهومه عند الغرب الأوربى فيروى هذا الخبر : إن البعض يذكرون دون ريب مناقشة جرت فى الصحف البريطانية منذ بضع سنين وكان موضوعها كما يلى : لنفرض أن تمثالا يونانيا على جانب عظيم من الجمال لا مثيل له ولا يمكن أن يعوض ، وهذا التمثال موضوع فى غرفة واحدة مع طفل حى ، ولنفرض أن النار قد اندلعت فى الغرفة ولم يكن بالامكان إلا إنقاذ واحد منهما ، **فأيهما يجب أن ينقذ ؛ التمثال أم الطفل ؟** . يمضى الاستاذ بكتهول قائلا ! أذكر أن كثيرين من المراسلين ومن رجال الفكر والمناصب الرفيعة قالوا يومئذ : إن التمثال هو الذى يجب أن ينقذ وأن الطفل يجب أن يموت ، وكانت حجتهم فى ذلك أن ملايين الأطفال يولدون كل يوم ، بينما تلك القطعة الفنية اليونانية لا يمكن أن تعوض . ويمضى الاستاذ بكتهول قائلا : إن هذا الرأى لم يكن بوسع أى مسلم أن يبديه فهو فضلا عن قسوته ، وتعذيب نفس بريئة ، وطفل أعزل ، يمثل آخر شكل من أشكال عبادة مهذبة للأوثان .

٣ - الأخوة بين المسلمين :

تلك ظاهرة إنسانية غير مسبوقة فى عقيدة سماوية أو شريعة أرضية ، وهى أن يكون المسلمون جميعا إخوة بعضهم لبعض ، بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الموطن ، فالمسلم فى اى مكان فى الأرض آخ لأى مسلم وجد فى أية بقعة من بقاع العالم ، بذلك تحدث القرآن الكريم فى قول الله عز وجل " إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم " الحجرات ١٢ .

وفى منهج القرآن الكريم لتربية المسلمين تزداد أخوة المسلمين بعضهم لبعض تثبيتا وتأصيلا وذلك فى قول رب العزة : " يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم " الحجرات ١٢ .

ثم كان مزيد من التأصيل فى السنة النبوية ، حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين المهاجرين والأنصار ، مآخاة كاملة إلى حدّ التوريث فكان الأخ المهاجر يرث أخاه الانصارى إذا توفى وبالعكس . وظل الأمر على هذا النحو إلى أن نزلت آية المواريث ، فثبت نظام المواريث على النحو الذى يطبقه المسلمون فى مختلف بيئاتهم وعصورهم ، وأما الأخوة بكامل مفاهيمها وتطبيقاتها فهى مؤكدة بين المسلمين إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤكد هذه الأخوة إلى سنة وفاته فى خطبة الوداع المشهورة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الصدد لا يكتفى بتقرير الإخوة وحسب ، وإنما يبين فضلها ، ويوضح ثوابها ، ويدعو إلى تثبيتها فى قوله الشريف : " المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة " متفق عليه .

ثم يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المعانى مرة أخرى ويزيد عليها فى قوله الشريف " المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " رواه الترمذى .

فهل هناك من إلزام للمسلم بمواخاة أخيه المسلم ، والحفاظ عليه ،

والحض على صيانة عرضه وماله ودمه ، والتحذير من أذاه أو احتقاره ، بمثل ما ألزم به رسول الاسلام أبناء أمة الاسلام فى هذا المقام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم يجعل تمام إيمان المرء المسلم فى أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه في الحديث المشهور المتفق عليه : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

ويدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم الفرد المسلم إلى نصرة أخيه فى معنى غير مسبوق ، وفى أسلوب لم يعرف قبله ، وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم : " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " فقال رجل : يا رسول الله ، أنصره إذا كان مظلوما ، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : " تحجزه - أو تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره " رواه البخارى .

ويوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مكامن القوة فى صفوف المسلمين إذا ما التزموا بالتآخى بينهم فيقول : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا " . ثم يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى مرة أخرى ، وذلك فى قوله الشريف : " مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " متفق عليه .

ويبين رسول الله صلى الله عليه وسلم مزيدا من حقوق المسلم على أخيه المسلم فى قوله الشريف : "حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمّته - يعنى قل له : يرحمك الله - وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه " رواه مسلم .

وفى نهج تربية المسلمين وتأديبهم فى دائرة الأخوة والمساعدة وطلب العلم ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن نفّس عن مؤمن كربة

منْ كرب الدنيا نفّس الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه " رواه مسلم .

الأخوة إذن معلم من معالم هويتنا نحن المسلمين ، كل واحد منا آخ لكل مسلم ، أخوة متينة ، محافظة ، مساعدة ، مناصرة ، محبة ، مؤثرة ، مدافعة ، بناءة ، غير حاقدة على الآخرين من غير المسلمين .

وهنا نثير هذا التساؤل فنقول : ماذا لو وضع المسلمون " فريضة الأخوة " بينهم موضع التنفيذ ، أكان يجرؤ فرد أو دولة مهما بلغ شأنها من القوة ، أن تعتدى عليهم أو تنال منهم ؟

هل كانت تضيع فلسطين ، هل كان يجرؤ الصرب ، ومن هم وراءهم على العدوان على المسلمين فى وطنهم البوسنة ؟ هل كان يجرؤ الحاكم الروسى يلتسن ، على قتل عشرات الألاف من الشيشان بغية استذلالهم ؟ وهل كان يجرؤ الحكم الشيوعى الماركسى مِن قبله ، على استذلال مسلمى وسط آسيا ؟ وهل كان القياصرة الروس ، قبل الماركسيين ، يوقعون بنفس السكان المسلمين لتلك البلاد ، أو يجرأون على إيقاع الأذى بهم وإذلالهم ؟ وهل كان الهنود يجرأون على إذلال المسلمين فى كشمير وترويعهم ؟ وهل وهل مئات المرات ، هل كان يجرؤ أحد على العدوان على مليار ونصف مليار فرد ، تربط بينهم الأخوة الكاملة التى فرضها الاسلام وأكدها القرآن وثبتها رسول الاسلام ؟ إن الجواب من الوضوح بمكان ، لأنه طبقا لكلام رب العزة ، رب

الكون وخالقه ومبدعه " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " المنافقون الآية ٨ .

٤ – حرمة الجار :

على أن عظمة العقيدة الاسلامية وآدابها والتزاماتها ، التى هى هويتنا وثقافتنا ، لم تقف بالمسلمين عند التآخى ، وإنما ألحقت الجوار بالتآخى ، أى أنها زادت إلى حقوق الأخوة حقوقا أخري هى حقوق الجوار ، وهى حقوق بدورها غير مسبوقة فى عقيدة ، ولا مثبتة فى دستور ، اللهم إلا عقيدة الاسلام ، ودستور المسلمين .

لقد عاش أبنائى ، يطلبون العلم فى بلد أوربى غير مسلم سنوات غير قليلة ، فما حاول أىّ من جيرانهم أن يلقى على واحد منهم السلام فى صباح أو مساء ، لأنه ليس للجار حقوق ، لا فى عقيدتهم ، ولا فى ثقافتهم ، أى عاداتهم أو تقاليدهم . **أما نحن المسلمين فالى القارئ المنصف هذه الحقائق التى يتحلى بها جِيد المسلمين ، فإن قصّرنا فيها أو أغفلناها ، انتفى عنا إيماننا الذى هو أعز ما نملك ، وأغلى ما نتمسك به .**

سمع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن " كررها ثلاث مرات . قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : " الذى لا يأمن جاره بوائقه " يعنى الذى لا يأمن جاره أذاه ، وضرره ، فهل رأى أحد ، أو سمع فى عقيدة ما ، أن إيقاع الأذى بالجار ، يسلب المؤمن إيمانه ويلحقه بجنود إبليس . وفى حديث آخر يؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقوق الجار تجاه جيرانه ويوثقها ، ويعمق جذورها ، ويثبت أركانها ، فيقول الحديث الذى يحفظه اكثر المسلمين : " مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " أى أنه يكاد يكون شريكا لورثة الجار إذا لحقته الوفاة .

والاسلام يضع آدابا للجوار تزيل الفوارق بين الجار الغنى ، والجار

الفقير ، وتعمق أسباب المودة بينهما . فإذا صنع الجار الغنى طعاما ، امتدت رائحته إلى بيت جاره ، كان عليه أن يرسل إلى هذا الجار نصيبا من هذا الطعام ، وإذا اشترى فاكهة ووقع بصر أبناء الجار الفقير عليها وجب عليه أن يعطيهم نصيبا منها .

والجار فى هويتنا نحن المسلمين ، ليس فقط هو صاحب البيت الذى عن يميننا أو شمالنا أو أمامنا أو خلفنا ، وإنما يمتد نظام الجوار إلى الجار الأربعين من كل ناحية . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر هذه الحدود فى قوله الشريف : "ألا إن أربعين داراً جار ، أربعين عن يمين وأربعين عن شمال ، وأربعين من خلف وأربعين من قدام " .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يزبى المجتمع الاسلامى على المحبة والإيثار والالتزام بمنهج من المعاملة يجعل من المجتمع جسما واحدا ، وبنية متينة ، وصرحا متكاملا . ذلك أنه بحسبة سهلة يكون لكل منا نحن المسلمين ، مائة وستون جارا ، يرعاهم ويرعونه ، ويحافظ عليهم ويحافظون عليه ، ويكونون جميعا عصبة خير ، لا عصابة أذى ، وبذلك تكون الجيرة الاسلامية بغير نهاية ، تتعدى الحدود التى صنعتها الحكومات المعاصرة . **فالمسلم والامر كذلك ، ليس مسئولا عن إخوانه المسلمين وحدهم ، وانما هو مسئول أيضا عن جيرانه حتى الجار الاربعين ، مسئولية دينية أمام الله ، ومسئولية أدبية أمام الناس ، بغض النظر عن دين الجار وعقيدته ، لا فرق بين مسلم ونصرانى أو يهودى .**

إن هذا وجه آخر من ثقافتنا ، وعادتنا ، وتقاليدنا ، نلتزم به مسلكا ونحافظ عليه منهجا ونسهر عليه تطبيقا وتنفيذا ، فاذا قصر مسلم فى هذا السبيل فانه لا يحسب على روح الاسلام وسلوك المسلمين

٥ – العلم والتعليم :

أجمع العلماء من مشارقة وأوربيين ، قدامى ومحدثين . مسلمين وكتابيين ، أن ديناً ما ، لم يحفل بالعلم وطلبه ، احتفال الاسلام به ، لأن الاسلام جعل من طلب العلم فريضة ، مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج وذلك فى قول محمد صلى الله عليه وسلم : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم تشريع لا يحتمل الجدل ، ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، لا ينطق عن الهوى ، وإنما يوحى إليه فيما ينطق وفيما يعمل . والله سبحانه وتعالى ، قد أنزل هذا المعنى فى كتابه العزيز مقرونا بالقسم وذلك فى قوله جل وعلا : " والنجم إذا هوى ، ما ضّل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى " النجم ١ – ٦ ، ويقول عز وجل فى موضع آخر : " وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا " الحشر الآية ٧ .

هذا وإن القرآن الكريم ، كتاب الله ودستور الاسلام ، ليس مجرد كتاب هداية وأحكام وتشريع وإعجاز وضرب أمثال ، وإنما هو كتاب علم ، شهدت بذلك أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وهى قوله عز وجل : " اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم " سورة العلق ١ – ٥ .

ألا يكون الكتاب الذى يتضمن استهلاله عند أول نزوله هذه الآيات المضيئات كتاب علم ؟ بل كتاب أمر بالعلم ، وحض على طلبه ؟ إن العلم وتحصيله فريضة نؤمن بها فى ثقافتنا الاسلامية وهويتنا الربانية وعقيدتنا الإيمانية .

والله سبحانه وتعالى يتوج طلب العلم كفريضة إسلامية ، فيتبع السورة الأولى بسورة ثانية فى ترتيب نزول القرآن الكريم ، يقسم فيها بالعلم مصوّرا

فى أدواته التى هى الحرف والقلم وما يسطره القلم ، إن القلم الذى يقسم به رب العزة ، لا يسطر إلا العلم ، فيقول عز من قائل فى السورة الثانية التى أنزلت على الرسول الكريم : " نون والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم " القلم ١ - ٤ . والسورة كما رأينا اسمها سورة القلم

والمولى سبحانه وتعالى - فضلا منه وكرما وإنعاما - يقرن تعليم الإنسان بثانى أحب أسمائه الحسنى إليه وهو " الرحمن " ، فيقول جل وعزّ : " الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان " الرحمن ١ - ٤ . وتتضوع آيات تكريم العلم والعلماء على مسرى سور الكتاب العزيز نورا للمؤمنين وتشريفا للعلماء وبالقدر الذى تقرّ به عيونهم وأفئدتهم وبالقدر الذى يرفع شأن شريعة العلم والتوحيد على هذا النحو الجليل :

* " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " (آل عمران ١٨) .
* " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (الزمر ٩) .
* " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (فاطر ٢٨) .
* "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (المجادلة ٨) .
* "وتلك الأمثال نضرب بها للناس وما يعقلها إلا العالمون" (العنكبوت ٤٣) .
* " وقل رب زدنى علما " (طه ١١٤) .

إن الكتاب العزيز من أوله إلى آخره ، مطرز بالآيات التى تتحدث عن العلم حتى إن مادة " ع ل م " قد وردت فى القرآن الكريم اكثر من ثمانمائة وثلاثين مرة . هذا فضلا عن آيات علمية أخرى كثيرة وردت من [illegible] " ع ر ف " ومادة " ع ق ل " .

إن " **علمية القرآن " الكريم ساطعة سطوع الشمس ، وهى واضحة فى**

مقابلات الإكتشافات العلمية الحديثة ، مع المعطيات القرآنية عن الخلق ، وعن الشئون الفلكية كالبنية السماوية وطبيعة الأجرام السماوية ، وتطور العلم الكونى ، وكوكب الأرض وما اشتملت عليه تضاريسه ، ودورة الماء والبحر ، وجسم الإنسان ، وعالمى الحيوان والنبات .

هذه كلها معجزات علمية أظهرها تقدم العلم الحديث وقفزاته ، مما شغل كثيرا من العلماء غير المسلمين وفى مقدمتهم الطبيب الفرنسى موريس بوكاى ، الذى كتب فى هذا الميدان أكثر من كتاب نالت جميعها شهرة واسعة . ومثلما تعددت آيات تكريم العلم وتشريف العلماء فى القران الكريم ، فقد حدث الشئ ذاته فى السنة النبوية الشريفة فى نطاق ما جرى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم من أحاديث ، شرعت أحكاما ، وقررت مبادئ ، تدور فى فلك تمجيد العلم والتشجيع على تحصيله ، والحضّ على إشاعته بين الناس ، وتكريم العلماء القائمين عليه .

* يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأنبياء " واذا كان الانبياء هم سادة البشرية دنيا وأخرى ، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد شرف العلماء بوضعهم فى المرتبة التالية لمرتبة الأنبياء .

* وفى التوجيه النبوى نحو العلم وتحصيله ، والاقتراب من ساحته ، والاغتراف من منهله يقول صلى الله عليه وسلم : " كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين ، فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى " .

* وفى تشجيع الدعوة الى طلب العلم وتحبيبه الى الناس ، واغرائهم بالمسارعة الى تحصيله يقول صلى الله عليه وسلم : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما . سهل الله له طريقا الى الجنة " ومن ثم فإن الذى يموت وهو مغترب فى طلب العلم ينال مرتبة قريبة من مرتبة الشهداء .

* ويقول رسول الله أيضا فى المقام نفسه : " من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع "

*** وطلب العلم فى الاسلام وتحصيله ، مفضل على العبادة ، ومقدم عليها . فقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن رجل عالم ، وآخر عابد فقال : " فضل العالم على العابد ، كفضلى على أدناكم رجلا " وفى المفاضلة بين العلم والعبادة قال صلى الله عليه وسلم : " قليل العلم خير من كثير العبادة " .**

* وللعلم وقاره واحترامه ، ومن ثم فإنه لا ينبغى بذله إلاّ لمن يقدر نفاسته ويصون حرمته ، وهو الأمر الذى أهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا إليه فى الحديث الشريف : " لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولا تضعوه فى غير أهله فتأثموا " .

* وفى الوقت نفسه يفرض الاسلام على العلماء أن يبذلوا علمهم للناس ولا يكتموه ، فإن كتمان العلم يشكل إثما يعرض صاحبه لعذاب الله يوم القيامة ، تماما مثل الذى لا يبذل حق الفقراء في مال الله الذى أؤتمن عليه . فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام : " من كتم علما يُحْسنه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار " ، إن للعلم فى الاسلام فى ضوء هذا الحديث الشريف شأنا خطيرا ، وإن الذى يقصر فى بذله وهو يملكه يكون جزاؤه مساويا ، بل أشد من مقترفى الذنوب ، المقصرين فى حق الله .

* إن حديث العلم فى الاسلام حديث طويل خطير نبيل ، وإن حمل العلم أمانة كبرى يتحتم تأديتها لطالبها ، وان المحافظة على العلم من الزيف تكليف سماوى ، وإن تنقيته من تحريف الغلاة ، وتأويل الجهال ، قضية أساسية ، نالت قدرا عظيما من اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال فى هذا الشأن : " ليحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه ، ينفون عنه تحريف

الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين " . ويتبع رسول الله صلى الله وسلم حديثه هذا بحديث آخر يحذر فيه من سوء استعمال العلم ومن توظيفه فى المراءاة أو التظاهر بالتعالم ، فإن للعلم قدره وللعلماء مكانتهم ، وفى هذا السياق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا تعلّموا العلم لتماروا به السفهاء ، ولا تعلّموا العلم لتجادلوا به العلماء ، فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه " .

*** والعلم فى الاسلام يشمل علم الدين وعلم الدنيا ، وطلب كليهما فريضة ، ولكن علم الدين – بداهة – مقدم على علوم الدنيا ، وهو أمر نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده " .**

لقد تعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم والعلماء وكل ما يتصل بهما ، بالحديث إثر الحديث ، والتوجيه إثر التوجيه ، حتى صار كثير من أحاديثه الشريفة فى هذا المجال تجرى مجرى الأمثال السائرة . وقد حفلت كتب الأمثال بالكثير من هذه الأحاديث ، بل إن بعض رجال الحديث ، قد صنفوا كتبا فى أمثال الحديث ، وها نحن نسوق بعض الأمثلة لهذا الطراز من أحاديث رسول الله ، فى العلم التى جرت مجرى الأمثال السائرة :

* " طلب العلم فريضة على كل مسلم " .

* " العلماء ورثة الانبياء " .

* " علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل " .

* " فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا " .

* " قليل العلم خير من كثير العبادة " .

* " من كتم علما بحسنه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار "

* " قيدوا العلم بالكتاب " .

* " من أراد الله به خيرا يفقهه فى الدين " .

* " لموت قبيلة أيسر من موت عالم " .

* " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا " .

* " صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس ؛ الأمراء والعلماء " .

* " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له " .

* " أطلبوا العلم ولو فى الصين " .

وقد احتفل الخلفاء الراشدون ، وعلماء المسلمين وحكماؤهم ، بامتداح العلم ، وطلبه ، والحرص عليه ، فخلفوا لنا فى ذلك ، أقوالا بليغة ، وتوجيهات سديدة ، ونصائح غالية .

قال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه : " يأيها الناس عليكم بالعلم ، فإن لله سبحانه وتعالى رداء يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رداه الله سبحانه وتعالى بردائه ، فان اذنب ذنبا استعتبه ثلاث مرات ، لئلا يسلبه رداءه ذلك ، وان تطاول به ذلك الذنب حتى يموت "

وأما امير المؤمنين على بن ابى طالب فيقول لكميل : " ياكميل : **العلم خير من المال ، العلم يحرسك وانت تحرس المال : والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق** " . وفى رواية اخرى يقول امير المؤمنين فى المناسبة نفسها بعد عبارة " المال محكوم عليه " " مات خزان المال وبقى خزان العلم ، أعيانهم – اى ذواتهم – مفقودة ، وأشخاصهم فى القلوب موجودة "

وكان الامام على رضى الله عنه ، ذا ملكة شعرية ، ثرية ، وقورة ، وقد

عبر عن نفس الغرض فقال :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهموا على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ماكان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به ابـدا الناس موتى واهل العلم احياء

لقد شغل السلف الصالح من أئمة وعلماء ، وملوك وخلفاء ، وأعيان وحكماء ، وقواد وشعراء ، بالحديث عن العلم وفضله على سائر الاشياء .

قال الصحابى الجليل ابو الدرداء : لان اتعلم مسألة ، أحب الى من قيام ليلة . وقال ايضا : كن عالما او متعلما او مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك . وقال ايضا : العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، وسائر الناس همج لاخير فيهم .

وقال ابو الاسود الدؤلى : ليس شيء اعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك

وقال عبد الملك بن مروان الخليفة الاموى ، العالم ، القائد ، الأديب ينصح ابناءه : يابنى ، تعلموا العلم ، فان كنتم سادة ، فقتم ؛ وان كنتم وسطا ، سدتم ؛ وان كنتم سوقة ، عشتم .

وهذا مصعب بن الزبير ابن ذات النطاقين اسماء بنت الصديق ابى بكر وشقيق امير المؤمنين عبد الله بن الزبير ، والقائد المحنك والخطيب المفوه ينصح ابنه فيقول له : تعلم العلم ، فان يكن لك مال ، كان ذلك جمالا ، وان لم يكن لك مال ، كان لك مالا .

وقال بعض علماء السلف : اذا اراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم ، والملك فى علمائهم .

وقال ايضا بعض السلف البلغاء فى المقام نفسه : العلم عصمة الملوك ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم

على الرعية ، فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا اهله .

وقال بعض علماء السلف لبنيه : يابنى تعلموا العلم ، فان لم تنالوا به من الدنيا حظا ، فلأن يذم الزمان لكم احب اليّ من أن يذم الزمان بكم .

وقال الخليفة الاديب الشاعر عبد الله بن المعتز : العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا : والجاهل لايعرف العالم لانه لم يكن عالما .

ومن الطرائف التى تروى فى هذا المقام ان احد المتعلمين وقف بباب عالم ثم قال : " تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ، ولا يسقم نفسا ، فاخرج العالم له طعاما ونفقة " فقال : فاقتى – اى فقرى وحاجتى – الى كلامكم اشد من فاقتى الى طعامكم ، انى طالب هدى لاسائل ندى ، فاذن له العالم وأفاد من كل ما سأل عنه ، فخرج جذلا فرحا وهو يقول : علم أوضح لبسا ، خير من مال اغنى نفسا .

وللامام الشافعى كلام كثير وشعر وفير فى العلم ، فمن كلامه فى ذلك قوله : طلب العلم افضل من النافلة . ومن شعره فى ذلك هذان البيتان الطريفان :

علمى معى حيثما يممت يتبعنى

قلبى وعاء له لابطن صندوق

ان كنت فى البيت كان العلم فيه معى

او كنت فى السوق كان العلم فى السوق

ان حديث العلم والعلماء الذى جرى على ألسنة العلماء والخلفاء والحكماء والادباء ، أوسع من ان نحيط به فى هذه العجالة ، وانما تمثلنا له بعض الاقوال لأصناف متباينة من الفضلاء لكى نعرّف بجانب من هويتنا نحن المسلمين فقد كان العلم شغلنا الشاغل ، وحياتنا المستقرة وهواءنا الذى نتنفسه ، فلما فسد هذا الهواء فسدت طبيعتنا فهل الى استرجاعه من سبيل ؟!!

الجامعات :

لقد عني المسلمون – استجابة لفريضة طلب العلم – بالعلم على مختلف مستوياته وتسلسل مراحله من الكتاب الى الجامعة ، وكان عمر بن الخطاب هو اول من امر ببناء بيوت المكاتب ، ونصب الرجال لتعليم الصبيان .

وكان المسلمون اذا دخلوا بلدا بدأوا ببناء مسجد ومدرسة ، فاذا كانت البلدة ممتدة العمران أقاموا بها عددا من المدارس ، وقد أحصيت المدارس التى انشأها المسلمون فى الاسكندرية عند بداية عهدها بالاسلام ، فاذا هى اربع وعشرون مدرسة .

والمسلمون هم أول من انشأوا الجامعات والمستشفيات – باستثناء جامعة الاسكندرية – وكانت الجامعات الاسلامية ترصع سماء العالم من نيسابور مشرقا الى المغرب والاندلس مغربا . وأهم هذه الجامعات هى " **جامعة الفسطاط** " وهى أقدم الجامعات الاسلامية ، وقد كان الامام الشافعى وتلميذه الكبير أبو يعقوب البويطى من أساتذتها ، كما كان من أساتذتها ايضا عبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وهما اشهر تلاميذ الامام مالك وأوفرهم وعيا لمذهبه ، ومن الطريف أن اشهر شاعرى العربية : ابا تمام ومن بعده ابا الطيب المتنبى من تلامذتها . ثم ما لبثت "**جامعة الازهر**" التى انشئت عام ٣٥٩ هـ ، ان خطفت الاجواء من جامعة الفسطاط وتبوأت المكانة الرفيعة بفضل جهود علمائها ، واستمرار عطائها ، ووقوفها المدافع المستميت عن العقيدة الاسلامية ، واللغة العربية الى يومنا هذا .

ومن أقدم الجامعات الاسلامية واكثرها عراقة " **جامعة القرويين** " التى انشئت عام ٢٥٤هـ بمدينه فاس بالمغرب ، وهى بدورها تمثل ثغرا حصينا من ثغور الدفاع عن العقيدة الاسلامية واللغة العربية ، وقد استمرت تؤدى

رسالتها السامية منذ انشائها الى يومنا هذا . ومن اشهر الجامعات الاسلامية ، ايضا كانت " **الجامعة المستنصرية** " ببغداد وقد ظلت تؤدى رسالتها لعدة قرون ثم خفت صوتها لفترة غير قصيرة من الزمن ، الى أن عاد إليها نشاطها مرة أخرى قبل عقود قليلة من السنين ، هذا ولا تذكر بغداد الا ويذكر معها ايضا **المدرسة النظامية** التى كان الامام الغزالى أحد شيوخها .

وحين نتحدث عن جامعات العالم الإسلامى ، لا نستطيع ان ننسى فضل جامعات الأندلس ، " **وجامعة قرطبة** " على وجه الخصوص التى انشئت حوالى سنه ٣٠٠ هـ وسطع نورها في سماء غرب اوربا ، وكان الدارسون الاوربيون على إختلاف مللهم ونحلهم يفدون إليها ويغترفون من فيض علومها ، وكانوا يتلقون علومهم باللغة العربية ، وكانت اللغة العربية هى لغة الطبقة الراقية فى غربى فرنسا وجنوبيها .

ان الحديث عن الجامعات الاسلامية ، موضوع واسع جليل الخطر مما لا يتسع هذا المجال المحدود لتناوله بافاضة وتفصيل .

وأما المواد التى كانت تدرس فى الجامعات الاسلامية فكانت جميعها علوما دينية ودنيوية ، وكان العلم الدينى هو الاساس لان روح العلم الدينى تحمل صاحبه الى العلم الدنيوى التطبيقى .

فاما العلوم الدينية فكانت القرآن الكريم وعلومه ، والحديث الشريف وعلومه : مصطلحا ورجالا ورواية وجرحا وتعديلا . والفقه ، وأصول الفقة ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الاسلامى .

وتلحق بالعلوم الدينية علوم اللغة العربية بمختلف فروعها لانها لغة القرآن ، ولذلك فانه لم يكد يمضى قرنان من الزمان على البعثة المحمدية ، حتى كانت اللغة العربية هى لغة الدين والعلم والعقل ابتداء من حدود الهند والصين شرقا ، حتى المحيط الاطلنطى على شواطى شمال افريقية وأسبانيا

غربا ، مرورا ببلاد ماوراء النهر وخراسان وفارس والعراق والشام ومصر .

وكان العلم ، علم المسلمين جميعا ، وليس العرب وحدهم بل ان اشهر علماء اللغة – على سبيل المثال – لم يكونوا منْ أصول عربية مثل سيبويه وأبى على الفارسى وابن جنى وابن خالويه وغيرهم ، ولكن الاسلام عربهم.

والعلم الدينى فيه ما قد سما منهجه على مناهج علماء الامم الاخرى واعتبر انجازا عقليا مستحدثا مثل علم مصطلح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل ، وعلم اصول الفقة .

أما المعارف والعلوم غير الدينية ، والتى يدفع الدين الى تعلمها ، فهى كل ما يخطر على بال العقل الواعى فى عصرنا الذى نعيش فيه . لقد تألق المسلمون فيها ، وغاصوا الى اعماقها واستحدثوا فيها نظريات جديدة ، وإضافات غير مسبوقة ، بل انهم إستحدثوا علوما جديدة لم تكن معروفة للاقدمين مثل علم الجبر ، والمماس فى حساب المثلثات ، وابتكار الصفر ، الذى قلب علم الحساب والرياضيات رأسا على عقب .

فى هذا المضمار الذى نتحدث فيه عن هويتنا الثقافية يجمل بنا ، أن نشير اشارات سريعة الى انجازات العلماء المسلمين فى العلوم التطبيقية ، وقد سبقت الاشارة الى ابتكار علم الجبر ، والمماس فى حساب المثلثات ، ويمكن ان نضيف الى ذلك تطبيقْ الجبر على الهندسة ، وحل المعادلات المكعبة .

وفى علم الفلك بزغ نجم الفلكيين المسلمين الذين انشأوا المراصد الكبرى مثل مراصد طوس وبغداد والقاهرة والاندلس ، وطوروا الات الرصد ، وصنعوا الإصطرلابات الكبيرة . ويجيء فى مقدمة علماء الفلك المسلمين ، محمد بن جابر البتانى ، الذى عاش النصف الثانى من القرن الثالث ، وتوفى فى أوائل القرن الرابع ٣١٧ هـ ، وهو فلكى مهندس يعترف له الفلكيون

الغربيون بالسبق والنبوغ ويسمونه Aibatenius ، وهو صاحب الزيج المعروف بزيج الصبائى المطبوع فى اجزاء ثلاثة وترجم الى اللاتينية وطبع فى نورمبرج سنه ١٥٣٧ م باسم Seienta Stellarum وقيل عنه انه اصح من زيج بطليموس . وكان البتانى يرصد الكواكب فى الرقة على الضفة الشرقية لنهر الفرات ، ولم يعرف فى الاسلام احد بلغ مبلغه فى ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها ، وهو اول من كشف السمت والنظير وحدد نقطتيهما فى السماء ، فانتقلت الكلمتان بصيغتيهما العربية الى الافرنج فالسمت عرفوها باسم Azimuth والنظير عرفوها باسم Nadir ، وقد قال الفلكي الفرنسى Lalande ان البتانى هو احد الفلكيين العشرين الائمة الذين ظهروا فى العالم .

واذا كنا قد قدمنا البتانى فى الحديث عن الفلكيين المسلمين ، فان ذلك لا يعنى انه مسبوق زمنا بعلماء أعلام أسهموا معه فى الفلك ، وسبقوه فى مضمار العلوم الرياضية ، ويجيء على رأس هؤلاء العلماء ، الرياضى الفلكي المؤرخ محمد بن موسى الخوارزمى المتوفى ٢٣٢ هـ ، وصاحب كتاب " الجبر والمقابلة " الذى ترجم الى اللاتينية ثم الى الانجليزية ونشر بهاتين اللغتين ، وله فى الفلك كتابى " الزيج " و " عمل الإصطرلاب " .

ومن علماء الفلك والهندسة ، موسى بن شاكر ، وابناؤه الثلاثة .أما موسى الاب ، فكان قاطع طريق ثم تحول بتشجيع من الخليفة المأمون ، الى واحد من كبار علماء الفلك ، وتوفى سنه ٢٠٠ هـ ، وأنجب ثلاثة أولاد ، هم محمد واحمد والحسن . وكان محمد اشهر الثلاثة وينسب اليهم كتاب حيل بنى موسى فى علم الميكانيكا ، وكانوا مثل أبيهم مقربين من الخليفة المأمون .

وفى هذا السياق ينبغى ذكر أبى الريحان البيرونى المتوفى سنه ٤٤٠ هـ ، عالم الموسوعى فى الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والبلدان والتاريخ

ومؤلفاته كثيرة العدد ، نفيسة المحتوى غزيرة العلم ، متنوعة الفنون ، تقع فهرستها فى ستين ورقة بخط صغير كانت مودعة بمكتبة مرو . ومن مؤلفاته فى الفلك كتاب " القانون المسعودى " وهو مطبوع وموضوعه النجوم والهيئة الجغرافية ، " وكتاب الارشاد " ، فى أحكام النجوم ، وكتاب " التفهيم لصناعة التنجيم " وكتاب " الاستيعاب فى صناعة الإصطرلاب " . ومن كتبه الاخرى النفيسة الشهيرة التى ترجمت الى الانجليزية " الآثار الباقية عن القرون الخالية " و" تاريخ الهند " و" تاريخ الامم الشرقيه " ، وله ايضا من الكتب النفيسة " الجماهر فى معرفة الجواهر " و " تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن " .

والبيرونى صاحب اكتشافات علمية مثل جاذبية الارض ، ومثل كروية الأرض ، وبعض المستشرقين يعدون البيرونى ، واحدا من أذكى خمسة رجال خلقهم الله .

ان هذا الذى أوردناه عن الرياضيات والفلك وعلمائهما مجرد نموذج مختصر ، واما علم الفلك اوعلم الرياضيات عند المسلمين ، فهو بحر واسع ، عميق القرار بعيد ما بين الشطآن والشىء نفسه يقال عن بقية العلوم من طب ، وصيدلة ، وعقاقير ، وفيزياء ، وميكانيكا ، وكيمياء ، وهندسة ، وعمارة ، ورحلات وجغرافيا .

وللمسلمين فى كل علم من هذه العلوم اضافات جليلة ، وابتكارات معترف بها ، وانجازات شهيرة . واما العلماء فمن الشهرة والتقدير بمكان ، فلا تكاد تذكر الفيزياء والميكانيكا حتى يذكر **الحسن بن الهيثم** ، ولا تكاد تذكر الكيمياء حتى يذكر **جابر بن حيان** ، ولا يذكر الطب الا ويذكر **الرازى** و**على بن العباس** ، و**ابن سينا** ، وأبو **القاسم الزهراوى** ، و**ابن زهر الأشبيلى** و**ابن النفيس** . ولا يكاد يذكر علم البلدان والرحلات والجغرافيا والاكتشافات حتى

يذكر **اليعقوبى** وكتابه " البلدان " **وابن خرداذبه** وكتابه " المسالك والممالك " **والمسعودى** وكتابه " مروج الذهب ومعادن الجوهر " **والاصطخرى** وكتابه " مسالك الممالك " ، **وابن جوقل** وكتابه " المسالك والممالك " ، **والمقدسى** وكتابه " أحسن التقاسيم " **وابو الريحان البيرونى** وكتابه " ما للهند من مقولة " **وياقوت الرومى** وكتابه " البلدان " **والإدريسى** وكتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الافاق " **وعبد اللطيف البغدادى** وكتابه " الافادة والاعتبار بما فى مصر من اثار " **والقزوينى** وكتاباه " اثار البلاد وأخبار العباد " و" عجائب المخلوقات "

ان الامر الجدير بالالتفات ان هؤلاء العلماء على اختلاف ميادين تخصصاتهم وتعدادها عند العالم الواحد كان منطلقهم جميعا العلم الاسلامى الذى يتوفرون عليه ، ويجيدونه ، ثم يلتفتون بعد ذلك الى سائر العلوم الأخرى من انسانية وعملية .

ادب الحوار :

الحوار هو الوسيلة المثلى لإقناع من تختلف معه فى الرأى ، والحوار فى ثقافتنا الاسلامية ليس صخبا ولا هذرا ، وانما هو الكلمة الطيبة ، والعبارة الحسنة ، المغلفة ببشاشة الوجه واطمئنان القسمات . ونحن المسلمين ، نلتمس حسن التوجيه فى الحوار ، من قول الله تعالى : " ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن " (العنكبوت ٤٦) .

فاذا كان الأمر الالهى يدفع بنا إلى مجادلة أهل الكتاب – وهم على غير ديننا – بالكلمة الطيبة ، والحوار الجميل ، فما أحرانا أن يكون الحوار بيننا ، مستمدا أسباب سماته واتزانه من قول الله عز وجل فى سورة العنكبوت .

ويتكرر التوجيه الالهى الى الحوار المهذب والجدال الهادئ فى قوله عز

وجل " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " (النحل ١٢٥) .

إن أمة سبيلها الحوار الهادئ ، والجدل الهادف ، العاقل ، المطرز بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنةِ ، لهى أمة مؤهلة للسيادة والسعادة ، ومرجوة لبناء مجتمع سعيد.

هكذا علمنا القرآن أدب الحوار وحسن المجادلة ، وهو ما طبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في مختلف المواقف ، وتعدد المسائل ، حتى حين كان يُستفز صلى الله عليه وسلم بسؤال خرج عن نطاق أدب الحديث أو يستغضب بمقالة ندت عن الصواب . **ولنا المثل الأعلى فى ذلك من حوار رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الحبر زيد بن سعنة ، ذلك الحوار الجليل الذى انتهى بواحد من أعيان اليهود إلى دخول الاسلام من أوسع الأبواب.أو ذلك الحوار المبارك الذى جرى بين الرسول سلى الله عليه وسلم ، والشاب الذى جاء إليه طالبا الإذن بالزنا .**

لقد سار الخلفاء الراشدون والصحابة ، على النهج المحمدى في الحوار ، فكان عمر قمة في أدب الحوار ، وكان على بن أبي طالب ، اية من أيات البلاغة والاقناع إذا حاور . وسار على الدرب نفسه من بعدهم التابعون والأئمة والفقهاء ، وسائر العلماء ، بحيث أن أدب الحوار معْلمٌ اسلامى ومقصد محمدى .

إن حوارا جادا عذبا جرى بين الإمام أبى حنيفة ، والإمام محمد الباقر ، حين اتهم الباقر أبا حنيفة بادخال القياس في الدين . قال الامام الباقر لأبى حنيفة : انت الذى حولت دين جدى وأحاديثه بالقياس ، فقال له الامام أبو حنيفة : معاذ الله ، فيقول الباقر : بل حولته ، وهنا يقول ابو حنيفة للباقر في

أدب وتحبب : اجلس كما يحق لك حتى أجلس كما يحق لى فإن لك عندى حرمة كحرمة جدك صلى الله عليه وسلم فى حياته على صحابه ، فيجلس الباقر ويجلس أبو حنيفة بين يديه قائلا : إنى سائلك عن ثلاث كلمات فأجبنى ، الرجل أضعف أم المرأة ؟ فيقول الباقر : المرأة فيقول أبو حنيفة : كم سهما للمرأة ؟ فيقول الباقر : سهمان للرجل وللمرأة سهم ، فيقول أبو حنيفة : هذا قول جدك ولو حولت دين جدك لكان ينبغى فى القياس، أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان ، لأن المرأة أضعف من الرجل .

وينتقل أبو حنيفة إلى السؤال الثانى : الصلاة أفضل أم الصوم ؟ فيقول الباقر : الصلاة أفضل ، فيقول أبو حنيفة: هذا قول جدك ، ولو حولت قول جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولاتقضى الصوم .

ثم ينتقل أبو حنيفة إلى السؤال الثالث: البول أنجس أم النطفة ؟ فيقول الباقر : البول أنجس ، فيقول أبو حنيفة : لو كنت حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يغتسل من البول ويتوضأ من النطفة . ويمضى أبو حنيفة قائلا : ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس، وهنا يقوم الامام الجليل محمد الباقر فيعانق أبا حنيفة ويقبل وجهه.

هذا طراز من أدب الحوار عند أئمة المسلمين وعلمائهم ، وللإمام أبى حنيفة مواقف كثيرة من هذا النسق ، ومن أقوال الامام المشهورة ، وقد رأى بعض تلاميذه يناظرون بشئ من الحدة : كنا نتناظر وكأن على رؤوسنا الطير ، مخافة أن يزل صاحبنا ، وأنتم تتناظرون وتريدون زلة صاحبكم ، ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر صاحبه ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه .

هذا الاتجاه ليس مقصورا على أبى حنيفة . وانما هو منصرف الى

جمهرة علماء المسلمين وأئمتهم فالامام الشافعي قد مارس حوارا مع هارون الرشيد، وكان متهما بالانحياز إلى العلويين وكانت عقوبة هذا الاتهام القتل ، ولكن الشافعي بكلامه الهادئ وحجته البالغة وحواره المهذب جعل الرشيد يتحول من آمر بالقتل والبطش إلى طالب علم وخاطب ود .
وللإمام الشافعي محاورات كثيرة في مواقف عديدة ، تؤكد أن ادب الحوار في الاسلام من علامات تميز المسلمين بسعة الصدر ورحابة الافق .

ندوات العلم والادب :

هذا ولا يفوتنا فى هذا السياق ان نشير الى ندوات العلم والادب التى كانت دائمة الانعقاد فى دور اعيان نيسابور ، او فى قصور امراء ذلك الزمان ، مثل ندوة عضد الدولة فى شيراز ، وابن العميد فى الرى ، والصاحب بن عباد فى أصفهان ، والوزير المهلبى فى بغداد ، وعبيد الله العارض بن سعدان وزير صمصام الدولة بن بوية فى بغداد ، وسيف الدولة الحمدانى فى حلب ، وكافور الاخشيدى فى الفسطاط . وكان لكبار العلماء ، مجالس علم يحضرها الخاص والعام ، والكل يفيد منها ويستمتع ، فضلا عن استجابتهم لشعيرة طلب العلم . وقد قيدت ألوان المعرفة التى كانت تدرس فى تلك المجالس ، وصارت كتبا نفيسة جليلة وزعت على المتعلمين وطالبى المعرفة مثل " مجالس ثعلب " ومثل " أمالى الشريف المرتضى" التى كانت دروسا يلقيها فى قصره ببغداد ، ومثل دروس أبى العلاء المعرى التى كان يلقيها فى بيته فى معرة النعمان بشمال سوريا .

لقد كان لعلماء المسلمين مجالس جمعت مسائلهم وقيدت دروسها فى كتب ، ضاع أكثرها فضاع معها خير كثير ؛ وبقى أقلها فأمد طالبى المعرفة بزاد وفير من علوم الفقه والحديث والأدب والسير والنحو واللغة وغير ذلك ،

فمن هذه الكتب كتاب مجالس العلماء للزجاجي وهو مطبوع ومتاح ، سجل فيه مؤلفه مائة وستة وخمسين مجلسا ، تبدأ بمجلس عيسى بن عمر السقيفى مع أبى عمرو بن العلاء مرورا بمجلس سيبويه مع الكسائي وأصحابه ، ومجلس الأصمعى مع المفضل الضبى ، ومجلس حماد الرواية مع مروان بن ابى حفصة ومجلس أبى عبيدة مع أبى عثمان المازنى ، ومجلس أبى عمرو بن العلاء مع عمرو بن عبيد ، ومجلس أبى العباس ثعلب مع أبى العباس المبرد ، ومجلس الخليل بن أحمد مع سيبويه . وهكذا قد تتكرر المجالس بين عالمين بالذات مثل ثعلب والمبرد ، وقد تتكرر المجالس التى يكون طرفها الأول عالم بذاته الكسائى أو عمرو بن العلاء ويكون طرفها الثانى رجالا مختلفين.

إن هذا الطراز من كتب مجالس العلماء التى أشهرها كتاب الزجاجي أو كتب بهجة المجالس التي أشهرها كتاب ابن عبد البر ، تقدم هويتنا على مدى الأزمنة ، وثقافتنا فى مختلف أقطار المسلمين ، وتقف شاهد صدق على أن هذه الأمة هى السابقة : أدبا وعلما ، المتميزة حضارة ومعرفة ، الدائبة ثقافة وتحصيلا .

إن العلم بالنسبة لنا نحن المسلمين هو الفريضة الخامسة التى أسقطناها فسقطنا ، وهو الغذاء الذى ينعش أرواحنا وأبداننا فأخذنا بدلا عنه طعاما آخر فاسدا ، وهو الهواء الذى نتنفسه فيبعث فينا الانتعاش والحياة ، ولكننا عزفنا عن أنسامه وطرحنا عبيره جانبا .

ومهما كان الأمر فالعلم بكل فروعه وأركانه هو ثقافتنا وهويتنا ولا محيص لنا من أن نعود اليه لكى نحيي الشعيرة بل الفريضة التى تعيدنا إلى الجادة وتحملنا على المحجة .

بقى أن نلفت النظر إلى أن العلم لم يكن مهنة يمتهنها العالم إلا إذا عين فى

يشتغلون بالتجارة أو الصناعة أو البيع والشراء : فكان أبو حنيفة صاحب متجر ، حرير وكان الامام الماوردى يبيع ماء الورد ، وكان الكرابيسى يبيع الكرابيس وهى الأقمشة الخشنة ، وكان الطيلساني يبيع الطيالس ، وهكذا كان كل عالم ينسب إلى مهنته مثل الزجاج والثعالبي والبزاز والزعفرانى والعنبرى والمنجم والجوهرى والعلاف والدهان والنيلى والخازن ، وهكذا لم يكن العلم وسيلة للكسب إلا فيما ندر ، وانما كان فريضة تؤدى وشعيرة تمارس.

٦- العمل وتحريم البطالة

إذا كان العلم قد احتل فى الاسلام مساحة كبيرة من العناية والاهتمام إلى المدى الذى جعله فريضة من فرائض الدين ، فإن للعمل وإحسانه مكانة كبرى فى الإسلام ، ذلك ان الاسلام لايعرف البطالة ولايعترف بها . انه اذا كان الاسلام يستهدف صلاح المجتمع وينشد سعادة الفرد والجماعة ، فقد صار أمرا طبيعيا أن يدعو إلى العمل ويحث المؤمنين عليه ، وفى ذلك يقول رب العزة :

** " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " (التوبة ١٠٥).

** ويقول فى اتقان العمل : "إنا لانضيع أجر من أحسن عملا "(الكهف ٣٠).

** ويقول سبحانه فى الحث على العمل والسعى إليه : " ياأيها الذين أمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون " (الجمعة ٩، ١٠) .

إن الإسلام لايعرف الكسل فى العمل أو التعطل عن السعى . فيوم الجمعة الذى اصطلح المسلمون على جعله يوم عطلة هو فى القرآن الكريم يوم

عمل إلا مدة صلاة الجمعة ، وهو ما تحض عليه آية سورة الجمعة السالف ذكرها .

** والرسول صلى الله عليه وسلم ، يستنكر البطالة والتعطل ، ويقبح التسول وسؤال الناس واقواله فى ذلك مشهورة ، وأحاديثه صلى الله عليه وسلم معروفة لجمهرة أبناء المسلمين فهو القائل : " والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرا من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه " (البخارى - باب الاستعفاف عن المسألة) .

** إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يولى السعى عناية كبرى ويحث على السعى إلى الرزق ولو بطريق الاحتطاب - لأنه عمل بغير راسمال - كما هو واضح فى الأحاديث السالفة ، ثم يشجع على السعى فى طلب الرزق وعدم الاعتماد على المسألة فيقول : " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده " .

يحكى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه هذا الخبر : أتى رجل من الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما فى بيتك شئ ؟ " قال : بلى حلس(١) نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه من الماء . قال : " ائتنى بهما " ، فأتاه بهما فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : " من يشترى هذين " فقال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال صلى الله عليه وسلم : " من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا ؟ " قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما اياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما الانصارى وقال : " اشتر بأحدهما

---

(١) الحلس كل مايوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرحْل ، ومايبسط فى البيت تحت حرّ الثياب والمتاع .

طعاما فانبذه الى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به" فأتاه به فشد فيه رسول الله عودا بيده ثم قال : " اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما " فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا ، وببعضها طعاما ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " هذا خير لك من ان تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة ، ان المسألة لا تصلح الا لثلاثة : لذى فقر مدقع ، او لذى غرم مفظع ، او لذى دم موجع " ابو داود " كتاب الزكاة ، باب ماتجوز فيه المسألة حديث (٦٤) .

وطبقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون البطالة والمسألة لمن هو قادر على العمل اثم يحاسب المرء عليه يوم القيامة ويكون ذا علامة فاضحة فى وجهه تشير الى قعوده عن السعى فى طلب الرزق ، ويكون بذلك عاصيا أمر الله عز وجل فى قوله تعالى : " هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور "سورة الملك الآية ١٥ .

إن البطالة وما يستتبعها من المسألة امر يحرمه الاسلام تحريما صريحا ، طبقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم " البخارى – الزكاة – باب من سأل الناس تكثرا .

ان ثقافتنا نحن المسلمين وهويتنا ان نطلب العلم ، وان نمارس العمل والسعى فى الحصول على الرزق ، ومن ثم فالجهل مؤثم فى الاسلام والبطالة محرمة فى الاسلام ولذلك فان اكثر علماء المسلمين ومشاهيرهم كان اصحاب صنائع طبقا لما اسلفناه من قول حين ذكرنا من علماء المسلمين الزجاج والبزاز والطيالسى والكرابيسى والماوردى والزعفرانى وغيرهم من علماء المسلمين . اما انتشار الجهل بين المسلمين فى عصرنا وشيوع الفقر والبطالة بين ظهرانيهم ، فلانهم انصرفوا عن ممارسة منهج الله فى طلب

العلم والسعى فى اكناف الارض طلبا للرزق ، وبذلك صاروا مسلمين بالميلاد فقط ، وهؤلاء القوم لا يحسبون على الاسلام فى قليل او كثير ، فقد ذهب جماعة من الصحابة يمتدحون رجلا عند رسول الله كان يقضى كل وقته فى ، التعبد فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : " ومن الذى يطعمه " ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : " كلكم أفضل منه "

٧-التمسك باللغة العربية الشريفة

اللغة العربية لغة شريفة لانها لغة القرآن كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة ، والقرآن كلام الله ومصدر أحكامه ، واللغة العربية لغة سيد البشر وخير خلق الله وصاحب الرسالة الخاتمة ، وهو أفصح الفصحاء . وهى اللغة التى حملت العلوم كلها ، العلوم الدينية والعلوم الدنيوية والتطبيقية ، وقد أشرنا الى ذلك بشىء من الايجاز فى حديثنا عن العلم ، وباللغة العربية قيل عذب الشعر وأجمله وأحكمه ، وبها كتبت أبلغ الرسائل وأرق المكاتبات .

لقد وسعت اللغة العربية جميع العلوم من فلسفة ومنطق ورياضة وفلك ، وحساب وجبر ، وطب وصيدلة ، وفيزياء وكيمياء ، وكانت لغة الحضارة العالمية لقرون عديدة متتالية ،فسما شأنها وذاع فضلها ، لانها كانت لغة الدين والدنيا ، واما ادبها من شعر بفنونه ونثر بفروعه فقد اشترك العالم الوسيط من حدود الصين شرقا الى ساحل الاطلسى غربا فى التغنى بها والابداع فى محيطها

واللغة العربية هى حاضنة تراث العالم القديم ، فهى خازنة حكمة الهند وحضارة الفرس وفلسفة اليونان ، قام على ترجمة هذه الحضارات مترجمون بعضهم فرس وأخرون سريان وغيرهم من العرب .

واكثر الترجمات كانت لكتب الفرس وكتب اليونان فمن الكتب الفارسية

التى ترجمت الى العربية ، هزار افسانه ، خرافة ونزهه ، عهد ارد شير فى التدبير ، توقيعات كسرى ، آيين نامة ، التاج فى سيرة انوشروان ، كتاب كليلة ودمنة وهو بدوره كان مترجما عن الهندية .

وكان اشهر المترجمين – وكان يطلق عليهم اصحان اللسانين – عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هارون ، والفضل بن سهل ، وموسى بن سيار ، وعمر بن الفرخان ، والكندى الفيلسوف .

واما العلوم اليونانية من طب وفلسفة ومنطق وسياسة فقد قام على ترجمتها الى العربية علماء سريان من نصيبين والرها ومن علماء نيسابور .

هكذا تجمعت علوم الدنيا فى الحظيرة الاسلامية مكتوبة بالعربية ، مهضومة فى عقول العلماء المسلمين ووجداناتهم ، ولقد توفر علماء المسلمين على العناية بهذه العلوم الكثيرة فحافظوا عليها وأضافوا اليها بعد أن ضاعت معالمها بلغاتها الاصلية من فارسية وهندية ويونانية .

والعجب العجاب ان اصحاب الحضارات التى اشرنا اليها حين ارادوا التعرف على تراثهم لم يجدوه إلا فى اللغة العربية ، فأعادوا ترجمته منها الى لغاتهم ، هكذا صنع الفرس فى علومهم ، ومن الطريف ان كليلة ودمنة مفقودة فى النص الفارسى ، فأعيدت ترجمتها من العربية الى الفارسية ، وهى ايضا مفقودة فى اصولها الهندية ، فأعيدت ترجمتها الى الهندية من العربية .

والشيء نفسه حدث مع الفلسفة التي نماها وأضاف اليها فلاسفة المسلمين ، وكان أشهرهم فى المشرق ابا نصر الفارابى الذى لقب بالمعلم الثانى بعد ارسطو ، وكان اشهرهم فى المغرب والاندلس ابا الوليد بن رشد الحفيد الذى شرح فلسفة ارسطو ثم اعيدت ترجمتها الى اللغات الاوربية ومن ثم أطلقوا على ابن رشد لقب الشارح الكبير

ان اللغة العربية الفصحى هى ثقافتنا ، وهى هويتنا . ولذلك فان مما

يسبب الخجل لاجيالنا جهلها بهذه اللغة العربية الشريفة وغربتها في وطنها ، ذلك ان لغة التدريس فى الجامعات فى الوطن العربى هى اللهجة العامية او اللغة الانجليزية . هذا ولاينبغى ان نغفل ذكر طائفة من اصحاب الاقلام ، نادوا يوما ما باستعمال اللهجة العامية فى الكتابه ، وكان اكثر هؤلاء اما من الجاهلين باللغة العربية ، او الكارهين لها لرقة دينهم ، او من الحاقدين الاجانب الاعجام

ومن المفارقات اللطيفة ان احد الذين تحمسوا للعامية ونادوا باستعمالها فى الكتابة والحديث رجل ذو شهرة كبيرة هو الاستاذ احمد لطفى السيد ، الذى انتهى به المطاف ليكون رئيسا لمجمع اللغة العربية الذى يحتضن الفصحى ولا يعترف بالعامية .

ان اللغة الفصحى هى ركن متين من اركان هويتنا ، وشعار كبير من شعارات ثقافتنا ، وانه لمما يعيب زماننا تدهور مستوى هذه اللغة فى مدارس وطننا وجامعاته ، واضطراب مناهجها وسوء اختيار نماذجها وتعرى اكثر معلميها من معرفة ادنى قواعدها .

٨- مكانة المرأة فى ثقافتنا ومجتمعنا

المرأة هى الام والابنة والاخت والزوجة والعمة والخالة ، من هذا المنطلق فان مكانتها فى الاسلام أرفع منها فى أية عقيدة أخرى او مجتمع آخر ، يجيء ذلك من منطلق مرتبة صلة الرحم فى الاسلام مثلما يجيء من اصول العقيدة الاسلامية نفسها .

ان المرأة عادة تصير أما - الا فى حالات قليلة - ولقد وضع الاسلام الأم فى الدرجة الاولى والثانية والثالثة من الرعاية ، ثم يجيء ترتيب الاب فى الدرجة الرابعة ، والمسلمون جميعهم يذكرون إجابة رسول الله صلى الله علية وسلم عن سؤال وجه اليه : من أحق الناس برعايتى يارسول الله ؟ فقال

الرسول صلى الله عليه وسلم : امك . قال : ثم من ؟ قال : امك . قال ثم من ؟ قال ابوك .

وموقع المراة فى القرآن الكريم هو نفسه موقع الرجل ، فالله سبحانه يخاطب عباده بقوله تعالى : " يأيها الناس " او " يا أيها المؤمنون "،والناس طبقا لما هو معروف هم خلق الله من البشر ، ذكورا كانوا او اناثا ، والله سبحانه لكى يدخل الطمأنينه الى قلب المراة المؤمنة فانه تعالى يذكرها فى آياته مثلما يذكر الرجل ، والآيات كثيرة فى هذا السياق ، وتلك بعض أمثلتها:

** " من عمل صالحا من ذكر او أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ويرزقون فيها بغير حساب " " سورة غافر ٤٠" .

** " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة " النحل ٩٧ .

** " ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة " النساء ١٢٤ .

** " انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى " آل عمران ١٩٥ .

ولمزيد من تكريم المرأة فى القرآن الكريم ، فان كثيراً من آيات الكتاب العزيز تذكر المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات تأكيدا على تكريم المراة في كتاب الله . وتلك بعض آيات تكريم المرأة مع الرجل فى الكتاب العزيز :

" ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة وأجرا كريما " الاحزاب ٣٥.

ثم تجمع الآيه التالية وهى ٣٦ من السورة نفسها بين الرجل والمرأة فى مقام طاعة الله ورسوله فى قوله عز وجل : " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ".

والمرأة والرجل المسلمان ، قسيمان فى الولاية المشتركة بينهما فى الأمر بالمعروف وفى بقية مسئوليات الإيمان ، وذلك فى قوله تعالى " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم " التوبة ٧١.

ويتبع المولى سبحانه وتعالى بشراه للفريقين من المؤمنين والمؤمنات بوعده لهم بالثواب العظيم فى جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ، وذلك فى الآية التالية للآية السابقة فى قوله جل وعز " وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله اكبر ، ذلك هو الفوز العظيم " التوبة ٧٢ .

وان الذى يتتبع آيات الكتاب العزيز سوف تكتحل عينه بعشرات الآيات فى تكريم المرأة خاصة والنساء عامة ، فى الجمع بينهن وبين الرجال فى الآية الواحدة ، مما يؤكد فوز المرأة بالتكريم فى كتاب الله .

اما وان كتاب الله هو كتاب الاسلام الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونحن بدورنا مسلمون بفضل الله وكرمه ، والإسلام هو هويتنا ومصدر ثقافتنا ، فالنتيجه ان المرأة فى الإسلام قد حازت من التكريم مالم تحزه فى ديانة اخرى او حضارة اخرى .

واذا كانت للمرأة قضايا ومشكلات عند الأمم الأخرى والعقائد الأخرى ، فان ليس فى الاسلام ثمت مشكلة للمرأة فى قليل او كثير .

وكان دور المراة فى الدعوة الاسلامية فى مراحلها الاولى عظيما ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " انما النساء شقائق الرجال " بمعنى ان للنساء ما للرجال وان عليهن ما على الرجال .

وليس امرا عجبا ان يكون اول من اسلم من البشر امرأة ولكنها امراة عظيمة ليس كمثلها امراة أخرى ، انها ام المؤمنين خديجة الكبرى التى شاركت رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما كابده من اضطهاد فى الدعوة الى الله ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بشروا خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب " . لقد شاركت خديجة رضى الله عنها ومعها نساء الصحابة الأولين فى أعباء الدعوة ، ومنهن من هاجرن إلى الحبشة حفاظا على عقيدتهن من الفتنة ، ولعل أشهرهن أم حبيبة بنت أبى سفيان التى صارت أم المؤمنين بعد عودتها وزواج رسول الله منها ، وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب .

فلما كانت مرحلة الهجرة وعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على تنفيذها ، كان بين أصحاب بيعة العقبة الثانية من أهل يثرب امرأتان شاركتا فى البيعة ، هما أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى وأم عمارة نسيبة بنت كعب الانصارية .

كانت أم عمارة ذات مشاركة فى مراحل الدعوة والغزوات منذ شهدت بيعة العقبة ، فشهدت غزوة أحد وعمرة القضية وحنينا ، وروت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت تخرج إلى القتال فتسقى الجرحى وتمارس القتال بساعدها ، وقد أبلت يوم أحد بلاء حسنا، وجرحت اثنى عشر جرحا بين طعنة رمح وضربة سيف ، وقد رؤيت يوم أحد تقاتل أشد القتال وأمها معها تعصب جراحها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدّث عن يوم أحد وذكرت أم عمارة يقول : " ما التفت يمينا ولا شمالا إلا رأيتها

تقاتل دونى " .

وظلت أم عمارة تدافع عن الاسلام بسيفها ، وحضرت يوم اليمامة مع جيش حرب الردة فقاتلت قتال الأبطال ، فجرحت وقطعت يدها فانصرفت عائدة إلى المدينة تداوى جراحها ، فكان الخليفة أبو بكر يعودها ويسأل عن حالها .

هذه هى المرأة فى الإسلام ، شاركت فى عظائم الأمور ، وحملت السيف فى نصرة دين الله حيثما احتاج الموقف إلى مناصرة تسافر المسافات وتقطع المفاوز .

وفى حديثنا عن المرأة فى ثقافتنا وهويتنا نذكر الخنساء الشاعرة الباكية قبل الاسلام ، المؤمنة المجاهدة الصابرة بعد إسلامها ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع إليها تنشد شعرا ويقول معجبا بشعرها : هيه يا خناس ويومى بيده .

ومثلما حضرت أم عمارة حرب اليمامة فإن الخنساء حضرت موقعة القادسية وقذفت أبناءها الأربعة إلى ساحة القتال وقد شحنتهم ببلاغتها قائلة : يا بنى أنتم اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم ابناء امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية . يقول الله عز وجل : " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون " فإذا أصبحتم غدا فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ولله على أعدائه مستنصرين .

لقد خاض الابناء الأربعة غمار المعركة يقاتلون وهم ينشدون الأراجيز ، ويتقدمون فى وجه جيوش الفرس حتى استشهدوا جميعا الواحد بعد الآخر .

فلما بلغ أمهم خبر استشهادهم **قالت فى إيمان وصبر : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .**

إن صحابيات رسول الله صلى الله عليه وسلم كن فارسات الحرب ، وراويات حديث رسول الله فى السلام ، وزوجات صالحات وأمهات عظيمات وعابدات مستغفرات ، وإن فى ذكر أخبارهن زهو ومتعة ، وفى الحديث عن جهادهن جلال وفخار .

إن المرأة المسلمة قادت الجيوش وتبوأت سدة الملك ، منهن الحرة الصليحية أروى بنت احمد الصليحى الملكة اليمنية الحازمة المدبرة التى كانت تلقب ببلقيس الصغرى ، لما أصيب زوجها السلطان المكرم الصليحى ، بالفالج ، فوض الأمور إليها فاتخذت لها حصنا منيعا وقامت بتدبير المملكة والحروب ، وكانت ترفع إليها الرقاع ويجتمع عندها الوزراء وتحكم من وراء حجاب ، وكان يدعى لها على منابر اليمن وامتد حكمها أكثر من اربعين سنة.

ثمت أخرى من النساء المسلمات اللائى ولين أمر السطة هى الملكة شجرة الدر وتاريخها معروف ودهاؤها ممتدح وهى واحدة من أبطال الحروب الصليبية .

والمرأة المسلمة تولت القضاء والفتيا ورواية حديث رسول الله حتى إن بعض الحافظات كن يلقين بالمسند لضبطهن حديث رسول الله حفظا ورواية مثلما كن استاذات لكثير من أعلام علماء الاسلام كالجلال السيوطى الذى عدد من شيخاته اكثر من عشر حافظات راويات .

لقد أعطى الاسلام المرأة المسلمة من الحقوق والمقومات ما لم تحظ به المرأة فى اى مجتمع غير اسلامى ، لقد منحها حرية اختيار الزوج ، وحافظ لها على ذمتها المالية مستقلة برغم زواجها ، ومنحها حق التعلم وحق الميراث والاحتفاظ باسمها واسم عائلتها بعد الزواج ،وذلك على عكس المرأة

الأوربية والأمريكية التى تفقد لقب عائلتها بعد زواجها وتحمل اسم زوجها ولقب أسرته .

تلك هى المرأة تحت ظل عقيدتنا ، هذى حياتها وحقوقها فى ثقافتنا الاسلامية وهويتنا العربية كريمة عزيزة عفيفة ذات خفر واحتشام .

٩- الشــورى

الشورى هى نظام الحكم فى الاسلام ، وهو ما ننادى به ونسعى إلى تطبيقه ، فإذا كانت الشعوب غير المسلمة تنادى بتطبيق الديمقراطية فى نظام الحكم ، فنحن المسلمين – من منطلق عقيدتنا التى فرضت الشورى نظاما للحكم عندنا – ندعو إلى تطبيق الشورى فى الحكم التى تصور جانبا من هويتنا وقدرا من ثقافتنا .

إن الديمقراطية نظام برغم علمانيته، يدعو إلى العدالة فى الحكم ، ولكن نظام الشورى أسمى من النظام الديمقراطى ، ذلك أن الديمقراطية يمكن أن تجيز ما يصطدم مع الفضائل بإباحة الزنا بأنواعه من لواط وسحاق ، وتحل الربا وتبيح الميسر ، كما أن الديمقراطية قد توافق على الطعن فى العقائد السماوية ، والدعوة إلى إنكار الألوهية والرسالات ، ولكن الشورى لا تجيز شيئا من ذلك ، لأنها تطبق قانون السماء الذى نزله خالق البشر .

ونحن المسلمين حين نراجع وصف القرآن الكريم لنظام الحكم فى مجتمعنا ، نقرأ قول الله عز وجل : " وأمرهم شورى بينهم " هكذا وصف الله مجتمعنا ، ومن ثم فتلك هويتنا السياسية وثقافتنا الحكومية . والله سبحانه أمر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بنظام الشورى وذلك فى قوله عز وجل : " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر " .

ولقد أمر الله سبحانه عباده أن يكون الحكم شورى ، وترك لهم اختيار لون الشورى الذى يناسب الزمان والمكان والعصر والمجتمع . وإن كان

الشارع المسلم قد حدد شكلها العام فى مؤهلات رئيس الدولة من علم وعدل ورأى وشجاعة وسلامة العقل والأعضاء ، وكذلك مؤهلات من ينتخبوه التى أهمها العلم والعدل والرأى .

وقد نالت الشورى قدرا كبيرا من اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فيها عددا من أحاديثة الشريفة ، يحسنها ويحض على العمل بها ويرغب فيها ، فمن أقواله صلى الله عليه وسلم فى الشورى :

* " ما تشاور قوم إلا هداهم الله لأرشد أمورهم " .
* " الحزم فى مشاورة ذوى الرأى وطاعتهم " .
* "من نزل به أمر فشاور من هو دونه تواضعا منه عزم له على الرشد".

ولمبلغ اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشورى فإن عددا غير قليل من أحاديثه فى شأنها ، قد جرى مجرى الأمثال السائرة ، فمن هذه الأمثال السائرة قوله صلى الله عليه وسلم :

* " ما خاب من استخار ولا ندم من استشار " .
* " لن يهلك امرؤ بعد مشورة " .
* " المستشار مؤتمن " .
* " المستشار معان " .
* " المستشار بالخيار إن شاء قال وإن شاء أمسك " .
* " المشاورة حصن من الندامة، وأمن من الملامة " .

ولقد أكد حكماء الصحابة وبلغاء العرب وشعراؤهم على الشورى فى حياتهم واعتبروها مفتاح النجاح ومنطلق التوفيق بحيث صارت الأقوال فيها من نفيس تراثنا الذى نحفظه ، وجليل ثقافتنا التى نحافظ عليها .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : " شاور فى أمرك من يخاف الله عز وجل " . وقال أكثم بن صيفى : المشورة مادة الرأى . **وقال الحسن**

البصرى : إن الله لم يأمر نبيه بمشاورة أصحابه حاجة منه إلى رأيهم ، ولكنه أراد أن يعرفهم ما فى المشورة من بركة .

وقيل لرجل من بنى عبس : ما أكثر صوابكم ؟ !! قال : نحن ألف وفينا حازم واحد ، ونحن نشاوره ونطيعه ، فصرنا ألف حازم .

ومرّ حارثة بن زيد بالأحنف بن قيس فقال : لولا أنك عجلان لشاورتك فى بعض الأمر ، فقال الأحنف : يا حارثة ، كانوا لا يشاورون الجائع حتى يشبع ، والعطشان حتى ينقع ، والأسير حتى يطلق ، والمضلّ حتى يجد ، والراغب حتى يمنح . وقال يحيى البرمكى : لا تشيرن على عدوك وصديقك إلا بالنصيحة ، فالصديق يقضى بذلك حقه ، والعدو يهابك إذا رأى صواب رأيك .

ومثلما جرى حديث المشورة ذلولا دافئا ، على ألسنة الحكماء ، فإنه انبثق دافقا من ملكات الشعراء . فيقول الجاحظ إن أبلغ ماقيل فى المشورة من شعر ، هو قول بشاربن برد :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم

إن الاصمعى وقد سمع هذا القول من بشار قال له : يا أبا معاذ إن الناس يعجبون من أبياتك فى المشورة فيجيبه بشار قائلا : يا أبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشاركُ فى وزره . فيقول له الأصمعى : أنت والله فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك .

ولعل هذا التعليل الحكيم الذى قاله بشار للأصمعى مأخوذ من قول عمرو بن العاص : ما نزلت بى قط عظيمة فأبرمتها حتى أشاور عشرة من قريش مرتين ، فإن أصبت كان الحظ لى دونهم ، وإن أخطأت لم أرجع على نفسى بلائمة .

إن المشورة فى ديننا وثقافتنا وأدبنا وتراثنا تمثل صفحة وضاءة فى تاريخنا وكياننا ، ومن ثم فقد صاحبت الحكمة حتى الأميين من شيوخ القرى ورؤساء الأسر ، يصوغونها فى لغتها العربية السليمة فإن أعجزهم التعبير عنها قالوها بلهجة عامية ، الأمر الذى يؤكد أن المشورة جزء من تكويننا ، وشطر من بنية ثقافتنا .

١٠- مكارم الأخلاق

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، ونحن أمة مكارم الأخلاق نسعى إلى التحلى بها والانصراف عن الصغائر حتى نكون جديرين بكوننا أتباع رسول العزة ونبى الرحمة الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق .

ونحن بعد ذلك كله عبيد الله ذى الجلال ، وعباد الرحمن الرحيم الذى وصفهم الله فى كتابه العزيز فقال جل من قائل : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جنهم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقرا ومقاما * والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما * والذين لا يدعون مع الله إلها آخرا ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامه ويخلد فيه مهانا * إلاّ من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما * ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا * والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما * والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما * أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما

خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما " الفرقان ٦٣ - ٧٦ .

ونحن بعد ذلك أيضا فى ثقافتنا وهويتنا نتبع فى حياتنا قول الله عز وجل " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " " النحل ١٢٥ - ١٢٨ .

ونحن بسبيل الانتهاء من هذه المحاضرة فإننا لا نجد مناصا من أن نشير إلى بعض الانحرافات والعيوب فى مجتمعنا نذكرها فى سرعة وإيجاز وأهمها .

* الجهل بالدين مع ادعاء المعرفة به .

* إهمال تدريس الدين فى الجامعات وضعف تدريسه فى المدارس .

* كثرة المدارس التنصيرية وانتشار مدارس اللغات على حساب اللغة العربية .

* إهمال تدريس اللغة العربية وضعف مستوى معلميها وسوء مناهجها وكتبها المدرسية .

* تقصير الوالدين وبخاصه الأمهات في تربية أطفالهن وتفضيل العمل خارج البيت على المهمة المقدسة وهى تربية الأبناء .

* جهل خطيب الجمعة بأركان وظيفته المقدسة وأخطاؤه وهو يتلو آيات الكتاب العزيز وحديث رسول الله . هذا فضلا عن اضطراب معلوماته وتشوش فكره وإطالته الوقوف على المنبر .

تلك بعض العيوب التى ينبغى ذكرها حتى نعدّ العدة لتلافيها والاتجاه نحو الاصلاح والصواب .

المحاضرة الثالثة عشرة

مفاهيم خاطئة يجب تصحيحها

لأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

٧ مايو ١٩٩٦م

١٩ ذى الحجة ١٤١٦هـ

جانب من الحضور :

الاستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى يعلق على المحاضرة والى يمينه المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى فالمحاضرة

الأستاذه الدكتورة / نعمات فؤاد

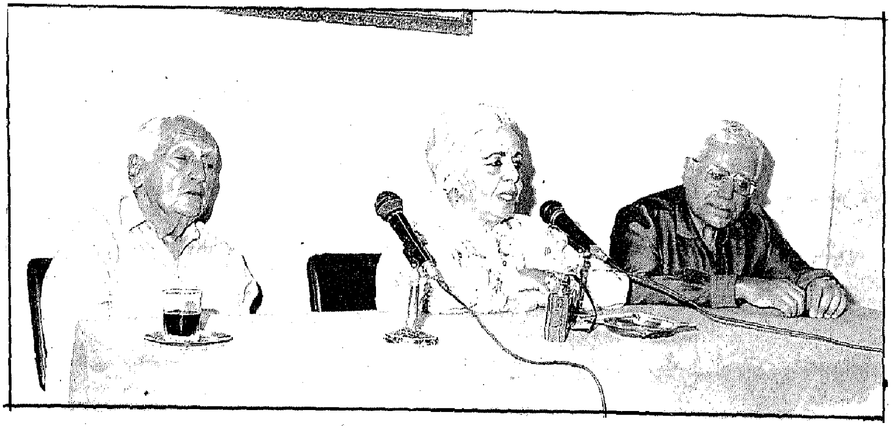

على المنصة : المحاضرة الاستاذة الدكتورة نعمات احمد فؤاد وعلى يمينها الاستاذ رشاد المراغى وعلى يسارها المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

يسر الجمعية الخيرية الاسلامية ، ان تختتم موسمها الثقافى لسنه ١٩٩٥ / ١٩٩٦ بمحاضرة الاستاذة الدكتورة / نعمات احمد فؤاد عن موضوع (مفاهيم خاطئة يتعين تصحيحها).

واستاذتنا المحاضرة قمة مصرية من ابرز أعلام عصرنا ، وهى من مواليد صعيد مصر محافظة المنيا . وتحكى عن صباها فتقول (ان من خير ما أعطانى أبى هو تحفيظى القرآن الكريم) .

وهى استاذه فلسفة الحضارة والمشرفة على الدراسات العليا بجامعة حلوان ، وترأس الجمعية العلمية للمحافظة على التراث والآثار التاريخية ، ورئيسه جمعيه دار المصطفى لرعاية الموهوبين ، واختيرت واحدة من عشرة أعضاء يشكلون المجلس الدائم لهيئة الفنون الاسلامية بلندن .

وللاستاذه الدكتورة / نعمات أحمد فؤاد نحو اربعين كتابا فى الادب والنقد والسياسة والدين والفن منها : كتاب دراسة فى أدب الرافعى ، وكتاب ناجى الشاعر ، وكتاب الى ابنتى ، وكتاب ابو القاسم الشابى / شعب وشاعر ، وكتاب قمم أدبية ، وكتاب شخصية مصر ، وكتاب خصائص الشعر الحديث ، وكتاب النيل فى الأدب المصرى ، وكتاب إعاده كتابة التاريخ ، وكتاب احمد رامى / قصة شاعر واغنية ، وكتاب مشروع هضبة الاهرام / أخطر اعتداء على مصر ، وكتاب مصر تدخل عصر النفايات ، وكتاب عن عبقرية الاسلام ، وكتاب قبة الإمام الحسين / قضية حكم . فهى عالمة موسوعية ، وقد شاركت فى العديد من المؤتمرات الدولية ، وأسهمت فى بحوثها وتوصياتها .

ولم تقف شهرة استاذتنا المحاضرة الدكتورة / نعمات احمد فؤاد بعطائها الفكرى المتميز فى مختلف قضايا الأدب والفن والتراث والسياسية القومية ، وانما كان لها جهاد ومواقف وطنية معروفة : سواء ما كان منها لحماية الآثار كمشروع هضبة الاهرام ، او ما كان لمنع دفن النفايات الذرية فى مصر ، أو ما كان لمنع المساس بمياه النيل . . . الى آخره من المواقف الوطنية العديدة ، والتى اضطرت بسببها ان تخوض معارك صحفية عنيفة ، ودعاوى قضائية قومية تداولتها المحاكم فى مصر والخارج ، وقد كسبت بعضها دفاعا عن حرمة مصر ومازال البعض منظورا دفاعا عن تراث مصر وآثارها .

ولمحاضرتنا كلمات مضيئة ، هى بمثابة معالم وشموع على الطريق :

- **من ذلك قولها** : الانسان الحق هو الذى له قيم ومواقف ، وهو انسان قدوة وصاحب رسالة ... وانه كلما ازداد علمه وتوسعت قدراته ، كلما كبرت قيمته وتعددت خدماته ، وبالتالى صدق عليه الحديث النبوى (أحب الناس الى

الله أنفعهم للناس) ؛ وصدق الله العظيم (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس) .

- **ومن ذلك قولها** : ان قراءة القرآن وحفظه هو فى ذاته حياة ، وقد اكرمنى أبى بتحفيظى القرآن الكريم . . . وان القراءة والكتابة هى بنص تعبيرها " الوجود النفيس " ، حتى لقد اقسم الله بالقلم لجلاله وقيمته .

- **ومن ذلك قولها** : اذا كان نيلنا العظيم قد روى أرض مصر ، فان سيناء الحبيبة قد روتها دماء المصريين . . . يقول المتصوفة : المحبه علم بالمحبوب ، وحب مصر الحقيقى ، علم بها وعمل لها دائب موصول .

- **وهى تردد دائما** ان الناس تصبر وتصبر وتصبر ، وتكدح وتكافح وتكابد ، طالما كان هناك بصيص من الأمل .

فأهلا بمحاضرتنا الاستاذة العالمة المكافحة ، صاحبة الرسالة والمواقف ، لتحدثنا عن مفاهيم خاطئه يجب تصحيحها ، وفقها الله وسدد خطاها وجزاها عن مصر خير الجزاء .

كلمة الأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

المسلمون المصريون والجزية

كتبت طويلا تحت عنوان أومن به :

(مصريون قبل الاديان،ومصريون بعد الاديان،ومصريون الى آخر الزمان).

تناولت الحقائق الغائبة وراء ظاهرة جديدة علينا هى الفتنة الطائفية ، ومن هذه الحقائق :

- الجذور الواحدة للمصريين من مسيحيين ومسلمين ، بعيدا عن الغزوات من أى لون .

- توثيق النسبة العددية .

- نفى الغبن الموهوم .

- موقف ، مصر الحضارة ، من الاديان .

بقيت نقطه هامة : الجزية

الجزية موضوع للحسم بما اكتنفه من غموض وابهام وأوهام بلغت حدا ربط فيه البعض بين الجزية ، وبين الاسلام فى مصر .

ومن هنا تتحتم المناقشة التى تجلو الشك ، وتصل الى يقين تسفر فيه الحقيقة ، فنلتقى جميعا عند تاريخ نسجناه معا ، وعشناه معا . . . تاريخ سافر فينا وسافرنا فيه ، فانتماؤنا اليه يعلو على التفرقة والتفتيت ، فتصفو النفوس من أدرانها ، وترشد على طريق الله والوطن خطاها .

مصر . . اعتنقت الاسلام عن ايمان به ، لا هربا من الجزية التى كانت دينارين لا غير فى السنه على رب الاسرة ، يعفى منها الشيوخ والمرضى والنساء والاطفال أى الذين لا يحملون السلاح ، والجزيه هنا تقابل الدفاع أى بدل عسكرى . بينما الاسلام يفرض الزكاة ، زكاة الفطر على كل فرد فى الأسرة حتى الطفل الذى يولد ليلة العيد ، هذا غير زكاة المال ، وزكاة الزرع والثمر . .

فالزكاة كفريضة واجبة الأداء ، عبء مادى أكبر كثيرا من الجزية التى هى فى الوقت نفسه مقابل حماية الثغور أى تشمل الإعفاء من الجندية التى يحتمها الاسلام للدفاع كما أشرت .

والدفاع فرض على الدولة والشعب معا لا أمان بدونه فيتحتم أن يُجند القادر عليه . . . أما غير القادر فيدفع البدل العسكرى وهذا متبع فى جميع الدول إسلامية ومسيحية . . . فالجندى المسيحى لا يدفع ولا يطلب منه البدل العسكرى . . حتى فى زمن الفتح فقد كانت الجزية تسقط بالتجنيد .

وفى سنة ١٩٧٣ كان رئيس الجيش الثالث مسيحيا ، فهل دفع القائد البطل بدلا عسكريا تحت أى اسم من الأسماء ؟ **لقد اختلطت دمانا على أرض المعركة لأنها معركتنا معا وأرضنا معا . . . ويوم داهم جنودنا ، العدو على الضفة الأخرى من القناة تدافعوا مكبرين مسلمين ومسيحيين فى صوت واحد : الله أكبر ، الله اكبر .**

آمنت مصر بالاسلام الذى يعلى قيمة " **المساواة** " وكأنها تنشد السماحة والعدل والهدوء بعد لفح الهجير . . بعد عنجهية الرومان .

اعتنقت مصر الاسلام لالتقائه معها فى مفاهيم كثيرة ، فقد اهتدت منذ ألوف السنين بالفطرة السليمة وبالدفع الحضارى معا الى عقيدة البعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار . بل اهتدت الى التوحيد وابتهلت وتبتلت وشكرت وتهجدت ونصبت الميزان وحرمت الخمر ، واعتبرت الخنزير نجسا ، وسنت الاغتسال للتطهر ، وأحيت الطيب والخضاب ، واحترمت الأسرة وقالت برعاية الأم وأكبرت الاب وأعلت مكان الزوجة .

آمنت مصر بالاسلام لبساطته فى وقت تصارعت فيه المذاهب المسيحية ، واشتد الجدل بينها خاصة بين القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين (ناسوت ولا هوت) .

بقيت نقطة أخرى هامة وهى أن المسيحية وقت الفتح العربى كانت متمركزة فى الاسكندرية والفيوم فقط .(١)

هذا موقف الاسلام من الأديان .. أما موقفه من الحضارات فموقف

---

(١) السبب أن الاسكندرية كانت عاصمة الرومان ، فركز المسيحيون المصريون المقاومة فيها .
أما الفيوم فكانت لبعدها ، مهربا لأولئك الذين ثقلت عليهم وطأة الرومان .

السماحة والتواضع والذكاء معا .. لم يحارب حضارة من الحضارات بل وقف منها متفهما يستقى ما يناسبه .. فعل هذا مع مصر فنمته ونماها .. وأعطته وأعطاها .. وفعل هذا مع فارس بل والصين .

لقد خرج هولاكو والتتار من صحراء فدمروا وألقوا بمكتبة بغداد فى النهر لتكون موطئا لخيولهم . . وخرج العرب من صحراء فعمروا فى الشرق والغرب لأن قلوبهم كانت عامرة بالمعانى التى أشباعها الإسلام ومنها روح البناء .. بناء الانسان وبناء المكان ... **لقد حالت روح الاسلام دون الهدم حتى فى الحروب فحرم هدم المنازل أو بيوت العبادة أو قتل النساء والشيوخ والاطفال .**

وليس معنى هذا أنه لم يحدث هدم فى دولة العرب ودولة الإسلام ، فالملوك كما يقول الجاحظ من شأنهم (أن يطمسوا آثار من قبلهم والعمل على إماتة ذكر أعدائهم فقد هدموا لهذا السبب المدن والحصون)

ولكن يبقى بعد هذا خمسة وعشرون مدينة بناها الاسلام فى تاريخ (دولته) و (حضارته) منها " بغداد " فى العراق ، و" اللد " فى فلسطين .

إن مصر يلتقى ابناؤها مسيحين ومسلمين ، فى العادات والآلام والآمال ، بل فى الشكل والثياب .وإن كان كرومر يعزو هذا فى خبث المستعمر ودهاء الخبيث ، الى تأثر الأقلية بالأغلبية على حد تعبيره هو ، مستمدا الشواهد من الهند بين المسلمين والهندوس .... ولا أدل على تعصبه هو ، من مهاجمته فى أكثر من موضع ، مواطنه ادوارد وليم ، لاعتداله فى كتابه عن المصريين المحدثين :

(The Manners and Customs of Modern Egyptians)

والأقباط الذين يتغلل بهم كرومر ، أدانه أحد أعلامهم وهو الأستاذ سلامه موسى فى كتابه (تربية سلامة موسى) قائلا (إنه كان طاغية عاش وعربد

فى كياننا الاقتصادى والسياسى وعطل بلادنا عن التطور ، وإنـه كـان جـاهلا يتشدق بعبارات لاتينية أو إغريقية قديمة ولا يعرف شيئا من العلوم العصريـة الجديدة) .

وقد فصل هذا بالأرقام والاحصاءات الاستاذ رشدى صالح فى كتابه (كرومر فى مصر) . ويبدو ان خلفه " جورست " لم يكن أقل سوءا منه ... فيروى الأستاذ سلامة موسى أنه إبان الانبعاث الوطنى فى الأمة المصرية عمد "جورست " الى (مناورة استعمارية هى إيجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والأقباط ، فكان الموظفون الانجليز يحرضون الأقباط من ناحية على المسلمين ، ثم يعودون فيحرضون المسلمين من ناحية أخرى على الأقباط) .

ولم يقصر " كتشنر " فى هذا المضار .

إن الاستعمار ، هو الاستعمار تحت جميع الأسماء ، ما أشبه الليله بالبارحة.

إنه الاستعمار وراء الفتن ، فهو فى مصر يستهدف الوحدة الوطنية ، وهو فى الهند يعمق - عن عمد - الصراع الدينى بين المسلمين والهندوس ، كما يقول الدكتور جمال حمدان فى كتابه (العالم الاسلامى المعاصر) . مثلما عمق الخلاف بين سنية الشمال وشيعة الجنوب فى العراق ، بل حاول الاستعمار القول بشيعية ايران قبل إسلاميتها ، تدميرا للوحدة الدينيه بعد الوطنية .

إن مصر لم تعرف الفتن الأهلية الدموية كالتى وقعت فى انجلترا فى عهد تشارلس الاول وانتهت بقتله ، والتى وقعت فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر ولم تنته بقتله فقط بل إشتد ظمؤها للدماء فاستباحت الثورة عليه ،

والقتل حتى أتت على أصحابها أنفسهم . وما تخلل هذا كله من مآس فصلها الاستاذ عبد الله عنان في كتابه : (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) .

لم تعرف مصر الحروب التى دارت بين المدن اليونانية ، ولم تعرف مصر محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق ، وما وقع فى أسبانيا عقب خروج العرب من الاندلس .

ولم يحدث فى مصر ماحدث فى محاكمة الليدى جان جراى فى انجلترا ، التى كان الدافع القوى على إعدامها كونها بروتستينية ، فى حين كانت الملكة مارى التى حاكمتها كاثوليكية . أما التعلات الأخرى ، فمارى تعلم جيداً أن جان ذات السبعة عشر ربيعا لا يد لها فيها .

وقد لاحظ عبد الله النديم فى مجلة " الاستاذ " – الجزء الرابع من السنة الأولى – أن الحروب الصليبية أو الثورة العرابية لم تشب إحداهما ما بين المسلمين والأقباط من صفاء أو ترابط .

يقول الأستاذ العقاد : من الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسحيين سواء فى تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فى الأصالة والقدم عند الانتساب إلى هذه البلاد " .

ويقول الدكتور سليمان حزين فى بحثه عن سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسى إن " الطابع الجنسى العام للمصريين قد وحد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون " :

المسلمون منا والمسيحيون يعرفون أن الإسلام ينكر العصبيات ، ويؤكد هذا الأستاذ صبحى وحيدة وهو مصرى مسيحى فى كتابه : " أصول المسألة المصرية "

ويؤيد هذا الواقع الذى يقول إن عددا من رؤساء محاكم الاستئناف مسيحيون ، وليس منصبا أرفع من القاضى فى قدس حماه .

وإذا أردنا عودة إلى الأمس البعيد والقريب نجد أنه فى سنة ١٨٧٤ عندما شرعت نظارة الحقانية فى التحضير للمحاكم المختلطة ، انضم بطرس غالى باشا إلى محمد قدرى باشا فى ترجمة قوانين هذه المحاكم إلى اللغة العربية وتعريب التشريع الذى مازالت مصر تأخذ به إلى اليوم .

لقد أنشأ بطرس غالى باشا ، الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨١ ، فخطب فى حفل الافتتاح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله النديم .

وأقال الخديوى عباس ، الشيخ سليم البشرى من مشيخة الأزهر ، فخف اليه بطرس غالى باشا يعرض مساندته ويقف الى جانبه .

لقد مات بطرس باشا مقتولا برصاص ناصف الوردانى ، كما مات من بعده احمد ماهر باشا مقتولا برصاص محمود العيسوى ، والقاتل والقتيل فى الحالين كانا يعملان لمصر من وجهتى نظر مختلفين .

والذين يهولون من شأن عدم تعيين محافظ مسيحى ، ينسون أن المحافظ فى محافظته هو حاكم الاقليم نيابة عن رئيس الجمهورية الذى هو حاكم مصر ... والقياس طبيعى ... والحيثيات واحدة .

إن عددا وافرا من أساتذه الجامعات ، وعددا من رؤساء تحرير الصحف والمجلات ، وعددا من الاعلاميين ومديرى المصالح . . الخ مسيحيون وهذا أيضا لا غبار عليه ... **بل إننا على المستوى الفردى نجد كثيرين من المسلمين يتعاملون فيما يتعلق بحياتهم مع الطبيب المسيحى والمحامى المسيحى دون أى مفاضلة أو تمييز، وإن كان هذا لا ينفى وجود متعصبين فى الجانبين ، ولكن القاعدة العريضه سليمة . . . واعية .**

لقد كنا من قرون نتبادل قناديل المساجد والكنائس فى الاحتفالات الدينية فى الجانبين ، ونحن اليوم تجمعنا عادات واحدة وأعياد مشتركة مثل : وفاء

النيل وليلة النقطة ، وشم النسيم ، فكلها أعياد مصرية قديمة صاحبتنا مع الزمن وصاحبناها لأننا مصريون .

بقيت نقطة تطبيق الشريعة الاسلامية .

إن الأقباط يطبقون الشريعة الاسلامية من تلقاء أنفسهم وبمحض إختيارهم في المواريث ، لأن المسيحية ليس فيها تشريع . ولو كان فى المسيحية تشريع ، لاعترف به الاسلام وأقره لأنه يعترف بالأديان السماوية جميعا فى سماحة ونقاء . فما وجه الحساسية فى الشريعة الاسلامية وهى التى تسوى بين المسلمين وغيرهم فى الحقوق والواجبات فى عدالة رفيعة مرتفعة شماء ؟ ... وهل الشريعة الإسلامية دون القوانين الغربية الموجودة فى الساحة ؟ على أن بعض هذه القوانين استشرف الى الشريعة الإسلامية وقبس منها أقباسا مشهودة . وفى مقدمة هذه القوانين ، القانون الفرنسى ، الذى وقف عنده طويلا المشرع المصرى الحديث . فالدكتور عبد الحميد متولى رئيس قسم القانون العام بجامعة الاسكندرسة يقرر فى كتابه (الاسلام وموقف علماء المستشرقين) أن بعض رجال العلم من الفرنسيين رحل فى أوائل القرن الحادى عشر إلى الأندلس ونقل من مدارسها الإسلامية ما يلائم بلده فرنسا من الفقه الاسلامى .

والتشريعات الحديثة اليوم تأخذ من الفقه الاسلامى :

* نظرية الضرورة
* حماية الطرف الضعيف العقل

وهذا إقرار بانسانيات الإسلام . . فهل هناك مكان بعد هذا ، للتخوف من تطبيق الشريعة الاسلامية ؟ كغيرها من أجل مصر ، التى لا تنقصها الآلام .

إن التقوى الحقيقية عند مصر هى الحب . . حب الله وحب المعنى . . وحب الانسان . . وحب الحيوان . . وحب الأشياء .

التقوى الحقيقية عند مصر تتمثل فى : الفن حين جسمت عقائدها فى الروح والبعث والخلود ، أعمالا فنية شامخة .

وفى الفن المصرى تعانق الإسلام والمسيحية ، لأنهما معا ينبعان من الفن المصرى القديم . وفى مكتبة جوثا . كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق في كتابه الفن المصرى الاسلامى : " فى مدينة ميونخ رق يتضمن صفحة من القرآن بها زخارف بسيطة وأشرطة تفصل بين السور بعضها وبعض ، تتضمن زخاف هندسية متأثرة بالفن القبطى الى حد بعيد " .

وليس البردى وحده أو زخرفة الكتب ، بل إن التقاليد القبطية فى زخرفة الخشب استمرت سائدة بعد الفتح العربى . . . ويضم المتحف الإسلامي الكثير مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية .

بذا يشهد المسلمون . . وبروعة الزخرفة الإسلامية يشهد المسيحيون ، فالاستاذ بشر فارس فى كتابه القيم (سر الزخرفة الاسلامية) يقول (ما أحسبك تلقى ملة كبيرة تحضرت فأنست باللطيف والدقيق من العمران ، تسلم سكناتها لأسرار دينها وتوثق إشاراتها بأحكام مفروضة ، فوق ما أسلمت الملة الاسلامية وأوثقت) .

ومضى يفسر الزخرفة الاسلامية مستلهما روح الاسلام بما يشهد ، بتفوقه فيه ، كبار الفنانين الاقباط .

لقد استعان المسلمون بقبط مصر ، فاستعان بهم الوليد فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى وقصر المؤمنين . ويضيف " البلاذرى " فى (فتوح البلدان) مسجد المدينة فيما أعانوا عليه . وكأن الوليد يتوسم خطا أسلافه الذين استعانوا بأقباط مصر فى إعادة بناء الكعبة قبل الاسلام . . . وكأن مصر منذ بنى ابراهيم واسماعيل بن (هاجر) المصرية، الكعبة ، آلت على

نفسها أن يكون البناء على يديها ، فعادت الى بناء الكعبة أيام الظاهر بيبرس ، وفى العهد العثمانى وفى عهد محمد على .

إن اقباط مصر هم الذين بنوا أول محراب مجوف فى الاسلام على مثال من حنية الكنيسة ، كما تأثر بفن مصر المسيحية فى الزخرفة والبناء قصر المشتى فى شرق الاردن الذى يلمح الدير الأبيض والدير الأحمر بسوهاج . ومن عطاء مصر للفن الاسلامى بعد المحراب : المئذنة والقباب ، كما جاء فى كتاب " فن مصر خلال العصور " .

لقد نهض المصريون أقباطا ومسلمين فى العصر الفاطمى – وهو العصر الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية – بالفن الاسلامى المصرى نهضة فيها من إحساس مصر ووجدانها وذوقها الحضارى ، ما أضفى على فن مصر الاسلامية طابعا مميزا وشخصية فذة ، حتى أن بعض آثار مصر الاسلامية كمشهد الامام الشافعى يعد كما يقول الدكتور عبد العزيز "مرزوق " : منعدم النظير فى مصر بل وفى العالم الاسلامى أجمع " .

ومن هذا المستوى مدرسة السلطان حسن التى أشاد بها الرحالة من شرقيين وغربيين وفى مقدمتهم المقريزى .

لقد تعانق الإسلام والمسيحية حتى فى علوم اللغة والدين .

فعن (ورش) المصرى القبطى الذائع الشهرة ، بعد أن أسلم وانتشرت طريقته فى ترتيل القرآن وفى علم القراءات ، أخذ علماء المغرب عن تلميذه (أبى يعقوب) الأزرق بن عمر بن يسار المصرى .

ومن رجال مصر من الأقباط الذين أسهموا فى التأليف فى علوم العربية وآدابها : سعيد بن بطريق ، وبنو العسال ، وجرجس بن العميد المعروف بابن المَكين صاحب كتاب (تاريخ المسلمين) ، والمفضل بن أبى الفضائل

صاحب (نهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) . وبطرس أبو شاكر ويعرف بابن الراهب . وابن كبروهو شمس الرياسة أبو البركات وأسعد بن مماتى الشاعر الأديب صاحب الحظوة في الدولة الأيوبية .

رحم الله الشاعر ولى الدين يكن حين قال :

بنى المسيح وأحمد انتبهوا وادعوا رجالا منكم هجعوا
أرواحكم من بعضها قطع وجسومكم من بعضها بضع
لا تحسبن خلافكم ورعــا إن ائتلافكــم هو الــورع

وفقنا الله وإياكم ، سبيل الرشاد .

خاتمة

كلمة شكر وتقدير

لا يسعنى بمناسبة اصدار هذا الكتاب ، إلا أن أتوجه بالشكر الى الاخوة أعضاء اللجنه الثقافية بمجلس إدارة الجمعية الخيرية الاسلامية . وأخص بالذكر **استاذنا الوزير المهندس احمد على كمال** ، صاحب فكرة تنشيط الجانب الثقافى بالجمعية ، والذى فى غيبتى حمّلنى مسئولية الاشراف على هذا النشاط .

وإذ أشكر **أصحاب الفضيله الأساتذه المحاضرين** ، لتكرمهم بالقاء المحاضرات بالجمعية وتشريفهم موسمها الثقافى ، على النحو الذى نرفعه اليهم فى صورة هذا الكتاب ، فانه لا يسعنى فى هذا المقام الا أن أخص بالشكر ثلاثة جنود لهم الفضل المستتر فى هذا الاصدار . أولهم **المستشار عبد الفتاح محمود حسن** مدير عام الجمعية ، الذى وفر للنشاط الثقافى كل أسباب النجاح ، وثانيهم **الاستاذ جمال الدين محمد سليمان** رئيس سكرتارية الجمعية الذى لم يدخر وسعا فى العون والمساعدة ، وثالثهم **الناشر الاستاذ فتحى الملا** عضو الجمعية والذى أخذ على عاتقه ، عبء إصدار الكتاب بسعر التكلفة ، فضلا عن مسئولية التدقيق ، والاخراج بالصورة التى نراها .

وجميعنا ، لا نبتغى بهذا العمل ، الا وجه الله وحده ، والفوز برضاه تعالى .

وتأمل الجمعية بهذا الجهد المتواضع ، ان تكون قد استجابت لرجاء **أستاذنا الدكتور عبد الصبور مرزوق** فى محاضرته ، بأن تستكمل الجمعيات والمنظمات غير الحكومية والعاملين فى ميدان الخير ، مهمتهم النبيلة فى التثقيف والتنوير .

ذلك ان أساس كل خير أو عمل ناجح ، هو الفكر والتخطيط ، بهدف تحسين الأوضاع ، والأخذ بيد الناس فى المجالين الاساسيين : **التوعية والمساعدة المادية** .

وفقنا الله جميعا للصواب والرشاد ، انه نعم المولى ونعم النصير لمن يعمل بصدق واخلاص . وصدق الله العظيم :

(**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**) ، وقوله تعالى :

(**ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**) .

المستشار الدكتور / محمد شوقى الفنجرى

فهرست

الموضــــوع	الصفحة
• تقديم الأستاذ المستشار محمد صادق الرشيدى .... رئيس مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية	٣-٦
• أولا : محاضرات الموسم الثقافى لعام ٩٤ / ١٩٩٥	٧
• الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى .... دور الجمعية الخيرية الإسلامية فى بناء مصر وإقامة المجتمع الإسلامى	١١-٣٤
• فضيلة الإمام الشيخ محمد الغزالى .... الإسلام والثقافة العربية فى عالمنا الجديد	٣٧-٦١
• الأستاذ الدكتور أحمد هيكل .... نحو ثقافة بناءة	٦٥-٧٥
• الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق .... مفهوم الخيرية والدور المفقود لأمة الإسلام	٧٩-٩٨
• الأستاذ الدكتور محمد عمارة .... منهج الإمام محمد عبده فى تجديد الدنيا بتجديد الدين	١٠١-١٢٨
• الأستاذ الدكتور محمد حلمي مراد .... عوامل نهوضنا الاقتصادي بين تجارب الماضى وتطلعات المستقبل فى ضوء التوجه الإسلامى	١٣١-١٦٣

الموضــــوع	الصفحة
• **الأستاذ الدكتــور أحمـد شلبــى**	١٩٠-١٦٧
المرأة وماذا قدم الإسلام لها	
• **فضلية الشيخ الدكتــور سيد طنطاوى**	٢١٢-١٩٣
حديث القرآن الكريم عن العلم والعلماء	
• **ثانيا : محاضرات الموسم الثقافى لعام ٩٥ /١٩٩٦**	٢١٣
• **الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومى**	٢٤٤-٢١٧
الاستشـــراق والإسلام	
• **الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد**	٢٥٨-٢٤٧
حاضر العالم الإسلامى ومستقبله	
• **الأستاذ الدكتــور منصور محمد حسب النبى**	٢٩٩-٣٦١
نماذج من الاعجاز العلمى للقرآن الكريم	
• **الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة**	٣٥٠-٣٠٣
هويتنا من ثقافتنا الإسلامية	
• **الأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد**	٣٦٥-٣٥٣
مفاهيم خاطئة يجب تصحيحها	
• **الخاتمــة وشكــر وتقديــر**	٣٦٨-٣٦٧

الناشر: الشرق الاوسط للثقافة والاعلام
١٧ ش كمال العباسية - ت: ٨٣٨٧٥٢ - فاكس: ٤٠٢٧٢٥٠
ترقيم دولى I. S. B. N - 1 - 557400 - 977

الجمعية الخيرية الإسلامية

الفكر الإسلامي المعاصر

محاضرات الجمعية الخيرية الإسلامية
في موسميها الثقافيين ٩٤/٩٥، ٩٥/١٩٩٦

إعداد اللجنة الثقافية بالجمعية، إشراف المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري

الطبعة الأولى ● الناشر: الشرق الأوسط للثقافة والإعلام ت: ٨٣٨٧٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ المستشار محمد صادق الرشيدى

رئيس مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية

يسر الجمعية الخيرية الإسلامية ان تقدم هذا الكتاب مشتملا على مجموعة المحاضرات التى القاها بقاعة محاضرات الجمعية (قاعة محمود محمد محمود)، قمم من علمائنا ومفكرينا فى **موسميها الثقافيين ١٩٩٤ / ١٩٩٥ و ١٩٩٥ / ١٩٩٦ .**

وبالرغم من أنه ترك لكل محاضر ، حرية اختيار موضوعه ، إلا أننا لاحظنا أنها تجمعها رابطة واحدة ، وهى تعبيرها عن الفكر الإسلامى المعاصر ، وهو ما رأينا ان يصدر به عنوان هذه المحاضرات ، باعتبار ان الكتاب يقرأ من عنوانه ، ولا يسعنى فى هذا المقام ، إلا أن أوجه عميق شكرى للساده المحاضرين لمساهمتهم

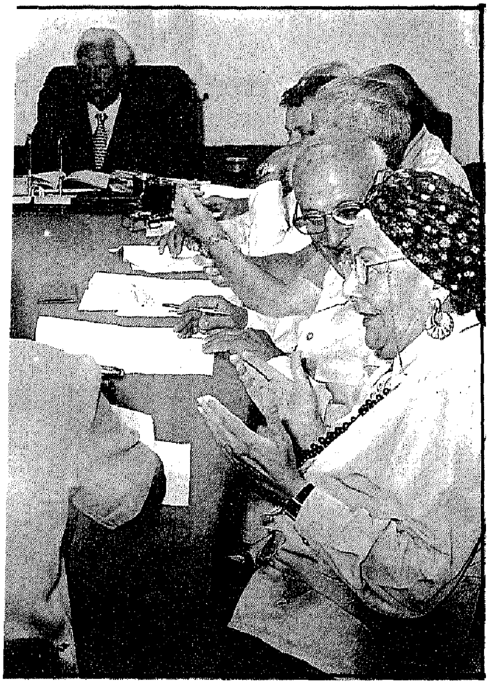

مجلس الإدارة بجلسته المنعقدة ٣٠ يونيو ١٩٩٦ برئاسة السيد المستشار محمد صادق الرشيدى ، وعلى يسار الصورة السيد / المستشار رشاد المراغي ، والدكتور بهاء فائق والسيدة / ليلى بهى الدين بركات ، والدكتور محمد الشحات الجندى ، والمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى والأستاذ سعيد صالح .

على يمين الصورة : السيدة / سامية زكى ، الأستاذ محمود الخولى ، السفير حسن ابراهيم عبد الهادى ، الدكتور ابراهيم سليمان عيسى ، الوزير / احمد على كمال .

الفعالة في إحياء الموسم الثقافى للجمعية ، وأن هذا الكتاب هو فضل عليهم ، وهو منهم ، واليهم .

وقد رحل عنا أحد المحاضرين ، وهو **فضيلة الامام الشيخ محمد الغزالى** ، رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه الله خير الجزاء عما قدمه لأمته من عطاء فكرى وكفاح مجيد .

كما أسعدنا تولى أحد المحاضرين ، وهو **فضيلة الأستاذ / محمد سيد طنطاوى** ، مشيخة الأزهر الشريف ، سائلين الله تعالى للامام الاكبر السداد والتوفيق فى اداء رسالته وأن ينتم على يديه كل نفع للاسلام والمسلمين .

هذا وأن صدور هذا الكتاب ، هو أحد مظاهر إحتفال الجمعية بعيدها

المنوى ، فقد نشأت فى آخر اكتوبر سنة ١٨٩٢ ، وذلك كرد فعل للاستعمار البريطانى الذى قلص ميزانية حكومة مصر فى الانفاق الاجتماعى . كما اختصر التعليم وجعله بمصروفات ولتخريج موظفين للحكومة . فقامت الجمعية الخيرية الإسلامية ، وعلى رأسها **الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وطلعت حرب ، وقاسم أمين ، وحسن عاصم** وغيرهم من كبار رجال مصر ، بجمع فضول الاغنياء لتردها على الفقراء ، ولتقيم المدارس المجانية ذات التوجه الإسلامى والحرفى ، وتحمل لعدة عقود عبء المساعدات الاجتماعية وعبء التعليم المجانى نيابة عن الحكومة المصرية المغلوبة وقتئذ على أمرها بفعل الاستعمار البريطانى .

وهكذا نشأت الجمعية الخيرية الإسلامية منذ أكثر من قرن ، كرمز

لحركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر ، وكنموذج إسلامى حى على

قدرة المخلصين وبجهودهم الذاتية ، وبعيدا عن السياسة والحكم ، فى إنجاز أضخم المشروعات : والتى تمثلت وقتئذ فى مدارس الجمعية المجانية المنتشرة بجميع أنحاء القطر ، ومستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية الضخم بالعجوزة ، ودور المسنين ، ومراكز العلاج الطبيعى ، ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم ، والاعانات المالية للأسر الفقيرة .

وبقدر ما قدمت الجمعية الإسلامية من خدمات ملموسة منذ إنشائها فى أواخر اكتوبر سنة ١٨٩٢ ، وطوال مائه عام وحتى اليوم ، بقدر ما أعطاها المواطنون من ثقة وتقدير ، فانهالت عليها التبرعات الصغيرة والكبيرة كل بقدر ما وسعه . بل تجاوز البعض مرحلة التبرعات العارضة إلى مرحلة الوقفيات الدائمة لاراضيهم الزراعية أو عماراتهم أو الاوراق المالية المملوكة لهم ، وذلك ليضمنوا للجمعية عائدا منتضما مستمرا يطمئنهم على استمرار خدماتها الخيرية .

هذا والجمعية اليوم بصدد اقامتها لمشروع خيرى جديد يقام على سبعة آلاف متر مربع أعطتها لها الدولة بالمعادى ، لاقامة دار للمسنين وأخرى لكفالة اليتيم ، مما يقدر تكلفته بنحو عشرة ملايين جنيه . وندعو بهذه المناسبة مواطنينا الكرام وإخواننا بالعالم العربى وامتنا الإسلامية . التبرع لهذا المشروع على حساب الجمعية رقم ٩ / ٢ بنك مصر - فرع السيدة زينب .

والله الموفق .

محاضـــرات الموسم الثقافـــى

١٩٩٤ / ١٩٩٥

إســـــم المحاضر	إســـــم المحاضــرة
• الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى	دور الجمعية الخيرية الإسلامية فى بناء مصر وإقامة المجتمع الإسلامى
• فضيلة الإمام الشيخ محمد الغزالى	الإسلام والثقافة العربية فى عالمنا الجديد
• الأستاذ الدكتور أحمد هيكل	نحو ثقافة بناءة
• الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق	مفهوم الخيرية والدور المفقود لأمة الإسلام
• الأستاذ الدكتور محمد عمارة	منهج الإمام محمد عبده فى تجديد الدنيا بتجديد الدين
• الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد	عوامل نهوضنا الاقتصادى بين تجارب الماضى وتطلعات المستقبل فى ضوء التوجه الإسلامى
• الأستاذ الدكتور أحمد شلبى	المرأة وماذا قدم الإسلام لها
• فضلية الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى	حديث القرآن الكريم عن العلم والعلماء

المحاضرة الأولى

دور الجمعية الخيرية الإسلامية في بناء مصر وإقامة المجتمع الإسلامي

للأستاذ المستشار عبد الحليم الجندي

١٠ أكتوبر ١٩٩٤م

٥ جمادى الأولى ١٤١٥هـ

جانب من الحضور

فضيلة الامام الراحل الشيخ محمد الغزالي والمستشار جمال اللبان رئيس قضايا الدولة .

على المنصة : المستشار محمد صادق الرشيدى والمستشار عبد الحليم الجندى والمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم :

يسعدنى أن أفتتح الموسم الثقافى للجمعية الخيرية الإسلامية بمحاضرة استاذنا المستشار عبد الحليم الجندى ، ذلك الموسم الذى بدأ من شهر أكتوبر ١٩٩٤ ، وينتهى ان شاء الله فى شهر مايو سنة ١٩٩٥ ، بواقع محاضرة فى يوم الاثنين الثانى من كل شهر . وانه طبقا لقرار مجلس إدارة الجمعية تكون المحاضرة فى نحو ساعة ، يعقبها ندوة مناقشة فى نحو ساعة للاستفادة من المحاضرة . وان هذه المحاضرات . ستصدرها الجمعية فى كتاب مستقل ، يكون مساهمة منها فى مجال التوعية والتنوير ، وهو مجال من أهم التزامات الجمعية الخيرية الإسلامية منذ نشأتها فى أداء رسالتها من حيث الأخذ بيد المواطن وتحقيق تقدمه ماديا ومعنويا .

بالنسبة لمحاضرنا استاذنا المستشار عبد الحليم الجندى ، فهو كما تعلمون رئيس هيئة قضايا الدولة الأسبق ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية ،

أى هيئة كبار العلمــاء . ولكنــى هنـا بصـدد تقديمـه – وهـو غنــى عـن التقديـم والتعريـف – أركـز على صفتيـن أساسيتين لأستاذنا المستشار عبد الحليــم الجندى **أولاهما** : انه شيخ المحامين و**ثانيهما** : انه عالم فقيه موسوعى .

أما عن كونه شيخ المحامين :

فقد عمل محاميا حرا عشر سنوات فى الفترة من سنة ١٩٢٨ حتى نوفمبر سنة ١٩٣٧ حيث عين وكيلا للنائب العام ، ثم فى سنة ١٩٤٠ انتقل إلى هيئـة قضايا الدولـة ، وظـل يتدرج بها حتـى صـار رئيسا لهذه الهيئـة فـى سـنة ١٩٥٦ ، وظل فى رئاستها حتى بلوغه سن الستين فى سنة ١٩٦٨، فعاد إلــى المحاماه الحرة حتى عهد قريب . فهو بحق شيخ المحامين ، واذكر اننى كنـت فى لقاء مع استاذنا المرحوم فتحى رضوان وكان يفتخـر بانـه شـيخ المحـامين فقلت له وأين عبد الحليم الجندى ، فقال : نعم إنه شيخ المحامين .

ولقد أصدر محاضرنا كتابه (نجوم المحاماه فى مصر وأوربا) أبـرز فيـه نقطة اساسية وهى قوله (**أن القضـاء لايكـون عظيمـاً إلا إذا كـانت المحامـاة عظيمة ، ولاتكون المحاماه عظيمة ، إلا إذا كان القضاء عظيماً**) . وهو فــى كتابه المشار إليه يذكرنا بكلمة عبد العزيز (باشا) فهمى الذى عمل بالمحاماه وشغل رئاسة محكمة النقض من حيث ترجيحه وتقديره لعناء المحامى باعتبار (**أن المحامى مبدع فى حيـن أن القـاضى مرجـح**) ... واسـتاذنا عبـد الحليـم الجندى يضع الأمور فى نصابها بقوله (أنظر كيـف تصـدر الأحكـام فـى أيـه أمـة تعـرف مقـدار حضارتهـا) مؤكـدا بأنـه (إذا كـان التوحيـد هـو أسـاس الإسلام ، فإن العدل هـو جمـاع الإسـلام ، بـه اسـتقر واسـتمر وانتشـر ، وان سيادة القانون تعنى فى جوهرها سيادة القضاء) .

اما عن أنه عالم فقيه موسوعى :

فان لاستاذنا عبد الحليم الجندى تحديدا عدد ٢٠ (عشرون) مؤلفا ، يتضمن كل مؤلف إجتهادات واضافات جديدة ، وتشكل موسوعه اسلامية متكاملة .

وأركز هنا على مؤلفه " **القرآن والمنهج العلمى المعاصر** " ، والذى دلل فيه ان المنهج العلمى المعاصر الذى نسب بعضه الى المفكر الانجليزى فرنسيس بيكون فى القرن السابع عشر ميلادى إنما أخذ عن علماء المسلمين ، حيث انتقل المنهج الاسلامى الى اوربا من خلال الاندلس وصقليه ، ولكن علماء النهضة الاوربية نقلوه مجردا عن صيغته الربانية واهدافه السامية ، فكان هذا الاضطراب والتخبط الذى تعانيه ، وكان هذا القلق والصراع الذى يتجرع عالمنا المعاصر مرارته . وليس لعالم اليوم من نجاة او عزة الا بالعودة الى منهج القرآن بجناحيه التجريبى والايمانى ، او كما عبر عنه استاذنا عبد الحليم الجندى بجناحيه (**التوقيفى والتوفيقى**) ، أو ما عبرت عنه فى كتابى (جدلية الإسلام) بمصطلح (**التسليم بالغيبيات والتجريب فى المحسوسات**) . وان ما نطالب به اليوم هو تصحيح المسار الحضارى كما يقول استاذنا عبد الحليم الجندى من " **حضارة الأشياء** " أو المادة إلى " **حضارة الإنسان** " بجناحيها المادى والروحى ، وهو ماعبرت عنه بكتابى جدلية الإسلام بمصطلح (**العبودية لله والسيادة على الأرض**) .

وبعد هذا التقديم الموجز ، يتفضل استاذنا عبد الحليم الجندى ليحدثنا عن ذكرياته عن الجمعية الخيرية الإسلامية ودورها فى بناء مصر وإقامة المجتمع الإسلامى .

محاضرة الأستاذ المستشار / عبد الحليم الجندى

بسم الله الرجمن الرحيم

لمصر فى طول التاريخ المدوّن أيام عظيمة ، تتجمع فيها قوى التاريخ العريق الذى إزدهرت فيه الحارات وتتابعت مواقفها المشرفة فى إنتشار الرسالات وابداعات العلوم ، وخدمة السلام ، ووثاقة الصلات ، بقارات العالم المعروفة منذ القدم فى آسيا وأوربا وأفريقيا . وفى الألف الأخيرة من عمر العالم ، رفع الأزهر الشريف منارة العلوم الإسلامية ليقدمها كاملة فى العصر الحديث إلى الأمة العربية وشعوب الإسلام .

وفى تقرير لمجلس الشورى سنة ١٩٨٦ عن **(موضوع مصر والعالم العربى)** أجملت لجنة الشئون العربية والخارجية والأمن القومى البيان فى هذا الشأن ، نقتطف بعضا من فقراته :

" حدد دستور جمهورية مصر العربية فى الفقرة الثانية من المادة الأولى أن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة . ومن هنا تصبح الدائرة العربية فى الدائرة الأولى للعمل السياسى المصرى ، ولم يكن هذا التحديد نوعاً من الاختيار التحكمى أو الاجتهادى ، بل كان تعبيراً عن حقائق موضوعية وتاريخية وحضارية واستراتيجية صلبة ، وكذلك عن مصالح حيوية ومصيرية مشتركة لكل من مصر والعالم العربى . فإن وطنها العربى الكبير من الخليج إلى المحيط هو أول الثوابت الشوامخ في هوية الانسان المصرى منذ فجر التاريخ " .

" وقد أخذت هوّية الإنسان المصرى فى الوضوح حين عرف عروبته وأصالته فيها . وأن أجداده الذين شيدوا منذ آلاف السنين أول حضارة انسانية متكاملة ... هم عرب وفدوا من الجزيرة العربية منذ آلاف السنين وذلك على

صورة موجات بشرية متواصلة كفلت لمصر ومعها أرض الوطن العربى ، دماءً عربية ، طاهرة ، نقية ، زكية ، منذ أقدم السنين ترجع إلى سنة ٥٢٩١ قبل الميلاد .. "

" وغدت مصر منذ فجر الإسلام وثيقة الارتباط بنبع العروبة ليس من ناحية النسب فحسب بل من ناحية العقيدة ، واللغة كذلك ... وظهرت رسالة مصر **بإعتبارها درع العروبة والإسلام** ، فى أجلى صورها حين حملت الجيوش المصرية أمانة الدفاع عن العروبة ضد الصليبيين ، وأنزلت بهم هزيمة فادحة فى حطين . كذلك حين تابعت الجيوش المصرية أمانة الدفاع عن الوطن ضد غارات المغول ، وأنزلت بهم هزيمة فادحة فى عين جالوت " .

" وصارت مصر تحمل منذ القرن التاسع عشر **عبء البعث العربى** الذى أخذ يعيد الحياة إلى سائر أرجاء الأمة العربية ... وقد تكررت دعوة مصر إلى الصحوة العربية بالنجاح ليس لأبنائها فحسب بل لعدد كبير من أبناء البلاد العربية الأخرى . فحصلت مصر على استقلالها فى عام ١٩٢٢ ، ثم تلتها العراق ١٩٣٠ ... على أن علاقة مصر بالعالم العربى ليست كعلاقة أى جزء قطرى بالكل العربى ، بل هى علاقة لها سماتها الخاصة المستمدة من وضع مصر تاريخياً وسياسياً وثقافياً فى العالم العربى " .

وكان اسهام مصر الكبير فى تأكيد شخصية بلاد " العالم الثالث " ، فى مواجهة القوى الكبرى وتكتلاتها وتأكيد ذاتها ، إسهاما مدعما للعالم العربى ومنسوباً إليه وليس إلى مصر وحدها ... وكانت مصر هى التى بادرت بالمواجهة العسكرية ضد إسرائيل والصهيونية وتحملت أكثر من أى بلد عربى أقصى التضحيات ... وفى ربع قرن انتهى سنة ١٩٧٣ حاربت مصر حروباً أربعة فى واحدة منها جيوش ثلاثة دول ، **فدلت على أن لمصر رسالة**

عالمية ماتزال تحملها على مدى التاريخ من أجل العروبة والإسلام . ومن أجلها أيضاً كانت الجمعية الخيرية الاسلامية - وزعماؤها زعماء العالم العربى ، وهو نواة دولة الإسلام - باسهامها الضخم فى بنيان مصر عاملاً أساسياً فى النهضة العلمية والاجتماعية والاقتصادية فى العصر الحديث لكل العرب وكل المسلمين .

رجع الشيخ محمد عبده من منفاه تنفيذا لحكم المحكمة العسكرية الإنجليزية التى قضت بنفى الزعماء مع أحمد عرابى باشا إلى جزيرة سرنديب ، ونفى باقى الضباط وبعض العلماء إلى خارج البلاد . وأبى الخديوى توفيق عليه ان يتولى التدريس بالأزهر ، وكان من حقه أن يجلس إلى حلقة فيه ، يتلقى عليه الطلاب العلم ، ولكنه منع كيلا يمتد أثره إلى التلاميذ .

وآثر رجال القضاء أن يكون الشيخ محمد عبده واحدا منهم ، فاختارته وزارة (الحقانية) قاضيا جزئيا ، محكوما بنظام القضاء ، البعيد عن السياسة . وكان **سعد زغلول** محاميا نال تقديرا خاصا من الهيئة القضائية لكفاياته العلمية فى مهنة المحاماة ، فكانت الوزارة تستعين به بين رجالها البارزين فى اصلاح قوانينها ، ثم آثرت ضمه إلى القضاء سنة ١٨٩٢ فى وظيفة المستشار . فاجتمع الشيخ محمد عبده وتلميذه النجيب تحت مظلة القضاء ، حيث النخبة من شباب مصر ، تتولى شئون الإصلاح القضائى عائدين من بعثاتهم فى فرنسا وفى طليعتهم : حسن عاصم ، وعلى فخرى ، وقاسم أمين ، وأحمد حشمت . وكان الأولان حسن عاصم وعلى فخرى ، يدرسان أحوال القضاء ويجرون فى أوائل التسعينات أكبر تصفيات لرجال القضاء القدماء ليخرجوا أكبر عدد منهم ، وليقدموا لمصر طرازا جديدا من

القضاه المتخرجين من مدرسة الحقوق ، وقد حلت محلها كلية الحقوق بعد إنشاء جامعة القاهرة ، يحملون المشاعل ويدفعون كيد الإنجليز .

ولما إنتصرت انجلترا فى الحرب العالمية الأولى ذهب ثلاثة من المصريين إلى ممثل بريطانيا يطالبونه بالاستقلال عن انجلترا ، هم الباشوات سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى . ولم يكن مصادفة **أن يكون سعد زغلول** أعظم رجال القانون والقضاء فى تاريخ مصر وتاريخ المحاماه ، ولا أن يكون **عبد العزيز فهمى** نقيب المحامين الثانى (١) ، والرئيس الأول لمحكمة النقض ، فهذان اثنان من ثلاثة مثلوا مصر فى موقع مشهود فى التاريخ .

وليس مصادفة كذلك ، أن يكون الثلاثة بكاملهم ، أعضاء راسخى القدم من الجيل الذى أسس الجمعية الخيرية الإسلامية مع محمد عبده وآخرين ، والسيدة هدى شعراوى ، زعيمة تحرير المرأة زوجة على شعراوى .

وليس مصادفة أيضاً – وإنما هى التربية الصالحة – هى التى أضافت إلى المؤسسين الأولين للجمعية الخيرية الإسلامية ، حسن عاصم ، وعلى فخرى ، وقاسم أمين ، وأحمد حشمت ، والعظائم كفؤها العظماء .

كانت مصر منذ الثورة العرابية فى سنة ١٨٨١ لاتغفر للخديوى (توفيق) انضمامه إلى الإنجليز . ومن الأسماء التى أسلفناها إثنان من رجال الثورة هما محمد عبده وسعد زغلول . والأول نفّذ حكم النفى ، والثانى محام شاب حبسه الانجليز شهورا ستة ، بمجرد دخولهم مصر .بتهمة تكوين جمعية لطرد

---

(١) اما النقيب الاول للمحامين فهو ابراهيم بك الهلباوى ، وهو من المؤسسين الاولين للجمعية مع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول . وعلاقاتهم ترجع الى ايام التلمذه على جمال الدين الافغانى .

الانجليز . وأثبت التحقيق الذى أجراه القاضى البلجيكى (دى هلس) براءته ، ولكن الإنجليز رفضوا إطلاق سراحه ، إلا بعد أن أمضى فى السجن ستة أشهر . وسنرى سعدا إذ عين فى القضاء يرأس دائرة فيها (دى هلس) ، والإنجليز يستبدون بالامر فى جميع الوزارات ، ولم يكن لرئيس الوزراء حول ولا طول .

وليس سهلاً على الإنجليز أن تتكون جمعية فيها هذان الرجلان ، وفيها الحسينى بك وهو محام كبير ممن شاركوا فى الثورة .

من أجل ذلك وجدنا الجمعية الخيرية الإسلامية تنشأ بالوراثة لجمعية سابقة قامت سنة ١٨٩٢ برئاسة محافظ القاهرة وأطلق عليها (لجنة أغاثة فقراء المسلمين الوطنيين) . وبدأت من فورها مباشرة نشاطها فأقامت حفلة تحت رعاية الخديو عباس الثانى فى ٦ أكتوبر ١٨٩٠م ، بلغ دخلها ١٠٦٣,٠٥٣ جنيها بخلاف ماورد إلى الجمعية من تبرعات . **وآنس مؤسسو الجمعية هذا التوفيق، فكونوا (الجمعية الخيرية الإسلامية) وجعلوها تحت رعاية الخديو ، وسنوا لها لائحة وضعها سعد زغلول ، وصدقت عليها الجمعية العمومية فى شهر أكتوبر سنة ١٨٩٢ ، وبادر رئيسها إبراهيم رشدى باشا محافظ القاهرة إلى إرسال خطاب فى** ٢١ نوفمبر ١٨٩٢ إلى ناظر الداخلية مع نسخة من اللائحة المؤلفة من ٢٢ مادة ، مع تقديم الشكر له لتشريف الحفلة السابقة ، مع الدعاء للحضرة الفخيمة الخديوية ، وطلب تحويل اللجنة السابقة لتكون هى الجمعية الخيرية الإسلامية .

ورد ناظر الداخلية ، وكان ناظر النظار مصطفى فهمى باشا ، بالإفادة بأن الجمعية نالت موافقة الخديو ، وانها تحت رعايته ، ونشر الخطاب فى الوقائع الرسمية فى ١٨٩٢/١٢/٧ .

وكان مجلس إدارة الجمعية قد إنعقد بتاريخ ٤ ديسمبر ١٨٩٢ واختار الرئيس والوكيلين وكاتم السر حسب اللائحة ، فأعيد انتخاب الرئيس إبراهيم رشدى ، باثنى عشر صوتا ، وأحمد حشمت بك باثنى عشر صوتاً ، وكاتم السر بعشرة أصوات (أما الوكيل الثانى فلم تتوفر له الأغلبية المطلقة أو تساوت الأغلبية النسبية لحضرة الشيخ محمد عبده، وحضرة حسن بك عاصم ، فاقترع بينهما فانتخب حسن بك عاصم ، بعشرة أصوات) .

ويلاحظ على محضر مجلس ادارة الجمعية ، أن حسن عاصم بك ، وأحمد حشمت بك ، صارا وكيلين وتصدرا مع الرئيس ، ترتيب الأعضاء ، وأن الشيخ محمد عبده كان فى جدول المحضر برقم ١٣ ، أعقبه آخرون تتابعوا بأرقام ١٤-١٥-١٦-١٧ وهم على بك فخرى ، ويوسف بك صديق ، وسعد أفندى زغلول ، وقاسم أفندى أمين ، وبعدهم باقى الأعضاء . ويظهر من هذا ، أن سعد وقاسم لم يحظيا برتبة البكوية بعد - وقد تعينا فى وظيفة مستشار بالقضاء فى العام ذاته ، وأن المستشارين حسن بك عاصم وحشمت بك ، كانا أقدم من سعد وقاسم فى درجة المستشار ، لكن الشيخ محمد عبده كان قاضيا .

ولعل أهم الملاحظات أن الشيخ لم ينجح ، وانما نجح حسن عاصم إذ أسعفته القرعة ، وأنه لم يتنازل للشيخ .

كما يلاحظ أن فى الحاضرين ، من لم يعط للشيخ صوته ، وهو النصف من الأعضاء ، أما الخامس والعشرون فحضر فى إبان عملية الانتخاب . ولعل انتخاب وظيفة الوكيل روعى فيه رضا " السلطات " حيث لم يكن على " حسن بك عاصم " خلاف ، فهو واحد من أساطين وزارة الحقانية الذين يعملون فى سياسة القضاء ، أما الشيخ محمد عبده فلم ترض السلطات عنه إلا

بعد نحو عامين ، بدأ فيهما صلاته بالخديو عباس الثانى من أجل إصلاح الأزهر .

لم يكد يتألف مجلس إدارة الجمعية ، حتى رأينا الوكيل حسن عاصم والشيخ محمد عبده ، يحمل كل منهما أعظم الأعباء ، وقد بدآ بالمغونات التى يحتاجها الناس ، وبالتعليم الذى تحتاج إليه الأمة ، وقد أعجلهم المنهج الذى وضعوه .

ففى شهر سبتمبر ذاته ظهرت لنا مساعدة الأسر الفقيرة بقرار ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٢ بتكليف محمود صدقى باشا وسعد أفندى زغلول وقاسم أمين أفندى وحسن عاصم بك ويوسف صدقى بك ببحث أحوال فقراء مدينة القاهرة . وبعد أسابيع ، أصدر مجلس الإدارة قراره ببرنامج التعليم فى ١٣ يناير سنة ١٨٩٣ ، وقامت مدارس أربعة فى بحر عامين فى عواصم البلاد : القاهرة والإسكندرية وطنطا وأسيوط ، وفيها ٣٣٦ تلميذا من أولاد الفقراء يتعلمون بالمجان برنامجا وضعه الشيخ محمد عبده لإصلاح التعليم . وفى البرنامج : أمور أساسية لا يصح بغيرها نظام للتعليم فى بلد من بلدان الإسلام هى :

١- حفظ القرآن الكريم وتجويده وفهم معانى مفرداته ، والدين وقواعده ولغة الآداب الدينية ، وسيرة النبى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين والقصص الوارد فى القرآن الكريم . ووضع الشيخ تفسيرا للجزء الثلاثين من القرآن الكريم ، ليكون من مواد التعليم فى مدارس الجمعية الابتدائية . وقد فسر نحو نصف القرآن فى تفسير المنار .

ومن أبرز تفسيراته ماجاء فى صدد (وحدة الدين ، و أصول خاصة بالإسلام ، والتكافل الاجتماعى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتأويل والتفويض ، واستقلال إرادة الانسان ، وحرية الفكر) .

٢- اللغة العربية وأدبياتها والإنشاء .

٣- الأشياء الكثيرة الاستعمال وحفظ الصحة .

٤- حساب تعريفات أولية فى الهندسة وأخذ المساحات .

٥- الجغرافيا خصوصا مصر .

٦- التاريخ خصوصا تاريخ مصر ، والعرب ، وتركيا .

٧- الخط الثلث والرقعة والنسخ .

٨- الرسم .

٩- أعمال يدوية .

١٠- مبادئ النظامات .

١١- مبادئ تدبير المعيشة .

وسنرى الشيخ محمد عبده بعد أعوام يتصدى لإصلاح الأزهر ، بل سنرى المحاولة الكبرى للإصلاح بعد سبعين عاماً بإنشاء جامعة الأزهر سنة ١٩٦١ .

وانتخب المجلس لجنة منه ، لتحرير التوصيات اللازمة ، مكونة من الشيخ محمد عبده ، وإبراهيم بك مصطفى ، ويوسف بك صدقى ، وادريس بك راغب ، وقاسم أمين .

وبعد عامين تألفت لجنة من الأعضاء ، فيهم رئيس الجمعية ، والشيخ محمد عبده وقاسم أمين ، لطلب معونات من الخديو ، فاستجاب ، وقرر المجلس شكر الخديو وتفويض قاسم بك أمين ، لإستلام المبلغ . وانتشرت بعد ذلك مدارس الجمعية الإسلامية فى درجات التعليم المختلفة ، وتخرج فيه رجال نابهون ، منهم رجلان ملأ سمع العالم الإسلامى وبصره ، هما الدكتوران محمد أحمد الغمراوى وعبد الرازق أحمد السنهورى .

أما الأول : محمد احمد الغمراوى فقد عاد من بعثته الحكومية ليتولى التدريس فى مدارس الجمعية ، ثم مدارس الدولة ، ثم كلية الصيدلة بجامعة القاهرة ، وأنشأ كلية الصيدلة بالمملكة السعودية ، وتولى عمادتها . ذاعت فى العالم أنباء كشوفه القرآنية فى الفلك والصيدلة والعلوم عامة ، وتكونت للإذاعة بهذه الكشوف مؤسسات علمية فى البلاد الإسلامية ، ومؤتمرات تغطى وجه كرة الأرض ، وتفاجئ العالم الغربى والشرقى المعاصريْن بإثبات حقائق علمية تؤيدها كشوف كوبرنيق وكيلر وجاليليو والذين جاؤا بعدهم ، معلنة بعشرات الأدلة ومئات الآيات ، **أن خالق الكون عزوجل ، ومنزل القرآن الكريم واحد . وان الإسلام دين علمى ، ولد فى العلم ، وان العلم من إنعاماته ، ومن أدواته** ، وإظهار الحقائق العلمية فى القرآن ونشر الفقه الإسلامى ، وإعلاء مقامة تبشير علمى بالإسلام ، لن تقصر المجتمعات الإسلامية فى القيام به . والبحوث والمؤتمرات المحلية والدولية وجهود المؤسسات المهنية ، لاتكف عن الدوران حول كرة الأرض ، بنشر الخصائص التى خص بها الله كتابه الكريم .

أما الثانى : عبد الرازق احمد السنهورى فهو خريج مدرسة الحقوق ، عمل مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى التى أشار بإنشائها محمد عبده وأقامها سعد زغلول ، ومنها أوفد فى بعثة إلى فرنسا . وقضى حياته فى دراسة الفقه الإسلامى ، ووضع مشروع القانون المدنى المصرى الذى تناقلته الدول العربية ، وفيه أن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر التشريع . كما وضع دساتير للدول العربية ، وكان الرئيس الثانى لمجلس الدولة فى مصر ، وخلف أحكاما تحمى الحريات وتوجب العدالة والنزاهة على السلطات . ومات وهو عند الأمة الإسلامية كملك متوج .

هكذا نجح التعليم فى مدارس الجمعية ، أحد غرضين من إنشائها ، بمنهج وضعه محمد عبده ، وفصلته لجنة منه ومن قاسم أمين ، وأدريس راغب ، وأشرف عليه زملاؤهما على مر السنين ، **بدءاً بحسن عاصم ، وفيه قول سعد زغلول (انه رجل لايتكرر) ، وقول الهلباوى بعد ربع قرن فى كتاب اليوبيل الذهبى للمحاكم الوطنية ، إنه لم يوجد مثله حتى تاريخ ذلك المقال** . ثم أعقبه **عبد الخالق ثروت** وهو أب من آباء الاستقلال ، **ثم لطفى السيد** وهو الفليسوف الذى أجمعت مصر على تقديره .

لكن هذا التعليم – وهو غرض الجمعية الذى أصلح نقص التعليم فى مدارس الحكومة التى نشأت فى ظل الاحتلال ، والذى اشترك فى تقديره والتبرع له المسلمون والأقباط واليهود ، أصيب بعد نحو نصف قرن بقرار من مجلس الادارة بندب الشيخ مصطفى عبد الرازق لتبادل الرأى مع وزير المعارف ، وكان وقتئذ الدكتور محمد حسين هيكل وهو من كبار أنصار الجمعية الخيرية الاسلامية فيما يمكن قبوله من شروط الجمعية اذا ضمت الوزارة مدارس الجمعية إليها ، فضمت المدارس فى ١٢ أغسطس سنه ١٩٣٨ وسرى على المدارس ما سرى على التعليم الابتدائى منذئذ ، وما تزال الصيحات تتعالى بطلب إصلاحه .

وستبقى الصيحات تتعالى لزيادة الاهتمام بتعليم الدين ، والتربية الدينية ، واللغة العربية ، وعليهما وردت نصوص عدة فى الدستور المصرى سنة ١٩٧١ فى أول أبوابه عن مقومات الدولة . والنهوض بتعليم الدين ، واللغة ، هو نهوض يرد المخاطر عن الامة ، ويهيئ الأجيال للصمود ضد الانحراف الفكرى ، والخلقى ، الذى تسلطه مصادر شتى من خارج مصر ضد المسلمين ، وضد مصر بالذات ، كما يبنى عقولا وأنفسا تقدر على اقتحام القرن الحادى والعشرين .

ثم انشغلت الجمعية منذ الثلاثينات باقامة اكبر المستشفيات فى القارة الأفريقية ، وهو غرض عظيم ، لكن مرفق التعليم ، كان أنفع للأمة ، وما تزال أحوج اليه وقد أثبتت ذلك الأيام .

****

قلنا فى كتابنا عن الإمام محمد عبده ما نكرره الآن :

(ان مكانة الجمعية وأغراضها ترتبط ارتباط وثيقا بحياة مؤسسيها وسيرهم ، حتى تكاد سيرة الجمعية منذ انشائها ، أن ترتبط بحياة المؤسسين) ففيها جماع مبادئهم . وقد أسعفت جهودهم مصر ، ببلوغ مقاصدهم من أجل مصر والمسلمين ، وربما أجزئ فى هذا المقام ، تلخيص الامام محمد عبده أغراض حياته من مطلعها حيث قال فى مذكراته ما يمكن أن يكون مرشدا لادراك ما نريد، قال رضى الله عنه :

(ارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والثانى إصلاح أساليب اللغة العربية . وهناك أمر آخر كنت من دعاته هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العداله على الحكومة . ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة .

أما أمر الحكومة والمحكوم ، فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال . فهذا الغرس هو الذى ينبغى أن نعتنى به الآن).

وإنه لكذلك الآن وعلى الدوام ، فالوثبة المصرية أو الاسلامية التى استفتحها الشيخ محمد عبده ما تزال على الطريق التى وضع بلاده فى بداياتها وسارت فيها الأمة من بعده ، يقودها فى مسيرتها تلاميذه بدعواتهم

الخاصة والعامة . وقد أوصلتنا كل مرحلة من مراحلها إلى ما بعدها من التعليم والتكافل والحفاظ على الوحدة واقتحام العقبات بقوة تدفعها قوى التاريخ فى آفاق التقدم . **وقد تولى رجال الجمعية الخيرية الإسلامية حكم مصر وإصلاح شئونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية طوال النصف الأول للقرن العشرين ووضعوا أسس الاصلاح ونفذوها .**

وما يزال الإمام محمد عبده بمنهجه الفكرى قائدا للأمة الاسلامية فى الاحتكام الى العقل وفهم الدين على طريقة السلف الصالح ، وفى الأخذ بأسباب القوة الفكرية بين أمم العالم المعاصر ، وفى صدارتها الحرص على الدين واللغه العربية ، وسيادة الامة ووحدتها . ويظهر ذلك جليا فى نصوص الدستور المصرى القائم الذى وضع فى سنه ١٩٧١ والذى تحذو حذوه أمم الاسلام لتحديث نظمها السياسية والادارية والتعليمية . **وما زال زعماء الأحزاب الأولون من أعضاء الجمعية على مكانتهم فى سجل المفاخر الوطنية :**

يتصدرهم سعد زغلول قائد النهضة والذى حبسه الانجليز عند احتلالهم سنه ١٨٨٢ ، ثم تربع طوال ربع قرن كامل فى كرسى القضاء والمحاماة عن الامة وعن الأفراد . ثم تصدى للعدوان البريطانى على اللغة العربية وهو وزير للمعارف من سنة ١٩٠٦ حتى سنة ١٩١٠ ، وعلى الحريات الشخصية فى وزارة الحقانية حتى سنة ١٩١٢ ، ثم زعامته للمعارضة السياسية ابتداء من الجمعية التشريعية فى سنة ١٩١٣ إلى ثورة سنة ١٩١٩ ومقاومة الانجليز لاستقلال مصر ، وتهيئة الأحزاب الى ما بعد وفاته سنة ١٩٢٧ حيث تركها فى ائتلاف من صنعه والملك خاضع للدستور يتوثب لنقض ما جاء به .

وفى وصف زعامة سعد للأمة ، قول أكبر خصومه السياسيين اسماعيل صدقى فى مذكراته.(كان شخصية جبارة ، وفى الوقت ذاته جذابة غمزت البلاد بشدة تأثيرها ، وأصبح الاعتقاد فيها يشبه الاعتقاد فى الانبياء) .

وتتابع من اعضاء الجمعية رؤساء الوزارات : رشدى ، ثم عدلى ، وثروت ، ومحمد محمود ، واحمد ماهر ، والنقراشى ليظفروا لمصر بإستقلالها سنه ١٩٢٢ ولتضع مصر دستورها الاول سنه ١٩٢٣، فى هذا القرن على يدلجنه يرأسها واحد من الجمعية الخيرية الإسلامية هو رشدى باشا ، ووكيل اللجنة وأحد من المؤسسين الاولين للجمعية هو حشمت باشا . أما على ماهر فكانت عينه دائما على الملك ، وانتهى الأمر به الى أن شارك زعماء الثورة فى خلعه سنه ١٩٥٢ ، وبالتالى سقوط النظام الملكى لأسرة محمد على ، بعد ان أثخنه محمد عبده بالجراح ، وأخضعه سعد زغلول لإرادة الشعب .

وفى الطريقة ذاتها سار عدلى وثروت ومحمد محمود وسائر الزعماء الذين تولوا حكم مصر حتى سنه ١٩٥٢ ، وكان اختصاص الوزارة ورئيسها حكم " الشعب " وقيادة الدولة ، أما الملك " فيسود ولا يحكم " طبقا لدستور سنة ١٩٢٣ والذى شارك فى وضعه والدفاع عنه مجموعة من رجال الجمعية الخيرية الإسلامية فيهم الهلباوى بك وبدوى باشا .

أما الرأى العام ، فقد جاهد رجال الجمعية لتقويته فتجلى فى ثورة سنة ١٩١٩ وازداد صلابة وادراكا واشتراكا مع الزعماء .

وفى صحوة سنه ١٩١٩ قيض الله **طلعت حرب** ، وهو من الجيل الثانى فى اعضاء الجمعية ، ليضع أسسا قوية لاقتصاد مصر بإنشاء بنك مصر . ولم يكن لها بنك بين البنوك العاملة فيها ، ثم أنشاء ثلاثين شركة كانت باكورة النشاط الاقتصادى فى كل وجه .

اما النقيب الاول للمحامين فهو ابراهيم بك الهلباوى ، وهو من المؤسسين الأولين للجمعية مع محمد عبده وسعد زغلول ، وعلاقاتهم ترجع الى أيام التلمذه على يد جمال الدين الافغانى ، وكان اول نقيب للمحامين وقد أنشأها سعد زغلول وهو وزير للحقانية ، كما كان سعد والهلباوى محررين صحفيين بدأ معهما محمد عبده بالاصلاح العام لمصر وللصحافة منذ العدد الاول للوقائع المصرية .

وبرز كذلك **احمد لطفى السيد** فى سياسة الصحيفة الوطنية (الجريدة) تحمل اعلام (مصر للمصريين) ، وكان أعظم الكتاب السياسين فى النصف الاول من القرن وتبعته ثلة من الادباء الذين تباهى بهم مصر وفى طليعتهم الدكتور محمد حسين هيكل – وقد رأيناه وزيرا للتعليم ورئيسا لمجلس الشيوخ – ومنصور فهمى والشيخ مصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى وطه حسين .

وكمثله كان عضو الجمعية الدكتور **على ابراهيم** الطبيب الجراح زعيما للنهضة الطبيه ورئيسا للجامعة ، ومعلما لجيل الاطباء فى النصف الاول من القرن .

ومحمد فريد رئيس الحزب الوطنى بعد مصطفى كامل ، ومع خلافه مع بعض اعضاء الجمعية على منهج الحزب الوطنى ، ناصروه على رئيس الجمعية الأمير حسين كامل ؛ فاختاروا محمد فريد بين أعضاء مجلس الادارة بتأييد الهلباوى واحمد لطفى السيد وحسن عبد الرازق .

وستبقى الامة الاسلامية ومصر مدينه **لقاسم امين** اذ اشترك فى تأسيس الجمعية ، وهو شاب يدعو الى تحرير المرأة ، وتنخرط الجمعية فى تأييده بتعليم البنات ، ولا تمضى على موت قاسم سنوات حتى يستقبل سعد زغلول وزوجته فى بيته ومعهما زوجه قاسم امين ، مظاهرة عامة للسيدات " سافرات

الوجوه " وجرت فى آثارهم النهضة النسائية شوطها الطويل ، واعضاء الجمعية يرعونها مقدرين نشاط السيدة هدى شعراوى لنشر افكاره .

وليس عجيبا ان نستذكر اسماء الاعضاء الأولين وكثيرين غيرهم ، ولا تجد واحدا منهم تزوج بغير امرأة واحده ، وفى صدارتهم محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد محمود ، وعبد العزيز فهمى ، واحمد لطفى السيد ، وعلى إبراهيم .

وليس عجيبا كذلك أن نجد فى محاضر الجمعية محضر ٢٣ نوفمبر سنه ١٨٩٨ جدلا بين قاسم أمين وسعد زغلول ، وبين رئيس الجمعية المحافظ عثمان ماهر باشا وكيلها لطيف سليم باشا زعيم ثورة الضباط فى عهد الخديوى اسماعيل ، بصدد " حرية المناقشة " لموضوع وقف أموال الجمعية . ونرى الجدل ينتهى الى استقالة الرئيس ، من رياسة الجمعية واستقالة الوكيل ، وان يقرر المجلس بسلاسة ويسر ، اعتبارهما منفصلين من الجمعية . وكما يقول الهلباوى بك فى كتاب اليوبيل الذهبى للمحاكم ١٩٣٣ " تراجع الجميع وسلموا (لقاسم) برأيه " . ومضت الجمعية من سنه ١٩٠٨ ، ولم يفكر أحد من أعضائها الى اليوم فى الخروج على رأيه فى موضوع الوقف ؟ .

وقاسم بهذا ، يضيف الى تحرير المرأة وحرية المناقشة ، حرية حركة المال ، ويسبق قانون الغاء الوقف الاهلى بنصف قرن ، كما سبقت مصر برأيه فى تحرير المرأه . العالم الاسلامي والعربى بل كثيرا من بلدان من اوروبا .

ولقد بدأ الشيخ محمد عبده بعد عامين من انشاء الجمعية الاسلامية صلاته بالخديو عباس حلمى لإصلاح الأزهر ، واستصدار أمر بانشاء مجلس ادارة هو عضوه المنتدب ، فأجرى من الاصلاح ما استطاع وسار الشيخان

المراغى وعبد المجيد سليم على نهجه فى الالحاح على الاصلاح ، لتستمر الأمة فى طلبه ، حتى نشأت جامعة الأزهر سنه ١٩٦١ بالقانون رقم ١٥٣ لسنه ١٩٦١ .

وكما تدين الامة الأسلامية لقاسم بتحرير المرأة ، تدين للشيخ الامام محمد عبده بقوانين الأسرة التى وضع أسسها فى تقرير اصلاح المحاكم الشرعية وأعد مشروع قانون ، كما تدين له باصلاح الأزهر ، وهى أمور صارت مهام وطنية ، وتشريعية ، نهض بها من تلاميذه الشيخان المراغى ومصطفى عبد الرازق شيخا الأزهر ورئيسا الجمعية الخيرية الاسلامية ، ثم الشيخ عبد المجيد سليم .

والشيوخ الثلاثة كانوا لسان صدق ، يعلنون خلاف الأمة مع الملك وسوء تقديرها له ، واثنان منهم استقالا اعتراضا عليه مطالبين بالاصلاح .

ولقد رأس **الشيخ محمد عبده** ، الجمعية من عام ١٩٠٠ حتى توفى سنه ١٩٠٥ ، وأعقبه **الأمير حسين كامل** حتى سنه ١٩١٤ حين أصبح سلطانا على مصر ، وأعقبه **الأمير يوسف كمال** حتى سنه ١٩١٧ ، **ثم عدلى يكن** حتى سنه ١٩٢٣ ثم **محمد محمود** حتى سنه ١٩٤٠ ، ثم **الشيخ المراغى** حتى سنه ١٩٤٥، ثم **الشيخ مصطفى عبد الرازق** شيخ الأزهر وهو أصغر تلاميذ محمد عبده . وفى سنه ١٩٤٧ رأسها **أحمد لطفى السيد** حتى سنه ١٩٦٣ ، كما رأس الجامعة ومجمع اللغة العربية مع رياسة الجمعية . ورأسها بعده رجل من مستواه ، وهو **عبد الحميد بدوى باشا** حتى عام ١٩٦٥، وجاء بعده **طراف على باشا** سنه ١٩٦٦ ؛ ثم **مصطفى الصادق** ، ثم المهندس **احمد عبده الشرباصى**، ثم **الدكتور نور الدين طراف** حتى سنة ١٩٧٧ ، ويرأسها الآن الاستاذ **المستشار محمد صادق الرشيدى** .

ولئن كان طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى ، أمينا عاما للجمعية وطالت مدته فى خدمتها ومنها انشاؤه اكبر المستشفيات فى القاره الافريقية ، فإن عمل الأمين العام السابق المرحوم محمود محمد محمود بها ، ليس أقل أثرا فى تاريخ مصر ، وهو يمتاز بفضح أعمال الملك عندما كان رئيسا للجهاز الرقابى (ديوان المحاسبة) .

وعليه اعتمد مصطفى مرعى ، فى المهاجمة العنيفة لسلوك الملك فاروق فى مجلس الشيوخ المصرى ، وكانت هذه الفضائح سببا اساسيا ، فى قيام ثورة سنه ١٩٥٢ ، وخلع الملك . كما **يمتاز محمود محمد محمود** فى التاريخ الدستورى لمصر والعالم الاسلامى ، بأنه الذى قدم مشروعا فى الأربعينات الى مجلس النواب بإنشاء مجلس الدولة ، فبادرت الحكومة الى تقديم مشروعها الذى اعدته هيئة قضايا الدولة فى عهد رئاسة عبد الحميد بدوى لهيئة قضايا الدوله . وصدر القانون بإنشاء مجلس الدولة سنه ١٩٤٦ ، وهو يخص القضاء الإدارى بسلطة الرقابة القضائية الكاملة على أعمال الحكومة ، وبه احتمت الحريات فى مصر . ولما قامت ثورة سنه ١٩٥٢ ، حياه زعيمها جمال عبد الناصر تحية خاصة . ومحمود محمد محمود هو ابن رئيس الوزارة فى العشرينات والثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ، وهو حفيد محمود سليمان باشا رئيس حزب الامة ورئيس لجنه الوفد المركزية حينما قامت ثورة سنه ١٩١٩. وهو أيضا حفيد لواحد من مؤسسى الجمعية واعضاء مجلس ادارتها الأول سنه ١٨٩٢ ، وهو ادريس راغب باشا الذى يرد اسمه بين الأعضاء بجوار اسم الشيخ محمد عبده وقبل أسماء على فخرى وزملائه المستشارين ، وفيهم سعد زغلول .

خلف محمد عبده للأمة الاسلامية كافة بدايات الاصلاح فى الأزهر الشريف وانهاض الرأى العام المصرى ، ومدرسته التى ستلى الحكم ، فى

كفاءة لا تقل عن نظائرها فى اعظم دول العالم المعاصر ، الى جوار تفسيره العصرى للقرآن الكريم – وما أعظمه وأهمه للأمة . كما خلف فتاواه التى ما تزال مراجع للتطوير ، ومشروعات قوانين الأسرة واصلاح القضاء الشرعى . وتولى سعد زعامة الأمة في وزارة المعارف سنة ١٩٠٦ ووزارة الحقانية سنة ١٩١٠ مدافعا عن اللغة العربية ومدافعا عن الحريات ، ومعارضا للتشريع الانجليزى ، الذى حاول الانجليز فرضه، كما تولى زعامة المعارضة فى سنة ١٩١٣ ليعد الأمة للجهاد الجديد بعد الحرب العالمية الأولى . وفى هذا الجهاد شارك زعماء الأمة فى الوفد الذى ألفته مصر سنة ١٩١٩ لمفاوضة الانجليز ، وبرز التعاون بين الحكومة برياسة رشدى وعضوية عدلى وثروت مع ممثلى الأمة فى انضاج الرأى العام الذى يقوده سعد زغلول ، وشاركوه فى الائتلاف الوطنى سنة ١٩٢٥ لسنة ٩٢٦ باعتباره زعيم الأمة .

وتولى عدلى حكومة فاوضت الانجليز وفشلت ، ونجح ثروت فى تنفيذ خطة عدلى ورشدى ، وهى اعلان الاستقلال مع قبول تحفظات تستمر عليها المفاوضات ، واعلن الاستقلال فى فبراير سنه ١٩٢٢ وصار السلطان فؤاد ملكا . وكاد الملك لثروت ليستقيل ، فاستقال بعد ان أعدت لجنة الدستور مشروعا إستحسنه سعد زغلول ، وتولى الوزارة بالاغلبية الشعبية سنه ١٩٢٤ . وفشل فى مفاوضته مع الانجليز ، ثم ألف الائتلاف الأول فى تاريخ مصر ، وأقام عدلى رئيسا للوزارة ثم عين ثروت رئيسا للوزاره ، ولها أغلبية وفدية ، وسعد رئيسا لمجلس النواب المسيطر على سائر المؤسسات . وتولى **محمد محمود** الوزارة مرات ابتداء من سنه ١٩٢٨ ، كما ولى **على ماهر** رئاسة الوزارة مرات ، وهو عضو فى الجمعية الخيرية الاسلامية وكان آخر وزاراته سنه ١٩٥٢ . كما وليها **الشهيدان احمد ماهر ومحمود فهمى**

النقراشي حتى عام ١٩٤٨ وبذلا وسعيهما في ميادين الجهاد واستشهدا ، وكلاهما كان عضوا في الجمعية الخيرية الاسلامية .

والذى يراجع دستور سنه ١٩٧١ يرى فى الباب الأول آثار مدرسة محمد عبده فيه والإصلاحات التى أجرتها مصر بعد صدور الدستور سنه ١٩٢٣. والمؤسسات الحكومية والأهلية التى تتابعت بعده لتحمل النصف الثانى من القرن العشرين فى شموخ ، وقد حذت حدوها الأمم الاسلامية والدول العربية فى آسيا وافريقية ، وما زالت مصر تباهى باستقرارها ، وتطوير قوانينها للدخول فى القرن الحادى والعشرين ، ومنها قانون تطوير جامعة الازهر سنه ١٩٦١ وفيها ما يحقق برنامج محمد عبده لتطوير الازهر .

وما تزال أعمال الشيخ محمد عبده العلميه باعثا على الاجتهاد الفكرى ، وحرية النظر ، والحث على التكافل الاجتماعى ، واستعمال العقل وهى شعارات للحضارة المعاصرة فى الغرب والشرق كقوله (إن الإسلام قد قاضاك إلى العقل ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن لسلطته واذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الايمان) . وإن الاسلام (يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ، فصاحب هذا الدين لم يقل بع ما تملك واتبعنى ، ولكنه قال لمن استشاره فى الصدقة " الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة على الناس " والمسلمون محفوزون حفزا لطلب العلم فاذا لاقاهم العالم شدوا به أواصرهم ولا يبالون ما تكون عقيدته ..)

****

لم يكد سعد زغلول يلقى ربه سنه ١٩٢٧، حتى انفض الائتلاف الذى أحكمه بين أحزاب الأمة ، وتعاقبت وزارات الملك فؤاد فوضع **دستور ١٩٣١** وعطل الدستور القديم بما فيه من حريات ، واشتهر منذئذ تزييف

الانتخابات ، وان اجبر الانجليز الملك ، على اعادة الدستور (**دستور ١٩٢٣**) . واستمرت الأحزاب تسعى مؤتلفة او منفرده لمفاوضة الإنجليز ، ثم عقدت هيئه من الزعماء معاهده سنه ١٩٣٦ مع الأنجليز ، برياسة مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد ورئيس الوزارة . ثم جاء الملك بوزارات أقليات ، هى التي حكمت اكثر ايام تطبيق دستور سنه ١٩٢٣ . ثم عرض النقراشى قضيه مصر على مجلس الأمن ، فى شجاعة وبراغة وفى صحبته اثنان من عظماء رجال القانون فى الامة هما عبد الحميد بدوى باشا رئيس هيئة قضايا الدولة ، والذى رأس الجمعية الخيرية من سنه ١٩٦٢ الى سنه ١٩٦٥، والدكتور السنهورى وكان وزيرا للمعارف ، وهو تلميذ الجمعية الخيرية فى مدرستها الابتدائية بالاسكندرية تعلم فيها مبادئ الدين الحنيف ، ليصير واحدا من جنود الفقه الاسلامى فى القرون الحديثة .

ولم ينصف مجلس الأمن مصر ، بل ردها والإنجليز إلى مزيد من المفاوضات ، ثم الزم الانجليز الملك باجراء انتخابات حره جاءت بحزب الوفد إلى الحكم بما يقارب الاجماع ، وتنكأ الانجليز فى المفاوضات وألغى النحاس باشا معاهدة سنه ١٩٣٦ ، وتدفق المجاهدون يحاربون الجيش البريطانى على شواطئ القنال وأعدت الميادين لتعليم الرماية ، وكان استشهاد الطيار احمد عصمت مناسبة لإظهار اتفاق الحكومة والشعب على مجاهدة الانجليز ، اذ أناب النحاس باشا أحد وزرائه للاشتراك فى جنازة الشهيد ، فكانت دعوة رسمية للجهاد .

وبعد ايام حرقت القاهرة ، وأعلن النحاس الأحكام العرفية ، وأقاله الملك فاروق ليحكم شهورا سبعة بوزارات ست ! كان بكل يوم منها نذيرا للثورة ! فقام بها الجيش فى يوليو ١٩٥٢ . وفاوض عبد الناصر الإنجليز ، وانسحبوا شهورا ليعودوا بجيوش ثلاثة : انجليزية وفرنسية ومعهما جيش إسرائيل !

حاربتها مصر سنه ١٩٥٦ ، ثم حاربت إسرائيل سله ١٩٦٧ ، وبانتصار سنه ١٩٧٣ تم استرداد ما تمكنت إسرائيل من احتلاله .

وتعالى النداء الخالد للإسلام على لسان الأبطال يعبرون القنال : الله أكبر . الله أكبر . لتفتح مصر المنتصرة عصرا جديدا للعرب وللمسلمين . والله بالغ أمره .

والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته

المحاضرة الثانيـة

الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد

فضيلة الإمام الشيخ محمد الغزالى

١٤ نوفمبر ١٩٩٤م

١٠ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ

جانب الحضور

من اليمين : فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود ، رئيس جامعة الأزهر الأسبق ، فالأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى وكيل كلية حقوق طنطا فمعالى الأستاذ سيد الهاشمى مستشار دولة الامارات لشؤن القضاء فالدكتور عارف الدسوقى

على المنصة : المستشار محمد صادق الرشيدى فالامام الراحل الشيخ محمد الغزالى فالمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم

محاضرنا - رحمه الله رحمة واسعة - فضيلة الامام الشيخ محمد الغزالى (١) ، هو حجة الاسلام فى عصرنا . وهو الرجل الذى تفتحت عقولنا وقلوبنا على مؤلفاته العديدة ، والتى تجاوزت الخمسين كتابا ، بخلاف أحاديثه ومحاضراته ومقالاته التى لا تحصى .

ومن جانبى أذكر على وجه الخصوص كتابه (الاسلام والأوضاع الاقتصادية) الصادر سنه ١٩٤٧ ، والذى صدرت منه بعد ذلك حسب علمى سبع طبعات آخرها سنه ١٩٨٧ . وكيف ان هذا الكتاب وانا طالب بكليه الحقوق ، هزنى بشدة وعمق ، وأثارنى ووجهنى الى جانب كان وقتئذ مغمورا ومجهلا به وهو الجانب الاقتصادى فى الاسلام ، أحاول منذ اواخر الستينات

---

(١) توفى فضيلته فى ٣ مارس ١٩٩٦ الموافق ١٣ شوال ١٤١٦ ، رحمه الله رحمة واسعه .

الاحاطة به والتعمق فيه ، فالى استاذنا الشيخ الغزالى الفضل فيما أصدرته من مؤلفات فى الاقتصاد الاسلامى .

واستاذنا الامام الشيخ محمد الغزالى ، بالرغم من انه لا يكاد يختلف اثنان منصفان على انه واحد من القمم الاسلامية الشامخة التى تعد على أصابع اليد الواحده في عالمنا الاسلامى المعاصر ، وبالرغم من جهوده الجبارة كداعية وفقيه اسلامى لأكثر من نصف قرن . بل بالرغم من تأثيره الملموس وثقله ووزنه الكبير على امتداد عالمنا الاسلامى الفسيح ، تراه متواضعا للغاية ويلخص رسالته وجهوده المضنية بقوله (ان كل ما أبغيه هو إنصاف الاسلام من سوء الفهم وسوء الاستغلال) .

ولذلك تراه ينعى على الكثرة التى لم تفهم من الاسلام سوى القشور ، فاقتصروا على المطالب التعبدية وانشغلوا بالفروع وتصارعوا حول شكليات ومسميات ، غافلين عن أهداف الاسلام الكبرى فى إقامة الشورى ، وضمان حد الكفاية ، لامجرد حد الكفاف لأقل فرد ، وإشاعة المحبه والتعاون بين المسلمين ، ليخلصوا لعبادة الله وحده ويسودوا على الارض ليكونوا بحق كما اراد الله لهم خلفاء فى الارض .

واستاذنا دائما يؤكد (انه من العبث خدمة الاسلام بالنصائح المجردة او العواطف المفتعلة ، بل لابد قبل ذلك ان نعمل على تخليص أمتنا الاسلامية من ثالوث الفقر والجهل والمرض ، فقد أضاعت هذه الامراض او الرذائل معنى الايمان الحى فى نفوسنا) ويضيف فضيلته (ان الشعوب العاجزة الكسول ، تحط من مكانة الأديان التى تعتنقها ، وتهبط بمستوى العقائد التى تنتمى إليها ، وان الاتباع الحمقى كثيراً مايفرضون سفههم على اسمى الحقائق ، فبدلا من ان يرتفعوا معها الى القمة يهبطون بها الى السفوح) .

ومن هنا **يؤكد استاذنا الجليل بنص عبارته** (ان الامة الاسلامية . كي تكون على مستوى دينها وكى تنجح فى المحافظة عليه ، وكى تستطيع إفهامه للآخرين ، لابد ان تكون راسخة القدمين فى شئون الحياه كلها ، بل يجب ان تكون سباقة فى شتى الميادين مسموعة الكلمة فى آفاق العلم برا وبحرا وجوا) .

وينبهنا فضيلته بأن (من حق الامم الكبرى ، وهى أمم تحتقر الامية العلمية والصناعية ، ان تنظر الى دعاوى المسلمين وافكارهم وقيمهم ، بريبة أو سخرية ، مادام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الانسانى)

ويذكرنا فضيلته دائما بأن (قوام الدين الاسلامى هو الديمقراطية السياسية ، والعداله الاجتماعية ، وليس فى ملازمة المسجد ، او اطلاق اللحى ، او فرض النقاب . . . وان التدين الصحيح هو عدو الظلم والطغيان ، وهو عدو الجهل والفقر ، وهو رفض لليأس والاستضعاف) .

وختاما اذكر عن استاذنا شيخ الاسلام فى عصرنا الامام محمد الغزالى قوله (ان النكسه التى اصابتنا فى تاريخنا الطويل ، إنما جاءت من فساد عقول العامة ، ومن فساد ضمائر القلة الحاكمة) . **وقوله (ان المأساه التى طالما نبهت اليها ، هي انشغال العقل الاسلامى بالهامشيات ، والذهول عن مشاكل العالم الكبرى فى سياسة الحكم والمال) وقوله (ان الصراع العالمى ليس بين الاسلام وغيره من أهواء البشر ، وانما هو صراع بين تطبيقات غبيه للاسلام ومسالك بشرية يقظة جريئة)** . وقوله (ما اكثر ما يكاد به الاسلام فى هذا العصر ، ولكن ما يكيد به المسلمون انفسهم أدهى وأمر) . وقوله ((ان مهمتى التنوير لا إلصاق التهم ، وغايتى حشد الأدله لدعوة الحق ، فأنا مرب ، لامدع عام ، وان لدى من شئون الاسلام والمسلمين ، ما هو أولى بالاهتمام) .

استاذى الفاضل الجليل

اننـى مهمـا اقتبسـت مـن مؤلفـاتك وأحـاديثك ، فـاننى سـأظل عـاجزا عـن الاغتراف من بحركم الفياض وعلمكم الراسخ وتوجيهاتكم الحقة .

فـلا أملـك فـى هـذا المقـام ، إلا أن اتجـه الـى اللـه تعـالى ضمـن الملاييـن المقدرين لكـم ، أن يحفظكـم ويرعـاكم ، لتقدمـوا للعـالم الاسـلامى مزيـدا مـن التنوير والتوجيه ، وان تشهدوا غرس أيديكم بانتصـار الاسـلام الوشيك علـى هذا الركام من التخلف الفكرى والمادى ، وما ذلك على الله بعزيز .

كلمة فضيله الإمام الشيخ / محمد الغزالى

لعل الفتوح الاسلامية كانت اسرع الفتوح فى تاريخ العـالم وأبعدهـا أثـرا ، ففى خلال عشرين سنه بعد وفاة صاحب الرسالة الخاتمة ، كانت أركان الدول الكبرى تنهار . وكان الاسـتعمار العـالمى يتقلـص كمـا تتقلـص الظلمـات امـام مطـالع النهـار . . . . فقد الرومـان أملاكهـم فـى افريقيـا وآسـيا ، وتحـررت شعوب احتبست قرونا ، داخل مصيدة محكمة من البطش .

نعـم ، تحـرر فـى الشـمال الأفريقـى مـا يسمـى الآن مصـر وليبيـا وتونـس والجزائر والمغرب ، وتحرر من أسيا فلسطين وسوريا والأناضول . وحـاول الفاتحون تحرير القسطنطينيه فعجزوا ، ولكنهم حرروا جزر البحـر المتوسـط تقريبا .

وكان جناحهم الشرقى فى آسيا قد محا دولة الأكاسرة ، ووصل شمالا الـى جنوب روسيا ، وأوغل فى الشرق حتى أخذ اقطارا من الهند والصين .

إن الدولة الإسلامية الأولى تكونت فى زمن خـارق للعـادات فـى قصـره ، وأقامت عقيدة لاتزيدها الأيام إلا قدرة على البقاء ومقاومة الأحداث .

ويرجع ذلك فيما أرى إلى أمرين :

الأول : حاجة العالم إلى تعاليم الإسلام ، واقتناعه بها ، ورضاه عنها عندما بلغته ، حتى أن أبناء البلاد المفتوحة ، سابقوا العرب إلى فقه الإسلام ونشره ، وصاروا أئمة للأمصار الكبرى تثق الجماهير بهم وتصدر عنهم .

الثانى : أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قدموا الرسالة للناس علماً ذكياً وثقافة أصيلة . والإسلام من ينبوعه الأول ، علم ينير العقول ويمحو الأهواء ، لذلك قال الله لنبيه (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالك من الله من ولى ولانصير) .

ويكرر هذا المعنى فيقول فى سورة أخرى (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم ، مالك من الله من ولى ولاواق) .

ان الإسلام علم واسع الدوائر ، وقرآنه الكريم ، كون مسطور يضارع الكون المنظور فى تفتيق العقول ، وتجلية الفطرة ، ولولا مافى آيات القرآن من هدى ونور ماقامت أزهى حضارة فى التاريخ !

اننى أرمق الأفق الذى ينقل القرآن الناس إليه فى كل مجال فاردد قوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين – تاركى خلالهم القديمة – حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) .

ثم أشعر بالأسى " **للأمية الثقافية** " التى لفت جماهيرنا فى أكفانها ، وجعلتهم فى هذا العصر آخر الأمم ، وأنزلها رتبة .

نعم ، هناك أشرطة حية تحفظ القرآن حرفاً حرفاً ، ولاتعى منه ما يرفع رأساً . وهناك عشرات الدول تنتمى إلى الإسلام ، تذكرنا بتْغلب ، وحمْيرْ ، وطسْم وجديسْ .

ماذا حدث ؟ أن الإسلام الذى سُمىَّ فى وحى الله علماً ، أمسى أهله سواد الأميين فى العالم .. !!

تذكرت الأيام الأولى من عمرى عندما كنت أحفظ القرآن الكريم – من سبعين سنة مضت – كنا نتعلم (الحساب) فى كتاب تضمن القواعد الأربع ، مترجم عن الانجليزية ألفه مستر " تويدى " ! قواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة نأخذها عن خواجة ؟

أن آباءنا ، وضعوا طائفة من النظريات الهندسية ، وبرعوا فى حساب المثلثات والمربعات ، فما الذى دهانا ؟

أن هذا القرآن يبنىَ الإيمان على التأمل فى الكون ويقول (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) .

عناصر الكون ومظاهره هى مصادر الايمان واليقين ، فما يصنع مكفوف لايرى آية ؟ وما تكون معرفته بالله ؟

وهل المعرفة المزعزعة قادرة على أن تحكم سلوكا ؟ أو تقتحم عقبة ؟ أو تدفع إلى مكرمة ؟ لقد بدأت بذكر المعرفة الكونية ، لأنها من شئون الدنيا التى نستوى فيها مع غيرنا ، والتى قيل لنا فيها أنتم أعلم بشئون دنياكم !

ابتدع ما شئت ! واكتشف ما استطعت ! لاقيد ولاحظر . .

أن غيرنا سبق سبقا بعيداً ، وبرز فى كل ميدان ، وساند عقائده بما استطاع ، فانطلق الباطل فى ساحات الحياة ، مدرعاً بالحديد . والتقينا به ونحن نحمل مواريث الوحى ، وأيدينا عزلاء وأجسادنا عارية ، فلما عدنا كانت هزائمنا مضاعفة ، لفراغ اليد والعقل والفؤاد !!

والألوف المؤلفة من مسلمى العالم يعيشون أتباعاً مغموطين لأنهم يشترون أجهزتهم المدنية والعسكرية من خصوم العقيدة وكارهى الوحىّ !! وينتظرون من الباعة أن يعلموهم ماذا يصنعون بهذه الأجهزة وكيف يستخدمونها ؟

أما ثقافتنا الإسلامية التى استبحرت فى القرون الأولى ، فقد رأيت تأليف كتاب فيها سميته (تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل) . والكتاب على وجازته ، يلقى ضوءاً على موضوعه قد يحتاج إلى زيادة !

أن عندنا مدرسة الفقه والتشريع ، ومدرسة التربية والأخلاق ، ومدرسة العقائد والمتكلمين ، ومدرسة التفسير والحديث ، وفنون الآدب من شعر ونثر ، وقد تعرضت هذه المدارس للمد والجزر ، والغزارة والضحالة ، ووضعها الآن يثير الدهشة . فالأدب مثلا كان فى الجاهلية والإسلام شيئا له وزن وقيمة ، وقد ظل ينحدر حتى فقد وزنه ، ثم قيمته ، ونحن الآن نقرأ شيئا اسمه الشعر المنثور يمثل مرحلة من القول أدنى إلى المجون منها إلى الرشد ، وفى تسميته أدباً تَجوُّز كبير .. !!

مع طول العمر ، وكثرة التجارب ، نستحكم العقل ونهتدى إلى الصواب ، وإذا كان ذلك مأنوسا فى الأفراد ، فيجب أن يكون مألوفاً بين الجماعات والأمم !

ونحن المسلمين نحمل رسالتنا من زمن طويل ، أننا الآن فى القرن الخامس عشر من تاريخ الإسلام ، ذقنا مع ديننا ، الحلو ، والمر ، والهزيمة ، والنصر والامتداد والانكماش . فهل تعلمنا شيئا مما أصابنا ؟ وهل استفدنا من التجارب حكمة تصقل أحكامنا وتضبط خطانا ؟

المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وربما قلّت استفادة المنافق من الأحداث كما قال تعالى : (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) .

ولست اتساءل الآن عن مدى اعتبارنا من سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، أو سقوط الخلافة العثمانية في الأستانة ، أو ضياع الإسلام كله في الأندلس ثم بدء الانسحاب من أقطار أوربا الأخرى !!!

مع أن هذا التساؤل مطلوب وتجاهله جريمة .

انما أتساءل عن المدارس العلمية المختلفة في الفكر الإسلامي ، ماذا حدث لها ؟ وأين حطت عصا الترحال ؟ ولابدأ بمدرسة التربية والأخلاق التي اشتبكت في تاريخنا العلمي بنزعة التصوف وفلسفته .

يجب فض الاشتباك السيّئ في هذا المجال وتنشئة أجيال أزكى نفوساً من المسلمين المعاصرين لاتفصل بين الايمان والخلق ، ولا بين العبادة والخلق .

ان الذي شاق الخوارج قديماً وحديثاً ضعف أخلاقهم وهم يعاملون الناس ، واستباحتهم المجنونة للدماء والأموال من أجل فكرة غلبت عليهم أو وجهة ساروا إليها . انهم لايتواضعون لله ولايهضمون أنفسهم لأمر ذي بال .!

أعجبني الإمام ابن القيم وهو يحاور كبير الصوفية في عصره فيقول متواضعاً :

اذا كنتُ قد عرفتُ شيئاً لم يعرفْه الشيخ الكبير ، فأنا كالهدهد الذي قال لسليمان " أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين " والهدهد هو الهدهد ، وسليمان هو سليمان ! ومضى الرجل في كتابه يعارض حيناً ويؤيد حيناً ، وكأنه الشافعي الذي قال : " **ماجادلت أحداً إلا تمنيت أن يكون الحق إلى جانبه** " !

أين هذا الخلق من أشخاص مسعوزين ، همُهم الأول ، تحقيرُ الخصوم ، والنيلُ منهم . فاذا جادلوا عن رأى لهم ، تقمصهم حب الانتصار ، واثبات الشخصية والزهو بين الناس !.

ان محنة التربية هائلة فى العالم الإسلامى سواء فى الأخلاق الربانية أو الأخلاق الانسانية . الاخلاص لله قليل ، والصدق مع الناس قليل ، والمفروض ان تكون وراء نبينا ، نتمم مكارم الاخلاق .

لاقيمة لأشكال العبادات إذا لم يكن وراءها مهاد من تقوى القلوب ، والدين قبل كل شئ زكاة فى النفس وصفاء فى الروح ، وميل إلى العطاء لا الأخذ ، وإلى السلام لا الخصام ..

ولأمر ما ، علمنا نبينا أن أول ثلاثة تسعر بهم النار هم : المراؤن بالعلم والجهاد والصدقة . ان المرائى يرى نفسه ولايرى ربه ، انه مشغول بجاهه ومكانته قبل كل شئ !!

وإذا عجز الدين عن كبت الغرائز السوء ومحوها ، فان تطبيقه فى الحياة لن يكون إلا تنفيسا عن هذه الغرائز ولو أخذ صورة العبادة !

وقد راقبت حركة إسلامية فشلت فى بلوغ غايتها ، كانت تضم صالحين كثيرين ، ولكن بينهم عصابة ، ترى أن تحكم هى بما أنزل الله ، وترفض أن يحكم غيرها !!

ان حب الرياسة خالطها ، وهيمن على خططها وبواعثها ، فنشأت عن ذلك فتن هائلة والله وعد بالتمكين ، منْ هدفهم اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قبل أن يكون هدفهم تولى منصب ما ..

ان الاخلاق بقسميها " **الربانى** " و " **الانسانى** " هى الإسلام الحق يقول على بن أبى طالب : " أيها الناس انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج قوم من أمتى يقرأون من القرآن ، ليست قراءتكم إلى قراءتهم

بشئ ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشئ ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشئ . يقرأون القرآن ، يحسبون أنه لهم وهو عليهم ، لاتجاوز صلاتهم تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " .

والأجهزة الإدارية فى العالم الإسلامى مصابة بمن يعبدون مناصبهم ويستغلونها لمصالحهم ، ولا يعرفون أنها أمانات يسألون عنها يوم الحساب .

وعلم القلوب ، الذى يسمى الآن علم التصوف ، لايدرى شيئاً عن علل الأمة ، بل هو تائه وسط أفكار وفلسفات سقيمة . ثم هو بين العوام ، رقص تهتز به الأبدان ، وتموت فيه العقول والأفئدة .

واذكر أنى فى صباى ، قرأت كتابا يتتبع الأمانة فى مسالك الناس ، وأظن المؤلف أمريكيا ، فاستغربت أنه قرّب الفضيلة من الأذهان ، وكان عمليا واضحا فى اثبات السلوك الشريف ومحو السلوك الخائن . قلت ما أحوجنا إلى مثل هذا التأليف فى ميدان التربية ، حتى يكثر الأمناء بيننا .!

ان نبينا عليه الصلاة والسلام خلّف لنا ميراثا ضخما يدفع الناس دفعا فى طريق الكمال ، ويصحبهم فى مراحل الطريق بالتوعية والتذكير حتى لاتزل قدم أو تعرض ريبة . ما أحوجنا إلى هذا الميراث ، ونحن نواجه حضارة ، ذكية ، شريرة ، مغرورة .

أظن كتب الفقه الإسلامى تبلغ نصف المكتبة الإسلامية ، فان اشتغال المسلمين بالفقه ، غلب على ثقافتهم ، وتغلغل بين عامتهم وخاصتهم . وان لاحظنا بحزن أن الاهتمام بالفروع الصغيرة غلب على العبادة والمعاملات .

أما الفقه الإدارى والإقتصادى والسياسى ، فان البحوث فيه قليلة ، ولعل بعضها كان مقلقا !! وقد كتب تلميذا أبى حنيفة فى هذه الشئون – أبو يوسف ومحمد بن الحسن – ألف الأول فى الخراج أو الضرائب ، وألف الثانى فى الشئون الدولية .

والميدان فسيح ليقول الفقه الإسلامى كلمته فى نظم الحكم وقضايا المال وأطوار أخرى جدت فى أنواع المعاملات ...

والطريقة التى درسنا بها الفقه فى صبانا الباكر ونحن فى المرحلة الابتدائية بالأزهر جديرة بالتنويه ، فقد كنت حنفىّ المذهب كما أراد أبى ، وكان زملائى بين شافعية ومالكية ، أما الحنابلة فقليلون .

وكنا نتبادل الخلاف الفقهى ونحن نتضاحك ! يقول المالكى الشك ينقض الوضوء ، وأقول لاينقضه . أو يقول المفطر ناسيا يقضى يومه ، وأقول لايقضيه ! ويقول الشافعى لمس المرأة ينقض الوضوء ، وأقول لاينقضه . أو يقول ينبغى رفع اليدين قبل الركوع وبعده ، وأقول لايرفع إلا عند تكبيرة الاحرام !

ومع هذا الاختلاف المتبادل ، كنا زملاء متحابين ، نؤلف المظاهرات ضد الاحتلال الانكليزى ، ونتعاون فى مصالح شتى . وما فكرنا قط أن يكون هذا الاختلاف ، مثار خصام أو عدوان .

ويظهر أن بعض البيئات فى العالم الإسلامى ، درست فقه الفروع على أسلوب آخر ، زرع الجفاء ، والفرقة بين المسلمين ..

واذكر أنى مكثت فى الجزائر بضع سنين ، أصلى وراء أئمتها ، وهم مالكية دون حرج ، وفى يوم ما جاءنا حنبلى زائراً وصلى معنا ، وكان يجاورنى فى الصف فرأيته مضطرباً غضبان يوشك أن يعيد صلاته ، وأن يأمرنا باعادة الصلاة !

قلت له : مابك ؟ قال أرأيت هذا الإمام ، يكبر ثم يقول مباشرة ، الحمد لله رب العالمين ؟ قلت له : الإمام مالك لم يثبت عنده حديث الاستفتاح ، ولم يثبت عنده أن يستعيذ المصلى .. وليست البسملة جزءاً من الفاتحة ، وله رأيه ولك مذهبك . ألم تقرأ كتاب ابن تيمية (رفع الملام عن الأئمة الاعلام) ؟

هذا تنوع وليس اختلاف تضاد ، والمرويات الواردة تنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام هذا وذاك من الأقوال ، فاسكت ولاتحدث بين الناس فتنة ! والواقع أنى أكرهت الرجل على الصمت ، وأحسبه لم يصل معنا بعد هذا اليوم .

لقائل أن يقول : ما هؤلاء الأئمة الذين ذكرت أسماءهم وربطتنا بهم ، اننا نمضى بعيدا عنهم وما نحب أن نعرج عليهم ! واجيب ، لك ذلك اذا شئت ، والمهم أن تكون ماهرا فى القرآن ، خبيرا بالسنن ، ضليعا فى اللغة ، ألمعيا فى الذكاء مستغنيا عن تجارب الآخرين !

ان هؤلاء الأئمة سبقوا فى دراسة الكتاب والسنة ، ولم يجئ احد منهم بشئ من عند نفسه . وقد عرفوا بالعلم والتقوى ، وخدموا الإسلام جهدهم ، ولم يجمعوا الناس حولهم بالعصى أو بالأعطية ، انهم مدارس مجتهدة ، تخطئ وتصيب ، وهم جميعا مع مالك فى قولته المشهورة : كل أمرئ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . واشهد أنهم قمم شوامخ فى فقه الإسلام ، وفى التجزد لله ، وازدراء العاجلة .

وما رأيت أهل علم ، زهدوا فى تراثهم ، أو زعم لأحدهم العصمة . وعلى أى حال ، فقانون الاجتهاد : أن من أصاب له أجران ، ومن أخطأ فله أجر واحد .

ورأيى أن باب الاجتهاد مفتوح ، ولكن يستحيل أن نأذن لكل انسان بولوجه . لابد من رسوخ فى العلم ، ورسوخ فى التقوى (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) . وميدان الفقه تعمل فيه شعبتان : أصحاب الرأى ، وأصحاب الأثر .

وليس معنى الرأى : الهوى ، وليس معنى أصحاب الأثر ، أن من المسلمين من يترك نصا واردا . وان الطبائع العقلية للبشر مختلفة ، فقد يفهم واحد من النص ، مالا يفهمه غيره .

وتدّبر حال الصحابة فى تنفيذ قول الرسول : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر فى بنى قريظة " .

وتدبر حال داود وسليمان حين اختلفا فى عقوبة من ترك قطيعة يفسد الحرث !! (ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلماً) .

ان الخلاف واسع بين أهل الرأى وأهل الأثر فى قضايا كثيرة ، بعضها فى العبادات ، وبعضها فى المعاملات .. لكن ماقيمة هذا الخلاف ؟ انه فى بعض الفروع والتفاصيل ، وما يجوز أبداً ان يفسد ودا أو يوقع خصاما

الأساس الذى نحرص عليه هو العقائد والاخلاق ، إننى أميل إلى مدرسة **الرأى** مع احترامى لأحمد بن حنبل وتقديرى لصلابته وتقواه ... وأشعر أحيانا بأن الخلاف – فى الفروع والتفاصيل – جزء من المجتمع الواحد ففى الولايات المتحدة حزب للديمقراطيين وآخر للجمهوريين ، انهما متفقان فى الولاء لدولتهم والانتصار لها عالمياً ، ومع ذلك فالجدال بينهما مستمر فى شئون شتى .

فلماذا يتطير البعض من الخلاف الفقهى عندنا ، وينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور ؟

أفدت من تجارب كثيرة ، أن درسا فى الطب أو الفلك أجدى على الايمان من حوار فلسفى طويل . وذلك نهج القرآن الكريم . فانه يكشف عن الحق برؤية آيات الله فى الأنفس والآفاق . (سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) ؟

بعد ساعة من تناولى الطعام أقول لنفسى بدأ العمل فى إخراج الحى من الميت والميت من الحى ، كيف ؟ إن الطعام – وكان مادة جامدة – أخذ يتحول داخل جسمى إلى دماء فيها الكرات البيضاء والحمراء وإلى شعْر وأظافر ، وإلى عظام ولحوم شتى .

فلحم الكبد ، غير لحم الرئتين ، غير لحم المخ ! وللخلايا خصائص وراثيه وطارئة ، وللغدد وظائف تقوم بها ، ونحن لاندرى . والروح الذى يتخلل هذه المادة ويجعلها خلقا آخر ، ينبعث من الحى القيوم . ليس لدى وحدى بل فى ألوف مؤلفة من الأحياء ... ثم يطرد هذا البدن مالا يستفيد منه ليتحول فى بطن الأرض شيئا آخر . قد يصير سنابل حافلة بالحبوب أو نخيلا مرصعة الصدر بالطلع النضيد أو كروما يتدلى منها العنب عناقيد كثريات الذهب !!

أأنا أو أنت وراءِ هذا التحول ؟ أم رب الأرباب ؟

لو كان لأوامر الله – وراء كل خلق – صوت يسمع ، لصُمّت الآذان من كثرة الأوامر بالانشاء والتكوين . ما أجمل الله ، وأحلى صنعه ! أحياناً أردد هذا الغناء .

ياغائبا لايغيب	**أنت البعيد القريب !**
مهما تغب عن عيونى	**فأنت أنت الحبيب !**

ان الإسلام فطرة سليمة ، وعقل سوى ، وصراط مستقيم ، وهو طبيعة العلاقة بين مادة الكون وبارئها الأعلى . ولذلك اتجه الوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية (قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ ....) وقوله : (أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) .

ليس فى العالم إله آخر ! أين هو ؟ وماذا يصنع ؟ ان الشرك وهْم لمغفل كبيرٍ ، أو حلما لنائم منفوخ البطن مسهد المضجع !

ومع ذلك فالجاهلون بالله كثيرون . ويخيل إلى أن جريرتهم ، بقدر ما تعود إلى غبائهم ، تعود إلى تفريط المسلمين فى خدمة الحق وفتنة الناس عنه والعجز المستغرب عن اقتياد التائهين إليه ...

ليس بين المسلمين خلاف فى العقائد ، فهم مجمعون على أن الله واحد ، حقيق بكل كمال وان لقاءه حق (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) . وقد تسللت إلى العقائد المقررة أفهام وأوهام من وضع الناس ، لا يعرفها القرآن الكريم ولايقرها ..وحسبنا كلام الله ...

خذ مثلا : مبحث الصفات الالهية : أهى عين الذات أم غير الذات ، أم لاعين ولا غير ؟ وهذا تساؤل سمج يجب دفنه ومنع اللغط فيه .

خذ مثلا : أعمال الناس أهى من خلقهم أم من كسبهم وهل هم مخيرون أم مجبرون ؟ وهذه اسئلة بالغة السخف ، والمشتغلون بها هاربون من مستشفيات المجانين ، ومن قال لا عقل لى ، ولا إرادة ، فعلاجه العصا !

وفى مباحث العقائد هل البعث للاجساد الأولى أم لاجساد مماثلة ؟ وهذا كلام ولدته البطالة ولا قيمة له !

لعل أفضل ما يغرس الايمان الحق ، هو منهج القرآن نفسه ، وقد قرأت من مؤلفات العصر الحاضر كتاب (العلم يدعو إلى الايمان) ، وكتاب (الله يتجلي فى عصر العلم) ، ولو طُعّم هذان الكتابان ببعض الآيات القرآنية لكانا أفضل من كتب كثيرة عندنا ألفت فى العقائد .

وقد سألنى أحد الناس هل فى القرآن مجاز ؟

فقلت له كيف تفسر قوله تعالى : (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) . هل السدود هنا سد أسوان وسد الفرات ؟!

ان المجاز موجود فى لغة العرب وفى لغات الناس الأخرى ، ومع ذلك فما دخل هذا فى العقائد ؟

قال : هناك من ينكر بعض آيات الصفات ويتكلف تأويلها . قلت هناك مرويات تتصل بذات الله تعالى لا يليق بالعقل البشرى ان يحاول معرفة كنهها ، **ان البحث وراء المادة ليس من وظيفة العقل البشرى** .

وهناك مرويات يستحيل تركها على ظاهرها ولابد من تأويلها مثل (... مرضت فلم تعدنى) و (... كنت سمعه الذى يسمع به ورجله التى يمشى بها) . ومع ذلك فما معنى اشتغال الدهماء بهذه المرويات وعكوفهم على ترديدها ؟

هذه بطالة مقنعة وتسكع فى طريق الحياه لا مساغ له .

ان سلفنا الأول كان سليم الفطرة ، خالص النية لزم الجد فى الأمور ، فحكم الدنيا بدينه ، ولو اهتم بهوامش العقيدة التى افتريناها ما أحرز نصرا ولافتح بلداً .

عندما شرف الله العرب بحمل الرسالة الخاتمة . حذرهم الفرقة وأوصاهم بالجماعة وقال لهم كما قال لمن قبلهم : " أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبرُ على المشركين ماتدعوهم إليه " .

وقد ظلت الثقافة الإسلامية طوال ألف عام أو يزيد ، توفر للأمة عناصر الوحدة وتجعلها أمام عدوها ، جبهة واحدة .

لا الفقه المذهبى ، ولا هوامش العقيدة ، ولا الأخطاء السياسية الفاحشة ، أفلحت فى تقطيع الأمة الإسلامية ، وتمكين أعدائها منها حتى ظهرت بدعة القوميات فى العصور الحديثة وانتقلت جرثومتها ، إلى أرضنا فاذا هى بلاء يهدد الحاضر والمستقبل ، وكان ظهور (القومية الطورانية) فى تركيا أول الغدر بأمتنا الكبيرة وأول زلزال يصدع بناء الخلافة المعتلة !

واليهود نقلوا هذه الجرثومة إلى تركيا ، انتقاما من السلطان عبد الحميد الذى رفض باسم الإسلام ان يستوطنوا فلسطين . ومع أنهم أغروه بالمال – وكان إليه محتاجا – فقد أبى . ومع أن أوروبا كانت تظاهرهم فقد شعر الرجل المؤمن بأن تسلل اليهود إلى فلسطين ، تمهيد لضرب الإسلام نفسه فى أوطانه كلها ... **فماذا يفعل اليهود ؟**

لجأوا إلى الغزو الثقافى ، واستعانوا بقوى خفية وأخرى جلية على إنشاء (جمعية الاتحاد والترقى) ونشروا مبادئها القومية بين ضباط الجيش .

فقامت ثورة أودت بالخليفة ، وكان رد الفعل نشؤ القومية العربية التى ظاهرت الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى حتى انتصروا ، وتمخضت هذه الفتن الهائلة عن سقوط الخلافة الإسلامية فى العالم .

وتتابع الانهيار حتى قامت ثورات مشابهة للثورة الكمالية ، استغنت بالقومية عن العقيدة ، وجعلت الايمان – إلى حين – ضيفا ثقيلا ينتظر منه الرحيل !

ان جماهير المسلمين لاتتنازل عن دينها ، ولاتعدل بجامعته شيئاً ، والذى حدث ان الاستعمار العالمى أول ما نزل ببلادنا ألغي الشريعة واستبدل أحكامه الوضعية بأحكامها السماوية ! ثم وضع خططا بعيدة المدى للاجهاز على بقايا الإسلام من أخلاق وعبادات وتقاليد ، واستعان على بلوغ أغراضه بنفر من الطامعين والمنحلين – وهو يتربص بنا الدوائر وينتظر مع مرور الزمن أن يمحو الإسلام كله من على ظهر الأرض !

والحرب بيننا وبينه سجال ، وهى حرب رحبة الميادين ، واسلحتها لاحصر لها .. لقد استطاع أبو بكر أن يهزم أعداء الله فى أول قتال مع المرتدين ، فهل يستطيع رجالات الإسلام فى القرن الخامس عشر للهجرة أن

يستعيدوا شرائع الإسلام التى عطلت ؟ وأن يحموا العبادات المهددة بالزوال ، وان يستبقوا المعروف معروفا ؟ والمنكر منكراً ؟

اذا انهزمنا فى هذه المعركة فلن يبقى على ظهر الأرض مؤمن ..

شبكات التنوير فى تعاليم الإسلام ، ترسل أشعتها على جبهات عريضة ومسافات بعيدة ، لأن الوحى النازل على محمد ، جامع مانع كما قال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ) . وعندما يكون الدواء مركبا من سبعين عنصراً ، فانه لايحصل الشفاء الكامل ، إذا نقصت منه بضعة عناصر ، بل قد يوصف الدواء - والحالة هذه - بأنه مغشوش ، ولعل ذلك ما بينه الرسول الكريم فى قوله : " الايمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان " .

ان هذه الشعب تتناول شئون الحياة جميعاً .

فالإسلام ينظم شئون البيت ، والشارع ، والمدرسة ، والديوان ، وعلاقات المرء مع نفسه ، والآخرين وواجباته فى الحرب والسلم ، وضوابط المعاملات الإقتصادية الرحبة .

وهو يعتبر الانسانية ، رحمة عامة توصل بالتعارف والخلق ، كما توصل الرحم الخاصة بالتزاور والعطاء . وفى الكتاب المبين والسنن الشارحة ما يوضح جوهر هذه الرسالة العالمية الخاتمة .

والمفروض أن يعرف المسلمون رسالتهم ، كما نزلت إليهم ، وأن يبينوا للناس كافة ، وان يكونوا فى حياتهم الداخلية ، صورة حسنة لها ، وإذا وقع قصور فى الفهم ، أو تقصير فى البلاغ ، فهم مسئولون عن ذلك فى الدنيا والآخرة .

ولست هنا أسائل نفسى وقومى عما كان منا وما نزل بنا فى هذه الأيام النحسات فان أيام المد ذهبت ، وأعقبها جزر مزعج . وعلى قدر الجبهة التى

عمل الإسلام فيها ، جاءت ضربات الاستعمار السياسى والثقافى ؛ وعلى قدر السعة فى ثقافتنا الإسلامية ، كان الغزو العلمى والمدنى الذى تعرضنا له ! كان اقتحام اخلاقنا يتم فى وقت واحد ، مع اقتحام حدودنا . وانى لأدرس المسرحيات التى تعرض من خلال وسائل الاعلام المختلفة ، فأشعر أنها تبدل ثيابنا الداخلية والخارجية ، كما تبدل فى الوقت نفسه أحكامنا على الأمور ، وتصورنا للحاضر والمستقبل !

وان سقوط بغداد وقرطبة أقل فى نظرى من سقوط أحكام العبادات والمعاملات ! ورضا العامة والخاصة بتعطيل النصوص ، وتحقير المثل الإسلامية أبشع فى نظرى ، من نهب خيراتنا وتحقير أوضاعنا ...

ومن هنا فأن إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة ، وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها فى الداخل والحديث عنها فى الخارج ، أهم الف مرة من تحقيق الاستقلال السياسى لبلد ما ، فى احدى القارات ...

ما قيمة هذا الاستقلال اذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا ؟

مسالك أهل الكتاب من قبلنا كانت السبب الأول فى المعركة بين العلم والدين .

وقيام عصر الاحياء فى أوروبا بعيدا عن الوحى كله !! ويبدو أن القوم لم يتغيروا فقد وقعت أخيرا معركة فى الكنيست الإسرائيلى بين وزير الخارجية وبعض الحاخامات . سببها أن الوزير قال : " وليس كل مافعله الملك داود جدير بالاعجاب !

يشير إلى مانسب إلى داود فى العهد القديم ، من اقتراف جريمتى الزنا والقتل . قالوا : زنى بزوجة (أوريا) الحثى ثم أوصى بقتله فى الميدان حتى لايعود ، ولايسترد المرأة من عشيقها الملك !!

لقد غضب الحاخامات من هذا التعريض . وقالت اذاعة لندن انهم سيحرجون الحكومة كلها فى أول اجتماع ..

ونترك بنى اسرائيل لنرمق تاريخ الكنيسة القريب والمعاصر .

لقد جاءت من اوروبا إلى افريقية ، لتبشر بالمسيح حامل الألم عن هذا الورى – كما يقول شوقى – فماذا فعلت ؟ تركت فى وسط افريقية عشرة ملايين اصابة بالايدز ، وهى تنشر الدين !

لقد حكمت بالموت على من قال : ان الأرض كرة تدور حول الشمس . أما اقتراف الزنا فحسْبُ من فعله أن يُعترف ، ويحيا آمنا !

ان تزوير الدين على هذا النحو أزرى به ، وزهد فيه ، وأعطى الحكم العلمانى ألف سبب ، ليحل محل الدين ، ويبتعد عن الوحى كله ...

ونحن دعاة المسلمين ، نلقى العنت ، حين نقدم القرآن للناس ، لأن سيرة المسلمين مع دينهم ، لاتشرّف ، ولأن المعجبين بالحضارة الحديثة ، يرونها أقرب إلى الفطرة والرشد ...

ولابأس أن أحكى ما وقع لى أخيرا .. جاءتنى رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى ، تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس ، عقدت مؤتمرها الأول فى (شيكاغو) وتستعد لعقد مؤتمرها الثانى لمناسبة مرور ٥٠ عاما على تأسيس هيئة الأمم المتحدة . وقيل لى بعد اختيارى عضوا : أن مؤسستنا عالمية تضم رجالا من كل دين سماوى أو أرضى ، بل تضم أعضاء لايؤمنون بأى دين : المهم انهم يدعمون الأخلاق الفاضلة ، ويحترمون المثل العليا التى يجب أن تحكم العالم ، وأنا رجل شرقى الأول والأخير ، انى أقول وراء محمد (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له) .

أنا أشعر حين آكل ، بأن الله ، هو الذى وضع اللقمة فى فمى . وحين أفكر ، بأن الله هو الذى أسرج مصباح عقلى ، أنه يستحيل أن أكفر أو أسوى بين مؤمن وكافر أو أشترك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحده فى عمل ما ، لرفع مستوى البشر .. !!

شعرت بأن أهل الأديان ، تلاحقهم تهمة خطيرة ، انهم لايهتمون بتزكية الروح ، وأنهم قد يدفعون المظالم عن أنفسهم ، لكنهم لايدفعونها عن غيرهم ! **وأن طقوس العبادات أرجح لديهم من حقوق الإنسان . فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها دينى ، جاء فيها مايلى :**

شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمى لدعم الأخلاق ، والنسامى بالبشر ، وقلت أن الفطرة الانسانية لاتزال طيبة ، تعشق الكمال ، وتسعى إليه ، وتقاوم السعار المادى الذى يربط المرء بنفسه ومآربه وشهواته . ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره ، واختصرت أبعاده ، ونشأت فيه لأول مرة من تاريخه المديد ، هيئة لأممه كلها ، أى أن أبناء آدم ، امسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة ما يثور من مشكلات ، والتعاون على حلها . لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا فى ظل الاكتمال الخلقى ، وكبت غرائز الأثرة والكبرياء ، فهل نقصر فى توفير الوسائل المنشودة ، لتحقيق مانصبو إليه ؟

ان نبى الإسلام يقول : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ويقول لعلى بن أبى طالب " ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة ؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك "

ويقول لاصحابه : " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى ! قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين " !!

أننا نحن المسلمين يسعدنا تاليف هيئة أخلاقية تساند هيئة الأمم ، وتسدد خطاها وتحصنها من المحاباة والهوى ...

لكننى – ولأكن صريحا – شعرت بجرح شديد عندما علمت أن "البرلمان" الأخلاقى ، فتح الباب للمؤمن والكافر ، للموحد والمشرك ، لمن يعتقد خلود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت !

قد تقول : هذه هى الدنيا وهؤلاء ابناؤها ، وقد تكونت الأمم المتحدة من ملل متناقضة ، وتجاورت فى مقاعدها لتدريس قضاياها المختلفة ، وما تستطيع هيئة أخلاقية إلا ان تفعل ذلك !

ولى على هذه الاجابة تعليق !

أن النظر إلى الايمان بالله على أنه قضية ثانوية أو قضية لاصلة لها بالأخلاق ، أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين* ، أو هو أمر يثير الاشمئزاز ، لماذا يخلق الله ويُعبد غيره ؟ ولماذا يعطى ويُشكر سواه ؟ هل العقوق رذيلة إلا فى معاملة الله ؟!

اننى لو أجزلت العطاء لأحد ، ثم رأيته يجحدنى ، لاشتد سخطى عليه ، واحتقارى له ! فكيف أرضى وجود أفراد أو جماعات تطعم من خير الله صباحاً ومساء ثم تتجرأ عليه ، وتنكر وجوده ، وحقوقه ؟ أعتقد أن منكرى الألوهية ، لآينبغى أن تعترف بهم ، وإذا أضطررنا إلى مجالستهم ، فلنرسم لذلك سياسة خاصة توفق بين عقائدنا وحقهم فى الحياة ، من يدرى ؟ قد يهتدون إلى الصواب إذا حاسبناهم ... من دواعى سرورنا نحن المسلمين ان نلتقى بأتباع الديانات السماوية التى سبقتنا فى مؤتمر جامع ، لتحسين الحسن ، وتقبيح القبيح ، وتقوية الفضائل ، ومحاربة الرذائل . ان لدينا الكثير ، الذى نود أن نقوله ، والتراث الذى تركه لنا محمد صلى الله عليه وسلم لم يترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها ، ولا رغبة فى التسامى إلا زكاها وشجع عليها ،.

إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بمكارم الأخلاق ، ولا أعـرف رسولا سماويا ولا فيلسوفاً أرضياً خلف مثل هذه التركة !!

ومن أراد الاطلاع أو الترجمة دللناه على المراجع التى يحتاج إليها ...

ثم أننا نحن المسلمين نحب ان نتعرف على الناس ، وأن يتعرف علينا الناس .

هكـــذا علمنــــا ربنــــا .

فان الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء ، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) .

ونحن نعتب على اليهود والنصارى أنهم لم يبادلوا المسلمين المعاملة نفسها !

قرأت ان يهودياً فى مدينة الخليل ، استولى على بيت عربى ، ثم قال لرب البيت : هذا البيت ملكى من بضعة آلاف عام ، وقد عاد الىّ ، ولست أطلب منك أجرة سكناه طوال هذه القرون ، لقد تنازلت عنها ، فاذهب إلى أى مكان ، وأقم به أو أسكن فى العراء أن شئت ولاتعد هنا وإلا ...

هل تستقيم علاقة انسانية مع هذا المنطق ؟!

والسياسة الاستعمارية التى سيرت العالم ، فى العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءها . فان الجريمة التى ارتكبها الإسلام - كما يرى البعض - أنه دحر الامبراطورية الرومانية التى كانت تحتل الاناضول وشرق البحر المتوسط ووداى النيل ، وشمال أفريقية ، وأقطار كثيرة أخرجها الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين ، الذين أعتنقوا الإسلام بداهة .. !!

وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمراتهم القديمة كأنها أملاكهم الضائعة يجب أن يستعيدوها .. وإلى ملايين المسلمين كأنهم عبيدهم الأقدمون .

ولاشك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أسس انسانية مجردة ، فتح صفحة جديدة فى تاريخ العالم ، وكفكف من غلواء الاستعمار السابق . ولكن هل المنتصرون الذين بنوا هذه الهيئة النبيلة برئوا ، من ثورات الحقد القديم ، وحاربوا التعصب والجشع ؟

لعل انشاء جهاز أخلاقى عالمى ، يساند الخصائص الانسانية العليا وينشط الجهود المبذولة لدعمها ، ويصل بالهيئة إلى ماتريد، ويقى العالم شرور الانقسام والخصام .

عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عزوجل قال : (ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) . وفى الحديث أيضا (اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة) .

والواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفاً فى رضاه وفى غضبه ، فلا يستبيح خصما ولايجور على ضعيف ، بل يقف عند الحق ، ويستريح للعدل ، ويعلم أن النزق والجور من صفات السباع لا من خلائق الانسان .

ويؤسفنى أن الانسانية فى تاريخها الطويل ، احتالت على ارتكاب المظالم ، ورأت فى اختلاف البشر قوة وضعفا ، وغنى وفقرا ، وايمانا وكفرا – ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ماتريد .

وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شئ ماديا كان أو أدبيا (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين)

وفى آية أخرى (لايجرمنكم شنآن قوم – كرْهُهم – على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) . لقد وهم الناس أن إختلاف الدين يبيح التظالم

ويترك المجال رحبا للمشاعر المنحرفة والأهواء الجامحة ، وهذا كذب على رب الدين وباعث المرسلين (ان الله يأمر بالعدل والأحسان ...)

واذكر ثلاثة أحاديث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفرية وتبرئ الإسلام من هذه التهمة .

الحديث الأول : (دعوة المظلوم مستجابة ، وان كان فاجراً ، ففجوره على نفسه) .

الحديث الثانى : (دعوة المظلوم – وان كان كافرا – ليس دونها حجاب).

الحديث الثالث : (عن أبى ذر قلت يارسول الله ماكانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، انى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فانى لا أردها ، وان كانت من كافر ...) !!

ومن دواعى الدهشة ، أن يموت نبى الإسلام ، ودرعه مرهونة عند يهودى فى طعام اشتراه لأهله ! ما أثر اختلاف الدين هنا ؟

ان اليهودى التائة عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال فى عاصمة الإسلام !

هل كانت غربته سببا فى أن يجور عليه أحد ؟ لقد حصن الحكم الإسلامى حقوقه فعاش ومات لايشكو شيئاً .

اننا نحترم الرأى والرأى الآخر وإذا كنا – نحن المسلمين – نشكو شيئاً فمواريث الضغائن التى نعامل بها فى ميادين شتى ، ونرجو أن تزول مع استقرار حقوق الانسان .

وفقكم الله ، وسدد خطاكم

المحاضرة الثالثة

نحو ثقافة بناءة

الأستاذ الدكتور أحمد هيكل

١٢ ديسمبر ١٩٩٤م

٩ رجب ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

من اليمين الاستاذ/ محمود منسى السيد الوزير احمد على كمال فالاستاذ سعيد صالح فالاستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاه والسلام على رسوله الكريم :

محاضرنا الأستاذ الدكتور / أحمد هيكل ، اديب وشاعر واستاذ جامعى . وكان عميدا لأقدم كلية فى مصر بعد كلية الالسن التى انشأها رفاعة الطهطاوى ، وهى كلية دار العلوم التى أنشأها تلميذه على مبارك سنة ١٨٧١ ، وهى كما يقول عنها محاضرنا الدكتور الأستاذ / أحمد هيكل فى الطبعة السادسة من كتابه تطور الأدب الحديث فى مصر : (أنها أنشئت لتمثل اللقاء المتزن بين الثقافتين : القديمة ممثلة فى التعليم الأزهرى ، والحديثة ممثلة فى المدارس ، ولتُخرج من لانزال نرى تعاقب أجيالهم ونتابع آثارهم ، فى ميادين التعليم والتأليف وفى آفاق اللغة العربية وآدابها وفى مختلف الدراسات الإسلامية) .

ومحاضرنا هو أيضاً وزير الثقافة الأسبق ، وهو عضو مجلس الشعب وعضو مجلس إدارة العديد من الأجهزة والمراكز العلمية . وهو حاصل على جائزة الدولة التشجيعية فى النقد والدراسات الأدبية سنة ١٩٦٩ ، وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٤ . وله عشرات من المؤلفات الادبية

خاصة فى الادب الاندلسى الذى انفرد بالتعمق فيه ، وقد صدر حتى اليوم من مؤلفه الضخم (الادب الاندلسى) احدى عشرة طبعة . هذا بالاضافة إلى كتاباته بالاسبانية والتى اصدرها فى مجال التعريف بالاسلام ، إلى جانب مئات المقالات المنشورة له فى مختلف الدراسات والمجلات العلمية فى مصر والخارج .

فمحاضرنا وأمره فيما سلف ، هو ثروة قومية ، وهو من القمم المصرية الشامخة ذات التوجيه والرأى السديد . وانه لفضل وشرف كبير ان يحظى الموسم الثقافى للجمعية الخيرية الإسلامية باحدى محاضراته فى موضوع (نحو ثقافة بناءه) .

وتبدو أهمية هذه المحاضرة ، فى ان الفرق بين الانسان والحيوان هو فرق توافر أو انعدام الثقافة . وان الفرق بين انسان وآخر ، هو فرق فى درجات الثقافة . وكذلك ان الفرق بين دول متقدمة وأخرى متخلفة ، هو فرق مرده اساسا إلى فرق الوعى أو التقنية الحديثة أى فرق الثقافة . ولاشك ان الهدف الأكبر من سائر الاديان والايديولوجيات البناءة . هو التوعية بالحقائق أى الثقافة البناءة .

واحفظ عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله (أن الرجل لايصدر عنه فساد العمل إلا لأحد شيئين : اما لهوى واما لجهل .. وان الهدف الاسمى لكل ذى رسالة هو تصحيح المفاهيم الخاطئة) . ويقول عالمنا ابن خلدون (يوزن المرء بقوله ، ويقوم بعلمه ... وانه لا رأى ولا خيار بدون ثقافة أو معلومة صادقة) .

واذكر عن محاضرنا واستاذنا الفاضل الدكتور / أحمد هيكل قوله (ان الثقافة تعنى رقى الفكر وسمو الوجدان ، وان رقى الفكر يكون بالعلوم والمعارف والخبرات والتجارب ، أما سمو الوجدان فليس إلا بالتدين الحقيقى والسلوكيات الراقية .. وان الذين يكتفون من التدين بالجانب الشكلى كمجرد حجاب المرأة أو لحية كثيفة انما يسيئون إلى الدين)

وإذا كان سلوك الانسان هو نتاج فكره وثقافته ، فاننا نطرح قضية هامة أو سؤالا ملحاً وهو : هل الثقافة السائدة اليوم بين شعوب العالم الإسلامى الذى لاينكر أحد تخلفه ، هى ثقافة معبرة عن قيم الإسلام وتعاليمه أم هى بعيدة عنه كل البعد .. ثم ماهو السر أو السبب فى ذلك الانفصام الذى نعانيه بين العقيدة والسلوك ، وبين القول والعمل . تلك بعض اشكاليات الثقافة التى تتطلب تحليلا ووضوحاً فى الرؤية .

واترك الكلمة لأستاذنا الفاضل ، إذ الثقافة البناءة ، موضوع محاضرة اليوم ، هى وحدها التى تضئ لنا طريق السعادة فى الدنيا والخلود فى الآخرة ... ومن هنا كانت أهمية وضرورة هذه المحاضرة .

كلمة الأستاذ الدكتور / أحمد هيكل

" **بسم الله الرحمن الرحيم** "

السيد الأستاذ رئيس الجمعية . الأخوة الأساتذة أعضاء مجلس الجمعية الموقرة ، الأخوة والأخوات حضور هذا اللقاء الكريم .

اسمحوا لى فى بداية محاضرتى أن أتقدم بأجزل الشكر ، إلى الذين شرفونى بالدعوة إلى هذه المحاضرة ، وأجزل الشكر لكل من نظم هذا الملتقى ، وأن أتقدم إليكم أنتم بكل العرفان ، بتجشمكم مشقة الحضور لسماع ما أقول .

أيها الأخوة : موضوعنا عن " الثقافة " وكيف تكون " بناءة " ، والثقافة كلمة تعددت في الاستعمال مدلولاتها ، وكثرت معانيها ، حتى أصبحت من أقل الكلمات حظا من صحة الاستخدام ودقة الدلالة . وبسبب هذا حدثت بلبلة للمستخدمين لهذه الكلمة وللمتلقين عنهم أيضا . بل ضاعت – في أكثر الأحيان – قيمة الكلمة ، ولم تعد تفيد ما يجب أن يطلب منها من معنى ، وبالتالى حدث تضليل – ربما غير مقصود – في التعامل مع الثقافة ، ولم تعد الثقافة قيمة ضرورية وأساسا من أسس حياتنا كما يجب أن تكون .

فأحيانا تستخدم كلمة ثقافة بمعنى " **التعليم** " وهذا خطأ فالثقافة شئ والتعليم شئ آخر . وأحيانا تستعمل كلمة ثقافة بمعنى " **الفن** " وهذا خطأ أيضا ، لأن الثقافة شئ والفن شئ آخر كذلك . وأحيانا تستخدم كلمة ثقافة في الحديث عن " **التاريخ** " أو " **الآثار** " أو " **العادات والتقاليد** " . وهذه كلها استخدامات غير دقيقة ، بل خاطئة ، لأن الثقافة شئ ، والتاريخ والآثار والعادات والتقاليد أشياء أخرى .. وهناك غير كل ذلك ، استخدامات للثقافة ، لاتقل خطأ عن كل ما تقدم من استخدامات ...

والذى أعتقده وأعمل في المجال الثقافي من خلاله ، هو مفهوم محدد للثقافة ، أرى بعد طول تأمل ومراجعة أنه المفهوم الصحيح والدقيق ، والذى يجب أن نتفق عليه ونرتضى الانطلاق من خلاله في عملية التثقيف .

هذا المفهوم الذى أرتضيه بل أومن به ، هو أن الثقافة هى " رقى الفكر وسمو الوجدان " .

كما أرى أن هذا المفهوم تحققه روافد ، وتتحقق به غايات . أما الروافد التى تحقق هذا الرقى في الفكر ، وهذا السمو فى الوجدان فهى : العلوم والمعارف والخبرات التى تنهض بالفكر . والدين الصحيح والخلق الكريم والفن الراقى والموروثات المهذبة التى تنهض بالوجدان .

وهكذا أرى أن الثقافة الحقة ، تنهض على دعامتين لابد من كل منهما : **الدعامة الأولى** " رقى الفكر " ، **والدعامة الثانية** " سمو الوجدان " ، فالفكر وحده مهما ارتقى ليس كافيا لتحقيق الثقافة ، والوجدان وحده مهما سما ، لايحقق ثقافة ، اذ لابد من الأثنين معا .

وهكذا أيضا أرى أن " **رقى الفكر** " يتحقق بالعلوم والمعارف والخبرات ، وأن **سمو الوجدان** يتحقق بالدين الصحيح ، والخلق الكريم ، والفن الرفيع ، والموروثات الراقية ، والقيم العالية ، التى ورثناها عن الآباء والاجداد .

واذن ، فالفكر مهما ارتقى بالعلم دون الروافد الأخرى ، فهو فكر راق فحسب ، وصاحبه مفكر كبير أو عالم عظيم فقط ، ولكنه ليس مثقفا بالمفهوم الدقيق للثقافة . ومن هنا قد يكون الانسان من حملة أرقى الاجازات العلمية ولكنه ليس مثقفا ، لأنه لاحظ له من رقي الوجدان ، بالدين الصحيح ، والخلق الكريم ، والفن الرفيع ، والموروث السامي .

وأذن أيضاً ، فالوجدان مهما ارتقى بالفن مثلا ، حتى أصبح صاحبه من كبار الفنانين ، ولكنه لاحظ له من بقية روافد رقى الفكر ، من دين صحيح ، وخلق كريم ، لايمكن أن يسمى صاحب هذا الوجدان المعتمد فقط على الفن – دون بقية الروافد – لايمكن أن يسمي مثقفا ، وانما يمكن أن يسمى فنانا ، وقد يكون فنانا كبيرا .

فالعالم فقط عالم ، والفنان فقط فنان . وليس أحدهما بمثقف بمعنى الكلمة الصحيح إلا إذا توفرت له كل روافد رقى الفكر ، وكل روافد سمو الوجدان .

وقد اوضحت ان **روافد رقى الفكر** هى العلوم والمعارف والخبرات والتجارب ، **وأن روافد سمو الوجدان** هى الدين الصحيح والخلق الكريم والفن الرفيع والموروثات الرفيعة .

وانما أخترت هذا المفهوم للثقافة لسببين أساسيين :

السبب الأول ، أنه هو المفهوم الذى تؤيده لغتنا وتراثنا ، بل تؤيده المفهومات المستفادة من كلمة (Culture) الأوربية ، التى جاءت كلمة ثقافة عندنا ترجمة لها . أما لغتنا فتفيد أن الثقافة تعنى – فى الأصل – الاستقامة والاعتدال والصقل والتهذيب والاستواء ، فمن أقدم الاستعمالات فى العربية قولهم :

" ان تثقيف العود : هو تهذيبه وصقله وجعله مستويا معتدلا صالحا لكى يكون رمحا " ، ومن أقوالهم ايضا : ان الثقافة هى " الحذق والفطنة " . واذن فالثقافة لها جانبان فى مفهومها الأصلى العريق القديم ، **جانب يتصل بالفكر** ، وهو ما عبروا عنه بالحذق والفطنه ، **وجانب يرتبط بالوجدان** ، وهو ما عبروا عنه بالتهذيب والصقل والاستقامة . وأما ما يستفاد من أصل استخدامات كلمة " Culture " الأوربية فهو التنمية والرعاية والتهذيب ، لأن الأصل فى اللغات الأوربية قد جاء من كلمة لاتينية تعنى الزراعة ورعاية الزرع والسهر على تربيته والعمل على انمائة . . . وهذه المعانى لاتبعد كثيرا عن التهذيب والتربية والتحسين والصقل والتثقيف .

وأما السبب الثانى فى تفضيلى للمعنى الذى اخترته " للثقافة " وهو " رقى الفكر " " وسمو الوجدان " فهو ان هذا المفهوم هو الذى يمكن أن ننهض به شعبنا ونعيد به بناء أمتنا ، فنحن محتاجون الي أن نرقى فكرا ونسمو وجدانا ، وبهذا الرقى والسمو نتجاوز التخلف ونتخطى العقبات ، ونحقق ما نصبوا اليه من تقدم وصدارة .

أما غايات الثقافة بالمفهوم الذى اخترته ، فهى صنع الفرد الصالح ، والمجتمع الصالح :

واقصد الفرد الصالح بالفكر الراقى والوجدان السامى . ومن شأن مواطن كهذا ، ان يكون مواطنا على حظ كاف من المعرفه ، وعلى قدر مرض من التجربه وعلى مستوى معقول من الخبرة ، ثم يكون فى الوقت نفسه صحيح التدين – معتدلا بلا تطرف أو تقصير – كما يكون متمتعا بخلق كريم وسلوك قويم ، وحرص على التشبث بالقيم الموروثة الرفيعة ، والعادات الأصيلة الراقية .

وأما المجتمع الصالح ، فهو المجتمع المكون من أفراد صالحين ، وهؤلاء الصالحون من شأنهم – اذا إتسموا برقى الفكر وسمو الوجدان – أن يكونوا متجانسين متوافقين ، تتقارب نظرتهم الى الاشياء ، وتتشابه أحكامهم على الأمور ، كما يكونون منتمين الى الأرض التي عليها يعيشون ، مترابطين متساندين متكافلين ، يمثلون – مهما اختلفت مذاهبهم ومعتقداتهم – وحدة اجتماعية قوية ، تنعم بالأمن القومى ، وتسعد بالسلام الاجتماعى . .

وانما حرصت على جعل الدين رافدا أساسيا من روافد سمو الوجدان ، بحيث لا يسمو الوجدان إلا به ، وبالتالى لا تتحقق الثقافة الا بسمو الوجدان . أقول حرصت على هذا ، **لان الدين فى رأيى أهم عوامل سمو الوجدان** ، فهو الذى يصقل النفس ، ويهذب المشاعر ، ويرقق الاحساس ، ويوقظ الضمير . بالاضافة الى ما يغرس فى الانسان من نبيل الاخلاق ورفيع القيم ، وما يوجهه اليه من قويم السلوكيات ، وصحيح التوجهات ... ومن غير ذلك كله لا يمكن أن يوصف انسان بسمو وجدان ، ولا يستحق أن يوصف بثقافة ، مهما كان حظه من العلم أو نصيبه من الفن .

وإنما ذكرت الى جانب الدين " الاخلاق " مع ان الدين يشملها ، لان البعض يفهم ان الدين عقيدة فقط ، أو عبادة فقط ، فأردت أن أؤكد على

القيم الاخلاقية إبرازا لها وتوضيحا لأهميتها ، مع تسليمى ابتداء بأن الدين الصحيح والتدين الكامل ، يشملها ولا يتم بدونها .

وقد يقال – وقد قيل فى مناسبات عديدة – هل يُعتبر غير المتدين غير مثقف ، حتى ولو كان عالما كبيرا وفيلسوفا خطيرا وفنانا شهيرا مثل " جان بول سارتر " مثلا ؟ وهل معقول أن يكون " سارتر " ليس مثقفا . وجوابى هو ، أن الثقافة لها طابع خاص دائما ، فهناك ثقافة عربية ، وثقافة غربية ، وثقافة اسلامية ، وثقافة غير اسلامية . وأنا أتحدث عن ثقافتنا الاصلية ، أى عن الثقافة الاسلامية ، التى يجب أن نحققها وأن نثقف أبناءنا بها .

ومن هنا أقول : ان سارتر " ليس مثقفا بمفهومى ، وانما هو فيلسوف وجودى وكاتب مسرح فرنسى .

على أنى حين أقول بخصوصية الثقافة ، لا أجاوز الحقيقة ، فمن الحقائق ان هناك جوانب مشتركة بين الثقافات ، وهناك الى جوارها جوانب خاصة تتميز بها بعض الثقافات . أما الجوانب المشتركة ، فهى الروافد المتصلة برقى الفكر ، من علوم ومعارف وخبرات وتجارب . أما الجوانب الخاصة فهى المتصلة بسمو الوجدان ، من دين وخلق وعادات وقيم .

فلكى تكون ثقافتنا أصيلة ومتميزة ، يجب أن تكون من روافدها ، ديننا وقيمنا وراقى عاداتنا وصحيح سلوكياتنا . . ولا علينا اذا خالفنا فى هذه ، الآخرين أو خالفنا الآخرون ، فهذه خصوصيتنا التى تميز ثقافتنا ، والتى تؤكد أصالتنا وشخصيتنا ، ولا نفنى – اذا ما تشبثنا بها – فى غيرنا ، فنفقد هويتنا ، بل نفقد وجودنا .

وبهذه المناسبة أحب أن أنبه الى ما نتعرض اليه من غزو ثقافى ، وأعنى به ما يوجه الينا من دول أخرى وحضارات أخرى ، مما يتنافى مع ديننا وأخلاقنا وعاداتنا وتقاليدنا . وهذا الذى يوجه الينا – يؤثر فينا بالسلب

بل بالتشويه ، اذا لم نتنبه اليه ونتحصن ونتسلح ضده؛ أقول هذا ، وأنا أعلم أن البعض ينفى أن يكون هناك غزو ثقافى أصلا . كما يقول هذا البعض ان القول بالغزو الثقافى انما هو دعوة الى الانغلاق والتقوقع ورفض الحضارة الحديثة ، ومن هنا لا نستفيد من منجزات العلم والتقدم " التكنولوجى " والحصاد الفنى الراقى الذى يطرحه العالم المتقدم كل يوم .

وأحب أن أوضح لهؤلاء ، أن مصطلح " الغزو الثقافى " ليس من ابتكارنا وانما هو مصطلح قال به الفرنسيون ، حين رأوا هجمة شرسة من الثقافة الامريكية على المجتمع الفرنسى . وهكذا اعترف الغربيون أنفسهم " بالغزو الثقافى " . كذلك أحب أن اوضح أن الحصاد العلمي والمعرفى "والتكنولوجى" لا يمكن أن يتحقق به الغزو ، لان العلم والمعرفة " والتكنولوجيا " من الروافد التى لا تمس الوجدان ، وانما تمس الفكر . ولذا نحن نرحب بكل ما يطرحه العالم من علم ، وفكر ، وتجربة ، واختراع ، لأن هذا يثرى ولا يشوه ، وينفع ولا يضر .

أما مكمن الخطر فهو الجانب المتصل بالوجدان ، وهو أمور الدين ، والأخلاق والقيم والعادات والسلوكيات ، فهذه الأمور هى التى يمكن أن يتحقق بها الغزو ، وذلك عن طريق بث معتقدات غير صحيحه ، أو اشاعة أخلاق غير قوية ، أو نشر قيم غير كريمة ، أو التركيز على عادات تضر ما نعتز به من عادات ، وتزين سلوكيات ، تسئ الى ما نحرص عليه من سلوكيات .

وهكذا نرى أن الغزو الثقافى خطر حقيقى ، وان التحذير منه لا يعنى الدعوة الى رفض العلم والفكر الراقى الذى لدى من سبقونا ، وتفوقوا علينا ، وانما هو تحذير من كل ما يتنافى مع ديننا وأخلاقنا وقيمنا وعاداتنا الكريمة وموروثاتنا العظيمة .

ولذا أحب أن أؤكد أننى **أولا** أدعو الى ثقافة محددة المفهوم ، لا تضل بين معان شتى .. وهذا المفهوم يدعو الى ترقية الفكر عن طريق العلم والتجريب ، كما يدعو الى ترقية الوجدان عن طريق الدين والأخلاق والفن الرفيع والموروث الراقى .

وكذلك أحب ان اؤكد **ثانياً** أنى أعتبر الدين من أهم روافد سمو الوجدان ، وسمو الوجدان أحد دعامتى الثقافة الحقة .

ثم أحب أن أؤكد **ثالثاً** ان أخذ هذا المفهوم للثقافة هو الذى يرتبط بجذور الكلمة فى لغتنا وتراثنا ، كما لا يبعد هذا المفهوم عن المعانى الاصلية التى يعطيها أصل الكلمة الاوربية التى ترجمناها الى كلمة ثقافة ، وهى كلشر Culure .

وأخيراً أحب أن اؤكد أن الأخذ بهذا المفهوم الذى اخترته لكلمة ثقافة ، يعصمنا من تضليل المفهومات العديدة التى كثيرا ما تراد من كلمة ثقافة ، كما يحقق هذا المفهوم الصحيح الذى اخترته ، ان تكون لنا ثقافة ايجابية خلاقة ، لها دورها فى صنع المواطن الصالح ، والمجتمع الصالح . وما أحوجنا الى ذلك ، بعد ان أصيبت أمتنا أفرادا وجماعات ، بما تحتاج معه الى اصلاح ما فسد وتعويض ما فات .

واختتم كلمتى بتنبيه أراه ضروريا وأرجو فيه أن تتآزر كل المؤسسات والهيئات التى تقدم الى الناس شيئا يتصل بالفكر أو يمس الوجدان ، على وضع خطه قومية يكون هدفها ، الرقى بفكر المواطنين والسمو بوجدانهم ، ثم تقوم كل مؤسسة أو هيئة بدورها فى تحقيق هذا الهدف . وهذه المؤسسات والهيئات هى وزارة الثقافة ، وزارة الاعلام ، وزارة التعليم ، وزارة الاوقاف ، وهيئة قصور الثقافة ، والمجلس الاعلى للشباب والرياضة . ولا

يصح أبدا ان تعمل كل مؤسسة أو هيئة منفردة ، لأنه كثيرا ما تقدم مؤسسة ، ما يتناقض مع ما تقدم الأخرى ، وقد يقال من خلال هيئة ما يتنافى مع ما يقال من خلال غيرها . **والذى يحول دون هذا التناقض والتضارب ، هو وضع خطة قومية للتثقيف ، تتفق كل الوزارات والهيئات على خطوطها الرئيسية وعلى أهدافها الاساسية** ، ثم تقوم وزارة الثقافة بدورها من خلال أجهزتها ، وتقوم وزارة الاعلام بنصيبها من خلال أدواتها ، وتقوم وزارة التعليم بمهمتها ، وتقوم هيئة قصور الثقافة بواجبها عن طريق قصورها وبيوتها ، ويقوم المجلس الاعلى للشباب بما يخصه عن طريق نواديه الرياضية وتجمعاته الشبابية وهكذا . والمهم فى كل الاحوال ، أن يعمل الجميع على التثقيف " **الرقى بالفكر** " و " **السمو بالوجدان** " لصنع مواطنين صالحين فى وطن صالح ، وارجو أن اكون قد قلت شيئا مفيدا . . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المحاضرة الرابعة

الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق

مفهوم الخيرية والدور المفقود لأمة الإسلام

١٦ يناير ١٩٩٥م

١٥ شعبان ١٤١٥هـ

جانب الحضور :

. من اليمين : فضيلة الامام الأكبر الشيخ سيد طنطاوى فالمستشار سعيد الجمل فالدكتور ...

على المنصة : المستشار محمد صادق الرشيدى ، فالمحاضر الاستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق فالمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم

محاضرنا الاستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق ، هو خريج كليه دار العلوم سنه ١٩٤٨ ، وقد حصل على الدكتوراه منها ، في الأدب الحديث سنة ١٩٦٩ . وقد عمل محاضرنا عقب تخرجه من الجامعة بالتدريس بالثانوى ، وعقب حصوله على الدكتوراه بالتدريس الجامعى . وقد شغل عدة مراكز فقد كان مديرا للمركز الثقافى الإسلامى بالصومال ، ومديرا لادارة التراث بوزارة الثقافة ، ومديرا عاما فمساعدا للأمين العام لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ، وهو اليوم نائب رئيس المجلس الإعلى للشئون الإسلامية .

ولمحاضرنا عدة مؤلفات منها : " السيرة النبوية فى القرآن الكريم " ، وأدب الدعوة فى عصر النبوة ، و" الغزو الفكرى : أهدافه ووسائله " ، و" التعليم فى مصر " ، و" أضواء على الصومال " ، وغيرها . وقد شارك

وأسهم فى العديد من المؤتمرات المحلية ، والعربية ، والإسلامية ، والدولية ، وحصل على عدة أوسمة وأنواط فى مصر والخارج .

ومحاضرنا هو دائما ، الكاتب ، والمفكر ، والداعية الإسلامى الكبير ، الذى يحمل هموم العالم الإسلامى ومشكلاته ، وله رؤية واضحة للواقع الإسلامى المشحون بالعجز والتخلف ، مع الوعى العميق بسبل التحرر والخروج من المأزق التاريخى الذى تعانى منه الأمة الإسلامية .

وأرى أن محاضرنا قد لخص فكره فى ثلاث نقاط ضمنها كتابه " الأبعاد الغائبة فى أزمة الخليج " ألا وهى :

أولا : غيبة الديمقراطيه .

ثانيا : غيبة الدور الفاعل لعلماء الامة .

ثالثا : غيبة العدل الاجتماعى .

لذلك نراه يحدثنا وبنص عباراته : ((إنه فى الوقت الذى تنعم فيه ديار الكفر والفسوق – كما نخدع أنفسنا بما نطلق عليها من نعوت نحن بها أولى – فى الوقت الذى تنعم تلك الديار ، وأهلها بمنتهى الحرية والديمقراطية ، واحترام حقوق الانسان ؛ تشقى أمتنا العربية والمسلمة ببلاء الاستبداد والديكتاتورية . . . فى حين أننا الامة التى قال الحق تبارك وتعالى لرسوله ولكل من يلون أمرها من بعده " وشاورهم فى الأمر " كما اعتبر القرآن صفة الشورى أى الديمقراطية احدى سمات هذه الامة حين قال " وأمرهم شورى بينهم ")) .

ثم نراه يؤكد بنص ألفاظه وعباراته ((إنه من منظور السياسة الشرعية واعتبار المصالح العليا للأمة ، لا يجوز بحال أن يعتبر النفط مجرد سلعة يحتكر منفعتها ويتاجر فيها من ظهرت فى منطقتهم كما يتجرون فى ثمار النخل وقطعان الابل . . . . وإنما هو منحة إلهية للأمة كلها ، وليس لمن

يسمون دول الخليج ، ومن حق الأمه بل من واجبها أن تشارك في عوائده وفى رسم سياسة التعامل به مع الآخرين)) .

ثم نراه يذكرنا بنص الفاظه وعباراته ((ان الإسلام مع تقريره " خصوصية الملكيه " وصيانتها ، فقد قرر " عمومية الانتفاع " بهذا المال ، بحيث يأخذ المسلم من ماله كل ما يفى حاجته ، وما يزيد عن الحاجة يجب أن يوضع فيما ينفع عباد الله ولا يجوز حبسه أو إحتكاره)) .

ومن ثم نرى محاضرنا ينتهى إلى القول ((إن البعد الخطير الغائب فى حياة الامة الإسلامية ، والمسبب الاكبر بين مسببات عجزنا وتخلفنا ، هو انعدام العدل فى قضية حسن إستخدام المسلمين لما ركز الله فى أرضهم من ثروة ، وحسن توزيعها بما يكفل توفير المصالح العليا للأمة)) .

يا اخى نعم ما تقوله ، وتوعى به المسلمين حكاما ومحكومين ، بكل صراحة وإخلاص ، **بحتمية العودة إلى أصول الإسلام الغائبة ألا وهى :**

أولا : التزام الشورى والديمقراطية فى شئون الحكم .

ثانيا : التزام كفاية الانتاج وعدالة التوزيع فى شئون الاقتصاد .

وإن الالتزام والاستقامة فى شئون الحكم والاقتصاد ، هو سبيل الإسلام للالتزام والاستقامة فى عبادة الله ، لنكون بحق كما أراد الله لنا خلفاءه فى أرضه : نلتزم بالشورى ، ونقيم العدل ، وننشر المحبة والسلام .

فمرحبا بالاخ الفاضل الاستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق فى الموسم الثقافى للجمعية الخيرية الإسلامية ، ليحاضرنا فى موضوع حيوى : ألا وهو مفهوم الخيرية والدور المفقود لأمة الإسلام .

إن من أهم الفرائض الإسلامية المغيبة فى عصرنا هى : التكليف بإنفاق العفو أو الفضل ، أى الزيادة من المال أو الجهد ، فى سبيل الله والمجتمع . فالقرآن الكريم يقول (يسألونك ماذا ينفقون : قل العفو) ويقول (خذ العفو

وأمر بالعرف) . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول (يا ابن آدم انك إن تبذل الفضل خير لك ، وان تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى) ويقول (من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لازاد له) ويضيف الرواة ان الرسول عليه السلام ، ذكر من أصناف المال ما ذكر ،حتى رأينا انه لا حق لأحد منا فى فضل ، والحديث يقول (تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) .

فالقرآن والسنة تكشف لنا عن فكرة أساسيه ، قررها الإسلام ، وانفرد بها منذ أربعة عشر قرنا ، بحيث يلتزم بها الفرد والحاكم ، وهو أن كل ما زاد عن حاجة الفرد ، لا حق له فيه متى احتاج اليه المجتمع ، وهى ما عبر عنه السلف الصالح بقولهم (ان المال مال الله ، والبشر مستخلفون فيه) ، وما عبرت عنه فى كتابى "الإسلام والمشكلة الاقتصادية " بأن " حيازة البعض للمال فى الإسلام ، ليس امتلاكا وانما هى أمانة ومسئولية " .

ولقد تصور بعض الصحابة أن إنفاق العفو والفوز بأجره ، هو ميزة إنفرد بها الأغنياء بقولهم " ذهب أهل الدثور بالأجور " . **فصحح لهم الرسول عليه السلام ، هذا الفهم الخاطئ ، مبينا أن العفو موجود لدى كل انسان غنيا كان أم فقيرا ، عظيما كان أم صغيرا ، ذلك أن كل فرد مهما كان ضعيفا يستطيع أن يفعل الخير بل أن يسابق أصحاب المال والجاه فى الخير** .. ذلك أن (الكلمة الطيبة صدقة ، وإماطة الاذى عن الطريق صدقة) بل (إن كف المرء شره عن الناس هو صدقة منه على نفسه) .

ولا أشك لحظة أن من أهم أسباب تخلف العالم الإسلامى ، عدم إبصاره سوى الفروض العينية الفردية ، وإغفالة الفروض الكفائية الجماعية ، أو غياب الحس بأهميتها وابعادها ، فانقطع أثرها فى الحياة العملية .. وأسهم

ذلك فى تخلفه . ولا شك أن فى بعث فكرة التكليف بانفاق العفو من المال ، وبذل الجهد فى سبيل الله والمجتمع ، من شأنه ان يعيد تشكيل الفرد والمجتمع المسلم ، ليتحول إلى انسان ومجتمع فاعل ، يحس بدوره ومسئوليته ، ويرى هدفه ويسعى اليه .

وختاما لا يفوتنى ان اذكر عن محاضرنا ، **انه بجهده الفردى** اقام فى قريته " بى العرب " مركز الباجور بمحافظة المنوفية ، مسجدا تابع تطويره وتنميته ليصبح **منارة اسلامية ومركزا متكاملا** ، يخدم من خلاله أبناء بلده فى مختلف إحتياجاتهم الدينيه والصحية والاجتماعية . وانه بالرغم من تقدم العمر ووهن الصحة ، منحه الله بسبب قوة ايمانه وصلابته فى الحق وعمله الطيب ، روحا معنوية عالية ، **مكنته من مضاعفة العطاء** فى توعية المسلمين ، وان يقدم لهم ما يقصر عن عمله مئات الاصحاء واصحاب الفكر والرسالات **حفظه الله ورعاه ، واكرمه وأرضاه** .

كلمة الأستاذ الدكتور / عبد الصبور مرزوق

بسم الله الرحمن الرحيم

كما أن الحق دائما نقيض شديد البأس ، للباطل ، فكذلك الخير دائما نقيض للشر . والحق والخير ، كانا وسيستمران فى صراع أبدى متصل أرادته سنة الله فى الكون ، وفى الناس ، ليتم الدفع الحضارى من الحق للباطل ، ومن الخير للشر ، حتى يقضى على المبطلين وعلى المفسدين فى الأرض .

وهذا ما يشير اليه القرآن الكريم فى قوله : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض " ، ثم فى قوله : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرنّ الله من ينصره ان الله لقوى عزيز " .

ولأن من سنن الله فى الخلق أن يتم إعمالها بواسطة الخلق أنفسهم فقد هدى الله الانسان إلى إدراك حقيقة المشكلة الاجتماعية التى تحول بين الانسانية وبين تكاملها الاجتماعى – أى تحول دون سيطرة بواعث الخير على الناس – هدت الانسانية إلى أن المشكلة ، تكمن فى التناقض الطبيعى القائم بين المصالح والدوافع الذاتية للأفراد ، وبين المصالح الاجتماعية ... أى بين ضرورات المجتمع وبين رغبات أفراده ، حتى يتاح للمجتمع أن يحقق التوازن المنشود بحيث تتعادل فيه المصالح ، وتتكافأ العلاقة بين الحق والواجب ، وتختفى الأطماع والأحقاد الطبقية .

وقد تفرق المصلحون فى ذلك مسالك شتى وهم يحاولون حلّ هذه المشكلة ، مشكلة التعارض بين : رغبات الأفراد ، ومصالح المجتمع .

وكانت النظرية الماركسية التى تقوم على إنهاء الرغبات والدوافع الذاتية للأفراد فى مقابل إعلاء سلطان المجتمع ، قد رأت أن بلوغ هذه الغاية يتم من خلال ما يسمونه " المادية التاريخية " التى يرون أنها – من خلال ترك العنان للدافع الذاتى الذى ينعكس أثره على المجتمع بشكل طبقى فيحدث الصراع بين الدوافع الذاتية المتعارضة . وهنا – كما تقول الماركسية تضع قوانين التاريخ ، حلها الجذرى بإنشاء مجتمع لاطبقى تنزول منه الدوافع الذاتية " الأنانية " وتحل محلها الدوافع الجماعية ، لأن كل المجتمع سيكون مالكا لكل شئ .

وقد أثبت انهيار المعسكر السوفيتى أخيرا فشل هذه الرؤية الماركسية حيث أدى إهدار الدافع الذاتى إلى عجز الإنتاج ، وبقيت دول الاتحاد السوفيتى عاجزة عن توفير القمح اللازم لشعبها الذى عانى الإهمال والحرمان والقمع ... فكان الانهيار حتميا لاشك فيه .

إذن كيف يمكن تحقيق التوفيق المتوازن بين الدوافع الذاتية للفرد ، وبين المصالح العامة للمجتمع ؟

الجواب : لا حل إلا من طريق واحد ، هو طريق " الدين " ، فالدين وحده هو الذى يستطيع – بل استطاع بالفعل – عبر القرون – أن يحجم الدافع الذاتى للانسان ، ويخفف كثيرا جدا من إنسياقه وراء شهواته ، وأنانيته المتمثلة فى فطرة غريزة التملك ، والرغبة فى المزيد من التملك ؛ وينقله إلى الحالة النبيلة المتسامية التى تحمله – دون أى ضغط خارجى – إلى التنازل طواعية عن الكثير مما يملك ، بل وربما كل ما يملك ، ليضعه فى خدمة صالح المجتمع ، وتطبيق أهدافه . ورضى الله عن أهل ذلك البيت المطهر الذين قال القرآن فيهم :

" ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا " " الانسان : ٨ – ٩ " .

بل ان للدين قدرته الرائعة على حمل الانسان على التضحية بذاته وحياته ، انتصارا للاهداف العليا للمجتمع ، على نحو ما تسجله تواريخ الاستشهاد دفاعا عن الدين والقيم فى القديم والحديث .

ذلك لان الدين – والدين وحده – هو الذى يعطى للانسان الفرد رؤية جديدة لقضية المكسب والخسارة ، تختلف تماما عن الموازين الرأسمالية . حيث يؤمن الفرد أنه فى كل تعاملاته مع الله ، يكسب أضعاف أضعاف ما يمكن أن يظفر به فى التعامل مع الناس . وحسبنا أن نشير إلى مثل قوله تعالى :

" مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " .
" البقرة : ٢٦١ "

لترى أن مثل هذا التوجيه يجعل الانسان المسلم يؤمن بأن مصلحته الذاتية هى مصلحة المجتمع ، وأنهما مرتبطتان . وهكذا تحل المشكلة فيعلو جانب الخير ويزول التناقض بين دوافع الأفراد ، وإحتياجات المجتمع ، دون صراع طبقى ، ودون حمامات دماء ، وهذا ما لم تستطعه ، لا الرأسمالية ، ولا الاشتراكية الماركسية إلى اليوم .

أصل كلمة " الخير " فى القرآن :

ولان موضوع بحثنا هو عن مفهوم " الخيرية " فى رسالة الأمة المسلمة ، ولأن الخيرية صيغة نسب إلى الخير ، لذا كان لابد أن نستعيد قراءة الاستخدامات القرآنية لجذور ولمفردات هذه الكلمة – كلمة الخير – لنقف على إشاراتها ذات الصلة بموضوع البحث .

لقد وردت الكلمة ١٨٧ سبعا وثمانين ومائة مرة فى القرآن الكريم ، تختلف فى تصاريفها وإعرابها ، كما تختلف كذلك فى المراد منها .

فهى أحيانا تأتى **بمعنى الصدقة والإنفاق** أى العطاء المادى ، الذى نجد الاشارة اليه فى مثل قوله تعالى : " وما تقدموا لأنفسكم من خير ، تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا " " المزمل : ٢٠ " . وقوله تعالى : " قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين " " البقرة : ٢١٥ " ، ومثل هذا كثير .

وأحيانا تأتى **بمعنى النعمة فى عمومها** ، ونجد الاشارة اليه فى مثل قوله تعالى : " ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به " " الحج : ١١ " .

وتأتى كذلك **بمعنى نقيض الشر** من مثل قوله تعالى عن حديث الإفك : " لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا " " النور / ١٢ "

لكن أكثر مجئ الكلمة فى القرآن يكون حاملا لمعنى صيغة التفضيل فتكون **بمعنى الأحسن والأفضل** من مثل قوله تعالى : " فعسى ربى أن يؤتينى

خيرا من جنتك " " الكهف : ٤٠ " ، وقوله تعالى حكاية مقولة فرعون عن موسى : " أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين " " الزخرف : ٥٢ " ، وحكاية قول إبليس فى تعليل رفضه السجود لآدم : " قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين " " ص : ٧٦ " .

ومع اختلافات استخدامات اللفظة واختلاف دلالاتها فى القرآن ، فكلها جميعا واردة فى الاطار العام للمفهوم الذى نتحدث عنه . فحين يخاطب الحق سبحانه أمتنا بقوله " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " " آل عمران : ١١٠ " ؛ فواضح من الخطاب إضفاء صفة من صفات التكريم والتفضيل لهذه الامة . لكنها - وبالشرط القرآنى الذى نعرض له - ليست خيرية عرق أو عنصر ، كتلك التى يدعيها بنو اسرائيل من أنهم شعب الله المختار ، وليست تمييزا بالجنس أو اللون ، ولكنها خيرية مشروطة بأداء الواجب المفروض عليها ، وهذا الشرط بنص الآية هو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واعلان الايمان بالله .

وهذا المعنى هو ما جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول عند قراءته لهذه الآية : " من سره أن يكون من هذه الامة - أى الموصوفة بالخيرية - فليؤد شرط الله فيها " . وبعض السلف الصالح من المفسرين قالوا انها تعنى أنها خير الناس للناس ، أى هى التى تأتى بالناس حتى يدخلوا الإسلام ، أو حتى ينتفعوا بهدى هذا الدين .

ويلفت النظر فى التعبير القرآنى استخدام صيغة الماضى " كنتم " وهى تشير إلى ديمومة هذه الصفة ، صفة الخيرية ؛ وأن اتصاف الامة بها وبالشروط الملحقة أو المبررة (المعللة) لها لهذا الوصف ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كأنها قدَرٌ من قدر الله ، يحدد للامة مهمتها

ودورها بين الأمم ، وهو دور القيادة والريادة والهداية إلى دين الله فى الأرض .

ذلك لأن الخطاب لم يكن للأمة القائمة أثناء نزول القرآن فقط ، ولكنه للأمة المرتبطة بهذه الرسالة عربا كان أبناؤها أم عجما عبر الزمان والمكان . وقد لحظ هذا المعنى الامام ابن كثير فى تفسيره ، حينما نقل عن بعض المفسرين قولهم : " ان المراد بهذه الامة الخيرة هم الصحابة الذين هاجروا مع الرسول صلوات الله عليه " ، لكنه عقب على هذا بقوله : " والصحيح انها عامة فى كل قرن بحسبه " ، ثم أضاف : " وهذا بفضل نبيها محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى لم يعط مثله قبله نبى من الانبياء ولا رسول من الرسل " .

ومن هذه اللفتة للامام ابن كثير ، نعبر إلى صلب الموضوع الذى نلتقى حوله الآن ، فاذا كان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، شرط استحقاق الأمة لصفة الخيرية ، **فمن الضرورى ، التحديد الدقيق لمفهوم المعروف والمنكر على المستوى اللائق بجلال المهمة المنوطة برسالة أمة رسولها خاتم الانبياء .**

ومن ثم فلست أقبل ذلك التفسير السطحى ، الذى يحصر المعروف والمنكر فى فروع الفروع ، كدعوة انسان إلى تقصير ثوبه أو نهى انسان عن التدخين ، إلى غير ذلك مما هو معروف مشهور ، يجرى الاهتمام به وتثار بشأنه الخلافات إلى حد الاقتتال ، بينما يتم التغافل عن تحديد رؤية الإسلام للقضايا الكبار الجادة كقضية الحرية والعدل الاجتماعى والعلاقة بين الراعى وبين الرعية ، ومعارك التخلف والصراع الحضارى مع القوى ، والثقافات الغازية وغيرها .

أقول : لو كان المعروف والمنكر المنوط بالأمة الامر به والنهى عنه ،هو من ذلك المستوى السطحى المشار اليه ، لكفى فى النهوض به بعض الوعاظ البسطاء ، ولما كان محتاجا إلى أمة تحمل تبليغ الرسالة الكاملة ، والخاتمة إلى الناس كافة . ولكن للمعروف والمنكر فهما آخر ودورا أكبر ، هو إبلاغ جوهر الإسلام والتعريف بخصوصيات عطائه الحضارى للناس .

واقترابا من المعنى المراد ، علينا ملاحظة المناخ التاريخى من جوانبه المختلفة الدينية ، والسياسية ، يوم بعثة محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وسنرى فيه من الجانب الدينى كيف انحط المستوى العقلى للانسان ، فتصور الآلهه أوثانا ينحتها بيديه ثم يقوم بعبادتها . أو يرى فيه نارا يشعلها ثم يدور من حولها بالتقديس والدعوات ، أو يتصوره عددا من الآلهة اثنين أو ثلاثه أو اكثر ، وهو فى كل الأحوال يخلع على الآلهة تصوراته البشرية التى تنزل بالخالق إلى مستوى المثلية لخلقه سبحانه .

وسنرى فيه من الجانب السياسى مجتمعا تتلاشى فيه شخصية الانسان الفرد لتحل محلها شخصية الحاكم ، أو شيخ القبيلة ، الذى يملك وحده التوجيه واتخاذ القرار ، وما على الجميع الا السمع والطاعة . كما نرى فيه الامتهان الحاد للأنثى ، إلى الحد الذى كانت تؤاد معه ، كما تحدث القرآن . ونرى فيه الانقسام الحاد للمجتمع إلى سادة هى الشريحة الأقلية المتحكمة بعصبيتها فى المال ، والجاه ، والسلطان ؛ وبين يديها عبيد لا يملكون لأنفسهم نفعا ، ولا ضرا ، ولا حتى أن يخلصوا بالهرب مما هم فيه .

وكان المجتمع الكبير خارج جزيرة العرب تتحكم فيه انذاك ، قوتان عظيمتان هما الفرس والروم ، قريب حالهما من أميركا والاتحاد السوفيتى قبل انهيار الأخير . ولم يكن للمستضعفين من الأفراد أو الكيانات المتناثرة ، ما تحمى به كبرياءها إلا أن تعاهد أو تحالف أو تدخل فى جوار إحدى هاتين

القوتين يعبدون ما نعبد ، ويعادون من تعادى ، ويسالمون من تسالم ، مقابل أن يظفروا آخر الامر بالحماية والرعاية .

ولست أرى كبير فارق ، بين ما كان عليه حال العالم فى ظل دولة الفرس والروم ، وبين ما كان وما سيكون عليه الحال اليوم فى ظل القوتين الاعظم ، ثم فى ظل أحادية القطب ، الذى تجلس على قمته اليوم الولايات المتحدة . حيث باتت الهيمنة الغربية والرؤية الغربية عقيدة وفكرا واقتصادا وأنماط حياة ، هى النمط الذى يراد اليوم فرضه على العالم ، إنْ طوعا أو كرها ، وخاصة عالمنا الثالث الذى أغلبه المسلمون والعرب .

ولو تم فرض هذا النموذج الاستعمارى للحضارة الغربية ، فسيتعرض عالمنا العربى والإسلامى ، بل والعالم كله ، لمنكر أعظم ينتهى به حتما إلى الدمار والضياع حيث تدمر الهوية الثقافية لأنماط ولقيم الحضارة العربية المسلمة ، وتمسخ الاخلاقيات والتقاليد والأعراف . كما يتحقق فى ظل هذه الحقبة ، الطموحات والآمال الصهيونية ، بكل ما تحمل لنا من شر ، ومن عداء للأمة ، ودينها ورسولها الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وقد بزغت فى الآفاق ، بواكير هذا الفكر الخطير ، حيث امتدت يد الخبرة الأمريكية ، إلى مناهج بناء الانسان وصياغة عقله ، وتحديد قبلته ، غربا إلى واشنطون ونيويورك ولندن وباريس ، وغيرها بدل ، مكة ، والمدينة ، وبغداد ، وقرطبة ، والقاهرة . وتحركت أجهزة الاعلام ، من صحافة ، واذاعة ، وتليفزيون ، وفى طلائعها حملة الاقلام من العلمانيين ، والماديين ، والشيوعين وغيرهم من العملاء ، ليقوم الجميع بعمليات غسيل للعقل العربى . والمسلم تنتزعه من جذوره وتشككه فى الثوابت من القيم ، وأيضا فى الشوامخ من الأحداث والرّجال حتى يصلوا به إلى حالة من فقدان المناعة

ويصبح كالريشة فى مهب الريح تدفعه العاصفة الغازية بيسر كبير إلى أى اتجاه .

وما يجرى فى باب السياسة والإعلام ، يتم أبشع منه فى أبواب الاقتصاد ، حيث يتم قسرا وغصبا تتبيع اقتصاديات العالم العربى والإسلامى ، للنمط الربوى الغربى البشع الذى يمتص به ما بقى من طاقاتنا ، بحيث ننتهى إلى مجرد سوق للاستهلاك ، والاستغلال ، نعجز حتى عن القيام بتكاليفه ، فنسقط آخر الأمر فى مصيدة الدين التى قد يصل الأمر بصانع هذه المصيدة ، إلى أن يبيعنا فى سوق النخاسة الدولية . بل لعل هذا البيع يجرى الاعلان عنه الآن ، بنشاط ، وهمة .

وهنا تتجسد أمام عقلى ، وقلبى ، وأمام عينى ، كذلك صورة النبوءة النبوية ، التى جاءت فى قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الحديث المشهور : " يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أمن قلة نحن ، يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل " .

وأمام هذه الصورة المخيفة ، للغد لنا وللعالم الثالث ، بل والعالم كله ، يتعين البحث عن طريق الخلاص ، ولا خلاص لنا وللعالم ، الا بابتعاث واستعادة الدور المفقود لخيرية هذه الأمة ، التى قدر لها أن تكون خير الناس ، بالشرط الذى تحدث عنه عمر بن الخطاب ، وبالوصف الذى حدده القرآن الكريم * تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله *

طوق نجاة الانسانية :

ومن هنا يكون القول بالتفصيل ، أوجب فى طبيعة المعروف ، الذى تجب علينا الدعوة اليه ، وطبيعة المنكر الذى يجب علينا النهى عنه . وهو كما سبقت الاشارة ليس أمرا بتقصير الثوب ، ولانهيا عن التدخين ، لكنه القـ

طوق النجاة إلى الانسانية التى توشك فى ظل سيطرة الفراعنة ، والفوادين ، والهامانات ، أن تهوى إلى أعماق الدمار والضياع.

ولا طوق للنجاة الا برسالة الإسلام بكل عطائه الحضارى الكبير ، الذى هو فى جوهره أمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وايمان صادق بالله .

ولننظر معا وبايجاز ، فى طبيعة أطواق النجاة التى تحملها الرسالة الخاتمة ، وبما تحمل من امكانيات لانقاذ العالم مما ينتظره من شر :

فى قضية المال :

لكى يضع الإسلام المال - هذا الرزق ، الذى أراده الله نعمة للناس ، فحوله الانسان ، إلى مورد أخذ يتحكم فى رقاب البلاد ، والعباد . فجاء الإسلام ليضعه فى حجمه ، خادما للانسان ، لاسيدا له على النحو التالى :

أولا : أعلن الإسلام بقوة ، رفضه أن يكون المال حكرا فى أيدى طبقة الاغنياء ، لما لذلك من مخاطر أدركها العالم مؤخرا فيما يعرف بسيطرة رأس المال على صناعة القرار أو على الحكم .

وذلك فى النص الصريح فى آية سورة الحشر " كى لا يكون دُولة بين الاغنياء منكم " - " الحشر : ٧١ " . والمناخ الذى جاءت فيه الآية يؤكد هذا المعنى .

ثانيا : وضع الإسلام سبيلا قويما لتثمير المال وتنميته بحيث يبقى دائما مصدر إعمار لاإضرار ، وذلك عندما قرر أن يكون تثمير المال وتنميته ، من خلال تحريك الحياة وليس من خلال الربا ، لان الربا يزيد المال عند المرابى ، من غير أن يكون للمرابى أى دور أو جهد فى تحريك الحياة .

أما ما شرعه الإسلام من صنوف تنمية المال ، كالمشاركة ، والمضاربة والمزارعة ، والمتاجرة ، والقرض الحسن ، وغيرها ؛ جميعها تحرك الحياة ، وتخلق فرص الكسب أمام الناس ، وبذا ينتفع جميع عباد الله بمال الله .

ثالثا : مع احترام الإسلام الكامل للملكية الخاصة إلى حد اعتبار من قتل دون ماله شهيدا ، فانه قدر فى المال الخاص المنفعة العامة . وهنا نستحضر النص القرآنى فى قوله تعالى :

" ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو " – " البقرة : ٢١٩ " ، والعفو – كما قال الامام ابن عباس رضى الله عنه : هو ما زاد عن الحاجة .

رابعا : شدد الإسلام النكير على " الربا " و" الاحتكار " و " الغش " و " السرقة " و " الغصب " و " أكل مال اليتيم " ، وغيرها مما يؤخذ به المال دون حق .

خامسا وأخيرا : وضع الإسلام لكل تحركات المال – جمعا وإنفاقا – إطارا أخلاقيا قوامه : أن يأتى المال من الحلال وأن ينفق فى الحلال .

فلو استطاعت الأمة التى نتحدث عنها ، أن تمارس خيريتها فى الالتزام برؤية الإسلام فى التعامل مع المال ، ابلاغ هذا " المعروف " إلى العالم ، بالقدر المطلوب والمؤثر ، لصنعت للانسانية أكبر معروف ، وأنقذتها من أكبر المنكرات فى جانب المال وهو وباء الربا ، الذى يدمر الانسان ، ويسرق منه حقوقه ، ويفسد كثيرا فى الارض .

فى قضية الحرية :

هذه القضية عطاء الإسلام فيها شامخ ، وعظيم – فلم يقيد حق الحرية – الوضع المالى للانسان ، ولا جنسه ، ولا لونه ، ولا طبقته الاجتماعية ، ولا عقيدته الدينية ، ولا غناه أو فقره ، ولا جنسه من ذكر أو انثى . . . الخ .

وانما جعل حرية الانسان مرادفا لحياته ومن هذا المنظور نستطيع – وبقوة – أن نقول : أنت حى ، يساوى فى الإسلام ، أنت حر .

هكذا دون الحاجة إلى قانون ، أو قرار من رئيس أو ملك أو منظمة دولية أو غيرها ، وهذا المعنى هو ما لحظه بفطرته الصافية الفاروق عمر " رضى

الله عنه " فى مقولته الشــهيرة : " متـى استعبدتم النـاس وقـد ولدتهـم أمهـاتهم أحرارا " ؟ وتفصيل القول فى هذا لا يتسع المقام له ، ومجمل القول فيــه ، أن أى حديث عن " الحرية " فى الشرق أو فى الغرب ، وفى القديم والحديث ، لا يمكـن أن يرقـى إلـى بعـض مـا قـرره الإسـلام للانسـان فـى هـذه القضيـة : قضية الحرية .

قضية المساواة واحترام حقوق الانسان :

حسب الإسلام من التميز ، فى تكريمه للانسـان ، أن يعتبره الحـق تبـارك وتعالى ، خليفة عنه فى الأرض ، كما صرح به القرآن فى قولـه : " واذ قـال ربـك للملائكـة ، إنـى جـاعل فـى الأرض خليفـة " - " البقـرة : ٣٠ " ، فلمـا عبرت الملائكة عن خشيتها من أن لا يحسن الانســان هذه الخلافـة وقـالت : " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقـدس لـك " ، كان الجواب الالهى : " انى أعلم ما لا تعلمون " - " البقرة : ٣٠ و ٣١ " .

وزيادة فى تكريم الله ، لعبده الانسان ، أن ميزه على الملائكة بـالعلم ، ثـم أمرهم بالسجود له ، فسجدوا كما هو وارد فى صريـح آيـات القـرآن ، وليـس وراء ذلك تكريم للانسان .

ومـرد هـذا التكريم كمـا أشـرنا ، إلـى طبيعـة الـدور الكبـير المنـوط بهـذا الانسان فى إعمار الأرض وحمايتها مـن الفسـاد ، والافسـاد ، والتمكيـن فيهـا لدين الله وكلماته .

أما قضية المساواة بين بنى آدم ، فيردها الإسـلام إلـى الأصـول الواحـدة الثابتة المتساوية بين الناس فى أصل الخلقة ، من التراب ؛ وفى طريقة التكاثر وخصـائص التكويـن التـى لا يختلـف فيهـا أبيـض عـن أسـود ، ولا غنـى عـن فقير ، ولا قوى عن ضعيف . . . الخ ، وهو ما أشار اليه القرآن فـى قولـه :

" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم " - " الحجرات : ١٣ "

ويؤكد هذا قول الرسول صلوات الله عليه : " الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى " ، وقوله : " كلكمْ لآدم وآدم من تراب " .

وفى مجال التطبيق ، كانت فريضة الصلاة ، نموذجا يوميا متكررا تتساوى فيه بين يدىْ الله ، كل الرءوس وتلتقى فيه كل الجباه ، ساجدة لله ، لا يمتاز فيها أحد عن أحد .

أما فى مجال العلاقات الدنيوية : سياسية كانت ، أو اجتماعية ، فطبيعة العلاقة بين الراعى والرعية ، فى العهد النبوى وفى عصور الراشدين ، كانت وستبقى نموذجا للضبط الدقيق ، للعلاقة الوثقى بين الحق والواجب ، فى إطار عقد اجتماعى بين الحاكم والمحكومين ، لم تعرف البشرية مثيلاً له من قبل ، ولم تعرف نموذجا تطبيقيا لمثله من بعد .

وحسبنا فى ذلك ، نماذج الشامخين فى هذا الباب من الخلفاء الراشدين ، وخامسهم عمربن عبد العزيز ، الذين ضربوا أعظم المثل فى ذلك ، حيث يقول أحدهم معبرا عن الجميع فى قوله غداة ولايته : " أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى " ، ثم يحدد لنفسه وللرعية المرجع الذى يكون الاحتكام اليه عند الاختلاف فيقول :

" أطيعونى ما أطعت الله ورسولهُ فيكم ، فان عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لى عليكم " . وما أكثر ما اعترض بعض أفراد الرعية ، على الحاكم علنا ، وفى وجهه ، وعلى مسمع من جمهور المسلمين ، يطلبون منه إيضاح بعض ما رأوه من أمره ، فاذا هو يستجيب ، ويبرئ ساحته بالبرهان

والدليل ، ثم يمضي إلى امره وما ورم أنفه ، ولا ذهب بمخالفيه إلى ماوراء الشمس كما يقولون .. وهكذا تكون المساواة ويكون احترام حقوق كل الانسان ، لكل إنسان مؤيدا كان ، أم من المعارضين .

ترى والعالم كله يشهد الامتهان المخيف لحقوق الانسان فى كل مكان ، فى الشرق كما فى الغرب ما الذى كان على الأمة الخيرة أن تفعل ؟

وهل قامت تأمر بمعروف الحرية والمساواة واحترام الانسان ، فتنهى عن المنكر الجشع من المظالم والتمييز العنصرى وغيرها من مصادر الشقاء ؟ أم بقيت الأمة صامتة وزادت على صمتها ، أن تورط أبناؤها فى المنكر ، الذى كان عليهم أن ينكروه ؟ فدفعت نفسها بالتقصير فى أداء واجبها القدرى ، وقصرت فى ابلاغ جوهر العطاء الحضارى للناس ؟

ولو مضينا نتتبع عظمة " المعروف " الذى كان على أمتنا أن تنهض به فى المجال الاجتماعى ، والثقافى ، وكل مجالات الحق ، والعدل ، والجمال ، والخير . . لما وسعنا الزمن .

وفى كل هذه النواحى عجزت أمتنا عن أداء دورها مرتين : مرة فى عدم التزامها بما أمرها الإسلام أن تلتزم به ، وتطبيق ما كان يجب أن تأخذ به نفسها كنموذج واقعى للمعطيات الحضارية للاسلام . وقصرت مرة أخرى ، حيث لم تعرض للعالم مزايا دينها العظيم ، أو حسب التعبير القرآنى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " " آل عمران : ١٠٤ "

وبهذا التقصير فى أداء الواجب الكبير ذاقت أمتنا ، عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، وتمكن الباطل من تمزيقها والعبث بحقوقها ، والاستهانة بدينها . وفوق هذا – وهو الأقسى – أننا نحن أبناء هذه الامة ، سنلقى الله وسيسألنا لماذا لم تقدموا إلى البشرية الرسالة الخاتمة والدين الذى أكملته لكم ؟ لماذا لم

تقدموه فى صورته النقية إلى الناس حتى يفيئوا اليه ؟ ولأنكم لم تفعلوا ، فستحملون من أوزار هؤلاء الذين لم تدعوهم إلى ما أمرتكم ، أن تدعوهم اليه . وبهذا نكون مع الاسف العميق ، قد خسرنا الدنيا وخسرنا الآخرة .

ربما يقول قائل وهذا حق : أن الجمعيات الخيرية الإسلامية ، تملأ أرض مصر وأقطار العرب والمسلمين ، فكيف لا تكون دعاة خير ؟ وكيف لا نكون أهلا للخيرية التى وصفنا بها القرآن ؟ وألا يدخل ما نقوم به فى نطاق " المعروف " الذى وصفنا به ؟

وأقول : ان كل ما تقوم به الجمعيات الخيرية فى كل مكان من عالم الإسلام هو خير . . لكن حصر الخير فى مساعدة ضعيف أو رعاية يتيم أو التمكين لطالب علم ، هذا كله شئ طيب لكنه ليس الا الجزء " المحلى " مما هو منوط بنا أن نفعله ... فيتبقى المهمة العالمية ، التى علينا أن نخرج فيها إلى الناس ، كل الناس ، نعرض عليهم جوهر العطاء الحضارى لديننا العظيم ، ولو عرفه الآخرون لتغيرت مواقفهم ، وأساليب تعاملهم معنا ، ومع الإسلام .

وهذا الدور الغائب ،هو إيضا دور مفقود مازال ينتظر أمتنا أن تنهض به . فاذا أضافت الجمعية الخيرية الإسلامية ونظيراتها فى كل مكان ، هذا الدور الهام ، إلى دورها القائم ، فإننا نلتقى ، على كلمة سواء ، ونخرج مما نحن فيه ، إلى ما ينبغى أن نكون عليه .

انى لأرجو ، بل وألح فى الرجاء ، فليس من سبيل إلى تغيير أوضاع المسلمين اليوم بل وأوضاع العالم ، إلا أن نتمكن من تغيير موقف العالم منا ومن ديننا ، بأن ننجح فى اقناعهم " **بالمعروف** " الذى لا حدود له ، والذى جاء به الإسلام للخلاص من " المنكر " الذى يرزحون تحته ويرزح معهم تحته ، بقية أجزاء العالم .

فعلى كل الجمعيات ، والهيئات ، والافراد ، العاملين فى مجالات " الخير " فى عالمنا ، أن يكملوا مهمتهم النبيلة ، ويتطوروا بها لتصبح دعوة إلى خير الأمة ، وخير العالم كله .

ولأن الهدف جليل ونبيل ، فالتصدى للنهوض به يحتاج إلى جهد نبيل وجليل ، ولينصرن الله من ينصُره ، وصدق الحق فى قوله :

" والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين "

– " العنكبوت : ٦٩ " .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

المحاضرة الخامسة

منهج الإمام محمد عبده في تجديد الدنيا بتجديد الدين

الأستاذ الدكتور محمد عمارة

١٣ فبراير ١٩٩٥م

١٣ رمضان ١٤١٥هـ

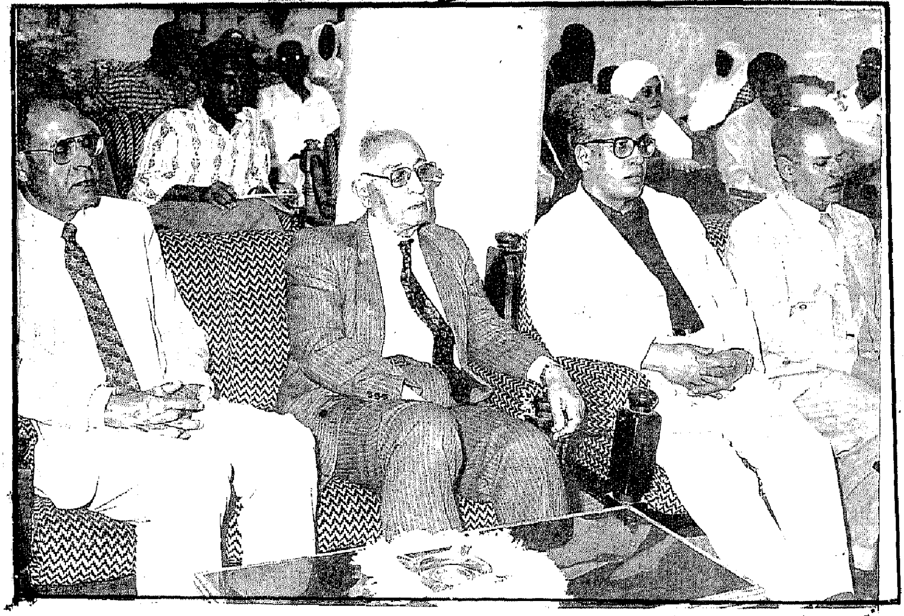

جانب من الحضور :

من يمين الاستاذ الدكتور عبدالهادى شرياش الأستاذ الدكتور عارف الدسوقى شاعر ... ابراهيم زيدان

على المنصة : المحاضر الدكتور محمد عمارة وعلى يمينه المستشار محمد صادق الرشيدى وعلى يسارة المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم

محاضرنا الأستاذ الدكتور محمد عمارة هو من مواليد ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ - بلدة "صروة" بمركز قلين / محافظة كفر الشيخ . وهو خريج كلية دار العلوم ، وحصل منها على الماجستير فالدكتوراه فى العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية . وقد عمل باحثا بوزارة الثقافة هيئة التأليف والنشر سنة ١٩٦٩ ، ثم مستشارا بالهيئة المصرية العامة للكتاب حتى اليوم .

وقد شارك الاستاذ الدكتور عمارة فى العديد من الندوات العلمية والمؤتمرات العالمية فى مصر والخارج . وحصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٧٧ ، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ، وجائزة جمعية أصدقاء الكتاب سنه ١٩٧٢ . وجائزة على وعثمان حافظ لمفكر العام سنه ١٩٩٤م .

وإذا أردت أن ألخص شخصية الأستاذ الدكتور عمارة ، لقلت أنه شخصية علمية محضة ، قضى كل حياته فى القراءة والكتابة ، حتى أخرج لنا أكثر من ستين مؤلفاً ، صحح وعمق بها الفكر الإسلامى . هذا بخلاف عشرة دراسات وتحقيقات كل منها فى عدة مجلدات أثرى بها المكتبة العربية .

والمحاضرة التى نحن بصددها ، هى عن شيخ الإسلام / محمد عبده ودوره فى تجديد الدنيا بتجديد الدين . وتفخر الجمعية الخيرية الإسلامية بأن الاستاذ الإمام محمد عبده ، كان من الرواد المؤسسين لهذه الجمعية سنة ١٨٩٢ ، ثم كان رئيس مجلس إدارتها منذ سنة ١٩٠٠ حتى وفاته سنة ١٩٠٥ . **وتتطلع اللجنة الثقافية بالجمعية الخيرية الإسلامية ، أن تتضمن محاضراتها المستقبلية ، دراسة حياة وفكر روادها ، ورؤساء مجالس إدارتها السابقين ، كالإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق** ، والدكتور عبد الحميد باشا بدوى ، ولطفى باشا السيد ، وسعد زغلول ، وطلعت حرب ... ممن حملوا مسئولية مسيرة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وتحققت على أيديهم انجازات ، ضخمة طيبة ، ومحمودة .

ولاشك أن خير من يحدثنا عن شيخ الإسلام الإمام محمد عبده ، هو الأستاذ الدكتور محمد عمارة . فان له ستة مجلدات عن الاعمال الكاملة للاستاذ الإمام محمد عبده . هذا بخلاف ثلاثة مؤلفات ، عن سيرة وفكر الإمام محمد عبده ودوره فى تجديد الدنيا والدين .

وإذا كان لى أن أبدى رأياً فى هذا المقام ، فهو أن روح الإسلام وعماده ، هو " الاجتهاد " ، أو ماعبر عنه محاضرنا بمصطلح " التجديد " . وانه منذ قفل باب الاجتهاد أو التجديد منذ عدة قرون ، لظروف نعلمها ،

إنتهى الأمر إلى التقليد والجمود ، وغابت الملاءمة بين تعاليم الإسلام وبين مشكلات وواقع المسلمين . وفى ظل هذا المناخ ، مناخ التقليد والجمود ، كلما إمتد الزمن بالمسلمين ، كلما بعدوا عن الإسلام فى قوة ووضوح مبادئه ، والتزموا بعادات وتقاليد وتفسيرات بعيدة عن الإسلام ، فتأخر بذلك المسلمون وتمكن منهم المستعمر .

ان الاجتهاد هو المصدر الثانى للإسلام بعد القرآن والسنة ، وان أكبر ضربة وجهت إلى الإسلام ، كانت بقفل باب الاجتهاد ، أو بعبارة أدق ، العزوف عنه تلقائيا لظروف نعلمها ، الأمر الذى أدى إلى الجمود والضياع ، وصارت العلوم الإسلامية كما عبر عنها البعض ، (**علوم رواية لا علوم دراية**) . بل وهان أمر العلماء فى مثل هذا المجتمع الإسلامى المتخلف ، مما عبر عنه أحد سلاطين المماليك بقوله (**لقد كنا نحتكم إلى العلماء ، واليوم يحتكم العلماء إلينا**) .

ولقد إستمر هذا الجمود ، لعنة عالقة بحياة الأمة الإسلامية وحضارتها ، حتى تبلورت مدرسة الاجتهاد ، أو التجديد الدينى ، والتى إنتظمت من حول الأستاذ الامام جمال الدين الأفغانى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وإذا كان الثائر المجتهد الافغانى ، قد أضاء مشعل الاجتهاد ، أو التجديد الدينى بمصطلح محاضرنا ، ثم استغرقه العمل السياسى ضد الاستعمار والاستبداد ، فان الامام الشيخ محمد عبده وهو من أبرز أئمة مدرسة الأفغانى ، قد استطاع التركيز على قضايا تحرير العقل المسلم ، والاصلاح التعليمى والتربوى واللغوى ، فكان له إسهاماته العملاقة فى تجديد الدنيا بتجديد الدين .. مما سيحدثنا عنه الأستاذ الدكتور محمد عمارة . فليتفضل مشكورا .

كلمة الاستاذ الدكتور / محمد عماره

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع هذه المحاضرة هو منهج الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فى تجديد الدنيا بتجديد الدين . وكى نضع الإمام محمد عبده ، وانجازاته الفكرية الكبيرة ، والمتعددة ، فى سياق تطور الأمة ، والحياة الفكرية والعلمية للأمة ، يحسن أن نشير إلى لحظة الاحتكاك العنيف ، التى تمت بين أمتنا ، وبين الحضارة الغربية ، عندما جاءت الحملة الفرنسية " حملة بونابرت " سنة ١٧٩٨ . والجبرتى - وهو مؤرخ العصر - يعبر عن الموقع الفكرى للعقل العربى والمسلم ازاء ما رأى لدى الفرنسيين ، بأنهم جاءوا ومعهم الصحيفة ، والكتاب ، والمطبعة ، والبعثة العلمية ، وليس فقط المدفع والبارود .

والجبرتى (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م) هو ابن الأزهر الذى كانت تدرس فيه العلوم الطبيعية بكافة أنواعها بل وحتى الموسيقى ، يعبر عن التراجع الذى أصاب العقل المسلم فى ذلك التاريخ ... جاء علينا حين من الدهر تراجعت فيه الأمة حضاريا ، وبلغ التراجع إلى حد أننا تبادلنا المواقع مع الغرب الأوربى ، حيث كان الغرب فى عصوره الوسطى والمظلمة ، فعندما أرسل هارون الرشيد " الساعة " إلى شارلمان إستدعى القساوسة ، فلما رأوا الساعة ، قالوا أن فيها شيطانا .. !! ، لقد كان هذا هو المستوى العقلى للحضارة الغربية فى ذلك الوقت .

والجبرتى عندما يعبر عما رأه فى البعثة العلمية للحملة الفرنسية ، فكأنه يقول لنا ، لقد تبادلنا المواقع مع الغرب ، فأصبحنا نحن الذين فى موقع التخلف حتى اننا ندهش ونبهر ببسائط الأمور ، فلقد ذهب إلى " بيت البعثة العلمية " فرأى أنبوبة " سحاحة " توضع فيها بعض المواد تتفاعل ، فتحدث

دخانا ، فقال : " **هذه أمور لا تطيقها عقول أمثالنـا** .. ؟! وعندمـا رأى عربـة اليد تحمل رمالا أكثر مما يحمله الإنسان ، لأنها " رافعة " تحدث عن هذه العربة بقوله : " **انها معجزة الناس الفرنساوية** " ؟! هذا المستوى من حديث الجبرتى يعبر عن الواقع الذى كنا قد وصلنا إليه ، عندما حدث ذلك الاحتكاك العنيف مع أوربا / الحملة الفرنسية .

ويومئذ قال الشيخ حسن العطـار (١١٨٠ - ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ - ١٨٣٥م) - الذى كان يُدرّس اللغة العربية للفرنسيين - عبارة أنا اعتبرها بدايـة عصـر جديد ، عبر بها عن ضرورة التغيير حيث قال :

" **ان بلادنا لابد أن تتغير ، ويتجدد فيهـا من العلوم والمعارف ، ماليس فيها** ".

وهذا هو الذى جعل حسن العطار يرشح تلميذه رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) كى يكون واعظا للجيش عندما طلب منه محمد على (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) ذلك ، ثم يرشح رفاعة الطهطاوى كى يكون إمام البعثة العلمية ، التى ذهبت إلى باريس سنة ١٨٢٦، ويوصيه أن يدون ملاحظاته عن كل مايرى فى بـلاد الفرنجـه ، لأنه أراد ان يكون الطهطـاوى ، مثل ابن بطوطة وغيره ، من الرحالـة الذيـن جمعـوا مشاهداتهم ، كى يستفيد منها المسلمون ، وتتجدد بها الحياة الفكرية ، ويتغير الواقع الفكرى الذى كان سائداً فى ذلك التاريخ .

لم يقتنع الطهطاوى ، بأن يكون إمام الصلاة ، وشاء الله لـه أن يكون إمام الفكر والثقافة فى النصف الأول من القرن وحتى وفاته ١٨٧٣ ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الأمة حركة التغيير ، وحركة التجديد .

ولابد أن نشير إلى طارئ جديد :

أمتنا على مر تاريخها – كانت كأى أمة من الأمم – تمارس التقدم وتصاب بالتخلف والتراجع ، لكن قبل القرن ١٩ كانت المرجعية لأى تغيير هى دائماً وأبدا ، المرجعية الإسلامية ، فعندما كان يحدث تراجع حضارى ، أو تخلف ، من الطوارئ التى تطرأ على العقل العربى والمسلم ، لم تكن هناك مرجعية للتقدم والتغيير إلا الإسلام . ولذلك تلاحظون أن الأئمة قديماً ، عندما إختلفوا وعندما تنوعت المذاهب ، لم يقل واحد منهم ان مذهبه مذهب " إسلامى " ، أما نحن الآن فنسمى الحركات بـ " الحركات الإسلامية " وذلك لأن المرجعية هنا أصبحت غير إسلامية ، فمطلوب من أصحاب المرجعية الإسلامية أن يميزوا حركاتهم وأحزابهم وان يميزوا البرامج والتوجهات ، ومشروعات التغيير التى يقدمونها .

أما عندما لم تكن هناك إلا مرجعية واحدة هى مرجعية الإسلام ، فكان التنوع جميعه فى إطار الإسلام ، وبالتالى لم تكن هناك حاجة لان يسمى مشروع ما للتغيير ، بأنه مشروع إسلامى .

منذ حملة بونابرت ، بدأ هناك تداخل وتنافس ، وبدأ هناك نموذج جديد " لمرجعية غير إسلامية " هى " مرجعية الحضارة الغربية " . وهذا هو الجديد الذى طرأ فى القرن ١٩ ، **ومن ثم فحركة التجديد فى مصر لم تبدأ بمحمد عبده ولابجمال الدين الافغانى (١٢٥٤ – ١٣١٤هـ ١٨٣٨ – ١٨٩٧م) ، انما إزدهرت بمحمد عبده ، فهو المهندس الأكبر لحركة التجديد ، بمرجعية إسلامية ناقدة للمرجعية الغربية .**

عندما ذهب الطهطاوى إلى باريس ، رأى علوماً للواقع المدنى فدعا إلى التلمذة فيها على الغرب ، ورأى فلسفات ، ومناهج فكرية مخالفة للدين ، وبعبقرية – لأنه ذهب وهو عالم متخرج من الأزهر – ميز بين علوم التمدن

المدنى ، والعلوم الطبيعية ، التى لها مدخل فى تقدم البشرية ، ميز بين هذه العلوم وبين الفلسفات ، ولذلك عندما تكلم عن باريس قال : **ان فيها " علوما عظيمة جداً ، لكن الكفر فيها ليس له حدود "** ! حتى لقد صاغ ذلك شعرا :

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لاتغيب

وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجيب

لقد ميز فى الحضارة الغربية بين العلوم التى نحتاجها ، وبين الفكر والثقافة والعقائد ، والفلسفات ، التى قال عنها الطهطاوى " **إنها مليئة بالحشوات الضلالية المخالفة لكل الكتب السماوية** " وقال " إنهم يحسنون ويقبحون بالعقل والنواميس الطبيعية " أى من خلال العقل والتجربة وحدهما ، وانه " لاعبرة بالتحسين والتقبيح بالعقل المجرد وانما لابد من الشرع مع العقل " .

هنا نجد الطهطاوى يعبر عن عبقرية المنهج الإسلامى ، وأنه لابد ، مع علوم الكون من علوم السماء ، ولابد مع آيات عالم الشهادة من آيات الوحى ، التى تأتينا بنبأ الغيب ، وبنبأ السماء .

فمنذ اللحظة الأولى كانت حركة التجديد واعية بأن هناك مرجعية مزاحمة لها هى المرجعية الغربية ، التى بدأت تزاحم المرجعية الإسلامية فى ديار الإسلام ، منذ حملة بونابرت . وقد حمل هذه المرجعية إلى بلادنا نفر من الخبراء ، الذين جاء بهم محمد على ، وهم " السان سيمونيين " أنصار سان سيمون (١٦٧٥ - ١٧٥٥م) ، ومنهم سليمان الفرنساوى وديلسبس ، وكانت قناة السويس أحد مشروعات السانسيمونيين ، للعالمية التى تسيطر من خلالها أوربا على العالم .

وبعد حدوث الاستعمار الانجليزى سنة ١٨٨٢ ، جاءت مجموعة المثقفين الموارنة ، الذين كان بينهم وبين الدولة العثمانية ثأرا مع الإسلام ، ولم يكونوا

يستطيعون أن يقولوا أن لديهم نصرانية يقدمونها بديلا للإسلام ، ومن ثم كان النموذج الغربى ، هو الذى قدموه بديلا للإسلام ، فكانت المؤسسات الثقافية التى قامت فى القرن ١٩ فى بلادنا مثل دار الهلال والأهرام ودار المعارف والمقطم والمقتطف . كل هذه المؤسسات نقلت الفكر الغربى ، ليس العلمى والمحايد والدقيق الذى نحتاجه ، وانما قدموا نظريات مثل " التطور والدارونية ... إلخ " . وبدأ لأول مرة فى بلادنا تيار فكرى ، يبشر بالعلمانية ، وكانت مجموعة المقطم والمقتطف ، اركان الحرب الفكرية لدار المعتمد البريطانى وللورد كرومر .

هكذا ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ يوجد مزاحم للمرجعية الإسلامية فى حركات التغيير ، وحركات التجديد ، وهنا تأتى أهمية مدرسة الأفغانى ، ومدرسة محمد عبده .

والأفغانى هو واضع منهاج التجديد ، الذى سار عليه محمد عبده ، لكن الأفغانى استغرقته واجتذبته ، العمليات والحركات السياسية ، والعمل السياسى المباشر . **أما الإمام محمد عبده فكان له منهج متميز حتى قبل الثورة العرابية** ، كان يرى أن الاصلاح ، **يأتى عن طريق اصلاح مناهج الفكر لدى المسلمين** ، وعن طريق التربية ، والتعليم ، والتهذيب ، **وعن طريق تكوين نخب مفكرة ومثقفة تستطيع أن تقود الأمة** ، وكان يرى أن هذا الطريق أطول وأصعب ، لكنه الأكثر أمناً من الطريق السياسى والانقلابى السريع ، فهو أكثر أمنا فى تحقيق التطور والتقدم .

ومحمد عبده كان المهندس الأول لهذه المدرسة فى التجديد . لكن يحسن ان نحدد معنى مصطلح " التجديد " :

انتم تعلمون ان الإسلام هو " **دين الوسطية** " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الوسطاء العدل) والوسطية

الإسلامية هى وسط بين : غلو الافراط ، وغلو التفريط ، والتجديد هو الموقف الإسلامى الوسطى بين الجمود والتقليد وبين الحداثة التى جاءنا بها الغرب ، وهى التى تعنى قطيعة معرفية مع الموروث ، بينما " **التجديد** " تطور من خلال النسق الفكرى ، تطور يصحب الثوابت ويجدد فى المتغيرات ، يصحب المبادئ ويجدد فى التفاصيل والجزئيات .

ولذلك فالتجديد ، فى تاريخ الفكر الإسلامى ، هو سنة من سنن الله التى لاتبديل لها ، ولا تحويل ، حيث " يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها " ، **ولهذا كان التجذيد فريضة من الفرائض الإسلامية .**

والتجديد ، ليس مجرد حق ، بل هو فريضة ، وهو سنة ، بمعنى أنه قانون دائم العمل فى الفكر الإسلامى . الشريعة الإسلامية هى الشريعة الخاتمة وهى الشريعة العالمية ، ولو كانت كالشرائع السابقة لما كانت هناك حاجة للتغير ، لانه عندما تأتى البدع والخرافات ، فتغطى على جوهر الشريعة ، يأتى نبى جديد بشريعة جديدة ، فلاحاجة لتجديد الشريعة الأولى .

أما وهذه الشريعة قد ختم الله بها وحى السماء إلى الأرض ، وأما والطوارئ والبدع والخرافات تتراكم على الأفكار والعقائد والشرائع ، فلابد من تجديد يجلى عن وجه الإسلام ما يطرأ عليه من البدع والخرافات . أى ان الشريعة الخاتمة تحتاج دائما إلى التجديد ، لتظل فاعلة وعاملة ، ولانها الشريعة العالمية فهى ليست خاصة بواقع ما ، حيث سيحملها الجهاد إلى بلاد جديدة ، فلابد من تجديد ، يجعلها تلائم الواقع الجديد فى البلاد التى تدخل فى الإسلام .

فالتجديد سنة وفريضة وواجب فى الإسلام ، ويتميز به عن الشرائع التى سبقت الإسلام ، وهو منهج يخالف الجمود والتقليد ، ويخالف الحداثة التى هى

جديد يقيم قطيعة معرفية مع الفكر الديني كما حدث في الحضارة الغربية ، إذ وصل حديث الغرب بتراثهم اليوناني ، وأسقط الدين المسيحي ، كجملة معترضة لتطور الحضارة الغربية .

أما التجديد فلا يقيم قطيعة معرفية مع الموروث ، وإنما هو يصحب الثوابت والمبادئ ، والمناهج ، ويجدد فيما يحتاج إلى تجديد .

وكالسيف ، إذا علاه الصدأ ، ثم نفصنا عنه الصدأ ، فهذا يسمى تجديدا ، لأنه يعيد للسيف مضاءه من جديد ، فالتجديد ليس التغيير ، بمعنى ان نستبدل شيئا بشئ ، تلك هي الحداثة وليس التجديد .

فالإسلام عندما تظهر فوق عقائده ، وشرائعه ، ومنهاجه ، البدع ، والخرافات التي تغطي جوهره وحقيقته وتحجب فعاليته ، **هنا يكون التجديد ليس تغيير ثوابت الإسلام ، بل الكشف عن حقائق الإسلام .**

ولذلك يدهش البعض ، إذا علم ان كل حركات التجديد ودعوات الجديد في تاريخ هذه الأمة كانت تقوم على علماء سلفيين ، فالبعض يتصور ان التجديد ضد السلفية ، وهذا ليس صحيحا ، فالسلفية هي الماضي ، وكل انسان لابد أن يكون سلفيا ، **والسلفيون هم الذين يعودون إلى المنابع الجوهرية والنقية للفكر الإسلامي** ، من كتاب وسنه ولعصر النبوة ولمنهج الخلافة الراشدة .

فهناك سلفيون يهاجرون من الحاضر إلى السلف ، يعيشون في الماضي . وهناك سلفيون يستلهمون الماضي ليأخذوا منه ماهو صالح للحاضر والمستقبل ومايعين على الاجابة على علامات استفهام الحاضر والمستقبل .

فهناك سلفية تدخل بالانسان إلى الجمود ، لأن سلفها عصر الجمود والتقليد ، وهناك سلفية عقلانية لاتجافي العلم والتمدن ، تعود إلى الأصول وتنظر فيها بعقل معاصر ، لا لتهاجر إلى الماضي ، وإنما لتستلهم الأصول

فى تطوير وتمدن هذا الحاضر واستشراف المستقبل ، تلك هى السلفية العقلانية التى كان عليها جمال الدين الافغانى والإمام محمد عبده .

تجديد الديــن :

الإمام محمد عبده عبر عن منهجه بانه المنهج الوسطى ، حيث ظهر والأمة منقسمة إلى قسمين : طلاب العلوم الدينية ومن هم على شاكلتهم ، وهم اصحاب المنهج التقليدى . وطلاب علوم الدنيا ، وهم اصحاب المنهج التغريبى .

ولقد اختط المنهج الوسطى للتجديد ، بين هذين الغلوين وعبر عن هذا التجديد الذى يريده ، عندما قال " **اننى أدعو إلى تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة** " . هنا السلفية بمعنى العودة إلى المنابع من الكتاب والسنه .

وكان يطلب من الذى يقرأ القرآن ، أن يقرأه وكأنه ينزل عليه ، وكأنه يتلى له ، وان يستحضر الأدوات والآليات والعلوم المساعدة ، لكن ينظر فيه دون تقيد بالتفاسير السابقة ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى منابعها ، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشرى ، **ولم يغفل نقد السلفية " الظاهرية " التى تقف عند ظواهر النصوص ، وتهمل نعمة العقل ولاتستخدم العلوم التى للعقل فيها مجال .**

العقــلانيــة الإسلاميــة :

لقد انتقد الإمام محمد عبده ، موقف السلفيين المقلدين من العقل والعلم والمدنية ، وقال عنهم " هذه الفئة أضيق عطنا واحرج صدرا من المقلدين ، وهى وان انكرت كثيراً من البدع ونحّتْ عن الديْن كثيرا مما اضيف إليه وليس منه ، فانها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به

بدون التفات لما تقضيه الأصول التى قام عليهـا الديـن ، وإليهـا كـانت الدعـوة ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء " .

فالسلفيون المقلدون لايؤمنون بالعقلانية الإسلامية المؤمنة التى تنطلـق مـن القرآن لتدافع عن الإسلام ، ولايفرقون بينها وبين العقلانية الغربية واليونانيـة التى تؤله العقل وتضع العقل والعلم والفلسفة ، آلهة ، بدلاً من الدين واللاهوت والكنيسة .

الإمام محمد عبده ، فى منهجه التجديدى ، تحدث كثيراً عن مقـام العقـل فى الإسلام ، لانه كان يواجه منهجاً تقليدياً يتجافى عن العقـل ويسـيئ الظـن بالعقل ، وكان يواجه منهجاً تغريبياً ، وهو منهج التنوير الغربى الذى انتقده الطهطاوى وهو الذى يرى ان العقل والتجربة وحدهما سبل المعرفة .

فالغرب يرى أن الواقع المادى هو المصدر الوحيد للمعرفـة ، وانكـروا ان يكون الوحى مصدرا للمعرفة ، بل اعتبروا أن الديـن ، يمثـل مرحلـة طفولـة العقل البشرى ، وتلتها المرحلـة الميتافيزيقيـة ، ثـم جـاءت المرحلـة الوضعيـة التى لاترى أن هناك علما ، ولاحقيقة ، ولا معرفة حقيقية ، إلا إذا كـانت مـن الواقع المادى .

ويرى الغـرب أن أسـلوب تحصيـل المعرفـة انمـا يكـون مـن العقـل ومــن التجارب الحسية .

وفى مواجهة هذا المنهج التنويرى الغربـى ، نـادى الإمـام محمـد عبـده ، بنظرية " الهدايات الأربع " وهى : العقل والنقل والتجربة والوجـدان ، وقـال انها أربع سبل للمعرفة تتكـامل معـاً فتكـون المعرفـة الإسـلامية وتحصلهـا : وكتب كلاما نفيسا ، يمثل منهاجـا لكيفيـة تعـامل الإنسـان المسـلم مـع العقـل ، والعقلانية فمثلا يقول :

" ان العقل هو جوهر انسانية الإنسان ، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة " ويتحدث عن ان الإسلام هو الدين الوحيذ الذى يجعل الطريق إلى معرفة الله تعالى ، العقل وليس النقل .

فحجية النقل تتوقف على صدق من جاء بهذا النقل ، فلو لم يكن نبيا صادقا لما كان النقل حجة . وصدق الرسول ، يتوقف على وجود من أرسل هذا الرسول ، فهذا التسلسل يدعو إلى البحث عن دليل لمعرفة الذات الالهية ، قبل التصديق بالنبوة وقبل التصديق بحجية النقل .

وهنا يضع الإسلام منهجاً لتدبر المصنوع ، لتدرك وجود الصانع ، وقدرة الصانع ، وصفات القادر الذى صنع هذه المصنوعات ، فنحن نصل بالعقل أولا إلى أن هناك الها خالقا لهذا الكون ، ارسل الرسل واقام المعجزات على ايديهم لنصدق بأن هذا النقل الذى جاءوا به حجة .

فالعقل ، هو بداية الإيمان ، وبداية الطريق إلى جوهر التدين ، الذى هو إدراك خالص للواحد الخالق لهذا الكون ، وهذا ماتحدث عنه الإمام محمد عبده كبديهة فى الإسلام .

لكن فى عصور التخلف ، كان الجميع يتوجس خيفة من العقل والعقلانية .

وتحدث الإمام محمد عبده عن منهج النظر فى الكون كسبيل لتحصيل المعرفة فقال :

" ولايقين مع التحرج من النظر ، وإنما يكون اليقين باطلاق النظر فى الأكوان ، طولها وعرضها حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها دون تقييد ، فالله يخاطب فى كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد . والوقوف عند حد فهم العبارة ، مضر بنا ، ومناف لما كتبه علماؤنا من جواهر المعقولات التى تركنا كتبها فراشا للأتربة واكلة للسوس ، فانتفعت به أمم أخرى ، أصبحت الآن تنعت باسم النور ! . والمرء لايكون **مؤمناً إلا إذا عقل دينه ، وعرفه**

بنفسه حتى اقتنع به ، فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن . لانه ليس القصد من الإيمان ان يذلل الانسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه ان يرتقى عقله وتتزكى نفسه ، بالعلم بالله ، والعرفان فى دينه ، فيعمل الخير لانه يعلم أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه ، ويكون فوق هذا ، ذا بصيرة وعقل فى اعتقاده ، فالعاقل ، لايقلد عاقلا مثله ، فأجدر به ألا يقلد من هو دونه " .

ويقول الإمام محمد عبده فى نظرية السببية وهو يتحدث عن مقارنة الاديان :

" إن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد فى كتابهم : ان الإيمان وحده كاف بأن يقول المؤمن للجبل تحول عن مكانك ، فيتحول الجبل ، وجدير بأهل دين تعد الصلاة وحدها كافية فى اقداره على تغيير سير الكواكب ، وقلب نظام العالم العنصرى . وليس هذا الدين هو دين الإسلام ، دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه " وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " " وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... " **وليس من الممكن لمسلم ان يذهب إلى ارتفاع مابين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية ، إلا إذا كفر بدينه قبل ان يكفر بعقله . ان لله فى الأمم والاكوان سنناً لاتتبدل ، وهى التى تسمى شرائع أو نواميس أو قوانين** ، ومايحدث فى المجتمعات البشرية ، هو نظام واحد لايتغير ولايتبدل وعلى من يطلب السعادة فى مجتمع ما ، أن ينظر فى أصول هذا النظام ، حتى يرد إليه أعماله ويبنى عليها سيرته ، وما يأخذ به نفسه ، فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء ، وان ارتفع فى الصالحين نسبه ، واتصل بالمقربين سببه ، فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرر ، أتى

لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لاتتجافى عنه ولاتنفر منه " .

ان كل معجزات الرسل الذين سبقوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزات مادية ، إحياء الموتى ، إبراء الأكمه والأبرص والأعمى ، حية موسى وشق البحر .. إلخ والمعجزة المادية تتميز بخصيصتين : انها مؤقتة ، لأنها معجزة لمن رآها، وأنها تدهش العقل وتبهره ، أى تشله عن القيام بالتفكير .

أما معجزة الإسلام ، فهى معجزة عقلية لاتدهش العقل ، بل تستنفر العقل وتستحثه للنظر والتفكير ، وتحتكم إلى العقل لأنه مناط التكليف ، وهو الذى يميز بين المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم .

ولقد شاعت فى القرآن مصطلحات التدبر والعقل والتعقل والفقه والتفكر ، وهى بمعنى العقل الذى هو جوهر إنسانية الإنسان ، ولان الإسلام هو الرسالة الخاتمة والخالدة ، لم يأت بمعجزة مادية مؤقتة ، بل جاء بمعجزة عقلية خالدة ، وكانت المعجزات المادية أيضا – فى الرسالات السابقة – تقيم البرهان على صدق الرسول ، لكن لاعلاقة لها بطبيعة الرسالة .

أما القرآن ، فهو المعجزة الخالدة ، المتضمنة لمفاهيم ومضامين ومعانى الرسالة ، معجزة تقيم البرهان على صدق الرسول وصدق الرسالة أيضا ، لأن التحدى بهذا القرآن قائم ودائم ، فهذه المعجزة ، تعجز الناس صباح مساء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذه الخصيصة من أهم خصائص المعجزة القرآنية ، وظل التحدى فقط بالمعجزة العقلية ، وهى القرآن ، رغم وجود بعض المعجزات المادية التى ظهرت على يد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقول الإمام محمد عبده عن القــرآن :

" القران ، وهو المعجز الخارق ، دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، فهـو معجزة عرضت على العقل ، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت لـه حـق النظـر فى انحائها ، ونشر مـا انطـوى فـى أثناءهـا . فالإسـلام لايعتمد علـى شـيئ ، سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطـرى ، فـلا يدهشك بخارق للعادة ، ولايغشى بصرك بـأطوار غـير معتـادة ، ولايخـرس لسانك بقارعة سماوية ، ولايقطع حركة فكرك بصيحة الهية " وانما هو وحـى يحتكم للعقل الإنسانى لانه جعل العقل مناط التكليف .

ولـه عبـارة يقـول فيهـا " **لـو رزق اللـه المسـلمين حاكمـاً يعـرف دينـه ، ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم فى إحـدى اليديـن ، وما قرر الأولون وما اكتشـف الأخـرون بـاليد الأخـرى ، وصـاروا يزاحمـون الأوربييـن فـيزحموهم** " . أى أنـه لاتنـاقض بيـن القـرآن وعلـوم الأوائـل والأواخر ، لاننا عندما نتأمل نجد أن القرآن الكريم يعلمنا أن الله أنزل الكتاب والحكمة ... والحكمة هى الاصابة فى غير النبـوة ، أى الصـواب البشـرى ، الذى يأتى به العقل من غير النبوة .

فكأن هناك صوابان ، صواب يأتى به الوحى الالهى ، والله منح الانسان ، عقلا هو سبيل لصواب بشرى . فإذا كان الصواب من الوحى ، والصواب من العقل كلاهما من الله تعالى ، فكيف يتأتى ان يكون هناك تناقض بين الشريعة والعقل أو بين الكتاب والعقل ؟ فما دام الواهب واحد ، وهو قـد سـخر الكتـاب والعقـل لهدايـة الإنسـان ، فليس مـن المعقـول أن يعطـى هدايتيـن ، تتـاقض أحداهما الأخرى .

فليس هنــاك تنــاقض بيـن العقلانيـة المؤمنـة ، وبيـن الوحـى الالهـى

- ـ وليست عقلانية اليونـان والتنوير الغربـى التـى تؤلـه العقـل وتضعـه محـل

الدين – فهؤلاء يرون ، أن العقل نقيض النقل ، أى أن المؤمنين بالنقل مجانين ، هذه عقلانية التنوير الغربى ، أما العقلانية الإسلامية ، فتضع العقل ، والنقل ، والتجربة ، والوجدان (الهدايات الأربع) فى نسق معرفى واحد .

وللإمام محمد عبده كتيب صغير من أنفس ما كتب فى العقيدة فى العصر الحديث ، وهو " **رسالة التوحيد** " وأتمنى من كل دور العلم والتعليم ان تفهم العقيدة الإسلامية من هذه الرسالة الصغيرة ... لان الإمام محمد عبده نظر فى كتب علم الكلام ، وهى مليئة بالصراعات المذهبية ، فنحّى كل هذه الصراعات والمشاغبات ، وقدم العقيدة الإسلامية مُصفاة ، **ولذلك اكتشف ان كثيراً من الخلافات بين القدماء ، كان سببها الصراع المذهبى ، والخلافات حول مضامين المصطلحات** .

فمثلا هناك من **أنكر رؤية الناس لله سبحانه وتعالى يوم القيامة** ، وهؤلاء قالوا : ان الرؤية بالبصر ، ستؤدى إلى أن يكون المرئى متحيزا فى جهة ومكان ، وهكذا . ومن قال بالرؤية ، قال : انها رؤية ليست كرؤيتنا وبأبصار ليست كأبصارنا ، ونفى الجهة والمكانية والجسمية والتميز ، وهى التى خاف منها الذين نفوا الرؤية . أى أنهم فى النهاية متفقون على المحاذير التى يرفضونها ، واتفقوا على ان الله " **ليس كمثله شيئ** " ففيم الاختلاف ؟!

وقضية خلق القرآن ، لم يختلف مسلم على أن الكلام ، كصفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، والمعانى النفسية ، قديم وغير مخلوق . ولم يختلف مسلم على ان الاصوات ، عندما تقرأ القرآن فهى أصوات مخلوقة ، ففيم إذن الخلاف ؟!

الإمام محمد عبده صفى علم العقيدة من هذا الشغب ، فى "رسالة التوحيد" ولذلك وضع أسسا عظيمة فى هذا الكتاب الصغير .

وتجديد الدنيا بالدين :

هذا عن تجديد الدين ، فماذا عن تجديد الدنيا بهذا الدين ؟

عندما تكلم علماؤنا عن الخلافة - التى يسخر منها تلامذة التنوير وعبيد الفكر الغربى - نفهم من كلامهم ان الخلافة هى الدولة الإسلامية ، وسميت الخلافة لأن جماع فلسفة الإسلام هى نظرية الاستخلاف ، فالله استخلف الإنسان لعمران هذه الأرض ، فالحرية هى حرية الخليفة ، والدولة هى دولة الخلافة ، وكما جاء فى الحديث الشريف " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الانبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وانه لا نبى بعدى وانما سيكون خلفاء " .

فدولتنا هى دولة الخلافة ، وهذا لابد ان يكون واضحا وفاصلا بيننا وبين الذين ينظرون شذرا وبسخرية إلى الخلافة ، دولتنا هى دولة خلافة ، والحكومة والسلطة ، لابد ان تكون مستخلفة من الأمة ، فالله استخلف الأمة ، والأمة تستخلف حاكمها ، وكما ان الله جعل الناس خلفاء ، مضبوط تدبيرهم ببنود عقد الاستخلاف ، فلابد ان تكون الدولة المستخلفة عن الأمة ، مضبوطة قوانينها بالشريعة الإسلامية ، التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف الالهى للانسان .

الدولة فى الغرب قد عرفت لونين :

١- الدولة الكهنوتية ، حكم الكنيسة ، وحكم الحق الالهى وفيها الدولة الكهنوتية ، ولاذكر للأمة فيها .. فيها : الله ----> والدولة .

٢- وعندما جاء الحكم العلمانى - كرد فعل للكهنوتية - وجدت أمة ودولة ولاذكر لله فيها ...

أما الدولة فى الإسلام فهى متميزة عن هذا وعن ذاك ، حيث بها (الله فالأمة فالدولة) أى أنها تجمع بين الحاكمية الالهية وسيادة شريعتها ، وبين سلطة الأمة كمصدر للسلطات ، ففيها استخلاف الدولة عن

الأمة . فنظرية الخلافة ليست عبثا ، ولهذا الأمر كان اختيار الخلفاء الراشدين لهذا المصطلح – مصطلح " الخلافة " – بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعلماؤنا مثل ابن خلدون والماوردى قالوا ان " الخلافة " هى لحراسة الدين ولسياسة الدنيا بهذا الدين ، ولابد لهذا الدين ممن يحرسه ويقيم امره لان الله حفظ هذا الدين ، لكن اقامة الدين مسئولية البشر المؤمنين به .

الإمام محمد عبده تحدث عن تجديد الدنيا بالمنهاج الدينى ، حيث كانت هناك مرجعية غربية ، بدأت تزاحم المرجعية الإسلامية ، وظهر اناس ارادوا النهضة بالعلمانية ، بالعقل والتجريب والمصلحة فقط . **والإسلام ليس ضد المصلحة أو العقل ولايبخس الغرب ماجاء به ، وإنما هو يضيف إليه** ، حيث قال الإسلام : **لابد مع وجود العقل والتجريب ، من النقل والوجدان ، فالإسلام يقيم ثقافتنا على ساقين : كتاب الوحى المسطور ، وكتاب الكون المنظور** آيات الله فى نبأ السماء وآياته فى الأنفس والآفاق . وهنا تقوم الثقافة والفكر على ساقين ، على كتاب الوحى وكتاب الكون . لكن الفكر الغربى يقيم المعرفة على أساس الواقع المادى ، ولذا كانت العلْمانية ، نسبة للعالم ، لانهم يرون العالم مكتفيا بذاته ، وكان مفروضا أن تسمّى " العالمانية " . ولا علاقة لها بالعلْم ، وليس العالم عند العلمانيين فى حاجة إلى ماوراء الطبيعة ، **ولذلك فان نقطة البداية فى العلمانية هى عزل السماء عن الأرض ، ويصبح تدبير الدنيا شأنا انسانيا دنيويا ، وليس شأنا الهياً** .

هذه الرؤية العلمانية مرتبطة بنظره فلسفية غربية ، لتصور معين للذات الالهية ، تصور لنطاق عمل الذات الالهية ، حيث العالم مكتف بذاته ، ويدبر بالأسباب المودعة فى هذا العالم ، وليس فى حاجة إلى تدبير الهى ، أو شريعة الهية ، أو قانون سماوى ... لماذا ؟

أرسطو فى تصوره للذات الالهية تصورها كصانع الساعة ، يصنع الساعة ثم يتركها تعمل بنفسها ، فالساعاتى ليس المدبر لهذه الساعة ، لكنه أودع فيها الأسباب التى تدبرها ، وتديرها ذاتيا .. ولذا تصور أرسطو ، الله مجرد خالق للكون ، وليس مدبرا لهذا الكون ... ونفس التصوّر الارسطى هو التصور الوثنى الجاهلى ، فالوثنيون فى الجاهلية لم ينكروا وجود الله كخالق لهذا الكون ، ولكنهم كانوا يلجأون إلى الأصنام لتدبر لهم أمورهم ، أى أنهم جعلوا التدبير للأصنام وليس لله ، مثل الذين يقولون أن الدين لله والوطن للجميع أى أن الدين شئ والوطن شئ آخر .

والعلمانية ترفض أى مدخل للشريعة فى تدبير الكون ، فهى عزل للدين عن الواقع ، وعزل للسماء عن الأرض ، فالعالم مكتف بذاته ، والإنسان سيد الكون .

أما فى الإسلام ، فالإنسان ليس سيد الكون ؛ وإنما خليفة لسيد الكون . ويقول الإمام محمد عبده " **الانسان عبد لله وحده وسيد لكل شيئ بعده** " سخرت له كل ظواهر الكون ، فهو سيد ، لكنه عبد لله وحده .

وفى الإسلام العبودية لله هى قمة الحرية ، لانك كلما أخلصت العبودية لله ، وتحررت من العبودية للطواغيت وللقوى الأخرى ، كانت حريتك ، وكان تحررك ... ، فالإسلام يجمع بين قمة العبودية لله تعالى ، وبين قمة التحرر ، لأنه يرى الله سبحانه وتعالى فى كل شئ .

وهذا هو المنهج الإسلامى ، الذى لا يتصور الله مجرد خالق للكون ، بل هو راعى ومدبر كل شئ فى هذا الكون ولذلك يقول القران " **ألا له الخلق والأمر** " فالله ، لطفا منه ، أرسل الرسل ، وجاء بالشريعه ، كمنهاج ومعالم طريق للانسان .

والامام محمد عبده انتقد المذهب الوضعى والمادى للحضارة الغربية ، وقال " الإسلام هو طريق الاصلاح " وليس الطريق الاصلاحى لاى مرجعية أخرى ، ويقول عن المدنية الغربية " ان هذه المدنية ، مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضه ، مدنية الفخفخه والبهرج ، مدنيه الختل والنفاق ، وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم ، والليرة ، عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل فى شيئ من ذلك " .

فالرجل الغربى يعبد البنك ستة أيام فى الاسبوع ، وفى اليوم السابع ، يذهب للكنيسه وعينه على البنك ! . . وهذا ليس نموذجنا للتقدم ، فالإسلام يقيم التقدم على الوسطية الجامعة ، والعلمانيون يخوفوننا من الإسلام وحكومة الكهانه ، والحكومة الدينية ، وحكومة المشايخ . والتاريخ الإسلامى لم يعرف حكومة الفقهاء ، بل ان الامام مالك ، بعد ان كتب الموطأ ، قال له أبو جعفر المنصور : نجعله قانون الدولة ، فقال له الامام مالك " **أن الموطأ ، هو اجتهاد مالك ، وهناك مجتهدون آخرون** " . هذه هى التعدديه ، وهى سنة من سنن الله تعالى فى الكون ، حيث أن " اجتهاد المجتهد غير ملزم للمجتهد الأخر " وهذا تأسيس للتعدديه ، والله جعل التعدديه فى الشعوب ، والقبائل ، والألسنه من آياته فى الخلق والاجتماع .

والامام محمد عبده يتحدث عن أن التفويض فى السلطه الدينيه ، ليس له أصل فى الإسلام ، فنحن ليس عندنا " كهنوت " أو " رجال دين " بل عندنا " علماء دين " وأى انسان يستطيع أن يكون عالم دين ، والامام محمد عبده يقول " ان الإسلام لم يعرف تلك السلطه الدينيه التى عرفتها اوربا ، فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، وهى سلطة خولها الله لكل المسلمين ، أدناهم وأعلاهم . **والأمة هى التى تولى الحاكم ، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى تخلعه متى رأت**

ذلك من مصلحتها ، ومع ذلك فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه ، ولا يجوز لصحيح النظر ، أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج " ثيوكراتيك " أى سلطان الهى . فليس للخليفة أو القاضى أو المفتى ، أو شيخ الإسلام ، أدنى سلطة على العقائد وتحرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء ، فهى سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامى . فليس فى الإسلام سلطة دينية ، بل ان قلب السلطه الدينيه والاتيان عليها من الاساس ، هو أصل من أصول الإسلام . فالدوله الإسلامية دولة وسطية ، دولة مدنية واسلامية فى ذات الوقت ، والنظام السياسى يضعه البشر ، ومطلوب من النظام السياسى الذى يضعه المسلمون ، أن يحقق المبادئ الإسلامية ، والمقاصد الإسلامية ، **ولذلك فان النظام والآليات والتجارب والمؤسسات هى من وضع البشر ، ولذا فانه من الحكمة ان نستفيد من الغرب الكثير من التجارب مثل النظام النيابى ، والانتخابى ، والحزبى ، لكن هذا " الوعاء " لابد ان نضع فيه " المضمون الإسلامى " الذى يحقق المقاصد الإسلاميه والمبادئ والاحكام الإسلامية .**

واذا كان الإسلام يرفض السلطه الدينيه فهو ليس علمانيا ، بل هو يجمع بين وحى السماء ، والواقع الارضى ، ويقول الإمام محمد عبده " ظهر الإسلام لا روحيا مجردا ولا جسدانيا جامدا ، **بل انسانيا وسطا بين ذلك** " . . فهو ليس نظاما ماديا ، وليس نظاما باطنيا صوفيا ، أى رياضة روحية للخلاص الفردى ، بل هو يجمع بين الاثنين .

" فالإسلام ظهر لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا بل انسانيا وسطا ، بين ذلك ، آخذا من كلا القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطره ، وعرف له ذلك خصومه اليوم ، وعدوه المدرسه الاولى التى يرقى فيها البرابره على سلم المدنية .

ان الإسلام دين وشرع ، فهو قد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام ، إلا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود ، وتمكين حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة . فالإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر ، بل كان من شأنه ان يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده فى عمله ، فكان الإسلام ، كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك "

هكذا عرض الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده لقضية التجديد :

* تجديد الفكر . . وتحرير العقل . . ليتجدد الدين . . .

* وتجديد الواقع والدولة بهذا الدين المتجدد ابدا . . والمستجيب لمستجدات الدنيا ، عبر الزمان والمكان .

انها اشارات ، ورؤس اقلام لهذا الملمح الهام من ملامح مشروع الاحياء الدينى كما تجسد فى فكر الاستاذ الامام .

وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

****

اجابات على أسئلة الحضور :

سؤال عن موقف المسلم من قضايا الأمة المتفجرة :

الجواب : ان التزامنا بالإسلام ، يمثل نقطه البداية ، ولابد من التوعيه وإثارة القضايا الإسلامية مثل البوسنه والهرسك ، والشيشان ، مع أولادنا . هذه المجازر التى تجرى للمسلمين ، تعيد الوعى للامه ، حيث إن كثيرا من الناس لم يكونوا يعرفون شيئا عن البوسنه ، وقد كتب الامام محمد عبده ترجمة لسامى البارودى باشا وقال ان الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ذهب ليحارب فى البوسنه والهرسك وذكر ذلك محمد فريد فى كتابه " الدوله العلية " . . اى ان هناك اعضاء فى جسد الامه فقدنا الاحساس بها ، الآن

يعود لنا الوعى والحس بهذه الاعضاء ، فلابد ان نحول هذا التاريخ **إلى وعى** ، وليس مجرد قراءه وتلقين ، ولابد ان نربى اولادنا على هذه القيم .

* * * * * * * *

سؤال عن الاجتهاد والتجديد فى عصرنا :

الجواب : هناك فارق بين الاجتهاد والتجديد ، وبالتالى فليس أحدهما يغنى عن الآخر . **الاجتهاد** هو استنباط حكم فرعى أو جزئى من أصل . و**التجديد** هو العوده **إلى** الاصول بنفى البدع والخرافات وليس فيه معنى الاجتهاد ، ويمكن ان يرى المجدد المتغيرات ، ويحيلها **إلى** مجتهد ، وهناك علاقه بين التجديد والاجتهاد وهما ليسا متقابلين .

أما حول صعوبة الاجتهاد الآن ، فاننى أرى عكس ذلك ، حيث أن الاجتهاد حاليا أسهل من الاجتهاد فى الماضى ، حيث كانوا فى الماضى يشترطون حفظ بضعه آلاف حديث ، الآن هناك كتب وقواميس ، تغنى عن الحفظ ومن السهل استخراج الاحاديث والآيات فى قضية ما . وفى الماضى كانت بساطة الحياة تجعل إمكانية وجود العالم الموسوعى الذى يحيط بفقه الاحكام وفقه الواقع ثم ينزل الاحكام على الواقع .

الآن اصبحت الحياه معقدة ، واحتاج الأمر إلى بنوك معلومات ومؤسسات .

والآن ، فان الاجتهاد المؤسسى أصبح هو اجتهاد العصر ، وهو الصوره المعاصرة للاجتهاد . والاجتهاد الجماعى ليس مساله مستحدثه ، بل وجدت فى عصر الخلافه الراشده ، وهو سمه من سمات الحضارة الإسلامية ، فالإسلام هو دين الجماعه وليس دين الفرد وليس دين الطبقة . وفى الغرب الذى يحمل رساله التقدم طبقة هى البرجوازيه فى النظم الليبراليه ، والبروليتاريا فى النظم الشموليه ، اما فى الإسلام فان الامه هى التى تحمل

رساله التقدم ، لان الإسلام هو دين إلجماعة ، والتجديد فى الدين الآن هو تجديد حركات ودعوات وليس تجديدا فرديا .

****

سؤال عن الأموال والثروات :

الجواب : تحدث الامام محمد عبده عن المال والثروات فقال :

ان كلمه المال ، اضيفت فى القرآن إلى ضمير الفرد فى سبع آيات ، والى ضمير المجموع فى ٤٧ آيه . وهذا يشير إلى ان الإسلام يجمع بين الملكية الفرديه والتكافل ، لان الناس جميعا مستخلفون فى هذه الاموال ، ويقول " ان الله يريد ان يوجهنا بذلك إلى ان الاموال التى فى ايديكم ليست هى اموالكم على الحقيقة ، وانما هى اموال امتكم وانتم مستخلفون فيها " وهذا هو الموقف الإسلامى من الأموال ، حيث إن ملكيه الرقبه والملكية الحقيقيه فى الأموال لله ، والناس مستخلفون فى هذه الأموال ولهم فيها ملكيه ، مجازيه ملكيه المنفعه .

والنظام الوحيد الذى حقق الملكيه الجماعية وملكية الامه ، هو نظام الوقف الإسلامى ، وليس الاشتراكيه التى قامت على رأسمالية الدوله . اما الوقف فان المال ملك للامه ، ويموّل صناعة الحضارة والعدل الاجتماعى ، وللأسف بدأ الوقف يتقلص الآن .

****

سؤال عن الوحدة الوطنية :

الجواب : نظر الامام محمد عبده فى قضيه الوحدة الوطنيه فقال : " لو وجد خطأ من فرد فى الاقليه لا يجب أن ينسب هذا الخطأ إلى كل الأقلية الا اذا كانت هذه الاقليه مستعمره " . وتحدث عن العلاقه بين المسلمين والاقباط ، وقال انها كانت دائما علاقه ترابط ، وعلاقة محبة ، وقال ان الاقباط ليس لهم

مشكله سياسيه فى مصر ، ولم يكونوا موضع تدخل من الدول الاجنبيه فى مصر ، **لان الاقباط والمسلمين فى مصر ، أمة واحدة ، وشعب واحد ، وثقافه واحدة ، وحضارة واحدة** . فالاختلاف فى العقيده فقط ، والعقيده النصرانيه ليس لها نظام للدولـه ، ومن ثم فالشريعه الإسلامية ليست بديلا لشريعة النصرانيه ، **انما هى بديل للعلمانيه الغربيه** ، ومكرم عبيد يقول " **نحن مسلمون وطنا مسيحيون دينا** " .

والإسلام لا يميز فى الوظائف بين المسلم والمسيحى ، لكن هناك وظائف لها شروط ، مثل رئيس الدوله حيث لـه وظائف اسلاميه بحكم الوظيفه ، فالشروط تفرضها الوظيفة ، وليس العقيدة ، فالعقيدة ليست تمييزا بين مسلم ومسيحى ، بل القضيه اجتماع الشروط التى تتطلبها هذه الوظيفه .

الامام محمد عبده اكد ذلك عندما قال :

" الاقباط أخوه للمسلمين فى الوطنيه ، قامت الأدلـه على التحامهم بالألفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عند الشدة ، ورسخ ذلك فى نفوسهم بالتوارث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك وقوفهم مواقف القتال مع إخوانهم المسلمين ، فى مواطن الحروب ، فى فتنة كريت ، وحروب الحَبَشْ ، والمواقع السودانيه ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم ويؤازرونهم ، فكانوا حربا لمن حاربهم ، وسلْما لمن سالَمهم . وان الخلاف المذهبى لم يُحدث فى بلادنا شقاقا وطنيا فى زمن من الازمان ، ولذلك لا نرى للقبط فى مصر مسألة سياسية تعنى بها دول أوربا ، كما نرى لغيرهم فى غير مصر من المسائل " .

وأنا أرى القلاقل بين المسلمين والمسيحين ، لا تقوم الا فى زمان التدخل الاجنبى ، والغزو العسكرى لمصر . فنحن نريد للأقليات ان يكونوا لبنات فى

جدار الأمن القومى ، وليسوا ثغرات فى هذا الجدار ، وليس لنا لدى الأقليات إلا هذا المطلب أى ان يكونوا معنا فى مواجهة التحديات الخارجيه .

أما من يوالى الخارج فانه يضع نفسه فى مواجهة أمته ، وهذا وبال عليه قبل ان يكون وبالا على الأغلبية ، وهذا هو جوهر القضية .

فأمن الامة هو الأهم ، وبمنطق الديمقراطية ، فإن الشريعه هى قانون الأمه ، لان الديمقراطية هى حكم الاغلبية ، وفى مصر ٩٤٪ مسلمون ، اى ان الشريعه يمكن ان تأتى بالانتخاب وبحقوق الإنسان وليس بالدين .

وعلى الاقليات ان تلتمس أمنها وأمانها وحقوقها فى مشروع الاغلبيه ، لانه مشروعها وهى جزء من هذه الحضاره ومن هذه القوميه والثقافه واللغه والوطن ، فنحن أمه واحده .

ولم يرد فى تراث الإسلام حديث عن الاقليات ، فنحن أمه فيها ملل وأقوام ، أى هناك أمة واحدة ، وتعددية داخلها حافظ عليها الإسلام .

واختتم حديثى هذا بالقول : ان الامام محمد عبده توفى سنه ١٩٠٥ ، لكنه ترك مدرسة فكرية حملها صاحب المنار - الشيخ رشيد رضا - على امتداد اربعين عاما ، وكانت مدرسه الاجتهاد والتجديد فى العالم العربى والإسلامى ، وإن كثيرين من أعلام علمائنا هم تلامذة مباشرون للامام محمد عبده ، مثل المراغى ومصطفى عبد الرازق ، وشلتوت . . وأبرز عقول علمائنا كان بينهم وبين مدرسة ، محمد عبده رابطة ، لذلك فعطاؤه مازلنا نعيش فى إطاره ، ونتمنى من الله أن يحمى هذا الفكر المستنير " فالله نور ، والرسول نور ، والقرآن نور ، والحكمه نور . . " فالمستنير بها هو الذى تحصل له الاستنارة الحقيقية .

فمدرسة محمد عبده هى مدرسة الاستنارة الإسلامية الحقيقية ، ومدرسة الاجتهاد والتجديد ، وعلينا ان نكون الامتداد المتطور لهذه المدرسة ، لأن أمامنا مهام لم تكن فى عصر محمد عبده ، وعلينا ان نكون الامتداد المتطور لمحمد عبده ، وعلينا أن نكون خير خلف لخير سلف .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

والسلام عليكم ورحمه الله وبزكاته .

المحاضرة السادسة

عوامل نهوضنا الاقتصادى
بين تجارب الماضى وتطلعات المستقبل في ضوء التوجه الإسلامى

الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد

١٣ مارس ١٩٩٥م

١٢ شوال ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

من اليمين : المستشار عبد الخالق شهيب فالوزير احمد على كمال فالمهندس إبراهيم شكرى

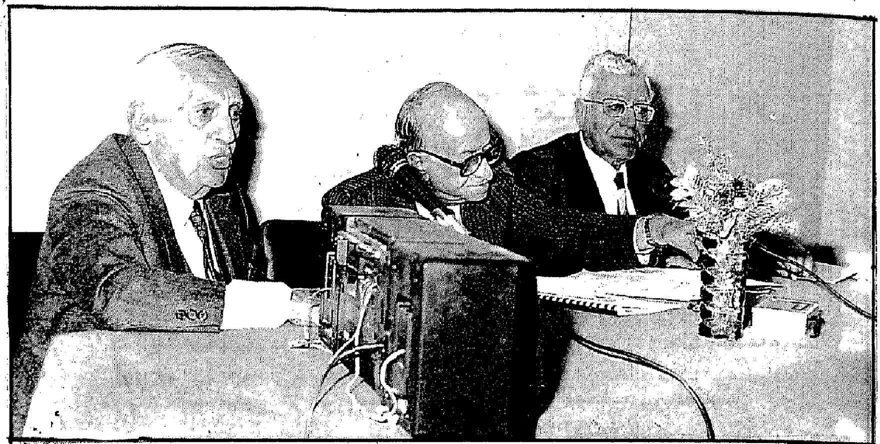

على المنصة : المحاضر الاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد وعلى يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره د
المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد :

هو أولا رجل القضاء السابق ، حيث عمل عقب تخرجه وكيلا للنيابة العامة سنة ١٩٤٢ .

ثم هو ثانيا الاستاذ الجامعى ، حيث عمل عقب حصوله على الدكتوراه من فرنسا ، مدرسا بكلية حقوق الاسكندرية سنة ١٩٤٩ ، ثم استاذ الاقتصاد بكلية حقوق عين شمس منذ سنة ١٩٥٠ .

ثم هو ثالثا رجل الادارة والوزارة ، حيث عمل وكيلا لجامعة القاهرة سنة ١٩٦٤ ومديرا لجامعة عين شمس عام ١٩٦٨ فوزيرا للتربية والتعليم ، ثم انتخب رئيسا لاتحاد الاقتصاديين العرب سنة ١٩٦٩ .

ثم هو أخيرا رجل العلم العالمى ، حيث اختير مديرا لمركز الامم المتحدة للمالية العامة والادارة ببيروت سنة ١٩٧٢ ، ودعى استاذا زائرا لعديد من

الجامعات العربية والاسلامية ، ومشاركا فعالا فى مختلف المؤتمرات الاقتصادية العربية والدولية ومؤتمرات البترول .

ولقد كرمته مصر بمنحه أعلى تقديراتها العلمية وهى جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية سنه ١٩٧٣ .

هذا هو محاضرنا الاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد رجل القضاء العادل ، والأستاذ الجامعي غزير التأليف ، والوزير المخلص المنجز ، والرجل العالمى المعطاء ... **وهو مع كل ذلك انسان يتسم بتواضع شد** ... وهو شخصية فرضت احترامها وتقديرها على الجميع ... وهو فى الخلاصة قدوة طيبة وثروة قومية يعتز.ويفخر بها كل مصرى .

واذ شاء أخيرا.أستاذنا الدكتور / محمد حلمى مراد التفرغ للعمل السياسى ، وأن يقوم بدور المعارضة ، فهو أمر ضرورى ولا غنى عنه فى دولة الشورى والديمقراطية ، وهو فى ذات الوقت عبء كبير ، لا تقدر عليه سوى النفوس الكبيرة .

فلا أملك فى هذا المقام الا أن أتوجه الىالله تعالى داعيا له بالصحة والعافية ، مذكرا بقانون الحياة بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأن جزاءه الحقيقى عند الله ((ولسوف يعطيك ربك فترضى)) .

هذا ولا يفوتنى فى هذا المقام ، أن أذكر انه حين أسْند إلىّ مجلس ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية مسئولية تنظيم وادارة موسمها الثقافى هذا العام ، رحب بالمشاركة كل من اتصلت بهم من السادة العلماء . والوحيد الذى اعتذر هو استاذنا الدكتور محمد حلمى مراد ، مبديا انه اليوم يمثل المعارضة ولا يريد أى احراج للجمعية . ولم يقبل الاستاذ الدكتور محمد حلمى مراد ، دعوتى لهذه المحاضرة الا بعد أن أوضحت له ان مطالبتى له بالمشاركة فى هذا الموسم الثقافى ، هو بصفته العلمية وأنه كبير الاقتصاديين المصريين

والعرب على السواء ، وانه بالرغم مـن همومـه الوطنيـة ومشـاغله القوميـة ، مازال يباشر وظيفته استاذا غير متفرغ بجامعة عين شمس ، بحيث لا يضـن علينا بمحاضرة علمية بالرغم من تمثيله للمعارضة ... ومذكرا اياه ، انـه فـى مجـالس ادارة الجمعيـة الخيريـة الاسـلامية السـابقة ، كـان يجلـس سـعد باشـا زغلول مع عدلى باشا يكن ، والامام محمد عبـده والامـام مصطفـى المراغـى مع طلعت حرب باشا ولطفى باشا السيد ، **وانه بالرغم من اختلاف توجهاتهم السياسية كانت تجمعهم جميعا الرغبة فـى الخـير ، والمسـارعة فـى الخدمـة العامة .**

هذا ولا يفوتنى أيضا فى هذا المقام ، أن أذكـر أن للاسـتاذ الدكتـور محمـد حلمى مراد ، فضـلاً على الجمعيـة الخيريـة الاسـلامية ، لا يذكـره ، ذلـك انـه كـان وزيـر التربيـة والتعليـم الوحيد ، الـذى اسـتجاب لرجـاء الجمعيـة فـى الاعتراف رسميا بشهادة مدرستها الصناعية الثانوية للبنات بحلوان .

ما تقدم هو قليل من كثير كنت أريد أن أقدم به محاضرنا ، لولا أن أبعـاده وأفضالـه كثيرة لا تحصـى ، كمـا ان وقـت المحاضرة محـدود . فـأعود الـى موضوع المحاضرة وهو ((عوامل نهوضنا الاقتصادى بين تجارب المـاضى وتطلعات المستقبل فى ضوء التوجه الاسلامى)) .

واذ استشـعر صعوبـة وعمـق وأهميـة هذه المحـاضرة ، الا أننـى اشـعر بطمأنينة ، باعتبار استاذنا الدكتـور محمـد حلمـى مراد هو فارسـها ، وأنـه سيكشف لنا عن الكثير من الحقائق والتحليل العلمى ووضوح الرؤيـة ، فهـو صاحب كتاب " أصول الاقتصاد " ، وهـو فـى ثلاثـة أجـزاء . بالاضافـة الـى مؤلفاتـه الاخـرى العديـدة ككتابـه " المذاهـب والنظـم الاقتصاديـة " وكتابـه " التعاون من الناحيتين المذهبية والتشريعية " وكتابه " قانون العمل والتأمينـات الاجتماعية " وكتبه العديدة فى المالية العامة والضرائب وغيرها مما أثرى

به الفكر الاقتصادى والمالى ، ورشّد وعمق بها مفاهيمنا الاقتصادية والمالية .

فمرحبا بأستاذنا الدكتور محمد حلمى مراد ، محاضرا فى الموسم الثقافى للجمعية الخيرية للاسلامية . . وشكرا جزيلا لسيادته ، وجزاه الله تعالى عن جيله والأجيال المستقبلة خير الجزاء .

وليتفضل سيادته ليمتعنا ويسعدنا بمحاضرته .

كلمة الاستاذ الدكتور / محمد حلمى مراد

بسم الله الرحمن الرحيم

الأساتذة الأجلاء :

أخوتي وأبنائى الأعزاء :

قبل أن أبدأ حديثى ، أجد لزاما على التقدم بخالص الشكر الى الجمعية الخيرية الاسلامية على هذه الدعوة التى تفضلت بتوجيهها الى شاكرا للأخ الاستاذ رشاد المراغى ممثل مجلس ادارة الجمعية على كلمته التى حيانى بها ، داعيا المولى عز وجل أن يمتعه بالصحة ، وأن يديم مابيننا من مودة .

ولا أستطيع أن أوفى الاخ العزيز الاستاذ الدكتور محمد شوقى الفنجرى حقه من التحية ، والعرفان لتفضله بعرض تاريخ حياتى بدقة أعجز شخصيا عن القيام بها راجيا أن أكون عند حسن ظنه وأمثاله على الدوام .

كما أقدم له وافر الشكر على تفضله بإختيار موضوع هذه المحاضرة التى دعانى لتناوله بالحديث وهو موضوع رحب الآفاق ، متعدد الجوانب ، خاصة اذا رجعنا به الى الماضى البعيد وامتد الى تطلعات المستقبل وتمت معالجته فى ضوء أحكام الشريعة الاسلامية .

ومن هنا فإننى ارجو المعذرة اذا بدا حديثى فى بعض الجوانب مركزا أو موجزا خاصة مع الحرص على مراعاة الالتزام بالفترة الزمنية المحددة للمحاضرة .

ولما كان موضوع المحاضرة يتناول دراسة نهوضنا الاقتصادى بين تجارب الماضى وطموحات المستقبل ، فإنه يتعين علينا أن نحدد بادئ ذى بدء ما نقصده بالنهوض الاقتصادى حيث أن الرؤية الاقتصادية تتناول العديد من الجوانب التى تشمل النشاط الاقتصادى من حيث نوعياته المتعددة ، والعوامل الطبيعية والمكتسبة التى تؤثر فى هذا النشاط ، والادارة الاقتصادية من حيث اسلوبها فى العمل وشرائط نجاحها ، والمذاهب الاقتصادية المختلفة التى تحكم سير الحياة الاقتصادية ، والسياسات الاقتصادية التى تنتهجها الدول فى هذا المجال الى غير ذلك من الجوانب الاقتصادية المتعددة .

وسوف نقصر حديثنا على تقييم أوضاعنا الاقتصادية فى الحقبة الحديثة من تاريخنا لنتعرف الى أى مدى استطعنا ان نحقق ما يمكن أن نصفه بالنهوض الاقتصادى خلالها ، ولنستخلص العبر التى تعيننا على تحقيق التقدم الاقتصادى المنشود فى مقبل الايام ، وهو ما يقتضينا أن نبين أولا وفى ايجاز شديد مقومات النهوض الاقتصادى المستخلصة من واقع تجارب الحياة العملية .

مقومات النهوض الاقتصادى :

يقوم النهوض الاقتصادى على عدة مقومات مستفادة من الممارسة العملية لسياسات اقتصادية تتخيرها القيادة المسئولة ، وتقوم على تنفيذها ادارة اقتصادية ، مستعينة فى ذلك بعمل فنى على مستوى عال من الكفاءة يضم التخصصات المطلوبة . وهذه المقومات ذات التأثير فى نجاح السياسات المختارة أو اخفاقها يمكن تقسيمها إلى أربعة مقومات أساسية :

أولا – المقوم الانسانى :

يعتبر الانسان هو صاحب الفكر الخلاق المحقق للتطور الاقتصادى المنشود ، كما أنه صاحب اليد العاملة المنفذة لما يخلص اليه ذلك الفكر ، وهو فى النهاية " الغاية " المقصودة من إحداث هذا التطور ، تمكينا من وصوله الى حياة أفضل .. ومن هنا فانه لا يمكن لأى مشروع اقتصادى أن يحقق نجاحا ، ما لم يؤمن الشعب بنفعه ، ويقبل بحماس على إخراجه الى حيز الوجود ، ويحرص بالتالى على الحفاظ عليه ، وتطويره ، والارتقاء به .

ويقتضى تحقيق هذا المقوم الانسانى ، توفير حياة اجتماعية آمنة قوامها التكافل الاجتماعى ، وتحقيق الخدمات التعليمية والصحية الكفيلة بتقدم الانسان ، وتيسير سبل الاستمتاع بحياة هانئة رغدة ، وحماية البيئة من التلوث المهدر لسعادة البشر . فلا نهوض اقتصادى بدون فكر علمى متخصص ، وجهد صادق لوضعه موضع التطبيق العملى ، وبدون الاستمتاع بثماره مما يعتبر حافزا على استمراره وتقدمه .

ثانيا – المقوم الاجتماعى :

كما يتوقف نجاح أية استراتجية اقتصادية وتمسك المجتمع بها والدفاع عنها وتطويرها ، **على مدى ما تحققه لأعضاء هذا المجتمع من الاستمتاع بالأمان والاستمرار بحيث ينعم أفراد المجتمع بحياة خالية من النقائض والمتاعب ، والفساد والانحراف ، والفقر والجوع ، وإلا نفروا منها ، وعملوا على هدمها ، وبحثوا عن بذيل لها .**

ثالثا – المقوم الوطنى :

ويقصد بهذا المقوم أن تتصف الاستراتيجية الاقتصادية بإستهداف إقامة صرح قوى للاقتصاد القومى بحيث يستطيع ان يقاوم عواصف الزمن ، ويصمد أمام الاحداث ، **وأن يكون قادرا على التصدى لعدوان الطامعين**

والمعتدين ، وأن يحقق الاستقلال الاقتصادى للبلاد القائم على " الاعتماد على الذات " .

رابعا – المقوم الإيمانى :

ويتجلى هذا المقوم فى تحلى القائمين بالعمل الاقتصادى **بالايمان بأن المال الذى يقومون بتشغيله – وهو عصب العمل الاقتصادى – هو مال الله سبحانه وتعالى ، وأن الانسان مستخلف فيه أى أنه يديره بالنيابة أو الوكالة عن المولى جل وعلا أو مستخلف فيه من الخالق الذى يعطى الملك لمن يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء** . . وعلى ذلك فإنه مطالب فى القيام بعمله أن يرعى الله ويتبع التعاليم التى جاء بها الشرع حتى يكون جديرا بالاستخلاف عن الله سبحانه وتعالى فى ادارة هذا المال .

وقد اعتبر الاسلام " التقوى " عنصرا هاما من عناصر الانتاج . . ويقصد بذلك ابتغاء وجه الله تعالى ومراعاته وخشيته فى كل ما يزاوله من نشاط اقتصادى . ومكافأة هذا العنصر ، تتجلى فى النماء ، وسعة الرزق فى الحياة الدنيا ، وفى ذلك يقول المولى فى محكم تنزيله " لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون " . (سورة الاعراف – ٩٦) .

ان استكمال توفر هذه المقومات فى الاستراتيجية الاقتصادية التى تتبناها أى دولة من الدول هى الضمان لنجاحها فى تحقيق أهدافها ، والتطور بها على الدوام بما يحقق الأمال المعقودة عليها فى توفير الخير والنماء لصالح الأمة والبشرية جمعاء .

فى ضوء هذه المقومات ننتقل الى استعراض أهم معالم تطورنا الاقتصادى فى العصر الحديث بدءا من تجربة محمد على باشا ثم تجربة

الزعيم الاقتصادى طلعت حرب فى أعقاب الحرب العالمية الاولى حتى تجربة " الخصخصة " الجارية حاليا – مارين مرورا سريعاً بتجربة الاشتراكية فى عهد جمال عبد الناصر ثم التحول إلى الانفتاح الاقتصادى فى عهد أنور السادات ، موضحين أهم خصائص كل منها ، وما حققته هذه التجارب من نتائج وما تعرضت له من عوائق ومتاعب ، لكى نستخلص الدروس والعبر التى ننتفع بها فى تطوير أوضاعنا الاقتصادية مستقبلا .

أولا : تجربة محمد على باشا

النهوض الزراعى لمصر انتفاعا بخيرات النيل

تولى محمد على باشا الكبير حكم مصر فى العصر الحديث بصفته واليا ممثلا للخلافة الاسلامية القائمة فى تركيا ، ثم استقل بحكمها وأصبح رأس الأسرة المالكة فى مصر قبل أن تصبح جمهورية عقب قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .

وقد نهض بمصر نهضة اقتصادية مرموقة لازلنا نفيد بخططها ومعالمها حتى وقتنا الحاضر ... وان كان ذلك لا يعنى أنه لم يكن له قدرات أخرى تجلت فى المواقع الحربية التى أدارها خلال الحملات العسكرية التى قادها فى المنطقة . . كما أن ما سنتحدث بشأنه من ناحية خططه الاقتصادية الفعالة لا يعنى أن عهده قد خلا من كل المثالب والمآخذ من حيث أسلوبه فى الحكم أو مطامعه التوسعية فى المنطقة ، اذ أن حديثنا يقتصر على المجال الاقتصادى لاستخلاص الدروس والعبر التى يمكن الانتفاع بها فى النهوض ببلادنا اقتصاديا .

أدرك محمد على باشا ، أن مصر تمتلك ثروة طبيعية وهبها لها المولى سبحانه وتعالى ، واستخلف أهلها فيها لاستثمارها أفضل استثمار مع

خصوبة أرضها . وجريان مياه نهر النيل فيها من جنوبها الى شمالها للانتفاع بهذه النعمة الربانية .

فعني محمد على بمد الرياحات ، وشق الترع ، التى تتخلل دلتا النيل ، ولازلنا نعتمد عليها فى رى أراضينا ، ولم نضف اليها منذ ذلك الحين الا القليل .

وقد أقام أول قناطر على مجرى النيل وهى " القناطر الخيرية " التى تقع على ملتقى فرعى النيل : فرع رشيد وفرع دمياط .

وعنى بإستزراع بعض المحاصيل التى جلبها من الخارج ونجح فى استزراعها ... وكان فى مقدمتها " القطن " الذى نجحنا فى انتاجه ، وأصبح المحصول الرئيسى للبلاد ، وعاد على الفلاح المصرى بالخير الوفير ، بحيث استحق أن يطلق عليه اسم " الذهب الأبيض " وأصبح الفلاح المصرى يعتمد عليه وينتظر موسم جنْيه ، لكى يحقق من الربح الذى يحصل عليه مايتطلع إليه من بناء دار لأسرته ، وتزويج أولاده ، وحج بيت الله .

وان كان الاعتماد على محصول رئيسى وحيد ، من شأنه تعريض الاقتصاد القومى للخطر اذا أصيب بسبب من أسباب الكساد .

ويعتبر النهوض الاقتصادى الذى حققه محمد على هو حسن اختيار المجال الذى تستثمر فيه الأموال بحيث تأتى بالثروة المرجوة ويمكن التعويل عليها دون أن تخضع لسيطرة الغير أو تفشل لسبب خارج عن ارادته وليس نتيجة الاهمال أو التقصير .

واذا قارنا ما قام به محمد على باشا من المشروعات ، بما أقامه خلفه ، نجد أن الخديو اسماعيل أقام الكثير من المشروعات الحضارية ، ذات الصبغة الغربية والمتسمة بالروح العصرية ، أضاع فيها ثروة مصر واستدان بسببها من الخارج ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى التدخل الأجنبى فى شئون البلاد

واحتلالها عسكريا . فقد أنشا دار الاوبرا التى احترقت ، وقمنا بإقامة بديل لها ... وافتتح قناة السويس بحفلة عالمية دعا اليها ملوك وملكات العالم ، وأقام شارعا يؤدى الى موقع أهرام الجيزة ، باعتباره مشروعا سياحيا ، وأنشا حديقة الحيوان .

وهكذا أضاع الخديو اسماعيل أموال البلد ومستقبلها ، نتيجة سوء إختيار المشروعات التى تنفق عليها أموال البلاد ، بلا ثمرة مجدية تحقق المستقبل المأمول ، وتحل مشاكل الناس حلا جذريا ، مما أدى إلى إحتلال مصر عسكريا ، وتمكين الأجانب من التدخل فى شؤوننا الداخلية . . وظل هذا الوضع ردحا طويلا من الزمن ، حتى شاء المولى أن توفق الأمة وحكومتها فى إزالة هذه الغمة ، وتسترد البلاد استقلالها الذى اعتدت عليه قوى البطش والعدوان الأجنبية .

ثانيا : تجربة طلعت حرب

تحقيق الاستقلال الاقتصادى لمصر اعتمادا على مواردها وجهودها الذاتية

أما التجربة الثانية التى سنتناولها بالحديث فهى تجربة أحد رجالات الجمعية الخيرية الإسلامية – التى نتحدث فى رحابها – **وهو المغفور له الزعيم الاقتصادى الوطنى محمد طلعت حرب ، أحد المشاركين فى تأسيسها والمساهمين فى نشاطها حال حياته .**

فقد أدرك طلعت حرب بحسه الوطنى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أن مصر فى حاجة الى تحرك وطنى ، وتجلى صدق حسه باندلاع ثورة الشعب ضد الاحتلال البريطانى فى عام ١٩١٩ ، وبدء تطلع المصريين الى بناء مصر المستقلة الحديثة التى تعتمد على نفسها فى تيسير أمورها ، وتتخلص من السيطرة الاجنبية على ادارة شئونها .

ولما كان القطن يمثل وقتئذ المحصول الرئيسى للبلاد الذى يرتكز عليه صرح اقتصادها الوطنى ، وتكاد تحتكر بريطانيا شراءه لتشغيل مصانع الغزل والنسيج فى انجلترا لانتاج المنسوجات القطنية التى كانت تسيطر على تجارتها فى سائر أنحاء العالم ... وكانت البنوك الاجنبية تحتكر تمويل زراعته ، وتجارته فى مصر ، وتصديره للخارج مستغلة الفلاح المصرى ، ومسيطرة على ثروة البلاد العقارية الزراعية ، . . فقد رأى طلعت حرب أن يتخذ من القطن - باعتباره المحصول الرئيسى الذى يقوم عليه الاقتصاد الوطنى - محورا لتحقيق استقلال البلاد الاقتصادى .

وبدأ طلعت حرب تحركه بإنشاء بنك وطنى يقوم على أموال المصريين وحدهم ، فتم تأسيس " بنك مصر " فى السابع من مايو عام ١٩٢٠ برأس مال مصرى مائة فى المائة ، ممثلا فى أسهم إسمية لا يملكها الا المصريون ، وتتم معاملاته المصرفية باللغة العربية ... ولكنه لم يجعل منه مصرفا للمعاملات التجارية فحسب ، بل قاد به ثورة اقتصادية ، مستخدما مالديه من أموال فى العديد من المجالات المتعلقة بزراعة القطن ، وتجارته ، وتصنيعه . فوضع نظاما لتمويل مستلزمات الانتاج الزراعى ، وتوفير السيولة النقدية لتجار القطن فى الريف ، ثم عمد الى اقامة مجموعة مشروعات تحقق التكامل بين مشروعات الصناعات القطنية : فأنشأ شركات لحلج الأقطان ، ونقلها ، وغزلها ، ونسجها .. ولا زالت شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى خير شاهد على دوره المجيد فى هذا الميدان . . واتجه فى ذات الوقت الى ميدان التجارة الخارجية للغزل والنسيج ، حيث استطاعت المنسوجات القطنية الرفيعة التى اشتهرت بها المنسوجات المصرية كالبوبلين والتريكولين أن تغزو الأسواق الأوربية والامريكية ، وأن تحمل

المستهلك على الافتخار بارتدائه قميصا مصنوعا من القطن المصرى الرفيع المستوى .

ثم اتجه طلعت حرب الى انشاء المشروعات المتعددة التى تغطى احتياجات الشركات التى قامت أساسا على خدمة القطن فى كافة المراحل من زراعته وحلجه ، وغزله ، ونسجه ، وإلى نقله ، وتمويله ، والاتجار فيه – وذلك بالقيام على انتاج مايلزم لها من إحتياجات ، كالمطبوعات ، والتأمين ضد المخاطر التى قد تتعرض لها ، والملاحة بحرية لنقل مستلزماتها من الخارج أو نقل منتجاتها اليه ، وفنون عرض واعلان للدعاية لمنتجاتها لتشجيع الاقبال عليها من كل ما ينتج عنها أو يتخلف منها .

كما أنشأ شركة مصر لتجارة الزيوت المستخلصة من بذرة القطن ، وشركة مصر للمستحضرات الطبية التى بدأت بانتاج القطن الطبى والأقمشة اللازمة للملابس الطبية ولوازم المستشفيات من المنسوجات كالأغطية وغيرها ... ، **إلى غير ذلك من توسعات انشائية بعدت عن مجال الارتباط بالقطن الى التوسع الانشائى فى كل ما تبدو حاجة البلاد اليه أو تبدو منفعة منه ولو لم يتصل بالقطن اتصالا مباشرا ، مثل إنشاء شركة مصر للتمثيل والسينما ، ومصايد الأسماك ، بحيث بلغ عدد الشركات التى أسسها ، اثنين وعشرين شركة تحمل جميعها اسم " مصر " . وفيما يلى بيان بأسماء هذه المشروعات وتاريخ تأسيسها :**

اسم الشركة	تاريخ التأسيس
مطبعة مصر	١٩٢٢
شركة مصر لحلج القطن	١٩٢٤
شركة مصر للنقل والملاحة	١٩٢٥
شركة مصر للتمثيل والسينما	١٩٢٥

شركة مصر للغزل والنسيج	١٩٢٧
شركة مصر لمصايد الاسماك	١٩٢٧
شركة مصر لنسيج الحرير	١٩٢٧
بنك مصر – لبنان	١٩٢٩
شركة مصر لتصدير الأقطان	١٩٣٠
شركة مصر للطيران	١٩٣٢
شركة بيع المصنوعات المصرية	١٩٣٢
شركة مصر للتأمين	١٩٣٤
شركة مصر للملاحة البحرية	١٩٣٤
شركة مصر للسياحة	١٩٣٤
شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع	١٩٣٨
شركة مصر لأعمال الاسمنت المسلح	١٩٣٨
شركة مصر لصباغى البيضا	١٩٣٨
شركة مصر للمناجم والمحاجر	١٩٣٨
شركة مصر للصناعة وتجارة الزيوت	١٩٣٨
شركة مصر للمستحضرات الطبية	١٩٤٠
شركة مصر للحرير الصناعى .	١٩٤٦

كما وجد طلعت حرب أن التجار الأجانب – خاصة اليهود منهم – يتحكمون فى السوق التجارى ، ويملكون أكبر المتاجر الكبرى لبيع الأقمشة والملابس الاجنبية ، فكان قراره بانشاء " شركة بيع المصنوعات المصرية " لتؤدى دورا وطنيا فى الترويج للمصنوعات المصرية التى لم يكن لها مكان بين تلك المحلات الاجنبية واليهودية من أمثال محلات شيكوريل و هانو

وأوركو وجاتينيو وبنزايون وصيدناوى وداود عدس وشالون ... فتكاتفوا ضده وعملوا على محاربته .

غير أن من دواعى الأسف أن بدأت بوادر الصدام العالمى الذى سبق نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وأحدث ذلك ذعرا لدى أصحاب رؤوس الاموال ، أدى الى اقدامهم على سحب رؤوس أموالهم من البنوك ، ومن بينها بنك مصر ، الذى لم يكن يحتفظ لديه بإحتياطى نقدى كاف لمواجهة طلبات السحب المتزايدة ، واضطر بنك مصر للتقدم بالاقتراض من البنك الاهلى الذى كان يقوم بوظيفة البنك المركزى أى بنك البنوك المنوط به مراقبتها ومساندتها عند تعرضها للمتاعب بضمان ما يملكه من أوراق مالية ، إلا أن المحافظ الانجليزى للبنك الاهلى رفض الاستجابة لمطلبه ، كما رفض وزير المالية المصرى ايقاف سحب ودائع صندوق التوفير الحكومى من بنك مصر !! **وفطن طلعت حرب الى أنه هو المقصود من وراء هذا الموقف ، وأن تخليه عن موقعه قد يجنب بنك مصر الوقوع فى المكروه ، فقدم استقالته الى مجلس ادارة البنك فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ .**

وعندئذ تدخلت الحكومة المصرية لإنقاذ بنك مصر . . . وظل البنك وأغلب شركاته التى نشأت فى ظله ، قائمة ترمز الى مرحلة من مراحل النضال الوطنى من أجل اقامة صرح اقتصادى وطنى يحمى البلاد من استنزاف خيراتها لصالح قوى أجنبية مهيمنة فى ظل الاحتلال البريطانى الذى كان جاثما على أرضها .

وقد ترك طلعت حرب لنا من بعده تجربة اقتصادية نعتز بها ، ونستفيد مما حققته من مشروعات ناجحة لازالت تحقق الخير الكثير لمصر وبنيها طالما كانت تحرص على رعايتها بالدعم والتحديث .

وعلينا فى نفس الوقت أن نأخذ العبرة مما حل بهذه التجربة من أسباب عرضتها للمخاطر وفى مقدمتها التوسع والتنوع غير المحسوب فى المشروعات الملحقة بها ، دون تحوط من المخاطر التى يمكن أن تتعرض لها ، الامر الذى يقتضى اتخاذ الاجراءات اللازمة لمواجهتها فى أقرب وقت ممكن خاصة بالنسبة للمشروعات المالية التى تتطلب الاحتفاظ بالسيولة اللازمة لمواجهة متطلبات السحب الفورى لأموال المودعين كالبنوك التجارية على خلاف الوضع بالنسبة لأنواع أخرى من البنوك كالبنوك الصناعية والعقارية .

كما يستفاد من هذه التجربة أن التركيز الشديد فى ادارة المشروعات المتعددة مع تنوعها فى التخصص ووجودها فى قبضة يد واحدة سواء كانت يد صاحب عمل مسيطر أو مؤسسة قابضة ، من شأنه أن يؤدى للوقوع فى أخطاء سوء التقدير أو عدم الإلمام بكافة صنوف المشاكل المتوقعة ، **الامر الذى يتطلب عدم تجاوز الحجم الأمثل للمشروعات المدارة مع محاولة الاستفادة من تنوع الافكار والحلول ، وتباين وجهات النظر فى التوقعات والاحتمالات المستقبلية تفاديا للتعرض للكوارث والمفاجآت الاقتصادية .**

ثالثاً – تجربة جمال عبد الناصر

التجربة الاشتراكية للنهوض الاقتصادى بمصر

عندما تحرك الجيش المصرى فى ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢ ضد النظام الملكى القائم وقتئذ والذى كان يتربع على رأسه الملك فاروق الاول (سليل أسرة محمد على باشا الكبير) بقيادة اللواء محمد نجيب ، معلنا على الشعب المصرى الأهداف الست للحركة ، التى تتلخص فى : القضاء على الاستعمار وأعوانه ، والقضاء على الاقطاع ، والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس

المال على الحكم ، واقامة جيش وطنى قوى ، واقامة عدالة اجتماعية ، واقامة حياة ديمقراطية سليمة – رحب شعب مصر بقيامها ، وسرعان ما وجهت الثورة انذارا إلى فاروق بالتنازل عن العرش ، فقام بتوقيع وثيقة التنازل لإبنه الامير أحمد فؤاد ، وغادر البلاد فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ثم لم يلبث أن صدر عن مجلس قيادة الثورة إعلان دستورى بتاريخ ١٨ يناير ١٩٥٣ بإلغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية .

وقد كان اقتصاد مصر عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو يقوم أساسا على الزراعة ، ولم يكن للصناعة إلا أهمية ثانوية غير مؤثرة فى الهيكل الاقتصادى العام للبلاد ، وكانت العلاقات الاجتماعية فى قطاع الزراعة متردية اذ كان أكثر من نصف المساحة الكلية للأراضى الزراعية مملوكا لأفراد لا يتجاوز عددهم سبعين ألفا ، وكان الجزء الباقى موزعا بين ملاك لا يزيد عددهم على مليون ونصف من الأنفس ، بجانب الملايين العديدة الذين لا يملكون من تراب وطنهم شيئا . . . **وسرعان ما تحركت الثورة لمعالجة هذا الوضع ، فصدر قانون الاصلاح الزراعى لسنة ١٩٥٢** بعدم جواز تملك أى شخص من الأراضى الزراعية لما يزيد على مائتى فدان ، وعدم جواز زيادة جملة ما يملكه الشخص وزوجته وأولاده القصر على ثلثمائة فدان ، بحيث يجرى توزيع الاراضى الزائدة المستولى عليها ، على صغار الفلاحين حتى يكون لكل منهم ملكية صغيرة لا تقل عن فدانين ولا تزيد على خمسة أفدنة وفقا لجودة الأراضى . . . وقد تلا ذلك بعض التعديلات الجزئية فى هذا القانون .

هذا وقد اشتد الخلاف بين اللواء محمد نجيب وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة بزعامة البكباشى جمال عبد الناصر ، وإنتهى بتنحية الأول وإختيار جمال عبد الناصر قائدا للثورة ، فرئيسا للجمهورية ... **ووجه الرئيس عبد**

الناصر اهتمامه للصناعة ، واعتمد برنامج خمس سنوات لتصنيع البلاد عام ١٩٥٧ يتضمن اقامة ١٢٥ مشروعا صناعيا فى عدد من مجالات الانتاج ... ثم بدأ صدور سلسلة من التشريعات لتأميم نوعيات معينة من المشروعات الاقتصادية اعتبارا من ٩ يوليو ١٩٦١ حتى طرح فى ٢١ من مايو ١٩٦٢ على المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ميثاقا للعمل الوطنى الذى وافق عليه بالاجماع فى ٣٠ يونيو ١٩٦٢ وبمقتضاه أصبحت مصر تطبق نظاما اشتراكيا وفق ما نص عليه هذا الميثاق بحيث تتولى الدولة قيادة التنمية الاقتصادية عن طريق القطاع العام وفق خطط خمسية مرسومة .

وبالرغم من اعادة توزيع الملكية الزراعية ، وتقديم المساعدات للفلاحين المعدمين الذين وزعت عليهم الأراضى المصادرة من ملاكها عن طريق الجمعيات التعاونية الزراعية ... وبالرغم من انشاء السد العالى والاستفادة مما يحجزه من مياه ، وما أنفق على مشروعات استصلاح الاراضى ، فإن الرقعة الزراعية لم تزد فدانا واحدا ، ولعل ذلك يرجع بصفة خاصة الى زحف المبانى عليها .. **كما تزداد المشكلة خطورة اذا لاحظنا أن انتاجية الأراضى بدورها تتناقص نتيجة تدهور خصوبة الأرض الذى يمكن أن نرجعه إلى ثلاث ظواهر :**

(١) ظاهرة تجريف وتقشيط الأرض لتحويل الطمى الى طوب للبناء دون تطبيق الحظر المفروض على ذلك بطريقة حازمة ، وعدم التوصل الى صنع طوب للبناء من مواد محلية أخرى على نطاق واسع .

(٢) ظاهرة تطبيل الأرض نتيجة ارتفاع المياه الجوفية فى الحقول بسبب الاهمال فى تنفيذ مشروعات الصرف .

(٣) ظاهرة خلو مياه النيل من الطمى المجدد لخصوبة الأرض بسبب احتجاز المياه خلف السد العالى وهو ما كان يمكن تعويضه بوسائل تخصيبية أخرى .

ولم يوجه الاهتمام لتوفير اكتفائنا الذاتى من القمح حيث أصبح من السلع الاستراتيجية التى لا تصدرها إلا دول قليلة تتحكم فى بيعها وتستخدمها كوسيلة للضغط على من يحتاج اليها ، فضلا عن أن القرية لم تعد وحدة انتاجية بل تحولت الى وحدة استهلاكية تعتمد على المدينة فى تدبير غذائها .

كما ظهرت الحاجة الى اعادة النظر فى أسلوب تسعير المحاصيل الزراعية وإلى مراجعة وضع التسويق التعاونى الذى أصبح تسويقا اداريا نتيجة سيطرة " الهيئة العامة للاصلاح الزراعى " على القطاع الزراعى التعاونى **بحيث لم تعد الوحدات الزراعية تعاونيات بالمعنى العلمى والعملى لهذه الكلمة ، بل أصبحت ادارة حكومية تقوم بشراء المحاصيل بأبخس الاسعار وتقوم ببيعها بالسعر العالى** وبذا يعتبر الفارق بينهما بمثابة ضريبة مفروضة على ثمرة عمل الفلاح لحساب الحكومة ... ومن هنا فإنه بمجرد أن اصبح مسموحا بالسفر إلى الخارج فى مرحلة تالية ،هجر عدد كبير من الفلاحين ، الأرض وزراعتها ، لكى يعملوا فى الدول العربية الأخرى خارج مصر ، مما أثر على العمالة الزراعية فى الريف وأدى الى ارتفاع أجورها .

فإذا انتقلنا الى مجال الانتاج الصناعى ، نجد أنه كان مرفوعا شعار " من الابرة الى الصاروخ " وهو شعار خاطئ ، اذ لا توجد دولة فى العالم – مهما كانت ضخامة مواردها وتنوعها ، وتعدد قدرات العناصر الفنية لديها – تستطيع أن تكتفى ذاتيا عن كافة دول العالم بأسره . . وربما كان يفضل ذلك تخير المشروعات التى نملك عناصرها ، ويتوافر لدينا الفنيون المؤهلون

لتشغيلها ... كما اكتفينا بنقل المصانع من الخارج وتركيبها على أرضنا دون أن نعنى بنقل تكنولوجياتها ، والعمل على تطويرها ، مما جعلنا فى حاجة مستمرة الى قطع الغيار اللازمة لها من الخارج ، دون ان نستطيع الاعتماد على أنفسنا كما فعلت اليابان والنمور الاسيوية .

ولما كانت ادارة القطاع العام تعتبر فى ظل التطبيق الاشتراكى بمثابة العصب للاقتصاد الصناعى حيث كان انتاجه يمثل وقتئذ نحو ٧٠ ٪ من حجم الانتاج الصناعى فى البلاد ، فإنه كان ينبغى التدخل من جانب الدولة لتطوير أوضاعه بصفه مستمرة من النواحى الآتية :

١ – من حيث اعادة النظر فى مجالات عمله حيث أن الهدف من إنشائه هو أن تتولى الدولة السيطرة على القطاعات الحاكمة بغية توجيه الاقتصاد القومى لتحقيق الأهداف المرسومة لخدمة مصالح الجماهير العريضة من أفراد الشعب .. وبالتالى فإن هذا الغرض لا يتحقق فى حالة تدخل الدولة لإدارة الوحدات الصغيرة ، أو المبعثرة ، أو أنواع من الصناعات أو الخدمات التى كان تعتمد أساسا على المهارات الشخصية ، أو الروابط الانسانية التى تنشأ مع المنتفعين بها .

٢ – **من حيث رفع ضغوط الدولة المعوقة** لحركة القطاع العام التى كان ينبغى التخلص منها كتعدد المستويات الاشرافية .

٣ – **من حيث عدم فرض عمالة زائدة** على مشروعات القطاع العام بإلزامها بتشغيل أعداد من العاملين لا حاجة بها اليهم ولا تتوفر فيهم المؤهلات أو الخبرات المطلوبة ، مما يرهقها بأعباء ثقيلة بلا مقتض .

٤ – **من حيث الاستيلاء على أرباح المشروعات العامة** دون مراعاة ما تقتضيه القواعد الاقتصادية من الحرص على الاهلاك ، والتجديد لأصول المشروع ، وضرورة الاحتفاظ بجزء من أرباحها لأغراض التوسع ، بدلا من

الاقتراض بفائدة مرتفعة حتى تغطى تكلفة الانتاج ، وتحقق ربحا مناسبا بأسعار تتناسب مع دخول الطبقات الفقيرة . وكان الواجب تمكين شركات القطاع العام من بيع منتجاتها بالاسعار الاقتصادية ، على أن تتحمل الحكومة فروق الاسعار اذا ما رأت أن تباع بالاسعار الاجتماعية المخفضة .

على أنه ماكان يصح الاكتفاء بتلك القواعد العامة لإصلاح أوضاع شركات القطاع العام بل ان الامر كان يستوجب إلى جانب هذا ، تشكيل لجان تضم عناصر اقتصادية وفنية ومحاسبية وادارية لدراسة المشاكل على الطبيعة ، واقتراح الحلول العلمية وفق الظروف الواقعية ، مع مراعاة مساءلة القائمين على المشروعات فى حالة ثبوت أخطاء فى حقهم ، تجنبا للشعار المرفوع من تفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة حتى لا يتعرض القطاع العام للصورة المعيبة التى أصيب بها .

رابعاً – تجربة أنور السادات
سياسة الانفتاح الاقتصادى

أطلقت " سياسة الانفتاح الاقتصادى " على السياسة التى انتهجها الرئيس السابق أنور السادات بعد النصر الذى حققته مصر على اسرائيل فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، بقصد تحرير الاقتصاد القومى من القيود المفروضة عليه والتى أدت إلى عرقلة تقدمه وازدهاره .

على أننا اذا تحدثنا عن حرب اكتوبر بإعتبارها نقطة التحول نحو الانفتاح الاقتصادى فلا نقصد بذلك مجرد المعركة العسكرية التى إقتحمت فيها قواتنا المسلحة تحصينات العدو على قناة السويس المتمثلة فيما سمى بخط بارليف وردت اسرائيل الى حجمها الطبيعى ، وقضت على عقدة الهزيمة والشعور

بالنقص فى نفوس العرب وأعادت الثقة الى قلوبهم ... وانما نقصد بحرب اكتوبر ايضا معركة حظر بيع النفط العربى للدول المساندة لاسرائيل ، مما كان له أثره فى إشعار الدول المتقدمة صناعيا من الولايات المتحدة الاميركية الى الدول الاوربية واليابان بمدى قدرة الدول العربية المنتجة للنفط على هز كياناتها .

وبمجرد التوصل الى وقف اطلاق النار واتمام فض الاشتباك بين القوات المتحاربة على الجهتين المصرية والسورية إنتظارا لاستكمال التسوية الكاملة فى مؤتمر جنيف ، اعتبرت مصر نفسها قد انتقلت من الجهاد الأصغر الى الجهاد الاكبر بالعمل على اعادة بناء ما خربته الحرب فى بنياننا الاقتصادى ، والمسارعة الى تعويض الشعب عما تحمله من حرمان وشظف العيش من أجل استرداد الكرامة العربية فى الوقت الذى نحافظ فيه على قواتنا العسكرية فى حالة الاستعداد تحسبا لأى طارئ ، وتحوطا لما قد يصيب مباحثات السلام من فشل نتيجة تعنت العدو الاسرائيلى . **فأعلن الرئيس أنور السادات عن انتهاج سياسة اقتصادية جديدة أطلق عليها اسم " سياسة الانفتاح الاقتصادى** " وهو ما لم يكن من المتصور أن يتم إلا بعد أن يسبقه انفتاح سياسى على الولايات المتحدة الامريكية ، وقد تجلت مظاهره بوضوح فى اعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين وقيام الرئيس الامريكى رينشارد نيكسون بزيارة مصر . تلك الزيارة التى انتهت بإعلان بيان المبادئ التى تقوم عليها العلاقات المصرية الامريكية .

على أن هذا الانفتاح الاقتصادى لم يكن من المتصور أن يحقق النجاح المنشود من ورائه إلا إذا فهم فهما صحيحا ، وعرفت أبعاده . إذ لايقصد بسياسة الانفتاح الاقتصادى فتح أبواب البلاد لكافة أنواع السلع والاستثمارات

بلا قيد أو شـرط ، لأن مثل هذا الانفتـاح المطلـق بـلا ضوابط لـم يسبق أن أخذت به أى دولة من دول العالم ؛ رأسمالية كانت أم اشـتراكية ... وإن كـان ينبغى فى الوقت نفسه ألا نوضع له من الضوابط ما يوحى بعدم جديته ، **وهو ما يتطلب الدقة فى رسم الحدود الفاصلة بين الانفتـاح الجـائز ، وبيـن الضوابط الواجـب مراعاتهـا تحقيقـا للصـالح القومـى الاقتصـادى والسياسـى معا** ، حتى لايدخل عليه التعديلات من وقت الى آخر مما يـؤدى الـى فقـدان العالم الخارجى الثقة فـى هذا الانفتـاح الـذى نـأخذ بـه . كمـا أن الانفتـاح فـى التعامل الاقتصادى مع الدول التى كنا نغلق الابواب دونها لا يعنى الاتجاه الى غلـق أبـواب التعـامل مـع الـدول الأخـرى ، إذ أن صيانـــة مالدينـا مــن آلات وتجديدها واستمرارها يحتاج الى معدات وقطع غيار ومستلزمات أخـرى من الدول المنتجة لها ... هذا الى أن ثمار التقدم العلمى والتكنولوجى تختلف من دولة الى أخرى ، وليس من صالحنا أن نقتصر على الافادة من المستحدثات التكنولوجية والعلمية مـن بعض الـدول دون البعض الآخـر ، فضـلا عـن أن بعض المشروعات الخاصة قد لا تقبل بعض الدول لأى سبب من الاسباب أن تبيع لنا أسرارها الصناعية أو أن تشـاركنا فـى اقامتهـا أو أن تقيمهـا لحسـابها لدينا ، بينما قد تقبل دول أخرى أن تزودنا بهذه المطلوبات لاختلاف ظروفها أو تقديرها لمصالحها . **هـذا الـى أن الانفتـاح لا يعنـى ان ندعـو المسـتثمرين وأصحـاب رؤوس الامـوال الأجـانب للقـدوم الـى بلادنـا لاستثمار أموللهـم ، بحيث يكـون دورنـا دور المتفرج المنتظـر لثمـرات هـذا الانفتـاح دون جهـد إيجابى من جانبنا للافادة من هذه التكنولوجيا الحديثة للتوصل الى تطويرها والتقدم بها .**

كما ينبغى ألا يركن الانفتـاح الاقتصـادى الـى الحصـول علـى التكنولوجيا الحديثة عن طريـق الشـراء ، بحيث تسـتورد المصـانع وتنقل لتركيبها على

أرض الدولة ويجرى تشغيلها حتى اذا ما استهلكت ماديا أو فقدت صلاحيتها فنيا نتيجة التطور التكنولوجى يصبح لا سبيل سوى الالتجاء الى الدولة التى زودتنا بها لشراء البدائل اللازمة للحلول محلها **وانما يجب العمل على استيعاب التكنولوجيا المستوردة وتنشيط البحث العلمى لاستحداث الجديد الذى يضاف الى المستورد والمنقول عن طريق دعم البحوث العلمية وتوجيهها الوجهة التطبيقية للنهوض الاقتصادى ومعالجة مشاكله .**

وتعتبر اليابان بما حققته من نتائج باهرة فى عالم التقدم التكنولوجى والنمو الاقتصادى ، مثلا رائعا ومعبرا عن صواب هذه الاستراتيجية . فقد سارعت بالإفادة بما لدى أمريكا ثم اضافت اليه وأدخلت عليه الجديد ، فضلا عن استفادتها من ظروفها المحلية فى تقليل التكلفة وزيادة الانتاج .

ولما كان الانغلاق الاقتصادى لم يكن هو السبب الوحيد لتردى أوضاعنا الاقتصادية ، فلا نتصور بالتالى ان مجرد انتهاج سياسة الانفتاح الاقتصادى سوف يحل جميع مشكلاتنا ويصلح أمورنا الاقتصادية من كافة جوانبها ، وانما يتعين علينا ان نعالج الأسباب الاخرى بنفس الاهمية وفى ذات الوقت ، وإلا فشل الانفتاح الاقتصادى فى تحقيق الآمال المعقودة عليه فى هذا الشأن .

وتأتى فى مقدمة هذه المقومات الاضافية اللازمة لنجاح سياسة الانفتاح الاقتصادى ما يلى :

(١) خلق جو من الثقة والاستقرار فى المعاملات الاقتصادية مما يطمئن المستثمرين وأصحاب الأعمال على رؤوس اموالهم ومشروعاتهم .

ولا يكفى فى هذا الصدد أن يتضمن قانون استثمار المال العربى والاجنبى النص على حظر التأميم أو المصادرة ، والوضع تحت الحراسة لخلق الجو الذى يبعث على الاطمئنان المنشود اذ ما اسهل من أن يلغى هذا القانون الذى ينص على هذه الضمانة بقانون مماثل !!

وعندما أبرمت اتفاقية صندوق ضمان استثمار روؤس الاموال العربية فى الدول العربية المنضمة اليها ضد المخاطر غير الاقتصادية ، رأى البعض أن رأس مال هذا الصندوق غير كاف للتعويض عن رؤوس الاموال التى يمكن استثمارها في البلاد العربية الاخرى فى حالة تعرضها للمصادرة أو الحراسة أو التأميم ، وما يحتاجه هذا الاجراء من جهد لاستعادة الثقة المفقودة .

وأيا كانت مبررات الدفاع عن السياسة السابقة ، والقول بأن المقصود منها كان العمل على التخلص من السيطرة الاجنبية على مراكز التحكم فى الاقتصاد الوطنى ، فإنه لا يمكن أن يكون مقبولا أن نفس الشخصيات التى تولت تلك الاجراءات التى يفزع منها رأس المال العربى والاجنبى هى التى تتولى الاشراف على سياسة الانفتاح الاقتصادى ... وكان الواجب يقتضى ان تنسحب هذه الشخصيات الى أعمال أخرى إذ لا يوجد - كما يقولون - رجال صالحون لكل العصور ، ومن المعروف أن الدول تقوم بتغيير أشخاص سفرائها لدى الدول الاخرى عندما تغير سياستها حيالها .

كما أن توفير جو الثقة كان يتطلب معاملة القطاع الخاص فى مصر بنفس المعاملة التى يعامل بها القطاع الخاص الاجنبى الذى ينوى استثمار روؤس أمواله فى مصر . وهو ما كان موضع استفسار مستمر من الوفود الاجنبية عند زيارتها لمصر عقب الاعلان عن سياسة الانفتاح الاقتصادى .

كما ينبغى الغاء كافة القوانين الاستثنائية التى وضعت فى ظروف ما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وفى مقدمتها قانون تنظيم فرض الحراسة رقم ٣٤ لسنة ١٩٧١ الذى يمكن بمقتضاه فرض الحراسة على أموال الاشخاص الطبيعيين والاعتباريين بحكم نهائى غير قابل للطعن فيه يصدر من محكمة خاصة ليست قضائية أو عادية ، وفى أحوال مصاغة بعبارات مطاطة قابلة للتفسيرات المتناقضة ، ذلك أن فى النصوص الواردة بقانون العقوبات

والمتعلقة بحماية أمن الدولة وسلامتها ، والمعاقبة على استغلال النفوذ ، والاتجار فى الممنوعات ، الحماية الكافية .

ولا يقل أهمية عن اشاعة جو الثقة والاطمئنان ؛ مراعاة استقرار القرارات الاقتصادية وعدم التغيير والتبديل فيها من وقت لآخر نظرا لما يحدثه ذلك من بلبلة فى المعاملات الاقتصادية ، وتخوف من الارتباط بتعاقدات طويلة الأمد ثم لا تلبث أن تتغير الأسس التى بنيت عليها هذه التعاقدات .

(٢) توفير المرافق والخدمات اللازمة لقطاع الاعمال على مستوى فعال يمكن المستثمرين وأصحاب الاعمال من تسيير أمورهم بالكفاءة والسرعة اللازمتين ... فوجود شبكة تليفونية صالحة ، واتصال لاسلكى خارجى ميسر ، ووسائل مواصلات سريعة ومنتظمة ، وخدمة مصرفية فعالة ، وادارة كفؤة عاجلة فى المطارات والموانى ، وإقامة مريحة بالفنادق الى غير ذلك مما يحتاجه رجل الاعمال لتيسير عمله واقامته بالبلاد يعتبر أمرا ضروريا لنجاح سياسة الانفتاح الاقتصادى ... وكل إهمال أو تراخ أوسوء معاملة من شأنها أن تشكل عوامل طرد وتنفير للقادمين الراغبين فى التعامل معنا من رجال الأعمال .

(٣) وضع حد للفساد والرشوة وإستغلال النفوذ بالصرامة اللازمة حتى لا يشعر المتعاملون معنا أنهم فى حاجة إلى إتباع الأساليب الملتوية لإنجاز معاملاتهم ، وحتى لا تتعطل مصالحهم تحقيقا لإهواء خاصة أو خدمة لمصالح منافسيهم .

(٤) الارتفاع بكفاءة الادارة العامة سواء على مستوى الادارة الحكومية أو القطاع العام أيا كان الاسم المعطى له . فإن المتعاملين معنا من الخارج لابد وأن توجد لهم صلات ومعاملات مع الادارات الحكومية ومع بعض أجهزة القطاع العام ، فإن لم تكن الادارة فى هذه الجهات على المستوى اللائق من

الكفاءة والسرعة والمسئولية فإن هؤلاء المتعاملين يفقدون الكثير من مقومات نجاح مشروعاتهم . ولا يخفى أننا تحدثنا كثيرا عن ترشيد القطاع العام ، ورفع كفاية الأداء ، والثورة الادارية ، وهز الادارة الحكومية ، وغير ذلك من الشعارات دون ان نلمس لها أثرا عمليا حتى الآن .

وهذا الاصلاح الادارى يمكن أن يتحقق بمراعاة أمرين :

الأمر الاول : إعادة النظر فى الأوضاع التى نجمت عن تميز أهل الثقة على أهل الخبرة ، أو تقديم الولاء على الكفاءة .

فالولاء يجب ان يكون للوطن ، بينما الكفاءة والخبرة ينبغى ان يكونا المقياس الوحيد لتولى المناصب وشغل المراكز القيادية ... وأن كل شخص وصل الى مركز أو منصب لانتمائه الى شلة أو لتزكية شخصية أو لصلة قرابة أو مصاهرة أو لمكافأة عن خدمات معينة ، يجب أن ينقل إلى جهة أخرى تتناسب مع قدراته الحقيقية دون أى اعتبار من الاعتبارات المذكورة .

الأمر الثانى : المساءلة عن الاخطاء . فليس هناك ما هو أكثر إهدارا للمال من عدم المحاسبة عن الأخطاء التى ترتكب بالرغم من فداحتها فى بعض الحالات ... أو أن يكون أقصى ما يتخذ هو النقل من منصب إلى آخر فى نفس المستوى والجهة أو النقل من جهة الى أخرى فى ذات المستوى !!

إن هذا الانفتاح الاقتصادى القائم على فتح أبواب البلاد على مصاريعها بدون ضوابط ، فضلا عن أنه لم يكن فى الاتجاهين من حيث الصادر والوارد اذ لم يكن لدى مصر فائض من الانتاج الوطنى صالح للتصدير إلى الخارج قد أدى **إلى أن يكون الانفتاح فى اتجاه واحد من الخارج إلى الداخل فى صورة سلع استهلاكية مصحوبة بدعاية خلابة الأمر الذى إلى عرّض صناعتنا الوطنية للخطر ... بحيث اصبحنا نعتمد على موارد مالية غير**

مضمونة ومن غير المستطاع السيطرة عليها من جانبنا ، واستمر هذا الوضع حتى وقتنا الحاضر .

وتتضمن هذه المّوارد ما يلى :

(١) رسوم المرور بقناة السويس – وحصيلتها تتوقف على عناصر ليست لدينا القدرة على التحكم فيها ، والسيطرة عليها ، إذ ان إيراداتها تتوقف على عدد وحجم ناقلات البترول المستخدمة فى نقله وإمكانية عبورها للقناة أو إتجاهها إلى استخدام طريق رأس الرجاء الصالح المنافس لطريق قناة السويس من حيث رسوم المرور المقررة ، فضلا عن احتمالات إغلاق القناة لاعتبارات عسكرية ، وهو ما حدث مرتين ، وحرمنا بذلك من حصيلة رسوم المرور فيها خلال فترة الاغلاق .

(٢) حصيلة صادرات البترول – وهو بدوره مصدر غير مضمون حيث أن سعر البترول يتحدد وفق تفاعلات دولية تتمثل فى مخططات شركات النفط العالمية المنتجة للبترول ، وسياسات الدول المتاجرة فى البترول المهيمنة على أسواقه بحيث تؤثر تفاعلاته فى اقتصادنا القومى . . وها نحن أولاء نرى المملكة العربية السعودية – ولا مجال لمقارنة ثرواتها البترولية بالاحتياطى البترولى فى مصر – تعانى فى الوقت الراهن من أزمة مالية نتيجة ما أنفقته فى حرب الخليج وما تعهدت بدفعه ثمنا لصفقات الأسلحة المستوردة وما إلتزمت بدفعه للولايات المتحدة مقابل مشاركتها فى الدفاع عنها خلال الحرب .. هذا الى أن رصيدنا الاستراتيجى المؤكد فى باطن الارض لا يكفينا إلا لمدة محدودة تتروا‌ح ما بين عشر واثنتى عشرة سنة بحيث لا يعتبر من الحكمة ان نستنزفه قبل الأوان ، بالاعتماد عليه لموازنة ميزاننا التجارى ، فى حين أنه بعد نحو عشر سنوات ، سوف ينفد رصيدنا منه فى باطن أرضنا ونضطر لاستيراد ما نحتاج اليه منه بالعملة الاجنبية من الخارج .

(٣) تحويلات المصريين العاملين فى الخارج - اذ فتحت فى عهد السادات أبواب السفر للعمل فى الخارج مسايرة لسياسة الانفتاح الاقتصادى ، وأصبحت تحويلاتهم النقدية الى أسرهم الموجودة داخل البلاد موردا من العملات الاجنبية تواجه به مصر العجز فى ميزان المدفوعات ... ولكنه بدوره غير مضمون من عدة نواح : فقد تحظر بعض الدول تشغيل العمالة المصرية لديها نتيجة خلافات سياسية أو تحظر تحويل أجورهم نقدا إلا فى حدود نسبة معينة وهو ما حدث فى كل من العراق وليبيا . كما أن ما يفرض على أجور العاملين فى الخارج من ضرائب تحمّل هؤلاء العاملين على إيداع مدخراتهم فى بنوك بالخارج بدلا من تحويلها الى بنوك مصرية فتحرم منها كعنصر مستقر لهذه الموارد .

(٤) موارد السياحة - وأخيرا فإن السياحة تعتبر مصدرا هاما للموارد العامة للدولة لكنه مصدرا غير مأمون الجانب ، إذ أن وقوع حوادث ارهابية فى منطقة مجاورة من شأنها أن تتسبب فى بث الخوف لدى السياح الذين يعتزمون زيارة البلاد مما يؤثر فى ايرادتها . ومن هنا فإنها لا تعتبر عنصرا مستقرا يعتمد عليه فى النهوض الاقتصادى كالانتاج الصناعى أو الزراعى ، بحيث ينبغى عدم التوسع فيه بإنشاءات واسعة ومكلفة كالإسراف فى اقامة القرى السياحية والتوسع فيها تحسبا لما قد تتعرض له من ركود نتيجة مثل هذه الاحداث التى تقع فى المنطقة .

خامسا - التجربة الجارية للرئيس مبارك بين برنامج الخصخصة ومشروع السوق الشرق أوسطية .

وأخيرا تتمثل التجربة المعاصرة التى يأمل الرئيس حسنى مبارك بأن تنهض بمصر اقتصاديا - فى مشروعين :

أولهما : تخلى الحكومة عن تملك المشروعات الاقتصادية وادارتها وذلك ببيعها للقطاع الخاص ، بعد أن فشلت فى تحقيق النتائج المأمولة منها فى ظل الاتجاه نحو تحويلها من قطاع عام يدار بأسلوب حكومى ، الى قطاع للاعمال العام يدار وفقا للقانون رقم ٢٠٣ لسنه ١٩٩١ بأسلوب المشروعات الخاصة ، تحت اشراف أحد الوزراء ، بعد أن كانت موزعة على تسع وزارات وفقا لتخصص المشروعات ، وهى العملية التى يطلق عليها اسم "الخصخصة" على سبيل الاشتقاق من عملية التحول الى القطاع الخاص .

وثانيهما : قبول التعاون الاقتصادى مع اسرائيل وبقية الدول العربية الكائنة في منطقة الشرق الاوسط كنتيجة من نتائج تحقيق السلام فى المنطقة – وإن كان لايزال غير متحقق بعد ، كسلام شامل وعادل للمنطقة بأسرها – وذلك تحت ضغط كل من الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها من ناحية ، وضغط المؤسستين الماليتين الدوليتين : صندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى للانشاء والتعمير ، اللتين تتعامل معهما حكومة مصر ، ويتوليان نيابة عن الدول الدائنة ادارة قروضها الممنوحة لمصر من ناحية أخرى .

وفيما يلى بيان ذلك :

أولا خصخصة قطاع الأعمال العام :

ونود أن نقرر بادئ ذى بدء أننا لا نعترض من حيث المبدأ على التخلى بالبيع عن وحدات قطاع الاعمال العام التى عجزت الحكومة عن ادارتها ادارة ناجحة تحقق الكسب الذى تحققه الوحدات المماثلة فى اطار القطاع الخاص . . . ولكننا نطالب مع بعض المعنيين بهذا الأمر بألا يتم ذلك الا بناء على دراسة مستكملة وأمينة لبرنامج مدروس يحقق أكبر نفع لمصر ، ويتصف بالشفافية الكاشفة لأى انحراف ، مستفيدين فى هذا الشأن من التجارب التى سبقتنا فى هذا المجال ، وفى مقدمتها تجربة الخصخصة التى

أجرتها الحكومة البريطانية فى عهد رئاسة مسز مارجريت تاتشر ... **وتشمل الاجابة على ما يثور من تساؤلات حول :** لماذا نبيع هذه الوحدات بالذات ؟ وما هو الوقت الأصلح لبيعها ؟ وما شروط هذا البيع ؟ وما هو السعر الذى يتخذ أساسا لاجراء المزايدة عليه أو المساومة فيه ؟ والضمانات المقررة لكفالة السرية ومنع التلاعب ، ولمن يجوز البيع وما القدر الذى يجوز بيعه من رأس المال للاجانب ، وذلك كله وفق برنامج متكامل وجدول زمنى محدد على فترة معقولة يراعى فيها توفر السيولة النقدية وتجددها . وقبل كل ذلك وبعده ، تحديد كيفية التصرف فى حصيلة البيع ، حتى لا تبدد بإنفاقها ضمن المصروفات الجارية الواردة بالميزانية العامة للدولة ، فتفقد مقومات نشاطها ، وحل المشاكل الحياتية لأهلها . **على أنّ يطرح هذا البرنامج على الرأى العام ، ويصدر فى صورة قانون من السلطة التشريعية بعد مناقشة متأنية ، حتى يصبح ملزما للكافة ، ومعلوما للجميع .**

ولو رجعنا إلى برنامج الخصخصة الذى وضع فى بريطانيا نجد أنه وضع موضع التنفيذ على مدار عشر سنوات ، وليس خلال سنة أو سنتين كما يتصور البعض فى مصر ، أو يحاول أن يضغط صندوق النقد الدولى للاسراع بإنجازه فى مثل هذه المدة ، مهددا بعدم تنازل الدول الدائنة لمصر عن القسط الأخير من أقساط القروض المتنازل عنها حتى تتم عملية الخصخصة !! . حيث أن تقصير المدة المقررة للبيع من شأنها أن تؤدى إلى هبوط أسعار ما يباع ، وإتاحة فرصة أكبر للمشترين الأجانب .

ومن دواعى الغرابة فى اختيار الوحدات المطروحة للبيع أنه أعلن البدء ببعض المشروعات الناجحة التى تحقق أرباحا وفيرة كفنادق الدرجة الاولى (الخمس نجوم) بالرغم من أنها تدار حاليا ادارة متميزة بمعرفة شركات أجنبية كبرى متخصصة ، وتشارك مصر فى الحصول على نسبة من

أرباحها ، ومع الاخذ فى الحسبان أن قيمة الارض المقامة عليها ترتفع بمرور الزمن !!

هذا **وقد حددت الحكومة البريطانية حصة الأجانب فى رأس مال المشروعات المطروحة فى الخصخصة بألاتزيد على ٢٥ ٪** ... وقد حدث أن إشترى أمير الكويت بعض أسهم شركة البزيتيش بتروليم ، تزيد قيمتها على ٢٥٪ من رأسمالها ، فأجبر على التنازل بإعادة بيع القدر الزائد عن النسبة المسموح بها للأجانب .

وحرصا على قيام الشركات المباعة فى عملية الخصخصة بواجبها فى أداء رسالتها اذا كانت من المشروعات ذات الطبيعة الاجتماعية أو الاستراتيجية ، اشترطت قواعد الخصخصة أن تتملك الحكومة البريطانية " سهما ذهبيا " فى رأس مالها ليس له متابل نقدى ولكنه سهم رمزى يتيح للحكومة أن يكون لها ممثل فى مجلس الادارة يتمتع بحق الاعتراض (الفيتو) على أى قرار يصدر عنه ويكون متعارضا مع الصالح الاجتماعى للمواطنين أو الاهداف الاستراتيجية للدولة ... ويا حبذا لو أخذ لدينا بهذه القاعدة رعاية للصالح العام .

ثانيا – الضغط على مصر للانضمام الى سوق شرق أوسطية :

هذا وقد اكتنفت المفاوضات الجارية بين اسرائيل وبين الدول العربية لتحقيق انسحابها من الاراضى العربية المحتلة ، بالضغط من جانب الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها على هذه الدول لقبول الانضمام الى سوق مشتركة للشرق الاوسط يقوم بتمويله بنك دولى تسهم فى رأسماله امريكا وحلفاؤها ، وينتظر أن يكون مقره فى القاهرة ، إرضاء لمشاعر مصر ، وغيرها من الدول العربية .

وبدأت تتواتر الأنباء عن قرب الاتفاق على تأسيس شركة تكرير للبترول فى غربى الاسكندرية تشترك فى رأسمالها كل من مصر وأمريكا واسرائيل ، وأن مشروعا يدرس على أساس قيام مصر بإمداد اسرائيل بالغاز الطبيعى عبر خط أنابيب يمتد من منابعه فى أرضنا الى أرضها مما يجعل لها حقوق ارتفاق عليها بموجب التعاقدات التى تبرم معها ... علما بأن ما لدينا من احتياطى الزيت الخام لن يكفى لسد حاجاتنا منه إلا لفترة تتراوح بين عشر واثنى عشر عاما كما سبق أن ذكرنا ، وهو ما يقتضى التحول لاستخدام الغاز الطبيعى كبديل بالنسبة لمحطات توليد الكهرباء وشركة كيما للاسمدة بأسوان ، وتوليد القوة المحركة فى غيرها من المصانع ، وتحويل السيارات لتسييرها بالغاز .

بعد ذلك كله وليس قبله ، يمكن القول بأن لدينا فائضا من الغاز الطبيعى أو ليس لدينا فائض للتصدير ... ولكن يبقى أن نتساءل : ولمن نصدره ؟ .. هل نصدره لدولة تواصل تهديدنا بما تملكه من قنابل ذرية وترفض التوقيع على الاتفاقية الدولية بحظر انتشار الاسلحة النووية والتعهد بإخلاء المنطقة من أسلحة الدمار الشامل ؟ ولا زالت تضم من ينادى بأن اسرائيل الكبرى تمتد من النيل الى الفرات مما ينطوى على ما تهديد حياتنا واستقلالنا ... ولديها من مشروعات ما تريد به منافسة قناة السويس ؟!

فضلا عن أنه لا محل للبحث ابتداء فى أى مشروعات تعاون اقتصادى من أى نوع كان . قبل أن يتحقق السلام العادل والشامل بين إسرائيل وبين كافة الدول العربية ... فالحذر من حسن الفطن .

وختاما أقدم اعتذارى عن تجاوز الوقت المحدد للمحاضرة ، فمجالها متسع وموضوعها له أهمية ، وينبغى ان يكون محل اهتمام الكافة ، لتعلقه بمستقبل أمتنا فى ضوء تجارب ماضيها ، وفقنا الله لما يحقق الخير لها وللبشرية جمعاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المحاضرة السابعة

المرأة وماذا قدم الإسلام لها

الأستاذ الدكتور أحمد شلبي

١٠ إبريل ١٩٩٥م

١٠ ذى القعدة ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

الاستاذ الدكتور محمد عبد الجواد استاذ الشريعة والقانون بجامعة القاهرة يعقب على المحاضرة .

على المنصة : المحاضر الاستاذ الدكتور احمد شلبى على يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / أحمد شلبى من مواليد قرية عليم بمحافظة الشرقيه ، ومن خلال كُتّاب القرية حفظ القرآن الكريم وعرف تجويده .... ثم من خلال معهد الزقازيق الازهرى أحاط باللغة العربيه ومختلف العلوم الاسلامية . وقد كان الأول دائما فى المعاهد الازهريه مما مكنه من الالتحاق بكليه دار العلوم سنه ١٩٣٩ ليكون بها ايضا من أول خريجها ، فبعثته ١٩٤٧ الى انجلترا للحصول على الدكتوراه ... فتراه لاول مرة يتعلم اللغه الانجليزية الى حد الاتقان ، ويكتب رسالته بامتياز فى تاريخ التربيه الاسلامية ، ليعود من الخارج سنه ١٩٥١ ليشغل وظيفه مدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة .

الا انه لكلمه حق ألقاها بقاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة ، صدر قرار مجلس قيادة الثورة بفصله من الجامعة سنه ١٩٥٤ . فاشتغل بالصحافة

الحرة لمدة عام ، حتى دعته اندونيسيا سنه ١٩٥٥ للعمل استاذا بها ، فتراه يتقنُ لغتها ويحاضِر في جامعاتها وبين جماهيرها ، ويؤلفُ لها ويكتبُ في صحفها ويخدمُ الإسلامَ بها .... ولشهرته باندونيسيا تضطر حكومة عبد الناصر بعد ست سنوات من الغربة ، الى إعادته للعمل ، بتعيينه سنه ١٩٦٠ مديرا للمركز الثقافي المصرى بجاكرتا .... ثم تنقله سنه ١٩٦١ الى مصر نائبا لمدير ادارة الوافدين والمبعوثين بوزارة التربية والتعليم .

ولانه كما يقول بحق في كتابه رحلة حياة ((العلم عندى هو الحياة وهو الهواء ، والجامعة هي وجودى ونعيمى)) ، فنراه يقْبلُ العودة الى كليه دار العلوم سنه ١٩٦٤ بوظيفة مدرس لا كأستاذ التى كان سيصلها تلقائيا لو لم يصدر قرار مجلس قيادة الثورة سنه ١٩٥٤ بفصله من الجامعة لكلمة حق ألقاها .

هكذا نرى حياة الاستاذ الدكتور / أحمد شلبى ، لم تكن حياة رتيبة شأن أغلب قرنائه ، ولكنها كانت حياة حافلة بالمزالق ، واجه فيها بشجاعة واعتزاز مختلف التحديات ، فأحال بايمانه الصادق وجهده الخالص ، الصعوبات الى انتصارات والعوائق إلى مزايا .... فكان وحده امة ، او مؤسسة شامخة ، قدم أجل الخدمات إلى الإسلام والمسلمين .

لقد حدد أستاذنا المحاضِر هدفَه ورسالتَه فى الحياه ، وادركَ ووعى بعمق شأن علماء التاريخ ، قيمة الوقت فاستطاع ان يُصدِرَ للأمة الإسلامية اكثر من مائةٍ وخمسين كتابا ، بعضها باللغتين الانجليزية والاندونيسيه اللتين يتقنهما فنراه : -

أولا : قد عز عليه أن يعرف جيلنا تاريخ اوربا ، ويجهل التاريخ الاسلامى فاصدر " **موسوعة التاريخَ الإسلامى** " فى عشرة مجلدات ، كانت فى آن واحد ثروة وثورة فى المكتبة العربية .

ثانيا : عـز علـى الدكتـور / أحمد شلبى ان يُصـور البعـض الاسـلامَ فـى صيغة مساجد وعبادات فاصدر " **موسوعةَ الحضارة الاسلامية** " فـى عشـرة مجلدات كشف فيها بجلاء وعمق حقيقة الاسلام ، وانهأساسا سياسةً واجتمـاعٌ واقتصادٌ ، وان المشروعَ الحضارىَ الإسلامى هو هديةُ الله تعالى الى البشر والانسانيه جمعاء .

ثالثا : كما عز عليه ان ينحصر الاسلامُ فى الدول الاسلامية او ان يقتصر أغلبُ علماء الإسلام على دراساتهم الاسـلامية ، فـاصدر " **موسـوعةً مقارنـةٍ الاديان** " فى " اربعة مجلدات . تُقدم الإسلام كحلقة ختامية فى سلسـة الاديـان وليس كدينٍ مستقل ، وتوضح مفاهيمه الصحيحة وتجذب اليه الكثير .

رابعا : كما عز عليه ما يلاقية النشء وغيرُ العرب من صعوباتٍ فى تعلـم اللغة العربية والتزام قواعد النحو ، فاصدر كتابين هامين اولهما " **تعليم اللغـة العربية لغير العرب** " وثانيهما " **قواعدُ اللغة العربية والتطبيق عليها** " .

خامسا : كما عـز عليـه ان يجهـل النـشء والعامـةُ سير علمـاء الإسـلام ، فاصدر " **موسوعة المكتبة الإسلامية لكل الاعمار** " ، فى مائة جزء ، مـرددا كلمة الامام الغزالىَ (العلمُ بدون عمل جنون ، والعملُ بدون علم لا يكون) .

سادسا : ثم تراه دائما ، يأبى أن يكون مجرد استاذ جامعى فحسب ، وانمـا له دورٌ كبير بين الجماهير ، يخاطبُهم ويبعث فيهـم الوعـى مـن خـلال ندواتـه ومن خلال الصحف والاذاعة والتليفزيون .

ثم اخيرا : نراه وهو يبنى داره فى المعادى ، يخصص شقة مستقلة ، هدية منه الى طلاب الجامعة من قريته وريفه ، ليكونوا تحت رعايته وعلى اتصال به ، لا فرق فى ذلك بين قريب أو بعيد ، ولا بين غني وفقير .

كما قدم للدولة قطعة أرض بقريته ، مساحتها نصف فدان فى أراضى البناء ، قدر ثمنها بربع مليون جنيه ، وذلك هدية منه للدولة التى بنت عليها مدرسة إعدادية سميت بإسمه .

وختاما ارانى امام إنسانٍ مكافح ، وعالم موسوعى معطاء .... يحاول طوالَ حياته إثراءَ وتعميق فكرنا ووعينا بالاسلام ، وان يأخذَ بيد الاجيالِ لمواجهة مختلفِ تحدياتِ الحياة ومتغيراتها بايمان وصلابه واعتزاز .

هذا وتحضرنى فى هذا المقام بعض أبياته كقوله :

كبديلٍ من الهوى سوف أمضى	اطلبُ المجد فى إباء وبأس
وتأنفُ نفسى أن تُذل وانه	لأهونُ أن أفنى من الذل والقيد
هدفٌ يرتجى فسيروا إليه	واملأوا يا شبابُ سمع الوجود

ثم نراه يشدو بقوله :

طاعةُ الله سرورٌ	ورضا اللّه جميلٌ
فاتقوا الله تصيروا	فى هناء لا يزولُ

فباسم الجموْع التى تستفيدُ من علم وخبرة الاستاذ الدكتور أحمد شلبى ، سواء فى جيلنا المعاصر أو الأجيال القادمة ، أقدم محاضرنا داعيا له بالصحة والتوفيق ، شاكرا له باسم الجمعية الخيرية الاسلامية تفضله بالمحاضرة بها فى موضوع (ماذا قدم الاسلامُ للمرأة) . . فليتفضل مشكورا مأجورا من الله تعالى .

كلمة الاستاذ الدكتور / أحمد شلبى

بســـم الله الرحمن الرحيم

الإسلام خاتم الديانات السماوية ، ومن هنا شمل أسمى ما منحه الله سبحانه وتعالى للبشرية فى الديانات السابقة ، وأضاف إلى ذلك ما تحتاجه البشرية إلى يوم الدين .

وكانت النظم السياسية والاجتماعية ... بعض ما جاء به الإسلام للمجتمع البشرى ، ولكن يمكن القول إن حقوق المرأة كانت فى قمة المآثر التى قدّمها الإسلام لهذا المجتمع ، فالمرأة موجودة فى كل بيت ، وسعادتها تنعكس على أهل البيت جميعا ، ثم إنها الأم ، والأخت ، والبنت ، والزوجة ، وهى مصدر الحب والحنان وملهمة البسمة وعميقة الصلة بنبض القلوب ، وتحرّك المشاعر . وكان الأقدمون يضعونها خلف الجيوش لتظهر البطولات ، وكان الشعراء يفتتحون بالحديث عنها قصائدهم ليجذبوا لهم عقول السامعين وأنظارهم ، وكثير من الكتاب والمؤلفين والفنانين استلهموا منها أروع ما قدّموا من أعمال .

وهذه المرأة أو هذه الزهرة عانت ألوانا من قسوة الرجل ، وظلم المجتمعات حتى أنصفها الإسلام .

نساء نلن مكانة رفيعة :

صحيح أن الظلم الذى وقع على المرأة لم يكن فى كل المجتمعات وكل الأزمنة ، فقد سجّل التاريخ أن سيدات هنا وهناك نلن أحيانا مكانة مرموقة ، كبلقيس مثلا التى صور القرآن الكريم أمجادها فى سورة النمل ، فيروى القرآن الكريم قول الهدهد عنها : " إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شئ ، ولها عرش عظيم " (النمل ٢٣) ، وكانت مسموعة الكلمة فى قومها

حتى قالوا لها فيما يرويه الذكر الحكيم " نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين " (النمل ٣٣) .

وإذا كانت بلقيس قد قنعت بأن تكون ملكة فإن " سجاح " كانت أطماعها أوسع إذ أدعت النبوة ، وانقاد لها قومها بنو تميم .

وبلغت المرأة أحيانا فى الجزيرة العربية غاية مرموقة حتى كان من الملوك من يُنْسب لأمه كعمرو بن المنذر الذى كان يلقب أحيانا بعمرو بن هند ، وكأبيه المنذر الذى غلبت عليه نسبته لأمه فعرف بالمنذر بن " ماء السماء " ، وكالقائد الذى لمع فى ظل الاسلام وهو شرْجيل بن حسنة .

وفى مطلع الإسلام كانت هند بنت عتبة زوجة ابى سفيان صاحبة رأى ومكان بين قومها .

وإذا كانت بعض النساء العربيات قد نعمن بهذه المكانة السامية فان أغلب النساء فى الجزيرة العربية كُنّ مغلوبات على أمرهن ، وكن عموما مسلوبات الحقوق .

الحضارة المصرية تنصف المرأة :

وهناك حضارة وحيدة بين الحضارات القديمة أعطت المرأة حقوقها ، تلك هى الحضارة المصرية ، وقد ذكر بريستيد أن الحضارة المصرية أنصفت المرأة فقد قررت تقديس الأم ، واحترام الزوجة ، وحسن تربية البنت وتعليمها خلق الحياء .

وعندما زار هيرودوت مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد كتب يبدى دهشته من حرية المرأة فى مصر ، وبخاصة أنه جاء من أوربا وترك المرأة هناك لا تعرف الحرية ، ولكن الزحف الرومانى على مصر قضى على هذه الحقوق ، وأحلّ محلها الفكر الرومانى الذى سنتكلم عنه فيما بعد .

وعلى العموم فإن أكثر المجتمعات القديمة ألّهت القوة ولم تكن المرأة قوية العضلات فاستعبدها الرجال ، ومن هنا فإننا نتجه فى بدء هذه الدراسات للتعرف على حال المرأة فى البيئات غير الإسلامية ، وذلك حتى نعرف الفرق الكبير بين حال المرأة فى الحضارات غير الاسلامية ، وحالها فى ظل الاسلام .

وينبغى أن يكون واضحا أننا عندما نذكر ما عانته المرأة قبل الإسلام وإنصاف الإسلام لها ، نقصد بذلك أن نبين بعض أفضال الله على نصف المجتمع البشرى ، الذى أصبح فى ظل الإسلام يطلق عليه " الجنس اللطيف " ولم يكن يحظى قبل الإسلام بمثل هذا التعبير .

ولا يزال بعض الرجال يضيقون بما قرره الله للمرأة فيظلمونها من جانب ، أو لا يعطونها حقها الكامل من جانب أخر ، وهذا وذاك عودة للجاهلية نعيذ المسلمين منه .

والآن نتجه للتعرف على حال المرأة فى الحضارات غير الإسلامية ، لنعرف الفضل العظيم الذى منحه الإسلام للمرأة .

أولا : المرأة فى البيئات غير الاسلامية

نستعرض فيما يلى المجتمعات البشرية غير الإسلامية عبْر الزمان والمكان لنصوّر حالة المرأة في مختلف الأمكنه وعلى مر العصور .

المرأة فى المجتمع البدائى :

كانت المرأة فى المجتمعات البدائية نوعا من المتاع ، يسيطر عليها الرجل وينتفع بها كما يشاء ، وقد يدافع عنها ، ولكنه كان فى الحقيقة يدافع عنها على أنها شئ من ماله وممتلكاته ، ويحافظ عليها لأنها تحمل كثيرا من الأعباء فى تلك المجتمعات ، فقد كان عليها الكنس والغسيل والطبخ ، وحمل ما تستطيع

من المتاع فى الانتقالات من مكان إلى آخـر . فالدفـاع عنهـا ورعايتهـا كـانت للاستفادة منها من جانب ، وربما بدافع الشفقة مـن جـانب آخـر ويـرى بعـض المفكرين أن ما يمكن أن يكـون هنـاك مـن عطـف ورعايـة متبادلـة بيـن الأم وأبنائها لم يكن إلا على نمط ما يوجد بين الحيوان وأولاده ، فهو شفقة تتقارب فيها جماعات الأحياء من بنى أدم او من الحيوان .

وكان الزواج بالمرأة صفقـة بيّـع ، فـإذا مـلّ رجـل زوجتـة كـان يمكنـه أن يبيعها ، وقد ظل ذلك الحق حتى أتبع أيضا فى الامبراطورية الرومانية .

المرأة فى الحضارة الهندية :

جاء فى شرائع " منودهرما ساسترا " عـن المـرأة مـا يلـى : تعيـش المـرأة وليس لها خيار سواء كانت بنتا صغيرة أو شابة أو عجوزا ، فالبنت فى خيـار أبيها أو أخيها ، والمتزوجة فى خيار بعلها ، ولا تملك المرأة شـيئا ، وكـل مـا تحوزه يذهب فورا للرجل الذى تقـع فـى حمايتـه ، فتبعيتهـا لأبيهـا أو زوجهـا أساس حياتها ، ويجب أن تكون فى كل حياتها تابعة للرجل .

على أن أخطر ما واجهته المرأة الهندية المتزوجة أنها كانت تفقد حقهـا فـى الحياة إذا مات زوجها ، فكان عليها حينئذ أن تتقدم للنار التى يحرق فيها جسد زوجها لتحرق معه ، وكانت هذه العملية تسـمى " سـاتي " أى إحـراق المـرأة نفسها مع إحراق جثمان زوجها الميّت وقد عاشت هذه العادة من أقدم عصـور الحضارة الهندية إلى القرن السـابع عشـر . وقـد ارتبـط إبطـال هـذه العـادة أو جعلها غير مطّردة بنشـاط الحكـام المسلمين الذيـن كـانت لهـم السـيطرة علـى الهند ، ويقول الرحالة الشهير الدكتور برلير الطبيب الفرنسـى الذى زار الهنـد فى عهد شاهجهان :

لقد هبط عدد حوادث " ساتى " نسبيا ، لأن المسلمين الذيـن يحكمـون هـذه البلاد يبذلون أقصى جهدهم للقضاء على هذا التقليد الوحشـى ، ولـو أنهـم لـم

يسنوا أى قانون لمنع هذه الحادثة من الوقوع ، لأنهم لا يهدفون في نظام حكمهم إلى التدخل فى شئون الهنود الدينية ، بل إنهم يسمحون لهم بالقيام بأداء واجباتهم الدينية وطقوسهم ، ويوفرون لهم كل الحرية ، لكنهم يحاولون إيقاف تقليد " ساتى " بطريق غير مباشر ، فلا تستطيع أى امرأة أن تقدم نفسها " ساتى " إلا بإذن من حاكم الولاية . أما الحاكم فإنه كان يحاول إقناع المرأة وحملها على العدول عن إرادتها ، وينفرها ويوعدها ويمنيها كذلك ، وعندما تخفق هذه المحاولات ولا تثمر عملية الإقناع والوعد والوعيد ، يرسلها إلى حرمه ، لكى تضمَّ إلى عقيلات الحرم ، لعلها تقلع عن ارادتها بإقناعهن ، ولكن رغم جميع التدابير لا تزال حوادث " ساتى " تحدث بكثرة وبخاصة فى مناطق الرجوات أى الأمراء الهنود والأماكن الخاضعة لنفوذهم ، حيث لا يحكم المسلمون .

وإذا نجت الزوجة من الحرق لسبب أو لآخر فإنها تواجه حياة كلها بؤس ، فلا يجوز لها أن تتزوج بعد زوجها أبدا ، ولو كانت فى أنضر شبابها ، وعليها أن تهجر ما تشتهيه من الأكل واللبس والزينة حتى تموت ، وهذا بالضبط موت بطئ .

عند الأشوريين :

عثر على لوحات من الطين ترجع للقرن الثانى عشر قبل الميلاد دُوِّن عليها أن المرأة الحرة عند الأشوريين كانت قعيدة البيت ، لا يباح لها الخروج ، أما الإماء والغانيات فكان لهن الظهور والتجمل للرجال للإغراء ، ومن هنا اتجه ميل الرجال للغانيات ، أما الحرائر فكن مهملات تؤدين فى البيت أعمال الخدمة .

فى الحضارة الصينية :

عانت المرأة كل الذل من الرجل فى الحضارة الصينية ، وكانت تباع بأرخص الأسعار ، ولم يكن للأرملة حق الزواج بعد وفاة زوجها .

المرأه فى الحضارة الرومانية :

قضت الحضارة الرومانية أن تكون المرأة رقيقا تابعا للرجل ، لها حقوق القاصر أو لا حقوق لها على الإطلاق ، وكانت تعيش على هامش الحياة ، وكان من حق الزوج أن يبيع زوجته .

وقد اجتمع فى روما مجمع كبير ، وبحث فى شئون المرأة فقرر أنها كائن لا نفس ، وأنها لهذا لن ترث الحياة الأخروية . وأنها رجس ، يجب ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، وعليها أن تمضى وقتها فى الصلاة والعبادة ، وليس لها الحق فى أن تتكلم ، ولمنعها من الكلام وضعوا على فمها قفلا من الحديد ، فكانت المرأة من أعلى الأسر تروح وتغدو فى الطريق أو فى دارها وعلى فمها قفل ، ولايفتح القفل إلا عندما يقدم لها الطعام أو يراد منها أن تجيب على سؤال . هذا غير العقوبات البدنية التى كانت توقع عليها باعتبار أنها أداة الإغواء ، يستخدمها الشيطان لإفساد الناس .

ويرى بعض الباحثين أن الخلخال الذى يزين رجلى المرأة أحيانا فى العهد الحاضر ليس الا بقايا القيد الذى كانت المرأة توثق به ، وأن السلسلة الذهبية فى عنقها الآن تحوير وتجميل للسلسلة التى كانت المرأة قديما تربط بها ، ومثل هذا يقال عن القرط والسوار .

عند اليهود فى العهد القديم :

أما رأى العهد القديم فى المرأة فقد وضحه سفر الجامعة (الاصحاح السابع ٢٥ - ٢٦) فى الكلمات الآتية : درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ، ولأعرف الشر أنه جهالة ، والحماقة أنها جنون ،

فوجدت أمرّ من الموت المرأة التى هى شباك ، وقلبها أشراك ، ويداها قيود . الصالح قدام الله ينجو منها ، أما الخاطئ فيؤخذ بها .

ولم يكن للمرأة اليهودية ميراث إذا كان لها أخوة ، فان لم يكن لها أخوة ورثت بشرط أن تتزوج رجلا من سبطها ، فكانت المرأة وسيلة لنقل الثروة داخل السبط .

وكانت المرأة تعد مسئولة عما يرتكبه الرجل من أخطاء ، باعتبارها أداة الغواية ، ويقول سفر الجامعة أيضا : رجلا واحدا صالحا بين ألف وجدته ، أما المرأة الصالحة فلم أجدها بين الآلاف .

فى الجزيرة العربية :

فى الجزيرة العربية كانت الحياة كفاحا للحصول على العيش ، وقد اضطرت المرأة أن تدخل هذا الخضم عاملة كادحة ، ولكن كدحها لم يكن ينتج ما يعادل كدح الرجل ، كما أن نصيبها فى الحروب كان ضئيلا ، ولذلك غلب أن يتجه لها سخط المجتمع العربى ، ذلك السخط الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله : " وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسّه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون " (سورة النحل ٥٧ - ٥٩) . بل دسه بعضهم فى التراب فعلا ، حتى هتف بهم القرآن الكريم : " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا " (سورة الاسراء ٢١)، فإذا نجت الوليدة العربية من الوأد وجدت غالبا فى انتظارها حياة ظالمه ، ليس لها فيها نصيب من الميراث ، وقد تكره فيها على البغاء ، او تعضل عن الزواج .

وكان للرجل العربى سلطة مطلقة على كل ما فى البيت ، بما فى ذلك النساء دون تفريق بين النساء والمتاع ، وكان تعدد الزوجات شائعا وبخاصة

بين الأغنياء حيث تصل الزوجات إلى العشرات ، وذلك للحرص على كثرة النسل الذى يجلب الجاه والسلطان .

وكان للزوجة الأولى نوع من السيادة على باقى الزوجات .

وقد لخص المرحوم الأستاذ قاسم أمين حالة المرأة فى العصور القديمة بقوله : كان رئيس العائلة عند الرومان واليونان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا للمرأة يملكها كما يملك الرقيق بطريق البيع والشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وكان الرجل يشترى زوجته من أبيها ، فتنتقل إليه جميع حقوق الأب ويجوز للزوج أن يتصرف فيها بالبيع لشخص أخر .

رأى الكنيسة الكاثوليكية :

وقد شرح الدانمركى Wieth Kondsren اتجاه الكنيسة الكاثوليكية نحو المرأة بقوله : خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوربية محدودة جدا تبعا لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يعد المرأة مخلوقا من المرتبة الثانية .

فرنسا تتساءل : هل المرأة إنسان ؟

وفى فرنسا عقد اجتماع سنة ٥٨٦م يبحث شأن المرأة وما إذا كانت تُعدُ إنسانا ؟ وبعد النقاش قرر المجتمعون أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقه لخدمة الرجل .

وهكذا أثبت الفرنسيون فى هذا التاريخ فقط إنسانية المرأة ، تلك الإنسانية التى كانت مشكوكا فيها عندهم من قبل ، وحتى عندما أثبتوها لم يثبتوها كاملة ، وانما جعلوا المرأة تابعا وخادما للرجل ، ومن أجل هذا مرّ الزمن حتى عصرنا الحديث والمرأة الفرنسية محرومة من أبسط الحقوق التى مُنحتْها المرأة المسلمة منذ مئات السنين . وقد صدر قانون فى فبراير سنة ١٩٣٨م

يلغي القوانين التى كانت تمنع المرأة الفرنسية من بعض التصرفات المالية ، ويجيز لها لأول مرة في تاريخها أن تفتح حسابا جاريا باسمها فى البنك وأن توقع بالتالى على شيكات الصرف ، وأن تمضى العقود المالية ، وتستولى على الإرث .

وكانت المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون الفرنسى تنص على الآتى : " المرأة المتزوجة ، حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض ، بدون اشتراك زوجها فى العقد أى موافقته عليه موافقة كتابية .

انجلترا فى القرن التاسع عشر :

وفى انجلترا حرم هنرى الثامن على المرأة الانجليزية قراءة الكتاب المقدس ، وظلت النساء حتى سنة ١٨٥٠م ليس لهن حقوق شخصية ، فلا حق لهن فى التملك الخالص ، وانما كانت المرأة ذائبة فى أبيها أو زوجها ، ولم تكن النساء معدودات من المواطنين .

انجلترا فى القرن العشرين :

وعندما كنت طالبا فى جامعة كمبردج بانجلترا فى منتصف القرن العشرين لم يكن للطالبات الحق فى الاشتراك فى أندية الطلاب ولا اتحاد الطلبة بالجامعة العريقة ، ولم تسو جامعة كمبردج واكسفورد بين الطالبات والطلاب إلا بقرار صدر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٤ .

ثانيـاً : الإسلام والمرأة

أكرم الإسلام المرأة أعظم إكرام ، واهتم بها أعظم اهتمام ، وأنقذها مما كانت تقاسيه من عناء القرون فى مختلف الأمكنة . والذى يطالع القرآن

الكريم يجد عناية واضحة جاء بها الإسلام لحماية إلمرأة ، ونعطى فيما يلى صورا من إنصاف الإسلام للمرأة :

حق المرأة فى الميراث .

عن حق المرأة فى الميراث يقول تعالى : " للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا " (سورة النساء ٧) .

والذى يتأمل هذه الآية الكريمة يجد بها إجمالا لحقوق المرأة فى الميراث فصّلته آيات أخرى ، والمهم هنا أن هذه الآية تثبت هذا الحق بنفس الكلمات التي تثبت حقوق الرجل وهى " للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ". فهذه الكلمات تكررت بنفسها مع النساء ، ثم تستمر الآية فتقرر أن هذا النصيب لازم فى الميراث القليل أو الكثير حتى لا يقول الرجال إن الميراث القليل يبقى للرجال لأى سبب من الأسباب ، وتستمر الآية لتقرر أن هذا النصيب لا مندوحة عنه فهى نصيب مفروض .

حق المرأة فى العمل والكسب :

وإذا كان الحصول على المال فى الإسلام يجئ أساسا عن طريق الميراث وعن طريق العمل ، وإذا كانت الآية السابقة قد قررت حقوق المرأة فى الميراث فإن معنا آية أخرى تقرر حقوق المرأة فى العمل والكسب ، قال تعالى : " للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن " (النساء ٣٢) .

وقد تقررت حقوق المرأة بنفس الكلمات التي تقررت بها حقوق الرجل كما أوضحنا من قبل .

الأم فى القرآن والحديث :

وكانت توصية القرآن بالأم أقوى من توصيته بالأب ، قال تعالى : " ووصينا الانسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها " (سورة الاحقاف ١٥) ، وقال تعالى : " ووصينا الإنسان بوالدية حملته أمه وهنا على وهن " (سورة لقمان ١٤) . ففى هاتين الآيتين نجد أن القرآن الكريم يوصى بالأب والأم جميعا ، ثم يسجل ما عانته الأم من أجل ولدها ، ليهز بذلك إحساس الإنسان .

أما توصية الرسول بالأم فكانت قوية عندما أجاب الرجل الذى يسأله : من أحق الناس بحسن صحبتى ؟ إذ قال له الرسول : أمك ، فعاد الرجل يسأل : ثم من ؟ فقال الرسول ثم أمك . فسأله الرجل لثالث مرة : ثم من ؟ فأجاب الرسول : ثم أمك . قال الرجل : ثم من ؟ فقال الرسول فى الرابعة : ثم ابوك .

عند الخلاف مع زوجها :

وعند الخلاف بين الزوجين جعل الإسلام من درجات التوفيق أن يعين ممثل للزوجة وممثل للزوج قال تعالى : " فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها " (سورة النساء ٣٥) .

القيمة الإنسانية والمساواة :

قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة ، كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون وفى الحقوق العامة ، وجعل المرأة مساوية للرجل فى هذه الشئون ، قال تعالى : " ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف " (سورة البقرة ٢٢٨) ، وقال " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " (سورة التوبة : ٨١) .

وهكذا نجد الآيات تجمع الذكر والانثى تحت حكم واحد ، وتقضى قضاء مبرما على التفرقة بين الرجل والمرأة ، بل إن الفكر الاسلامى يجعل لنمراة نصيبيا يعادل نصيب زوجها فى جهاده عن الوطن وسعيه للمعاش ، اذا احسنت الزوجة العشرة ورعت غيبة الزوج ، فقد ورد فى ترجمة أسماء بنت يزيد الانصارية فى " الاستبصار " أن رفيقات لها بعثن بها للرسول لتقول له : ان الرجال يخرجون للجهاد ، ويشهدون الجنائز ، ونحن فى البيوت نحفظ لهم أموالهم ، ونربى الاولاد ، فهل نشاركهم فى الأجر ؟

فقال الرسول : يا أسماء ، أعلمى من وراءك من النساء أن حُسْن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها مرضاته ، تعدل كل ما ذكرت .

فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشارا .

الشيخ محمد عبده وتفسير بعض آيات خاصة بالمراة :

نعود لآية كريمة اقتبسناها من قبل ، وهى قوله تعالى : " ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف " ويقول الامام محمد عبده فى تفسيره هذه الآية : ان هذه قاعدة كلية قاطعة بان المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق ، فالرجل والمرأة متماثلان فى الذات والاحساس والشعور والعقل " .

ويجىء بعد هذه الجملة قوله تعالى : " وللرجال عليهن درجة " ومعنى هذا انه عند اختلاف وجهات النظر يكون الرأى للرجل ، فكل التجمعات لابد ان يكون بها رئيس يفكر ويستشير ويُرْجع الى رأيه عند الخلاف ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ ، وهو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها .

ويختم الامام كلامه بقوله : " اعلموا ان الرجال الذين يظلمون نساءهم ويحاولون ان يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيدا "

وننتقل الى آية أخرى هى قوله تعالى : " وأخذن منكم ميثاقا غليظا " ويعلق الامام عليها تعليق رائعا ، وهاك كلماته : " إن هذا الميثاق الذى أخذته النساء من الرجال يوضحه قوله تعالي : " ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة " ، فهذه الآية توضح أن المرأة لا تقدم على الزواج وترضى بان تترك أهلها لأجل زوجها إلا وهى واثقة بأن تكون صلتها به أقوى من كل صلة .

حسن العلاقة بين الزوجين :

ويرسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، الطريق لمعاملة طيبة بين الزوج والزوجة ، ويلزم كلا منهما برعاية الآخر . وفيما يلى بعض أحاديثة فى هذا الشأن :

- كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها .

ويهتف عليه السلام بالرجال قائلا :

- إستوصوا بالنساء خيرا .

- خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .

كما يهتف بالزوجات قائلا :

أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة .

- لو كنت آمرا احدا ان يسجد لاحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

البنت يؤخذ رأيها فى الزواج :

يقول صلى الله عليه وسلم : لاتزوج الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن . وقال الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن وإذنها صمتها .

ويعلق الامام محمد عبده على قوله تعالى : " فلا تعضلوهن أن ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف " (البقرة ٢٣٢) بقوله : اذا تراضى

من يود التزوج من الرجال والنساء ، بأن رضى كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجا ، فانه يحرم حينئذ عضلها أى امتناع الوالى ان يزوجها مادام لم يقم مانع شرعى لمنع هذا الزواج .

ومعنى هذا الكلام ان رضاء المرأة أساس كمال الزواج .

المرأة وطلب العلم :

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ويقرر الامام محمد عبده ان المقصود بالعلم ليس فقط العلوم الدينية ، بل ان المقصود الاعظم هو نظام بيتها وتربية اولادها وغيرها ذلك من العلوم التى تحتاجها فى بينها والتى تختلف باختلاف الزمان والمكان ، اما القدر اللازم للمرأة من العلوم الدينية فمحدود بمعرفة العبادات والآداب الإسلامية .

وبهذا كله قرر الإسلام للمرأة قمة التقدير والاحترام .

ثالثاً : المفكرون الغربيون والمرأة المسلمة

وقد اعترف كبار المفكرين الغربيين بفضل ما قرره الإسلام للمرأة من حقوق ، وفيما يلى نماذج قصيرة من أقوال هؤلاء :

يقول غوستاف لوبون : أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المراة ، وإذن فليست المسيحية كما يظن بعض الناس فى الغرب، هى التى انصفت المرأة بل الاسلام .

وتقول الدكتور لورافيشا فاليرى استاذة الحضارة الانسانية بجامعة نابولى : أعطى الاسلام المرأة حقوقا عظيمة وكرمها أجل تكريم ، واذا كانت المرأة فى اوربا قد بلغت شأنا عظيما فى السنوات الأخيرة ، فان مركزها قانونا كان الى الى وقت أقل بكثير من مزكز المرأة المسلمة ، فالمرأة المسلمة

تشارك أخوتها فى الميراث ولا تتزوج بغير رضاها ولا تكره على معاشرة زوج يسيء معاملتها ، والزوج مسئول عن الانفاق عليها حتى لو كانت موسرة ، وتتمتع بكامل استقلالها وحريتها فى إدارة ممتلكاتها .

وتقول أنى بيزانت: كثيرا مايرد على فكرى ان المرأة فى ظل الاسلام أكثر حرية من المرأة فى ظل كل الأديان ، فالاسلام يحمى حقوق المرأة اكثر من المسيحية ، وتعاليم القرآن بالنسبة للمرأة أكثر عدالة وأضمن لحريتها ، فبينما لم تنل المرأة حق الملكية فى انجلترا إلا منذ حوالى عشرين سنة فاننا نجد الاسلام قد أثبت لها هذا الحق منذ خطواته الأولى ، اى منذ اكثر من اربعة عشر قرنا .

رابعاً : اقتراحات جديدة لوثيقة الزواج

والآن نتجه لمناقشة الاقتراحات الجديدة لوثيقة الزواج ، فقد خرجت علينا الصحافة فى مطالع عام ١٩٩٥ باقتراحات جديدة لتضاف الى وثيقة الزواج بمصر ، وتعرض هذه الاقتراحات على المُقدم على الزواج ، فاذا قبلها التزم بها ، وهذه الاقتراحات هى :

١- أن تكمل العروس تعليمها اذا كانت لم تكمل هذا التعليم .

٢- الموافقة على ان تكون الشقة لها ، اذا طلقها بدون رغبتها وكذلك الأثاث .

٣- أن يكون هناك تعويض لها ، فى حالة الطلاق بدون اذنها ، وسؤال عن طريقة دفع هذا التعويض .

٤- ألا يمنعها من العمل .

٥- أن يكون من حقها أن تنتقل من عمل الى آخر بدون إذنه .

٦- ان تسافر للداخل والخارج وحدها او مع أولادها منه بدون إذنه .

٧- الا يتزوج عليها ، فان فعل كان لها الحق فى أن تطلب الطلاق وتناله ، وتنال كل الحقوق باعتبارها معتدى عليها فى هذا الزواج .

٨- ان تكون العصمة فى يدها .

٩- أن يذهبا للطبيب لإثبات صلاحيتهما للزواج والانجاب قبل ان يعقدا قرانهما .

وقبل ان نناقش هذه المقترحات فى ضوء الفكر الاسلامى والاجتماعى نثبت الحقائق التالية :-

أولا : - نثبت دهشتنا ان تكون هذه المقترحات وافدة علينا من الخارج ، وقد كتب الاستاذ صلاح قبضايا فى الاخبار الصادرة فى ١٩٩٥/٣/١ يتساءل عن الدوافع الخفية وراء هذا المشروع التى احتشدت من أجله قوى عديدة وكثيرة كان يظنها متنافرة ، حتى جمعت بينها هذه الاقتراحات ؟

ويقول كذلك " وقد بلغنا ان مؤسسات عالمية عديدة تساهم فى تمويل الجهات التى خرجت علينا بهذا المشروع ، ونأمل ان تذيع وزارة الشئون الاجتماعية قائمة بأسماء الجهات التى تشارك فى اقتراحات هذه الوثيقة والمبالغ التى تتلقاها من الخارج ، وتحت أيدينا قائمة غير مكتملة لبعض هذه الجهات التى ارسلت أموالا لهذا الغرض ، والانسان الغيور على بلاده تأخذه الحسرة أن تستطيع جهات خارجية ان تقتحم علينا حياتنا الاجتماعية لتقدم هذا العمل المشبوه ، وتجد من يستمع لها ويستجيب " .

والاستاذ صلاح قبضايا يُذكر هؤلاء الذين يدعون الحرص على مصالح المرأة بما حدث للنساء فى البوسنه والهرسك والشيشان من جوع واغتصاب وهتك اعراض .

ثانيا : وبشىء من الصبر والموضوعية أحب ان اقول بادئ ذى بدء اننا نعانى من مشكله إعراض الشباب عن الزواج بسبب الضائقة الاقتصادية

وندرة المساكن ، وهذه الاقتراحات ستزيد القضية تعقيدا ، وسيكون من نتائجها مزيد من إعراض الشباب عن الزواج ، فاذا قبلها الشاب فانها ستكون مصدر قلق فى حياته ولن يحدث معها استقرار للحياة الزوجية .

ثالثاً : وينبه الأستاذ صلاح قبضايا فى مقاله السابق أصحاب الاقتراحات إلى مشكلة العنوسة فى مصر ، ومشكلة الزواج السرى ، بل تجنيد الفتية والفتيات وضمهم إلى منظمات إرهابية منحرفة من خلال تسهيل الزواج .

ويمكن أن أنظر لهذه الشروط نظره دينية اجتماعية وأبدى فيها رأيى وأرجو من الله التوفيق .

من جهة أن **تكمل العروس تعليمها** بعد الزواج أرى أنه لابأس من هذا بشرط أن يكون عندها استعداد لذلك ، فإذا توقف ذهنها عن الاستيعاب والنجاح فى الامتحانات وتكرر ذلك منها فلا معنى لمداومة المحاولة ، ويستوى فى ذلك فى تقديرى تعليمها للحصول على الدرجة الجامعية الأولى إذا كانت لم تحصل بعد هذه الدرجة ، أو الحصول على الماجستير والدكتوراه إذا كانت مؤهلة وسائرة فى هذه الدراسة .

وموضوع الشقة مرفوض فعودة المرأة إلى بيت أبيها أو أخيها أيسر من تشريد الرجل المرتبط بعمل معين ، أما الأثاث فيتبع مالكه فان كانت المرأة قد أحضرته فيمكن أن تأخذه ، وعلى كل فالاتفاق عليه ممكن .

وأوافق كذلك على **دفع تعويض لها** بنسبة مكثها مع الرجل ومساهمتها معه فى تحقيق الثراء ، ويكون التعويض عند حاجتها من جانب وشهريا من جانب آخر ، وبشرط أن يكون الطلاق ليس بسبب منها ولا بموافقتها .

أما السفر بدون إذن زوجها وحدها أو مع أولادها فمطلب عجيب ، فكيف تسافر الزوجة بدون إذن زوجها أى أن يصبح الزوج أو أن يعود من عمله

فيجد أن زوجته غادرت البلاد إلى حيث شاءت ، إنها مأساة تدمر الحياة الزوجية وإذا أخذت أولاده معها فالطامة أشد كأنه لا أولاد له .

أما عن العمل فكيف يجوز لها أن تنتقل من عمل إلى آخر بدون إذنه ، فماذا لو كان موافقاً على أن تعمل بالتدريس مثلا فذلك أقرب للحصانة والراحة الزوجية ، ولكنها أرادت أن تنتقل إلى العمل بسكرتارية أو فى المصانع مما يخلق معه بعض الشبهات والمتاعب ، وكيف لو كان فى العمل الجديد غريم له كان ينافسه فى حبها .

وكيف تشترط عليه أن تعمل وألا يوقفها عن العمل إذا تيسرت الأمور الإقتصادية ، ولم تعد هناك حاجة لعمل المرأة واحتاج الأولاد لرعايتها ، ومن المسلم به ان رعاية الأولاد والزوج عمل من أقدس الأعمال .

أما الكلام عن تعدد الزوجات واشتراط الوثيقة على الرجل ألا يتزوج عليها فموضوع مهم ، والمرأة عادة تصرخ ضد تعدد الزوجات ، وأضع أمامها الحقائق التالية :

١- تعدد الزوجات ليس من وضع الإسلام ، فكل الأديان السماوية الوضعية كانت تبيحه ولا يزال بعضها يبيحه حتى الآن .

٢- تعدد الزوجات بشكل غير مشروع شائع فى الغرب ، ويوجد أطفال غير شرعيين من هذا الاتصال ، وتقول الإحصائيات إن عددهم كل عام حوالى عشرة ملايين لا يعرفون لهم آباء ، فهل ترضى المرأة المسلمة أن يشيع هذا فى أرض الإسلام .

٣- الرجل عندما يتزوج امرأة ثانية هو يحمى امرأة من أن تصبح عانساً أو مهملة ، فتمسك الزوجة الأولى برجل وحدها أنانية ، وهو ليس حرباً ضد الرجل بمقدار ما هو حرب ضد بنات جنسها .

٤- المرأة المريضة أو العاقر هل من مصلحتها أن تبقى ويتزوج زوجها أخرى ، أو أن من مصلحتها أن تطلق قبل زواجه بأخرى كما تقضى بذلك بعض الأديان .

٥- ما العمل فى زيادة عدد النساء على الرجال فى الاحصاء العام وبخاصة عقب الحروب .

٦- إذا أجمعت السيدات على محاربة تعدد الزوجات فما عليهن إلا أن يتفقن على ألا يتزوجن من متزوج ، وإذا إستطعن تنفيذ ذلك فإن تعدد الزوجات سينتهى .

أما الكلام عن العصمة فقد أجلته قصداً ، وتحضرنى قصة واقعية ، فقد كنت القى محاضرة على مجموعة كبيرة من السيدات في نادى هدى شعراوى سألتنى سيدة : لماذا لاتكون العصمة في يد المرأة كما هى فى يد الرجل ؟ وأجبت في هدوء : لو كانت العصمة فى أيدى النساء لطلقن الرجال فى أقصر وقت ، فالمرأة شديدة الحساسية وعاطفتها ملتهبة ، وذلك شئ من دواعى الطبيعة ، فإذا اغضبها زوجها أو حدث خلاف بينهما فيخشى ان تسرع بطلاقه .

أما الرجل فيغضب ويتمالك نفسه ، أو يخرج من البيت حتى تهدأ الأمور .

ومن القصص التاريخية أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذهب مرة لزيارة ابنته السيدة فاطمة ولم يجد علياً بالبيت فسألها عنه ، فقالت : تغاضبنا وخرج ، ويلاحظ العدالة والدقة فى تعبيرها فهى لم تقل : أغضبنى ، وإنما قالت تغاضبنا أى أن كلاً منا أغضب الآخر ، وخرج الرسول ليبحث عنه فوجده في المسجد وعرف أنه صلى وأجاب عن بعض أسئلة فقهية ثم نام فأيقظه الرسول وقال له : قم يا أبا تراب لأن تراب المسجد كان قد أثر فيه .

هنا نمط طيب يحتذى من الزوجة والزوج ووالد الزوجة .

وبعد .... نحن نريد ان يتذكر الزوجان قوله تعالى : " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن (البقرة ١٨٧) ، وقوله تعالى : " ومن اياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة " (الروم ٢١) .

والحياة تعاون وود والتزام بتربية الأولاد الذين يمثلون ثمرة الأسرة ، والخلاف بين الزوجين ضياع لهذه الثمرة وهى من أهم أهداف الزواج .

ومن الاقتراحات الجديدة أن يعرض العريس والعروس نفسيهما على الطبيب قبل عقد القران ليقرر صلاحيتهما للزواج والإنجاب ، والإنسان تصيبه الدهشة أن يذهب اثنان جمع الحب بين قلبيهما إلى طبيب ليوافق على الزواج أو ليفرق بينهما ، وملايين الزيجات مرت بدون طبيب ، والغالبية العظمى منها حققت النجاح والأولاد .

وأخيرا فنحن نهمس في أذن المرأة ألا تقيم صراعا بينها وبين زوجها ، فالإسلام يحث على قيام المودة والمحبة بين الطرفين ، ولتتذكر المرأة أن القوانين الجديدة إن عدت انتصارا لها على زوجها ، ستكون انتصارا لزوجة ابنها على ابنها ، ولزوجة أخيها على أخيها . فلتقنع المرأة بمكانها ومكانتها التى حددها الإسلام ، ولتعش مع زوجها فى تعاون ووئام دون محاولة الانتصار .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المحاضرة الثامنة

حديث القرآن الكريم عن العلم والعلماء

فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوى

٨ مايو ١٩٩٥م

٨ ذى الحجة ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

الأستاذ الدكتور عارف الدسوقى يعقب على المحاضرة .

على المنصة : المحاضر الامام الاكبر شيخ الأزهر والى يمينه الاستاذ رشاد المراغي وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوى (١) ، من مواليد سنة ١٩٢٨ بطما بمحافظة سوهاج . وقد حصل فضيلته على الثانوية الأزهرية سنة ١٩٥٤ ، وتخرج من كلية أصول الدين سنة ١٩٥٨ ، وحصل منها على الدكتوراه فى التفسير والحديث سنة ١٩٦٦ ، وعمل مدرسا بها ، وتدرج بهيئة التدريس الجامعى حتى صار عميدا لكلية أصول الدين سنة ١٩٧٦ .

ولقد أعير فضيلته للتدريس فى عدة جامعات : بالعراق ، وليبيا ، والمملكة

---

(١) ألقى فضيلته هذه المحاضرة وهو مفتى جمهورية مصر ، وتقلد فضيلته مشيخة الأزهر الشريف فى ٢٧ مارس سنة ١٩٩٦م الموافق ٨ ذو القعدة سنة ١٤١٦هـ .

العربية السعودية ، وساهم بمصر والخارج فى مختلف المؤتمرات الإسلامية ، كما أسهم فى العديد من البرامج الدينية بأجهزة الإعلام المختلفة .

ومن أهم مؤلفات فضيلته (التفسير الوسيط للقرآن الكريم) عدد ١٥ (خمسة عشر مجلدا ضخما) ، مما لايقدر عليه سوى كبار أئمة وشيوخ الإسلام . هذا بخلاف بحوثه المتعمقة لمختلف المعاملات المالية المستحدثة ، وبيان أحكامها الشرعية ... وكذا دراساته العديدة المتميزة لكل ما يستجد على الساحة الإسلامية ، من مشكلات وتحديات .

ولقد أختير فضيلته ، مفتياً لجمهورية مصر العربية فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٨٦ ، ليكون الخامس عشر فى سلسلة من تولوا شرف الافتاء من كبار العلماء ، منذ إنشاء دار الافتاء المصرية فى نوفمبر سنة ١٨٨٥ الموافق جمادى الثانية سنة ١٣٠٥هـ .

لقد كان أول من حمل لقب مفتى الديار المصرية ، وقتئذ فضيلة الشيخ حسونة النواوى ، ثم أعقبه سنة ١٨٩٩ فضيلة الإمام الشيخ / محمد عبده ، رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية الأسبق ، والذى قاد حركة الاصلاح الدينى فى مصر ، وكان شخصية تاريخة بارزة على المستوى الوطنى والعربى والإسلامى ، وارتفع بوظيفة ورسالة الافتاء .

ولقد جاء على نهج الإمام الشيخ محمد عبده ، فضيلة محاضرنا الأستاذ الدكتور الشيخ محمد سيد طنطاوى .. فهو عالم متمكن متواضع ، ومناضل قوى واسع الأفق ... نذر نفسه للدفاع عن الإسلام فى مصر والخارج ، وعرض رؤياه وحلوله الإسلامية لمختلف مشكلات وتحديات العصر ، بحيث أصبح اليوم يمثل لدى جماهير المسلمين رمزاً لليقظة الإسلامية ... وأملا فى الأصلاح والتغيير نحو الأفضل .

ولاشك أن اختيار فضيلته المحاضرة فى موضوع (حديث القرآن عن العلم والعلماء) ، هو اختيار دقيق ومناسب ، ذلك أننا مقدمون على عالم جديد ومتغيرات جذرية فى الحياة ، على ضوء ثورة اليوم فى التكنولوجيا والمعلومات .

وكما هو معروف فإن العلم الإسلامى لا يقتصر على العلم النظرى أو الدينى ممثلا فى **القرآن وهو كتاب الله المقروء** ، وإنما يمتد أساسا إلى العلم العملى أو التجريبى ممثلا فى **الكون وهو كتاب الله المنظور** ... كما أن التقدم العلمى المادى ، كما نراه اليوم فى الغرب ، أصبح ينذر بخطر شديد ، طالما لم يتوافر صمام أمانه وهو ابتغاء وجه الله .

إنه لن يعود الإسلام رسالة فى الحياة ، ومنهجاً للبشر كافة ، وقاطرة للتاريخ ، إلا من خلال العلم ، كما أظهره الإسلام أى بجناحيه المادى والروحى ... وصدق الله العظيم (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون – الزمر / ٩) وقوله تعالى : " ومن كان فى هذه أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا – الاسراء / ٧٢) ... **وصدق الرسول الكريم** ، إن (قليل العمل مع العلم كثير ، وإن كثيره مع الجهل قليل) ، وإن (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) ، وإن (مداد العلماء احب إلى الله من دماء الشهداء) ... ذلك أنه كلما ازداد الإنسان علما نافعا ، ازداد خشية وابتغاء لوجه الله ، وازداد عطاء ، ونفعا لمجتمعه .

وبعد فان الجمعية الخيرية الإسلامية ، ليشرفها أن يختم موسمها الثقافى لعام ١٩٩٤ / ١٩٩٥ ، فضيلة الاستاذ الدكتور الشيخ محمد سيد طنطاوى ، الرجل الذى دخل التاريخ بتقديمه للإمة الإسلامية ، تفسيره الوسيط للقرآن الكريم فى خمسة عشر مجلدا ضخماً .... وهو الرجل الذى لم يتردد لحظة واحدة ، فى خوض معارك شرسة دفاعاً عن اجتهاده ، وما ارتآه صوابا ،

واستطاع بذلك أن يوطد أدب الخلاف وممارسته عملياً ، وأن يكسر الجمود الفكرى فى مسائل دقيقة حسلسة كفتاويه فى شأن شهادات الاستثمار والعمليات المصرفية المستحدثة ، وبيانه لحكم الحج الحكومى المجانى فى دولة تشكو من الفقر والديون ، وقضايا الإرهاب وختان البنات ... إلى آخر ذلك من قضايا اليوم الساخنة والشائكة .

وهو الرجل الذى لم يكتف فى دعوته بمصر والعالم الإسلامى ، وإنما امتد إلى الخارج وإلى أمريكا ... فقدم لبلده ولدينه أجلّ الخدمات ، وما زلنا نرجو ونطمع منه الكثير والكثير فى خدمة الإسلام والمسلمين ... بحيث لا أملك فى هذا المقام ، إلا أن اتجه إلى الله تعالى أن يطيل عمره ، ويشد أزره ، ويسدد خطاه .

كلمة فضلية الإمام الأكبر الدكتور / محمد سيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

وبعد : فمن الحقائق المقررة ، والمسائل المؤكدة ، أن شريعة الإسلام قد سمت بفضيلة العلم سموا عظيما ، وكرمت العلماء الذين سخروا علمهم لخدمة الحق والفضائل والمنافع المشروعة ، تكريما لا مزيد عليه .

ويكفى للدلالة على صدق هذه الحقيقة ، أنك اذا قرأت القرآن الكريم بتدبر وتفهم ، ترى أن مادة " علم " المكونة من العين واللام والميم ، وما اشتق منها ، قد تكررت فى القرآن الكريم ، مئات المرات .

فمثلا لفظ " عليم " تكرر فى القرآن الكريم ، مائة وأربعين مرة . ولفظ " العلم " تكرر ثمانين مرة . ولفظ " يعلم " تكرر ثلاثا وتسعين مرة . ولفظ

" يعلمون " تكرر خمسا وثمانين مرة . . وهكذا نجد أن هذه المادة وما اشتق منها ، وهى مادة " علم " ، قد تميز حديث القرآن عنها بالتفصيل الواسع ، وبالتنوع الحكيم .

وهناك بعض النماذج لحديث القرآن الكريم عن العلم النافع للناس فى كل زمان ومكان ، وعن دعوة أتباعه لأن يأخذوا بسلاح العلم ، وبالرقى به إلى أسمى ألوانه ، وبمسايرته لظروف الناس وحاجاتهم ، وبالانتفاع بعلم غيرهم مادام هذا العلم لا يتعارض مع عقيدتهم ، وشعائر دينهم ، إذ العلم لا وطن له، وعلينا أن نطلبه من مصادره ومن أماكنه ، مهما بعدت هذه الأماكن عنا .

وكما فصل القرآن الكريم ، الحديث عن العلم النافع ، وعن وجوب طلبه ، فصل أيضا الحديث عن أهله الذين عشقوه ، وسهروا لتحصيله ، وأثنى عليهم ثناء عاطرا .

ففى سورة البقرة ، نجد آيات كريمة قصت علينا جانبا من قصة آدم – عليه السلام – : وهذه الآيات هى قوله – تعالى – : " واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " (الآيات ٣٠ – ٣٣) .

فهذه الآيات الكريمة من الحكم التى نأخذها منها : أن سياسة الأمم على الطريقة المثلى إنما تقوم على أساس راسخ من العلم ، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة ، وأن ادم – عليه السلام – قد فضله الله تعالى على

الملائكة ، ليس لقوة بدنه ، أو لجمال هيئته ، أو لغير ذلك من الصفات ، وإنما فضّله – سبحانه – عليهم ، بسبب مامنحه من علم نافع ، لم يمنحه لهم .

وفى سورة " آل عمران " نرى آيات كريمة ، تمدح الراسخين فى العلم ، الذين تمكن العلم النافع من قلوبهم ، فجعلهم يهتدون إلى الحق ، ويتضرعون إلى خالقهم يسألونه الثبات عليه ، والرحمة منه وهذه الآيات هى قوله – سبحانه – : " هو الذى أنزل إليك الكتاب منه آيات محكمات ، هُنّ أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ان الله لايخلف الميعاد " (الآيات ٧ : ٩)

وفى السورة ذاتها ، نجد آية كريمة ، تصرح بأن على رأس الخلائق الذين شهدوا لله بالوحدانية ، وبأنه لا معبود بحق سواه ، هم العلماء الأخيار الذين صفت عقولهم ، وطهرت قلوبهم ....

استمع إلى قوله – تعالى – : " شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولوا العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم " (الآية : ١٨)

أى : أخبر الله – تعالى – عباده ، وأعلمهم عن طريق الآيات القرآنية التى أنزلها على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن طريق الآيات الكونية التى لا يقدر على خلقها أحد سواه ، وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التى تشهد بوحدانيته ، أنه لا معبود بحق سواه ، وأنه هو المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق ، وشهد بذلك – أيضا – الملائكة المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وشهد لله – تعالى – بالوحدانية – أيضا –

أصحاب العلم النافع ، بأن اعترفوا له – سبحانه – بأنه هو المستحق للعبادة والطاعة .

قال الامام القرطبي : " **وفى هذه الآية دليل على شرف العلم وفضل العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله – تعالى – باسمه وباسم ملائكته كما قرن العلماء ... وهذا شرف للعلماء عظيم ، ومحل لهم فى الدين خطير** " (١)

والمراد بأولى العلم هنا : جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم – سبحانه – من علم ومعرفة ، فى خدمة دينهم ، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم ، وصدقوا فى أقوالهم وأفعالهم ، **سواء أكان علمهم يتعلق بالجوانب الدينية ، أم الطبية ، أم الزراعية ، أم الصناعية ، أم التجارية ، أم غير ذلك من شتى ألوان العلوم النافعة** ، والتى تتجدد وترتقى من عصر الى عصر ، ومن موطن إلى آخر .

وفى سورة " التوبة " آية حكيمة ، أشارت إلى أن الذين يخدمون أمتهم عن طريق علمهم السديد ، لا يقلون فى المنزلة عن أولئك الذين يخدمون أمتهم عن طريق الجهاد فى سبيل الله تعالى .

استمع إلى قوله – عز وجل – : " وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون " (سورة التوبة : الآية ١٢٢)

والمعنى : ما صح وما استقام أن يخرج جميع المؤمنين لقتال أعدائهم إذا كان بعضهم يغنى فى دحر أولئك الأعداء ، وإنما الذى يصح والذى يستقيم أن يقسم المؤمنون أنفسهم إلى قسمين : قسم يتفرغ لقتال الاعداء ، والقسم الآخر

---

(١) تفسير القرطبي جـ٤ صـ ٤١ .

يتفرغ للتفقه فى الدين ، ولتعلم العلم النافع ولتعليمه لغيرهم ، وبذلك يجمعون بين المصلحتين : مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان ، ومصلحة الدفاع عنه بالسيف والسنان .

ومن الأحكام التى أخذها الفقهاء من هذه الآية : وجوب طلب العلم ، والتفقه فى دين الله – تعالى – وتعليم الناس إياه .

وفى سورة " الرعد " آية كريمة ، أشارت إلى أن الله – تعالى – قد أمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يخبر أعداءه بأنه تكفى شهادة الله تعالى بشأنه ، وشهادة أولى العلم الصادقين المطلعين على الكتب السماوية السابقة .

قال تعالى : " ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب " (الآية : ٤٣) .

أى : ويقول الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، إنك يا محمد لست مرسلا من عند الله – تعالى – ، قل لهم على سبيل التعليم والتوبيخ : تكفى شهادة الله – تعالى – بينى وبينكم ، فهو يعلم صدق دعوتى ، ويعلم كذبكم ، ويعلم ذلك – أيضا – كل من كان على علم بالكتب السماوية السابقة ، فإنها قد بشرت برسالتى ، وجاءت أو صافى فيها . .

وممن شهد لى بالنبوة ممن عندهم علم بالكتب السماوية : ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن سلام ، وغيرهما من أولى العلم النافع ، والعقل السليم ، والسلوك القويم .

وفى سورة " الإسراء " ايات كريمة ، بينت ووضحت بأن العلم المصحوب بالنوايا الطيبة او النافع من النفوس الطاهرة ، يجعل صاحبه يسارع إلى اتباع الحق بخشية ، وبشدة تأثر ، وبتقديس وتنزيه لله – تعالى – عما لا يليق .

وهذه الآيات هى قوله تعالى : " قل آمنوا به أولا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ". (الآيات ١٠٧ - ١٠٩) .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للجاهلين من المشركين الذين طلبوا منك ما هو خارج عن وظيفتك ، قل لهم : آمنوا بهذا القرآن أولا تؤمنوا به ، لأن إيمانكم به لا يزيده كمالا ، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئا ، فإن علماء أهل الكتاب الذى آتاهم الله - تعالى - العلم النافع قبل نزول هذا القرآن ، وميزوا بين الحق والباطل ، كانوا إذا يتلى عليهم هذا القرآن ، يسقطون على وجوههم ساجدين لخالقهم ، شاكرين له تفضله بإرسالك رحمة للعالمين ، ويقولون فى سجودهم : ننزه ربنا عن كل ما يقوله الجاهلون ، ونثنى عليه أجزل الثناء ، لإنزاله هذا القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم .

فالآيات الكريم فيها ما فيها من التسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكأنه - عز وجل - يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم - يا محمد : لا تطمع فى إيمان هؤلاء الجهلاء ، واكتف بإيمان العلماء ، الذين سخروا علمهم لخدمة الحق ، وتأثروا به تأثرا فاضت معه دموعهم من خشية الله تعالى .

وفى سورة " طه " آية حكيمة ، أمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل خالقه - عز وجل - أن يسأله المزيد من العلم النافع ، فقال تعالى : " فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علما " (الآية : ١١٤)

أى : أكثر - أيها الرسول الكريم - من تعظيم خالقك وتقديسه وتسبيحه وتحميده وتكبيره ، ولا تتعجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من

إبلاغه إليك ، وقل – أيها الرسول الكريم – مخاطبا ربك ومتوسلا إليه بقولك : يا رب زدنى من العلم النافع .

قال الآلوسى : " واستدلوا بالآية على فضل العلم ، حيث أمر – سبحانه – رسوله – صلى الله عليه وسلم – بطلب الزيادة منه . **وذكر بعضهم أنه – صلى الله عليه وسلم – ما أمر بطلب الزيادة فى شئ سوى العلم** ، وكان – صلى الله عليه وسلم – يقول : " اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما " . وكان يقول : " اللهم زدنى إيمانا وفقها ويقينا وعلما " (١)

وفى سورة " النمل " نجد آيات كريمة ، تشير إلى أن أصحاب العلم النافع دائما يسبقون غيرهم فى كل مجال من مجالات الحياة ، بدليل أن سليمان – عليه السلام – عندما طلب من جنوده أن يحضروا له عرش ملكة سبأ من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، كان السباق إلى احضار هذا العرش فى أقل من طرفة عين ، رجل آتاه الله تعالى علما من الكتاب

واستمع إلى القرآن وهو يحكى هذه الحقائق فيقول : " قال – أى : سليمان – يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . . " (الآيات : ٣٨ – ٤٠)

أى : قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله تعالى : يا سليمان أنا آتيك بعرش بلقيس من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ..

وفى ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله ، وشرف حامليه

---

(١) تفسير الالوسى جـ ١٦ صـ ٢٦٩ .

وفضلهم ، وأن هذه الكرامة التى وهبها الله تعالى لهذا الرجل ، كانت بسبب ما أتاه سبحانه من علم نافع .

وفي سورة " القصص " نجد آيات كريمة تعقد لنا مقارنة حكيمة بين الذين تبهرهم زينة الحياة الدنيا من الجهلاء ، وبين الذين يسمون بعلمهم وفضلهم عن هذه الزخارف الفانية ، ويضنون بعلمهم عن أن يهبطوا به إلى مستوى الذين يحترمون الطغاة من أجل ما لهم أو جاههم أو مظهرهم .

لقد بينت لنا السورة الكريمة قصة قارون ، وكيف أن الله – تعالى – آتاه المال الوفير ، ولكنه لم يشكر الله على نعمه ، بل طغى وبغى وتطاول واغتر وقال لمن نصحوه : إنما أوتيت هذا المال بجدى واجتهادى ، ثم خرج على قومه فى زينته ، فانقسم الناس فى شأنه إلى فريقين : فريق قال : " ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم "

أى : قال الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه ، ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من مال وزينة ورياش ، إنه لذو حظ عظيم ، ونصيب ضخم ، من متاع الدنيا وزينتها . أما فريق العلماء الحكماء الأخيار ، فقد قابلوا هذا القول بالزجر والتعنيف لأصحابه ، وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال : " **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون** " (الآية : ٨٠)

أى : وقال الذين أعطاهم الله – تعالى – العلم النافع ، والعفاف الأسمى ، من قوم قارون ، لمن يريدون الحياة الدنيا : كفوا عن قولكم هذا ، واتركوا الرغبة فى أن تكونوا مثله ، فإن ثواب الله فى الآخرة خير مما تمنيتموه ، وهذا الثواب إنما هو لمن آمن وعمل صالحا ، فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل ، وهذه المثوبة العظمى لا يظفر بها إلا الصابرون على طاعة الله تعالى .

وهكذا نرى أن أصحاب العلم النافع ، فى مجال تعمير الحياة بالخير الذى أحله الله – تعالى – يسبقون غيرهم ، وكذلك فى مجال العفاف والسمو النفسى والترفع عن الشهوات نراهم يسبقون غيرهم – أيضا – وينظرون إلى كل من طغا وبغى نظرة الاحتقار والاستخفاف مهما بلغ غناه وجاهه .

وفى سورة " **العنكبوت** " نجد أن الله – عز وجل – بعد أن يضرب الأمثال لمن يتخذ آلهة من دونه ، ويصور هؤلاء الجاهلين تصويرا تجعل كل عاقل ينفر منهم ، بعد كل ذلك يبين لنا – سبحانه – أن معرفة مقاصد أمثاله لا يفقهها إلا العلماء الفطناء .

استمع الى قوله – تعالى – : " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " (الآية : ٤٣) .

أى : وتلك الأمثال التى سقناها فى كتابنا العزيز ، نضربها للناس على سبيل الإرشاد والتنبيه والتوضيح ، وما يعقل هذه الأمثال ، ويفهم صحتها وحسنها ، إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى خلق الله تعالى ، الفاقهون لما يتلى عليهم .

وهذه شهادة عظيمة من الله – تعالى – لعباده العلماء الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، والذين منحهم من العقل السليم ، والنظر السديد ، ما جعلهم يفهمون الأمور على وجهها الصحيح .

وفى سورة " فاطر " نجد القرآن الكريم ، يصرح بأن أكثر الناس خشية لخالقهم – عز وجل – ، ومعرفة لجلاله وقدرته – سبحانه – هم العلماء الأصفياء العقلاء .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر هذه الحقائق بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول : " ألم تر أن الله أنزلَ من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جُددٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيبُ سود . ومن

الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور " (الآيتان : ٢٧ ، ٢٨)

والمعنى : لقد علمت – أيها العاقل – علما لا يخالطه شك، أن الله – تعالى – أنزل من السماء كثيرا ، فأخرج بسببه من الأرض ، ثمرات مختلفا ألوانها ، فبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر ، وبعضها حلو المذاق ، وبعضها ليس كذلك ، مع أنها جميعا تسقى بماء واحد .

وجعلنا كذلك بقدرتنا من الجبال قطعا ذات ألوان مختلفة ، فمنها : الأبيض ، ومنها : الأحمر ومنها : ما هو شديد السواد ، ومنها ما ليس كذلك ، مما يدل على عظيم قدرتنا ، وعلى بديع صنعنا .

ثم بين – سبحانه – أن هذا الاختلاف ليس مقصورا على الجبال فقال : " ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك " أى : ومن الناس والدواب والأنعام ، أصناف وأنواع مختلف ألوانها اختلافا كذلك الاختلاف الكائن فى قطع الجبال ، وفى أنواع الثمار ثم ختم – سبحانه – هذه النعم – ببيان أن أكثر الناس خشية للخالق – سبحانه – إنما هم العلماء الراسخون فى علمهم فقال : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " .

أى : إنما يخاف الله – تعالى – ويخشاه ، العالمون بما يليق بذاته وصفاته ، من تقديس وطاعة وإخلاص فى العبادة ، أما الجاهلون بذاته وصفاته – تعالى – فلا يخشونه ولا يخافون عقابه ، لا نطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ، وكفى بهذه الجملة الكريمة مدحا للعلماء ، حيث قصر – سبحانه – خشيته عليهم .

ولقد نفى – سبحانه – فى آيات متعددة المساواة بين العلماء الذين اهتدوا إلى الحق وعملوا به وسخروا علمهم فى تعمير الحياة بما أحله الله

- تعالى - من خيرات ، وبين أولئك الجهلاء الذين إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . .

ومن الآيات القرآنية التى أكدت ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد : " أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب "

وقوله - سبحانه - : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب " (الزمر : ٩)

أى : لا يستوى فى عدل الله - تعالى - أولئك الذين علموا الحق وعملوا به ، وأولئك الذين جهلوه وأعرضوا عنه .

ومن الآيات القرآنية التى رفعت من قدر العلماء ، وأعلت من منازلهم ، قوله - سبحانه - : " يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيل انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير " (سورة المجادلة : الآية ١١) .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، إذا قيل لكم توسعوا فى مجالسكم لتسع أكبر قدر من إخوانكم فامتثلوا واستجيبوا ؛ لأن فعلكم هذا يؤدى إلى أن يفسح الله - تعالى - لكم فى رحمته ، وفى منازلكم فى الجنة ، وفى كل شئ تحبونه .

وإذا قيل لكم - أيها المؤمنون - انهضوا من أماكنكم للتوسعة على المقبلين عليكم فانهضوا ولا تتكاسلوا ، فإنكم متى فعلتم ذلك رفع - سبحانه - المؤمنين الصادقين درجات عظيمة ، ورفع أهل العلم والفقه منكم درجات أعظم وأكبر .

وقد أخذ الفقهاء من هذه الآية الكريمة : فضل العلماء وسمو منزلتهم .

قال صاحب الكشاف : عن عبد الله بن مسعود أنه كان اذا قرأ هذه الآية قال : يأيها الناس افهموا هذه الآية ، ولترغبكم فى طلب العلم .

وعن بعض الحكماء أنه قال : ليت شعرى أى شئ أدرك من فاته العلم ، وأى شئ فات من أدرك العلم .

وعن الأحنف بن قيس أنه قال : كل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل يصير " (١)

والذى أريد أن أؤكده هنا : أننا عندما نتحدث عن العلم كما ورد فى القرآن الكريم ، إنما نقصد كل علم مشروع ونافع للدين وللدنيا ، سواء أكان هذا العلم يتعلق بعلوم القرآن الكريم أم بعلوم السنة النبوية الشريفة ، أم بالعلوم الفقهية أو الطبية أو الهندسية أو الزراعية أو الاجتماعية أو غير ذلك من شتى ألوان العلوم التى تنوعت تنوعا كبيرا ، وصار العلم الواحد منها ينقسم إلى عدة أقسام .

ونقصد بالعلماء : كل من سخر علمه ، وإدراكه ، ومعرفته ، لفن معين أو لعلم معين ، لخدمة الحق ، ولنشر الفضائل ، ولخدمة مصالح ومنافع الناس فى حدود ما أمرك الله تعالى .

وإذا ما اتجهنا إلى السنة النبوية المطهرة ، رأينا عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو إلى طلب العلم وإلى تحصيله من وجوهه ، وإلى نشره وعدم كتمانه :

أ - ومن الأحاديث التى وردت فى فضل العلم والعلماء ، ما جاء فى الصحيحين عن معاوية عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " من يرد الله به - خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله " .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ صـ ٧٦ .

وروى أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " من سلك طريقا يبتغى فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنه .... وإن العلماء ورثة الأنبياء - أى : ورثتهم فى هداية الناس ... وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر " .

ب - ومن الأحاديث النبوية التى وردت فى وجوب تبليغ العلم ، وعدم كتمانه ، ما جاء فى الصحيحين عن أبى بكر - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله وسلم - قال : " لِيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ ، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه "

وروى الإمام البخارى عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " بلّغوا عنى ولو آيـة ، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "

وروى أبو داود والترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة "

ج - ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى بيان أن العلم أمانة ، وأنه يجب أن يبلغ بكل صدق وإخلاص ، ما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من قلوب الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبْقِ عالم ، اتخذ الناس رءوسا جهالا ، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا "

د - ومن الأحاديث التى وردت فى بيان أن العلم النافع يبقى أثره لصاحبه بعد موته ، ما جاء فى صحح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " .

ولقد حرص السلف الصالح على طلب العلم ، وكان الحصول عليه أعز مطالبهم ، وأغلى أمانيهم يقول كُمَيل بن زياد أحد تلاميذ أمير المؤمنين على بن أبى طالب : أخذ بيدى على بن أبى طالب ثم قال لى : " يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها ، فاحفظ عنى ما أقول لك . يا كميل : الناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ... **يا كميل العلم خير من المال : العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالنفقة والمال ينقص بالإنفاق . العلم حاكم والمال محكوم عليه ... يا كميل : هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة** . . . "

والذى يراجع التاريخ منذ ظهور الاسلام وحتى اليوم ، يرى أن الله – عز وجل – قد قيض للأمه الاسلامية على اختلاف أدوار حياتها علماء عقلاء فطناء ، أصحاب همم عالية ، وعقول راجحة ، وعزائم صادقة ، خدموا العلم ، وأخذوا بأكبر قدر ممكن منه ، وسايروا تطوارته مسايرة حكيمة ، وتعلم اللاحقون من السابقين ، وأضافوا إلى ما تعلموه علما جديدا ، وفهما جديدا ، وفقها جديدا ، وفكرا جديدا ، قد لا يختلف عن سابقه فى أصوله وأركانه ، ولكنه يختلف عنه فى فروعه وتنظيمه وأفاقه .

وانظر إلى علم التفسير ترى ثروة هائلة ، منها الذى كتب فى القرن الأول ، ومنها الذى كتب فى القرن الثانى ، ومنها الذى كتب فى القرن الثالث أو الرابع أو الخامس أو السادس .... **ومازال العلماء والمفسرون لكتاب الله – تعالى – يبذلون جهودهم فى خدمته إلى وقتنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وما قلناه عن علم التفسير للقرآن الكريم ، نقوله عن**

علوم الحديث النبوى الشريف ، وعلوم اللغة العربية على اختلاف فروعها ، وعلوم التوحيد ، والمنطق ، والفلسفة ، والتصوف ، والفقه ... وغير ذلك من العلوم التى لا تكاد تحصى .

ولم تكن جهود العلماء المسلمين مقصورة على الجوانب الدينية أو الفقهية أو اللغوية أو الفلسفية ، فحسب ، بل شملت جهودهم كل مجالات الحياة ، وسايرت تطورها مسايرة حكيمة . .

لقد بدأوا علومهم بالترجمة والنقل عن غيرهم ، وتم ذلك فى صور مختلفة ، فوجدت مدارس للترجمة فى صدر الدولة العباسية ، وأرسلت البعوث إلى الشرق وإلى الغرب لتستحضر نفائس المخطوطات للتعريب . .

ثم انتهى دور النقل والاتباع ، وجاء دور الإنتاج والإبداع ، فألف المؤلفون الأسفار الجليلة فى شتى ألوان العلوم الطبية ، والفلكية والطبيعية ، والرياضية ، والجغرافية . . . .

ومع انتشار العلماء فى الدولة الاسلامية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، إلا أنهم كانت تجمعهم ثقافاتهم ، وكان كثير منهم يتراسلون فيما بينهم ، ويتطارحون المسائل العلمية ، ويتبادلون المؤلفات والمحفوظات ، فكانت هناك وحدة إسلامية علمية ، على الرغم من تفكك الدولة ذاتها ، وانقسامها إلى دويلات شتى . .

ونبغ من العلماء فى شتى مجالات العلم من لا يحصى عددهم هنا ، ولكن خذ على سبيل المثال :

أ – ابن يونس المصرى المتوفى بالقاهرة سنه ١٠٠٩م ، والذى يعد من المؤسسين لعلم الفلك . .

ب – وابن الهيثم المتوفى بالقاهرة سنه ١٠٣٩م ، والذى يعد بلا منازع من أكبر علماء الطبيعة فى الاسلام .

ج – والبيرونى المتوفى بخوارزم سنه ١٠٤٨م.، والذى يعد من أكبر المشتغلين بالرياضيات والفلك .

د – وابن سينا المتوفى سنه ١٠٣٧م ، صاحب كتاب الشفاء الذى يقع فى ثمانى عشرة مجلدا ، ثم صاحب كتاب " القانون " الذى يعد موسوعة طبية جمع فيها الكثير من المعارف .

ونحن فى عصرنا الحديث نستطيع أن نقول : إن أمتنا لا تستطيع أن تقف فى مصاف الأمم القوية والراقية إلا إذا أخذت بأكبر قدر ممكن من المعرفة والثقافة والعلم النافع ، وإلا إذا سايرت إنجازات العلم الحديث فى عصرنا الحاضر . . لأننا قد أصبحنا فى عصر لاتتنافس فيه الأمم بأجسادها ، أو بسعة أرضها ، أو بكثرة عدد أفرادها ، وانما نحن فى عصر تتنافس فيه الأمم بالعقول والأفكار ، بالاختراع والابتكار . . .

نحن فى عصر العلم والفكر ، والكتاب والمعمل ، والإعلام المسموع والمرئى ، والمدفع والطائرة ، والذرة وتحطيم الذرة ، والصعود الى الفضاء ، وغير ذلك من العلوم التى أنتجها البحث والدرس والاختراع . .

وما من أمة تستطيع اليوم أن تساير ركب الحياة ، إلا إذا كان لها نصيب موفور من العلم والرقى الفكرى والعقلى . .

وما قامت عظمة الدولة الاسلامية في ما ضيها ، إلا على أركان وطيدة من العلم والفكر والمعرفة .

إن شريعة الاسلام تدعو إلى التسلح بكل علم نافع ، وتدعو أتباعها إلى أن يطلبوا العلم ولو كان فى أبعد مكان.، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها . . وكل ما تريده شريعة الإسلام من أتباعها ، أن يسخروا علمهم لخدمة دينهم ولخدمة أمتهم ، وأن يتخيروا العلوم التى تعمر ولا تخرب ،

وتبنى ولا تهدم ، وتحتضن الفضائل وتنفر من الرذائل ، وتقف على جانب الحق حتى ينتصر ، وتقف فى وجه الباطل حتى ينكسر ...

تريد شريعة الإسلام من أتباعها أن يسايروا إنجازات العلم الحديث فى كل مجالاته ، ولكن مع احتفاظهم بعقيدتهم السليمة ، وبأخلاقهم القويمة ، وبسلوكهم الحميد ، تريد منهم أن يأخذوا من إنجازات غيرهم ، على أن يكون ذلك مدعَّما ومطعّما ، بما لديهم من روحانيات وأخلاقيات يكون بها الانسان إنساناً .

مرحبا بالتجديد والتطوير الذى يبنى ولا يهدم ، ويصلح ولا يفسد ، ويعتنق الفضائل ويتنزه عن الرذائل .

ومرحبا بكل إنجاز للعلم فى عصرنا الحديث ، مادام هذا الإنجاز تؤيده العقيدة السليمة ، وتحرسه الأخلاق الكريمة ، ومقصده وغايته خدمة الحق والعدل .

وبالله التوفيق ،

محاضـــرات الموسم الثقافـــى

١٩٩٥ / ١٩٩٦ **

إســـــم المحاضر	إســـــم المحاضـــرة
• الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومى	الاستشــراق والإسلام
• الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد	حاضر العالم الإسلامى ومستقبله
• الأستاذ الدكتـــور منصور محمد حسب النبى	نماذج من الاعجاز العلمى للقرآن الكريم
• الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة	هويتنا من ثقافتنا الإسلامية
• الأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد	مفاهيم خاطئة يجب تصحيحها

** إكتفى فى هذا الموسم بخمس محاضرات ، حيث عقدت اللجنة الثقافية بالجمعية - من قبيل التنويع - اجتماعين مع نزلاء دور المسنين بالجمعية للوقوف ميدانيا على أحوالهم وطلباتهم ، واجتماع اخر مع طالبات مدرسة الجمعية الثانوية الصناعية للبنات . وقد أسفرت اللقاءات الثلاثة عن انجازات أقرها مجلس إدارة الجمعية لصالح المسنين بدور الجمعية ، ولصالح طالبات مدرسة الجمعية بحلوان .

المحاضرة التاسعة

الاستشراق والإسلام

الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومي

١٤ نوفمبر ١٩٩٤م

١٠ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ

جانب من الحضور :

المستشار الدكتور البيومى محمد البيومى والمستشار محمد شوقى الفنجرى .

على المنصة : المحاضر الدكتور ابراهيم الفيومى وعلى يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / محمد ابراهيم الفيومى ، ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٩٣٨ بقرية أوليله بميت غمر . وقد حصل من جامعة الازهر على ليسانس كلية أصول الدين سنة ١٩٦٥ ، ثم على الماجستير فى الفلسفة الاسلامية سنة ١٩٦٨ . ثم حصل على دبلوم عال فى الفلسفه الاسلامية من جامعه السوربون بفرنسا سنة ١٩٧٢ ، ثم على الدكتوراه فى الفلسفه الاسلامية من جامعه الأزهر سنة ١٩٧٤ .

وقد تدرج فضيلته بوظائف التدريس بجامعه الازهر ، حتى شغل لمدة أربع سنوات وظيفه عميد كليه الدراسات الاسلامية والعربية وذلك فى الفترة من سنة ١٩٨١ الى سنه ١٩٨٥ . ثم أعير فضيلته للمشاركه فى تأسيس كليه التربية والعلوم الاسلامية وكليه الآداب بجامعة السلطان قابوس سنه ١٩٨٥ ، وشغل وظيفه رئيس قسم الفلسفة والاجتماع بتلك الجامعة فى الفترة من سنة

١٩٨٧ الى سنة ١٩٩٠ . ثم اختير امينا عاما للمجلس الأعلى للشئون الاسلامية منذ سنة ١٩٩٣ ، الى جانب رئاسته لقسم أصول الدين بكليه الدراسات الاسلامية والعربيه بجامعة الأزهر ، وقد شارك منذ سنة ١٩٧٤ وحتى اليوم فى مختلف المؤتمرات والندوات الاسلامية بمصر والخارج .

ولفضيلة الأستاذ الدكتور الفيومى عدد ٢٨ ثمانية وعشرون دراسة ، سعدت بقراءة ثلاث منها قراءة دقيقة مستمتعا ومستفيدا للغاية ، وهى :

أولا : كتاب القلق الانسانى : مصادره وتياراته وعلاج الدين له ، وهو يقع فى عدد ٤١٦ صفحه ، وكان موضوع رسالته للدكتوراه .

وأهميه هذا الكتاب فى نظرى ، أنه يكشف لنا بجلاء عن القلق والاضطراب الذى يعانيه الغرب ، بسبب استبعاده للدين ، وتركيزه على الوجود المادى .

أيضا يكشف لنا بجلاء ما يعانيه العالم الاسلامى من تخلف بسبب اهماله الجانب المادى والعلم التجريبى ، وما انتهى به الى " مظهرية " أو " هامشية " التدين .

وهو بذلك يؤكد ما جاء به الاسلام منذ خمسة عشر قرنا ، بانه لا يتصور للانسان وجودا الا بهذين الأساسين : أى الجمع بين الجانب المادى الذى يقويه العلم التجريبى ، والجانب الروحى الذى يقويه القيم الفاضلة والصلة الوثيقه بالله ، وأنه من الصعب الاكتفاء بالعلم وحده ، أو بالدين وحده ، بحيث سيظل القلق منبها طبيعيا الى أهمية الجانب المغفل عنه ، وسوف تخف حدة القلق الانسانى إن حرصنا على التوازن الدقيق بينهما .

ثانيا : كتاب تأملات فى أزمة العقل الغربى ، وهو يقع فى عدد ٢٠٧ صفحه .

وأهميه هذا الكتاب فى نظرى ، أنه يعالج مشكلة الفجوة بيننا وبين غيبة الحل الاسلامى ، وبعبارة أخرى مشكلة الانفصام فى العقيدة والسلوك ، أى مشكلة الهوة بين القول والعمل .

فيرى فضيلته أن مشكلتنا الحقيقيه ، ليست خارجيه وانما هى داخلية كامنة فى أنفسنا ، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وهى تكمن أساسا فى عدم إدراكنا لنظام الاسلام المتكامل ، فهو ليس عقيدة فحسب ، وانما هو ايضا شريعة له ذاتيته الخاصة ، متمثلة فى قيمه المتميزة ، ونظمه المنفردة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وينتهى فضيلته ، الى أن غياب التصور الصحيح عن الاسلام ، أدى الى انقسامات الأمه الاسلامية فى الفكر والتطبيق ... ثم أخيرا محاولة البعض قصر الاسلام على الدعوة للايمان فقط شأن المسيحية ، أو محاولة البعض الآخر توظيف الاسلام ، حسب هواه أو أغراضه السياسية .

ومن هنا كانت مناداتنا جميعا ، بضرورة عرض الاسلام ، بأسلوب عصرى مبسط ، وفى صورته المتكاملة ليس عقيديا فحسب ، وإنما تربويا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا . . وهذه هى مسئولية علماء المسلمين ، بقدر ما هى مسئولية كافة مؤسساتنا ابتداء من التربوية كالأسرة أو التعليمية كالمدارس أو الإعلاميه كالتلفزيون وغيره .

ثالثا : كتاب الاستشراق ، وهو يقع فى نحو ٥٠٠ خمسمائة صفحه .

وأهميه هذا الكتاب فى نظرى ، انه يكشف عن قضيه وتطور الصراع الغربى مع الاسلام ، مؤكدا أن الصراع كان دائما وبخاصة فى زماننا ، هو من أجل احتواء العالم الاسلامى من خلال ترويج فكرة (فوقية الغرب) و (دونيه الشرق) ، يساعده على ذلك واقع تخلفنا التقنى والاقتصادى ،

وبالتالى إقرار هيمنة أو سيطرة الغرب على مقدراتنا ، ليصل بذلك الى استغلال العالم الاسلامى واستنزاف ثرواته .

هذا ، وموضوع المحاضرة (الاستشراق والاسلام) ، هو مما يتصل بكتابه الاخير . وكما تعلمون ان الاستشراق بمعنى الدراسات الاجنبيه للاسلام ، ظهرت بشكل واضح منذ الحروب الصليبيه ، وذلك **أولا** بروح استعماريه عدوانيه ، ثم **تحول** الى نغمة تبشيرية محرفه ، ثم **عاد اخيرا** ليظهربنغمة موضوعية تارة ومغرضة أخرى . وكما تعلمون ان الاستشراق بدأ **أولا** بجهود فردية محدودة ، ثم تحول أخيرا الى معاهد ومؤسسات تعم جميع أنحاء العالم خاصة باوروبا وامريكا وتصرف عليها حكوماتها الأجنبيه بسخاء .

وفى تصورى أن المحاضرة ، تبدو أهميتها فيما يثيره الغرب بعد انتهاء الحرب البارده ، وتلاشى الصراع مع العدو الشيوعى ، بأن عدوهم الذى يتعين مواجهته اليوم هو الاسلام وهى . **مواجهة نرحب بها ، بل واقول نسعى اليها ، حتى تظهر لهم حقيقة الاسلام وعظمته ، مؤمنين بأن الحق مهما طال عليه الأمد ، لابد وأن يعرف ، وانه متى عُرف على حقيقته ، فانه لابد وان يسودَ** ، وهو ما عبر عنه الفيلسوف الألمانى جيته عقب دراسته للاسلام فى مصادره الصحيحه بقوله " **اذا كان هذا هو الاسلام ، أفلا نكون كلنا مسلمين** " .

وكما عبر عنه الفيلسوف الانجليزى برنارد شو ، فى الثلاثينات بقوله **((انى أرى فى الاسلامَ دينَ أوروبا فى أواخر القرن العشرين))** ، ويستوقفنا دقة هذا التعبير **أولا** فى قوله (دين أوروبا) لانها كانت وقتئذ القوة القائدة للعالم ، حيث لم تكن قد ظهرت قوة الاتحاد السوفيتى ، أو قوة الولايات المتحده الامريكيه . ثم **ثانيا** فى قوله (**فى أواخر القرن العشرين**) وذلك

حتى تستبين حقيقة الإسلام ممثلة فى قيمة الفاضلة ، ونظمه الدقيقه فى الشورى وضمان حد الكفايه ، لا مجرد حد الكفاف لكل فرد ، والدعوة الى العمل الصالح ووفرة الانتاج وعدالة التوزيع .

وهنا أقول ، ولعل فضيله الدكتور الفيومى يوافقنى على ذلك ، أن عداء الغرب للاسلام ، مستشرقين كانوا أم غير مستشرقين ، ليس مرده فحسب ، الهوى والغرض أو الرغبة فى السيطرة والهيمنة من جانب الغرب ، وانما مرده أساسا تفرقنا الذى أدى الى ضعفنا وأطمع فينا الغير ، بالاضافة الى التصرفات والسلوك السئ لبعض المنتسبين الي الاسلام ثم هو . فى الخلاصة ، القصور القائم منا جميعا : افراد او شعوبا ودولا اسلامية ، عن تمثل قيم الاسلام ، ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بل أعرضنا عنها وهرولة البعض فى الأخذ بأسوأ ما فى الغرب من تقاليد وأعراف .

وبعد فهذه المحاضرة للدكتور الفيومي ، ستجعلنا نستفيد من نظراته وتوجيهاته ، كما استفدنا من كتاباته ومؤلفاته ، سائلين الله تعالى أن يرشدنا جميعا سواء السبيل .

كلمة الاستاذ الدكتور / محمد ابراهيم الفيومى

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - الفكر الغربى وازدواجية الحكم :

تعمد الفكر الغربى أن يقدم لنا ، ألوانا من البغضاء الدفينة ، ونوعاً من سوء الفهم المتعمد . وإلا كيف استطاع أن يزيف مارواه التاريخ عن تعاليم الإسلام ورسوله ، حين قدم تفسيراته للقرآن وتاريخ الإسلام ، وحين قدم الإسلام على أنه مزيج من الفلسفات القديمة ، وبقايا ملل مرفوضة من اليهودية والمسيحية ، وحين قدم من تحت عباءته ، صورة الرسول مشوهة

مكذوبة على التاريخ ، وعلى الرأى العام الغربى ، حتى أصبحت تلك الرسالة التى تشكل حياة المسلم ، تنتهى وفق التفكير الغربى ، إلى التهافت والاندثار .

إن الفكر الغربى ليس له عذر يعتذر به عما قدمه من تشويه للإسلام وللرسول صلى الله عليه وسلم . وكيف يعتذر عما قدمه وهو الذى أحكم دراسة التاريخ وأحداثه ، علماً ومنهجا ، فبنى له علما ، له نظامه ، وفلسفته ، وهو ما عرف بـ " علم التاريخ وفلسفته " وكانت الغاية التى رمى إليها الغرب من وراء بنائه هذا العلم ، أن يشيع روح السكينة فى نفس الدراس المتفحص للتاريخ واحداثه ، حتى لايعجل الحكم على مايستقرئه من التاريخ ، تعصبا لرأى فرضته عليه مزاعمه ، أو ألاّ يدخل على التاريخ وجهة نظر تعبر عن موقف مسبق على الحدث التاريخى ، ثم يتكلف له فهم الأحداث التاريخية ويتأولها على مقتضى ذلك الموقف السابق على الحدث ، وليس على مقتضى سير الأحداث التاريخية ...

فهناك مبادئ أحكمها الغرب فى هذا العلم – علم التاريخ – لتعينه على تحرى الموضوعية الفكرية ، وتوخى النزاهة العلمية التى يطلبها الغرب دائما من وراء مناهجه ، التى عرفت لديه منذ أوائل عصر النهضة " **بمناهج البحث العلمى** " التى تساعده على تحرى : " **الحقيقة التاريخية** " أو " **الحقيقة العلمية** " . هذا ماعرفناه عن الغرب ، لذلك نالنا العجب حين رأينا الغرب يتنكب سبل البحث العلمى فى فهم قضايا الشعوب التى أطلق عليها هو نفسه " دول العالم الثالث " أو النامى ، وجعلها موضوع تجاربه ، ليقيم قواعدها وفق مناهج أخرى غير علمية تدخل فى نطاق " **الرؤية الاستعمارية** " . وتلك مبادئ أخرى غير مبادئه العلمية التى إرتضاها لنفسه ، وكنا لانرى لذلك مبررا يجعله يعرض عن مناهجه العلمية فيما يخص مسائل الشعوب ، ويعود إلى نظرة التعالى تلك التى وضع نفسه فى اطارها وفق " **نظرية العرق** " التى

وضعها ميزانا علمياً لدراسة قضايا الشعوب ؛ ليزيف بها عن قصد حضارات الشعوب غير الأوربية . وتلك هى الثنائية الغربية المزدوجة التى تنطوى على التناقض المر الأليم : وجه علمي دقيق هو وجه الغرب للغرب ، ووجه قبيح شرهْ ، هو ذلك الوجه الكالح ، أو القناع المزيف الذى يخيف به العالم .

٢- الشرق والغرب :

لقد تعرف الغرب إلى الشرق ، والشرق إلى الغرب ، منذ القرن السادس قبل الميلاد ، حين قامت الدولة الفارسية واتسعت رقعتها ، وامتدت من حوض نهر السند ، إلى آسيا الصغرى ، وأراد " دارا الأول " الامبراطور الفارسى (٥١٥ ق.م) ان يتعرف على السواحل الممتدة من مصب نهر السند إلى منطقة العاصمة فى عيلام (سوسة) ؛ فانتدب لذلك سكايلاكس اليونانى ليقوم بالمهمة ، وقد سار سكايلاكس فى النهر إلى مصبه ، ثم حاذى سواحل ايران الجنوبية وعبر خليج عمان والخليج العربى .

ويرى الباحثون أن تقرير سكايلاكس ، كان أول وثيقة غربية عن رقعة شرقية نائية ، فيه حقائق علمية وعملية عن الهند والهنود . لكن التقرير محشو بقصص سمعها الرجل من رفاقه وفى الأسواق ، وعلى المركب ، فدونها على أنها أمور حقيقية .

كذلك أوجدت فتوحات الاسكندر ، اتصالات جديدة بين هذه الاجزاء المتباعدة من الشرق . وقوّت الروابط التى كانت قبلا ، وفتحت المجال أمام الخيال الخصب ، ليضيف دوما ما ينتجه هذا الخيال ، حول شخصية الاسكندر وبطولاته وشجاعته ، وحكمته ، إلى الحقائق المتعارف عليها .

من هنا ظلت المعرفة الغربية عن الاقاليم الشرقية النائية ، ناقصة ، كذلك معرفة الناس العاديين بالشرق النائى ، معرفة ضبابية ، إن لم يكن ضبابها قد أصبح أكثف من ذى قبل .

٣- الإسلام وسرعة انتشاره :

فلم تكد تمضى مائة سنة على وفاة الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، حتى كانت الامبراطورية العربية ، تمتد من شبه جزيرة ايبريه فى الغرب ، على طول السواحل الجنوبية للبحر الابيض المتوسط ، إلى ضفتى نهر السند وبحر آرال في الشرق ، لايفصل بين بلادها فاصل . وخلال القرون التالية كان يضاف إلى هذه الامبراطورية ، أو يقتطع منها ، بلاد أخرى فى كلا طرفيها ، ولكنها حفظت نفسها فى نطاق هذه الحدود المترامية ، زمناً طويلاً كان كافياً ليطبعها بطابع عربى . ولقد سجل الحكم العربى ، فصلا رائعاً فى تاريخ الإنسانية ، حين منح تلك البلاد حضارة جديدة .

كذلك نجد أن العالم الإسلامى يضم منطقتين اقتصاديتين كبيرتين : المحيط الهندى ، والبحر الأبيض المتوسط ، فان هاتين المنطقتين ، اللتين اجتمعتا فى العصر الهلّينى ، ثم افترقتا لتشكلا عالمين متنافسيْن : الرومانى البيزنطى ، والبرتى - الساسانى ، التحمتا وشكلتا وحدة اقتصادية من جديد بفضل الفتوحات الإسلامية .

وقد كان من نتائج التوسع الإسلامى فى العالم القديم إنتشار اللغة العربية - لغة القرآن - وهى اللغة المكتوبة ولغة الحديث ولغة العلوم ولغة الدواوين.

وأمام اللغة العربية اختفت الآرامية والسريانية ، واصبحتا لغتين مقدستين لاتستعملان إلا فى الكنائس ، كذلك اللغة العبرية لم تعد بدورها تدرس إلا بوصفها ، لغة ميتة ومقدسة ، فى محافل أحبار اليهود .

٤- نتائج الفتح الإسلامى :-

من الناحية السياسية : قيام دولة إسلامية فى رقعة فسيحة من الأرض ، كان الخليفة هو الحاكم الأعلى فيها .

من الناحية الدينية : انتشار الإسلام ، ذلك الدين الذى يقوم على القرآن الذى أُوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن الناحية اللغوية : أدى الفتح الإسلامى إلى اتساع إنتشار اللغة العربية . ومن الناحية الإقتصادية : نجم عن الفتح الإسلامى إتحاد أراض مختلفة فى تكتل اقتصادى كبير .

من خلال هذا المنطق نحب أن نؤكد على حقيقة هى : أن الحضارة الإسلامية من أهم ماعرفه التاريخ من اشكال الدولة الالهية ؛ لذلك كان الإسلام هو الصيغة المناسبة ، والمثلى ، فى تحرير التاريخ الإنسانى من وطأة امبراطوريتين هما : امبراطورية الفرس ، وامبراطورية الرومان . فقد استطاع العرب بفضل الإسلام ان يعصفا بهما معا ، وبقى الإسلام بعدهما ، حقيقة تاريخية مفردة على الساحة العالمية دون منازع يغير مجرى التاريخ .

من الواضح الجلى – كما يقول مارسيل بوازار فى كتابه : تحليل بعض الصور عن الإسلام فى ضوء مكونات الرأى العام الغربى : " **ان المسلمين لايحملون فى أعماقهم افكاراً مطبوعة ومشوهة عن الغرب ، بقدر ما يحمل الغربيون منها عن الإسلام ، وذلك لأسباب ثقافية وتاريخية** " .

أما عن الإنسان الغربى ، فان هناك أسبابا رئيسية من قبل الغرب ، جعلته يحمل أفكارا مشوهة عن الإسلام والمسلمين ، وهى متنوعة : دينية ، ونفسية ، وتاريخية وثقافية وسياسية ، والأن أيضا اجتماعية واقتصادية ، وهى أكثر قدما من سوء التفاهم الناشئ من تفسير الأحداث المعاصرة .

* **أما عن الإسلام بالنسبة للشرق** : فهو أيقظ الشرق السامى من سباته الطويل فملك نفسه بعد إذعانه للغرب الأوربى مدة الف سنة .

* **وأما الإسلام بالنسبة للغرب** : فهناك مواقف بين الإسلام وبينه نجملها فيمايلى :

أ) مواقف الإسلام أمام الرومان منذ الغزوات " تبوك واليرموك " .

ب) فتوح العرب فى صقلية والأندلس وجنوب فرنسا ، هذه الحروب كانت قبل ان تستيقظ أوربا من غفوتها إلى وعيها الثقافى الجديد .

ج) الاصطدام العنيف بين أوربا المتحدة وبين الإسلام تحت شعار الحروب الصليبية ، وترجع أهمية هذه الحروب الصليبية مع الإسلام ، إلى أنها عنيت فى المقام الأول ، والمقام الأهم ، بموقف أوربا من الإسلام لبضعة قرون حتى عصرنا الحالى ؛ لانها حدثت فى اثناء طفولة أوربا فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تفرض نفسها ، وكانت أوربا لاتزال في طور تشكيلها .

د) سقوط القسطنطينية فى يد الاتراك ، وبسقوطها فتح باب أوربا على مصراعيه للسيل الإسلامى .

من هنا : لم تبق عداوة أوربا للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب ، بل ذات أهمية سياسية أيضاً ، وهذا مانراه فى أشتداد تلك العدواة .

والشعوب كالأفراد إذا أعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التى تحدث فى أوائل الطفولة ، تظل مستمرة ظاهرة مدى الحياة ، وتظل تلك المؤثرات محفورة عميقة ، حتى انه لايمكن للتجارب العقلية فى الدور المتأخر من الحياة – المتسمة بالتفكير أكثر من اتسامها بالعاطفة – أن تمحوها إلا بصعوبة ويندر أن تزول آثارها تماماً .

هكذا كان شأن الحروب الصليبية ، فانها أحدثت أثراً من أعمق الآثار ، وابقاها فى نفسية الشعب الأوربى .

من هذه التجارب التاريخية : اعتبر الغرب المسيحى الإسلام منافسا له منافسة عدائية اصطبغت بصيغة " ايديولوجية " وخاصة فى العصر الوسيط ؛ لذلك نظم الغرب ، غزوه المسلح تحت راية الحروب المقدسة ، وغاب عن

الغرب الذى راح يبشر بالمسيحية تحت وطأة الحرب الصليبية فى الشرق أن المسيحية هى دين شرقى أولا ، وأن الإسلام يرى فى المسيحية أنها دين سماوى ثانيا ، بيد أنها ليست خاتم الأديان إنما الإسلام يكملها .

يقول مونتجمورى وات فى كتابه " فضل الإسلام على الحضارة " : **لقد كان لشعور أوربا الغربية بالنقص عند مواجهتها للحضارة الإسلامية جوانب متعددة ، فالتكنولوجيا الإسلامية ، كانت متقدمة عن التكنولوجيا الأوربية فى كثير من الميادين . ويمكن القول بوجه عام ، ان مشاعر الأوربيين الغربيين المعادية للإسلام ، لم تكن تختلف عن مشاعر طبقة محرومة فى دولة عظيمة .**

٥- القوة الاستراتيجية للعالم الإسلامى :

وكانت دولة الإسلام ، تملك اثناء القرون الأولى لها ، قوة كافية تتيح لها ان تلعب دور وضعيتها المتوسطة ، وتحتفظ بالمبادءة فى السياسة العالمية . اما الغرب والهند والصين ، فكانت محتفظة بمواقف دفاعية ، أو مطبقة مبدأ العزلة . وقد تغيرت الوضعية منذ القرن الثامن عشر ، وأصبح الإسلام منذ ذلك الوقت – وهو منتصف العالم القديم – مسرحا للمنازعات الاجنبية ، لان قارة متوسطة ، لاتستطيع الانسحاب والبقاء فى حالة العزلة ، كما استطاعت الصين والهند الاحتفاظ بنفسيهما خلال أدوار طويلة من تاريخها .

وقد أدركت الدول الكبرى إبان عصر السياسة العالمية الكبرى ، ان مفاتيح العالم موجودة فى القارة الإسلامية وخصوصا فى الأصقاع الوسطى التى اعتاد الاوربيون أن يدعوها " الشرق الادنى والأوسط " . والدول الكبرى التى تستطيع أن تنشر نفوذها حتى الخليج الفارسى ، والنيل ، والأندلس ، تصبح قادرة على اخضاع كل الكتلة القارية فى العالم القديم لارادتها ، ويقابل ذلك سيادة بحرية ، تستطيع حفظ التوازن اللازم لسلامتها حين تستولى على

المفتاح الوحيد المشترك بين آسيا وافريقيا وأوربا وهذا المفتاح العالمى - كما يقول فرنو فى كتابه يقظة العالم الإسلامى - يحتفظ به الإسلام .

٦- **التوجه الغربى إلى الشرق :**

قال بونابرت بعد انتصاراته الشهيرة فى ايطاليا للمسيو يوريان صديقه وكاتم أسراره : " **ان أوربا وكر فأر وليس ثمة امبراطورية عظيمة إلا فى الشرق** " .

ومن هنا بدأ الغرب يدرس الشرق بما اتيح له من وسائل ، لفرض سياسته ووصايته عليه .

٧- **تاريخ مصطلح مستشرق :**

يرى أربرى فى كتابه الدراسات العربية الإسلامية فى الجامعات الألمانية ، أن أول استعمال لكلمة (مستشرق) رأيناه فى سنة ١٦٣٠ حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية . وفى سنة ١٦٩١ وجدنا " انتونى وود " يصف " صموئيل كلارك " بإنه " استشراقى نابه " يعنى بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية . وفى خلال المجادلة التعليمية بالهند التى جسمها تقرير " ماكولى " الشهير سنة ١٨٣٤ كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين ، بينما سمى معارضوهم الذين رغبوا فى ان تكون الانجليزية أساس التعليم بالهند بالمستنجلزين .

ومما يؤسف له ، كما يقول اربرى ، ان ماأنتجه هذا النزاع المشهور من الحزازات قد ألصق باسم المستشرق قدرا كبيرا من القدح والنقد . ولا شك ان تشارلز دونى فى كتابه : " المستشرقون البريطانيون " كان يشير الى ذلك حيث يقول : (ان الشمس جعلتنى عربيا ولكنها ماشوهتنى قط بالاستشراق).

علم الاستشراق :

يقول بارت : الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة ، وأقرب شيء اليه اذن أن نفكر فى الاسم الذى أطلق عليه : كلمة **استشراق** مشتقة من كلمة **شرق** .

وكلمة شرق تعنى مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو : علم الشرق أو علم الشرقى . والامر الى هذا الحد واضح كله ولكن مامعنى كلمة شرق فى هذا المقام بالذات ؟

يرى جويدى فى كتابه " علم الشرق وتاريخ العمران " : سمو الوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب ، وانما هو " علم الشرق " بل نستطيع ان نقول ، ان غرض هذا العلم الاساسى ، ليس مقصورا على مجرد درس اللغات أو اللهجات او تقلبات تاريخ بعض الشعوب كلا .. بل من الممكن ايضا ان نقول : انه بناء على الارتباط المتين بين التمدن الغربى والتمدن الشرقى . وليس علم الشرق الا بابا من ابواب تاريخ الروح الانسانى ، وليس صاحب علم الشرق ، الجدير بهذا اللقب ، بالذى يقتصر على معرفة بعض اللهجات المجهولة او يستطيع ان يصف عادات بعض الشعوب ؛ بل انما هو من جمع بين الانقطاع الى درس بعض انحاء الشرق ، وبين الوقوف على القوى الروحية الادبية الكبيرة التى أثرت على تكوين الثقافة الانسانية ، وهو من تعاطى درس الحضارات القديمة ، ومن أمكنه ان يقدر شأن العوامل المختلفة فى تكوين التمدن فى القرون الوسطى مثلا او فى النهضة الحديثة .

وعلم الشرق هذا علم من علوم الروح ، يتعمق فى درس أحوال الشعوب الشرقية ، ولغاتها وتاريخها وحضارتها ، ثم يستفيد من البحوث الجغرافية والطبيعية ، وجدير أن يسمى كما سميناه درس تاريخ الروح الانسانى من

جهة نظر الشرق ، لان اظهار قوى الروح واستعدادها يختلف باختلاف الزمان والمكان .

لكن جويدى يرى : ان علم حوار الحضارات – علم الروح الانسانى – او علم تطور المناسبات الثقافية .. بذلك التعريف إنما يمثله المستشرقون الاكاديميون والمنصفون من مؤرخى الحضارات .

٧- تصنيف الاستشراق :

يذهب بعض النقاد للاستشراق الى محاولة التخفيف من النقد الهجومى عليهم بما يحاوله من ايجاد تصنيفات عقلية ، **الى ان هناك ثلاثة مستويات للاستشراق :**

* معتدل فى رؤيتة وهو الجامعى الاكاديمى .

* مستوى يتوسط بينهما .

* متطرف وهم الذين نبتوا فى حضن الاستعمار .

وذلك من حيث هى قسمة عقلية مقبولة ، غير انها خالية تماما من الصدق لان الخارج ، وهو الواقع لايخضع لها ولا تلقى قبولا بين اوساط النقاد للدراسات الاستشراقية .

فنرى ، ادوار سعيد فى كتابه الاستشراق ، يقسمه الى :

* الاستشراق الجامعى .

* الاستشراق المسيحى الغربى او الدينى .

*الاستشراق المعلن المبطن .

* الاستشراق السياسى .

ويذهب مكسيم روديستون الى تقسيمه الى ثلاثة تيارات :

* تيار عرقى : يقوم على الشعور بتفوق الغرب واحتقار جميع الحضارات الاخرى .

* تيار رومانسى تغريبى : يستنشق بمتعة عبق الشرق ، ويزيد هذه المتعة فقر الشرق المتزايد .

* وتيار علمى تخصص اهتمامه الاساسى على ماضى الشرق .

وهناك تقسيمات أخرى مثل :

* تيار تقليدى وهو الذى ساير الاستعمار وجعله أداته .

* تيار تجديدى يعطيه الباحث ، ادوارد سعيد ، سمة واحدة تحت مسمى واحد وهو : **(مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق)**

٨- الاستشراق الصليبى والصراع مع الاسلام :

حينما اقتحم الغرب الاستعمارى ، الشرق باسلوب غير حضارى - بجحافله الصليبية - وجده معينا لا ينضب للأثراء المادى الاوربى ، ومشاريعه الاستعمارية . كما وجده ايضا ذا حضارات قد شكلت ملاذا من الازمات الروحية والثقافية التى تهب على اوربا بين فترة واخرى من باب الاندلس الذى انفتح واسعا على اوربا فظهرت ملامح الفكر الفلسفى منذ ١١٠٠ متمثلة فى اغانى (التروبادور) والشعر الوجدانى ..... وفلسفة ابن سينا الالهية وخاصة كتابه " رسالة فى العشق " وفلسفة الرازى .....

كما ان ، ما جنته فرنسا من غنائم " فى الحرب الصليبية - التى تعتبر فى علم التاريخ ، بداية للسياسة الاستعمارية فى فرنسا فى الشرق - من مخطوطات ومكتبات وآثار وتحف فنية غيرت الى حد كبير طابع تصورات الاوربيين عن الشرق ، وقرب الصورة الشرقية من الواقع ، وحلت المعلومات الصحيحة فى ميدان الجغرافيا محل التصورات المفعمة بالخيال .

وكان الاحتكاك المباشر بالشرق ، طيلة فترة الحكم الصليبى للشاطىء الشرقى للمتوسط ، مساهما فى معرفة الشرق على حقيقته وعلى كنوزه وثقافته وانه ليس بالمتعة والجنس وعالم المتناقضات .

ومما زاده عجبا الى حد الالم ، فشل الحروب الصليبية فى السيطرة على الشرق ، سياسيا وعسكريا .

وماكان ليتأتى للغرب بعد الوقوف على حقيقة الشرق ، وفشل الحروب الصليبية ان يكون أمينا على نقل صورة الشرق.، وكيف يكون امينا وقد تعلم منه درسا فى الهزيمة ، جعله لايستطيع نقل صورة غير التى نقلها ، صورة سلبية ساهمت فى تشويه الشرق المسلم ، ويرى عجز الغرب واضحا امام الشرق وثقافته فولّد لديه الشعور بالنقص والعجز عن انتاج ثقافات روحية امام ميول الغرب المادية .

وفى اعقاب الحروب الصليبية ، اتسمت علاقة الغرب الاستعمارى بالتناقض والازدواجية ، فمن جانب ، ظهر الموقف الايجابى من الفكر الفلسفى والعلمى والجمالى الاسلامى ، ومن جانب آخر ، ظهر الموقف العدائى من الاسلام كدين ونظام اجتماعى واخلاقى ، فدخلت الثقافة الاسلامية عصر النهضة ، بوصفها ركنا أساسيا من أركان النهضة الثقافية ، سواء فى تأثير انجازاتها العملية والفنية المباشرة ، بوصفها الجسر الذى عن طريقه تعرفت اوربا على منجزات الحضارات القديمة وخاصة اليونانية ، والرومانية ، والاسلامية . وقد كرس تلك العلاقة العدائية بالاسلام دانتى اليجيرى ، وهو من أشد المستشرقين سواء فى عمله الشهير (الكوميديا الالهية) الذى جسد الروح الصليبية فيها ، وهى الملحمة الشعرية الدينية المعبرة عن التصور المسيحى للعالم الارضى وعالم الآخرة والتى مثلت الفكر المسيحى الفلسفى والجمالى لقرون طويلة ، وألهمت أعلام النهضة فى شتى مجالات الفن والإدب والفكر ، فقد أظهرت آخر الدراسات العملية الاوربية مؤخرا أثر الاسلام ، ورؤيته للعالم الأخر ، وأثر العديد من المفكرين المسلمين (ابن عربى ، وابن سينا ، ابو العلاء المعرى ، ابن رشد ، ابن

مسرة ، الغزالى ، الفرغانى ، وغيرهم) على فكر دانتى ، من خلال اطلاعه على الترجمات التى ظهرت فى عصره فى اسبانيا وخاصة كتاباته المتضمنة للرواية الشعبية العربية – الاسبانية لمفهوم الاخرة ، فقد عكس دانتى فى (الكوميديا الالهية) موقفا تقيمياً ايجابيا للفلسفة الاسلامية واعلامها ، وموقفا عدائيا من الاسلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، مكرسا صورة الدين المسيحى (الحق) معتبرا الاسلام (كفرا) و (هرطقة) . وهو أول من قارن صورة القديس فرانسو الاسيزى المؤمن " الحقيقى " وصورة السلطان المسلم " المتعجرف " والكافر ، مثنيا فقط على السلطان صلاح الدين الايوبى ، حيث برزت صورته إيجابيةً فى مجمل نظام الدولة الاسلامية . وهذا الموقف هو نتيجة مباشرة لفشل آخر الحملات الصليبية على الشرق الاسلامى ، التى تمت فى زمن شباب دانتى .

ان تأثير دانتى على نشوء الثقافة القومية الايطالية ، وعلى منظومة الفكر الاوربى للنهضة ، شمل ايضا تأثيره على مجمل فنانى عصره فى علاقته بالاسلام دينا وفلسفة ، وتأثير دانتى ، والكوميديا الالهية ، لم يفقد وزنه حتى القرن التاسع عشر اذ تعتبر الكوميديا الالهية ، احد المصادر الاساسية التى لجأ اليها الرومانسيون ، كمعين فنى وابداعى ، ولا سيما ان ترجمتها الى اللغة الفرنسية قد ظهرت فى فرنسا عام ١٨١٣ إبان فترة الحماس لدراسة تاريخ القرن الوسطى المسيحى والاوربى مع تطور علم التاريخ فى فرنسا آنذاك .

لعل عقدة النقص والكبت والعدوانية والمعاناة التى سادت اوربا بعد ملاقاتها الاسلام فى دياره هى التى زجت بفرويد لبحثها .

كذلك حافظ الغرب ، على امتداد تاريخه ، وفى وعيه الجماعى – على صورة أثمة للاسلام ، صورته هو الخاصة ، صورة الأسى للأم المشوهة ،

تذكر تذكيرا عربيا بالمظاهر الخادعة (مغادرة افلاطون) . الغربيون المحافظون يقولون بأن الغربين استنبطوا بطبيعة الحال القيم اليهودية – المسيحية التى غدت بذلك وفى الوعى الجماعى – تبريرات ضمنية تفسر كثيرا من الوان السلوك العصية عن التفسير ، واللاعقانية فى الظاهرة ، هكذا ففكرة الشعور بالذنب راسخة عند الغربيين وتشكل رؤيتهم للعالم والانسان ، بحيث باتت احد المبررات الضمنية الاشد قوة التى تبرر المسبقات والتصرفات حيال " الآخر المذنب " وهو بطبيعة الحال " الآخر " هو الاسلام والمسلمون والدول الاسلامية .

بامكاننا فى هذا الصدد الاستشهاد المفيد بأرنست رينان الذى القى خطابه الافتتاحى فى الكوليج دوفرانس ، حول " نصيب الشعوب " السامية فى تاريخ الحضارة فى ٢٣ فبراير ١٨٦٢ . يلاحظ فانسان مونتاى بأننا نعيد قراءة هذه السطور اليوم بذهول : " فى هذا الوقت المناسب ، الشرط الاساسى لتمكين الحضارة الاوربية من الانتشار ، هو تدمير كل ماله علاقة بالسامية الحقة ، تدمير سلطة الاسلام الثيوقراطية ، لان الاسلام لايستطيع البقاء إلا كدين رسمى ، وعندما يختزل الى وضع دين حر وفردى ، فانه سينقرض ، هذه الحرب الدائمة ، الحرب التى لن تتوقف ، الا عندما يموت آخر أولاد اسماعيل بؤسا أو يرغمه الارهاب على ان ينتبذ فى الصحراء مكانا قصيا . الاسلام هو النفى الكامل لأوربا . الاسلام هو : التعصب ، الاسلام هو احتقار العلم ، هو القضاء على المجتمع المدنى ، انه سذاجة الفكر السامى المرعبة وضيق الفكر الإنسانى ، يغلقه دون كل فكرة دقيقة ، دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحث عقلانى ؛ ليضعه أمام حشو سرمدى . الله هو الله . المستقبل إذن لاوربا ولأوربا وحدها ، ستفتح أوربا العالم وتنشر فيه الدين الذى هو

الحق ، الحرية ، احترام البشر ، هذا الاعتقاد القائل بان ثمة شيئا ما إلهيا فى صلب الإنسانية " .

يضيف مونتاى بان " لكل تعقيب من شأنه إضعاف هذا النص ، الذى كان مؤلفه يحيا فى ظل الامبراطورية الثانية وسينتشر فى السنة التالية كتابه الرنان : حياة المسيح " .

يقول الحبيب الشطى :

" لاشك ، ان هذا النص يلخص تلخيصا باهرا كل الشعور بالذنب الغربى المسقط على الإسلام ، كبش الفداء ، الذى تقدم عنه صورة مشوهة تشويها عميقاً . وفوق ذلك يمكننا أن نقول دون إعتراض بأن الغرب عندما حاكم الإسلام توقف غالبا عند أشكال ديننا الخارجية ، عند بعض المظاهر . وهكذا فأن الغربى العادى لايمشى أبداً أبعد من تعدد الزوجات ، من الحجاب ، من عقوبة السرقة وعقوبة الزنا ، وهذا مايمنعه من فهم جوهر ومبرر المؤسسات الإسلامية " .

٩- الاستشراق الاكاديمى وضعف صوته :

يقول بارت : لم يتبع تطور الاستشراق من مرحلة التحول النهائى إلى علم قائم على النقد التاريخى ، طريقا مباشرة مستقيمة ، ولم يتم للاشتغال بالشرق وبمحمد وبالدين الذى نشره - التحرر من طريقة البحث اللاهوتية المبنية على الدفع والمشاحنة - إلا فى العصر الحديث وتدريجياً .

ولكن الجهود التى بذلت لانصاف عالم الشرق ورسم صورة له مستمدة من المصادر ، تعرضت من حين لآخر لاتجاهات اعترضت سبيلها ، أو غطت عليها وأدت إلى تشويه صورته .

ويرى بارت ، أن تطور الاستشراق وتشكله كعلم لم يكن سهلا إنما كانت تكتنفه صعوبات كثيرة منها : مدى استعداد الناس (الغرب) للانصراف عن

الأراء السبقية وعن كل لون من ألوان الأنكار الذاتى ، ومدى إعترافهم لعالم الشرق بكيانه الخاص الذى تحكمه نظمه الخاصة ... فعندما اجتهه بعض المستشرقين فى نقل صورة موضوعية قائمة على النقد التاريخى ، ماأستطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وذلك بسبب تلك العوائق ، ولكن الجهود متجهة إلى فهم الموضوعات فهما موضوعيا .

وانه ظهرت دراسات تحمل هذا المعنى العلمى الموضوعى ذات تأثير متنوع ترى فى النبى العربى : أنه أداة الله ، ومشرعاً وحكيماً ورسولا للفضيلة وناطقاً بحكمة الدين الفطرى مبشراً به . غير أنه وضعت أمامه عدة عوائق تحول بين دراساته المنصفة وأنتشارها منها :

أولاً : أن أعمال الاستشراق الاكاديمى الذى تبنى موضوعية الحقيقة التاريخية للإسلام ، كانت تقدم فى أكثر الاحيان برطانة علمية معينة يصعب على غير المتخصصين استيعابها .

ثانياً : أن الغالبية العظمى للاستشراق تنتمى إلى مراكز العلوم الاستعمارية فى المانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا . وكانت الغاية التى يهدف إليها الاستعمار من إنشائه " هو تفهم العقلية الإسلامية على أحسن وجه ، لتسهيل إدارة الشعوب الإسلامية فى النطاق الاستعمارى " .

ثالثاً : يقول أنور عبد الملك فى بحثه " الاستشراق فى أزمة " : أن المستشرقين ابتداء من " رينان " إلى " جولد تسيهر " إلى " ماكدونالد " إلى " جب " و " برنارد لويس " ، كانوا يعتبرون الإسلام " مركبا ثقافيا " يمكن دراسته بعيدا عن اقتصاديات الشعوب الإسلامية وخبراتها الإجتماعية ونظمها السياسية ، إلى أن جاء علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الذين إهتموا بالإسلام واتبعوا فى دراسته مناهج جديدة ، تعالج الإسلام كظاهرة دينية واجتماعية شديدة التعقيد ووجدوا كم أخطأ المستشرقون .

رابعاً : يشهد التاريخ الاستشراقى على أنه أسهم فى انتاج العداء للعرب ، وبالتالى أسهم فى استباحة عنصرية للوجود العربى كما ساعد حين استطاع على إستلاب المعالم الحضارية والإسلامية سواء بخفضها أم بازدرائها .

وهو هنا ليس انتقاداً ، وإنما بنية تاريخية ، وحقيقة لم تعمل القوى الاستعمارية على إخفائها فى ذلك العصر .

وكذلك يمكن اتهام الاستشراق بافراز الانطباعات العرقية والامبريالية والمذهبية ، والمحافظة عليها . وفى نفس الوقت مؤاخذته أيضاً على رفض تحليل الأمور السياسية الحقيقية ، والمتعلقة بمشاكل الدول الإسلامية فى عصرنا هذا .

وفى الواقع ينبع الضعف الأساسى للاستشراق حالياً ، من تقوقعه فى أغلاله القديمة ، ومن هيكلياته المثقلة بالتقاليد الاكاديمية ، والتخصص المهنى إلى أبعد حد ممكن .

١٠- مراجعات :

التخلف واستراتيجيات التنمية والإسلام :

وفى الوقت الذى تحتل مفاهيم " التخلف واستراتيجيات التنمية " فى هذه الدراسات بؤرة الاهتمام ، فقلما تتعرض للاسباب التى أدت إلى طور التنمية الحالى . ومازال الجزء الغالب من الابحاث متأثرا " بنظريات التحديث " التى ترى أن تغير القيم والمعايير والبنى الموروثة ، لايتم إلا تحت ضغط وتأثير النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والغربية الأكثر تفوقاً . وتغفل دراسات التحديث هذه غالبا ، الابعاد التاريخية لموضوع البحث ، وإن تضمنت خلفيتها النظرية مقولة ان البنى الدينية هى المسئولة فى المقام الأول عن نسق القيم والمعايير " المتخلفة " فى العالم الثالث . وتنتظم فى هذا الاتجاه تلك الافكار التى تعتمد أساساً على أعمال " ماكس فيبر " والتى تحمل

الإسلام ، مسئولية إعادة تطور وتنمية القيم والسلوكيات والبنى ، التى تبث الفاعلية فى الحياة الاقتصادية والتى ترشد الحياة الاقتصادية فى النظم الرأسمالية .

ويجد هذا التراث العلمى الذى يرى فى الإسلام سبب الأسباب ، ترديداً مشوهاً له فى الكتابات السياسية اليوم . ويغفل هؤلاء أن السيطرة الامبريالية والتفوق الاستعمارى ، قد لعبا دوراً جوهرياً فى التطور المتدنى لتلك المنطقة .

يعلق بيتر بافلكا بقوله : لن يجد دارس العلوم السياسية الذى يهتم بالبعد التاريخى ضالته فى هذه الدراسات . وتكفى بعض القراءات السريعة فى تاريخ الشرق ، لطرح عدد من القضايا التى تعالج حتى الآن ، كيف يتفق على سبيل المثال الادعاء بان الإسلام يعرقل التطور الإقتصادى والإجتماعى مع سيطرة النظم العربية فى القرون الوسطى على التجارة الدولية ؟!

كيف حدث أن مصر العربية فى القرن التاسع عشر ، كانت إلى جانب اليابان ، البلد النامى الوحيد ، الذى حاول تشييد قاعدة صناعية مستقلة ؟ هل من الصحيح القول : ان الرأسمالية والامبريالية والاستعمار ، هى وحدها المسئولة عن المستوى المتدنى الحالى لتطور الشرقين : الأدنى والاوسط ؟ هل هناك أسباب أقليمية مميزة لتخلف المنطقة أكثر أهمية من التفسيرات الدينية ؟

تختلف التفسيرات إختلافاً كيفياً ، حول العوامل التى أدت إلى إنهيار النظام العربى الإسلامى :

يرى التفسير السياسى فى تفتت السلطة ولامركزيتها ، وفساد الصفوة السياسية ونضوب الموارد الاقتصادية ، الاسباب الرئيسية للازمة التى انتهت بالعجز عن مواجهة الخصم العثمانى . بعد عقود من الازمات الإقتصادية

والاجتماعية والسياسية ، تمكن الاتراك عام ١٥١٧ من غزو الدولة المملوكية ، وعانت الدولة العربية تحت الحكم العثمانى ، فى القرون التالية ، فترة من الانحطاط الاقتصادى والاجتماعي والحضارى ليس لها مثيل . وانتهت الفترة بنهاية القرن الثامن عشر ؛ لتصب بعد ذلك فى عملية من " التشويه المنظم " على أيدى القوى الأوربية .

ومما يضاف إلى ضعفه ، ان معارفه العلمية الصحيحة عن الإسلام والعرب يتراكم بعضها فوق بعض دون ان يعمل على نشرها . لذلك كان تأثير الاستشراق العلمى على الرأى العام الاوربى أقل .

ويرى فكتور سخاب : ان المستشرقين المنصفين للحضارة العربية يمثلون ظاهرة فى الفكر الاوربى ، ولايمكن بأى حال من الاحوال ان تمثل موقفاً سياسياً عاماً ولاجزئياً ولاتمثل موقفاً اجتماعياً أوربياً تجاه العرب .

١١- خصائص ثقافة الاستشراق الاستعمارى :

فأينما ذهب الغرب ، نشر حيث ذهب ، ثقافة استعمارية تعمل على اضعاف الروح المعنوية فى الشعوب التى نزلت بها ، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس فى تلك الشعوب . كما نشر بينها روحاً مادية ، قتلا للايمان والمبادئ الإسلامية ، وتوطيد اللاستعمار وآثاره .

ونحن نرى ان كل حضارة يرجى تجديدها لايمكن ان تجدد بمجرد النقل من حضارة إلى أخرى . كما أنه لايستطاع بعثها بالوقوف على الاسباب القديمة التى بليت واصبحت لاتحتمل مطالب الجماعة الجديدة .

كذلك لايجدى النقل الحضارى حجة فى تحضير الشرق وبعثه عن الأخذ من الحضارة الغربية بما يصلح للشرق وترك مالايصلح له ... لان القول بما يصلح ومالا يصلح تعبير مطاط يمكن لكل فرد ان يختلف مع الفرد الآخر

فيه ، وماذا عن جماعة ضعيف بنيانها فهى تضطرب كل يوم إلى ناحية مايقول به فرد من الأفراد هذا يصلح وهذا لايصلح .

قد يخالج بعضهم ، ان ذلك فعلاً مبدأ الحرية ، لاشك أن مبدأ الحرية مطلب أساسى لكل مجتمع حضارى ، وان مبدأ الحرية هو أساس لكل مافى الغرب من تقدم .

فلو نقلنا مبدأ الحرية الذى يستند إليه الغرب فى حضارته ؛ لرأيناه متهما فى الشرق ، بمنافاته لقواعد الاخلاق ولمقتضيات الفضيلة . فنحن نحرص على مبدأ الحرية ، ولكنه ينبغى أن يكون بمفهوم شرقى إسلامى .

إذن فيجب ان تتفق الحضارة المراد بعثها مع هذه الطبائع ، وفق تاريخها وقيمها ، وإذن فكل حضارة يراد توطيدها ، يجب ان تتصل بالماضى اتصالاً وثيقاً ، وقابلا لان يظهر ويثمر فيها .

الظاهرة الأولى : هذه الحرب المنظمة التى يقوم بها الاستعمار الاوربى انتصاراً لحرية العقل ، حرية مستندة إلى النظام الجامعى ، الذى يقرر البحث الحر الطليق من كل القيود ، والمستند إلى القواعد العلمية الصحيحة ، نراه لاينشرها فى مستعمراته ، فهذا ممثل انجلترا حين كان فى مصر – على سبيل المثال – ألم يكتب فى تقاريره ان مصر بغير حاجة إلى علماء بالمعنى الغربى وإنما هى بحاجة إلى موظفين مطواعين .

الظاهرة الثانية : يحاربون الدين فى بلادهم ، ثم ينشرون المبشرين الغربيين في كل مكان فى المدن الكبيرة والصغيرة بل فى القرى ، ويدعون إلى المسيحية ولايأبون التعريض بالإسلام .

الظاهرة الثالثة : يصدر الغرب الى الشرق من آثار حضارته أسواء ثمرات الغرب من الربح المادى مما يمده بأسباب الرخاء والترف . فتجارة الرقيق الابيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحى ،

كانت هي أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب فى الشرق : ولم يقدّم الغرب الى جانب هذا من صالح ثمرات حضاراته ما يستر سوءاته هذه .

الظاهرة الرابعة : أما عن خططه التى إنتهى اليها فهى عادة تشكيل العالم الاسلامى : سيا سيا وثقافيا واقتصاديا .

تصفية المظهر الانتقالى للعالم الاسلامى ، وعرفت هذه التصفية فى المحافل الدولية " بالمسألة الشرقية " توزيع تركة الرجل المريض ، واستلبت منه " فلسطين " ووقع الوطن العربى والاسلامى بين فكى الاستعمار : الغربى والشرقى .

ومازال الرجل مريضا .

– فتت الدولة الاسلامية الى دويلات وأمارات . . . واحكم بينها الحدود الجغرافية . وامعانا فى التفتيت اغراها بمبدأ الاستقلال القومى وحق كل شعب فى تقرير مصيره .

– وضع أشكالا متباينة من النظم السيا سية القائمة : فترى الجمهورى والملكى والسلطانى والاميرى والشيخى ؛ مما أضعف من شأن الدولة العربية وقلل من فاعليتها وأوقعها فى حرج مع المشكلات المعاصرة : السياسية والاقتصادية .

ثم ماذا بعد ذلك ؟ يقول حيدر بامات :

من النادر أن لاقى دين ما لاقى الاسلام من جمود وتشويه ، ومن النادر أن وجدت المبسرات البالغة الغلظة والمفتريات البالغة الوقاحة ، من الاعتبار لدى الجمهور الاوربى ما وجدت تلك التى نشرت حول محمد وتعاليمه .

وقد لوثت ذكرى المنازعات المخزية التى قام بها الغرب النصرانى ضد الشرق الاسلامى ، ولا تزال تلوث الاحكام حول الاسلام ، وما أكثر

الاقاصيص الشخصية التي تدور حول النبى ، وما أكثر الاساطير المستحيلة التي تدور حول تسلط الاسلام وتعصبه .

وللاسف ظلت هذه الخزايا التي بثها الغرب وفق خطه السياسى الاستعماري في نفوس بعض المثقفين ، تمثل المنطلقات الاولى فى فكرهم نحو الاسلام وفكره . ومن هذه المنطلقات (المزاعم) : أن الحضارة غربية ، والغرب هو التقدم والحضارة . **وهذه النتيجة الزائفة كانت قد نتجت من عدة مقدمات :**

- نظرية العرق التي تعني التفوق الغربي على العربي الاسلامى .
- أن ثقافة العرب ثقافة صحراوية مما يعني " الدونية " من أجل الانخراط في سلك التبعية الاوربية .
- الاسلام هو النموذج الحقيقي لعقلية العربي وثقافته الصحراوية .

فأفسد الاستشراق فى مراحله الاولى مجرى تاريخ العلاقات بين أوربا والشرق ، فحفر مستنقعا بين النصرانية والعالم الاسلامى يصعب تطهيره من الشوائب والطحالب ، وما نجم عنه من انفصام بين الاسلام والعالم الغربي . ويجب ان نعترف بأن النصرانية والاسلام غير مسئولين عن هذه الخزايا ، فهو من عمل الرجال والاحوال ولم يكن من تعاليم عيسى ومحمد .

١٢ – الموقف الحالى للاستشراق :

هل يجدد الاستشراق من وظيفته بعد أن نالت هذه الدول الشرقية استقلالها وانحسر الاستعمار الاوربى ؟ لقد ظهرت قوى استعمارية حديثة تتمثل فى القوى العظمى تحت وطأة هذا التغير الدولى وانهارت حدة الصراع الدولى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ... أصبح الاستشراق يبحث له عن دور يمكن أن يلعبه فى دول العالم الثالث المستقلة ، والتي تقف من الغرب عموما موقف التحدى .

ولم يعد أمام المستشرقين إلا أن يسلكوا أحد طريقين أثنين :

– أما أن يستمروا فى بحوثهم ودراساتهم مثلما كانوا يفعلون من قبل – على حد قول ادوارد سعيد – فى موضوعات : التاريخ واللاهوت ، والجغرافيا ، والعلوم والفنون فى الشرق فى صورها الحقيقية والمتخلية . . . هل يظلون كذلك كما لو لم يكن شئ قد حدث .

– أو أن يعدلوا اساليبهم القديمة بحيث تتلاءم مع الاوضاع الجديدة .

وكلا الموقفين صعب ، وبالاخص أن الكثيرين من المستشرقين لا يكادون يعترفون بأن الشرق قد تغير أو يمكن أن يتغير .

ويبقى بعد ذلك كله طريق ثالث : وهو أن يسقط العلماء الغربيون ، الشرق من إعتبارهم ويطوى سجل الاستشراق للابد . ولعل ذلك هو الحل الوحيد أن لم يجدد من نفسه ورسالته ومنهجه وينفض روح الاسيتعمار من داخله .

ينبغى أن تتجه مركزية الاستشراق الى الدراسة المتعمقة للمشكلات الراهنة :

– التعاون المشترك بين أكاديميات البحث العلمى والجامعات ، بين الشرق والغرب من أجل إيجاد حلول مشتركة لمشكلات التخلف والتنمية ، ومعالجة ما خلفه الاستشراق الاستعمارى ، والنظر من جديد إلى الشرق على أنه مساهم فى الحضارة المعاصرة ومبدع فى الحضارات القديمة .

– خروج الاستشراق من تقاليده القديمة وصيغة المحوريه وقوالبه التى يستعملها مقدما مع دراساته للشرق الاسلامى والاسلام وتراثه .

خاتمة

يتضح مما سبق : أنه من الصعب بل من المستحيل أن يتم التعرف الصحيح على حقيقة الاسلام ، مادامت جميع وسائل الاعلام الغربية

والاكاديمية التى قدمنا طرفا منها بين ايديكم ، تنشر المفاهيم الخاطئة والانطباعات السيئة عن الاسلام والعرب .

لهذا يجب قبل الانطلاق فى أى حوار ثقافى متبادل أن نحاول تصحيح تلك المفاهيم ، وفق مصادرها العلمية ، وأن نحاول إيجاد قبول مشترك للمفاهيم التى يستعملها كل طرف من الاطراف .

أما اذا لم ننطلق من مفاهيم لها قدرها العلمى المشترك وإعتمدنا على منطلقات غير معتدلة ، فإن الحواز يصبح بكل تأكيد مغلوطا .

إن التفاهم الحقيقى والحوار المتكامل بين طرفين ، يتطلب إيجاد مساحة مشتركة من المفاهيم الفكرية المتفق عليها بين المتحاورين فى مجالات الاسلام الواسعة : المذهبية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية . . .

لذلك يجب التركيز على تلك المبادئ اذا أراد الغرب أن يقيم حوارا مع الاسلام وفق الركائز الاساسية التالية :

أولا : النظر من جديد الى حقيقة الاسلام من منابعه الاصيلة .

ثانيا : الحد من النظرة العرقية المشوهة للاسلام والعرب ، فقد حان الوقت لكى تنتهى عنصرية الأقوياء ولكى يأخذ الحوار مكانه .

ثالثا : أن تتوقف مكونات الرأى العام الغربى عن نشر الصور المشوهة والمريضة عن الاسلام والمسلمين والعرب .

وفى النهاية نقول أن خير وسيلة للحوار هى التفاهم المتبادل ، فهو دائما الأداة الثقافية الضرورية لتقدير الشعوب حق قدرها .

المحاضرة العاشرة

ماضي العالم الإسلامي ومستقبله

الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد

١٦ يناير ١٩٩٦م

٢٥ شعبان ١٤١٦هـ

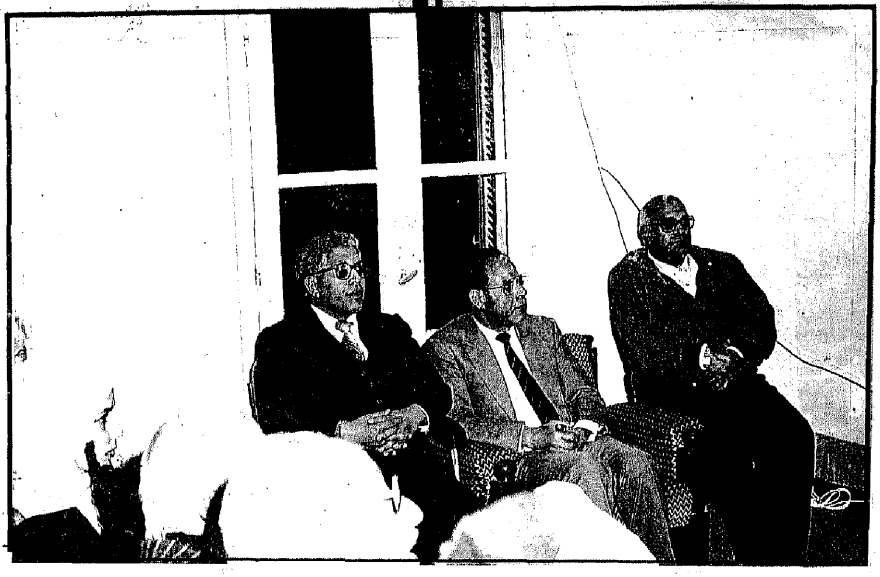

جانب من الحضور :

الدكتور عبد الهادى شرباش يتوسط الدكتور عارف الدسوقى والأستاذ سعيد صالح .

على المنصة : المحاضر الدكتور أحمد كمال ابو المجد وعلى يمينه الأستاذ د. رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / أحمد كمال أبو المجد ، من مواليد ٢٨ يونيو ١٩٣٠ ، بقرية بنى عدى القريبة من منفلوط محافظة أسيوط . وقد نشأ سيادته فى جو علمى ودينى ، فقد كان والده قاضيا ونائبا لرئيس المحكمة العليا الشرعية ، والتى كانت حينذاك تمثل فى قضاء الاحوال الشخصية ، ما تمثله محكمة النقض فى القضاء المدنى ، والمحكمة الادارية العليا فى القضاء الادارى .

ولقد تخرج محاضرنا من كلية الحقوق جامعة القاهره سنة ١٩٥٠ ، وحصل على الماجستير فى القانون المقارن من جامعة ميتشجان بامريكا ، ثم على الدكتوراه من جامعة القاهرة سنه ١٩٥٨ . وعمل مدرسا بكلية حقوق القاهرة سنة ١٩٥٨ ، ثم مستشارا ثقافيا ومدير المكتب الثقافى المصرى فى واشنطن سنة ١٩٦٥ ، ثم رئيسا للمجلس الاعلى للشباب سنة ١٩٧١ ،

فوزيرا للدولة لشئون الشباب سنه ١٩٧٢ ، فوزيرا للاعلام فى الفترة من ١٩٧٣ الى ١٩٧٥ .

وسيادته أستاذ القانون العام بجامعة القاهرة ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية أى هيئة كبار العلماء بالازهر الشريف . **وله مؤلفاته المتميزة فى القانون الدستورى ، والرقابة القضائية على أعمال الادارة . كما أن له دراساته المتعمقة عن المجتمع العربى ، وبحوثه العديدة فى المجالات الإسلامية : والتى نذكر منها على وجه الخصوص كتابه " حوار لا مواجهة " ، وكتيبه "رؤية إسلامية معاصرة / اعلان مبادئ " .**

ومحاضرنا الاستاذ الدكتور / أحمد كمال أبو المجد ، غنى عن التعريف ، فهو من أبرز ، وأصدق الشخصيات المعاصرة التى حملت هموم الوطن المصرى والمجتمع العربى ، والعالم الإسلامى . ولقد أفاده تدرجه فى العمل العام من القاعدة الى القمة ، مع إعتداله وتوازنه النفسى ، وتمتعه بقدرة القول الحق وإعطاء القدوة الطيبة ... فى أن يكون رائدا موفقا فى رؤياه الشاملة لمختلف مشكلاتنا المعاصرة ، وفى التأثير على الرأى العام ، بأفكاره الجديدة وحلوله العملية .

وأسجل بهذه المناسبة معبرا عن الكثير ، أننى حين اقرأ أو استمع للاخ الفاضل الاستاذ الدكتور كمال أبو المجد ، أرانى معجبا بتحليله وتأصيله ، وأتوقف ثم أسلم ، حتى فيما قد أخالفه فيه . وكل منا ، كلما أطال النظر والتأمل فيما كتبه أو يعرضه ، يجد فيه متعة روحية ، وروعة فكرية ، وبلاغة أدبية ، ولا نملك إلا أن نتفق مع تحليلاته ونتائجه .

هذا بعض ما يحضرنى عن شخص محاضرنا الفاضل ، أما بخصوص محاضرته عن (حاضر العالم الإسلامى ومستقبله) ، فاننى أتذكر دائما قوله تعالى (أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، وقول الرسول

عليه الصلاة والسلام (فئتان إذا صلحا ، صلح حال هذه الامة ، واذا فسدا فسد حال هذه الأمة : الامراء أى الحكام ، والعلماء أى أهل الشورى) . **وإنه فى كتابيه الإسلاميين النفيسين ، يضع أستاذنا الفاضل الدكتور كمال أبو المجد ، أيدينا على مواطن الضعف الحقيقى فى عالمنا الإسلامى ، ثم يرشدنا الى سبل النجاة والتقدم .**

فنراه فى كتابه (حوار لا مواجهة) يؤكد لنا بجلاء (أن أول سيف سل فى الإسلام ، قد سل على أعتاب نظام الحكم ، وكما قال بحق الامام الغزالى : الدين أساس ، والسلطان حارس ، وما لا أساس له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع) **ونراه فى هذا الكتاب يكشف لنا عن حقائق هامة غائبه :**

منها قوله : (ان عالمية الدعوة الإسلامية لا تقتضى بالضرورة وحدة الدولة الإسلامية) . **ومنها قوله :** (ان الدعوة الى التميز والخصوصية تحتاج الى أن توازنها دعوة أخرى الى توكيد العناصر المشتركة التى تعين على التواصل ، وتفتح أمام الحضارة الجديدة عقول الناس وقلوبهم ، خصوصا اذا كانت دعوتها انسانية وعالمية كما هو الشأن فى دعوة الإسلام) .

ومنها قوله : (انه ليس للإسلام باطن يستأثر به أقوام دون أقوام ، إلا أن تكون تجربة روحية ذاتية من حق أصحابها أن يخوضوها وأن يذوقوا ثمارها فى صمت وتواضع ، دون إن يشغبوا على جماهير المسلمين بحديث عنها ، كله رموز واشارات ، تضر ولا تنفع ، وتضل ولا تهدى ، وتهتز بها فى عقول المسلمين وضمائرهم الموازين) . **ومنها قوله** (إن الاجتهاد الذى نحتاج أليه اليوم ويحتاج اليه المسلمون ، ليس اجتهادا فى الفروع وحدها ، وإنما هو اجتهاد فى الاصول كذلك ... وليس ما تردده الكثرة الغالبة من المعاصرين من امتناع الاجتهاد فى الاصول ، إلا التزاما بما لا يلزم ، وتقصيرا فى بذل الجهد فيما ينفع الناس)

ومنها قوله (أن الجماعات الإسلامية طرحت في ساحة الفكر والسلوك قضايا جانبية وهامشية ، اختلت معها رؤية الأولويات في اطار التصور الإسلامى) . **ثم قوله** (ان الصحوة الإسلامية يجب ان تنصب على إبراز القيم والمبادئ التى تشكل العمود المحورى للتصور الإسلامى وللتنظيم الإسلامى على السواء) . ومنها قوله (ان التعجيل بالنهضة الداخلية للمسلمين ، هو تعجيل فى الوقت ذاته بأداء المسلمين لدورهم المنتظر، فى رد البشرية الى التوزان الذى ضاع بين مطالب المادة في الانسان ومطالب الروح فيه) .

ونراه فى كتيبه (رؤية إسلامية معاصرة – اعلان مبادئ) يكشف لنا بأن (الحاجة الى رؤية إسلامية معتدلة ومستنيرة ، ليست فحسب أمرا مرتبطا بظروف العالم العربى والعالم الإسلامى وحدها ، وانما هى حاجة يفسرها تطور المجتمعات البشرية فى العالم كله ، والظروف الموضوعية التى تحيط بحياة الانسان المعاصر ... لقد أعطت الثورات الصناعية والعلمية ، للانسان المعاصر رخاء ويسرا ماديا ، ولكنها انتزعت منه الأمن والسكينة والانس بنفسه وحياته وبالآخرين) . **ولذلك كما ينتهى سيادته بحق** (ان الحاجة الى احياء قيم الإسلام ونشرها ، لم تعد حاجة موضعية قاصرة على المسلمين ، وإنما صارت حاجة عالمية لا فكاك للمسلمين من النهوض لأداء مطالبها فى غير إبطاء ولا تقاعس) .

إننى من أعماق قلبى ، أشكر الاخ العالم الفاضل الاستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، تفضله بتشريف الجمعية الخيرية الإسلامية بمحاضرته ، ويقدر له الجميع حرصه على إثراء الفكر الإسلامى وترشيد السلوك .

ولنذكر دائما بأنه ليست العبرة بالانتساب الى الإسلام أو التغنى به ، وانما العبرة بالسلوك وان يكون واقعنا تجسيدا لما نؤمن به ونقوله ، وهذا

وحده مقياس إسلامنا ومعيار ايماننا . فالإسلام هو العزة والتقدم وهو الطمأنينة والسلام ، والايمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

وليتفضل أستاذنا الفاضل ليحدثنا عن حاضر العالم الإسلامى ومستقبله ، جزاه الله عنا جميعا خير الجزاء .

كلمة الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون . . والعصر . .

شهد العالم خلال السنوات الثلاث الأخيرة سلسلة متصلة الحلقات من التغيرات الكبرى فى ميادين العلم والصناعة ، وفى موازين القوى السياسيه والاقتصاديه بين شعوب العالم . . وكان من ثمرات ذلك أن تساءل الأفراد كما تساءلت الشعوب عن مكانها المنتظر وعن مكانتها المرجوة على خريطه عالم يبدو جديدا فى الكثير من معالمه ، كما يبدو جديدا فى الأنساق والقواعد التى تحكم حركة الناس فيه . ولم يكن المسلمون استثناءاً من هذا الذى يجرى ، فتعالت الصيحات وانتشرت التساؤلات عن طبيعة العلاقات الجديدة التى ينتظر أن تربط المسلمين بسائر الناس فى هذا العصر الجديد . كما عكف الباحثون من العلماء وأولى الأمر من الحكام على دراسة الشروط اللازمة لدخول المسلمين إلى ساحة هذا العصر الجديد ، ولإحداث تغيير نوعى فى أوضاعهم يضمن لهم مكانه لائقة بين شعوب الدنيا ويحفظ علهم هويتهم الثقافية والحضارية ، كما يوفر الحماية لمصالحهم الاقتصادية والسياسة . ولما كان الأمر فى هذا ، أمر مستقبل ومصير ، فان إحكام منهج البحث فيه يغدو ضرورة لا يتصور التفريط فيها أو الترخص فى شأنها . . .

لأن مثل هذا الترخص موقع - لا محالة - فى أخطاء فادحة تدفع الأجيال المقبلة ثمنها الباهظ وتحتمل نتائجها وعواقبها الوخيمة .

لم يعد أمر هذا البحث يحتمل منهج المكابرة فى وجه الحقائق ، أو الاسراف فى الاعتذار عن الثغرات والنقائص ، أو التقصير فى رصد عناصر الواقع القائم عندنا وعند غيرنا . . أو الاكتفاء بالحديث عن أمجاد قديمة غابرة والاشتغال بذلك الحديث عن معالجة حاضر يوشك أن يفضى بنا إلى مستقبل قادم لا محالة ..

المنهج الصحيح الوحيد فى معالجة هذا الامرهو منهج رصد عناصر الواقع فى دقة واستقصاء ، وفى موضوعية وشجاعة . . . واستخدام هذا الرصد بعد ذلك - فى تغيير " واقع الأمة " التغيير اللازم لتحقيق نهضتها وزيادة قدرتها على مشاركة سائر الأمم والشعوب مسيرتها نحو هذا العصر الجديد الذى تتغير كل يوم معالمه ، وهى مسيرة تتسابق فيها الأمم بالقدرة وسرعة الحركة وقوة الفعل . ولا يجدى فيها - مطلقا - أى حديث عن ماضى مجيد ، أو وعد إلهى بالنصر نعلم جميعا أنه وعد مشروط باتباع السنن والأخذ بالاسباب . . وربط الكلمة الطيبة بالفعل الموثر ، وصدق الله العظيم " لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون "

وتناولنا لقضيه المسلمين والعصر ، تقتضينا - لذلك - أن نضع أيدينا فى وضوح تام على جوهر التغيرات الحادة التى أشرنا إليها والتى تجعل من المستقبل القريب عالما جديدا يحتاج الناس جميعا ، ونحن منهم ، إلى أن يتوافقوا معه ومع عناصره الجديدة . كما تقتضينا - بعد ذلك - أن نرصد واقع المسلمين ، بخيره وشره ، ما نحب منه وما نكره ، لنصل من ذلك كله إلى توجيه مسيرتنا نحو تغيير واقعنا ، استيفاءً لشروط النهضة ، واستشرافا لمستقبل أكثر إشراقا ، تستطيع فيه الأمة أن تؤدى دورها الحضارى الذى

بعثها الله لأدائه ، وهو دور ترشيد حركة الناس والشعوب ، بقيم الحق والخير والعدل التي أوحى بها الله سبحانه إلى رسله ، والتي توجتها الرسالة الخاتمة التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فاما العصر الذى نتحدث عنه ، فإنه يحمل سمات لا يخطئها أحد من الباحثين . . أولها أن الثورات العلميه والصناعية قد تعاقبت وتسارعت خطاها ، وصار التغير المترتب عليها يتم بمتوالية هندسية ، لأن كل اكتشاف علمي يحمل فى ثناياه جنين اكتشافات جديدة تتولد منه .

وقد وقعت هذه الثورات العلمية فى ميادين عديدة لعل اخطرها ما وقع فى مجالات المواصلات ومجالات الاتصالات . . . وقد كان من شأن هذه الثورات سقوط حواجز المكان وحواجز الزمان ، فتهاوت الاسوار الفاصلة بين الناس والشعوب ، وتحرك الناس بأجسامهم وحواسهم وعقولهم ومعارفهم من أدنى الأرض الى أقصاها ، وصاروا يستقبلون كل يوم آلاف الاشارات القادمة من كل فج عميق . . وصارت الدنيا – كما يقال بحق – أشبه بقرية واحدة وإن ظن أهلها غير ذلك .

كذلك شهد هذا العصر خلال السنوات العشر الأخيرة ظواهر سياسية واقتصادية جديدة . . على رأسها انهيار النظام الدولى الذى ظل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية قائما على الثنائيه القطبية ، وعلى التوازن الذى حققته هذه الثنائية بين ما كان يسمى المعسكر الحر من ناحيه وما كان يسمى المعسكر الشيوعى أو الاشتراكى من ناحية أخرى . . وفوجئت الدنيا ذات صباح باختفاء أحد القطبين كما لو كانت قدماه قد ساختا فجأة فى رمال ناعمة ابتلعته فى لحظات ، وتهاوت باختفائه نظريات ومقررات وفلسفات . . دون أن يكون ذلك – وحده – دليلا على صلاح القطب الباقى وما يمثله من قيم ورؤى وفلسفات . . ولا تزال الدنيا حائرة تنتظر قيام نظام دولى جديد . . لا

يستطيع أحد أن يزعم أن معالمه قد تحددت أو أن القواعد الضابطه للعلاقات فى ظله قد تم إقرارها والاتفاق عليها .

وشهد العالم – فوق ذلك – تراجع الدولة القطريه فى الميدانين السياسى والاقتصادى ، حيث تجمعت دول عديدة لتشكل اتحادات وتجمعات اقتصادية ضخمة تجمعها مصالح واحدة وتنظم علاقاتها أنساق قانوية واحدة . . فتجمعت أوروبا . . وتجمعت أمريكا وكندا والمكسيك . . وصارت اليابان ومعها النمور الاسيوية الأخرى تشكل جبهة ثالثة أخرى . واختفت أو كادت التفرقة السياسية التى كانت مستقرة بين ما هو شأن داخلى للدول ، وما هو شأن دولى تملك المنظمات الدولية أن تتدخل باسمه فى شئون الأقطار المختلفة .

وأخيرا شهد هذا العصر احساسا متزايدا بظهور اخطار عالمية تشترك فى التعرض لها جميع الشعوب على اختلاف جذورها الثقافية وأصولها الحضارية . . فى مقدمتها أخطار تلوث البيئة ، ونفاذ الموارد الطبيعية ، وظهور أمراض وأوبئة تخطت حدود الدول وانساحت فى الأرض وأوشكت أن تهلك الشعوب . . كما تفاقمت وازدادت أخطار العنف الفردى والجماعى وأهوال الارهاب الحكومى والشعبى . .

وازداد الاحساس بالحاجة الملحة إلى جهود مشتركة تتخطى حدود الثقافات والمصالح القطرية . . لمواجهة هذه الأخطار الجديدة الطارئة . .

هذا – فى ايجاز – هو العصر الذى تواجهه الدنيا ، وهذا هو المستقبل الذى نتهيأ جميعا لا ستقباله . .

فكيف يستقبله المسلمون ؟

المسلمون اليوم يواجهون أزمات ثلاث :

١ - فهم فى مجال التقدم العلمى والاقتصادى أمه مسبوقه لم تسهم خلال المائه سنة الأخيرة إسهاما مذكورا فى النهضة العلمية التى تسارعت خطاها فى الغرب والتى أثمرت ما أثمرت من ثورات علمية وصناعية . . ظللنا نقنع بالتحدث عنها والتفرج عليها . . دون أن يكون لنا فيها عطاء مذكور .

والبلاد التى أخرج الله لها من باطن الأرض ثروات هائلة ، لم توفق فى توظيف هذه الثروات توظيفا يضعها فى مصاف الدول صانعة الحضارات . . إذا لا تزال أمتنا - على الجملة - أمة مستوردة ، وأمة مستهلكة . . لا هى منتجة ولا هى مصدرة . . . ولازلنا نعتمد فى غذائنا وكسائنا ودوائنا وسلاحنا على ما تنتجه وتنبيعه لنا أمم أخرى . . تتحكم - بذلك كله - فى مستقبلنا ومصيرنا .

٢ - والمسلمون - فوق ذلك - أمة منقسمة على نفسها لا تكاد تجمع أمرها على شئ . . . ولا يزال حكامها مختلفين بينهم . . ولا يزال التنسيق غائبا بين حركه أقطارهم . . ولا تزال " الوحدة " مطلبا يتحدث عنه الكتاب والساسة ، ويكذبه الواقع المعاش ويزداد - كل يوم - تنكرا له وابتعادا عنه.

٣ - والمسلمون - فوق ذلك كله - يعانون حيرة ثفاقية هائلة ، تتوزعهم تيارات الجمود والرتابة والوقوف عند ظواهر النصوص وتقليد الأقدمين . . وتيارات التجديد ومحاولة التواصل مع العصر عن طريق تجديد الفكر ، ومتابعة الاجتهاد فى الفقه واتساع العقول والصدور للافادة من تجارب الآخرين . . . ولا تزال الساحة الثقافية مشغولة بما يشبه الحرب الأهلية بين دعاة الجمود والتقليد . . ودعاة الاجتهاد والتجديد . . وهى

حرب تستهلك طاقة الأمة ، وتكاد تقعد بها عن الحركة . . وتحول بينها وبين التوجه للمستقبل ومواجهة تحدياته القادمة والتى توشك أن تدق على جميع الأبواب .

والمسلمون – لذلك كله – يواجهون غربة عن العالم . . الذى أخذ يسئ الظن بهم ، ولا يريد أن يفسح لهم مكانا بين شعوبه . . والذى توجه تيار عريض من مفكريه وساسته إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين ، فى حملة مشبوهة البواعث تحتاج مواجهتها إلى جهد جهيد .

ولابد أن يصل بنا ذلك كله إلى السؤال الكبير . .

ماذا نحن فاعلون . . وما هو طريقنا إلى المستقبل ؟

والجواب الذى لا جواب غيره . . أن لله فى خلقه سننا لا تتبدل ، وقوانين لا يعفى منها أحد . . وأن النهضة ليست أمنية يتمناها الناس فيجابون إليها . . وإنما النهضة لها شروطها التى لا تتخلف . . من أخذ بها وصل . . ومن تخلى عنها لم يصل أبدا . .

وشروط نهضة المسلمين اليوم أربعة :

١ – أولها : إعلاء شان العقل من جديد فى ثقافه المسلمين وفى حياتهم كلها .. فلقد غيب العقل عن ثقافتنا وعن حياتنا اليومية .. وانتشر بيننا نوع من الغيبية التى لا أصل لها فى ديننا ، وتصور كثير من الناس أن النقل يغنى عن العقل .. وأن النصوص وحدها قادرة على تحقيق النهضة وإنجاز التغيير .. وذلك وهم عريق .. لابد من محاربته حتى تعاود الأمة انطلاقها على طريق النهضة ... **لقد أدركت شعوب الدنيا من حولنا أن " العلم " قد صار معيار التقدم وأساس تصنيف الشعوب إلى قوية وضعيفة ، وإلى متقدمة ومتخلفة** .. وأنه صار أكثر قيمة وفاعلية من الموارد الأولية والمواد الخام ومن الاسلحة المدمرة التى تكسب بها الحروب .

ومن هنا فإن تطوير أنظمتنا التعليمية والاعلامية والثقافية على النحو الذى يعيد للعقل سلطانه ، هو الشرط الأول من شروط تحقيق النهضة .. وستظل تلك النهضه مطلبا بعيد المنال .. إذا ظلت العقول معطلة .. والعلم غائبا .. والغيبية منهجا .. والقدرة على ممارسة النقد سنة متروكة وملكة ضائعة .

٢ – **الشرط الثانى : أن تتخلى الأمة عن الكلام الكثير وعن اللفظية التى أغرقتها فى طوفان لا رجاء فيه ، وأن تتوجه إلى " العمل " الذى كان شعارا لحضارتنا** التى يقول كتابها المنزل " وقل اعملوا " والتى يقول واقعها – مع ذلك – أن العمل قد تراجع تراجعا هائلا فى **كمه** ، وفى **نوعه** ، وفى اتقان **أدائه** ..

إن النهضة مسار وليست مجرد قرار . . والمسار يحتاج إلى عمل متواصل كثير لا مكان فيه لمتكاسل واحد ، ولا موضع فيه للقاعدين . .

والعمل الذى تتحقق به النهضة ، هو العمل " المنتج " الذى يضيف إلى الأمه قيمه جديدة . . وليس مجرد السعى الذى ننفق فيه الأيام والساعات .

ومن شروط هذا العمل حسن الأداء ، والاحسان والاتقان . . إذ لا يثبت فى ساحات المنافسه عمل غير مجوّد ، ولا أداء غير متقن . . والله تعالى قد كتب الاحسان على كل شئ .

ومن شروطه أخيرا الابداع الذى به يكون السبق عند المنافسة . .افسة . . والانتقال من حال إلى حال أفضل . . وبغيره يتعذر على الأمة أن تعوض سنوات التكاسل والتراجع والتخلف عن مسيرة الآخرين . .

٣ – **الشرط الثالث : إطلاق النفوس من اسارها ، وتحرير الملكات من قيودها ، وتوفير الحرية للانسان المسلم .. فى حياته الشخصية والسياسية والاجتماعية ...**

فالحرية شرط النهضة ، ومناط التكليف ، ومحرّك الابداع . . وهى – فى حياتنا – وإن زعمنا غير ذلك ، سنة متروكة وفريضة غائبة .

فعلا قاتنا الاجتماعية تقوم على القهر . .

وأنظمتنا السياسية تقوم على الاستبداد . .

وحياتنا اليومية مهددة فى سائر حقوق الفرد وحرياته . . بدءا من حياته ومعتقداته إلى حقه فى التفكير والتعبير . . والذين لا يزالون – بعد كل تجارب الدنيا مع القهر والاستبداد – يتحدثون عن المستبد العادل ، عليهم أن يراجعوا أنفسهم بلا إبطاء . . وأن يتعلموا أن الحرية هى أول طريق الانعتاق من الذل ومن الجمود ومن الانتكاس . . فالعبيد لا يبنون الحضارات والمقهورن لا يقدرون على حمل تبعات النهضة وقيادة سائر الناس .

٤ – أما الشرط الرابع : فهو " تحرك الهمة " وعقد النيه . . ورب همة أحيت أمة . . وهذه الهمة هى التى تنقل الأمة من السكون إلى الحركة ، ومن الإنكفاء على الماضى إلى التوجه للمستقبل . . ومن الترهل إلى الانضباط وإحكام خطى السير واستبصار طريق المستقبل . . وهى التى تنقل الجيل كله من الحيرة والاحباط إلى الأمل واتساع الرجاء .

بقى أن ندرك جميعا أن رحى السباق دائرة وأن الزمن يتحرك فى سرعة هائلة ، وأننا لا نملك ابطاء الخطى أو التردد فيها ، كما لا نملك – أبدا – أن ننعزل عن الدنيا أو أن نعتزل القافله .

وإذا كان المؤمن القوى خيراً وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. فإن سبيل القوة – اليوم – هو الايجابية والاقدام ، لا السلبية والانسحاب ..

ولا موضع بعد هذا لتردد ، ولا مكان لعجز . . ولا عذر لمتخلف . .

" والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .

وفقنا الله واياكم سبل الرشاد .

المحاضرة الحادية عشرة

نماذج من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

٥ مارس ١٩٩٦م

١٥ شوال ١٤١٦هـ

الأستاذ الدكتور منصور محمد حسب النبى

جانب من الحضور :

من اليمين السيدة ليلى بهى الدين بركات والوزير المهندس حسب الله الكفراوى والأستاذ المستشار عبد الفتاح حسن مدير عام الجمعية

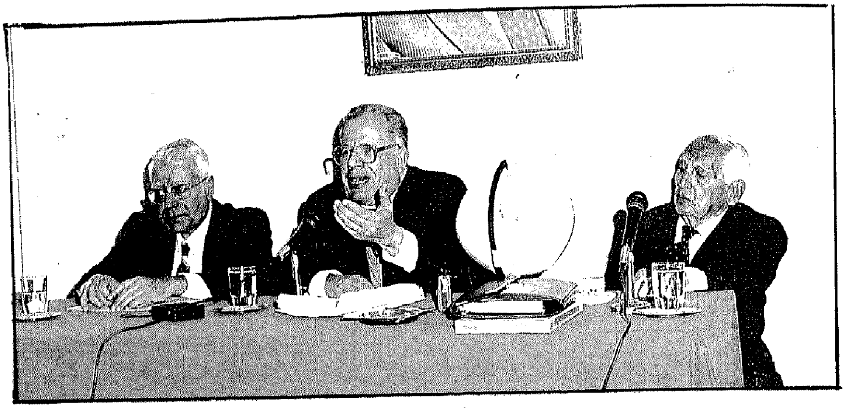

على المنصة : المحاضر الدكتور منصور حسب النبى وعلى يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى .

تقديم

المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / منصور محمد حسبْ النبى ، من مواليد منوف فى ١٨ يناير سنه ١٩٣١، وقد نشأ فى أسرة متدينة كرمته فى صغره بتحفيظه القرآن الكريم . وعقب تخرجه عام ١٩٥٢ متفوقا فى الجامعة ، تدرج فى وظائفها الجامعية ، حتى شغل أعلاها كاستاذ ورئيس قسم الفيزياء بجامعة عين شمس والمشرف على الدراسات العليا .

ولقد مكنه الجمع بين الثقافة الاسلامية المتعمقة ، وبين التخصص العلمى الدقيق ، أن يؤدى الى الاسلام والمسلمين أجل الخدمات ، وذلك من خلال إبرازه الاعجاز العلمى للقرآن الكريم . فكان له فى هذا المجال عشرات المحاضرات والمقالات ، فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى والخارج ، وأسفر كدحه المتواصل فى هذا المجال ، عن تسعه كتب منشورة أو تحت النشر ، لعل أبرزها كتابه " القرآن الكريم والعلم الحديث " والذى أصدرته له الهيئة

المصرية العامة للكتاب باللغتين العربية والانجليزية ، وكذا كتابه " الكون والاعجاز العلمى للقرآن " والذى نشرته له فى طبعته الثانية سنه ١٩٩١ دار الفكر العربى وتحت الاصدار طبعته الثالثه ١٩٩٦.

ولقد عشت مع هذا الكتاب الأخير " الكون والاعجاز العلمى للقرآن " ، بضعة أيام خلال شهر رمضان الماضى سنه ١٤١٦هـ فبراير سنه ١٩٩٦م ، وكان الانطباعُ والتساؤل الفورى عقب قراءته والاستفاده منه علميا : لماذا لا تعم الاستفاده من هذا الكتاب بتدريسه لكافة طلبه الثانوية العامة ؟ . **ويقينى أنه لو حدث ذلك لكنا أمام جيل جديد " عالم مؤمن " يقود سفينة العالم بالعلم والايمان . ذلك انه اذا كان الايمانُ بغير علم ، عين الاستضعاف ، وبالتالى الضياع ، فان العلم بلا ايمان ، هو عينُ الطغيان وبالتالى ايضا الضياع ... ولعل ذلك هو جوهرُ المشكلة التى يعانيها عالمنا المعاصر ، فالغرب المتقدم يعوزه الايمان والقيم ، والعالم النامى ومنه عالمنا الاسلامى يعوزه العلم التجريبى والتقنية الحديثة .**

ومحاضرنا الاستاذ الدكتور / منصور محمد حسبْ النبى ، هو أحد المؤسسين البارزين للجمعية المصرية للاعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة ، والمسجلة منذ عام ١٩٨٨ . وقد انتخب عضوا لمجلس ادارتها ، ثم سكرتيرا عاما ، ثم رئيسا لمجلس ادارتها ، منذ أربع سنوات وحتى اليوم .

وإننا جميعا نحمد ونقدر لجامعة عين شمس ، ترشيحها لمحاضرنا الاستاذ الدكتور منصور محمد حسبْ النبى لجائزة الملك فيصل العالمية ، فى خدمة الاسلام للعام الحالى ١٦١٤هـ / ١٩٩٦م . وكلنا يعلم أن الجائزة المخصصة لمن خدموا الاسلام لها اعتباراتها ودلالاتها الخاصة ، ولا شك أن فى ترشيح محاضرنا ، هو توجيه للعالم أجمع بأهمية الاعجاز العلمى للقرآن ، وهو أيضا اعلان لدور محاضرنا المؤثر ، والفعال فى هذا المجال .

هذا قليل من بعض ما يجب قوله بشأن محاضرنا الاستاذ الدكتور منصور محمد حَسَبْ النبى ، اما بشأن المحاضرة وهى فى رحاب الاعجاز العلمى للقرآن الكريم . فاننا اليوم أمام توجه جديد يستلزمه تطورْ عالمنا المعاصر ، وهو حاجتنا الى " التفسير العلمى للقرآن الكريم " ، لنفهم حقيقة الكون المنظور من خلال كتاب الله المقروء .

ان القرآن الكريم ، هو معجزة كل زمان ومكان ، وهو معجزة خالده متجددة . ولقد قدم ائمةُ الاسلام وشيوخه ، على مدار التاريخ الاسلامى ، تفسيراتهم فى الكشف عن **الاعجاز اللغوى** ، **والاعجاز البيانى** ، **والاعجاز الفقهى** ، **والاعجاز النفسى** للقرآن الكريم ... ونحمدُ اليومْ لعلمائنا الذين يجمعون بين الثقافة الاسلامية المتعمقة ، وبين التخصص العلمى الدقيق ، محاولاتهم فى الكشفِ عن **الاعجاز العلمى** للقرآن الكريم ، لنزدادَ ايمانا ويقينا بأنه كتابُ الله المنزل بالحق منذُ أربعة عشر قرنا :

ولا شك ان الجهود فى هذا المجال تُكْسِبُ الاسلامَ أنصارا جددا ، هم قمة العلم والعلماء . وما زلت اذكر بمناسبة المؤتمر العالمى الذى عقدته المملكة العربية السعودية ، منذُ عشرة أعوام حول الاعجاز الطبى للقرآن الكريم ، ان اعلن اسلامه ، استاذ أجنبى متخصص فى علم الأجنَه ، وذلك فورَ ادراكه لثلاث آيات قرآنية ، وردت فى أربعة سطور لا غير هى قوله تعالى : ((لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نُطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحماً ، ثم انشأناه خلقاً آخرَ ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين – المؤمنون / ١٢)) . وبرزَ اسلامه بأن هذه الآيات الثلاث قد لخصت ، كلَ علمه ، وكلَ حياته ، التى قضاها مكابدا ، للتوصل الى ما أوردته هذه السطور الأربعة من القرآن الكريم .

ان محاولات التفسير العلمى للقرآن الكريم ، حديثةُ للغاية ، بعد ان كشف لنا العلم الحديث عن الكثير من الحقائق التى وردت بالقرآن الكريم . ولعل من أول رواد هذا المجال هو **المرحوم الاستاذ الدكتور محمد احمد الغمراوى** الذى صدر له فى اوائل السبعينات كتابه المشهور " الاسلام فى عصر العلم "، مستعرضا بعض جوانب الاعجاز العلمى للقرآن الكريم . كما قام أيضا **الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين الفندى** حفظه الله فى منتصف السبعينات بجهود مماثلة فى كتابه " الله والكون " .

ان القرآن الكريم هو كتاب هداية ، جاء باشارات علميةٍ كثيرةٍ ودقيقة ، تعبرُ عن الاعجاز العلمى للقران الكريم . بل لقد تواترات الآيات القرآنية فى الدعوة الصريحة لاكتشاف الكون ، والنظر والتأمل فى مخلوقات الله ، والبحث التجريبى بقوله تعالى ((قل انظروا ماذا فى السموات والارض – يونس/١٠١)) ، وقوله تعالى ((سنريهم آياتنا فى الآفاقِ وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انهُ الحقْ – فصلت / ٥٣)) . **وعندما استجاب أئمةُ الاسلامِ وشيوخه القدامى ، لهذه الدعوة الالهيةِ للبحث التجريبى ، صار منهم علماءٌ فى الفلك وفى الطب والكيمياء وفى الطبيعة وغيرها ، وكان لنا حينئذ حضارة فائقة اقتبسها الغرب وقامت عليها الحضارات الحديثة .**

وانقل عن محاضرنا صـ ٢٧ من كتابه " الكون والاعجاز العلمى للقرآن " قوله (إن فى القرآن نحو ٨٠٠ ثمانمائة آية تشير الى حقائق كونية عديدة ، بعضها لم يكشف عنه العلم إلا فى السنوات الأخيرة ، كغزو الفضاء ، ووصول الانسان الى القمر ، والذرة ، والنسبية ، والجاذبية ، ونشأة الكون ، وتمدده ، ونهايته ، وانشقاق القمر ، وتكور الشمس ، وكروية الارض ، وتعدد الشموس ، والأقمار ، وتباعد النجوم وجريانها ، وغيرها من حقائق

كونية يلهث العلم وراء الكشف عنها) . وقد حرص محاضرنا على عرضها ، فى أسلوب مبسط فى مختلف مؤلفاته ، ومقالاته ، ومحاضراته .

ويذكر سيادته بحق (ان الاعجاز العلمى للقرآن الكريم هو طريقُ مباشر الى الله ، لا يجرؤ أى مكابر أو ملحد أن يجد موضعا للتشكيك فيه . ولهذا فان العلم الحديث سوف يكون عونا لنشر الاسلام ، وقد وضحت فى هذا العصر معانى الآيات الكونية التى نزلت منذ اربعة عشر قرنا مشيرة الى أحداث علمية لم يصل الانسان الى اكتشافها الا أخيرا) .

فمرحبا بمحاضرنا الاستاذ الدكتور منصور محمد حَسَبْ النبى ، الذى كرس جهده ووهب حياته ، لأجلِ رسالة ، واصعبها مهمة ، وهى الدعوة الى الاسلام من خلال الكشف عن الاعجاز العلمى للقرآن . خاصة واننا نعيشُ اليوم فى عصر مادى ، لا يؤمن بغير لغة العلم وسيلة للتخاطب والاقتناع ، وان هذه اللغة العلمية هى اللغة الدولية التى لا لغة غيرها لمخاطبة غير المسلمين .

نسأل الله تعالى لمحاضرنا أن يزيده توفيقا وسدادا ، وأن يطيل الله عمره ، لمضاعفة عطائه العلمى وخدماته الجليلة . وأن يجزيه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، انه نعم المولى ونعم المجيب .

كلمة الاستاذ الدكتور منصور محمد حَسَبْ النبى

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنى ان التقى بكم فى رحاب الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة شاكرا دعوة سيادة المستشار محمد صادق الرشيدى والمستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى لالقاء هذه المحاضرة . وأود فى البداية أن أوضح الفرق بين التفسير العلمى ، والاعجاز العلمى للقرآن الكريم : **فالتفسير** هو انتفاع المفسر بما

ظهر فى عصره من علوم كونيه لتفسير الآية تفسيرا يحتمل الصواب أو الخطأ ، أما **الاعجاز العلمى** فهو الحقيقة الكونية التى يؤول اليها معنى الآية نهائيا ، ويشاهد الناس مصداقها ، فيستقر عندها التفسير ويصبح إعجازا ، وهذا هو موضوعنا وصدق الحق تبارك وتعالى : " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتنبين لهم أنه الحق " (فصلت ٥٣) .

وسوف يشهد العلماء بأن القرآن هو الحق كما فى قوله تعالى :

" وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك " (الحج ٤٧) .

والاعجاز العلمى للقرآن إثبات أكيد لصدق النبوة ، فلقد انتهت المعجزات الحسية للأنبياء السابقين : مثل عصا موسى ، وناقة صالح ، ومعجزات عيسى ، عليهم جميعا السلام . وبقيت معجزة واحدة لخاتم النبيين ، ألا وهى القرآن الكريم الذى تعهد الله بحفظه من أى تحوير كما فى قوله تعالى : -

" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (الحجز : ٩) .

والقرآن رغم أنه كتاب هداية ورحمة ، إلا أن آياته كلها مفصلة على علم الهى يقينى ، كما فى قوله تعالى : -

" ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون " (الاعراف ٥٢) .

ولكى يكون القرآن معجزة خالدة متجددة لكل البشرية أى للعالمين جميعا على اختلاف عصورهم ومكانهم وزمانهم ، فقد أنزل الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن اكثر من ٧٠٠ آية كونية بها إعجاز علمى يناسب عالمية الرسالة وخلودها . بحيث يتبين منها على مر الدهور وجه لم يكن تبين ، وناحية لم يكن أحد يعرفها ، **فيكون هذا التجدد ، إثباتا لصدق النبوة من جهة ، وعالمية الرسالة من جهة أخرى ، وتدعيما للدعوة لدين الاسلام حتى قيام الساعة ، والتى سيظهر عندها الكثير فى الاعجاز العلمى للقرآن فى الآيات**

الكونية للقيامة ، كتكور الشمس (اذا الشمس كُوِّرت) واشتعال البحار (واذا البحار سُجِّرت) وغير ذلك من آيات بها أنباء كونية لا تتجلى الا بعد حين من نزول القرآن كما فى قوله تعالى : -

" إن هو الا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين " (ص ٨٧ - ٨٨) .

ونحن الآن والحمد لله نعيش فى عصر التقدم العلمى والتكنولوجى حيث تكشف الكثير من آيات الله والتى كان من العسير علينا فهمها ربما حتى مطلع القرن العشرين ، وصدق تعالى بقوله : -

" وقل الحمد لله سيريكم اياته فتعرفونها " (النمل : ٩٤) .

وأنى لا تعجب من المهاجمين للاعجاز العلمى للقرآن بدعوى ان العلم يتغير ! وهذه غيرة مشكورة ، ولكنها تتجاوز حدها حين تتمسك بتفسيرات قديمة غير صحيحة ، مستمدة من خرافات الماضى ، والكثير من الاسرائيليات ؛ بينما ترفض العلم اليقينى بحقائقه الثابته ، واذكر هؤلاء المعارضين بقوله سبحانه :

" أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (محمد : ٢٤)

فهيا معا نتدبر بعض آيات القرآن فى ظل الحقائق العلمية التى ظهرت لنا حديثا ، كنماذج من الاعجاز العلمى للقرآن الذى يحتاج لاستخدام العقل قبل النقل ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

" الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له "

أولا : اعجاز القرآن فى بيان شكل الأرض

اعتقد الناس قديما أن الأرض مستوية مسطحه منبسطة واطلقوا عليها البسيطة كما فى قول الشاعر حافظ ابراهيم فى قصيدة الجبل يتحدث عن نفسه :

أنا الجبل المنيع علوت عما ... على ظهر البسيطة من رواسى

وسادت خرافات ، الأرض المسطحه المرتكزة على ثلاثة حيتان ، أو على قرن ثور ، أو قرص الأرض العائم على سطح البحر . وكان خط الأفق فى نظر الناس هو نهاية الأرض ، وعنده تقع دار الخلود وأرض النعيم ، وأعمدة السماء التى توهمها الناس وكأنها تحمل الكرة السماوية ، والباب المزعوم الذى تخرج منه الشمس فى الصباح لتعود اليه فى السماء . وتخيلوا صوت طشطشة الشمس الساخنه ، وهى فى نظرهم تغطس فى المحيط عند الأفق البعيد ! وماهذه الأفكار إلا خداع الأبصار .

ولم يكن التوصل الى حقيقة كروية الأرض أمرا ميسورا ، لأن الاعتماد على الحواس وحدها دون التدقيق التجريبى ، كان يؤدى ومازال الى الانطباع الخاطئ بأن الأرض مستوية ، وليست كروية ، فنحن نمشى على سطحها دون أن ندرك تكور هذا السطح تحت أقدامنا كلما طالت المسافات .

ولقد توقع الاغريق وعلماء المسلمين كروية الأرض بسبب بعض الظواهر الطبيعية ، الغير مباشرة ، مثل رؤية قمم الجبال الشاهقة من بعيد قبل رؤية سفوحها ، وغياب السفينة المسافرة عن راصدها قبل غياب شراعها ، وملاحظة الشكل الدائرى لظل الارض على سطح القمر أثناء خسوفه .

ورغم هذه الظواهر الدالة على كروية الأرض ، فان الانسان ظل في شك من هذه الحقيقة ، فالأرض منبسطة أمام عينيه ، لا يرى لها إنحناء وتكورا . حتى جاء عصر الفضاء ، فى منتصف القرن العشرين ، وصعد أول رائد فضاء وهو الطيار الروسى يورى جاجارين ؛ ورأى الأرض لأول مرة بكاملها كرة تسبح فى الفضاء وقام بتصويرها من بعيد ، وهو فى سفينة الفضاء فوستوك ١ عام ١٩٦١ ، فاطمأنت القلوب لكروية الأرض ، برؤيا العين تثبيتا لرؤيا العقل . والعلامة نيوتن عام ١٦٨٧م ، توقع بذكائه أن الارض كرويه دون أن يراها ، بل وأكد انها تتبعج قليلا عند خط الاستواء

نتيجه تأثير القوة المركزية الطاردة الناتجة عن دوران الارض حول نفسها ، والتى أدت الى زيادة طول القطر ، عند خط الاستواء عن القطر عند القطبين . وجاء عصر الفضاء ، وتم المسح الشامل بالاقمار الصناعية لكوكب الأرض ، وأدركنا انها كرة ، قطرها ١٢٧٥٧كم عند خط الاستواء بزياده ٤٣كم عن القطر عند القطبين ، مما يجعل كرة الأرض لها تقريبا شكل بيضاوى فتأمل قوله تعالى : -

" والأرض بعد ذلك دحاها " (النازعات : ٣٠)

ولقد اجمع المفسرين على تفسير لفظ (دحا) بمعنى مدها وبسطها ، وأهملوا المعانى الأخرى لهذا اللفظ مثل :

أ - **دحا** : بمعنى جعلها كالدحيه ، أى كالبيضة وهذا ينطبق على صورة الارض بالاقمار الصناعية . وسبب هذا التفرطح عند القطبين ، أن الأرض عند نشأتها كانت لينة كالعجين لارتفاع حرارتها ، وكانت تدور بسرعه حول نفسها بمقدار سته أضعاف سرعتها الحالية ، لان زمن اليوم الواحد كان عند نشأتها أربع ساعات ، مما أدى الى انبعاجها عند خط الإستواء .. وهذه الحقيقة أعلنها نيوتن عام ١٦٨٧ ، وسجلتها الأقمار الصناعية عام ١٩٥٨ ، ولكن القرآن الكريم أعلنها منذ أربعة عشر قرنا بوصف كوكب الأرض بالدحيه أى البيضة .

ب - **دحا** : بمعنى رمى من المقر ، مما يدل على قذف الارض من سديم الشمس عند نشأتها منذ ٤,٦ مليار سنه مصداقا لقوله تعالى :

" وأولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما " (الانبياء : ٣٠) .

جـ - **دحا** : بمعنى أزاح كما ورد باللغة " دحا المطر الحصى عن الارض " والازاحة معناها حركة بسرعة معينة ، مشيرا الى حركة الارض وليس

سكونها كما اعتقد البعض ، ومشيرا أيضا إلى ما اكتشفه العلم حديثا بظاهرة إزاحة القارات ، علاوة على حركات الأرض في الفضاء .

وبهذا اتفقت جميع المعاني اللغوية للفعل دحا ، بمعنى مد وبسط وجعلها كالبيضة ، ورمى وأزاح مع شكل وحركة الأرض كما عرفنا حديثا .

واقتصار المفسرين على تفسير لفظ " دحا " بمعنى المد والبسط ، يتناسب مع إحساسهم بأن الأرض أينماذهبت تجدها ممدودة أمامك ، وأنها بساط كما في تخيلهم وتفسيرهم لمعنى قوله تعالى : -

" والارض مددناها " (ق : ٧)

ولو تدبرنا عمق المعنى في لفظ " مددناها " لادركنا بالهندسة الفراغية أن استمرار المد دليل هندسي قوى على كروية الأرض ، لانها لو كانت منبسطة مسطحة لانتهى المد عند أطرافها ... وبهذا فكلمة مددناها ، تعطى المعنى المزدوج للانبساط والتكوير ، وهذا من عجائب إعجاز القرآن .

والتكوير واضح في قوله تعالى : -

" يكور الليل على النهار ويكون النهار على الليل " (الزمر : ٥)

والفعل يكور ، معناه يلف في استدارة وتكوير ، فيقال لغويا كار العمامة على رأسه أى لفها.. وتكوير الليل على النهار هنا بمعنى احلال نصف الكرة الارضية المظلم محل نصفها المضئ ، والعكس في تكوير النهار على الليل ، أى لف الارض الكروية حول محورها ، فيتبادل الليل والنهار ، وهذه حقيقة علمية لم تكتشف الا حديثا ولهذا ادركنا عجائب الآية الكريمة .

وتوضيحا للشكل الكروى للارض يقول سبحانه : -

" وفى الارض قطع متجاورات " (الرعد : ٤)

ويفهم القارئ العادى من هذه الآية تجاور حقول المزارعين بما فيها من جنات وأعناب ونخيل ، ولكن علماء الجيولوجيا اكتشفوا حديثا بالاستعانة

بالتصوير بالاقمار الصناعية أن سطح القشرة الارضيـة متصدع ومقسم إلى ألواح قاريـة تحت البحار والمحيطات واليابسة مصداقا لقوله تعالى "والارض ذات الصدع " ... وهذه الالواح والله اعلم هي " القطع المتجاورات " والتى لا يتوفر تجاورها جميعا إلا اذا كان سطح الكوكب كرويا ، لانه لو كان مستويا مسطحا لتجاورت كل القطع ماعدا القطع الموجودة فى أطراف المسطح ، وبهذا فلابد من انحناء السطح لتتجاور جميع القطع دون استثناء كما هو واضح فى الآية الكريمة وهذا يؤكد كروية الأرض بتجاوز جميع الواحها .

ولو تدبرنا ايضا قوله تعالى : -

" وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق " (الحج : ٢٧)

إن كلمة عميق هنا تدل على إعجاز علمى وهندسة فراغية ، فلو كانت الأرض مسطحة مستوية ، لوصف القرآن الفج بالبعيد ، وليس بالعميق ، ولكن عمق الفج هنا دليل على إنحناء كل الطرق المؤدية الى مكة التى وجد أنها تقع فى مركز اليابسة . لهذا يقول الحق تبارك وتعالى لنبيه الكريم " لتنذر ام القرى ومن حولها " أى ومن حولها على سطح الكرة .

وعلاوة على كروية الارض ، فان القرآن الكريم ، يشير الى إنقاص مستمر يحدث فى سطحها كما فى قوله تعالى : -

" أولم يروا انا نأتى الارض ننقصها من أطرافها " (الرعد : ٤١)

والتعبير بالفعل المضارع هنا ، يفيد أن إنقاص الارض من اطرافها عملية مستمرة فى كل عصر . ولقد اعتقد المفسرون أن هذه الآية تشير الى زوال الأمم الكافرة ونصر المؤمنين ، ولكنى أعتقد ، والله أعلم ، أنها تحتوى علاوة

على هذا معنى المجازى ، على معنى علمى فيزيانى وجيولوجى يفسر ما يلى من حقائق :

١ - استمرار انكماش سطح الارض إمتدادا لأثر التبريد الذى حدث لقشرة الكوكب ، منذ انفصاله من الشمس منذ ٤,٦ مليار سنه وحتى الآن . ويقدر العلماء هذا الانكماش القطرى بحوالى ٣٠٠ كم ، ومازال التبريد مستمرا مما يؤدى إلى نقص أقطار الأرض من أطرافها . ويمكن الكشف عن هذا بأجهزة الاستشعار عن بعد ، بالاقمار الصناعية التى تستخدم حاليا لقياس الطيات الحادثة فى قشرة الارض كمحاولة للتنبؤ بالزلازل .

٢ - الطغيان المستمر لمياه البحار والمحيطات على شواطئ اليابسة التى يعتبرها علماء الجيولوجيا حدودا مرنه غير ثابته وقابلة للتغيير ، وهناك دلائل على ذلك يتمثل فى مدن كثيرة ؟ مغمورة تحت مياه البحار لأقوام سابقين . ويرتفع مستوى مياه البحر نظرا لتراكم الرواسب والطفح البركانى فى قيعان البحار والمحيطات المشتعلة ، كما فى قوله تعالى بالقسم الالهى " والبحر المسجور " . وهذا يؤدى إلى ارتفاع القشرة الارضية لهذه القيعان ، فيطغى البحر على اليابسة علاوة على احتمال انصهار بعض المناطق الجليدية نتيجة الارتفاع التدريجى الحادث لدرجة حرارة الكوكب بسبب التلوث الجارى فى عصرنا فى البر والبحر والجو ، مما سيؤدى إلى طوفان جديد فى المستقبل .

٣ - تأثير عوامل التعرية بانقاص الارض من أطرافها (أعلاها) ، فالجبال الشامخة ليست دائمة او خالده لان الصخور تتحطم وتتآكل بمرور الزمن بمساعدة المياه الجارية على سفوح هذه الجبال وتأثير الرياح الشديدة والزلازل القوية .

٤ – الاشـارة الـى الفـرق بيـن طـول قطـرى الكـرة الأرضيــة الاسـتوائى والقطبى كمـا ذكرنـا فـى دحـو الارض ، ممـا يعطـى الكـرة شـكلا بيضاويـا تقريبا ، وبهذا تنقص الارض من أطرافها .

ثانيا : اعجاز القرآن فى بيان دوران الارض حول نفسها وحول الشمس

ذكرنا فـى البنـد السـابق أن الارض تبـدو مسطحة ظاهريـا بينمـا هـى فـى الواقع كروية ، وشتان بين الظن واليقين ، فلقد أثبت العلم الحديث أيضـا أن الارض رغم سكونها الظاهرى تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة بسـرعة ١٠٤٤ ميل / ساعة فى حركة مغزلية وفى نفس الوقت تنطلق بنـا لتدور فـى فلكها حول الشمس مـرة كـل عـام بسـرعة ٦٧٠٠٠ ميـل / سـاعة فـى حركـة مدارية ، وبهذا تـأكد علميـا وجـود حركتيـن رئيسيتين لـلارض ، ولقـد اشـار القـرآن الكريـم إليهمـا بالاشـارة وليـس بصريـح العبارة لان الايمـان بـدوران الارض ، أعصى من الايمان بكرويتهـا ، فـالدوران حركـة وقـد تعـود النـاس بالشـعور بـالحركـة . وعندمـا قيـل لهـم فـى القـرن السـادس عشـر ان الارض تتحرك ، سارعوا الى التكذيب وقبضت الكنيسة على العلماء امثال كوبرنيكس وجاليليو وحكمت عليهم بالاعدام . **وتساءل الناس فى دهشة ، كيـف تتحـرك الارض وهم يرونها ساكنة ؟**

وظل هـذا السـؤال ساريا عنـد العامـة حتـى وقتنـا الحـاضر ! . لهـذا كـان التعبير القرآنـى عـن حركـة الارض بأسلوب معجـز علميـا وبيانيـا يخـاطب الجميع على قدر عقولهم وزمـانهم ، حتـى اذا تقـدم العلـم وجدوا فـى معـانى القرآن ما يكشـف هذه الحقيقة الكونية . وهذا اعجاز فى الاسلوب ، فضلا عـن

المعنى ، لا يقدر عليه الا الله الذى خلق الكون كله ، بدستور موحد قائم على الحركة كما فى قوله تعالى : -

" كل يجرى لأجل مسمى " (الرعد : ٢)

" كل فى فلك يسبحون " (الانبياء : ٣٣)

وبهذا يؤكد القرآن شمولية الجرى والسباحة فى الكون الذى لايعرف السكون . ونظرا لهذا التعميم فإن الأرض جرم سماوى متحرك كما عرفنا حديثا !

ورغم الدوران المغزلى للارض بسرعة اقصاها عند خط الاستواء ١٠٤٤ ميل / ساعة ، وجريانها بسرعة ٦٧٠٠٠ ميل / ساعة فى فلكها حول الشمس ، بل وانطلاقها مع الشمس فى فلكها حول مركز مجرة سكة التبانه بسرعة ٤٩٧٠٠٠ ميل / ساعة ، وجريانها مع الشمس فى فضاء المجرة بسرعة ٤٣٠٠٠ ميل / ساعه ، بل وانطلاقها مع مجرتنا فى اطار تمدد الكون ... فاننا رغم هذه الحركات الخمس ، مستقرون فوق الارض لاتتناثر أشلاؤنا ، ولا نشعر بالدوار أو الاغماء ، رغم أن الارض تتحرك ، بل ترمح بنا فى الفضاء دون أن تقذف بنا من على سطحها ، ودون أن تتعثر خطاها ، ودون أن نشعر بحركتها ، فهى كالدابه الذلول كما فى قوله تعالى :

" هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقة واليه النشور " (الملك : ١٥)

وفيما يلى بيان الاعجاز العلمى للقرآن الكريم فى حركات الارض المتزامنة فى الفضاء والتى تم اكتشافها وقياسها فى القرن العشرين !

١ - الحركة المغزلية بدورانها حول نفسها :

يقول تعالى :

" يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل " (الزمر : ٥)

والتكوير كما ذكرنا لف شئ على آخر فى اتجاه مستدير ، كما فى اللغة : كار العمامة على رأسه . وحيث ان لفظى الليل والنهار يأتيان بعدة معانى منها : زمن الليل وزمن النهار ، او مكان الليل ومكان النهار ، او الظلام والنور ، فاننا يمكننا تفسير هذه الأية كما يلى : " يكور الله تعالى ظلام الليل على مكان النهار على سطح الارض فيصير ليلا ".أو " يكور الله تعالى نور النهار على مكان الليل على سطح الارض فيصير نهارا "

وهذا معناه بلغة العلم فى الفيزياء والفلك : لف الارض الكروية حول محورها فى حركة مغزلية دائبة مستمرة أمام الشمس ، حتى يحدث تتابع لليل والنهار في الغلاف الجوى للارض . ويؤيد ذلك تكرار الفعل **يكور** فى الأية السابقة ، وتكرار الفعل **يولج** فى الأيه التالية :

" يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل " (لقمان : ٥)

والايلاج لغويا :ادخال شئ فى آخر يحيط به ويساويه تماما . وحيث أن محور دوران الارض حول نفسها يقسمها نصفين متماثلين احدهما يكون ليلا فى ظلام الفضاء والآخر نهارا مواجها الشمس ، فاننى اقترح أن يكون معنى الأيه كما يلى :

يولج الله مكان الليل فى مكان النهار فيصير نهارا .

ويولج الله مكان النهار فى مكان الليل فيصير ليلا .

وبهذا يتبادل الليل والنهار باستمرار بهذه الحركة المغزليه للارض ، ويؤيد ذلك قوله تعالى :

" يقلب الله الليل والنهار أن فى ذلك لعبرة لأولى الابصار " (النور : ٤٤)

فالتقليب حركة تدل على إحلال أحدهما محل الآخر بالسريان والادبار والعسعسة ، كما فى القسم الالهى بهذه الحركة فى قوله تعالى : -

" والليل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر ".(الفجر : ٤ ، ٥)

" والليل اذا أدبر " (المدثر : ٣٣)

" والليل اذا عسعس " (التكوير : ١٧)

ويعبر الله تعالى عن هذه الحركة المغزلية بأسلوب آخر فى قوله تعالى :

" وآيه لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون " (يس : ٣٧)

والسلخ أصل معناه فصل الجلد عن اللحم ، والمقصود هنا : نسلخ من مكان الليل ، نور النهار ، لأن الليل هو الاصل والنهار طارئ موجود فقط فى قشرة الغلاف الجوى ، بل فى الطبقة السفلى فقط الملامسة لسطح الارض ، حيث تتوفر ذرات الهواء التى تحدث التشتت لضوء الشمس ، فيتجلى النهار فيها كما فى قوله تعالى :

" والصبح اذا أسفر " ، وقوله سبحانه " والنهار اذا تجلى " .

ودوران الارض مغزليا حول محورها ، يؤدى إلى إغشاء أى إلى تغطية الظلام لمكان النهار ، وتغطية النور لمكان الليل ، كما فى قوله تعالى :

" يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا " (الاعراف : ٥٤)

وهذه الآية جاءت لتصف تعاقب الليل والنهار بالدوران المغزلى للارض منذ تكوينها فى البداية منذ ٤,٥ مليار سنه ، حيث كان التعاقب سريعا حثيثا لدرجة أن زمن اليوم الارضى آنذاك كان أربع ساعات فقط ، وهنا نفهم وصف الاغشاء ، أى التغطية بلفظ " حثيثا " فى هذه الآيه ، بينما حذف هذا اللفظ فى آيه اخرى للدلالة على ابطاء تعاقب الليل والنهار حتى وصل اليوم إلى ٢٤ ساعة حاليا بعد تمام خلق الارض أى بعد مد الارض والقاء الرواسى ونشأة الانهار ونمو الثمار كما فى قوله تعالى :

" وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (الرعد : ٣)

ومعنى يغشى الليل النهار (باعتبار أن بها حذفا بليغا تقديره : يغشى الليل النهار ويغشى النهار الليل) ، دليل على التكوير والايلاج بالدوران المغزلي الذى ثبت أنه يتباطأ مع مرور الزمن بدليل حذف كلمة " حثيثا " . وهذا التباطؤ لم نكتشفه الا باستخدام تكنولوجيا الاشعاع الذرى والساعات الذرية فى القرن العشرين ، لدرجة أن بعض العلماء يتوقعون حاليا ، احتمال توقف الارض عن الدوران المغزلى فى المستقبل . وقد يشير القرآن الكريم الى هذه الظاهرة : باحتمال سكون الظل بصريح العبارة فى آية كريمة واحتمال توقف تبادل الليل والنهار فى آيات كريمة أخرى فى قوله تعالى :

" الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا " (الفرقان : ٤٥)

وقوله سبحانه :

" قل أرايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون " (القصص : ٧١)

وقوله عز من قائل مؤكدا ان دوام الليل مصحوب بدوام النهار فى آخر الزمان :

" قل أرايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون " (القصص : ٧٢)

واستدراكا لهذا الوضع الشاذ يقول سبحانه :

" ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " (القصص : ٧٣)

فهل يا ترى ستسكن الارض عن دورانها المغزلى يوما ما ، فيحدث الليل الدائم فى نصفها والنهار الدائم فى نصفها الآخر كما فى آيتى القصص ٧١ و ٧٢ ، ويسكن الظل كما فى آية الفرقان ٤٥ . وهل سيدركنا الله برحمته عندئذ ، ويبدأ فى دوران الارض مغزليا فى الاتجاه المضاد ، فيتبادل الليل

والنهار كما فى الآية الاخيرة تعليقا على الآيتين السابقتين . واعتقد أن الدوران العكسى بعد التوقف المذكور قرآنيا والمتوقع علميا سيؤدى الى طلوع الشمس من مغربها ، مصداقا لحديث رسول الله " لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها "، وشرحا متوقعا والله اعلم لقوله تعالى :

" رب المشرقين ورب المغربين " (الرحمن : ١٧)

لان انقلاب اتجاه الدوران يؤدى الى هذه الازدواجية ، ليصبح للشمس مشرقان ومغربان ولو أن هذه الآية لها معانى أخرى لا يتسع المقام لذكرها .

٢ - دوران الارض فى فلكها حول الشمس :

يشير القرآن الكريم الى هذه الحركة الثانية للارض ، ضمن القانون الكونى العام بسباحة جميع الاجرام كل فى فلكه الخاص كما فى قوله تعالى :

" وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون " (الانبياء : ٣٣)

والليل والنهار لغويا ، ظرفا زمان ، ولابد لهما من مكان لانه لا زمان بدون مكان ، ولولا دوران الارض مغزليا لما تعاقب الليل والنهار ، واطلاق الظرف وارادة المحل معروف لغويا فى بلاغة القرآن ، فالمقصود هنا بالليل والنهار لفظ " الارض " كمكان يتواجد عليه الليل والنهار . وبهذا فان للارض فلك تسبح فيه ، ويؤكد ذلك المعنى لفظ " يسبحون " بالجمع وليس بالمثنى ، ولو كان الفعل للشمس والقمر فقط ، لجاء التعبير بالمثنى ولكن الله اراد التعبير هنا عن الارض والشمس والقمر كاجرام سماوية مخلوقة لتسبح فى افلاكها منذ نشأتها . والفعل " يسبحون " هنا بمعنى يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة كما قال ابن عباس الذى أدرك معنى الحركة هنا دون أن يدرك (بالمجاز المرسل) أن الارض أحد السابحين .

والتعبير بلفظ يسبح هنا دليل على اقتران الدوران فـي الفلـك بحركـة ذاتيـة مغزلية من الجسم الدائر ، لان السباحة تقتضـــي تحـرك اعضـاء السـابح اثنـاء انتقاله.. وسبحان الله فكل الافلاك مقرونه بـالمغزل ، فـالارض تـدور مغزليـا حول نفسها وحول الشمس ، والقمر يدور مغزليا حول نفسه وحـول الارض ، والشمس تدور مغزليا حول نفسها وحول مركـز المُجـرة ، وهكـذا "كـل فـى فلك يسبحـون

ويشير القرآن الكريم الى الحركـة الانتقاليـة لـلارض فى مدارهـا فـي آيـه أخرى فى سياق الاشارة الى حركة الجبال ومرورها مر السحاب كما فى قوله تعالى :

" وترى الجبال تحسبها جامده وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون " (النمل ٨٨)

ولقد اعتقد المفسرون جميعا ان هذه الآية تشير الى زوال الجبال وتحركهـا يوم القيامه ، ولكننى اعترض على هذا التفسير الأخُروى ، بل وأوكد أن الآية تشير الى حركـة كوكـب الارض والجبـال فـى الدنيـا وليـس الآخـرة للأسـباب التالية :

أ – لفظ " تحسبها " أى تظنها ، وهذا دليل على أن رؤيـة الجبـال هنـا فـى الدنيا كدار للظن والحسبان والنسبية وليس الاخرة التـى نسـميها دار اليقيـن ، بدليل قوله تعالى " كلا لو تعلمون علم اليقين .... ثم لترونها عين اليقين "

ب – عبـارة " صنـع اللـه الـذى إتقـن كـل شـيء " ، وعبـارة " خبـير بمـا تفعلون " ، عبارتان دنيويتان ، فالدنيا بناء إلهى والقيامة هدم وخـراب وزوال للكون ، كما ان الدنيا دار فعل وعمل بينما الآخرة دار جزاء . وبهذا فان اللـه سبحانه وتعالى يشير هنا الى حركة الجبال فـي الدنيـا ، فهـى رغم انهـا تبـدو

ساكنه جامدة ظاهريا ، فهى تمر فى الحقيقة مر السحاب ، ويمكن فهم هذه الظاهرة كما يلى :

أ - الاشارة إلى عوامل التعرية التى تؤدى إلى تآكل الجبال وانتقالها إلى مكان آخر عبر ملايين السنين ، كالسحاب الذى يختفى ثم يتكون من جديد !

ب - حركة الجبال محمولة على ألواح إلقارات ، وقيعان المحيطات ، فى الازاحة المستمرة البطيئة للقشرة الأرضية ، فيما يعرف بازاحة القارات أو بالازاحة السريعة المفاجئة فى عمليات الخسف والزلازل .

ج - حركة الجبال محمولة على الكرة الأرضية ، التى تجرى بما عليها فى الفضاء الكونى تماماً كالسحاب الذى يمر أمامنا محمولا على الرياح . وبهذا ندرك مغزى التشبيه البليغ فى قوله تعالى : " وهى تمر مر السحاب " أى تتحرك محمولة على الارض .

ثالثــاً : إعجاز القرآن فى بيان جريان الأرض مصاحبة للشمس وهى تجرى وتسبح فى الفضاء الكونى

لقد اثبت العلم فى القرن العشرين حركتين للشمس ، أحدهما بالجرى فى الفضاء الكونى بسرعة ٤٣٠٠٠ ميل / ساعة ، ومعها طبعا كواكبها ، بما فيهم الأرض . ويشير القرآن إلى هذا الجريان بقوله تعالى : " والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم " (يس : ٣٨) .

وقوله سبحانه : " وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى " (الرعد : ٢) .

ولقد إعتقد المفسرون أن الحركة اليومية للشمس من الشرق إلى الغرب تعبر عن هذا الجريان ، ولكن العلم الحديث اثبت خطأ هذا الاعتقاد ، لان هذه الحركة اليومية ظاهرية خادعة لاوجود لها وتنتج ظننا وحسباننا أمام عين

الراصد الذى تدور به الأرض حول نفسها فتبدو له الشمس ظاهريا كما لو كانت تدور فى الاتجاه المضاد . ولكن العلم أثبت باستخدام قياسات الطيف الذرى وجود حركة حقيقية للشمس فى الفضاء بسرعة ٤٣٠٠٠ميل / ساعة، وبهذا فالشمس تجرى حقيقة لاخيالا ونحن نجرى معها . كما اثبت العلم أننا نجرى أيضاً مع الشمس فى سباحتها فى فلكها حول المجرة بسرعة اخرى قدرها ٤٩٧٠٠٠ ميل / ساعة كما فى قوله تعالى : " لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون " (يس : ٤٠) ، وقوله سبحانه : " وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون " (الانبياء : ٣٣)

ومن الجدير بالذكر ان إكتشاف جريان الشمس فى الفضاء وسباحتها فى فلكها حول المجرة ، تم فى القرن العشرين باستخدام ازاحة الطيف الذرى وظاهرة دوبلر ، بينما تنبأ القرآن الكريم بهاتين الحركتين للشمس منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان كاعجاز علمى يظهر لنا بمرور الزمن .

وصدق الحق تبارك وتعالى : " لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون " (الانعام : ٦٧) .

رابعا : إعجاز القرآن في بيان تطور سفن الفضاء والوصول للقمر

إدعى الزنديق الهندى سلمان رشدى ضمن أكاذيبه فى روايته التى سماها " آيات شيطانية " أن الوحى القرآنى ينكر إمكانية السفر للفضاء وأن الملك جبريل يؤيد رأى " ماهو ند "(١) الذى يقرر دون أدنى شك أنه من المستحيل

---

(١) ماهوند : هو الإسم الذى رمز به هذا المرتد للنبى محمد صلى الله عليه وسلم .

أن يسير انسان علَى سطح القمر .

وأقدم رداً قرآنيا قاطعاً على هذا الأدعاء الكاذب بشرح الاعجاز العلمى فى نص قرآنى ، يؤكد بأسلوب مباشر وبصراحة تامة بل وقسم الهى ، وصول الإنسان للقمر فى قوله تعالى :

" والقمر إذا إتسق ، لتركبن طبقاً عن طبق " (الإنشقاق ١٨ - ١٩)

أن أهم إنتصار للعلم والتكنولوجيا فى القرن العشرين هو وصول الإنسان للقمر فى ست رحلات متعاقبة " طبقاً عن طبق " كما حدث فى رحلات أبوللو ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ فى الفترة بين عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٢ . ونحن جميعا نذكر أول إنسان وضع قدمه على سطح القمر ، هو الرائد الامريكى نيل أرمسترنج الذى قال : أن هذه اللحظة الحاسمة (يوليو ٦٩) ليست خطوة صغيرة لانسان ، ولكنها قفزة كبيرة للبشرية كلها.

وقبل شرح النص القرآنى (الانشقاق ١٨ - ١٩) الخاص بمعجزة هذا العصر بالوصول للقمر ، نستعرض فيمايلى الاشارات القرآنية الخاصة عموماً بغزو الفضاء .

تطور سفن الفضاء

لقد أشار القرآن الكريم إلى وصف سفن الفضاء وتطورها فى قوله تعالى :

" ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً وإن كل ذلك لمَّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين " (الزخرف : ٣٣ - ٣٥)

هذه الآيات الكريمة تشير - والله أعلم - إلى عصر ارتياد الفضاء ، وأن الله سبحانه لم يجعل التكنولوجيا اللازمة لذلك مقصورة على الكفار الملحدين

مثل الروس الشيوعيين ، ولكن غيرهم من أهل الكتاب سبقوا الروس فى ذلك وارتادوا الفضاء ، ووصلوا للقمر ، بل إن أحد المسلمين ركب مكوك الفضاء ليساهم فى إطلاق القمر العربى أربسات . ولو جعل الله هذه التكنولوجيا مقصورة على الكفار ، لأصبح الناس جميعاً مذهباً واحداً مجتمعين على الكفر (أمة واحدة) وتعظم بذلك الفتنة ، ولكن الله بحكمته جعل هذا التقدم العلمى شاملا ، تحاشيا لانزلاق الناس فى الكفر ، إذا وجدوا الكافر وحده فى قمة العلم والتقدم ، متمتعاً بزينة الحياة وزخرفها ، ومالكاً لوسائل العروج فى السماء . وينبهنا الله عزوجل أنه عندما يحدث ذلك يجب علينا أن نتمسك بإيماننا ؛ لأن الدنيا متاع الغرور والآخرة للمتقين .

وفيما يلى أقدم شرحا وتصورا علميا لهذه الآيات ، فقوله تعالى : " لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون " ، أى لجعلنا للكفار بيوتا من نوع جديد وذلك بأن جعلنا لها :

١- **سقفاً من فضة** : ألواحا من معدن لأن لفظ سقفا جمع سقيفة بمعنى لوح السفينة ، وأما لفظ الفضة فيعنى بالمجاز المرسل المعادن كالألومنيوم والنحاس والصلب ، وسبيكة الفضة والنحاس التى تستخدم فى لحام ألواح السفن ، وهذه السفن المعدنية هى بيوتهم الجديدة التى ستسبح فى ظلام الفضاء . ومما يدل على جواز تفسير البيوت هنا بالسفن قول سيدنا نوح عليه السلام حين دعا ربه مسميا سفينته " بيتا " كما فى قوله تعالى : " رب أغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا "

كما أن البيت هو مستقر الإنسان ليلا ، من الفعل بات ويبيت ، والليل أى الظلام الدامس الدائم فى الفضاء تسبح فيه هذه البيوت كما ذكرنا .

٢- **ومعارج عليها يظهرون** : وهذه إضافة قرآنية تؤكد أن هذه البيوت المعدنية هى سفن الفضاء ، لأنها غير مستقره على الأرض بل تحتاج

للمعارج لإطلاقها ، أى وسائل تعرج بهذه البيوت المعدنية إلى الفضاء ، وهذه الوسائل هى الصواريخ التى تصعد فى أنحاء السماء ، أى تعرج بحقيقة هذا اللفظ الذى يستخدم فى القرآن دائماً للتعبير عن أسفار الفضاء فى مسارات منحنية (لأن يعرج ، أى يحاكى مشية الأعرج ، وانعرج الشئ ، وتعرّج ، بمعنى إنعطف ومال) كما فى قوله تعالى :

" ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون " (الحجر : ١٤)

" يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون " (السجدة : ٥)

" من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " (المعارج : ٤)

" يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم " (الحديد : ٤)

وبهذا فإن المعارج كوسائل صعود فى السماء ، وطرق سماوية منحنية تسلكها الصواريخ تحمل البيوت المصنوعة من الألواح المعدنية السابق شرحها .

وقوله تعالى : " عليها يظهرون " ، أى يعلون ويرتفعون ويصعدون بظهور هذه المعارج ، والفعل يظهر كذلك يستخدم ضمن معانيه المتعددة لغوياً للسفر طائراً فى السماء كما فى اللغة العربية " ظهرت الطير " والإنسان هنا سوف يظهر ، أى يسافر طائراً فى السماء بواسطة هذه المعارج التى فتح الله لها الأبواب فى السماء فى عصرنا الحالى بعد أن زال المانع فى حرف الامتناع " لو " فى قوله تعالى :

" ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون " (الحجر : ١٤)

ولقد كانت سفن الفضاء تكفى فقط لسفرة واحدة فى أوائل عصر الفضاء ، أما الآن فقد تعددت الأبواب كما فى مكوك الفضاء الذى تتعدد رحلاته ذهابا وإيابا عدة مرات دون استبداله ، وربما يكون هذا تفسيراً لقوله تعالى فى آيات الزخرف : " ولبيوتهم أبوابا " أي - والله أعلم - أن البيوت الفضائية المتطورة سوف تتعدد أبوابها ورحلاتها كما فى مكوك الفضاء كولومبيا وتشالنجر (الذى احترق) وديسكفارى وأطلانطيس ، وأيضا كما فى المحطات الفضائية مير الروسية وسكاى لاب الأمريكية ، والمستعمرات الفضائية التى يطمع العلماء فى إنشائها مستقبلا لتكون مستقرا للإنسان لمدة طويلة ، بحيث يتمكن بواسطة المكوك من الصعود والنزول من هذه المحطات ، فتتعدد بذلك أبوابها وسررها بعد أن تنجح الأبحاث الجارية حالياً للتغلب على مشكلة انعدام الوزن ، والتى تمنع الإنسان حاليا من التمتع بالنوم فى استرخاء واتكاء على السرير . وتجعل الإنسان يسبح فى المركبة فاقداً الإحساس بالوزن ، وينام واقفا أو معلقا فى أكياس مربوطة بجدار السفينة ، علاوة على مشاعر الخفقان والمعاناة الناتجة من فقد الإحساس بالتثاقل . لهذا يفكر العلماء فى توليد جاذبية صناعية بجعل سفينة الفضاء أو جزء منها يدور مغزليا بسرعة كفيلة بإعطاء الإحساس بجاذبية مساوية للجاذبية الأرضية ، ولو تم هذا مستقبلا فسوف يمكن الجلوس على الكراسي والنوم على السرر ، بل والمشى وممارسة الحياة العادية فى السفينة دون مشاكل ، وربما يكون هذا تفسيراً لقوله تعالى : " وسررا عليها يتكئون وزخرفاً " أى وسررا يستقر عليها الإنسان دون أن يسبح فى فضاء المركبة ودون أن يربط فى جدارها ، وهذه مرحلة لم يصل إليها العلم حتى الآن . وأما الزخرف هنا فهو إشارة لكمال حسن الشئ ، ومن الجدير بالذكر أن لفظ الزخرف يستخدم أيضاً بمعنى

ما زين من السفن وبمعنى الذهب ، علما بأن المركبة القمرية فى رحلة أبوللو كانت مطلية بالذهب .

وأما قوله تعالى : " وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا " ، أى وكل ذلك من تقدم تكنولوجى لن يتحقق وقت نزول القرآن ، ولكن سوف يجعله الله فى المستقبل كمتاع للحياة الدنيا . والدليل على ذلك حرف (لمّا) الذى يأتى لغويا بعدة معان ، منها لمّا النافية الجازمة التى وردت هنا ، وقد حذف فعلها وتقديره نجعل ، والفعل الدال عليه هو قوله تعالى فى الآية السابقة : " لجعلنا لمن يكفر بالرحمن " . (الزخرف : ٣٣)

وبهذا يصبح المعنى كما يلى :

وإن كل ذلك (التقدم) لمّا نجعله (أى لم نجعله بعد وسنجعله يقينا فى المستقبل) ، إنما هو فقط متاع الغرور ، أى متاع الحياة الدنيا ، ويجب على المؤمنين الذين لم ينالوا قسطا وافرا من هذه التكنولوجيا ألا يهتز إيمانهم ويحيدوا عن طريق الحق ، فالآخرة بمتاعها الحقيقى غير المزيف ستكون لهم دون الكفار ، كما فى قوله تعالى : " والآخرة عند ربك للمتقين " . وذلك تذكرة لهم بفضل الآخرة ، حتى يزداد تمسكهم بدينهم ، ولا يفتنوا بهذه المدنية الحديثة عندما يحين الوقت وتأخذ الأرض زخرفها وتتزين ويظن الكفار أنهم قادرون عليها ، كما حدث حاليا فى عصر الفضاء ، والغرور العلمى .

ولقد فهم جميع المفسرين هذه الآيات ، على أنها وسائل ترف لبيوت مستقرة على الأرض ، سقوفها ، ومدراجها ، وسررها ، وأبوابها ، من ذهب وفضة . ولكننا هنا شرحناها ، طبقا للتفسير المقدم حديثا للجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن من الدكتور كريم حسنين عبد المعبود ، جزاه الله خيرا .

وهناك مبشرات قرآنيه أخرى بعصر الفضاء نذكر فيها ما يلى :

١- تقدمت وسائل السفر للفضاء بتطوير صناعة الصواريخ وسفن ومكوك الفضاء التى تسبح جميعها فى رحلات علمية رائعة بين السماء والأرض .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التطور فى وسائل الانتقال لحمل ذرية آدم فى مركبات جديدة تشبه الفلك لسباحتها فى الهواء ، أو الفضاء ، بدلا من الماء كما يتضح فى معنى قوله تعالى :

" وآية لهم انا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون " (يس ٤١ - ٤٢)

أى وعلامة أخرى على كمال قدرتنا ، أننا فى العصور المتقدمة حملنا البشر فى السفن البحرية العملاقة ، وعلاوة على ذلك جعلناهم يخترعون سفنا مشابهة جديدة (من مثل الفلك) كالمناطيد ، والبلونات ، والطائرات ، وكابسولات ، وسفن الفضاء ، لكى يركبوها سابحين بها فى السماء . وبذلك أشار القرآن لحمل الإنسان فى الجو ، والفضاء ، تكريماً له ، وامتداداً لحمله فى البر والبحر كما فى قوله تعالى :

" ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (الاسراء : ٧٠)

٢- تقدمت وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية ، لدرجة اننا الان أصبحنا بفضل الاقمار الصناعية ، نعيش على كوكب الأرض ، وقد تقارب الزمان وطويت المسافات طيا ، وأصبحنا نستطيع بتكنولوجيا الأقمار والاستشعار عن بعد ، رؤية كل أحداث الكوكب لحظة وقوعها بالصوت والصورة على شاشات التليفزيون . وما كان غيبا مكانيا فى الماضى ، أصبح الآن مشهودا ومسموعا فى لازمن . ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذا التقدم فى قوله تعالى :

" ويقذفون بالغيب من مكان بعيد " (سبأ : ٥٣)

وهذه حقا أشارة إلى تكنولوجيا الاتصالات التى وردت أيضا فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن مظاهر آخر الزمان :

" لاتقوم الساعة حتى يتقارب الزمان وتزوى الأرض زيا " (رواه الطبرانى)

" ينادى مناد من السماء ليس بانس ولا بجان .... وفى حديث آخر :

" نداء من السماء يعم أهل الأرض ويسمع كل لغة لغته " (أخرجه أبو نعيم عن بن عمر) .

وبهذا ندرك بالاحاديث النبوية معنى الاشارة القرآنية فى (سبأ ٥٣) ، بقذف الغيب من مكان بعيد ، للدلالة على ما نعيشه هذه الأيام من وسائل الاتصال في الاذاعة المسموعة والمرئية والأقمار الصناعية ، والصواريخ عابرة القارات ، وسفن الفضاء ، وأقمار التجسس ، ووسائل الانتقال السريع بالطائرات ، ومكوك الفضاء وغير ذلك من مخترعات جديدة ؛ تعمل كلها بسرعه الضوء وقدرها ٣٠٠ ألف كم / ساعة في الفراغ أو الهواء ، وهى السرعة الكونيه العظمى والتى تنطلق بها الاشارات اللاسلكية .

٣- أشار القرآن الكريم إلى احتمال تواجدنا فى السماء فى قوله تعالى :

" وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولافى السماء ومالكم من دون الله من ولى ولانصير " (العنكبوت : ٢٢)

وبهذا يجب ألايغتر الإنسان بما أوتى من علم يغوص به فى أعماق البحار أو يصعد به فى أغوار الفضاء ، فكل ذلك من فضل الله سبحانه الذى وعدنا برؤية آياته فى الآفاق كما فى قوله تعالى :

" سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد " (فصلت : ٥٣)

أى سنظهر آياتنا فى الآفاق أى فى اقطار السماوات والأرض ، لتثبت للكفار في المستقبل ، أن القرآن حق منزل من عند الله خالق الكون . وهذا وعد الهى بدأ يتحقق في عصرنا ، ومازال عطاء المستقبل بلا حدود ، والله سبحانه وتعالى على كل شئ شهيد لانه عزوجل معنا أينما كنا .

٤- يشير القرآن الكريم ، إلى غزو الإنسان للفضاء ، مشجعا ومبشرا بنجاح أكيد إذا توفرت الوسائل والسلامة ، بسلطان من الله كما فى قوله تعالى :

" يامعشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ، لاتنفذون إلا بسلطان ، فبأى الاء ربكما تكذبان " (الرحمن ٣٣-٣٤)

ونلاحظ هنا مايلى :

أ - جمع الله بين الجن والأنس فى آية واحدة كغطاء قرآنى معجز حتى يتقبل الناس ، نبأ غزو الفضاء قبل حدوثه ، بحيث لايحدث تكذيب للقرآن وقت نزول الوحى . أما الآن فقد انكشف الغطاء فى عصر الفضاء .

ب - الآية تشتمل ايجازا بالحذف ، واختصارا بلاغيا فى لف ونشر مرتب ، يعطى المعنى الآتى على الترتيب :

يامعشر الجن أن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات ، ويامعشر الأنس أن استطعتم أن تنفذوا من أقطار الأرض ، فأنفذوا . وبهذا جعل الله لكل مخلوق ، الأقطار التي يتناسب مداها مع مقدار السلطان الممنوح له ، لأن كل مخلوق مُيسر لما خُلق له ، وبذلك يتحدد مدى النفاذ طبقا لسرعة كل منهما . وشتان بين سرعة الجن ، وسرعة الأنس ، ونحن معشر البشر مازلنا فى أقطار الأرض حتى بعد الوصول للقمر ، لان القمر تابع للأرض التى لم ننفذ بعد من أقطارها ، فما بالنا بأقطار السماوات التى يقدر مداها ببلايين السنين

الضوئية ، والله سبحانه لايطالبنا بالمستحيل ولكنه يشجعنا هنا بارتياد الفضاء في حدود استطاعتنا العلمية والتكنولوجية .

ج – نفاذنا من أقطار الأرض ، تكريم ونعمة لنا ، لايتم إلا بفضل الله ، وعنايته ورعايته ، وتوفيقه ، وعلينا أن نحمده سبحانه على رحمته لنا بالعودة سالمين من رحلات الفضاء الخطيرة ، بدليل قوله تعالى : " فبأى آلاء ربكما تكذبان " تعقيبا على إمكانية النفاذ .

٥– ليس غزو الفضاء أمرا سهلاً ولكنه محفوف بالمخاطر القاتلة التى لاينكرها أحد ، ويشير القرآن إليها للتحذير ، وليس للتهديد ، والوعيد كما فى قوله تعالى مباشرة عقب الآيات السابقة :

" يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان " (الرحمن : ٣٥-٣٦)

إنها حقاً نعمة لانقمة ، أن يحذرنا الله من شواظ النار والنحاس ، الذى قد يهاجم الرواد ، على هيئة جرعات شديدة من الاشعاع الذرى ، أو الشهب الحارقة ، وغير ذلك من حوادث الفضاء القاتلة الموصوفة هنا بأسلوب لغوى يمثل عنصر المفاجأة ، والمجهول الذى لاينجو منه أحد إلا رحمة من الله ، ومتاعا إلى حين ، وعندئذ يجب على الرواد العائدين بسلامة الله من رحلاتهم ، أن يسجدوا لله شكراً على نعمته بدليل قوله تعالى : " فبأى آلاء ربكما تكذبان " تعقيبا على احتمال القذف بالشواظ واحتمال النجاة منه .

٦– تعرف العلماء عام ١٨٠٤م لأول مرة عند أطلاق البالون فى السماء على الأصابة بالهيبوكسيا فى طبقات الجو العليا لصعوبة التنفس وضيق الصدر عند الوصول إلى المرحلة الحرجة بالاختناق عند استمرار الصعود فى السماء نظراً لانعدام الاكسجين ولنقص الضغط . ولهذا فلابد لرائد الفضاء

من ارتداءُ بدلة خاصة مع حمل الاكسجين معه . ويشيرُ القرآن الكريم محذراً من هذه الظاهرة فى قوله تعالى :

" يجعل صدره ضَيِّقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء " (الانعام : ١٢٥)

٧- يشير القرآن الكريم أيضاً إلى ظاهرة ، ظلام الفضاء الكونى التى تواجه الرواد عند استمرار العروج فى السماء.، لدرجة أنهم يقولون أن أبصارهم تبدو عندئذ كما لو كانت عمياء مسحورة ، فالشمس ساطعة ، بينما الظلام حالك فى منظر يدعو للدهشة والانبهار ، كما فى قوله تعالى :

" ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون " (الحجر ١٤ - ١٥)

وقد شهد جميع الرواد بأن السماء حالكه السواد فى الفضاء ، وعلى سطح القمر .

هذا بعض مانجده فى القرآن الكريم عن ارتياد الفضاء ، وانى أتساءل أى كتاب آخر مقدس علم الناس مافى الكون ومافى السماء كما علمهم القرآن الذى تنبأ بعصر الفضاء ، ووسائل النفاذ فى السماء والمصاعب والمظاهر التى تواجه الرواد ؟ وأى نبى غير محمد صلى الله عليه وسلم ، حدّث الناس عن غزو الفضاء ، بل وعما شاهده هو بنفسه فى السماوات كما حدثنا صلى الله عليه وسلم فى رحلته فى المعجزة الخاصة به فى الاسراء والمعراج كما وردت فى القرآن والسنة ..... وصدق الحق تبارك وتعالى بقوله :

" إئتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارةٍ من علم إن كنتم صادقين " (الأحقاف : ٤)

ان قدوم عصر الفضاء ، برهان قاطع ، على صدق القرآن ، واعجازه العلمى الذى يظهر جلياً واضحا بمضى الزمن ،. ليكون تجديداً للرسالة

الإسلامية ، واثباتاً لصدق النبوة ، ونحمد الله ، اننا عشنا هذا العصر ، لنتمتع بنور القرآن وصدق سبحانه :

" وقل الحمد لله سيريكم أياته لتعرفونها " (النمل : ٩٢)

وقوله عزوجل :

" إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين " (ص٨٧-٨٨)

ورغم أن القرآن الكريم رسالة الهية لكل العالمين أى للبشر أجمعين فى كل زمان ومكان ، يطلع علينا الدجال الهندى فى روايته الشيطانية ، بأكاذيب فاجرة أحدها ، أنكار القرآن لغزو الفضاء وللوصول للقمر .

أكذوبة سلمان رشدى

رغم ماتقدم من اشارات قرآنية باسلوب الهى يتميز بقمة البلاغة والاعجاز فى موضوع ارتياد الفضاء ، يطالعنا هذا الزنديق باحدى أكاذيبه صفحة ٣٦٤ فى روايته " مقاطع شيطانية " التى نشرتها دار فاكينج برس بلندن عام ١٩٨٩ ، يدعى فيها انكار الإسلام لارتياد الفضاء ولوصول الإنسان للقمر ، كمايلى كترجمة حرفية لما ورد عنه فى هذا الموضوع :

" عندما كان المؤمنون يناقشون وجهة نظر " ماهوند " حول أى موضوع بدءا من امكانية السفر فى الفضاء إلى دوام العذاب فى جهنم ، فان الملك جبريل يعود دائما بالاجابة التى تدعم رأى " ماهوند " ، فقد قرر دون أدنى شك أنه من المستحيل أن يسير إنسان على سطح القمر " .

* When the faithful were disputing mahound's views on any subject, form the possibility of space travel to the permanence of Hell, the angel would turn up with an answer, and he always

supported mahound, stating beyond any shadow of doubt that it was impossible that a man should ever walk upon the moon "

فأى كذب وافتراء على الحق ينشره هذا الجاهل المرتد ، فلقد ورد لفظ القمر فى القرآن ٢٧ مرة ، وانى ادعو القارىء غير المسلم ان يراجع آيات القرآن التى تتحدث عن القمر ، سواء فى لغتها العربية او فى التراجم المعتمدة باللغات الاخرى ، ليتبين حقيقة هذه الاكذوبة ، ويوقن أن سلمان رشدى ماهو إلا دجال مضل يقول على الله غير الحق وان :

" لعنة الله على الكاذبين " (آل عمران : ٦١)

ومن المدهش والعجيب ان يرد الله سبحانه وتعالى على هذه الاكذوبة بقسم الهى بالقمر فى إحدى الآيات المذكورة (الانشقاق ١٨ - ١٩) ، مؤكدا ركوب الانسان طبقا عن طبق ، ومبشرا المكذبين للقرآن بعذاب اليم .

الرد الحاسم بالاعجاز العلمى للقران :-

يقسم الله تعالى إلى اهم احداث القرن العشرين ، بركوب الانسان طبقا عن طبق عندما تتجه الابحاث للقمر فى قوله تعالى :

" فلا اقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر اذا اتسق ، لتركبن طبقا عن طبق ، فما لهم لا يؤمنون ، واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعون ، فبشرهم بعذاب اليم " .
(الانشقاق ١٦ - ٢٤)

ولقد اعتقد المفسرون أن هذه آيات ستحدث فى الآخرة ، تاركين حقيقة اللفظ إلى المجاز ، فقالوا ان معنى لتركبُن طبقاً عن طبق لتواجهن أو تلاقن حالا بعد حال وطبقا وأهوالا متفاوتة فى الشدة : من موت وبعث وقيامة وعذاب !! وان قوله تعالى " فمالهم لا يؤمنون واذا قرىء عليهم القرآن لا

يسجدون " ، في نظرهم استفهام استنكارى موجه يوم القيامة للكفار بقصد العتاب والتوبيخ .

وأجمع المفسرون ، على استخدام المجاز ، دليلا على عدم ادراكهم لحقيقة اللفظ القرآنى فى عصرهم ، بينما نحن الأن ندرك حقيقة ركوب سفن الفضاء طبقا عن طبق في عصر غزو الفضاء ، كما ان عبارة " فمالهم لا يؤمنون " واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون " توبيخ وعتاب لمن علم هذه الحقيقة فى عصرنا ورغم هذا لا يؤمن بالإسلام ولا يسجد عند سماع القرآن .

وبهذا فالعتاب هنا لرفض السجود فى الدنيا ، وليس الآخرة للاسباب التالية:

أ- لا عتاب فى الآخرة كما فى قوله تعالى :

" فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون " (الروم : ٥٧)

ب- إستحالة قراءة القرآن على الكفار في الآخرة لانهم سيحشرون عميا وبكما وصما ، كما فى قوله تعالى :

" ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم " (الاسراء : ٩٧)

ج- كيف يلومهم الله يوم القيامة على عدم السجود ، بينما هم لا يستطيعون كما فى قوله تعالى : " يوم يدعون للسجود فلا يستطيعون " .

ولهذا فانني اعتقد ان التفسير الأخروى لأيات الانشقاق (١٦ - ٢٤) ، مجازى وغير منطقى ، كما أن لجوء بعض المفسرين الى ظاهرة الاسراء والمعراج لتفسير قوله تعالى :

" لتركبن طبقا عن طبق " حيودا عن القراءة الشائعة (بضم الباء فى لتركبن بصيغة الجمع) الى قراءة شاذة (بفتح الباء فى لتركبن بصيغة المفرد) قاصدين النبى محمد ، اى لتركبن يا محمد ، سماء بعد سماء فى الدنيا وليس الآخرة ، يدل على إختلاف واضح فى مفهوم الآية ، ولا أوافق

على هذا الرأى أيضا لان الخطاب القرآنى فى آياتَ الانشقاق بالجمع ، وليس بالمفرد .

لهذا أقدم ، والله اعلم ، تفسيرا جديدا أعلنته فى الصحف والمجلات ووسائل الاعلام الموسوعة والمرئية ونشرته فى كتابى " الكون والاعجاز العلمى القرآن " ، كما أقدمه اليوم بعد أن قرأت أكذوبة سلمان رشدى ، للرد على هذا المرتد ولبيان إعجاز القرآن فى أعظم حدث فى القرن العشرين ، وهو وصول الانسان للقمر .

وتبدأ الآيات هنا بقسم الهى مؤكد (لأن نفى القسم تأكيد بلاغى له) يمتد بنا تدريجيا ، مارا بثلاثة ظواهر طبيعية هى على الترتيب :

أ – **الشفق** : أى أقسم بحمرة الأفق بعد غروب الشمس كمنظر دنيوى رائع يجذب الأبصار ، عندما تتحول القبة السماوية الزرقاء ، الى لون أحمر فى الافق نتيجة ميل أشعة الشمس وتشتتها ، على ذرات الغلاف الجوى ، فى ظاهرة ضوئية طبيعية ، نفتقدها اذا سافرنا خلال هذا الغلاف ، ليتحول لون القبة السماوية تدريجيا كلما إرتفعنا من اللون الأزرق الفاتح الى الفيروزى ، فالأزرق الغامق ، فالبنفسجى ، ثم أخيرا الاسود ليصبح الظلام حالكا فى الفضاء لانعدام التشتت الضوئى .

ب – **الليل وماوسق** : أى أقسم بالظلام وما احتوى ، إشارة الى سواد الفضاء الكونى ، وما يحتويه من أشعاعات ، وشهب ، وأمواج ، وجسيمات ذرية ، قد تواجهنا بالأخطار التى يجب الوقاية منها ، لأننا عند الصعود ، سنفتقد المظلة الواقية الممثلة فى الغلاف الجوى ، لهذا يجب أن نستعيذ بالله من هذا الظلام كما فى قوله تعالى :

" قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب "

(الفلق ١– ٣)

والغاسق اذا وقب : أى الظلام الحالك اذا اشتد فقد يكون وراءه الويل والهلاك ، وهذا أمر طبيعى عاشه جميع رواد الفضاء الذين يشعرون بالرهبة فى ظلام الفضاء الكونى .

ج - **القمر إذا اتسق** : أى أقسم بهذا القمر المعهود لكم ، والذى يسطع وسط هذا الظلام الحالك . . وأقسم به ، بشرط اتساقه اى بشرط أن تتجمع وتتسق معارفكم عنه ، ويتكامل نور العلم حول هذا الجرم السماوى المقصود بالقسم القرآنى هنا ، وعندئذ يأتى جواب القسم بمعجزة القرن العشرين فى قوله تعالى :

" **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقْ** " (الانشقاق ١٩)

أى لتركبن يا معشر البشر طبقا عن طبق ، من أجل الوصول لهذا القمر .

ونستطيع الآن بعد تمام رحلات القمر ، أن نفسر عبارة طبقا عن طبق كمايلى :

١ - يتدرب رائد الفضاء أولا قبل القيام بالرحلة ، على حالة انعدام الوزن بالطيران المتتابع المنقض فى طائرات أو مصاعد هابطة بسرعات تتزايد تدريجيا حتى يتم التعود على هذه الحالة التى سيعانيها الرائد فى رحلته ويشعر خلالها بالخفقان ، أثناء سباحته فى الفضاء ، كما نشعر بها نحن لو كنا فى طائرة منقضه أو مصعد ساقط . كما يتم تدريب رائد الفضاء على التثاقل (أى زيادة الوزن الذى يحدث أثناء تسارع مركبة الفضاء وعودتها) بالدوران اليومى فى أطباق الطرد المركزى التى تدرب الرائد ، على مضاعفة وزنه تدريجيا مع المراقبة الطبية قبل بدء الرحلة ، ويستمر التدريب لبضعة شهور يركب الرائد خلالها طبقا عن طبق .

٢ - يركب الرائد فى كابسولة (سفينة الفضاء) أعلى صاروخ متعدد الطبقات ، ثم يتم اشعال مراحله طبقا عن طبق على التوالى حتى يتم دفع

الكابسولة بعيدا عن جاذبية الارض فى إتجاهها للدوران حول الارض أو للدوران حول القمر حسب مهمتها ، كما حدث ذلك فعلا في جميع الرحلات الاستكشافيه التى ركبها البشر طبقا عن طبق قبل الوصول للقمر كما يلى على الترتيب :

أ - سفن أو أطباق برائد واحد للدوران حول الارض ومنها رحلات جاجارين ، شبرد ، جريسوم ، تيتوف ، جلن ، كاربنتر ، نيكولاييف ، بوبوفيتش ، شيرا ، كوبر ، بايكوفسكى ، فالنتينا بين عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٣ .

ب - سفن أو أطباق برائدين للدوران أيضا حول الأرض كما فى رحلات أطباق فوسخود ٢ (بليابييف ، ليونوف) ، جيمنى ٣ (جريسوم ، يونج) ، جيمنى ٤ (هوايت ، ماكديفيت) ، جيمنى ٥ (كوبر وكونراد) ، جيمنى ٦ (شيرا وستافورد) ، جيمنى ٧ (بورمان ولوفيل) ، جيمنى ٨ (آرمسترنج وسكوت) ، جيمنى ٩ (ستافورد وسيرنان) ، جيمنى ١٠ (يونج وكولينز) وجيمني ١١ (كونراد وجوردون) ، جيمنى ١٢ (لوفيل والدرين) وتمت هذه الرحلات بين عامى ٦٥ ، ٦٦ .

ج - سفن أو أطباق بثلاثة رواد فى رحلات أبو للو ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ورحلات سيوز ٦ ، ٧ ، ٨ التى تمت جميعها بين عامى ٦٨ ، مايو ٦٩ قبل الهبوط على القمر ولقد دارت بعض هذه السفن حول القمر بهدف تصوير المواقع التى سيتم الهبوط عليها ، واشترك فيها ٢١ رائدا طبقا عن طبق فى محاولة لاستكمال المعلومات عن القمر كما فى القسم الالهى " والقمر اذا اتسق " .

٣ - فى اليوم المشهود ١٦ يوليو ٦٩ تحقق أعظم انتصار علمى للبشرية في القرن العشرين باستخدام صاروخ ساتورن العملاق ذى الخمسة مراحل فى اطلاق سفينة الفضاء الامريكية أبوللو ١١ وهى تحمل رواد الفضاء الثلاثة

آرمسترنج والدرين ، وكولينز في اتجاه القمر . وهبط الرائدان آرمسترنج والدرين على القمر بمركبتهما (النسر) التى انفصلت عن المركبة الام (كولومبيا) التى كان يقودها كولينز (فى مدار حول القمر) انتظارا لانتهاء مهمة زميليه فى جمع الصخور القمرية ووضع الاجهزة على سطح القمر لقياس الزلازل القمرية ، والعواصف الشمسية ، والاشعة الكونية ، وعاكس أشعة الليزر ، ثم تركت المركبة النسر ، سطح القمر ، لتلتحم بكولومبيا ، وتجمع الرواد الثلاثة فى سفينة واحدة (ابوللو ١١) للعودة مرة أخرى للارض وقد ركبوا حقا طبقا عن طبق ووصلوا سالمين برعاية الله وتوفيقه .

٤ – تكررت بعد ذلك الرحلات الامريكية للقمر التى تحمل كل منها ايضا ثلاثة رواد فى رحلات ناجحة فى سفن (أطباق) أبوللو ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ التى انتهت عام ١٩٧٣ بعد أن ركب الرواد فيها طبقا عن طبق ، وعادوا جميعا سالمين .

٥ – فى جميع الرحلات السابق ذكرها اخترق جميع الرواد طبقات الغلاف الجوى . وهى على الترتيب : التروبوسفير ، والستراتوسفير ، والايونوسفير ، والاكسوسفير ،أيضا طبقا عن طبق من أجل الوصول للقمر .

ورغم هذا العرض المتوالى للاطباق الطائرة أى لسفن الفضاء المتعاقبة بهدف الوصول الى القمر ، مازال هناك مكذبون للقرآن ، ونقول لهم فى عصر الفضاء صدق الله العظيم فى قوله تعالى :

" والقمر اذا اتسقْ ، لتركبن طبقا عن طبق " (الانشقاق ١٨ – ١٩) .

ألا يسمع رواد الفضاء (الذين ركبوا طبقا عن طبق من أجل القمر) هذا القسم الالهى فى القرآن الكريم ؟ ألم يصل إلى إسماعهم هذا الاعجاز العلمى للقرآن حتى يخروا ساجدين ؟

هل بعد هذا الحق يأتى الضلال على يد سلمان رشدى وأمثاله ومشجعيه لتكذيب القرآن ؟ الذين يوجه الله لهم تعقيبا على هذه الآية المعجزة استفهاما

استنكاريا ، ولوما إلهيا ، على المكابرة والعناد والكفر والالحاد فى قوله تعالى : "فمالهم لا يؤمنون ، وإذا قُرئ عليهم القرآن لا يسجدون " (الانشقاق ٢٠ - ٢١)

وياليت الامر انتهى عند هؤلاء الكفار بعدم السجود عند سماع القرآن بل أحد البعض على تكذيب القرآن ، والنبى محمد عليه السلام ، فى وقاحة تامة وجهل واضح ، أمثال سلمان رشدى ، ومشجعيه المدافعين عنه للأسف ، باسم حقوق الانسان والذين يبشرهم الله جميعا بعذاب أليم ، كما فى قوله تعالى معقبا على الآيات السابقة :

" بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعون فبشرهم بعذاب أليم " (الانشقاق ٢٢ - ٢٤) .

أى بشرهم يا محمد بعذاب أليم ، وبهذا يضع الله البشارة فى موضع الانذار تهكما بهؤلاء الكفار ، واحتقارا لهم ، وليعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . هذا هو الرد العلمى المفحم ، لهذا المارق المتطاول على الاسلام والله أعلم بسلمان رشدى وأعوانه ، وهو سبحانه غالب على امره ، وها هو القرآن الكريم يرد على أكذوبة واضحة فى عصر ، الفضاء ، بل ويرد على جميع المكذبين فى كل عصر ، بالقسم الكونى الالهى بقوله تعالى :

" فلا أقسم بالخنسْ الجوار الكُنّسْ ، والليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مُطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون إن هو الا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون ، إلا أن يشاء الله رب العالمين " (التكوير ١٥ - ٢٩)

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المحاضرة الثانية عشرة

هويتنا من ثقافتنا الإسلامية

٩ إبريل ١٩٩٦م

٢١ ذى القعدة ١٤١٦هـ

الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة

جانب من الحضور :

من اليمين الوزير احمد على كمال والمستشار يحيى كامل مرسى

على المنصة : المحاضر الدكتور مصطفى الشكعة وعلى يمينه الاستاذ رشاد المراغى وعلى يساره المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

محاضرنا الاستاذ الدكتور / مصطفى الشكعة من مواليد محلة رحوم / مركز طنطا / محافظة الغربية . وقد حصل على ليسانس كلية الاداب جامعة القاهرة / تخصص لغة عربية سنه ١٩٤٤ ، وعلى الماجستير سنه ١٩٥١ وعلى الدكتوراه سنه ١٩٥٤ .

* وقد عمل سيادته مستشارا ثقافيا بواشنطن فى الفترة من سنه ١٩٦٠ الى سنه ١٩٦٥ ، وتدرج فى سلك الوظائف الجامعية بكلية آداب جامعة عين شمس حتى درجة استاذ سنه ١٩٧١ فرئيس قسم اللغة العربية سنه ١٩٧٤ فعميد الكلية سنه ١٩٧٦ .

وقد اعير سيادته للخارج استاذا للدراسات العربية والاسلامية بجامعة بيروت والجامعة اللبنانية فى الفترة من سنه ١٩٧٠ الى سنه ١٩٧٤ ، ثم بجامعة ام درمان الاسلامية بالخرطوم فى الفترة من سنه ١٩٧٩ الى سنه

١٩٨١ ، وكان عميدا للدراسات العليا بجامعة الامارات العربية المتحدة فى الفترة من سنه ١٩٨٢ الى سنه ١٩٨٥ .

* ومحاضرنا الاستاذ الدكتور مصطفى الشكعة هو الموجّه لإنشاء مركز جامعة اكسفورد للدراسات الاسلامية ، وهو المخطط وواضع مناهج الدراسة بكلية الدراسات الاسلامية بمقديشيو بالصومال .

وهو عضو مجمع البحوث الاسلامية أى هيئة كبار العلماء بالازهر الشريف ، وعضو اللجنه العلمية الدائمة لترقية الاساتذه بالجامعات المصرية ، وعضو المجالس القومية المتخصصة ، وشارك ببحوث اكاديمية عديده فى مختلف المؤتمرات ، والندوات العلمية العالمية ، والعربية ، والمحلية .

ومحاضرنا الاستاذ الدكتور مصطفى الشكعة عالم موسوعى من أعلام الأدب العربى والثقافة الاسلامية ، وهو صاحب مدرسة علمية ، تشهد له بوفرة العطاء وعمق النظرة ، وعدالة الرأى .

ومؤلفات سيادته تربو على الثلاثين كتابا ، قرأت منها كتاب (الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية) ، وكتابه عن (المغرب والاندلس) ، وكتابه عن (الأسس الاسلامية فى فكر ابن خلدون ونظرياته) ، وكتابه عن (المسيرة العلمية للامام المصرى جلال الدين السيوطى) ،وكتابه (إسلام بلا مذاهب) . ولقد شعرت بحق من خلال قراءتى له اننى امام عالم عملاق ، وبحر مغدق ، خاصة وقد سمعت مؤخرا بصدور دراسته الجديدة فى نوعها فى مجلد بعنوان (البيان المحمدى) ، ثم أمامه فى مجال الدراسات العربية استكمال موسوعته عن (الادب فى موكب الحضارة الاسلامية) ، وفى مجال الدراسات الاسلامية استكمال موسوعته فى (الدراسات السيوطية) . . فلا أملك إلا ان أتجه إلى الله تعالى ان يحفظه ويرعاه ، وأن يوفقه فى استكمال موسوعاته العلمية ويسدد خطاه .

هذا وأقف قليلا عند كتابه المشهور (إسلام بلا مذاهب) ، فقد صدرت منه احدى عشرة طبعة ، كانت الطبعة الاولى سنه ١٩٦٠ بتقديم من فضيله الامام الاكبر محمود شلتوت شيخ الازهر وقتئذ ، وكانت الطبعة الحادية عشرة سنه ١٩٩٦ .

لقد أوضح محاضرنا الاستاذ الدكتور / مصطفى الشكعة بجلاء أن ازمة العالم الاسلامى هى (أزمة فكرية) وان علاج امراض العالم الاسلامى تبدأ من (المنطلق الفكرى) ، فأعطى لقضية الفكر الاسلامى والقيم الاسلامية (الأولوية الحتمية) لأى اصلاح . واستهدف من كتابه (اسلام بلا مذاهب) الدعوة الى وحدة المسلمين ، ولم الشمل ، ورأب الصدع بين مختلف المذاهب الاسلامية سواء كانت سنية أم شيعية ام خوارج ، وذلك من خلال الكشف عن أصل الخلاف . فاظهر بجلاء ، أنه سياسى عصبى ، وليس دينيا اسلاميا ،.وبالتالى أسهم بجهد طيب فى تذليل أسباب الغلو ، وإطفاء نار الفتنه ، ابتغاء العودة الى رحاب سماحة الاسلام ، ويسر عقيدته ونقائها ، ومن ثم ترشيد الصحوة الاسلامية ، وتجميع الصف الاسلامى وتوحيده ، بعد أن صنع بنا الخلاف ما صنع وبعد أن جنى علينا التفرق ما جنى .

وكما أكد بحق شيخ الازهر الأسبق فضيلة الإمام شلتوت رحمه الله ، فى تقديمه لكتاب محاضرنا اسلام بلا مذاهب (**ان الانحراف عن جاده الطريق المستقيم ، لا يجد استجابة الا فى بيئة جاهلة بأحكام دينها فحينئذ نجد المستجيبين لصيحة كل ناعق . وكلما انتشر العلم وكلما دق النظر ، قلت فرص النجاح امام دعاوى العصبية الحمقاء والانحراف الشديد**) . ثم قوله (ليست الدعوة الى تقريب المذاهب الاسلامية ، دعوة الى لقاء مذهب على حساب مذهب ، ولكنها دعوة الى تنقية المذاهب من الشوائب التى أثارتها العصبيات والنعرات الطائفية وأذكتها العقلية الشعوبية) .

ويتأمل أستاذنا الدكتور / مصطفى الشكعة ، الاسلام بين (ماض مشرق مضئ قوى عزيز ، وبين حاضر خاب ضعيف مستذل معتدى عليه) ، فيكشف بوضوح (ان ضعف المسلمين إنما جاء من تفرق كلمتهم وشتات شملهم ، نتيجة لتفرق المذهب والعقيدة). فمذاهب المسلمين المختلفة كما يؤكد محاضرنا (كانت الباب الذى دخل منه الخلاف ، واستغل الاستعمار هذه الثغرة وباركها كما يبارك الشيطان فعل الكبائر) . فأصبحنا كما يذكر محاضرنا (نرى السنى يخاصم الشيعى ، والشيعى يلعن السنى ، بل ان الشيعة انفسهم متفرقون : هذا امامى ، وذاك زيدى ، ومنهم من غلا فى مذهبه غلوا كبيرا : فهذا إسماعيلى ، وذاك درزى ، والآخر علوى . ثم نلتفت مرة أخرى فنجد بعض رجال السنة يختلفون : فهذا حنفى او شافعى أو سلفى ، ونجيل الطرف بعد ذلك فنجد هذا أباضيا والآخر يميل الى الاعتزال) . وكما ينعى بحق محاضرنا (مذاهب مختلفة وعقائد متعدده فى ظل دين واحد ، ورسول واحد ، يستغلها ذوو النيات السيئة وأصحاب المقاصد الدنيئة فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض) .

ويركز محاضرنا الاستاذ الدكتور / مصطفى الشكعة على حقيقة هذه الفرق وذلك الاختلاف فيقول : (ان الفرق الإسلامية عند نشأتها ، كانت أحزابا سياسية ، وليست فرقا دينية ، والاختلاف بينها لم يكن اختلافا فى صلب العقيدة الإسلامية ، وانما كان خلافا فى الرأى ، حول طريقة الحكم ، واختيار الحاكم ، ثم انقسمت كل فرقة إلى عدة فرق) .

لقد فهم المسلمون الأولون روح هذا الدين الحنيف ، واختلفوا فى فهم نصوص من كتاب الله او سنة رسوله ، ولكنهم مع هذا الاختلاف ، كانوا متحدين فى المبادئ والغايات ، ولم يكفر بعضهم بعضا ، بل كانوا يدا واحدة على من عداهم . ثم خلف من بعدهم خلف جعلوا دينهم لأهوائهم ، فتفرقت

الامة الى شيع ومذاهب وعصبيات ، وكان بأسهم بينهم شديدا ، فطمع فيهم العدو وذهبت ريحهم .

فمرحبا باستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة ، يوعينا بالقول الحسن ، والرأى السديد ، داعين الله تعالى له الصحة والعافية .

كلمة الاستاذ الدكتور مصطفى الشكعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الثقافة لفظ عربى ، ألفه العرب القدامى ، واستعملوه فى معانى شتى ، فمن ذلك قولهم ثقف الرجل الرمح يعنى قوّمه ، ومنها ثقف الرجل يعنى صار حاذقا ، ومنها ثقفه بالرمح يعنى طعنه . والثقاف من النساء – بفتح الثاء وتشديدها – الفطنة من النساء ، وثقف الولد فتثقف أى هذبه وعلمه فتهذب وتعلم فهو متقف وهى متقفة ، وهذا المعنى مستعار من ثقف الرمح .

تلك هى مفاهيم مادة ثقف عند أسلافنا القدماء ، وقد عمد المحدثون إلى الكلمة الانجليزية والفرنسية Culture فترجموها إلى العربية بكلمة " ثقافة " والكلمة فى معناها الأوربى تعنى : الكل الذى يتضمن المعرفة ، والعقيدة ، والفن ، والأخلاق ، والقانون ، والعادات الاجتماعية ، وجملة المقومات التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا فى المجتمع . وربما ضم مفهوم الثقافة أمورا أخرى متصلة بالمجتمع فى نطاق القبول حينا ، والرفض حينا آخر ، مثل حجب النساء فى البيوت ، ومثل الاحتفال بالعزاء فى اليوم الاربعين ، ومثل حتمية زواج الشاب من ابنة عمه ، ومثل عادة الزار ، إلى غير ذلك من أنماط سلوكية بعينها ، خاصة ببعض المجتمعات بغض النظر عن تصنيفها فى نطاق المحاسن ، أو توصيفها فى عداد القبائح والمساوى .

أما " ثقافتنا " كمجتمع إسلامى. لا يقبل إلا المحاسن والفضائل ويرفض الانحراف والمعائب ، فهى ذلك المصطلح الذى نعنيه فى مستهل عنوان هذا الموضوع . والذى عبّر عنه بعض اللغويين بـ " الهوية " . وفسر الهوية بأنها حقيقة الشخص المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية . وهذا المصطلح هو الذى نرتضيه معنى ومنهجا ، طالما أن **المعنى العربى القديم لا يفى بالغرض ، والمعنى الغربى – بالغين** – الحديث فيه انبعاج وتزّيد ، ويجمع بين ما هو مقبول من الصفات وأنماط السلوك ، وما هو مرذول منها ومرفوض .

وقبل أن ندلف إلى صميم موضوع هذا الحديث ، فإن طبيعة السياق ، تقتضى أن نشير إلى مصطلح " المثقفون " فى زماننا هذا الذى نعيشه فى الثمانينيات والتسعينيات من هذا القرن. ذلك أن مصطلح " المثقفون " قبل ثلاثة عقود من الزمان ، كان يعنى أصحاب المعرفة الحائزين على قدر وافر منها ، ومن ألوان الأدب والتاريخ والفن ، وأما " المثقفون " حاليا فهى صفة نحلها الشيوعيون والماركسيون ، وأطلقوها على أنفسهم ، بعد أن سقطت الماركسية فى روسيا وفى البلدان التى كانت تدور فى فلكها ، فأما الماركسيون فى البلدان العربية فقد رفضوا الاعتراف بسقوطها ، وفى الوقت نفسه شعروا بكثير من الحرج فى إطلاق صفة الماركسيين على أنفسهم ، فاغتصبوا مصطلح " المثقفون " وأطلقوه على أنفسهم . وضموا إليهم تحت مظلة المصطلح ، العلمانيين الذين يناصبون الاسلام الخصومة والعداوة والبغضاء .

إذا إرتضينا أن نجعل مصطلح " هويتنا " بديلا لمصطلح " ثقافتنا " ، وهو ما نرجو ارتضاءه ، كان المقصد التالى هو : على أى شئ يعود ضمير " نا " فى مصطلح هويتنا ، إنه يعنى بداهة جماعة المسلمين ، فنحن أمة مسلمة

تلتزم – إذا أرادت الفلاح – بالعقيدة الاسلامية فى مجملها وتفصيلاتها .

١ – عقيدة الاسلام

تقتضينا عقيدة الاسلام – فضلا عن الإيمان بالله ربا واحدا – أن نؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما يستتبعه من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار ، وأن الله رحمن رحيم ، وأن رحمته وسعت كل شئ . إلا من أشرك به فهو سبحانه القائل : " ورحمتى وسعت كل شئ " الأعراف ١٥٦ . وهو القائل : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " النساء ٤٨ ، ١١٦ .

وتقتضينا عقيدة الاسلام أيضا الإيمان بأن القرآن كلام الله صدقا ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه لم يتغير ولم يتبدل منذ أن نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه غير قابل للتغيير أو التبديل أو الاجتهاد فيما هو محكم من آياته .

كذلك تقتضينا عقيدة الاسلام أن نؤمن إيمانا جازما كاملا غير مجزوء بقول النبى صلى الله عليه وسلم : " بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ البيت لمن استطاع إليه سبيلا " . وذلك كله يستدعى تقرير أن من يقصر فى الاساس الأول – الشهادتين – فليس بمسلم ، ومن يقصر فى أداء أى من الاركان الأربعة فهو مذنب آثم ، وأن من أنكر واحدة منها أو جزئية من جزئياتها فقد أنكر ما هو معروف من الدين بالضرورة ، ومن يفعل ذلك فقد أخرج نفسه عن حظيرة الاسلام .

٢ – تكريم الإنسان كل الإنسان :

إن هويتنا الاسلامية تكرم الانسان – كل الإنسان – بغض النظر عن لونه أو عرقه أو جنسه أو عقيدته ، وإن هذا المبدأ مستمد من القرآن الكريم

- كتاب الله ودستور الاسلام - فى قول الله عز وجل : " ولقد كرّمنا بنى ادم وحملناهم فى البروالبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " الإسراء ٧٠ .

هكذا كان تكريم الله للناس شاملا جامعا لأنه شمل كل أبناء آدم بغير استثناء للون أو جنس أو دين ، إنهم مكرمون بالرزق من الطيبات ومكرمون بتفضيل الله سبحانه إياهم على كثير من خلقه .

أما آدم نفسه - أبو هؤلاء جميعا - فقد كرمه الله سبحانه وتعالى بأن جعله خليفة فى الأرض ، وزاد الله فضله عليه بإهماله أقوال الملائكة فيه وفى بنيه على ما هو واضح كل الوضوح فى قوله سبحانه : " وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون " البقرة ٣٠ .

ويخلع الله سبحانه على آدم - بعد أن كرمه وفضّله على كل خلقه باستخلافه فى الأرض - نعمة اللغة والعلم ، حتى ترجح كفته كفة الملائكة طبقا لما جاء فى قول رب العالمين : " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " البقرة ٣١ - ٣٣ .

وفى تثبيت إستخلاف الله سبحانه الانسان فى الأرض قوله تعالى : " وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم " الأنعام ١٦٥ .

إن تكريم الانسان فى الاسلام من الوضوح والكمال ، بحيث إن سلوك بعض الشعوب الموسومة بالحضارة والتقدم ، أسهمت بسلوكها غير

الانسانى ، فى تثبيت ربط هذه القيمة الإنسانية بالاسلام ، وذلك بما اقترفته فى حق الانسانية من تدمير لكافة القيم المادية والروحية ضاربة بها عرض الحائط .

إن الاستاذ مارمادوك بكتهول ، يجرى مقارنة طريفة بين مفهوم التكريم الإنسانى عند المسلمين ومفهومه عند الغرب الأوربى فيروى هذا الخبر : إن البعض يذكرون دون ريب مناقشة جرت فى الصحف البريطانية منذ بضع سنين وكان موضوعها كما يلى : لنفرض أن تمثالا يونانيا على جانب عظيم من الجمال لا مثيل له ولا يمكن أن يعوض ، وهذا التمثال موضوع فى غرفة واحدة مع طفل حى ، ولنفرض أن النار قد اندلعت فى الغرفة ولم يكن بالامكان إلا إنقاذ واحد منهما ، **فأيهما يجب أن ينقذ ؛ التمثال أم الطفل ؟** . يمضى الاستاذ بكتهول قائلا ! أذكر أن كثيرين من المراسلين ومن رجال الفكر والمناصب الرفيعة قالوا يومئذ : إن التمثال هو الذى يجب أن ينقذ وأن الطفل يجب أن يموت ، وكانت حجتهم فى ذلك أن ملايين الأطفال يولدون كل يوم ، بينما تلك القطعة الفنية اليونانية لا يمكن أن تعوض . ويمضى الاستاذ بكتهول قائلا : إن هذا الرأى لم يكن بوسع أى مسلم أن يبديه فهو فضلا عن قسوته ، وتعذيب نفس بريئة ، وطفل أعزل ، يمثل آخر شكل من أشكال عبادة مهذبة للأوثان .

٣ - الأخوة بين المسلمين :

تلك ظاهرة إنسانية غير مسبوقة فى عقيدة سماوية أو شريعة أرضية ، وهى أن يكون المسلمون جميعا إخوة بعضهم لبعض ، بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الموطن ، فالمسلم فى اى مكان فى الأرض آخ لأى مسلم وجد فى أية بقعة من بقاع العالم ، بذلك تحدث القرآن الكريم فى قول الله عز وجل " إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم " الحجرات ١٢ .

وفى منهج القرآن الكريم لتربية المسلمين تزداد أخوة المسلمين بعضهم لبعض تثبيتا وتأصيلا وذلك فى قول رب العزة : " يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم " الحجرات ١٢ .

ثم كان مزيد من التأصيل فى السنة النبوية ، حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين المهاجرين والأنصار ، مآخاة كاملة إلى حدّ التوريث فكان الأخ المهاجر يرث أخاه الانصارى إذا توفى وبالعكس . وظل الأمر على هذا النحو إلى أن نزلت آية المواريث ، فثبت نظام المواريث على النحو الذى يطبقه المسلمون فى مختلف بيئاتهم وعصورهم ، وأما الأخوة بكامل مفاهيمها وتطبيقاتها فهى مؤكدة بين المسلمين إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤكد هذه الأخوة إلى سنة وفاته فى خطبة الوداع المشهورة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الصدد لا يكتفى بتقرير الإخوة وحسب ، وإنما يبين فضلها ، ويوضح ثوابها ، ويدعو إلى تثبيتها فى قوله الشريف : " المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة " متفق عليه .

ثم يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المعانى مرة أخرى ويزيد عليها فى قوله الشريف " المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " رواه الترمذى .

فهل هناك من إلزام للمسلم بمواخاة أخيه المسلم ، والحفاظ عليه ،

والحض على صيانة عرضه وماله ودمه ، والتحذير من أذاه أو احتقاره ، بمثل ما ألزم به رسول الاسلام أبناء أمة الاسلام فى هذا المقام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم يجعل تمام إيمان المرء المسلم فى أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه في الحديث المشهور المتفق عليه : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

ويدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم الفرد المسلم إلى نصرة أخيه فى معنى غير مسبوق ، وفى أسلوب لم يعرف قبله ، وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم : " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " فقال رجل : يا رسول الله ، أنصره إذا كان مظلوما ، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : " تحجزه - أو تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره " رواه البخارى .

ويوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مكامن القوة فى صفوف المسلمين إذا ما التزموا بالتآخى بينهم فيقول : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا " . ثم يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى مرة أخرى ، وذلك فى قوله الشريف : " مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " متفق عليه .

ويبين رسول الله صلى الله عليه وسلم مزيدا من حقوق المسلم على أخيه المسلم فى قوله الشريف : "حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمّته - يعنى قل له : يرحمك الله - وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه " رواه مسلم .

وفى نهج تربية المسلمين وتأديبهم فى دائرة الأخوة والمساعدة وطلب العلم ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن نفّس عن مؤمن كربة

منّ كرب الدنيا نفّس الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه " رواه مسلم .

الأخوة إذن معلم من معالم هويتنا نحن المسلمين ، كل واحد منا آخ لكل مسلم ، أخوة متينة ، محافظة ، مساعدة ، مناصرة ، محبة ، مؤثرة ، مدافعة ، بناءة ، غير حاقدة على الآخرين من غير المسلمين .

وهنا نثير هذا التساؤل فنقول : ماذا لو وضع المسلمون " فريضة الأخوة " بينهم موضع التنفيذ ، أكان يجرؤ فرد أو دولة مهما بلغ شأنها من القوة ، أن تعتدى عليهم أو تنال منهم ؟

هل كانت تضيع فلسطين ، هل كان يجرؤ الصرب ، ومن هم وراءهم على العدوان على المسلمين فى وطنهم البوسنة ؟ هل كان يجرؤ الحاكم الروسى يلتسن ، على قتل عشرات الألاف من الشيشان بغية استذلالهم ؟ وهل كان يجرؤ الحكم الشيوعى الماركسى من قبله ، على استذلال مسلمى وسط آسيا ؟ وهل كان القياصرة الروس ، قبل الماركسيين ، يوقعون بنفس السكان المسلمين لتلك البلاد ، أو يجرأون على إيقاع الأذى بهم وإذلالهم ؟ وهل كان الهنود يجرأون على إذلال المسلمين فى كشمير وترويعهم ؟ وهل وهل مئات المرات ، هل كان يجرؤ أحد على العدوان على مليار ونصف مليار فرد ، تربط بينهم الأخوة الكاملة التى فرضها الاسلام وأكدها القرآن وثبتها رسول الاسلام ؟ إن الجواب من الوضوح بمكان ، لأنه طبقا لكلام رب العزة ، رب

الكون وخالقه ومبدعه " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " المنافقون الآية ٨ .

٤ – حرمة الجار :

على أن عظمة العقيدة الاسلامية وآدابها والتزاماتها ، التى هى هويتنا وثقافتنا ، لم تقف بالمسلمين عند التآخى ، وإنما ألحقت الجوار بالتآخى ، أى أنها زادت إلى حقوق الأخوة حقوقا أخري هى حقوق الجوار ، وهى حقوق بدورها غير مسبوقة فى عقيدة ، ولا مثبتة فى دستور ، اللهم إلا عقيدة الاسلام ، ودستور المسلمين .

لقد عاش أبنائى ، يطلبون العلم فى بلد أوربى غير مسلم سنوات غير قليلة ، فما حاول أىّ من جيرانهم أن يلقى على واحد منهم السلام فى صباح أو مساء ، لأنه ليس للجار حقوق ، لا فى عقيدتهم ، ولا فى ثقافتهم ، أى عاداتهم أو تقاليدهم . **أما نحن المسلمين فالى القارئ المنصف هذه الحقائق التى يتحلى بها جِيد المسلمين ، فإن قصّرنا فيها أو أغفلناها ، انتفى عنا إيماننا الذى هو أعز ما نملك ، وأغلى ما نتمسك به .**

سمع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن " كررها ثلاث مرات . قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : " الذى لا يأمن جاره بوائقه " يعنى الذى لا يأمن جاره أذاه ، وضرره ، فهل رأى أحد ، أو سمع فى عقيدة ما ، أن إيقاع الأذى بالجار ، يسلب المؤمن إيمانه ويلحقه بجنود إبليس . وفى حديث آخر يؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقوق الجار تجاه جيرانه ويوثقها ، ويعمق جذورها ، ويثبت أركانها ، فيقول الحديث الذى يحفظه اكثر المسلمين : " مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " أى أنه يكاد يكون شريكا لورثة الجار إذا لحقته الوفاة .

والاسلام يضع أدابا للجوار تزيل الفوارق بين الجار الغنى ، والجار

الفقير ، وتعمق أسباب المودة بينهما . فإذا صنع الجار الغنى طعاما ، امتدت رائحته إلى بيت جاره ، كان عليه أن يرسل إلى هذا الجار نصيبا من هذا الطعام ، وإذا اشترى فاكهة ووقع بصر أبناء الجار الفقير عليها وجب عليه أن يعطيهم نصيبا منها .

والجار فى هويتنا نحن المسلمين ، ليس فقط هو صاحب البيت الذى عن يميننا أو شمالنا أو أمامنا أو خلفنا ، وإنما يمتد نظام الجوار إلى الجار الأربعين من كل ناحية . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر هذه الحدود فى قوله الشريف : "ألا إن أربعين داراً جار ، أربعين عن يمين وأربعين عن شمال ، وأربعين من خلف وأربعين من قدام " .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يزبى المجتمع الاسلامى على المحبة والإيثار والالتزام بمنهج من المعاملة يجعل من المجتمع جسما واحدا ، وبنية متينة ، وصرحا متكاملا . ذلك أنه بحسبة سهلة يكون لكل منا نحن المسلمين ، مائة وستون جارا ، يرعاهم ويرعونه ، ويحافظ عليهم ويحافظون عليه ، ويكونون جميعا عصبة خير ، لا عصابة أذى ، وبذلك تكون الجيرة الاسلامية بغير نهاية ، تتعدى الحدود التى صنعتها الحكومات المعاصرة . **فالمسلم والامر كذلك ، ليس مسئولا عن إخوانه المسلمين وحدهم ، وانما هو مسئول أيضا عن جيرانه حتى الجار الاربعين ، مسئولية دينية أمام الله ،ومسئولية أدبية أمام الناس ، بغض النظر عن دين الجار وعقيدته ، لا فرق بين مسلم ونصرانى أو يهودى .**

إن هذا وجه آخر من ثقافتنا ، وعادتنا ، وتقاليدنا ، نلتزم به مسلكا ونحافظ عليه منهجا ونسهر عليه تطبيقا وتنفيذا ، فاذا قصر مسلم فى هذا السبيل فانه لا يحسب على روح الاسلام وسلوك المسلمين

٥ – العلم والتعليم :

أجمع العلماء من مشارقة وأوربيين ، قدامى ومحدثين . مسلمين وكتابيين ، أن ديناً ما ، لم يحفل بالعلم وطلبه ، احتفال الاسلام به ، لأن الاسلام جعل من طلب العلم فريضة ، مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج وذلك فى قول محمد صلى الله عليه وسلم : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم تشريع لا يحتمل الجدل ، ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، لا ينطق عن الهوى ، وإنما يوحى إليه فيما ينطق وفيما يعمل . والله سبحانه وتعالى ، قد أنزل هذا المعنى فى كتابه العزيز مقرونا بالقسم وذلك فى قوله جل وعلا : " والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى " النجم ١ – ٦ ، ويقول عز وجل فى موضع آخر : " وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا " الحشر الآية ٧ .

هذا وإن القرآن الكريم ، كتاب الله ودستور الاسلام ، ليس مجرد كتاب هداية وأحكام وتشريع وإعجاز وضرب أمثال ، وإنما هو كتاب علم ، شهدت بذلك أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وهى قوله عز وجل : " اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم " سورة العلق ١ – ٥ .

ألا يكون الكتاب الذى يتضمن استهلاله عند أول نزوله هذه الآيات المضيئات كتاب علم ؟ بل كتاب أمر بالعلم ، وحض على طلبه ؟ إن العلم وتحصيله فريضة نؤمن بها فى ثقافتنا الاسلامية وهويتنا الربانية وعقيدتنا الإيمانية .

والله سبحانه وتعالى يتوج طلب العلم كفريضة إسلامية ، فيتبع السورة الأولى بسورة ثانية فى ترتيب نزول القرآن الكريم ، يقسم فيها بالعلم مصوّرا

فى أدواته التى هى الحرف والقلم وما يسطره القلم ، إن القلم الذى يقسم به رب العزة ، لا يسطر إلا العلم ، فيقول عز من قائل فى السورة الثانية التى أنزلت على الرسول الكريم : " نون والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم " القلم ١ - ٤ . والسورة كما رأينا اسمها سورة القلم

والمولى سبحانه وتعالى - فضلا منه وكرما وإنعاما - يقرن تعليم الإنسان بثانى أحب أسمائه الحسنى إليه وهو " الرحمن " ، فيقول جل وعزّ : " الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان " الرحمن ١ - ٤ . وتتضوع آيات تكريم العلم والعلماء على مسرى سور الكتاب العزيز نورا للمؤمنين وتشريفا للعلماء وبالقدر الذى تقرّ به عيونهم وأفئدتهم وبالقدر الذى يرفع شأن شريعة العلم والتوحيد على هذا النحو الجليل :

* " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " (آل عمران ١٨) .
* " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (الزمر ٩) .
* " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (فاطر ٢٨) .
* "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (المجادلة ٨) .
* "وتلك الأمثال نضر بها للناس وما يعقلها إلا العالمون" (العنكبوت ٤٣) .
* " وقل رب زدنى علما " (طه ١١٤) .

إن الكتاب العزيز من أوله إلى آخره ، مطرز بالآيات التى تتحدث عن العلم حتى إن مادة " ع ل م " قد وردت فى القرآن الكريم اكثر من ثمانمائة وثلاثين مرة . هذا فضلا عن آيات علمية أخرى كثيرة وردت من [illegible] " ع ر ف " ومادة " ع ق ل " .

إن " **علمية القرآن** " **الكريم ساطعة سطوع الشمس ، وهى واضحة فى**

مقابلات الإكتشافات العلمية الحديثة ، مع المعطيات القرآنية عن الخلق ، وعن الشئون الفلكية كالبنية السماوية وطبيعة الأجرام السماوية ، وتطور العلم الكونى ، وكوكب الأرض وما اشتملت عليه تضاريسه ، ودورة الماء والبحر ، وجسم الإنسان ، وعالمى الحيوان والنبات .

هذه كلها معجزات علمية أظهرها تقدم العلم الحديث وقفزاته ، مما شغل كثيرا من العلماء غير المسلمين وفى مقدمتهم الطبيب الفرنسى موريس بوكاى ، الذى كتب فى هذا الميدان أكثر من كتاب نالت جميعها شهرة واسعة . ومثلما تعددت أيات تكريم العلم وتشريف العلماء فى القران الكريم ، فقد حدث الشئ ذاته فى السنة النبوية الشريفة فى نطاق ما جرى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم من أحاديث ، شرعت أحكاما ، وقررت مبادئ ، تدور فى فلك تمجيد العلم والتشجيع على تحصيله ، والحض على إشاعته بين الناس ، وتكريم العلماء القائمين عليه .

* يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأنبياء " واذا كان الانبياء هم سادة البشرية دنيا وأخرى ، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد شرف العلماء بوضعهم فى المرتبة التالية لمرتبة الأنبياء .

* وفى التوجيه النبوى نحو العلم وتحصيله ، والاقتراب من ساحته ، والاغتراف من منهله يقول صلى الله عليه وسلم : " كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين ، فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى " .

* وفى تشجيع الدعوة الى طلب العلم وتحبيبه الى الناس ، وإغرائهم بالمسارعة الى تحصيله يقول صلى الله عليه وسلم : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما . سهل الله له طريقا الى الجنة " ومن ثم فإن الذى يموت وهو مغترب فى طلب العلم ينال مرتبة قريبة من مرتبة الشهداء .

* ويقول رسول الله أيضا فى المقام نفسه : " من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع "

*** وطلب العلم فى الاسلام وتحصيله ، مفضل على العبادة ، ومقدم عليها . فقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن رجل عالم ، وآخر عابد فقال : " فضل العالم على العابد ، كفضلى على أدناكم رجلا " وفى المفاضلة بين العلم والعبادة قال صلى الله عليه وسلم : " قليل العلم خير من كثير العبادة " .**

* وللعلم وقاره واحترامه ، ومن ثم فإنه لا ينبغى بذله إلاّ لمن يقدر نفاسته ويصون حرمته ، وهو الأمر الذى أهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا إليه فى الحديث الشريف : " لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولا تضعوه فى غير أهله فتأثموا " .

* وفى الوقت نفسه يفرض الاسلام على العلماء أن يبذلوا علمهم للناس ولا يكتموه ، فإن كتمان العلم يشكل إثما يعرض صاحبه لعذاب الله يوم القيامة ، تماما مثل الذى لا يبذل حق الفقراء في مال الله الذى أؤتمن عليه . فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام : " من كتم علما يُحْسنه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار " ، إن للعلم فى الاسلام فى ضوء هذا الحديث الشريف شأنا خطيرا ، وإن الذى يقصر فى بذله وهو يملكه يكون جزاؤه مساويا ، بل أشد من مقترفى الذنوب ، المقصرين فى حق الله .

* إن حديث العلم فى الاسلام حديث طويل خطير نبيل ، وإن حمل العلم أمانة كبرى يتحتم تأديتها لطالبها ، وان المحافظة على العلم من الزيف تكليف سماوى ، وإن تنقيته من تحريف الغلاة ، وتأويل الجهال ، قضية أساسية ، نالت قدرا عظيما من اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال فى هذا الشأن : " ليحمل هذا العلم من كل خلف عُدُوله ، ينفون عنه تحريف

الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين " . ويتبع رسول الله صلى الله وسلم حديثه هذا بحديث آخر يحذر فيه من سوء استعمال العلم ومن توظيفه فى المراءاة أو التظاهر بالتعالم ، فإن للعلم قدره وللعلماء مكانتهم ، وفى هذا السياق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا تعلّموا العلم لتماروا به السفهاء ، ولا تعلّموا العلم لتجادلوا به العلماء ، فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه " .

*** والعلم فى الاسلام يشمل علم الدين وعلم الدنيا ، وطلب كليهما فريضة ، ولكن علم الدين – بداهة – مقدم على علوم الدنيا ، وهو أمر نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده " .**

لقد تعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم والعلماء وكل ما يتصل بهما ، بالحديث إثر الحديث ، والتوجيه إثر التوجيه ، حتى صار كثير من أحاديثه الشريفة فى هذا المجال تجرى مجرى الأمثال السائرة . وقد حفلت كتب الأمثال بالكثير من هذه الأحاديث ، بل إن بعض رجال الحديث ، قد صنفوا كتبا فى أمثال الحديث ، وها نحن نسوق بعض الأمثلة لهذا الطراز من أحاديث رسول الله ، فى العلم التى جرت مجرى الأمثال السائرة :

* " طلب العلم فريضة على كل مسلم " .
* " العلماء ورثة الانبياء " .
* " علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل " .
* " فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا " .
* " قليل العلم خير من كثير العبادة " .
* " من كتم علما بحسنه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار "
* " قيدوا العلم بالكتاب " .

* " من أراد الله به خيرا يفقهه فى الدين " .

* " لموت قبيلة أيسر من موت عالم " .

* " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا " .

* " صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس ؛ الأمراء والعلماء " .

* " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له " .

* " أطلبوا العلم ولو فى الصين " .

وقد احتفل الخلفاء الراشدون ، وعلماء المسلمين وحكماؤهم ، بامتداح العلم ، وطلبه ، والحرص عليه ، فخلفوا لنا فى ذلك ، أقوالا بليغة ، وتوجيهات سديدة ، ونصائح غالية .

قال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه : " يأيها الناس عليكم بالعلم ، فإن لله سبحانه وتعالى رداء يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رداه الله سبحانه وتعالى بردائه ، فان اذنب ذنبا استعتبه ثلاث مرات ، لئلا يسلبه رداءه ذلك ، وان تطاول به ذلك الذنب حتى يموت "

وأما امير المؤمنين على بن ابى طالب فيقول لكميل : " ياكميل : **العلم خير من المال ، العلم يحرسك وانت تحرس المال : والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق** " . وفى رواية اخرى يقول امير المؤمنين فى المناسبة نفسها بعد عبارة " المال محكوم عليه " " مات خزان المال وبقى خزان العلم ، أعيانهم – اى ذواتهم – مفقودة ، وأشخاصهم فى القلوب موجودة "

وكان الامام على رضى الله عنه ، ذا ملكة شعرية ، ثرية ، وقورة ، وقد

عبر عن نفس الغرض فقال :

**ما الفخر إلا لأهل العلم إنهموا		على الهدى لمن استهدى أدلاء**
**وقدر كل امرئ ماكان يحسنه		والجاهلون لأهل العلم أعداء**
**ففز بعلم تعش حيا به ابـــدا		الناس موتى واهل العلم احياء**

لقد شغل السلف الصالح من أئمة وعلماء ، وملوك وخلفاء ، وأعيان وحكماء ، وقواد وشعراء ، بالحديث عن العلم وفضله على سائر الاشياء .

قال الصحابى الجليل ابو الدرداء : لان اتعلم مسألة ، أحب الى من قيام ليلة . وقال ايضا : كن عالما او متعلما او مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك . وقال ايضا : العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، وسائر الناس همج لاخير فيهم .

وقال ابو الاسود الدؤلى : ليس شيء اعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك

وقال عبد الملك بن مروان الخليفة الاموى ، العالم ، القائد ، الأديب ينصح ابناءه : يابنى ، تعلموا العلم ، فان كنتم سادة ، ففقتم ؛ وان كنتم وسطا ، سدتم ؛ وان كنتم سوقة ، عشتم .

وهذا مصعب بن الزبير ابن ذات النطاقين اسماء بنت الصديق ابى بكر وشقيق امير المؤمنين عبد الله بن الزبير ، والقائد المحنك والخطيب المفوه ينصح ابنه فيقول له : تعلم العلم ، فان يكن لك مال ، كان ذلك جمالا ، وان لم يكن لك مال ، كان لك مالا .

وقال بعض علماء السلف : اذا اراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم ، والملك فى علمائهم .

وقال ايضا بعض السلف البلغاء فى المقام نفسه : العلم عصمة الملوك ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم

على الرعية ، فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا اهله .

وقال بعض علماء السلف لبنيه : يابنى تعلموا العلم ، فان لم تنالوا به من الدنيا حظا ، فلأن يذم الزمان لكم احب اليّ من أن يذم الزمان بكم .

وقال الخليفة الاديب الشاعر عبد الله بن المعتز : العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا : والجاهل لايعرف العالم لانه لم يكن عالما .

ومن الطرائف التى تروى فى هذا المقام ان احد المتعلمين وقف بباب عالم ثم قال : " تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ، ولا يسقم نفسا ، فاخرج العالم له طعاما ونفقة " فقال : فاقتى – اى فقرى وحاجتى – الى كلامكم اشد من فاقتى الى طعامكم ، انى طالب هدى لاسائل ندى ، فاذن له العالم وأفاد من كل ما سأل عنه ، فخرج جذلا فرحا وهو يقول : علم أوضح لبسا ، خير من مال اغنى نفسا .

وللامام الشافعى كلام كثير وشعر وفير فى العلم ، فمن كلامه فى ذلك قوله : طلب العلم افضل من النافلة . ومن شعره فى ذلك هذان البيتان الطريفان :

علمى معى حيثما يممت يتبعنى

قلبى وعاء له لابطن صندوق

ان كنت فى البيت كان العلم فيه معى

او كنت فى السوق كان العلم فى السوق

ان حديث العلم والعلماء الذى جرى على ألسنة العلماء والخلفاء والحكماء والادباء ، أوسع من ان نحيط به فى هذه العجالة ، وانما تمثلنا له بعض الاقوال لأصناف متباينة من الفضلاء لكى نعرّف بجانب من هويتنا نحن المسلمين فقد كان العلم شغلنا الشاغل ، وحياتنا المستقرة وهواءنا الذى نتنفسه ، فلما فسد هذا الهواء فسدت طبيعتنا فهل الى استرجاعه من سبيل ؟!!

الجامعات :

لقد عنى المسلمون – استجابة لفريضة طلب العلم – بالعلم على مختلف مستوياته وتسلسل مراحله من الكتاب الى الجامعة ، وكان عمر بن الخطاب هو اول من امر ببناء بيوت المكاتب ، ونصب الرجال لتعليم الصبيان .

وكان المسلمون اذا دخلوا بلدا بدأوا ببناء مسجد ومدرسة ، فاذا كانت البلدة ممتدة العمران أقاموا بها عددا من المدارس ، وقد أحصيت المدارس التى انشأها المسلمون فى الاسكندرية عند بداية عهدها بالاسلام ، فاذا هى اربع وعشرون مدرسة .

والمسلمون هم أول من انشأوا الجامعات والمستشفيات – باستثناء جامعة الاسكندرية – وكانت الجامعات الاسلامية ترصع سماء العالم من نيسابور مشرقا الى المغرب والاندلس مغربا . وأهم هذه الجامعات هى " **جامعة الفسطاط** " وهى أقدم الجامعات الاسلامية ، وقد كان الامام الشافعى وتلميذه الكبير أبو يعقوب البويطى من أساتذتها ، كما كان من أساتذتها ايضا عبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وهما اشهر تلاميذ الامام مالك وأوفرهم وعيا لمذهبه ، ومن الطريف أن اشهر شاعرى العربية : ابا تمام ومن بعده ابا الطيب المتنبى من تلامذتها . ثم ما لبثت "**جامعة الازهر**" التى انشئت عام ٣٥٩ هـ ، ان خطفت الاجواء من جامعة الفسطاط وتبوأت المكانة الرفيعة بفضل جهود علمائها ، واستمرار عطائها ، ووقوفها المدافع المستميت عن العقيدة الاسلامية ، واللغة العربية الى يومنا هذا .

ومن أقدم الجامعات الاسلامية واكثرها عراقة " **جامعة القرويين** " التى انشئت عام ٢٥٤هـ بمدينه فاس بالمغرب ، وهى بدورها تمثل ثغرا حصينا من ثغور الدفاع عن العقيدة الاسلامية واللغة العربية ، وقد استمرت تؤدى

رسالتها السامية منذ انشائها الى يومنا هذا . ومن اشهر الجامعات الاسلامية ، ايضا كانت " **الجامعة المستنصرية** " ببغداد وقد ظلت تؤدى رسالتها لعدة قرون ثم خفت صوتها لفترة غير قصيرة من الزمن ، الى أن عاد إليها نشاطها مرة أخرى قبل عقود قليلة من السنين ، هذا ولا تذكر بغداد الا ويذكر معها ايضا **المدرسة النظامية** التى كان الامام الغزالى أحد شيوخها .

وحين نتحدث عن جامعات العالم الإسلامى ، لا نستطيع ان ننسى فضل جامعات الأندلس ، " **وجامعة قرطبة** " على وجه الخصوص التى انشئت حوالى سنه ٣٠٠ هـ وسطع نورها فى سماء غرب اوربا ، وكان الدارسون الاوربيون على إختلاف مللهم ونحلهم يفدون إليها ويغترفون من فيض علومها ، وكانوا يتلقون علومهم باللغة العربية ، وكانت اللغة العربية هى لغة الطبقة الراقية فى غربى فرنسا وجنوبيها .

ان الحديث عن الجامعات الاسلامية ، موضوع واسع جليل الخطر مما لا يتسع هذا المجال المحدود لتناوله بافاضة وتفصيل .

وأما المواد التى كانت تدرس فى الجامعات الاسلامية فكانت جميعها علوما دينية ودنيوية ، وكان العلم الدينى هو الاساس لان روح العلم الدينى تحمل صاحبه الى العلم الدنيوى التطبيقى .

فاما العلوم الدينية فكانت القرآن الكريم وعلومه ، والحديث الشريف وعلومه : مصطلحا ورجالا ورواية وجرحا وتعديلا . والفقه ، وأصول الفقة ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الاسلامى .

وتلحق بالعلوم الدينية علوم اللغة العربية بمختلف فروعها لانها لغة القرآن ، ولذلك فانه لم يكد يمضى قرنان من الزمان على البعثة المحمدية ، حتى كانت اللغة العربية هى لغة الدين والعلم والعقل ابتداء من حدود الهند والصين شرقا ، حتى المحيط الاطلنطى على شواطى شمال افريقية وأسبانيا

غربا ، مرورا ببلاد ماوراء النهر وخراسان وفارس والعراق والشام ومصر .

وكان العلم ، علم المسلمين جميعا ، وليس العرب وحدهم بل ان اشهر علماء اللغة – على سبيل المثال – لم يكونوا من أصول عربية مثل سيبويه وأبى على الفارسى وابن جنى وابن خالويه وغيرهم ، ولكن الاسلام عربهم.

والعلم الدينى فيه ما قد سما منهجه على مناهج علماء الامم الاخرى واعتبر انجازا عقليا مستحدثا مثل علم مصطلح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل ، وعلم اصول الفقة .

أما المعارف والعلوم غير الدينية ، والتى يدفع الدين الى تعلمها ، فهى كل ما يخطر على بال العقل الواعى فى عصرنا الذى نعيش فيه . لقد تألق المسلمون فيها ، وغاصوا الى اعماقها واستحدثوا فيها نظريات جديدة ، وإضافات غير مسبوقة ، بل انهم إستحدثوا علوما جديدة لم تكن معروفة للاقدمين مثل علم الجبر ، والمماس فى حساب المثلثات ، وابتكار الصفر ، الذى قلب علم الحساب والرياضيات رأسا على عقب .

فى هذا المضمار الذى نتحدث فيه عن هويتنا الثقافية يجمل بنا ، أن نشير اشارات سريعة الى انجازات العلماء المسلمين فى العلوم التطبيقية ، وقد سبقت الاشارة الى ابتكار علم الجبر ، والمماس فى حساب المثلثات ، ويمكن ان نضيف الى ذلك تطبيق الجبر على الهندسة ، وحل المعادلات المكعبة .

وفى علم الفلك بزغ نجم الفلكيين المسلمين الذين انشأوا المراصد الكبرى مثل مراصد طوس وبغداد والقاهرة والاندلس ، وطوروا الات الرصد ، وصنعوا الإصطرلابات الكبيرة . ويجىء فى مقدمة علماء الفلك المسلمين ، محمد بن جابر البتانى ، الذى عاش النصف الثانى من القرن الثالث ، وتوفى فى أوائل القرن الرابع ٣١٧ هـ ، وهو فلكى مهندس يعترف له الفلكيون

الغربيون بالسبق والنبوغ ويسمونه Aibatenius ، وهو صاحب الزيج المعروف بزيج الصبائى المطبوع فى اجزاء ثلاثة وترجم الى اللاتينية وطبع فى نورمبرج سنه ١٥٣٧ م باسم Seienta Stellarum وقيل عنه انه اصح من زيج بطليموس . وكان البتانى يرصد الكواكب فى الرقة على الضفة الشرقية لنهر الفرات ، ولم يعرف فى الاسلام احد بلغ مبلغه فى ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها ، وهو اول من كشف السمت والنظير وحدد نقطتيهما فى السماء ، فانتقلت الكلمتان بصيغتيهما العربية الى الافرنج فالسمت عرفوها باسم Azimuth والنظير عرفوها باسم Nadir ، وقد قال الفلكي الفرنسى Lalande ان البتانى هو احد الفلكيين العشرين الائمة الذين ظهروا فى العالم .

واذا كنا قد قدمنا البتانى فى الحديث عن الفلكيين المسلمين ، فان ذلك لا يعنى انه مسبوق زمنا بعلماء أعلام أسهموا معه فى الفلك ، وسبقوه فى مضمار العلوم الرياضية ، ويجىء على رأس هؤلاء العلماء ، الرياضى الفلكي المؤرخ محمد بن موسى الخوارزمى المتوفى ٢٣٢ هـ ، وصاحب كتاب " الجبر والمقابلة " الذى ترجم الى اللاتينية ثم الى الانجليزية ونشر بهاتين اللغتين ، وله فى الفلك كتابى " الزيج " و " عمل الإصطرلاب " .

ومن علماء الفلك والهندسة ، موسى بن شاكر ، وابناؤه الثلاثة .أما موسى الاب ، فكان قاطع طريق ثم تحول بتشجيع من الخليفة المأمون ، الى واحد من كبار علماء الفلك ، وتوفى سنه ٢٠٠ هـ ، وأنجب ثلاثة أولاد ، هم محمد واحمد والحسن . وكان محمد اشهر الثلاثة وينسب اليهم كتاب حيل بنى موسى فى علم الميكانيكا ، وكانوا مثل أبيهم مقربين من الخليفة المأمون .

وفى هذا السياق ينبغى ذكر أبى الريحان البيرونى المتوفى سنه ٤٤٠ هـ ، عالم الموسوعى فى الرياضيات والفلك والنسب والتقاويم والبلدان والتاريخ

ومؤلفاته كثيرة العدد ، نفيسة المحتوى غزيرة العلم ، متنوعة الفنون ، تقع فهرستها فى ستين ورقة بخط صغير كانت مودعة بمكتبة مرو . ومن مؤلفاته فى الفلك كتاب " القانون المسعودى " وهو مطبوع وموضوعه النجوم والهيئة الجغرافية ، " وكتاب الارشاد " ، فى أحكام النجوم ، وكتاب " التفهيم لصناعة التنجيم " وكتاب " الاستيعاب فى صناعة الإصطرلاب " . ومن كتبه الاخرى النفيسة الشهيرة التى ترجمت الى الانجليزية " الأثار الباقية عن القرون الخالية " و" تاريخ الهند " و" تاريخ الامم الشرقيه " ، وله ايضا من الكتب النفيسة " الجماهر فى معرفة الجواهر " و " تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن " .

والبيرونى صاحب اكتشافات علمية مثل جاذبية الارض ، ومثل كروية الأرض ، وبعض المستشرقين يعدون البيرونى ، واحدا من أذكى خمسة رجال خلقهم الله .

ان هذا الذى أوردناه عن الرياضيات والفلك وعلمائهما مجرد نموذج مختصر ، واما علم الفلك اوعلم الرياضيات عند المسلمين ، فهو بحر واسع ، عميق القرار بعيد ما بين الشطآن والشىء نفسه يقال عن بقية العلوم من طب ، وصيدلة ، وعقاقير ، وفيزياء ، وميكانيكا ، وكيمياء ، وهندسة ، وعمارة ، ورحلات وجغرافيا .

وللمسلمين فى كل علم من هذه العلوم اضافات جليلة ، وابتكارات معترف بها ، وانجازات شهيرة . واما العلماء فمن الشهرة والتقدير بمكان ، فلا تكاد تذكر الفيزياء والميكانيكا حتى يذكر **الحسن بن الهيثم** ، ولا تكاد تذكر الكيمياء حتى يذكر **جابر بن حيان** ، ولا يذكر الطب الا ويذكر **الرازى** و**على بن العباس** ، و**ابن سينا** ، وأبو **القاسم** الزهراوى ، و**ابن زهر الأشبيلى** و**ابن النفيس** . ولا يكاد يذكر علم البلدان والرحلات والجغرافيا والاكتشافات حتى

يذكر **اليعقوبى** وكتابه " البلدان " و**ابن خرداذبه** وكتابه " المسالك والممالك " و**المسعودى** وكتابه " مروج الذهب ومعادن الجوهر " و**الاصطخرى** وكتابه " مسالك الممالك " ، و**ابن حوقل** وكتابه " المسالك والممالك " ، و**المقدسى** وكتابه " أحسن التقاسيم " و**ابو الريحان البيرونى** وكتابه " ما للهند من مقولة " و**ياقوت الرومى** وكتابه " البلدان " و**الإدريسى** وكتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الافاق " و**عبد اللطيف البغدادى** وكتابه " الافادة والاعتبار بما فى مصر من اثار " و**القزوينى** وكتاباه " اثار البلاد وأخبار العباد " و" عجائب المخلوقات "

ان الامر الجدير بالالتفات ان هؤلاء العلماء على اختلاف ميادين تخصصاتهم وتعدادها عند العالم الواحد كان منطلقهم جميعا العلم الاسلامى الذى يتوفرون عليه ، ويجيدونه ، ثم يلتفتون بعد ذلك الى سائر العلوم الأخرى من انسانية وعملية .

ادب الحوار :

الحوار هو الوسيلة المثلى لإقناع من تختلف معه فى الرأى ، والحوار فى ثقافتنا الاسلامية ليس صخبا ولا هذرا ، وانما هو الكلمة الطيبة ، والعبارة الحسنة ، المغلفة ببشاشة الوجه واطمئنان القسمات . ونحن المسلمين ، نلتمس حسن التوجيه فى الحوار ، من قول الله تعالى : " ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن " (العنكبوت ٤٦) .

فاذا كان الأمر الالهى يدفع بنا إلى مجادلة أهل الكتاب - وهم على غير ديننا - بالكلمة الطيبة ، والحوار الجميل ، فما أحرانا أن يكون الحوار بيننا ، مستمدا أسباب سماته واتزانه من قول الله عز وجل فى سورة العنكبوت .

ويتكرر التوجيه الالهى الى الحوار المهذب والجدال الهادئ فى قوله عز

وجل " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " (النحل ١٢٥) .

إن أمة سبيلها الحوار الهادئ ، والجدل الهادف ، العاقل ، المطرز بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنةِ ، لهى أمة مؤهلة للسيادة والسعادة ، ومرجوة لبناء مجتمع سعيد.

هكذا علمنا القرآن أدب الحوار وحسن المجادلة ، وهو ما طبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى مختلف المواقف ، وتعدد المسائل ، حتى حين كان يُستَفز صلى الله عليه وسلم بسؤال خرج عن نطاق أدب الحديث أو يستغضب بمقالة ندت عن الصواب . **ولنا المثل الأعلى فى ذلك من حوار رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الحبر زيد بن سعنة ، ذلك الحوار الجليل الذى انتهى بواحد من أعيان اليهود إلى دخول الاسلام من أوسع الأبواب.أو ذلك الحوار المبارك الذى جرى بين الرسول سلى الله عليه وسلم ، والشاب الذى جاء إليه طالبا الإذن بالزنا .**

لقد سار الخلفاء الراشدون والصحابة ، على النهج المحمدى فى الحوار ، فكان عمر قمة فى أدب الحوار ، وكان على بن أبى طالب ، اية من أيات البلاغة والاقناع إذا حاور . وسار على الدرب نفسه من بعدهم التابعون والأئمة والفقهاء ، وسائر العلماء ، بحيث أن أدب الحوار معْلمٌ اسلامى ومقصد محمدى .

إن حوارا جادا عذبا جرى بين الإمام أبى حنيفة ، والإمام محمد الباقر ، حين اتهم الباقر أبا حنيفة بادخال القياس فى الدين . قال الامام الباقر لأبى حنيفة : انت الذى حولت دين جدى وأحاديثه بالقياس ، فقال له الامام أبو حنيفة : معاذ الله ، فيقول الباقر : بل حولته ، وهنا يقول ابو حنيفة للباقر فى

أدب وتحبب : اجلس كما يحق لك حتى أجلس كما يحق لى فإن لك عندى حرمة كحرمة جدك صلى الله عليه وسلم فى حياته على صحابه ، فيجلس الباقر ويجلس أبو حنيفة بين يديه قائلا : إنى سائلك عن ثلاث كلمات فأجبنى ، الرجل أضعف أم المرأة ؟ فيقول الباقر : المرأة فيقول أبو حنيفة : كم سهما للمرأة ؟ فيقول الباقر : سهمان للرجل وللمرأة سهم ، فيقول أبو حنيفة : هذا قول جدك ولو حولت دين جدك لكان ينبغى فى القياس، أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان ، لأن المرأة أضعف من الرجل .

وينتقل أبو حنيفة إلى السؤال الثانى : الصلاة أفضل أم الصوم ؟ فيقول الباقر : الصلاة أفضل ، فيقول أبو حنيفة: هذا قول جدك ، ولو حولت قول جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولاتقضى الصوم .

ثم ينتقل أبو حنيفة إلى السؤال الثالث: البول أنجس أم النطفة ؟ فيقول الباقر : البول أنجس ، فيقول أبو حنيفة : لو كنت حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يغتسل من البول ويتوضأ من النطفة . ويمضى أبو حنيفة قائلا : ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس، وهنا يقوم الامام الجليل محمد الباقر فيعانق أبا حنيفة ويقبل وجهه.

هذا طراز من أدب الحوار عند أئمة المسلمين وعلمائهم ، وللإمام أبى حنيفة مواقف كثيرة من هذا النسق ، ومن أقوال الامام المشهورة ، وقد رأى بعض تلاميذه يناظرون بشئ من الحدة : كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير ، مخافة أن يزل صاحبنا ، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم ، ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر صاحبه ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه .

هذا الاتجاه ليس مقصورا على أبى حنيفة . وانما هو منصرف الى

جمهرة علماء المسلمين وأئمتهم فالامام الشافعي قد مارس حوارا مع هارون الرشيد، وكان متهما بالانحياز إلى العلويين وكانت عقوبة هذا الاتهام القتل ، ولكن الشافعي بكلامه الهادئ وحجته البالغة وحواره المهذب جعل الرشيد يتحول من آمر بالقتل والبطش إلى طالب علم وخاطب ود .

وللإمام الشافعي محاورات كثيرة في مواقف عديدة ، تؤكد أن ادب الحوار في الاسلام من علامات تميز المسلمين بسعة الصدر ورحابة الافق .

ندوات العلم والادب :

هذا ولا يفوتنا في هذا السياق ان نشير الى ندوات العلم والادب التي كانت دائمة الانعقاد في دور اعيان نيسابور ، او في قصور امراء ذلك الزمان ، مثل ندوة عضد الدولة في شيراز ، وابن العميد في الرى ، والصاحب بن عباد في أصفهان ، والوزير المهلبي في بغداد ، وعبيد الله العارض بن سعدان وزير صمصام الدولة بن بوية في بغداد ، وسيف الدولة الحمداني في حلب ، وكافور الاخشيدي في الفسطاط . وكان لكبار العلماء ، مجالس علم يحضرها الخاص والعام ، والكل يفيد منها ويستمتع ، فضلا عن استجابتهم لشعيرة طلب العلم . وقد قيدت ألوان المعرفة التي كانت تدرس في تلك المجالس ، وصارت كتبا نفيسة جليلة وزعت على المتعلمين وطالبي المعرفة مثل " مجالس ثعلب" ومثل " أمالي الشريف المرتضى" التي كانت دروسا يلقيها في قصره ببغداد ، ومثل دروس أبي العلاء المعري التي كان يلقيها في بيته في معرة النعمان بشمال سوريا .

لقد كان لعلماء المسلمين مجالس جمعت مسائلهم وقيدت دروسها في كتب ، ضاع أكثرها فضاع معها خير كثير ؛ وبقي أقلها فأمد طالبي المعرفة بزاد وفير من علوم الفقه والحديث والأدب والسير والنحو واللغة وغير ذلك ،

فمن هذه الكتب كتاب مجالس العلماء للزجاجي وهو مطبوع ومتاح ، سجل فيه مؤلفه مائة وستة وخمسين مجلسا ، تبدأ بمجلس عيسى بن عمر السقيفى مع أبى عمرو بن العلاء مرورا بمجلس سيبويه مع الكسائي وأصحابه ، ومجلس الأصمعى مع المفضل الضبى ، ومجلس حماد الرواية مع مروان بن ابى حفصة ومجلس أبى عبيدة مع أبى عثمان المازنى ، ومجلس أبى عمرو بن العلاء مع عمرو بن عبيد ، ومجلس أبى العباس ثعلب مع أبى العباس المبرد ، ومجلس الخليل بن أحمد مع سيبويه . وهكذا قد تتكرر المجالس بين عالمين بالذات مثل ثعلب والمبرد ، وقد تتكرر المجالس التى يكون طرفها الأول عالم بذاته الكسائى أو عمرو بن العلاء ويكون طرفها الثانى رجالا مختلفين.

إن هذا الطراز من كتب مجالس العلماء التى أشهرها كتاب الزجاجي أو كتب بهجة المجالس التي أشهرها كتاب ابن عبد البر ، تقدم هويتنا على مدى الأزمنة ، وثقافتنا فى مختلف أقطار المسلمين ، وتقف شاهد صدق على أن هذه الأمة هى السابقة : أدبا وعلما ، المتميزة حضارة ومعرفة ، الدائبة ثقافة وتحصيلا .

إن العلم بالنسبة لنا نحن المسلمين هو الفريضة الخامسة التى أسقطناها فسقطنا ، وهو الغذاء الذى ينعش أرواحنا وأبداننا فأخذنا بدلا عنه طعاما آخر فاسدا ، وهو الهواء الذى نتنفسه فيبعث فينا الانتعاش والحياة ، ولكننا عزفنا عن أنسامه وطرحنا عبيره جانبا .

ومهما كان الأمر فالعلم بكل فروعه وأركانه هو ثقافتنا وهويتنا ولا محيص لنا من أن نعود اليه لكى نحيي الشعيرة بل الفريضة التى تعيدنا إلى الجادة وتحملنا على المحجة .

بقى أن نلفت النظر إلى أن العلم لم يكن مهنة يمتهنها العالم إلا إذا عين فى

يشتغلون بالتجارة أو الصناعة أو البيع والشراء : فكان أبو حنيفة صاحب متجر ، حرير وكان الامام الماوردى يبيع ماء الورد ، وكان الكرابيسى يبيع الكرابيس وهى الأقمشة الخشنة ، وكان الطيلساني يبيع الطيالس ، وهكذا كان كل عالم ينسب إلى مهنته مثل الزجاج والثعالبي والبزاز والزعفراني والعنبرى والمنجم والجوهرى والعلاف والدهان والنيلى والخازن ، وهكذا لم يكن العلم وسيلة للكسب إلا فيما ندر ، وإنما كان فريضة تؤدى وشعيرة تمارس.

٦- العمل وتحريم البطالة

إذا كان العلم قد احتل فى الاسلام مساحة كبيرة من العناية والاهتمام إلى المدى الذى جعله فريضة من فرائض الدين ، فإن للعمل وإحسانه مكانة كبرى فى الإسلام ، ذلك ان الاسلام لايعرف البطالة ولايعترف بها . إنه اذا كان الاسلام يستهدف صلاح المجتمع وينشد سعادة الفرد والجماعة ، فقد صار أمرا طبيعيا أن يدعو إلى العمل ويحث المؤمنين عليه ، وفى ذلك يقول رب العزة :

** " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " (التوبة ١٠٥).

** ويقول فى اتقان العمل : "إنا لانضيع أجر من أحسن عملا "(الكهف ٣٠).

** ويقول سبحانه فى الحث على العمل والسعى إليه : " ياأيها الذين أمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون " (الجمعة ٩، ١٠) .

إن الإسلام لايعرف الكسل فى العمل أو التعطل عن السعى . فيوم الجمعة الذى اصطلح المسلمون على جعله يوم عطلة هو فى القرآن الكريم يوم

عمل إلا مدة صلاة الجمعة ، وهو ما تحض عليه آية سورة الجمعة السالف ذكرها .

** والرسول صلى الله عليه وسلم ، يستنكر البطالة والتعطل ، ويقبح التسول وسؤال الناس واقواله فى ذلك مشهورة ، وأحاديثه صلى الله عليه وسلم معروفة لجمهرة أبناء المسلمين فهو القائل : " والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرا من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه " (البخارى - باب الاستعفاف عن المسألة) .

** إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يولى السعى عناية كبرى ويحث على السعى إلى الرزق ولو بطريق الاحتطاب - لأنه عمل بغير راسمال - كما هو واضح فى الأحاديث السالفة ، ثم يشجع على السعى فى طلب الرزق وعدم الاعتماد على المسألة فيقول : " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده " .

يحكى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه هذا الخبر : أتى رجل من الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما فى بيتك شئ ؟ " قال : بلى حلس(١) نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه من الماء . قال : " ائتنى بهما " ، فأتاه بهما فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : " من يشترى هذين " فقال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال صلى الله عليه وسلم : " من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا ؟ " قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما اياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما الانصارى وقال : " اشتر بأحدهما

---

(١) الحلس كل مايوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرحْل ، ومايبسط فى البيت تحت حرّ الثياب والمتاع .

طعاما فانبذه الى أهلـك ، واشتر بـالآخر قدومـا فـأتنى بـه" فأتـاه بـه فشد فيـه رسول الله عودا بيده ثم قال : " اذهب فاحتطب وبع ولا أرينـك خمسـة عشـر يوما " فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا ، وببعضها طعاما ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " هذا خير لك من ان تجيء المسـألة نكتـة فـى وجهك يـوم القيامـة ، ان المسـألة لا تصلح الا لثلاثة : لذى فقر مدقـع ، او لـذى غـرم مفظـع ، او لـذى دم موجـع " ابو داود " كتاب الزكاة ، باب ماتجوز فيه المسألة حديث (٦٤) .

وطبقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون البطالة والمسألة لمـن هو قادر على العمل اثم يحاسب المرء عليـه يـوم القيامـة ويكـون ذا علامـة فاضحة فى وجهه تشير الى قعوده عن السعى فى طلب الرزق ، ويكون بذلـك عاصيا أمر الله عز وجل فى قوله تعالى : " هو الذى جعل لكم الارض ذلـولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور " سورة الملك الآية ١٥ .

إن البطالـة ومـا يستتبعها مـن المسـألة امـر يحرمـه الاسـلام تحريمـا صريحا ، طبقا لقول رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم : " مـا يـزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامـة ليس فـى وجهـه مزعـة لحـم " البخـارى – الزكاة – باب من سأل الناس تكثرا .

ان ثقافتنا نحن المسلمين وهويتنـا ان نطلب العلـم ، وان نمـارس العمـل والسعى فـى الحصـول علـى الـرزق ، ومـن ثـم فـالجهل مؤثـم فـى الاسـلام والبطالة محرمة فى الاسلام ولذلك فان اكثر علماء المسلمين ومشاهيرهم كان اصحاب صنائع طبقا لما اسـلفناه مـن قـول حيـن ذكرنـا مـن علمـاء المسلمين الزجاج والبزاز والطيالسى والكرابيسى والماوردى والزعفرانى وغـيرهم مـن علماء المسلمين . اما انتشار الجهل بين المسلمين فـى عصرنـا وشـيوع الفقـر والبطالة بين ظهرانيهم ، فلانهم انصرفوا عن ممارسـة منهـج اللـه فـى طلـب

العلم والسعى فى اكناف الارض طلبا للرزق ، وبذلك صاروا مسلمين بالميلاد فقط ، وهؤلاء القوم لا يحسبون على الاسلام فى قليل او كثير ، فقد ذهب جماعة من الصحابة يمتدحون رجلا عند رسول الله كان يقضى كل وقته فى ، التعبد فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : " ومن الذى يطعمه " ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : " كلكم أفضل منه "

٧-التمسك باللغة العربية الشريفة

اللغة العربية لغة شريفة لانها لغة القرآن كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة ، والقرآن كلام الله ومصدر أحكامه ، واللغة العربية لغة سيد البشر وخير خلق الله وصاحب الرسالة الخاتمة ، وهو أفصح الفصحاء . وهى اللغة التى حملت العلوم كلها ، العلوم الدينية والعلوم الدنيوية والتطبيقية ، وقد أشرنا الى ذلك بشيء من الايجاز فى حديثنا عن العلم ، وباللغة العربية قيل عذب الشعر وأجمله وأحكمه ، وبها كتبت أبلغ الرسائل وأرق المكاتبات .

لقد وسعت اللغة العربية جميع العلوم من فلسفة ومنطق ورياضة وفلك ، وحساب وجبر ، وطب وصيدلة ، وفيزياء وكيمياء ، وكانت لغة الحضارة العالمية لقرون عديدة متتالية ،فسما شأنها وذاع فضلها ، لانها كانت لغة الدين والدنيا ، واما ادبها من شعر بفنونه ونثر بفروعه فقد اشترك العالم الوسيط من حدود الصين شرقا الى ساحل الاطلسى غربا فى التغنى بها والابداع فى محيطها

واللغة العربية هى حاضنة تراث العالم القديم ، فهى خازنة حكمة الهند وحضارة الفرس وفلسفة اليونان ، قام على ترجمة هذه الحضارات مترجمون بعضهم فرس وأخرون سريان وغيرهم من العرب .

واكثر الترجمات كانت لكتب الفرس وكتب اليونان فمن الكتب الفارسية

التى ترجمت الى العربية ، هزار افسانه ، خرافة ونزهه ، عهد ارد شير فى التدبير ، توقيعات كسرى ، آيين نامة ، التاج فى سيرة انوشروان ، كتاب كليلة ودمنة وهو بدوره كان مترجما عن الهندية .

وكان اشهر المترجمين – وكان يطلق عليهم اصحان اللسانين – عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هارون ، والفضل بن سهل ، وموسى بن سيار ، وعمر بن الفرخان ، والكندى الفيلسوف .

واما العلوم اليونانية من طب وفلسفة ومنطق وسياسة فقد قام على ترجمتها الى العربية علماء سريان من نصيبين والرها ومن علماء نيسابور .

هكذا تجمعت علوم الدنيا فى الحظيرة الاسلامية مكتوبة بالعربية ، مهضومة فى عقول العلماء المسلمين ووجداناتهم ، ولقد توفر علماء المسلمين على العناية بهذه العلوم الكثيرة فحافظوا عليها وأضافوا اليها بعد أن ضاعت معالمها بلغاتها الاصلية من فارسية وهندية ويونانية .

والعجب العجاب ان اصحاب الحضارات التى اشرنا اليها حين ارادوا التعرف على تراثهم لم يجدوه إلا فى اللغة العربية ، فأعادوا ترجمته منها الى لغاتهم ، هكذا صنع الفرس فى علومهم ، ومن الطريف ان كليلة ودمنة مفقودة فى النص الفارسى ، فأعيدت ترجمتها من العربية الى الفارسية ، وهى ايضا مفقودة فى اصولها الهندية ، فأعيدت ترجمتها الى الهندية من العربية .

والشىء نفسه حدث مع الفلسفة التي نماها وأضاف اليها فلاسفة المسلمين ، وكان أشهرهم فى المشرق ابا نصر الفارابى الذى لقب بالمعلم الثانى بعد ارسطو ، وكان اشهرهم فى المغرب والاندلس ابا الوليد بن رشد الحفيد الذى شرح فلسفة ارسطو ثم اعيدت ترجمتها الى اللغات الاوربية ومن ثم أطلقوا على ابن رشد لقب الشارح الكبير

ان اللغة العربية الفصحى هى ثقافتنا ، وهى هويتنا . ولذلك فان مما

يسبب الخجل لاجيالنا جهلها بهذه اللغة العربية الشريفة وغربتها في وطنها ، ذلك ان لغة التدريس في الجامعات في الوطن العربي هي اللهجة العامية او اللغة الانجليزية . هذا ولاينبغي ان نغفل ذكر طائفة من اصحاب الاقلام ، نادوا يوما ما باستعمال اللهجة العامية في الكتابه ، وكان اكثر هؤلاء اما من الجاهلين باللغة العربية ، او الكارهين لها لرقة دينهم ، او من الحاقدين الاجانب الاعجام

ومن المفارقات اللطيفة ان احد الذين تحمسوا للعامية ونادوا باستعمالها في الكتابة والحديث رجل ذو شهرة كبيرة هو الاستاذ احمد لطفي السيد ، الذى انتهى به المطاف ليكون رئيسا لمجمع اللغة العربية الذى يحتضن الفصحى ولا يعترف بالعامية .

ان اللغة الفصحى هي ركن متين من اركان هويتنا ، وشعار كبير من شعارات ثقافتنا ، وانه لمما يعيب زماننا تدهور مستوى هذه اللغة في مدارس وطننا وجامعاته ، واضطراب مناهجها وسوء اختيار نماذجها وتعرى اكثر معلميها من معرفة ادنى قواعدها .

٨- مكانة المرأة في ثقافتنا ومجتمعنا

المرأة هي الام والابنة والاخت والزوجة والعمة والخالة ، من هذا المنطلق فان مكانتها في الاسلام أرفع منها في أية عقيدة أخرى او مجتمع آخر ، يجيء ذلك من منطلق مرتبة صلة الرحم في الاسلام مثلما يجيء من اصول العقيدة الاسلامية نفسها .

ان المرأة عادة تصير أما - الا في حالات قليلة - ولقد وضع الاسلام الأم في الدرجة الاولى والثانية والثالثة من الرعاية ، ثم يجيء ترتيب الاب في الدرجة الرابعة ، والمسلمون جميعهم يذكرون إجابة رسول الله صلى الله علية وسلم عن سؤال وجه اليه : من أحق الناس برعايتي يارسول الله ؟ فقال

الرسول صلى الله عليه وسلم : امك . قال : ثم من ؟ قال : امك . قال ثم من ؟ قال ابوك .

وموقع المراة فى القرآن الكريم هو نفسه موقع الرجل ، فالله سبحانه يخاطب عباده بقوله تعالى : " يأيها الناس " او " يا أيها المؤمنون "،والناس طبقا لما هو معروف هم خلق الله من البشر ، ذكورا كانوا او اناثا ، والله سبحانه لكى يدخل الطمأنينه الى قلب المراة المؤمنة فانه تعالى يذكرها فى آياته مثلما يذكر الرجل ، والآيات كثيرة فى هذا السياق ، وتلك بعض أمثلتها:

** " من عمل صالحا من ذكر او أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ويرزقون فيها بغير حساب " " سورة غافر ٤٠" .

** " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة " النحل ٩٧ .

** " ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة " النساء ١٢٤ .

** " انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى " آل عمران ١٩٥ .

ولمزيد من تكريم المرأة فى القرآن الكريم ، فان كثيراً من آيات الكتاب العزيز تذكر المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات تأكيدا على تكريم المراة في كتاب الله . وتلك بعض آيات تكريم المرأة مع الرجل فى الكتاب العزيز :

" ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة وأجرا كريما " الاحزاب ٣٥.

ثم تجمع الآيه التالية وهى ٣٦ من السورة نفسها بين الرجل والمرأة فى مقام طاعة الله ورسوله فى قوله عز وجل : " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ".

والمرأة والرجل المسلمان ، قسيمان فى الولاية المشتركة بينهما فى الأمر بالمعروف وفى بقية مسئوليات الإيمان ، وذلك فى قوله تعالى " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم " التوبة ٧١.

ويتبع المولى سبحانه وتعالى بشراه للفريقين من المؤمنين والمؤمنات بوعده لهم بالثواب العظيم فى جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ، وذلك فى الآية التالية للآية السابقة فى قوله جل وعز " وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله اكبر ، ذلك هو الفوز العظيم " التوبة ٧٢ .

وان الذى يتتبع آيات الكتاب العزيز سوف تكتحل عينه بعشرات الآيات فى تكريم المرأة خاصة والنساء عامة ، فى الجمع بينهن وبين الرجال فى الآية الواحدة ، مما يؤكد فوز المرأة بالتكريم فى كتاب الله .

اما وان كتاب الله هو كتاب الاسلام الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونحن بدورنا مسلمون بفضل الله وكرمه ، والإسلام هو هويتنا ومصدر ثقافتنا ، فالنتيجه ان المرأة فى الإسلام قد حازت من التكريم مالم تحزه فى ديانة اخرى او حضارة اخرى .

واذا كانت للمرأة قضايا ومشكلات عند الأمم الأخرى والعقائد الأخرى ، فان ليس فى الاسلام ثمت مشكلة للمرأة فى قليل او كثير .

وكان دور المراة فى الدعوة الاسلامية فى مراحلها الاولى عظيما ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " انما النساء شقائق الرجال " بمعنى ان للنساء ما للرجال وان عليهن ما على الرجال .

وليس امرا عجبا ان يكون اول من اسلم من البشر امرأة ولكنها امراة عظيمة ليس كمثلها امراة أخرى ، انها ام المؤمنين خديجة الكبرى التى شاركت رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما كابده من اضطهاد فى الدعوة الى الله ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بشروا خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب " . لقد شاركت خديجة رضى الله عنها ومعها نساء الصحابة الأولين فى أعباء الدعوة ، ومنهن من هاجرن إلى الحبشة حفاظا على عقيدتهن من الفتنة ، ولعل أشهرهن أم حبيبة بنت أبى سفيان التى صارت أم المؤمنين بعد عودتها وزواج رسول الله منها ، وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب .

فلما كانت مرحلة الهجرة وعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على تنفيذها ، كان بين أصحاب بيعة العقبة الثانية من أهل يثرب امرأتان شاركتا فى البيعة ، هما أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى وأم عمارة نسيبة بنت كعب الانصارية .

كانت أم عمارة ذات مشاركة فى مراحل الدعوة والغزوات منذ شهدت بيعة العقبة ، فشهدت غزوة أحد وعمرة القضية وحنينا ، وروت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت تخرج إلى القتال فتسقى الجرحى وتمارس القتال بساعدها ، وقد أبلت يوم أحد بلاء حسنا، وجرحت اثنى عشر جرحا بين طعنة رمح وضربة سيف ، وقد رؤيت يوم أحد تقاتل أشد القتال وأمها معها تعصب جراحها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدّث عن يوم أحد وذكرت أم عمارة يقول : " ما التفت يمينا ولا شمالا إلا رأيتها

تقاتل دونى " .

وظلت أم عمارة تدافع عن الاسلام بسيفها ، وحضرت يوم اليمامة مع جيش حرب الردة فقاتلت قتال الأبطال ، فجرحت وقطعت يدها فانصرفت عائدة إلى المدينة تداوى جراحها ، فكان الخليفة أبو بكر يعودها ويسأل عن حالها .

هذه هى المرأة فى الإسلام ، شاركت فى عظائم الأمور ، وحملت السيف فى نصرة دين الله حيثما احتاج الموقف إلى مناصرة تسافر المسافات وتقطع المفاوز .

وفى حديثنا عن المرأة فى ثقافتنا وهويتنا نذكر الخنساء الشاعرة الباكية قبل الاسلام ، المؤمنة المجاهدة الصابرة بعد إسلامها ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع إليها تنشد شعرا ويقول معجبا بشعرها : هيه يا خناس ويومى بيده .

ومثلما حضرت أم عمارة حرب اليمامة فإن الخنساء حضرت موقعة القادسية وقذفت أبناءها الأربعة إلى ساحة القتال وقد شحنتهم ببلاغتها قائلة : يا بنى أنتم اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم ابناء امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غبرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية . يقول الله عز وجل : " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون " فإذا أصبحتم غدا فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ولله على أعدائه مستنصرين .

لقد خاض الابناء الأربعة غمار المعركة يقاتلون وهم ينشدون الأراجيز ، ويتقدمون فى وجه جيوش الفرس حتى استشهدوا جميعا الواحد بعد الآخر .

فلما بلغ أمهم خبر استشهادهم **قالت فى إيمان وصبر : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .**

إن صحابيات رسول الله صلى الله عليه وسلم كن فارسات الحرب ، وراويات حديث رسول الله فى السلام ، وزوجات صالحات وأمهات عظيمات وعابدات مستغفرات ، وإن فى ذكر أخبارهن زهو ومتعة ، وفى الحديث عن جهادهن جلال وفخار .

إن المرأة المسلمة قادت الجيوش وتبوأت سدة الملك ، منهن الحرة الصليحية أروى بنت احمد الصليحى الملكة اليمنية الحازمة المدبرة التى كانت تلقب ببلقيس الصغرى ، لما أصيب زوجها السلطان المكرم الصليحى ، بالفالج ، فوض الأمور إليها فاتخذت لها حصنا منيعا وقامت بتدبير المملكة والحروب ، وكانت ترفع إليها الرقاع ويجتمع عندها الوزراء وتحكم من وراء حجاب ، وكان يدعى لها على منابر اليمن وامتد حكمها أكثر من اربعين سنة.

ثمت أخرى من النساء المسلمات اللائى ولين أمر السطة هى الملكة شجرة الدر وتاريخها معروف ودهاؤها ممتدح وهى واحدة من أبطال الحروب الصليبية .

والمرأة المسلمة تولت القضاء والفتيا ورواية حديث رسول الله حتى إن بعض الحافظات كن يلقين بالمسند لضبطهن حديث رسول الله حفظا ورواية مثلما كن استاذات لكثير من أعلام علماء الاسلام كالجلال السيوطى الذى عدد من شيخاته اكثر من عشر حافظات راويات .

لقد أعطى الاسلام المرأة المسلمة من الحقوق والمقومات ما لم تحظ به المرأة فى اى مجتمع غير اسلامى ، لقد منحها حرية اختيار الزوج ، وحافظ لها على ذمتها المالية مستقلة برغم زواجها ، ومنحها حق التعلم وحق الميراث والاحتفاظ باسمها واسم عائلتها بعد الزواج ،وذلك على عكس المرأة

الأوربية والأمريكية التى تفقد لقب عائلتها بعد زواجها وتحمل اسم زوجها ولقب أسرته .

تلك هى المرأة تحت ظل عقيدتنا ، هذى حياتها وحقوقها فى ثقافتنا الاسلامية وهويتنا العربية كريمة عزيزة عفيفة ذات خفر واحتشام .

٩- الشـــورى

الشورى هى نظـام الحكم فى الاسلام ، وهو ما ننادى به ونسعى إلى تطبيقه ، فإذا كانت الشعوب غير المسلمة تنادى بتطبيق الديمقراطية فى نظـام الحكم ، فنحن المسلمين – من منطلق عقيدتنا التى فرضت الشورى نظاما للحكم عندنا – ندعو إلى تطبيق الشورى فى الحكم التى تصور جانبا من هويتنا وقدرا من ثقافتنا .

إن الديمقراطية نظام برغم علمانيته، يدعو إلى العدالة فى الحكم ، ولكن نظام الشورى أسمى من النظام الديمقراطى ، ذلك أن الديمقراطية يمكن أن تجيز ما يصطدم مع الفضائل بإباحة الزنا بأنواعه من لواط وسحاق ، وتحل الربا وتبيح الميسر ، كما أن الديمقراطيـة قد توافق على الطعن فى العقائد السماوية ، والدعوة إلى إنكار الألوهية والرسالات ، ولكن الشورى لا تجيز شيئا من ذلك ، لأنها تطبق قانون السماء الذى نزله خالق البشر .

ونحن المسلمين حين نراجع وصف القرآن الكريم لنظـام الحكم فى مجتمعنا ، نقرأ قول الله عز وجل : " وأمرهم شورى بينهم " هكذا وصف الله مجتمعنا ، ومن ثم فتلك هويتنا السياسية وثقافتنا الحكومية . والله سبحانه أمر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بنظلم الشورى وذلك فى قوله عز وجل : " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر " .

ولقد أمر الله سبحانه عباده أن يكون الحكم شورى ، وترك لهم اختيار لون الشورى الذى يناسب الزمان والمكان والعصر والمجتمع . وإن كان

الشارع المسلم قد حدد شكلها العام فى مؤهلات رئيس الدولة من علم وعدل ورأى وشجاعة وسلامة العقل والأعضاء ، وكذلك مؤهلات من ينتخبوه التى أهمها العلم والعدل والرأى .

وقد نالت الشورى قدرا كبيرا من اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فيها عددا من أحاديثة الشريفة ، يحسنها ويحض على العمل بها ويرغب فيها ، فمن أقواله صلى الله عليه وسلم فى الشورى :

* " ما تشاور قوم إلا هداهم الله لأرشد أمورهم " .
* " الحزم فى مشاورة ذوى الرأى وطاعتهم " .
* "من نزل به أمر فشاور من هو دونه تواضعا منه عزم له على الرشد".

ولمبلغ اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشورى فإن عددا غير قليل من أحاديثه فى شأنها ، قد جرى مجرى الأمثال السائرة ، فمن هذه الأمثال السائرة قوله صلى الله عليه وسلم :

* " ما خاب من استخار ولا ندم من استشار " .
* " لن يهلك امرؤ بعد مشورة " .
* " المستشار مؤتمن " .
* " المستشار معان " .
* " المستشار بالخيار إن شاء قال وإن شاء أمسك " .
* " المشاورة حصن من الندامة، وأمن من الملامة " .

ولقد أكد حكماء الصحابة وبلغاء العرب وشعراؤهم على الشورى فى حياتهم واعتبروها مفتاح النجاح ومنطلق التوفيق بحيث صارت الأقوال فيها من نفيس تراثنا الذى نحفظه ، وجليل ثقافتنا التى نحافظ عليها .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : " شاور فى أمرك من يخاف الله عز وجل " . وقال أكثم بن صيفى : المشورة مادة الرأى . **وقال الحسن**

البصرى : إن الله لم يأمر نبيه بمشاورة أصحابه حاجة منه إلى رأيهم ، ولكنه أراد أن يعرفهم ما فى المشورة من بركة .

وقيل لرجل من بنى عبس : ما أكثر صوابكم ؟ !! قال : نحن ألف وفينا حازم واحد ، ونحن نشاوره ونطيعه ، فصرنا ألف حازم .

ومرّ حارثة بن زيد بالأحنف بن قيس فقال : لولا أنك عجلان لشاورتك فى بعض الأمر ، فقال الأحنف : يا حارثة ، كانوا لا يشاورون الجائع حتى يشبع ، والعطشان حتى ينقع ، والأسير حتى يطلق ، والمضلّ حتى يجد ، والراغب حتى يمنح . وقال يحيى البرمكى : لا تشيرن على عدوك وصديقك إلا بالنصيحة ، فالصديق يقضى بذلك حقه ، والعدو يهابك إذا رأى صواب رأيك .

ومثلما جرى حديث المشورة ذلولا دافئا ، على ألسنة الحكماء ، فإنه انبثق دافقا من ملكات الشعراء . فيقول الجاحظ إن أبلغ ماقيل فى المشورة من شعر ، هو قول بشاربن برد :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم

إن الاصمعى وقد سمع هذا القول من بشار قال له : يا أبا معاذ إن الناس يعجبون من أبياتك فى المشورة فيجيبه بشار قائلا : يا أبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشاركُ فى وزره . فيقول له الأصمعى : أنت والله فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك .

ولعل هذا التعليل الحكيم الذى قاله بشار للأصمعى مأخوذ من قول عمرو بن العاص : ما نزلت بى قط عظيمة فأبرمتها حتى أشاور عشرة من قريش مرتين ، فإن أصبت كان الحظ لى دونهم ، وإن أخطأت لم أرجع على نفسى بلائمة .

إن المشورة فى ديننا وثقافتنا وأدبنا وتراثنا تمثل صفحة وضاءة فى تاريخنا وكياننا ، ومن ثم فقد صاحبت الحكمة حتى الأميين من شيوخ القرى ورؤساء الأسر ، يصوغونها فى لغتها العربية السليمة فإن أعجزهم التعبير عنها قالوها بلهجة عامية ، الأمر الذى يؤكد أن المشورة جزء من تكويننا ، وشطر من بنية ثقافتنا .

١٠- مكارم الأخلاق

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، ونحن أمة مكارم الأخلاق نسعى إلى التحلى بها والانصراف عن الصغائر حتى نكون جديرين بكوننا أتباع رسول العزة ونبى الرحمة الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق .

ونحن بعد ذلك كله عبيد الله ذى الجلال ، وعباد الرحمن الرحيم الذى وصفهم الله فى كتابه العزيز فقال جل من قائل : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جنهم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقرا ومقاما * والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما * والذين لا يدعون مع الله إلها آخرا ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامه ويخلد فيه مهانا * إلاّ من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما * ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا * والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما * والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما * أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما

خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما " الفرقان ٦٣ - ٧٦ .

ونحن بعد ذلك أيضا فى ثقافتنا وهويتنا نتبع فى حياتنا قول الله عز وجل " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " " النحل ١٢٥ - ١٢٨ .

ونحن بسبيل الانتهاء من هذه المحاضرة فإننا لا نجد مناصا من أن نشير إلى بعض الانحرافات والعيوب فى مجتمعنا نذكرها فى سرعة وإيجاز وأهمها .

* الجهل بالدين مع ادعاء المعرفة به .

* إهمال تدريس الدين فى الجامعات وضعف تدريسه فى المدارس .

* كثرة المدارس التنصيرية وانتشار مدارس اللغات على حساب اللغة العربية .

* إهمال تدريس اللغة العربية وضعف مستوى معلميها وسوء مناهجها وكتبها المدرسية .

* تقصير الوالدين وبخاصه الأمهات في تربية أطفالهن وتفضيل العمل خارج البيت على المهمة المقدسة وهى تربية الأبناء .

* جهل خطيب الجمعة بأركان وظيفته المقدسة وأخطاؤه وهو يتلو آيات الكتاب العزيز وحديث رسول الله . هذا فضلا عن اضطراب معلوماته وتشوش فكره وإطالته الوقوف على المنبر .

تلك بعض العيوب التى ينبغى ذكرها حتى نعدّ العدة لتلافيها والاتجاه نحو الاصلاح والصواب .

المحاضرة الثالثة عشرة

مفاهيم خاطئة يجب تصحيحها

لأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

٧ مايو ١٩٩٦م

١٩ ذى الحجة ١٤١٦هـ

جانب من الحضور :

الاستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى يعلق على المحاضرة والى يمينه المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى فالمحاضره

الأستاذه الدكتورة / نعمات فؤاد

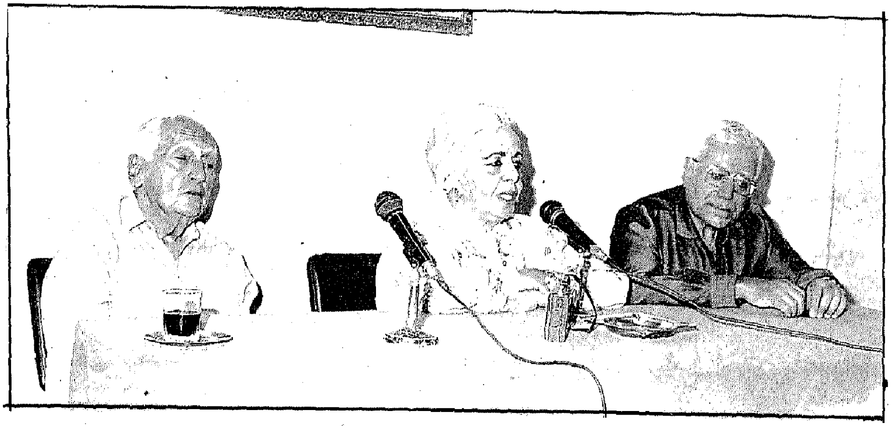

على المنصة : المحاضرة الاستاذة الدكتورة نعمات احمد فؤاد وعلى يمينها الاستاذ رشاد المراغي وعلى يسارها المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

يسر الجمعية الخيرية الاسلامية ، ان تختتم موسمها الثقافى لسنه ١٩٩٥ / ١٩٩٦ بمحاضرة الاستاذة الدكتورة / نعمات احمد فؤاد عن موضوع (مفاهيم خاطئة يتعين تصحيحها).

واستاذتنا المحاضرة قمة مصرية من ابرز أعلام عصرنا ، وهى من مواليد صعيد مصر محافظة المنيا . وتحكى عن صباها فتقول (ان من خير ما أعطانى أبى هو تحفيظى القرآن الكريم) .

وهى استاذه فلسفة الحضارة والمشرفة على الدراسات العليا بجامعة حلوان ، وترأس الجمعية العلمية للمحافظة على التراث والآثار التاريخية ، ورئيسه جمعيه دار المصطفى لرعاية الموهوبين ، واختيرت واحدة من عشرة أعضاء يشكلون المجلس الدائم لهيئة الفنون الاسلامية بلندن .

وللاستاذه الدكتورة / نعمات أحمد فؤاد نحو اربعين كتابا فى الادب والنقد والسياسة والدين والفن منها : كتاب دراسة فى أدب الرافعى ، وكتاب ناجى الشاعر ، وكتاب الى ابنتى ، وكتاب ابو القاسم الشابى / شعب وشاعر ، وكتاب قمم أدبية ، وكتاب شخصية مصر ، وكتاب خصائص الشعر الحديث ، وكتاب النيل فى الأدب المصرى ، وكتاب إعاده كتابة التاريخ ، وكتاب احمد رامى / قصة شاعر واغنية ، وكتاب مشروع هضبة الاهرام / أخطر اعتداء على مصر ، وكتاب مصر تدخل عصر النفايات ، وكتاب عن عبقرية الاسلام ، وكتاب قبة الإمام الحسين / قضية حكم . فهى عالمة موسوعية ، وقد شاركت فى العديد من المؤتمرات الدولية ، وأسهمت فى بحوثها وتوصياتها .

ولم تقف شهرة استاذتنا المحاضرة الدكتورة / نعمات احمد فؤاد بعطائها الفكرى المتميز فى مختلف قضايا الأدب والفن والتراث والسياسية القومية ، وانما كان لها جهاد ومواقف وطنية معروفة : سواء ما كان منها لحماية الآثار كمشروع هضبة الاهرام ، او ما كان لمنع دفن النفايات الذرية فى مصر ، أو ما كان لمنع المساس بمياه النيل . . . الى آخره من المواقف الوطنية العديدة ، والتى اضطرت بسببها ان تخوض معارك صحفية عنيفة ، ودعاوى قضائية قومية تداولتها المحاكم فى مصر والخارج ، وقد كسبت بعضها دفاعا عن حرمة مصر ومازال البعض منظورا دفاعا عن تراث مصر وآثارها .

ولمحاضرتنا كلمات مضيئة ، هى بمثابة معالم وشموع على الطريق :

- **من ذلك قولها** : الانسان الحق هو الذى له قيم ومواقف ، وهو انسان قدوة وصاحب رسالة ... وانه كلما ازداد علمه وتوسعت قدراته ، كلما كبرت قيمته وتعددت خدماته ، وبالتالى صدق عليه الحديث النبوى (أحب الناس الى

الله أنفعهم للناس) ؛ وصدق الله العظيم (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس) .

- **ومن ذلك قولها** : ان قراءة القرآن وحفظه هو فى ذاته حياة ، وقد اكرمنى أبى بتحفيظى القرآن الكريم . . . وان القراءة والكتابة هى بنص تعبيرها " الوجود النفيس " ، حتى لقد اقسم الله بالقلم لجلاله وقيمته .

- **ومن ذلك قولها** : اذا كان نيلنا العظيم قد روى أرض مصر ، فان سيناء الحبيبة قد روتها دماء المصريين . . . يقول المتصوفة : المحبه علم بالمحبوب ، وحب مصر الحقيقى ، علم بها وعمل لها دائب موصول .

- **وهى تردد دائما** ان الناس تصبر وتصبر وتصبر ، وتكدح وتكافح وتكابد ، طالما كان هناك بصيص من الأمل .

فأهلا بمحاضرتنا الاستاذة العالمة المكافحة ، صاحبة الرسالة والمواقف ، لتحدثنا عن مفاهيم خاطئه يجب تصحيحها ، وفقها الله وسدد خطاها وجزاها عن مصر خير الجزاء .

كلمة الأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

المسلمون المصريون والجزية

كتبت طويلا تحت عنوان أومن به :

(مصريون قبل الاديان،ومصريون بعد الاديان،ومصريون الى آخر الزمان).

تناولت الحقائق الغائبة وراء ظاهرة جديدة علينا هى الفتنة الطائفية ، ومن هذه الحقائق :

- الجذور الواحدة للمصريين من مسيحيين ومسلمين ، بعيدا عن الغزوات من أى لون .

- توثيق النسبة العددية .

- نفى الغبن الموهوم .

- موقف ، مصر الحضارة ، من الاديان .

بقيت نقطه هامة : الجزية

الجزية موضوع للحسم بما اكتنفه من غموض وابهام وأوهام بلغت حدا ربط فيه البعض بين الجزية ، وبين الاسلام فى مصر .

ومن هنا تتحتم المناقشة التى تجلو الشك ، وتصل الى يقين تسفر فيه الحقيقة ، فنلتقى جميعا عند تاريخ نسجناه معا ، وعشناه معا . . . تاريخ سافر فينا وسافرنا فيه ، فانتماؤنا اليه يعلو على التفرقة والتفتيت ، فتصفو النفوس من أدرانها ، وترشد على طريق الله والوطن خطاها .

مصر . . اعتنقت الاسلام عن ايمان به ، لا هربا من الجزية التى كانت دينارين لا غير فى السنه على رب الاسرة ، يعفى منها الشيوخ والمرضى والنساء والاطفال أى الذين لا يحملون السلاح ، والجزيه هنا تقابل الدفاع أى بدل عسكرى . بينما الاسلام يفرض الزكاة ، زكاة الفطر على كل فرد فى الأسرة حتى الطفل الذى يولد ليلة العيد ، هذا غير زكاة المال ، وزكاة الزرع والثمر . .

فالزكاة كفريضة واجبة الأداء ، عبء مادى أكبر كثيرا من الجزية التى هى فى الوقت نفسه مقابل حماية الثغور أى تشمل الإعفاء من الجندية التى يحتمها الاسلام للدفاع كما أشرت .

والدفاع فرض على الدولة والشعب معا لا أمان بدونه فيتحتم أن يُجند القادر عليه . . . أما غير القادر فيدفع البدل العسكرى وهذا متبع فى جميع الدول إسلامية ومسيحية . . . فالجندى المسيحى لا يدفع ولا يطلب منه البدل العسكرى . . حتى فى زمن الفتح فقد كانت الجزية تسقط بالتجنيد .

وفى سنة ١٩٧٣ كان رئيس الجيش الثالث مسيحيا ، فهل دفع القائد البطل بدلا عسكريا تحت أى اسم من الأسماء ؟ **لقد اختلطت دماتا على أرض المعركة لأنها معركتنا معا وأرضنا معا . . . ويوم داهم جنودنا ، العدو على الضفة الأخرى من القناة تدافعوا مكبرين مسلمين ومسيحيين فى صوت واحد : الله أكبر ، الله اكبر .**

آمنت مصر بالاسلام الذى يعلى قيمة " **المساواة** " وكأنها تنشد السماحة والعدل والهدوء بعد لفح الهجير . . بعد عنجهية الرومان .

اعتنقت مصر الاسلام لالتقائه معها فى مفاهيم كثيرة ، فقد اهتدت منذ ألوف السنين بالفطرة السليمة وبالدفع الحضارى معا الى عقيدة البعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار . بل اهتدت الى التوحيد وابتهلت وتبتلت وشكرت وتهجدت ونصبت الميزان وحرمت الخمر ، واعتبرت الخنزير نجسا ، وسنت الاغتسال للتطهر ، وأحيت الطيب والخضاب ، واحترمت الأسرة وقالت برعاية الأم وأكبرت الاب وأعلت مكان الزوجة .

آمنت مصر بالاسلام لبساطته فى وقت تصارعت فيه المذاهب المسيحية ، واشتد الجدل بينها خاصة بين القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين (ناسوت ولا هوت) .

بقيت نقطة أخرى هامة وهى أن المسيحية وقت الفتح العربى كانت متمركزة فى الاسكندرية والفيوم فقط .(١)

هذا موقف الاسلام من الأديان .. أما موقفه من الحضارات فموقف

---

(١) السبب أن الاسكندرية كانت عاصمة الرومان ، فركز المسيحيون المصريون المقاومة فيها .

أما الفيوم فكانت لبعدها ، مهربا لأولئك الذين ثقلت عليهم وطأة الرومان .

السماحة والتواضع والذكاء معا .. لم يحارب حضارة من الحضارات بل وقف منها متفهما يستقى ما يناسبه .. فعل هذا مع مصر فنمته ونماها .. وأعطته وأعطاها .. وفعل هذا مع فارس بل والصين .

لقد خرج هولاكو والتتار من صحراء فدمروا وألقوا بمكتبة بغداد فى النهر لتكون موطئا لخيولهم . . وخرج العرب من صحراء فعمروا فى الشرق والغرب لأن قلوبهم كانت عامرة بالمعانى التى أشباعها الإسلام ومنها روح البناء .. بناء الانسان وبناء المكان ... **لقد حالت روح الاسلام دون الهدم حتى فى الحروب فحرم هدم المنازل أو بيوت العبادة أو قتل النساء والشيوخ والاطفال .**

وليس معنى هذا أنه لم يحدث هدم فى دولة العرب ودولة الإسلام ، فالملوك كما يقول الجاحظ من شأنهم (أن يطمسوا آثار من قبلهم والعمل على إماتة ذكر أعدائهم فقد هدموا لهذا السبب المدن والحصون)

ولكن يبقى بعد هذا خمسة وعشرون مدينة بناها الاسلام فى تاريخ (دولته) و (حضارته) منها " بغداد " فى العراق ، و" اللد " فى فلسطين .

إن مصر يلتقى ابناؤها مسيحين ومسلمين ، فى العادات والآلام والآمال ، بل فى الشكل والثياب .وإن كان كرومر يعزو هذا فى خبث المستعمر ودهاء الخبيث ، الى تأثر الأقلية بالأغلبية على حد تعبيره هو ، مستمدا الشواهد من الهند بين المسلمين والهندوس .... ولا أدل على تعصبه هو ، من مهاجمته فى أكثر من موضع ، مواطنه ادوارد وليم ، لاعتداله فى كتابه عن المصريين المحدثين :

(The Manners and Customs of Modern Egyptians)

والأقباط الذين يتغلل بهم كرومر ، أدانه أحد أعلامهم وهو الأستاذ سلامه موسى فى كتابه (تربية سلامة موسى) قائلا (إنه كان طاغية عاش وعربد

فى كياننا الاقتصادى والسياسى وعطل بلادنا عن التطور ، وإنه كان جاهلا يتشدق بعبارات لاتينية أو إغريقية قديمة ولا يعرف شيئا من العلوم العصرية الجديدة) .

وقد فصل هذا بالأرقام والاحصاءات الاستاذ رشدى صالح فى كتابه (كرومر فى مصر) . ويبدو ان خلفه " جورست " لم يكن أقل سوءا منه ... فيروى الأستاذ سلامة موسى أنه إبان الانبعاث الوطنى فى الأمة المصرية عمد "جورست " الى (مناورة استعمارية هى إيجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والأقباط ، فكان الموظفون الانجليز يحرضون الأقباط من ناحية على المسلمين ، ثم يعودون فيحرضون المسلمين من ناحية أخرى على الأقباط) .

ولم يقصر " كتشنر " فى هذا المضمار .

إن الاستعمار ، هو الاستعمار تحت جميع الأسماء ، ما أشبه الليله بالبارحة.

إنه الاستعمار وراء الفتن ، فهو فى مصر يستهدف الوحدة الوطنية ، وهو فى الهند يعمق - عن عمد - الصراع الدينى بين المسلمين والهندوس ، كما يقول الدكتور جمال حمدان فى كتابه (العالم الاسلامى المعاصر) . مثلما عمق الخلاف بين سنية الشمال وشيعة الجنوب فى العراق ، بل حاول الاستعمار القول بشيعية ايران قبل إسلاميتها ، تدميرا للوحدة الدينيه بعد الوطنية .

إن مصر لم تعرف الفتن الأهلية الدموية كالتى وقعت فى انجلترا فى عهد تشارلس الاول وانتهت بقتله ، والتى وقعت فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر ولم تنته بقتله فقط بل إشتد ظمؤها للدماء فاستباحت الثورة عليه ،

والقتل حتى أتت على أصحابها أنفسهم . وما تخلل هذا كله من مآس فصلها الاستاذ عبد الله عنان في كتابه : (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) .

لم تعرف مصر الحروب التى دارت بين المدن اليونانية ، ولم تعرف مصر محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق ، وما وقع فى أسبانيا عقب خروج العرب من الاندلس .

ولم يحدث فى مصر ماحدث فى محاكمة الليدى جان جراى فى انجلترا ، التى كان الدافع القوى على إعدامها كونها بروتستينية ، فى حين كانت الملكة مارى التى حاكمتها كاثوليكية . أما التعلات الأخرى ، فمارى تعلم جيداً أن جان ذات السبعة عشر ربيعا لا يد لها فيها .

وقد لاحظ عبد الله النديم فى مجلة " الاستاذ " – الجزء الرابع من السنة الأولى – أن الحروب الصليبية أو الثورة العرابية لم تشب إحداهما ما بين المسلمين والأقباط من صفاء أو ترابط .

يقول الأستاذ العقاد : من الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسحيين سواء فى تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فى الأصالة والقدم عند الانتساب إلى هذه البلاد " .

ويقول الدكتور سليمان حزين فى بحثه عن سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسى إن " الطابع الجنسى العام للمصريين قد وحد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون " :

المسلمون منا والمسيحيون يعرفون أن الإسلام ينكر العصبيات ، ويؤكد هذا الأستاذ صبحى وحيدة وهو مصرى مسيحى فى كتابه : " أصول المسألة المصرية "

ويؤيد هذا الواقع الذى يقول إن عددا من رؤساء محاكم الاستئناف مسيحيون ، وليس منصبا أرفع من القاضى فى قدس حماه .

وإذا أردنا عودة إلى الأمس البعيد والقريب نجد أنه فى سنة ١٨٧٤ عندما شرعت نظارة الحقانية فى التحضير للمحاكم المختلطة ، انضم بطرس غالى باشا إلى محمد قدرى باشا فى ترجمة قوانين هذه المحاكم إلى اللغة العربية وتعريب التشريع الذى مازالت مصر تأخذ به إلى اليوم .

لقد أنشأ بطرس غالى باشا ، الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨١ ، فخطب فى حفل الافتتاح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله النديم .

وأقال الخديوى عباس ، الشيخ سليم البشرى من مشيخة الأزهر ، فخف اليه بطرس غالى باشا يعرض مساندته ويقف الى جانبه .

لقد مات بطرس باشا مقتولا برصاص ناصف الوردانى ، كما مات من بعده احمد ماهر باشا مقتولا برصاص محمود العيسوى ، والقاتل والقتيل فى الحالين كانا يعملان لمصر من وجهتى نظر مختلفين .

والذين يهولون من شأن عدم تعيين محافظ مسيحى ، ينسون أن المحافظ فى محافظته هو حاكم الاقليم نيابة عن رئيس الجمهورية الذى هو حاكم مصر ... والقياس طبيعى ... والحيثيات واحدة .

إن عددا وافرا من أساتذه الجامعات ، وعددا من رؤساء تحرير الصحف والمجلات ، وعددا من الاعلاميين ومديرى المصالح . . الخ مسيحيون وهذا أيضا لا غبار عليه ... **بل إننا على المستوى الفردى نجد كثيرين من المسلمين يتعاملون فيما يتعلق بحياتهم مع الطبيب المسيحى والمحامى المسيحى دون أى مفاضلة أو تمييز، وإن كان هذا لا ينفى وجود متعصبين فى الجانبين ، ولكن القاعدة العريضه سليمة . . . واعية .**

لقد كنا من قرون نتبادل قناديل المساجد والكنائس فى الاحتفالات الدينية فى الجانبين ، ونحن اليوم تجمعنا عادات واحدة وأعياد مشتركة مثل : وفاء

النيل وليلة النقطة ، وشم النسيم ، فكلها أعياد مصرية قديمة صاحبتنا مع الزمن وصاحبناها لأننا مصريون .

بقيت نقطة تطبيق الشريعة الاسلامية .

إن الأقباط يطبقون الشريعة الاسلامية من تلقاء أنفسهم وبمحض إختيارهم في المواريث ، لأن المسيحية ليس فيها تشريع . ولو كان فى المسيحية تشريع ، لاعترف به الاسلام وأقره لأنه يعترف بالأديان السماوية جميعا فى سماحة ونقاء . فما وجه الحساسية فى الشريعة الاسلامية وهى التى تسوى بين المسلمين وغيرهم فى الحقوق والواجبات فى عدالة رفيعة مرتفعة شماء ؟ ... وهل الشريعة الإسلامية دون القوانين الغربية الموجودة فى الساحة ؟ على أن بعض هذه القوانين استشرف الى الشريعة الإسلامية وقبس منها أقباسا مشهودة . وفى مقدمة هذه القوانين ، القانون الفرنسى ، الذى وقف عنده طويلا المشرع المصرى الحديث . فالدكتور عبد الحميد متولى رئيس قسم القانون العام بجامعة الاسكندرسة يقرر فى كتابه (الاسلام وموقف علماء المستشرقين) أن بعض رجال العلم من الفرنسيين رحل فى أوائل القرن الحادى عشر إلى الأندلس ونقل من مدارسها الإسلامية ما يلائم بلده فرنسا من الفقه الاسلامى .

والتشريعات الحديثة اليوم تأخذ من الفقه الاسلامى :

* نظرية الضرورة
* حماية الطرف الضعيف العقل

وهذا إقرار بانسانيات الإسلام . . فهل هناك مكان بعد هذا ، للتخوف من تطبيق الشريعة الاسلامية ؟ كغيرها من أجل مصر ، التى لا تنقصها الآلام .

إن التقوى الحقيقية عند مصر هى الحب . . حب الله وحب المعنى . . وحب الانسان . . وحب الحيوان . . وحب الأشياء .

التقوى الحقيقية عند مصر تتمثل فى : الفن حين جسمت عقائدها فى الروح والبعث والخلود ، أعمالا فنية شامخة .

وفى الفن المصرى تعانق الإسلام والمسيحية ، لأنهما معا ينبعان من الفن المصرى القديم . وفى مكتبة جوثا . كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق في كتابه الفن المصرى الاسلامى : " فى مدينة ميونخ رق يتضمن صفحة من القرآن بها زخارف بسيطة وأشرطة تفصل بين السور بعضها وبعض ، تتضمن زخاف هندسية متأثرة بالفن القبطى الى حد بعيد " .

وليس البردى وحده أو زخرفة الكتب ، بل إن التقاليد القبطية فى زخرفة الخشب استمرت سائدة بعد الفتح العربى . . . ويضم المتحف الإسلامي الكثير مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية .

بذا يشهد المسلمون . . وبروعة الزخرفة الإسلامية يشهد المسيحيون ، فالاستاذ بشر فارس فى كتابه القيم (سر الزخرفة الاسلامية) يقول (ما أحسبك تلقى ملة كبيرة تحضرت فأنست باللطيف والدقيق من العمران ، تسلم سكناتها لأسرار دينها وتوثق إشاراتها بأحكام مفروضة ، فوق ما أسلمت الملة الاسلامية وأوثقت) .

ومضى يفسر الزخرفة الاسلامية مستلهما روح الاسلام بما يشهد ، بتفوقه فيه ، كبار الفنانين الاقباط .

لقد استعان المسلمون بقبط مصر ، فاستعان بهم الوليد فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى وقصر المؤمنين . ويضيف " البلاذرى " فى (فتوح البلدان) مسجد المدينة فيما أعانوا عليه . وكأن الوليد يتوسم خطا أسلافه الذين استعانوا بأقباط مصر فى إعادة بناء الكعبة قبل الاسلام . . . وكأن مصر منذ بنى ابراهيم واسماعيل بن (هاجر) المصرية، الكعبة ، آلت على

نفسها أن يكون البناء على يديها ، فعادت الى بناء الكعبة أيام الظاهر ببيرس ، وفى العهد العثمانى وفى عهد محمد على .

إن اقباط مصر هم الذين بنوا أول محراب مجوف فى الاسلام على مثال من حنية الكنيسة ، كما تأثر بفن مصر المسيحية فى الزخرفة والبناء قصر المشتى فى شرق الاردن الذى يلمح الدير الأبيض والدير الأحمر بسوهاج . ومن عطاء مصر للفن الاسلامى بعد المحراب : المئذنة والقباب ، كما جاء فى كتاب " فن مصر خلال العصور " .

لقد نهض المصريون أقباطا ومسلمين فى العصر الفاطمى – وهو العصر الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية – بالفن الاسلامى المصرى نهضة فيها من إحساس مصر ووجدانها وذوقها الحضارى ، ما أضفى على فن مصر الاسلامية طابعا مميزا وشخصية فذة ، حتى أن يعض آثار مصر الاسلامية كمشهد الامام الشافعى يعد كما يقول الدكتور عبد العزيز "مرزوق " : منعدم النظير فى مصر بل وفى العالم الاسلامى أجمع " .

ومن هذا المستوى مدرسة السلطان حسن التى أشاد بها الرحالة من شرقيين وغربيين وفى مقدمتهم المقريزى .

لقد تعانق الإسلام والمسيحية حتى فى علوم اللغة والدين .

فعن (ورش) المصرى القبطى الذائع الشهرة ، بعد أن أسلم وانتشرت طريقته فى ترتيل القرآن وفى علم القراءات ، أخذ علماء المغرب عن تلميذه (أبى يعقوب) الأزرق بن عمر بن يسار المصرى .

ومن رجال مصر من الأقباط الذين أسهموا فى التأليف فى علوم العربية وآدابها : سعيد بن بطريق ، وبنو العسال ، وجرجس بن العميد المعروف بابن المَكين صاحب كتاب (تاريخ المسلمين) ، والمفضل بن أبى الفضائل

صاحب (نهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) . وبطرس أبو شاكر ويعرف بابن الراهب . وابن كبروهو شمس الرياسة أبو البركات وأسعد بن مماتى الشاعر الأديب صاحب الحظوة في الدولة الأيوبية .

رحم الله الشاعر ولى الدين يكن حين قال :

بنى المسيح وأحمد انتبهوا وادعوا رجالا منكم هجعوا
أرواحكم من بعضها قطع وجسومكم من بعضها بضع
لا تحسبن خلافكم ورعا إن ائتلافكم هو الورع

وفقنا الله وإياكم ، سبيل الرشاد .

خاتمـــــة

كلمة شكر وتقدير

لا يسعنى بمناسبة اصدار هذا الكتاب ، إلا أن أتوجه بالشكر الى الاخوة أعضاء اللجنه الثقافية بمجلس إدارة الجمعية الخيرية الاسلامية . وأخص بالذكر **استاذنا الوزير المهندس أحمد على كمال** ، صاحب فكرة تنشيط الجانب الثقافى بالجمعية ، والذى فى غيبتى حمّلنى مسئولية الاشراف على هذا النشاط .

وإذ أشكر **أصحاب الفضيلـه الأساتذه المحاضرين** ، لتكرمهم بالقاء المحاضرات بالجمعية وتشريفهم موسمها الثقافى ، على النحو الذى نرفعه اليهم فى صورة هذا الكتاب ، فانه لا يسعنى فى هذا المقام الا أن أخص بالشكر ثلاثة جنود لهم الفضل المستتر فى هذا الاصدار . أولهم **المستشار عبد الفتاح محمود حسن** مدير عام الجمعية ، الذى وفر للنشاط الثقافى كل أسباب النجاح ، وثانيهم **الاستاذ جمال الدين محمد سليمان** رئيس سكرتارية الجمعية الذى لم يدخر وسعا فى العون والمساعدة ، وثالثهم **الناشر الاستاذ فتحى الملا** عضو الجمعية والذى أخذ على عاتقه ، عبء إصدار الكتاب بسعر التكلفة ، فضلا عن مسئولية التدقيق ، والاخراج بالصورة التى نراها .

وجميعنا ، لا نبتغى بهذا العمل ، الا وجه الله وحده ، والفوز برضاه تعالى .

وتأمل الجمعية بهذا الجهد المتواضع ، ان تكون قد استجابت لرجاء **أستاذنا الدكتور عبد الصبور مرزوق** فى محاضرته ، بأن تستكمل الجمعيات والمنظمات غير الحكومية والعاملين فى ميدان الخير ، مهمتهم النبيلة فى التثقيف والتنوير .

ذلك ان أساس كل خير أو عمل ناجح ، هو الفكر والتخطيط ، بهدف تحسين الأوضاع ، والأخذ بيد الناس فى المجالين الاساسيين : **التوعية والمساعدة المادية** .

وفقنا الله جميعا للصواب والرشاد ، انه نعم المولى ونعم النصير لمن يعمل بصدق واخلاص . وصدق الله العظيم :

(**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**) ، وقوله تعالى :

(**ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**) .

المستشار الدكتور / محمد شوقى الفنجرى

فهرست

الموضـــــوع	الصفحة
• **تقديم الأستاذ المستشار محمد صادق الرشيدى** .... رئيس مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية	٣-٦
• **أولا : محاضرات الموسم الثقافى لعام ٩٤ / ١٩٩٥**	٧
• **الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى** .... دور الجمعية الخيرية الإسلامية فى بناء مصر وإقامة المجتمع الإسلامى	١١-٣٤
• **فضيلة الإمام الشيخ محمد الغزالى** .... الإسلام والثقافة العربية فى عالمنا الجديد	٣٧-٦١
• **الأستاذ الدكتور أحمد هيكل** .... نحو ثقافة بناءة	٦٥-٧٥
• **الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق** .... مفهوم الخيرية والدور المفقود لأمة الإسلام	٧٩-٩٨
• **الأستاذ الدكتور محمد عمارة** .... منهج الإمام محمد عبده فى تجديد الدنيا بتجديد الدين	١٠١-١٢٨
• **الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد** .... عوامل نهوضنا الاقتصادي بين تجارب الماضى وتطلعات المستقبل فى ضوء التوجه الإسلامى	١٣١-١٦٣

الموضـــــوع	الصفحة
• الأستاذ الدكتـــور أحمـد شلبـــى .... المرأة وماذا قدم الإسلام لها	١٦٧-١٩٠
• فضلية الشيخ الدكتـــور سيد طنطاوى .... حديث القرآن الكريم عن العلم والعلماء	١٩٣-٢١٢
• ثانيا : محاضرات الموسم الثقافى لعام ٩٥ /١٩٩٦	٢١٣
• الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومى .... الاستشـــراق والإسلام	٢١٧-٢٤٤
• الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد .... حاضر العالم الإسلامى ومستقبله	٢٤٧-٢٥٨
• الأستاذ الدكتـــور منصور محمد حسب النبى .... نماذج من الاعجاز العلمى للقرآن الكريم	٢٦١-٢٩٩
• الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة .... هويتنا من ثقافتنا الإسلامية	٣٠٣-٣٥٠
• الأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد .... مفاهيم خاطئة يجب تصحيحها	٣٥٣-٣٦٥
• الخاتمـــة وشكـــر وتقديـــر	٣٦٧-٣٦٨

الناشر: الشرق الاوسط للثقافة والاعلام
١٧ ش كمال العباسية - ت: ٨٣٨٧٥٢ - فاكس: ٤٠٢٧٧٢٥
ترقيم دولى I. S. B. N - 1 - 557400 - 977